الدُّكتور مُنذر الحايك

العلاقات الدّوليَّة
في
عصر الحُرُوب الصّليبيَّة

الجُزء الثّاني

العلاقات الآسيويّة الأورُوبيّة

تقديم : أ. د. سهَيل زَكّار

الأوائل

2006

قرؤوا فوصلوا
لنقرأ حتَّى نصل

الطَّبعة الأولى
آب 2006م

الإشراف الفنّي: يزن يعقوب
الإخراج الفنّي: فؤاد يعقوب
تصميم الغلاف: عبد القادر إدريس
التّدقيق والمُراجعة: إسماعيل الكُردي

الكتاب: العلاقات الدّوليّة
في عصر الحُرُوب الصّليبيّة
تأليف : د. مُنذر الحايك

النّاشر : الأوائل للنّشر والتّوزيع
سُوريّة . دمشق . الإدارة : ص . ب3397
هـاتـف :00963 11 44676270/1/2
فـاكس :00963 11 44676273/4/5
البريد الإلكتروني : alawael@scs-net.org
التّوزيع : دمشق ص . ب10181
هاتف: 009630110223013
البريد الإلكتروني: alawael@daralawael.com
جـوّال : 00963 93 418181
00963 93 411550
موقع الدّار على الإنترنت :
www.daralawael.com


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الجُزء الثَّاني

العلاقات الآسيويَّة الأُورُوبيَّة

التّتار وعلاقاتهم الدّوليّة:

الممالك المَسيحيَّة الشَّرْقيَّة: مملكة جُورجيا ـ بلاد النوبة ـ مملكة أرمينيا ـ الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة ـ فرنج الساحل الشَّامي ـ الحملات الأُورُوبيَّة على الشَّرْق.

الدُّول الأُورُوبيَّة: الدولة البابويَّة ـ الجمهوريات الإيطالية ـ الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسة ـ مملكة إنكلترا ـ النمسا ـ المجر ـ الفلمنك.

القسم الخامس

التَّتَار وعلاقاتهم الدّوليَّة

الفصل الأوَّل

العلاقات بين التَّتَار والدُّول المَسيحيَّة

المبحث الأوَّل:

التَّتَار في موَاجهة العالم الإسلامي

كان التَّتَار يعيشون في مناطق أواسط آسيا؛ حيثُ تمتدُّ مناطق واسعة من الأراضي السهبية والصحراوية، التي كانت ـ مُنْذُ أقدم العُصُور ـ منبعاً للهجرات، وتعيش فيها أقوام بدوية نصف مُتوحِّشة، ورغم تعدادها، فإن كلاً منها تكون وحدة قائمة بذاتها على أساس الجنس واللُّغة[1].

ومع التشابه الكبير في البيئة وأساليب الحياة والملامح بين التَّتَار والأتراك، فهم مُختلفون تماماً، وبينهم تفاوت شاسع[2].

وكان يُطلَق عليهم اسم التَّتَر نسبة لإحدى قبائلهم القويَّة، ثُمَّ أُطلق عليهم اسم المغول نسبة لقبيلة المونغكول. وقد اعتنق قسم كبير منهم المَسيحيَّة النسطوريةَ في مطلع القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد.

وظلَّت حياة التَّتَار قائمة على نهب القبائل لبعضها، حتَّى ظهر تيموجين المونغكولي، وحصل على لقب جنكيز خان ـ الأمير المُحيط ـ عام 592 هـ 1196م.

ثُمَّ خاض عدَّة حُرُوب، وانتصر على القبائل واحدة إثر أُخرى، ضامّاً كُلَّ مَنْ يقبل الخُضُوع له، ومُبيداً إبادة جماعية القبائلَ المُعادية. ثُمَّ جمع الكورلتاي ـ المجلس الوطني ـ وأعلن نفسه سُلطاناً على متغوليا، وأصبحت أوامره تُمثِّل الإرادة الإلهية، ولكنَّه دعمها بـ " الياسا "، وهي تضمُّ مجموعة أعراف وتقاليد التَّتَار[3].

---

1 - Gengis - Khan, Grenard, p. 8

2 - جامع التواريخ، تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، تعريب، مُحمَّد صادق نشأت، 2/ 1/ 212.

3 - حول الياسا أو اليسق راجعْ: العالم الإسلامي، بيرتولد شبولر، تعريب: خالد عيسى، 28، وخطط الآثار، المقريزي، 2/ 220.

لقد أعاد جنكيزُ خان تنظيمَ الجيش؛ بحيثُ تمكَّن عام 614 هـ 1217م، من إسقاط إمبراطُورية الصين الشمالية، قبل أن يتوجَّه نحو الغَرْب؛ ليصطدم بدولة خوارزم، التي كانت في ذروة قُوَّتها، فَسَحَقَ جنكيزُ خان جُيُوش هذه الدولة، بعد عدَّة معارك. ولم يكن هذا النصر الساحق بسبب تكتيك فُرسان التَّتَار، فالخوارزمية والأتراك يُجيدونه تماماً، بل بسبب أدوات القتال ذات الأصل الصيني، التي استخدمها التَّتَار[1]، إضافة إلى فُقدان التماسك القومي في جُيُوش الخَوَارزميَّة، وضمّ التَّتَار العناصر التُّركيَّة إلى جُيُوشهم طوعاً، أو كرهاً[2].

وبعد مقتل جلال الدِّين منكبرتي عام 628 هـ 1231م، انفتحت بلاد الشَّرْق الإسلامي ـ التي كان يُسيطر عليها الخَوَارزميَّة ـ أمام زحف التَّتَار" لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزم شاه مُحمَّد كان قد استولى على البلاد، وقتل مُلُوكها، وأفناهم، وبقي وحده سُلطان البلاد جميعها، فلمَّا انهزم منهم، لم يبقَ في البلاد مَنْ يمنعهم، ولا مَنْ يحميها"[3]، "فبهلاكه؛ تمكَّنت التَّتَر من العراق، والروم، والجزيرة، والتطرُّق للشام"[4].

ومع تدفُّق التَّتَار إلى أرض الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة عرف الناس أنَّه لا حُدُود للوحشية، فقد دمَّروا المُدُنَ والمَدَنية، وأزالوا حضارةً، جهد العَرَبُ المُسلمون قروناً طوال في بنائها.

وقد عبَّر المُوفَّق عبد اللطيف بن يُوسُف عن حديث التَّتَار مع المُسلمين؛ حيثُ قال: "هُو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ يُنسي التواريخ، ونازلة تُصغر كُلّ نازلة، وفادحة تُطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض"[5]. فكأن التَّتَار كانوا ينتقمون لجهلهم من العلم، ولتخلُّفهم من الحضارة، ولشظف عيشهم من الرفاهية.

---

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 413.

2 - راجعْ لبيرتولد شبولر: المغول في التاريخ، ترجمة : يُوسُف شلب الشَّام، والعالم الإسلامي في العصر المغولي، تعريب: خالد عيسى.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 361.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 323، ـ والروم: يُقصَد بها بلاد سلاجقة الرُّوم.

5 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 661 ـ 670/ 60.

وجعلوا أبلغ انتقامهم من حواضر الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة؛ حيثُ تهاوت أُمَّهات المُدُن تحت ضرباتهم. وتوَّج التَّتار وحشيَّتهم بما فعلوه في بغداد حين استولوا عليها عام 656 هـ 1258م، فقد حوَّلوا عاصمة الدُّنيا وحاضرة العلم إلى ركام مجبول بالدماء، يعلوه الدُّخان.

ظهر المغول بصُورة كائنات مُرعبة، أناس مجهولين قدموا من خلف سور يأجوج ومأجوج، وقد عرفوا كيف يُمثِّلون هذه الصُّورة المُرعبة بمهارة لزيادة فُرص نجاحهم، عن طريق التأثير النفسي. وإضافة للرُّعب الذي يثيرونه؛ كان هُناك انضباطهم المشهود، ومهارتهم الحَرْبيَّة، واستغلال الخلافات بين المِلَل والطوائف للتجسُّس، وقد جمعوا بين القسوة المُرعبة ضدَّ المعارضين وبين الوُعُود والضمانات للمُتحالفين والمستسلمين[1].

ولا أبلغ في خبرهم ممَّا ذكره ابن الأثير، فأثبت أنَّه ليس مُجرَّد مُدوِّن للأحداث، بل هُو مُؤرِّخ مُحلِّل، باحث عن الأسباب، يقول في حادثه التَّتار، ينعي الإسلام والمُسلمين:

"لقد بقيتُ عدَّة سنين مُعرضاً عن ذكْر هذه الحادثة استفظاعاً لها، كارهاً لذكْرها، فأنا أُقدِّم إليه رجلاً، وأُؤخِّر أُخرى، فَمَنْ الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمُسلمين . . فياليت أمِّي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل حُدُوثها، وكنتُ نسياً منسياً. ثُمَّ رأيتُ أن تَرْكَ ذلك لا يجدي نفعاً. . . لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعمَّ ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد الإسلام، فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ولم ينجُ إلاَّ الشريد النادر في أقلِّ من سنة.

هذا لم يُسمَع بمثله، فعلوا هذا في أسرع زمان، ولم يلبثوا إلاَّ بمقدار مسيرهم لا غير . . ملكوا أكثر المعمور من الأرض، وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة . . ولم يبقَ أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلاَّ وهُو خائف يتوقَّعهم".

ثُمَّ يُتابع ابن الأثير ليُبيِّن أن هُناك عدَّة أخطار تكتنف المُسلمين، يقول: "ولقد بُلي الإسلام والمُسلمون في هذه المُدَّة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأُمم، منها هؤلاء التَّتَر.. أقبلوا من المشرق .. ومنها خُرُوج الفرنج من المغرب .. وأشرفت ديار مصر والشَّام وغيرها أن يملكوها.. ومنها أن الذي

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 255.

سلم من هاتَيْن الطائفتَيْن، فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق.. وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون"[1].

ولَمَّا تزايد خطر التَّتار، ومُلُوك الإسلام في حالة مزرية، طلب ابن الأثير النصر من الله؛ لأنَّه لا فائدة تُرجَى من المُلُوك، يقول: "عظم شأن التَّتَر، واشتدَّ خوف الناس منهم، والله ـ تعالى ـ ينصر الإسلام والمُسلمين نصراً من عنده، فما ترى في مُلُوك الإسلام مَنْ له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدِّين، بل كُلّ منهم مُقبل على لهوه، ولعبه، وظُلم رعيَّته، وهذا أخوف عندي من العدوِّ"[2].

ونظراً للشدَّة الشديدة التي عصفت بالمُسلمين نجد أن ابن الأثير يخرج عن قاعدة مُؤرِّخي عصره بمدح المُلُوك، أو تجنُّب الإساءة إليهم على الأقلّ، فيصفهم بما فيهم، دُون أن يستثني منهم أحداً، يقول: "يسَّر الله للمُسلمين والإسلام مَنْ يحفظهم، ويحوطهم، فلقد وقعوا من العدوِّ إلى عظيم، ومن المُلُوك المُسلمين إلى مَنْ لا تتعدَّى همَّته بطنه وفرجه، ولم ينلْ المُسلمين أذى وشدَّة، مُذْ جاء النبي(ص) إلى هذا الوقت، مثل ما دفعوا إليه الآن"[3].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 358.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 497.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 376.

المبحث الثّاني:

التتّار والدِّين المسيحي

كانت الديانة الرَّسميَّة للمغول هي الشامانية، لكنَّ التجمُّع التّتاري المغولي الذي أقامه جنكيز خان كان يضمُّ عدداً كبيراً من المسيحيين، هُم ثمرة البعثات التبشيرية النسطورية، التي توجَّهت في وقت مُبكِّر من غربي العراق والجزيرة الشَّاميَّة إلى أواسط آسيا[1]. حتَّى إن قبيلتَيْن من أكبر قبائل التجمُّع هما النايمان والكرائيت كانتا قد اعتنقتا المَسيحيَّة قبل جنكيز خان بوقت طويل. وهذا سبب ما شاع في أُورُبا عن وُجُود دولة مسيحيَّة كُبْرَى في أقصى الشَّرْق، وانتشرت الأقاويل عن قُوَّة وعظمة ملكهم يُوحنَّا، وما هُو إلاَّ آخر خانات الكرائيت، الذي قتله جنكيز خان[2].

وبعدما وحَّد جنكيزُ خان القبائلَ طلب من صديقه أونك خان ملك الكرائيت، وهم من الأقوام التّتارية المُتنصِّرة، أن يُزوِّج ابنتَيْه إلى ابنَيْه، فكانت سيورقوقيتي بيكي لابنه تولوي[3]، وعندما تُوفِّي تولوي خان أخو أوكتاي خان قاآن التّتار الأعظم، وأحبّهم إليه، طلب قاآن إلى زوجته سيورقوقيتي بيكي، تدبيرَ أمر عسكره، وكان لها أربعة بنين ثالثهم هُولاكُو، "فأحسنتْ تربية الأولاد، وضبط الأصحاب، وكانت لبيبة مُؤمنة تدين بدين النصرانية، تعظم محلَّ المطارنة والرُّهبان، وتقتبس صلواتهم وبركتهم"[4]، فمع أن هُولاكُو لم يدنْ بالنصرانية، فقد تلقَّى تربية نصرانية من أمِّه المُؤمنة المتديِّنة.

وعندما تُوفِّي أوكتاي قاآن، وتولَّى ابنه كيوك خان كان معه أمير كبير اسمه قداق يتولَّى تدبير دولته "وكان مُعمَّداً مُؤمناً بالمسيح"، وكان معه أمير آخر اسمه جينقاي، "فهذان أحسنا النظر إلى النصارى، وَحَسَّنَا يقين كيوك خان ووالدته وأهل بيته بالمطارنة والأساقفة والرهابية، فصارت الدولة مسيحيَّة، وارتفع شأن الطوائف المنتمية إلى هذا المذهب"[5]. فالدولة التّتارية كانت ـ مُنْذُ بداياتها ـ

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، 125.

2 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 178.

3 - جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت،20.

4 - تاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 434.

5 - تاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري،450.

واقعة تحت تأثير التبشير المسيحي النسطوري، الذي نجح في ضمِّ عدد كبير من الأُمراء ونساء البيت المالك إلى حظيرة المَسيحيَّة، ومع أن أحداً من الخانات لم يعلن تنصُّره، فإنَّهم كانوا يتقبَّلون الأفكار المَسيحيَّة، ويُميِّزون أتباعها من رعاياهم. وممَّا جعل أمر المَسيحيَّة يتعاظم أكثر في البيت المالك زواج تولوي خان من دوقوز خاتون، وهي ـ أيضاً ـ من قبيلة الكرائيت المَسيحيَّة، وبعد موت تولوي خان آلت دوقوز إلى هُولاكُو[1]، فكانت الزوجة المُفضَّلة لديه على نسائه الأخريات، وتمتَّعت بمنزلة كبيرة في الدولة، وعند هُولاكُو، فقد كانت قويَّة الشخصية، تعرف كيف تُنفِّذ ما تُريده. "وعملت على مُؤازرة المسيحيين، وفي عهدها؛ قوي حال تلك الطائفة، وكان هُولاكُو خان يرعاهم، ويعزُّهم إرضاء لها"[2]. ولم تكن دوقوز ـ وحدها ـ من نساء هُولاكُو التي تدين بالمسيحية، فقد كان "نساء هُولاكُو البارزات مسيحيات نسطوريات"[3].

علاقة التَّتار بالمسيحيين في الشَّام:

وكُلُّ ما سبق يُفسِّر ما حدث في البلاد الإسلاميَّة بعد استيلاء التَّتار عليها مُباشرة، وخاصَّة؛ في العراق والجزيرة الشَّاميَّة؛ إذْ توقَّع النساطرةُ الحُصُولَ على مغانم كبيرة في ظلِّ دولة هُولاكُو؛ حيثُ كانوا يعرفون أن قسماً كبيراً من جيشه وحاشيته وزوجاته يُشاركونهم في المعتقد الدِّيني، ويتعاطفون معهم، إضافة إلى أن هُولاكُو نفسه ـ بالرّغم من عدم إيمانه بديانتهم ـ كان يُشارك ـ غالباً ـ في حُضُور القداديس والاحتفال بالأعياد المَسيحيَّة، حتَّى إنَّه سمح ببناء كَنيسَة في البلاط الملكي، وأوقف الأوقاف للكنائس المَسيحيَّة، كما اتَّضح تفضيله للمسيحيين على المُسلمين في المُعاملة. "وحتَّى أبناء الطوائف المَسيحيَّة الأُخرى؛ وهي: السريان، أو اليعاقبة، والأرمن، وإلى حَدٍّ ما، الأرثوذكس، فقد شعروا بتعاطف هُولاكُو معهم. وأصبح المسيحيُّون في سُورية وفلسطين وآسيا الصُّغْرَى ينتظرون قُدُوم هُولاكُو بفارغ الصبر، وأسهموا بالسُّقُوط السريع لكثير من المعاقل في شمال بلاد الرافدين"[4].

---

1 - وذلك على عادة التَّتار وُفق قوانين الياسا، التي تقضي بوراثة الابن الأكبر لكُلِّ نساء أبيه ـ ما عدا أمّه ـ فيتزوَّجهن، أو يطرد، أو يهب، مَنْ شاء منهنَّ.

2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 220.

3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 413.

4 - العالم الإسلامي في العصر المغولي، شبولر، ترجمة: خالد عيسى، 75 ـ 58.

كما أن بعض المسيحيين ـ خاصّة أرمن كيليكيا وفرنجة أنطاكية المرتبطين معهم، وبعض مسيحيّي الشّام ـ اعتبروا أنفسهم أدلاّء للتّتار؛ للحُصُول على بعض المكاسب، ناسين أن التّتار يتصرّفون كأعداء لكُلّ حضارة، وأنّهم يهدمون عالماً فيه المُسلمون والمسيحيُّون يُمثّلون فرعَيْن لحضارة واحدة[1].

كان السُّكّان المُسلمون ـ عند مداهمة التّتار لبلدهم ـ يحتمون بالكنائس، لاعتقادهم الراسخ بتعامل أصحابها مع التّتار[2]. أمّا في دمشق؛ فقد شمخ النصارى بعد دُخُول التّتار إليها عام 658 هـ ـ 1260م، "ورفعوا الصليب بها جهاراً، وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت، وصاحوا: ظهر الدِّين الصحيح"[3]. وتردَّد القائد إيل سبان وغيره من كبارهم إلى الكنائس، "وأحضر عدد من نصارى دمشق فرماناً من هُولاكُو للاعتناء والتوصية بهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما[4]، وصُلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتّضاع دين الإسلام، ويرشُّون الخمر على الناس، وبأبواب المساجد"[5]. وعندما صعد المُسلمون مع قُضاتهم وشهودهم إلى قلعة دمشق في اليوم التالي للشكوى إلى إيل سبان، "فأهانوهم، ورفعوا قسِّيس النصارى عليهم، وأخرجوهم من القلعة بالضرب والإهانة"[6]. ولابُدَّ أن هذه الصُّورة قد تكرَّرت في العديد من مُدُن الشّام، وأدّت إلى إضعاف التعايش الإسلامي المسيحي، الذي مضى عليه قرون عديدة، وغرست أحقاداً لم تكن موجُودة بينهما. ورُبّما كانت النتائج المُستقبلية البعيدة، للعلاقات بين هذه الجماعات البشرية المحلِّيَّة والمُسلمين، قد انبعثت من هُنا، فلم يتمكّن المُسلمين من الغفران لأولئك الذين عملوا مع التّتار، وهدَّدوا الإسلام والحضارة بالزوال، فكان العزم المُطلق لطرد الفرنجة من مُستعمراتهم السّاحليّة، والقضاء المُبرَم على دولة أرمينية الصُّغرَى، ونظرة الشكّ إلى النصارى المحلِّيِّيْن، الذين انحطّ شأنهم، مُنْذُ ذلك الوقت[7].

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 256.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 564.

3 - دُول الإسلام الشريفة، القدسي، 29.

4 - أحد أبواب دمشق، ويقع في منطقة ـ حتّى الآن ـ مُعظم سُكّانها من النصارى. راجعْ: مُعجم دمشق التاريخي، قتيبة الشهابي، مادَّة: باب توما.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 20/ 412.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 20/ 413.

7 - تاريخ العَرَب والشعوب الإسلاميَّة، كلود كاهن، ترجمة: بدر الدِّين القاسم، 263.

المبحث الثَّالث:

العلاقات بين التتَّار ومملكة الأرمن

لَّما بدأ التَّتار بغزو أراضي الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وانتشرت أخبار قُوَّتهم واستيلاؤهم على المُدن والحُصُون، يُرافقها شائعات عن تنصُّرهم، أو على الأقلّ، دعمهم واهتمامهم بالنصارى، اهتمّ الأرمن بهذا القادم القوي الرافع لشأن النصارى، فعمل هيثوم الأوَّل[1] جاهداً للاتِّصال بالتَّتار، وقد تحقَّق ذلك من خلال عدَّة زيارات لهم، كانت أهمّ نتائجها تكريس تبعية دولة الأرمن إلى إمبراطُورية التَّتار، والتي ستُفرَض على خُلفاء الملك هيثوم حتَّى نهاية الدولة[2].

كان هيثوم الأوَّل ملك أرمنية يعاني من ضغط مملكة حلب الأيُّوبيَّة من جهة ومملكة سلاجقة الرُّوم من جهة أُخرى، ولا يحميه من هجمات الدولتَيْن إلاَّ متانة حُصُونه ووُعُورة بلاده، ومع ذلك كان يفقد من هذه الحُصُون باستمرار، فكان التَّتار ـ بالنِّسبَة إليه ـ مُنقذاً وحليفاً مُناسباً جدَّاً ضدَّ جيرانه المُسلمين.

أرسل هيثومُ أخاه سمباد إلى عاصمة التَّتار قراقوم لمُقابلة كيوك الخان الأكبر، وعاد من عنده بمرسوم يقضي بحماية أرمينية، ودعمها لاسترداد حُصُونها، التي احتلَّها المُسلمون. ولم يكتف هيثوم بذلك، بل ورغبة منه في تقوية تحالفه مع التَّتار، وللضغينة الشديدة التي يُكنُّها للمُسلمين، قام هيثوم بنفسه بزيارة قراقوم، وقابل الخان منكو قاآن عام **651** هـ **1253**م، فقد "غادر هيثومُ كيليكيةَ، مُتوجِّهاً إلى الشَّرق لزيارة شعَب الرُّماة، والمثول في حضرة الخان منكو، الذي استقبله بحفاوة وابتهاج، واستجاب لكُلِّ شيء طلبه"[3]. وتمَّت رحلة هيثوم إلى قراقوم عن طريق القوقاز؛ حيثُ التقى هُناك الحاكمَ التَّتاري باتو، الذي أمدَّه بعدد من الحُرَّاس، رافقوه إلى العاصمة قراقوم.

---

1 - هيثوم الأوَّل: (623 هـ ـ1229م ـ 667 هـ 1269م)، ملك دولة أرمينيا الصُّغرَى (594 هـ 1198م ـ 776 هـ 1374م)، التي أقامها الأرمن في كيليكيا بعد ضعف القوى الإسلاميَّة هُناك.

2 - للتوسُّع حول علاقات الملك هيثوم بالتتار؛ راجعْ :

The kingdom of Cicilian Armenia, Nersessian, p. 656

3 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 25 3.

وأثناء المُفاوضات مع منكو قاآن ذكَّره هيثوم بالاتِّفاق المُسبق مع الخان كيوك القاضي بشنِّ هُجُوم مُشترَك ضدَّ المُسلمين، وبالفعل؛ فقد حصل هيثوم على توصيات الخان بتقديم العون للمسيحيين، وبوعد لتجريد الجُيُوش ضدَّ المُسلمين، ويعتقد البعض أن حملة هُولاكُو على العراق كانت من نتائج هذا الوعد[1]. وقد أيقظت هذه المُعاهدةُ أطماعَ هيثوم للسيطرة على الشَّام، وضمّ الأراضي المُقدَّسة إلى دولة مسيحيَّة يحكمها، لذلك حاول إقناع الفرنجة بالانضمام إلى حلفه مع التَّتار، فلم يحظَ بالمُوافقة إلاَّ من صهره بُوهمند السَّادس أمير أنطاكية[2]. وبعد فتح بغداد؛ توجَّه هُولاكُو نحو الجزيرة الشَّاميَّة وحلب، أرسل عام **659 هـ 1261**م، إلى هيثوم يستقدمه، فوصل إليه مع جيشه، فاستقبله هُولاكُو بحفاوة[3]، وشارك هيثومُ وجيشُ الأرمن هُولاكُو في فظائعه عند فتح حلب وبقيَّة بُلدان شمال الشَّام والجزيرة. وعندما أراد قائد جيش التَّتار في الشَّام كتبغا نوين حشدَ قُوَّاته للهُجُوم على مصر، طلب من هيثوم الالتحاق به، فجاء على رأس خمسمائة رجل، شاركوا في معركة عَيْن جالُوت[4].

وبشكل عامٍّ؛ نُلاحظ أنَّه لم تتحقَّق أيُّ فائدة لمملكة أرمينية من جراء تهالك هيثوم على التحالف مع التَّتار، بل ـ رُبَّما ـ كان الأمر معكوساً، فقد كانت الفائدة كاملة للتَّتار من التحاق قُوَّات الأرمن بجُيُوشهم كُلَّما طلبوها، أمَّا حماية مملكة الأرمن، ففي ظل الفوضى السِّياسيَّة والعسكريَّة للاجتياح التَّتاري للبلاد، فلم يكن هُناك أي خطر مُحتمل عليها، اللهم إلاَّ خطر التَّتار أنفسهم، وكان من المُمكن اتِّقاؤه بأقلَّ من ذلك الاندفاع نحوهم، والإخلاص في خدمتهم والقتال أمامهم كما فعل الأرمن. أمَّا النتائج البعيدة لهذا التحالف؛ فستكون مُدمِّرة بالنِّسبة لمملكة أرمينيا، فقد أدرك سلاطين المماليك الذين خلفوا سلاطين آل أيُّوب مدى خطر هذه الدولة الأرمنية على بلادهم، فجعلوها دأبهم، حتَّى أزالوها من الوُجُود.

---

1 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 180.

2 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين، 314، وتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 507 ـ 523 ـ 526، والمغول في التاريخ، فُؤاد الصياد، 293، و الدولة الإسلاميَّة قبل الغزو المغولي، حافظ أحمد حمدي، 148، و The Mongol Word Empire, Boil, p. 175

3 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 331.

4 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 332، ـ ومن المُلاحظ هُنا أن سمباط قد أغفل ـ كُلِّيَّة ـ مصير النجدة الأرمنية والملك هيثوم بعد هزيمة التَّتار في عَيْن جالُوت.

المبحث الرّابع:

العلاقات بين التتّار وفرنج الساحل الشّامي

في أيّام الاضطراب وانحلال الدولة التي سبقت هُجُوم التّتار على بلاد الشّام، والتي عُرِفَتْ شعبياً بالجفلة، استغلّ الفرنج أوضاعَ المُسلمين الصعبة، وأخذوا يقطعون الطريق عليهم، ويتخطّفونهم[1]، وبعد دُخُول التّتار إلى بلاد الشّام؛ كان لابُدّ من قيام علاقات ـ بشكل ما ـ بينهم وبين الفرنج الموجُودين على الساحل الشّامي، ولكنّنا نُلاحظ أن هذه العلاقات ذات شقّيْن:

ـ الأوّل: الصدام العسكري بين الطرفَيْن، وإنْ كان محدوداً جدّاً.

ـ والثاني: العلاقات السّياسيّة، وهي تفاوضية سلْمية، كانت تطمح لإقامة نوع ما من التعاون أو التحالف ضدّ دُول المُسلمين في الشّرْق، وهي مُتشعّبة جدّاً.

1 . العلاقات العسكريّة:

قال رشيد الدِّين جامع سيرة هُولاكُو، إن هُولاكُو عاتب القائد بايجو نويان بعد عودته إليه قائلاً: "يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الولاية حتّى شاطئ البحر من أيدي أبناء الفرنج، ومن الكُفّار"[2]، فهل هُو أمر من هُولاكُو للهُجُوم على الفرنج[3]؟! يبدو الأمر كذلك، ولو طال أمد وُجُود التّتار في الشّام، فبالتأكيد؛ كانوا سيُهاجمون المُدُن الفرنجيّة، ولكن صراعهم مع المُسلمين جعل "من سُقُوط الإمارات اللاتينيّة أمراً مُحتّماً بيد المُنتصر منهم"[4].

---

1 - لُبنان، عُمر تدمُري، 278، نقلاً عن: مُعجم شُيُوخ الذهبي، 541.

2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 261.

3 - هل الكُفّار هُم الفرنج؟ أم غيرهم؟ يُقال إن هُولاكُو قصد بالكُفّار الأرمن والإغريق (كاترمير، ص/ 96 ـ وردت في الحاشية/ 1، ص/ 261، جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت)، ونستبعد أن يكون هُولاكُو قد قصد الأرمن، فهم حُلفاؤه، ويعرفهم جيّداً، ولو كان يقصدهم لسمّاهم باسمهم. أمّا الإغريق؛ فهو ـ أيضاً ـ احتمال بعيد عن قصد هُولاكُو، وغالباً ما كان يقصد به أعداء المغول من بقيّة الشُّعُوب، ورُبّما هُو من وضع الكُتّاب المُسلمين في بلاط هُولاكُو.

4 - الحُرُوب الصّليبيّة، أرنست باركر، ترجمة: السّيِّد الباز العريني، 125.

فبعد دُخُول التَّتَار إلى الشَّام "خافت الفرنج منهم خوفاً كثيراً، وحصَّنوا بلادهم، وحملوا إلى كتبوغا التقادم والهدايا الكثيرة، فطلب منهم أن يُخرِّبوا الأسوار التي على مُدُنهم وقلاعهم، فلم يوافقوه على ذلك"[1].

ثُمَّ أرسل التَّتَار رُسُلَهُم مرَّتَيْن إلى أمير أنطاكية يأمرونه بإطاعة الخان، "وتدمير أسوار جميع مُدُنه وقلاعه، وأن يُرسل إليه جميع الموارد الناتجة من إمارته بالذهب والفضَّة، وأن يُرسل إليه ثلاثة آلاف عذراء"، لكنَّ أمير إنطاكية لم يستجبْ رغم التهديد بالانتقام[2]، ونُلاحظ بأنَّها الأوامر التي اعتاد التَّتَار إرسالها إلى كُلِّ الممالك والمُدُن، فلا تمييز ـ إذنْ ـ لوضع الفرنج بالنِّسبَة للتَّتَار، ولكن اليونيني يذكر نهاية مُختلفة لهذا الطلب، يقول: إن بيمند[3] صاحب طرابلس قد حضر إلى بعلبك لتقديم الطاعة إلى كتبغا، وأنَّه صعد إلى قلعتها، ودار فيها، وحدَّثته نفسه أن يطلبها من هُولاكُو، وحالت كسرة التَّتَار بعد أشهر قليلة دُون ذلك[4]، فأمير أنطاكية رغب بالمُوافقة، وحضر للتحالف والاتِّفاق.

ومع أن التعاطف بين نصارى الشَّرق والتَّتَار لم يكن ليخفى على الفرنج فإنَّنا نجد بارونات عكَّا يظهرون نقمتهم على التَّتَار، "ناظرين إليهم كبرابرة لا يُمكن أن يُفضَّلوا عن المُسلمين"[5]، ولكن كلَّ ذلك لم يمنع الفرنج من الخوف على بلادهم من التَّتَار الفاتحين المُرعبين، فبعد دُخُول كتبغا نوين إلى دمشق عام **658** هـ حضر إليه "رُسُلُ الفرنج الذين بالساحل بالهدايا والتقادم، لأنَّهم خافوا على بلادهم من تطرُّق التَّتَار إليها، وغارتهم عليها، وشرعوا في تحصين مدائنهم وحُصُونهم"[6].

ويبدو أن الصدام العسكري الفعلي بين التَّتَار والفرنج كان مُؤجَّلاً لما بعد إنهاء أمر مصر، وهذا التأجيل برغبة التَّتَار، فهم قُوَّة الهُجُوم الكُبْرَى.

---

1 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 51.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47/ 713.
3 - بيمند: بُوهمند السَّادس.
4 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 3/ 92.
5 - الغزو المغولي، حسن الأمين، 121.
6 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 237، وزبدة الفكرة، الدَّوادَار، 50.

ولكن حماقة جُوليان سيد صيدا والشقيف[1] كادت أن تُبدّل خُطّة هُولاكُو القاضية بعدم التعرُّض للفرنج ما لم يتعرّضوا له، ففي عام 658 هـ 1260م، أغار جُوليان من قلعة الشقيف على البقاع، وضرب حامية التّتار في مرج عُيُون، فسيَّر كتبغا خلفه قُوَّة كبيرة بقيادة ابن أخيه، لكنَّ جُوليان كان مُستعدّاً، فكمن له في الطريق، وقتله، فما كان من كتبغا إلى أن قاد جيشه، وانقضَّ على صيدا، ومع المُقاومة المستميتة التي أبداها جُوليان في قلعتَي البرّ والبحر بمُساعدة السُّفُن الجنوية، فقد خرَّب التّتار أسوارَ صيدا[2]، واحتلُّوها، ونهبوها، وأسروا منها ثلاثمائة شخص[3]، ولم تبقَ حادثة صيدا حادثة مُفردة، فقد خرج يُوحنَّا إبلين الثَّاني سيِّد بيروت ومعه الدَّاويّة، وأغاروا على الجليل، وربَّما لم يكونوا يتوقَّعون الصدام مع التّتار، الذين واجهوهم بِرَدٍّ قوي[4].

من كُلِّ ذلك نستنتج أن الصُّورة لم تتَّضح، والعلاقات بين التّتار والفرنج في الساحل لم تتبلور على صُورة واضحة، والتناقض كان يسود في التعامل، وفي ردود الأفعال بينهما، فكلا الطرفَيْن كان بحاجة إلى مزيد من الوقت ليُحدِّد موقفه بشكل نهائي من الطرف الآخر.

فقد كانت رغبة الفرنج هي إثبات وُجُودهم أمام التّتار، وإجبارهم على التعامل معهم بشكل مُختلف، بينما تتَّضح رغبة التّتار في إخضاع الفرنج من خلال ما ذكره متَّى باريس، يقول: "ورغبة من التّتار في إخضاع الصليبيين؛ طلبوا من الدَّاويّة والاسبتاريَّة في الأراضي المُقدَّسة أن يخضعوا إلى سُلطانهم، ولكنَّهم رفضوا، واستعدُّوا للقتال"[5].

2. العلاقات السِّياسيَّة:

مع أن علاقات التّتار مع فرنج الساحل الشَّامي كان يُسيطر عليها التوتُّر والحذر والترقُّب، فهي مُختلفة تماماً عن ما كانت عليه مع الفرنج في أُورُبة. فقد ساد اعتقاد جارف في أُورُبة بإمكانية الاستفادة من قُوَّة التّتار لتطويق العالم الإسلامي من الخلف، فتوالت الرُّسُل إليهم ومعهم المُبشِّرون

1 - جُوليان: كان ضخم الجُثَّة، عابثاً ماجناً، لم يرث من ذكاء جدِّه رينالد شيئاً، إضافة لكونه مُسرفاً، فقد رهن صيدا لدى الدَّاويّة على مال استدانه. (لُبنان من السُّقُوط، عُمر تدمُري، 278)ـ وكذلك راجعْ: الغزو المغولي، حسن الأمين، 121.
2 - لُبنان من السُّقُوط، عُمر تدمُري، 279.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 410، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 360.
4 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3 / 529.
5 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،50/ 1683.

والرُّهبان، لكنْ؛ دُون تحقيق نتيجة تُذكَر، فقد حـال الحـذرُ وبُعْـدُ المسافة دُون تـضافر جُهُـود أُورُبـا المَسيحيَّة والتَّتار، الذين اعتقدت أُورُبا بمسيحيَّتهم[1].

وبلغت حَرَكَة التبادل الدبلوماسي بين أقطار أُورُبة وبين بلاط المغول أوجها في عـصر الخـان منكو قاآن بن تولوي.

فبعد يَأْس الفرنج من تحقيق انتصار حاسم على المُسلمين، ومَـيَلان كفَّـة المُـسلمين العـسكريَّة للرجحان ضدَّهم في الشَّام، أرادوا الإفادة من التَّتار أعداء المُسلمين، والتحالف معهـم، خاصَّـة بعـد انتشار أخبار تنصُّرهم[2]، وهذا ما جعل "أُورُبة تحلم بعقـد تحـالف مـع المغـول، يـسهم في اسـترداد القُدْس، وتحويل آسيا إلى المَسيحيَّة"[3]، وهذا تطوُّر كبير في فكرة الحُرُوب الصَّليبيَّة، فقد غدت ـ مـع هذه الأحلام ـ خُطَّة شاملة لتغيير العالم.

---

1 -الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 258.

2 -تاريخ المغول، عباس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 178.

3 -الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 125.

المبحث الخامس:

العلاقات بين التَّتَار ودول أُورُوبا

باباوات رُوما وحُلم ضمِّ التَّتَار:

بناء على تقارير مُضلِّلة، تفيد بأنَّ التَّتَار بمُعظمهم يعتنقون المَسيحيَّة، بنى بابوات رُوما ـ لعدَّة سنوات ـ اعتقادهم بأنَّ بإمكانهم كسب خانات التَّتَار، بتحويلهم إلى الكَنيسَة الغَرْبيَّة، وهذا ما يتطابق مع أحلام مسيحيِّي أُورُبة في العُصُور الوُسْطَى، بظهور يُوحنَّا الشرقي، أو الهندي، رجل الدِّين الطائل الثراء، الذي يُمثِّل المسيح المُنتظَر القادم من الشَّرق، والذي جعل كثيراً من الأُورُبيين يربطون بينه وبين جنكيز خان، واعتقد عدَّة باباوات أن بإمكانهم تحقيق الهزيمة النهائية للإسلام بواسطته.

وعندما اكتشفت أُورُبة أن التَّتَار ليسوا مسيحيين، وأنَّهم أبعد ما يكون عن تحقيق تلك الآمال، بدأ الباباوات التخطيطَ لتحويل خانات المغول إلى المَسيحيَّة، وكان لهم أمل كبير في ذلك لعدم اعتناقهم الإسلام، فبذلوا جُهُوداً مُضنية لضمِّهم إلى الكَنيسَة، وإقامة الكَنيسَة الكاثوليكية العالمية[1]، ففي المجمع الكَنَسي الذي عقده البابا أنوسنت الرَّابع في ليون عام 643 هـ ـ 1245م، تقرَّر إرسال بعثَتَيْن تبشيريَّتَيْن إلى بلاد التَّتَار.

الأُولى: انطلقت في العام نفسه، وترأسها الراهب الفرنسسكاني كابريني، الذي عبر جنوب رُوسيا حتَّى وصل قراقوم، وحضر هُناك المجلس الأعلى للتَّتَار ـ الكورلتاي ـ الذي انتُخب فيه كيوك خاناً أعظم، ولم يحصل كابريني من سفارته على أيِّ فائدة.

أمَّا الثَّانية؛ فكانت بعثة من المُبشِّرين الدُّومينيكان، يرأسها أنسلم آسيلين، انطلقت عام 645 هـ 1247م، ووصلت إيران عن طريق جُورجيا، والتقوا هُناك بالقائد بايجو نويان. وهذه البعثة، التي هَدَفَ منها البابا التبشير المسيحي لخانات التَّتَار، والتحالف معهم ضدَّ المُسلمين، لم تكن بأفضل من سابقتها، بل كادت أن تُودي بحياة الرُّسُل إثر مشادَّة حامية في البلاط؛ حيثُ غالى الرُّهبان بتقديس البابا. ثُمَّ أوفد التَّتَار معهم رسولَيْن عام 646 هـ 1248م، سلَّما رسالة للبابا، يطلبان فيها طاعته

---

1 - العالم الإسلامي في العصر المغولي، شبولر، ترجمة: خالد عيسى، 64 ـ 65.

للتَّتار، وطلبه للمثول أمام الخان[1]، عندها؛ تهاوت أحلام باباوات رُوما على أرض واقع التَّتار المندفعين للسيطرة والتحكُّم، فبينما كان الباباوات يحلمون بتحويل خانات التَّتار إلى المَسيحيَّة، وجعلهم تابعين للكَنيسَة الغَرْبيَّة لضرب المُسلمين، والسيطرة على العالم من خلال قُوَّتهم، كان التَّتار لا يرون في أُورُبة إلاَّ ميداناً جديداً للفتح، ولا يرون في الباباوات إلاَّ مُلُوكاً يُطالبونهم بالخُضُوع لسيطرتهم، وإلاَّ؛ فالحرب.

لويس التَّاسع والتَّتار:

بدأت علاقات الملك الفرنسي القدِّيس لويس بالتَّتار عندما نزل جزيرة قبرص في حملته الصَّليبيَّة على مصر، يقول جين جوانفيل كاتب سيرة لويس ومُرافقه في الحملة: "عندما كان لويس مقيماً في قبرص، بعث ملك التَّتار العظيم برُسُل يحملون كثيراً من الرسائل اللطيفة، وقد أومأت هذه الرسائل بأنَّه على استعداد لتقديم العون إلى ملكنا للاستيلاء على الأراضي المُقدَّسة"[2].

ويبدو أن العلاقات مع التَّتار كانت ـ دوماً ـ تُستَغلُّ من قبَل كُتَّاب الفرنجة لرفع معنويات الأُورُبيين، وتحريضهم لدعم الحَرَكَة الصَّليبيَّة، فمتَّى باريس يتحدَّث عن حُضُور رسول التَّتار إلى لويس بقوله: "وصل أكثر التقارير سروراً بأنَّ أعظم مُلُوك التَّتار قُوَّة خضع لتبشير وإقناع بطرس الهندي، وتحوَّل للمسيحية، وجرى تعميده، وأرسل الملك المذكور رسالة إلى لويس في دمياط يُشجِّعه، ووعده بمُساعدة فعَّالة بحُكْم كونه كاثوليكياً ومُعمَّداً جديداً"[3].

فمتَّى باريس لا يخفي سروره، ويُضيف خُضُوع ملك التَّتار للتعميد الكاثوليكي، ويجعل المكان في دمياط، ويبدو أن للأمر رواية أُخرى؛ إذْ يقول عباس إقبال: "أثناء تواجد لويس في قبرص قابله شخص مسيحي ادَّعى أنَّه رسول ايل تشكتاي قائد جيش المغول في إيران، بشأن انتزاع القُدْس من المُسلمين، والتعاون حول ذلك"[4].

---

1 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 179، و الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 126، والصليبيون في الشَّرق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين، 314.

2 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 58.

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1073.

4 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 179.

وتأتي نتائج هذه السِّفارة لتُوضِّح لنا الكثير من حقائقها التي اختُلف في تفسير مُقدِّماتها، فقد ردَّ الملك لويس على السِّفارة بإرسال ثلاثة رُسُل، انطلقوا من قبرص عام 646 هـ 1248م، نحو قراقوم عاصمة التَّتَار[1]، برئاسة الراهب الدومينيكاني أندريه لُوغُومُو[2]، ويحملون هدايا قيِّمة، منها كما يقول جوانفيل: "خيمة أُعِدَّتْ لتكون كَنِيسَة، صُنِعَتْ من قماش قرمزي، معها تماثيل حجرية، لها مواضيع كَنَسية، لجعل ديانتنا تبدو أكثر جاذبية للتَّتَار"[3]. ونُلاحظ أن السِّفارة التَّتَاريَّة كانت تُلمِّح لتعاون عسكري من أجل استرداد القُدْس، بينما كانت السِّفارة الفرنسيَّة تُؤكِّد على جانب التبشير الدِّيني، فالرُّسُل رهبان مُبشِّرون، والهدايا فيها كَنِيسَة، وأدواتها.

فهل كان كُلّ منهم له أهداف تخفى عن الآخر؟ أم أن أهداف كُلٍّ منهم كانت مكشوفة للآخر، لكنَّه يصرُّ على إيصال رسالة مُعيَّنة؟ فسياسة التَّتَار الدائمة في علاقاتهم مع الممالك الأُخرى هي إرسال الوُفُود والرُّسُل لغاية أساسية، فقبل إبلاغ مضمون الرسائل التي قد يكونون لا يعنونها أبداً، الاستطلاع والاستكشاف والتعرُّف على أرض الممالك التي حولهم، وقُوَّاتها وحُصُونها ونوايا الحُكَّام نحوهم إنْ أمكن، وهذا مُحتمل جدّاً بالنِّسبة للملك لويس الذي جاء نحو الشَّرْق يقود حملة عسكريَّة كبيرة، فمن الطبيعي أن يُحاول التَّتَار كشف نواياه، والتعرُّف على حجم قُوَّاته، ولا يُوجد أفضل من شخص يحتمي باسم رسول مُوفَد، ليعرف كثيراً من الأُمُور التي يُريدون الحُصُول عليها. ومِمَّا يُؤكِّد ذلك هُو ردّ فعل خان التَّتَار على هدايا لويس، وطريقة فَهْمه لمضمون رسالته إليه، يقول جوانفيل: إن ملك التَّتَار بعد أن نصب الخيمة المُرسَلة من لويس، قال لِمَنْ حوله: "ملك فرنسا يلتمس عطفنا، وقد وضع نفسه تحت حمايتنا، ويُمكنكم أن تروا الجزية التي أرسلها لنا". ثُمَّ أعاد الخانُ الرُّسُلَ، وأرفقهم برُسُل من عنده يطلبون من لويس كمِّيَّة سنوية من المال، وإلاَّ، فالحرب والدمار، فأسف لويس على إرسال رُسُله إلى التَّتَار[4]. وهذا يُوضِّح - تماماً - اختلاف المفاهيم والمقاصد بين مُلُوك أُورُبة والتَّتَار. ولكن الملك لويس لم يفقد الأمل - نهائيّاً - بنصرة التَّتَار، ويبدو أن ذلك كان بتأثير هزيمته في دمياط، فأعاد الكرَّة عام 650 هـ 1252م، وأرسل وفداً آخر برئاسة

---

1 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 179.

2 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 314.

3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 9 5.

4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 81 1.

(غيوم دو روبوكي ـ Guillaume du rubuquis) إلى بلاط منكو قاآن، فسار عبر القسطنطينيَّة إلى القرم، ثُمَّ عبر جبال الأورال حتَّى وصل قراقوم، فأكرمه منكو قاآن، وجعله يناظر عُلماء دين بوذيين ومُسلمين، ثُمَّ حمَّله رسالة إلى لويس، يُطالبه فيها بالخُضُوع لطاعته، فوصلت الرسالة إلى لويس وهُو في عكَّا عام 652 هـ 1254م، وكانت بالخطِّ الأويغوري[1]، عندها؛ تهاوت آمال لويس، فلم يقبل التَّتار اعتناقَ المَسيحيَّة، بل طالبوه بالخُضُوع لهم، والاعتراف بسُلطانهم.

ويذكر متَّى باريس خيبة أمل أُورُبة عندما اكتشفت الحقيقة، مُعلِّلاً السببَ بالخداع، الذي مارسه البعض، يقول: "وجرى اختراع بعض التقارير لطمأنة المَسيحيَّة، ولتشجيع الصليبيين على الإبحار، حتَّى من قبَل أسقف مرسيليا، وبعض مشاهير الدَّاويَة، ولكنْ؛ عندما بانت الحقيقة، تألَّمَ الناس أكثر منهم"[2]. لقد كانت العلاقة بين التَّتار والفرنج في أُورُبة تقوم على عدم الفَهْم الكامل، وبعض الغشّ وخداع النفس من قبَل الأُورُبيين، لكنَّ الثابت فيها أن كلَّ منهم أرادها لمصلحته، فالأُورُبيون كان يعميهم هوس تحويل التَّتار إلى المَسيحيَّة للسيطرة على العالم بواسطتهم، والتَّتار كان يعميهم هوس السيطرة على العالم بالقُوَّة. وما كانت رسائلهم إلى مُلُوك أُورُبة أو أُمرائها إلاَّ نسخ طبق الأصل عن رسائلهم إلى مُلُوك المُسلمين وأُمرائهم قبل الهُجُوم عليهم، فهي للوعد والوعيد، وهُو جُزء من الحَرْب النفسية، التي أتقنوا إدارتها، كما هي ـ في الوقت نفسه ـ لجسِّ نبض الحُكَّام، واستكشاف بلادهم. أمَّا موضوع التحالف الذي أرادتْهُ أُورُبة، حتَّى في مفهومه السِّياسي المجرد عن الدِّن، فلم يكن ليقبل به التَّتار تحالف النّدّ للند، فصحيح أنَّهم تحالفوا مع الأرمن وهم دولة مسيحيَّة، لكنَّ تحالفهم كان تحالف القوي مع الضعيف، حول أرمينية إلى تابع حقيقي للتَّتار. ولكن ذلك لم يمنع من قيام تعاون عسكري عندما ضعفت آمال التَّتار بالسيطرة المطلقة في الشَّام، فقد طلب القائد بيدرا نجدة الاسبتار في قلعة الحصن، ولبّوا طلبه، فقاتلت ضمن جيش التَّتار فرقة منهم في معركة حمص الأُولى عام 659 هـ 1261م[3].

وبالتَّأكيد؛ لو كان يُوجد اتِّصال جَغرافي بين مناطق سيطرة المغول والفرنج في الشَّام لكان هُناك نوع آخر من العلاقات لا نستطيع التكهُّن بطبيعتها، لكنَّ كُلَّ ما نستطيع أن نقوله عنها ـ الآن ـ

---

1 -تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 180.
2 -التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1079.
3 -الاسبتاريَّة، جُوناثان سميث، ترجمة: صُبحي الجابي، 189.

إنَّها لن تكون ـ بأيِّ حال ـ مُتأثِّرة بالعامل الدِّيني، كما أرادت أُورُبة، وإن أُورُبا لن تخضع وتدخل في طاعة التَّتار كما أراد التَّتار، ويُؤكِّد ذلك موقف التَّتار من دولة الكرج المَسيحيَّة، فقد اجتاحوها بدُون إقامة أيِّ اعتبار للعامل الدِّيني[1]، وكان الكرج قد طلبوا التحالف مع مُلُوك بني أيُّوب ضدَّ التَّتار، ووصلت رُسُلُهُم إلى الملك الأشرف تطلب العون والتحالف[2]، ولكن الأشرف والمُلُوك الأيُّوبيَّة كانوا ـ وقتها ـ غير مُقدِّرين خطر التَّتار حقَّ قَدْره، وكان من المُمكن للأشرف لو كان مُهتمّاً بأمر التَّتار أن يُقيم تحالفاً كبيراً، في الجزيرة والشَّام، مُناهضاً لخطر التَّتار المُشترك.

وكنتيجة لمُجمل العلاقات بين المسيحيين ـ بشكل عامٍّ ـ والتَّتار، فإنَّنا نُلاحظ أن الأرمن فقط كانت لهم علاقاتهم المُميَّزة بالتَّتار، وقد قام بينهما تحالف وثيق، ولكن النتائج كانت على عكس ما توقَّع الأرمن، فقد استنزفهم التَّتار بالمطالب المادِّيَّة، وأرهقوهم بالمُشاركة الفعَّالة في حملاتهم، التي لم تكن لتعني للأرمن شيئاً أكثر من أنَّها ضدَّ المُسلمين، وفتحت أبواباً لحقد المُسلمين عليهم لن تغلق إلا بدمار مملكة أرمينية الصُّغْرَى.

أمَّا المسيحيُّون المحلِّيُّون؛ فقد عقدوا آمالاً كبيرة على التَّتار، حتَّى إنَّهم اعتبروهم المُخلِّصين، مُعتمدين على معلومات ناقصة عن حقيقة اعتناق التَّتار للمسيحية، أو رُبَّما لمعرفتهم بأنَّهم وثنيين، واعتقادهم بأنَّه يُمكن كسبهم بالتبشير إلى الدِّين المسيحي، وما هذه الآمال المخادعة بالتَّتار إلاَّ بعد يأسهم من الخلاص على أيدي الفرنج، ومُعاملة الفرنج السَّيِّئة لهم.

أمَّا عن العلاقة بين الفرنج والتَّتار؛ فنُلاحظ أن كلاًّ منهم كان يُحاول ـ من خلال صلته بالآخر ـ تسخيره لمصالحه الخاصَّة، فالتَّتار كانوا يسعون لتحقيق مشروع ضخم يتضمَّن إقامة إمبراطُورية عُظْمَى تشمل العالم، وكان الأُورُبيون يجهلون حقيقة التَّتار، وقد بنوا كلَّ علاقة لهم بالتَّتار على هذا الجهل، أمَّا فرنج الساحل الشَّامي؛ فقد كانوا في حالة مزرية من الضعف والتفكُّك، لا يماثلها إلاَّ ضعف وتفكُّك أعدائهم التقليديين من المُسلمين، لذلك حاولوا الإفادة من قُوَّة التَّتار لإطالة أمد وُجُودهم في الشَّرق، أو على الأقلِّ؛ لتفادي خطرهم المُدمِّر.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 375.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 398 ـ 399.

الفصل الثَّاني

علاقات التَّتَار مع إمارات وممالك الجزيرة الشَّاميَّة

المبحث الأوَّل:

صراع التَّتَار والخَوَارزميَّة وأثره على الجزيرة الشَّاميَّة

كانت الدولة الخَوَارزميَّة وملكها علاء الدِّين مُحَمَّد بن تكش خوارزم شاه أوَّل مَن احتكَّ من المُسلمين بالتَّتَار، وكانت تلك الدولة هي حُدُود المُواجهة الأُولى لصدِّ هجمات التَّتَار على الدولة الإسلاميَّة. ورُبَّما لعبت السياسة الخرقاء لخوارزم شاه دوراً مُهمَّاً في تعجيل الغزو المغولي، أو إيجاد ذرائع له، لكنْ؛ ما كان لخورزم شاه مهما فعل من مُداراة أن يُجنِّب دولته والعالم الإسلامي خطر هُجُوم التَّتَار، ورُبَّما كان من أوَّل أخطائه السِّياسيَّة الإجهاز على دولة الخطا[1]، فأوَّلاً قد أزال حاجزاً مُهمَّاً من أمام التَّتَار كان من المُمكن بقليل من الدعم منه أن يصمد لهم، وثانياً جعل الخطا ينضمُّون إلى جُيُوش المغول، وصاروا معهم[2].

لمَّا خرج جنكيز خان يقود شعب التَّتَار والمغول من براري أواسط أسيا، وطَرَقَ بلاد ما وراء النهر عام 615 هـ 1218م، دمَّر بخارى وسمرقند "وكان خورازم شاه قد أخلى البلاد من المُلُوك، فلم يجدوا أحداً يردّهم"، ولم تكد تدخل سنة 617 هـ 1220م، حتَّى وصلوا الرّيّ وقزوين وهمدان[3]. ومُقابل هذا الهُجُوم الكاسح كان خوارزم شاه قد اتَّبع خُطَّة عسكريَّة سقيمة في التَّصدِّي للتَّتَار، تعتمد على الدفاع، فوزع قُوَّاته على المُدُن الكُبْرَى، واحتمى بالأسوار، فسهل على التَّتَار اقتناص المُدُن واحدة إثر أُخرى[4]. وكانت بينهم وبين السُّلطان مُحَمَّد خوارزمشاه عدَّة حُرُوب غير حاسمة، وبعد موته؛ تولَّى ابنه جلال الدِّين منكبرتي التَّصدِّي للتَّتَار، وخاض ضدَّهم معارك طاحنة، هزموه فيها غير مرَّة، فهرب إلى الهند، وتفرَّغ التَّتَار لبلاد فارس، وتقدَّموا نحو العراق وأذربيجان.

---

1 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 661 ـ 670 / 58.

2 - النجوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 248.

3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 248.

4 - راجعْ كتاب: الغزو المغولي، حسن الأمين، 43.

ثُمَّ عاد جلال الدِّين من الهند، وانتصر على التَّتار، وهزمهم هزيمة كُبْرَى[1]، ولكن جلال الدِّين بدلاً من استثمار انتصاره ومطاردة التَّتار والتفرُّغ لهم، نراه يتغاضى عن وُجُودهم، ويتناسى الخطر الذي يُمكن أن يُشكِّلوه، رغم هزيمتهم تلك، ولم يكتف بذلك، بل مارس سياسة رعناء، لم تترك له صديقاً، أو حليفاً، في طول العالم الإسلامي، وعرضه. فبعد مُهاجمة جلال الدِّين لكُلِّ المُلُوك في شرق الدولة الإسلاميَّة، التفت إلى الخليفة، فأعلن عدم شرعيَّته، وأنَّه سيُزيحه من منصبه بالقُوَّة، وبالفعل؛ تحرَّك نحو بغداد، واحتلَّ عدَّة مُدُن تابعة للخليفة. لكنَّ حملته ضدَّ الخليفة فشلت في النِّهاية[2]. ولم يكتف بذلك، وبدلاً من الالتفات لخطر التَّتار الجاثم على مقربة منه، نراه يمدُّ أطماعه نحو الجزيرة الشَّاميَّة، واستعدى البيت الأيُّوبي عليه عندما هاجم خِلاط، وهي للملك الأشرف، واحتلَّها، "فنهب، وسبى الحريم، واسترقَّ الأولاد، وقتل الرجال، وخرَّب القرى، وفعل ما لا يفعله أهل الكُفْر"[3]، فتحالف عليه علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم والملك الأشرف، وتمكَّنوا من هزيمته في معركة ياصجمن[4]، وكانت هذه المعركة بداية النِّهاية لجلال الدِّين منكبرتي وللدولة الخَوَارزميَّة، فقد علم التَّتار بهزيمته، ممَّا قوى نُفُوسهم للهُجُوم عليه، ولمَّا لم يجد جلال الدِّين بنفسه القُوَّة على الصُّمُود أمام التَّتار استنجد بالخليفة، وبكَيْقُبَاذ الرُّومي، وبالأشرف الأيُّوبي، فلم يُنجده أحد، ممَّا سهَّل على التَّتار القضاء النهائي على جلال الدِّين الخوارزمي وجيشه، بعد أن كانوا قد قضوا ـ عملياً ـ على الدولة الخَوَارزميَّة.

وأثناء مطاردة التَّتار لجلال الدِّين كانوا قد دخلوا بشكل فعلي إلى الجزيرة الشَّاميَّة؛ حيثُ بدؤوا عملياتهم العسكريَّة فيها، وتفرَّقت مجموعات صغيرة منهم في أنحاء الجزيرة بلغت سنجار عام 628 هـ 1231م، يقول ابن نظيف: "وما يعلم مقدار ما قتلوا ونهبوا بسعرد، وكذلك دنيسر؛ حيثُ أحرقوا الجامع، ومَن احتمى به، وما وجدوا في الجزيرة مَنْ ردَّ لهم نشَّاباً، وقد ذكروا أن هؤلاء الغوارة ما بلغوا ألف فارس، وفعلوا بالبلاد ما فعلوه، وأخافوا الناس، وارتحلوا من الجزيرة إلى الشَّام"[5].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 266.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 426.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 266.
4 - راجعْ تفاصيل المعركة ونتائجها في مبحث: العلاقات الدَّوليَّة لمملكة الخَوَارزميَّة من هذا الكتاب.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 229 ـ 230.

إنَّها صُورة بالغة الدقَّة، صوَّرها بإيجاز ابن نظيف، تُظهر وضع الجزيرة بكُلِّ جوانبه، فأقلُّ من ألف فارس مغولي دوَّخوا الجزيرة، ولم يقاومهم أحد، ارتكبوا الفظائع، ولم يجد الناسُ إلاَّ الارتحالَ والهَرَبَ من الجزيرة إلى الشَّام.

وأدَّى الرُّعب من التَّتار في هذه المناطق إلى تحرُّكات سياسيَّة واستعدادات عسكريَّة كبيرة، ففي عام 617 هـ 1220م، أرسل الخليفة المُستنصر بالله إلى الملك الأشرف يطلبه "للحُضُور بنفسه في عساكره، ليجتمع الجميع على قصد التَّتَر". وبعد أيَّام؛ أرسل الكرج إلى الأشرف يطلبون الاتِّفاق لدفع التَّتار، وقالوا في رسالتهم: "إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم، ودفعهم عن بلادنا، وتحضروا بنُفُوسكم وعساكركم لهذا المُهمِّ، وإلاَّ صالحناهم عليكم"[1].

وصادفت هجمة التَّتار من الشَّرْق هجمة الفرنج، التي لا تقلُّ عنها شراسة، من الغَرْب، فقد نزلوا مصر، واحتلُّوا دمياط، وتقدَّموا منها صوب القاهرة، والملك الكامل رُسُلُهُ لا تنقطع إلى الشَّام من أجل إنجاده. ثُمَّ "وصل الملك المُعظَّم إلى عند أخيه الأشرف بحران يستنجده على الفرنج"[2]. ولابُدَّ أن الأشرف قد حار في أمره، بين نداء الخليفة وخطر المغول ونداء أخيه الكامل وخطر الفرنج، ثُمَّ حسم أمره، واعتذر للخليفة بمُدافعة الفرنج.

وكتدبير وقائي لمُواجهة خطر التَّتار؛ قام الأشرف بإقطاع مدينة خِلاط وأعمالها ومَيَّافارقين وحاني لأخيه شهاب الدِّين غازي، وسيَّره إلى خِلاط في أوائل عام 618 هـ 1221م، ولمَّا حضر رُسُلُ الكرج لتلقِّي جواب الرسالة قال لهم: "إني قد أقطعتُ ولاية خِلاط لأخي، وسيَّرته إليها؛ ليكون بالقُرب منكم، وتركتُ عنده العساكر، فمتى احتجتُم إلى نصرته حضر لدفع التَّتَر"، ثُمَّ سار بعدد كبير من قُوَّاته إلى مصر[3].

وبذلك عالج الأشرف الموقف الحرج، الذي أوقعه بين فكَّيْ كمَّاشة التَّتار والفرنج، بناء على مفهومه السِّياسي والعسكري للأمر، فقد اتَّخذ ترتيبات إدارية وعسكريَّة في الجزيرة ضدَّ خطر المغول بتولِّيه أخيه شهاب الدِّين على خِلاط، ليجعله في قلب الأحداث إذا اقتحم التَّتار الجزيرة، ودعمه

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 398.
2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 379.
3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 398 ـ 399.

بعدد وافر من العساكر، ونستطيع أن نقول بمفهوم اليوم: أنّه كلّف شهاب الدِّين بملفِّ التّتار؛ ليتفرَّغ هُو لمُشكلة الفرنج، وسار نحو مصر للمُساعدة في حَلِّها. وقد أجاد ابن الأثير غاية الإجادة عندما عالج موقف الأشرف، وعلَّل سبب تركه ساحة التّتار، وسيَّره إلى ساحة الفرنج، بما يلي:

1 ـ إن الفرنج ملكوا دمياط، وأشرفوا أن يملكوا ديار مصر، فإنْ حصل ذلك لم يبقَ بالشام، ولا غيره معهم ملك لأحد.

2 ـ الفرنج أشدّ شكيمة، وطالبو مُلك، فإذا ملكوا قرية لا يغادرونها إلاَّ بعد عجزهم عن حفظها.

3 ـ هاجم الفرنجُ كُرسيَّ مملكة البيت العادلي، وهي بعيدة عن التّتار.

4 ـ لم يدخل التّتار أراضي الممالك الأيُوبيّة بعد.

5 ـ التّتار لا يُريدون الملك، وما غرضهم إلاَّ النهب والقتل والتخريب، ثُمَّ الانتقال من بلد إلى آخر[1].

ومع عظمة تحليل ابن الأثير، ورُبَّما تعبيره الدقيق عمّا جاش في نفس الأشرف من أفكار، يبقى لنا اعتراض على نقطة واحدة أثارها، فمُلاحظاته عن الفرنج شديدة الدقّة، وصحيحة تماماً، بينما نجد مُلاحظاته عن التّتار غير دقيقة، رُبَّما لعدم الخبرة الطويلة بهم، أو لعدم توضُّح خُططهم بدقّة، فقوله: "إن التّتار ليسوا ممَّنْ يُريد المُنازعة في الملك، وما غرضهم إلاَّ النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد إلى آخر"، لا يجده مَنْ عاش بعد ابن الأثير، وعاصر دولة التّتار في الشَّرق الإسلامي صحيحاً، وما كان القتل والنهب والانتقال إلاَّ البداية، حتَّى دوَّخوا البلاد، ثُمَّ ملكوها، وأقاموا فيها ممالك ودول.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 398 ـ 399.

المبحث الثَّاني:

دُخُول التَّتَار إلى الجزيرة الشَّاميَّة

بعد موت جنكيز خان، وتولِّي منكوقاآن خاناً أعظم للتَّتار كلَّف هُولاكُو بقيادة الحملة إلى غرب آسيا، ووضع عدداً كبيراً من الفرَق العسكريَّة تحت قيادته[1]، ولذلك لم يلقَ مُقاومة تُذكَر، وحتَّى قلعة الإسماعيليَّة الشهيرة ألموت لم تجدْ بُدّاً ـ في النِّهاية ـ من الاستسلام له.

سار هُولاكُو مَزْهُوّاً بقُوَّته، وانتصاراته، تسبقه أخبار وحشية جُنُوده، وقد وضع نصب عينَيه أكبر الأهداف التي يحلم بها التَّتار، إنَّها بغداد؛ حاضرة الدُّنيا في ذلك الوقت، لم يكن جُنُود التَّتار ليُفكِّرون بمدارس بغداد، ولا بجوامعها، ولا بمكتباتها، ولا بعلمائها، ولا بحُسنها، بل كان جُلّ ما فكروا فيه هُو ثرواتها، ونساءها، بذهبها، وأثاثها، وما عدا ذلك هُو طعمة لسُيُوفهم ونيرانهم.

ولمَّا علم الخليفة المُستعصم بالله[2] أن التَّتار يقصدونه قرَّر بجسارة فائقة مُقاومتهم، وإذا حاولنا أن نُفكِّر بالمرتكزات التي بنى عليها الخليفة قرار المُقاومة نجد أنَّها ليست قُوَّة جنده، ولا قُوَّة أسوار بغداد، فمع أنَّه سمع أخبار قُوَّة التَّتار الفائقة، فإنَّنا نستشفُّ من ردِّه على رسائل هُولاكُو التي طلب فيها استسلام بغداد، أن دوافعه للمُقاومة كانت معنوية أكثر منها مادِّيَّة، وأنَّها خيالية أكثر منها واقعية، وتدلُّ على أن الخليفة المُستعصم كان يعيش في عُزلة عن أحداث العالم، وفي وَهْم قُوَّة منصب الخلافة، وَمَنَعَة حُرمتها، ورُبَّما كان يعتقد أن بغداد لا تقلُّ لدى المُسلمين عن مكَّة، وأنَّه يُمثِّل سُلالة النُّبُوَّة، التي سيثير المسُّ بها كُلّ مُسلمي الدُّنيا.

كان أوَّل خليفة عبَّاسي شعر بالخطر الحقيقي للتَّتار هُو الخليفة المُستنصر[3] الذي اهتمَّ بأمرهم غاية الاهتمام[4]، ويرجع اهتمام هذا الخليفة الجدِّيّ بأمر التَّتار إلى عدَّة أسباب منها:

---

1 - حوالي 129 ألف رجل، (العالم الإسلامي، شبولر، 45).

2 - المُستعصم بالله: عبد الله بن الخليفة المُستنصر، الخليفة السَّابع والثلاثون، وآخر خُلفاء بني العبَّاس، تولَّى الخلافة مابين أعوام: 640 ـ 656 هـ. قتله التَّتار شهيداً صبراً، بعد احتلالهم بغداد.

3 - المُستنصر بالله: أبو جعفر المنصُور بن الخليفة الظَّاهر، الخليفة السَّادس والثلاثون من خُلفاء بني العبَّاس، تولَّى الخلافة ما بين سنوات: 362 ـ 640 هـ. أنشأ المدرسة المُستنصرية في بغداد، واهتمَّ بالجيش، ولمَّا هاجم التَّتار العراقَ في عهده، هزمتْهُم جُيُوشه.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 242، والمنصُوري، ابن نظيف، 233.

1 ـ أن غارات التَّتار قد اكتسحت مناطق واسعة من العراق.

2 ـ أنَّهم استولوا على مناطق في العراق، عدا عن كونها قريبة جدَّاً من بغداد، فقد كانت ـ حتَّى وقت قريب ـ من أملاك الخليفة، مثل ششتر ودقوقا التي احتلّها الخوارزمي، وأخذها التَّتار منه.

3 ـ رُبَّما تأكَّد الخليفة أنَّه ـ في النِّهاية ـ هُو المقصود، وأنَّه الهدف الأكبر لحملات التَّتار.

ولكُلِّ ذلك؛ تواترت رُسُلُهُ إلى الملك الكامل والملك الأشرف لقُدُومهما إلى الشَّام، وفي عام 629 هـ خرج الأشرف من مصر، وتبعه الكامل بجُيُوشه، وعلى مُقدَّمته ابنه الصَّالح أيُّوب، وعلى العَسْكَر فخر الدِّين ابن شيخ الشُّيُوخ، ثُمَّ "خرج من دمشق، وعَسْكَرَ بسلمية، ومعه عساكر يضيق بها الفضاء، وسار، فتفرَّقت العساكر لكثرتها، وأتته رُسُلُ مُلُوك الأطراف"[1]. ولا نعتقد بأنَّ خُرُوج بني أيُّوب من مصر بهذا الجحفل كان لمُجرَّد دعوة الخليفة لهم، فحتَّى الآن كانوا يعدُّون التَّتار يبغون النهب والعودة إلى قواعدهم بما نهبوه، وأنَّهم ليسوا طالبي مُلك، ولا أصحاب حُكْم مُدُن، فيكفي لتجنُّب شرِّهم إغلاق أبواب المُدُن حتَّى ينتهي هُجُومهم.

ولكن الذي دفع الكامل والأشرف للاهتمام الجدّيّ بأمر التَّتار هُو تبدُّل في خُطَّة التَّتار أنفسهم، فبعد الغارات والسلب والنهب والقت، ثُمَّ العودة شرقاً، قرَّروا فتح خِلاط[2] عاصمة الجزيرة، وأغنى مُدُنها، وأكبر المرتكزات الأيُّوبيَّة فيها. وفي الحقيقة؛ لم يكن هذا تبدُّلاً حقيقيَّاً في خُطَّة التَّتار، بل هُو تطبيق للجُزء الثَّاني منها، فالغارات ليست للسلب فقط، بل للاستطلاع، ولكشف المناطق، وترويع الناس، وترحيلهم، حتَّى لا يبقى مَنْ له قُدرة على المُقاومة؛ لا ماديَّاً، ولا معنوياً، ثُمَّ يُهاجون الحواضر، ويُقيمُون مرتكزات حُكْمهم فيها.

وصلت الجُيُوش الأيُّوبيَّة إلى الجزيرة، وأقام الكامل في حَرَّان، ووصلتهُ النجدات من أيُّوبية الشَّام، وجاءته الأخبار برحيل التَّتار المُحاصرين لخِلاط[3]، ويُبرِّر ابن نظيف سبب رحيل التَّتار

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365، والمنصُوري، ابن نظيف، 234.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365.

بقوله: "فرحلوا عنها خوفاً من السُّلطان"[1]، وبالفعل؛ فالقُوَّة المُحاصرة لِخلاط لا يُمكن أن تقاوم هذا التجمُّع للجُيُوش الأيُّوبيَّة، لأن التَّتار لم يكونوا قد وصلوا إلى المرحلة الثَّالثة من خطتهم، وهي الزجّ بكامل قواهم في المعركة، وسيتمّ ذلك مع هُجُوم هُولاكُو بالقُوَّة الرئيسية للتَّتار على الجزيرة وحلب، بعد فراغه من أمر بغداد.

ورُبَّما بسبب عدم وُجُود تصوُّر شامل للصراع القادم مع التَّتار لدى المُلُوك الأيُّوبيَّة، لم يتمكَّنوا من التعامل العسكري، أو السِّياسي الصحيح معهم، فالكامل بعد أن سمع بعودة التَّتار عن خِلاط لم يقمْ بتعقُّبهم، أو حتَّى القيام بمسير استعراضي خلفهم، بل، بدلاً من ذلك، استولى على آمد من الملك المسعود الأرتقي، وعاد دُون أيِّ صدام مع التَّتار[2]. ومع هذه العودة للكامل، التي دلَّت على جهله أو تجاهله لخطر التَّتار، فإن ما فعله أفضل ممَّا قام به الخليفة ومُظفَّر الدِّين كوكبري صاحب إربل وبدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل عام 631 هـ 1234م، فقد وصلت رُسُلُ التَّتار إلى إربل والمَوصل يطلبون شراء موادّ تنقصهم، فسمحوا لهم، "واشتروا جمالاً وأقمشة، وأُقيم لهم الراتب في المَوصل، بإذن الخليفة لهم في ذلك"[3].

إن التَّتار، وإنْ دفعوا ثمن ما أخذوه، فالأموال التي دفعوها هي - بالتَّأكيد - منهوبة من المُسلمين، والكُلُّ يعرف ذلك، والموادُّ التي اشتروها سيستعينون بها، وإنْ كان بشكل غير مُباشر، على حرب المُسلمين، وزادوا عليها في المَوصل بتكريمهم وتقديم الراتب؛ أيْ المُساعدات والضيافات، فهل هي مكافأتهم على الفظائع التي ارتكبوها بحقِّ المُسلمين؟ وسيرتكبونها لاحقاً بحقِّ مَنْ أضافهم في إربل والمَوصل، وبحقِّ الخليفة نفسه، الذي تمَّ كُلُّ ذلك بإذنه. وحتَّى كُلّ ذلك، فهُو أفضل من تصرُّف سُلطان سلاجقة الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، الذي بادر إلى تقديم الطاعة للتَّتار مع سفير خاصّ أرسله عام 630 هـ 1231م، إلى أقطاي قاآن، والتفت يشنُّ الحَرْب على الأيُّوبيَّة بدل التحالف معهم، فهاجم خِلاط، واستولى عليها، وعاد الملك الكامل للخُرُوج بجيشه من مصر عام 633 هـ

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 234.

2 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، 167.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

1236م، وحشد معه كُلّ المُلُوك الأيُّوبيَّة بجُيُوشهم، فاستعاد خِلاط، وما كاد يعود أدراجه حتَّى رجع كَيْقُبَاذ، فاستولى على الرُّهَا وحَرَّان، ثُمَّ عاد الكامل، فاستعادها[1].

وفي العام نفسه 633 هـ 1236م، كان الملك الكامل مُقيماً في دينسير، بعد أن استعاد الرُّهَا وحَرَّان من الرُّومي، وردَّ عليه كتاب بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل "يُعرِّفه أن التَّتار قطعوا دجلة في مائة طلب، كُلّ طلب خمسمائة فارس، ووصلوا سنجار، فرجع السُّلطان والأشرف، وقطعا الفُرات إلى دمشق"[2].

أوَّلاً: هُناك شكّ في مدى صحَّة رسالة لُؤلُؤ، فهل فعلاً كان هُناك قُوَّة من التَّتار وبهذا الحجم؟! أم أنَّه تهويل للأُمُور من قبَل لُؤلُؤ خوفاً من وُجُود قُوَّة الكامل والأيُّوبية بجواره؟! قد يكون هُو ضحيَّتهم المُحتملة؟ وخاصَّة أنَّه لم يُسجَّل نشاطاً كبيراً للتَّتار بهذا الحجم ضدَّ أيِّ مكان في تلك المنطقة، وفي ذلك العام بالتحديد.

ثانياً: حتَّى لو كان الخبر صحيحاً، فبماذا نُفسِّر عودة الكامل والأشرف السريعة نحو الشَّام؟! هل كان ذلك خوفاً من التَّتار؟! أم دفعاً وتسويفاً لصدام غير مأمون النتائج؟! على الأحوال كُلّها؛ لن يكون الانسحاب أسوأ من التناحر والصراع بين الأيُّوبيِّين وسلاجقة الرُّوم، وهما أكبر قُوَّتَيْن إسلاميَّتَيْن، بينما التَّتار يعصفون بالبلاد الإسلاميَّة الشَّرقيَّة، ويحيلونها دماراً مُرعباً. فهل كان مُلُوك الشَّام لاهين عن الخطر المُحدق بهم؟! أم هي نقص بالمعلومات الاستخباراتية لديهم؟ وهل الخليفة غير قادر حتَّى على وضع حَدٍّ لهذه الصراعات التافهة بينهما، وإنْ كان الخطر المُحدق بهم لم يُوحِّدهم، فهل يستطيع الخليفة ـ الذي لا يملك إلاَّ حُرمة اسمه ـ أن يُوحِّدهم؟! ولو حدث ذلك بمُعجزة لكان الأمل الأخير لصدِّ التَّتار عند المعابر المنيعة بين أرمينيا وكُردستان والشَّام[3].

كان أوَّل مَن احتكَّ عسكريَّاً ـ بشكل فعلي ـ مع التَّتار من بني أيُّوب هُو شهاب الدِّين غازي، فبعد هزيمة التَّتار لجلال الدِّين منكبرتي عام 628 هـ 1231م، هاجمت فرقة منهم مَيَّافارقين، فتصدَّى لهم شهاب الدِّين "وكسرهم، وغنم أسلحتهم". ويبدو أنَّه كان أكثر بني أيُّوب معرفة بالتَّتار، وبتقدير

1 - مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 67.

2 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 316.

3 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 168.

قُوَّتهم الحقيقيَّة، فمع تغلُّبه على فرقة منهم إلاَّ أنَّه طلب من السُّلطان الكامل الدعم؛ لأن التَّتار أصبحوا على حُدُوده، ورُبَّما كان شهاب الدِّين مُوقناً بأنَّ موجة من الصراع الدامي لا يُمكن لأحد أن يتنبَّأ بنتائجها ستضرب المنطقة، فطلب من الكامل ـ أيضاً ـ الإذن لنقل حريمه إلى مصر. وجاءه جواب الكامل، جواب مَنْ لازال يعيش مرحلة ما قبل التَّتار، فقد ردَّ عليه: "إنْ أُخِذَتْ مَيَّافارقين، أُخِذَتْ مصر. وكيف يليق ببني أيُّوب أن يفسحوا لك بذلك ووراءهم خمسون ألف فارس؟!"[1].

هذا هُو حال بني أيُّوب وجوارهم في مُواجهة المرحلة الأُولى من هُجُوم التَّتار على الجزيرة، صراعات محلِّيَّة، وتناحر، وتباغض، وطمع كلّ منهم بما بيد الآخر من البلاد، ولن تكون الأحوال في مُواجهة المرحلة الثَّانية أفضل.

في أوائل عام 635 هـ 1238م، بلغ الخليفة أن جُمُوع التَّتار تتوجَّه نحو بغداد، فسيَّر رسوله إلى الملك الكامل ومعه مائة ألف دينار مصرية ليُجنِّد عسكراً من الشَّام، فأخرج الكامل من بيت المال مائتَيْ ألف دينار لتجنيد العساكر، وأمر أن يسير معهم من عسكر مصر والشَّام عشرة آلاف فارس نجدة للخليفة، وأن تُعاد له أمواله. وكان الخليفة قد طلب أن يقود الحملة الملك النَّاصر داود بن الملك المُعظَّم، وقرَّر الكامل معه الأميران رُكن الدِّين الهيجاوي وعماد الدِّين بن موسك[2]. ونستطيع أن نُفسِّر طلب الخليفة بتجنيد عساكر من الشَّام؛ لأن التَّتار اكتسحوا شمال وشرق العراق، وهي المناطق الأهلة بالسُّكَّان وبقبائل الأكراد والتُّركمان، الذين هُم المجال الطبيعي للتجنيد في العراق. وبسبب وفاة النَّاصر داود فشلت الحملة الشَّاميَّة.

وعندما تُوفِّي الملك الكامل بدمشق عام 635 هـ 1238م طمع سُلطان سلاجقة الرُّوم غياث الدِّين كيخسرو بمُمتلكات الكامل الجزرية، ورُبَّما بسبب اعتقاده بأنَّه آمن من جهة التَّتار، كان يُكرِّر هجماته على مُمتلكات الأيُّوبيِّيْن في الجزيرة، فحاصر كيخسرو آمدَ، وبها المُعظَّم تُورانشاه بن الصَّالح أيُّوب، واحتلَّ بعض قلاعها. وكذلك انقض بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، من الطرف الآخر، على مُمتلكات الكامل الجزرية، فهاجم سنجار، وحاصرها، وفيها الصَّالح أيُّوب، الذي طمعت به

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 464.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 380.

الخَوَارزميَّة، وخرجت عن طاعته، ونهبوه، لكنَّه تمكَّن من استعادة ولائهم بالوُعُود والإقطاعات، فهزموا لُؤلُؤ الذي نجا بجلده، وتوجَّهوا نحو آمد، فانسحبت عساكر كيخسرو[1].

وفي عام 638 هـ 1241م، بدأ الدُّخُول الرَّسْمي للتَّتَار إلى الجزيرة، وكعادتهم؛ أرسل خاقانهم تولوي بن جنكيز خان رسولاً إلى شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين، ومعه كتاب مُوجَّه إليه وإلى كُلِّ مُلُوك الإسلام، يأمرهم فيه بالدُّخُول في طاعته، وقد ورد في مُقدِّمة الكتاب: "من نائب ربِّ السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشَّرْق والغَرْب، خاقان"، وأبلغ الرسول لشهاب الدِّين رسالة شفهية تنصُّ بأنَّ خاقان قد جعله سلحداره، وأنَّه يأمره بتخريب أسوار بلاده، فردَّ شهاب الدِّين عليه قائلاً: "أنا من جُملة المُلُوك الذين أرسلتَ إليهم، فهم ما يفعلوا أفعل"[2]. ولم يتأخَّر التَّتَار كثيراً، ففي عام 639 هـ 1242م، هاجموا أرزن الرُّوم، وأغاروا على خرتبرت[3]، وأيقن صاحب الرُّوم أن أمنه من جهة التَّتَار غير دائم، وأنَّه أصبح ـ الآن ـ من جُملة أهدافهم المعلنة.

وصادف في تلك الأثناء وُجُود المنصُور إبراهيم بن المُجاهد شيركوه صاحب حمص على رأس جيش التحالف الأيُّوبي ضدَّ الخَوَارزميَّة، وكان يخوض ضدَّهم عمليات عسكريَّة في الجزيرة، ولمَّا سمع بحَرَكَة التَّتَار انسحب نحو رأس عين[4]. والغريب في الأمر أن الخَوَارزميَّة، الذين كان المغول سبب نكبتهم، وهم أعداؤهم الأزليون، لم يأبهوا لحركة المغول، ورُبَّما كانوا يتجنَّبونهم، وكذلك المنصُور وجيش التحالف الأيُّوبي الذين كانوا يخوضون صراعاً مريراً ضدَّ الخَوَارزميَّة، فبمجرد سماع ذكْر حَرَكَة التَّتَار يخافون، وينسحبون، ولم يُفكِّروا مُطلقاً بالثبات للتَّصدِّي لهم، ولم يُفكِّروا بتوحيد جُهُودهم مع الخَوَارزميَّة، ولو مُؤقَّتاً، للتَّصدِّي للتَّتَار، وكأن الجميع كانوا يتغافلون عنهم.

وكان أوَّل مَنْ حاول التوفيق بين الأطراف المتنازعة في الجزيرة، على أمل أن يُشكِّلوا جبهة ضدَّ التَّتَار، هُو غياث الدِّين كيخسرو، الذي شعر بخطر التَّتَار المُتربِّص به، فأرسل عام 640 هـ 1242م، نائب المملكة الأمير شمس الدِّين الأصفهاني إلى شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين،

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 177.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 705.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 705.

وإلى السَّعيد صاحب ماردين، وإلى الخَوَارزميَّة، وأصلح بينهم، وأرضاهم من حسابه، فأعطى صاحب ماردين رأس عين، والخَوَارزميَّة أعطاهم خرتبرت وبعض البلاد الأُخرى، أمَّا المُظفَّر غازي؛ فقد أعطاه خِلاط. وتابع نائب مملكة الرُّوم طريقه إلى حلب ومعه أموال عظيمة ليستخدم بها العساكر[1]. إن ما قام به كيخسرو يدلُّ على مدى اهتمامه لأمر التَّتار:

1 ـ فقد أرضى الخَوَارزميَّة وحُلفاءهم من بلاده وأراضيه، رغم موقفهم العسكري الصعب أمام جيش حلب، الذي كان من المُمكن أن يُلحق بهم الهزيمة.

2 ـ كان يقصد بذلك توفير قوى جيش حلب، التي هي حليفة له للمعركة القادمة مع التَّتار.

3 ـ كان رسوله إليهم أكبر شخصية في البلاد بعد السُّلطان، فهُو نائب المملكة.

4 ـ حلّ الخلاف العسكري الداخلي، ليتمكَّن من إيجاد أكبر عدد من المُتطوِّعين؛ لتجنيدهم للقتال ضدَّ التَّتار.

وما إن وصل نائب المملكة شمس الدِّين الأصفهاني إلى حلب حتَّى طلب أن يرافقه قسم من جيشها كنجدة للمعركة القريبة مع التَّتار، وبالفعل؛ أرسلت حلب نجدة قويَّة مُقدَّمها أبي المعالي الناصح الفارسي. فالتقاهم السُّلطان غياث الدِّين، وأكرمهم، "وفرح أهل بلاد الرُّوم، وقويت قلوبهم بنجدة حلب" [2]. وفي عام 641 هـ 1243م، أرسل غياث الدِّين بعضَ قُوَّاته ومعهم عسكر حلب لفكِّ حصار التَّتار عن بلدة آقشهر[3]، فأحاط بهم التَّتار، "ولم يسلم إلاَّ مَنْ حمل وخرج من بينهم"، وهرب السُّلطان غياث الدِّين، وأجفل أهل بلاد الرُّوم[4]، ثُمَّ استولى التَّتار على آمد وخِلاط وما بينهما من بلاد الجزيرة[5].

ومع أن خطر التَّتار كان واضحاً للجميع، ويستهدف الجميع، فإن مُلُوك وأُمراء الجزيرة قلَّ مَن انتبه منهم لهذا الخطر قبل أن يُحدق به، فقد استمرَّت بلاد الجزيرة ما بين سلب ونهب، تارة من

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 708، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 327.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 708.
3 - آقشهر: بلدة في الأناضول، قُرب قونية.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 708.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 326.

الخَوَارزميَّة، وتارة أُخرى من التَّتَار. أمَّا بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل؛ فكانت سياسته مُداراة الطائفتَيْن، وإيقاع الفتَن بينهما، بالوقت نفسه، ليشغل بعضهم ببعض عنه[1]. ولكن الآلة العسكريَّة الرهيبة للتَّتَار كانت قادرة على طحن الجميع، خاصَّة ضمن واقع خلافاتهم وحُرُوبهم وانقساماتهم، فحتى لُؤلُؤ صاحب المَوصل لم يستطع أن يستمرَّ بألاعيبه السِّياسيَّة؛ إذْ نراه ينخرط بالصراع العسكري للقوى المحليَّة في الجزيرة.

ولكنْ؛ يبرز في هذه الظُّرُوف الصعبة النَّاصر يُوسُف صاحب حلب، الذي حاول ما عجز عنه كيخسرو في الجزيرة، فبدأ يسعى لحل النزاع بين الأُمراء فيها، وتدخَّل ـ بقُوَّة ـ لفرض السِّلْم بينهم، فأقطعهم نصيبين، ثلث لصاحب المَوصل، وثلث لصاحب ماردين، وثلث للمُعظَّم تُورانشاه بن أيُّوب صاحب حصن كيفا، وكان قصده استمالتهم لتشكيل حلف بمُواجهة التَّتَار. لكنَّ صاحب ماردين قام باحتلال كامل نصيبين عام 643 هـ 1248م، مستغلاً هجمات التَّتَار، فاعترض لُؤلُؤ صاحب المَوصل، وحرَّك جيشه نحو نصيبين، لكنَّ وُصُول رسول الخليفة المُستعصم عام 645 هـ 1247م، وسعيه بالصُّلح، أعاد الأُمُور بينهم على أساس الاتِّفاق القديم.

وفي عام 646 هـ 1248م، أثبت بدر الدِّين لُؤلُؤ إنَّه الرجل الأسوأ بالنِّسبَة لقضية المُسلمين أمام التَّتَار، فقد انغمس في صراع عسكري مع مُلُوك الجزيرة من أجل قضايا تافهة، وانتقم من صاحب ماردين، فهزم جيشه، واحتلَّ كامل نصيبين[2]، فاستنجد صاحب ماردين بالنَّاصر يُوسُف، فأرسل له عسكراً من حلب، تمكَّنوا من هزيمة لُؤلُؤ عام 647 هـ 1249م، واستردُّوا نصيبين.

وبذلك كانت نصيبين، التي أرادها النَّاصر يُوسُف حلاً للخلاف وسبباً للوحدة، سبباً للخلاف، بل، للحُرُوب التي استهلكت ما بقي من قُوَّة جُيُوش أُمراء الجزيرة، وكُلّ تفكير بالوحدة فيها بينهم، رغم الخطر الذي يُهدِّد الجميع بلا استثناء، وهكذا؛ فلم تنجح سياسة النَّاصر الجزرية لتأليف شكل بسيط من التفاهم، يصلح أن يكون قاعدة للتحالف ضدَّ التَّتَار. فقد دمَّر صاحب ماردين الملك السَّعيد وصاحب المَوصل لُؤلُؤ، بسبب مطامعها الرخيصة، بقايا الأمل بوحدة أُمراء الجزيرة أمام التَّتَار.

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 206.

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 213.

المبحث الثَّالث:

صُمُود ميَّافارقين

انتهى التَّتار من غارات الاستطلاع في الجزيرة، ومن جمع المعلومات عن أرضها وشعبها ومُلُوكها، وكانوا قد فرغوا من أمر بغداد، فوجَّهوا جُيُوشهم بثقلها صوب الجزيرة، وعلى رأسهم القائد العامّ للعمليات في المنطقة هُولاكُو خان.

لم يُضيِّع التَّتار الوقتَ، ففي عام 656 هـ 1258م، بعد سُقُوط بغداد، توجَّه هُولاكُو مُباشرة إلى الجزيرة، وكان هدفه دينسر ونصيبين، ومن ثَمَّ؛ حَرَّان، وكلَّف ابنه يشموط بقيادة فرقة أُخرى من جيش التَّتار، والسير باتِّجاه مَيَّافارقين، وكلَّف معه القائدَيْن إيلكا نويان وسونتاي نويان[1]. فوجَّه يشموط مجموعة من جيشه بقيادة كهداي كقُوَّة استطلاع، سبقته باتِّجاه مَيَّافارقين، ووجَّه فرقة أُخرى بقيادة الصَّالح ابن صاحب المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ إلى آمد[2].

آمد بمُواجهة التَّتار:

في عام 630 هـ عندما استولى السُّلطان الكامل على مدينة آمد الجزرية من الملك المسعود، مُنهياً حُكْمَ الأُسرة الأرتقية فيها، ولَّى عليها ابنه الصَّالح أيُّوب، وعندما خرج منها أيُّوب، بأمر والده الكامل لحصار الرحبة عام 635 هـ 1238م، ولَّى عليها ولده المُعظَّم تُورانشاه، وبسبب موت الملك الكامل في العام نفسه، طمع غياث الدِّين كيخسرو صاحب الرُّوم بآمد، فاستولى عليها، وتركها تُورانشاه إلى حصن كيفا. وفي عام 655 هـ 1257م، كان الملك الكامل ناصر الدِّين مُحمَّد بن المُظفَّر شهاب الدِّين صاحب مَيَّافارقين قد عاد من زيارة منكو قاآن خان التَّتار الأعظم، بعد أن قدَّم له فروض الطاعة، فعلم أن بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل يُكاتبُ أهل آمد لتسليمه المدينة، فطلب نجدة الملك السَّعيد صاحب ماردين، وأرسل عسكره، فطردوا عساكر سلاجقة الرُّوم، واحتلُّوا

---

1 - نويان أو نوين: لفظة فارسية معناها: أمير (المُعجم الذهبي - فارسي عربي، مُحمَّد ألتونجي، مادَّة: نوين)، ثُمَّ أصبحت تُستخدَم في جيش التَّتار كرُتبة لقائد ألف.

2 - جامع التواريخ - تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 306 - 319، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 196، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 383، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 490.

آمد[1]. وفي عام 657 هـ، وبينما كان التَّتار يُحاصرون مَيَّافارقين، وصل هُولاكُو إلى آمد، واستدعى سيف الدِّين بن محلي نائب الكامل فيها، فخرج إليه، وطلب منهم هُولاكُو تسليم المدينة، فلم يمانع، وقام هُولاكُو بتسليمها إلى ابنَيْ كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم المُتوفَّى؛ وهما رُكن الدِّين وعزّ الدِّين، ولمَّا اقتسما البلاد، أصبحت آمد مع رُكن الدِّين قليج أرسلان، وفيها نُوَّابه مع نُوَّاب التَّتار، ثُمَّ انتقلت بعد مقتله إلى ابنه غياث الدِّين[2].

تحدِّي مَيَّافارقين للتَّتار:

كانت مَيَّافارقين للملك الأشرف مُوسى بن العادل، ولكونه بلا ولد يرثه، فقد جعل أخاه المُظفَّر شهاب الدِّين غازي وليّاً لعهده، وأقطعه مَيَّافارقين وخِلاط، وأخذ منه إقطاعه من والده العادل وهُو الرُّهَا وسروج، وعندما اختلف الملك الأشرف مع أخيه الملك المُعظَّم صاحب دمشق، انضمَّ المُظفَّر للمُعظَّم، وعصي على الأشرف، الذي حاصره في خِلاط، وأخذها منه، وأبقى عليه مَيَّافارقين فقط. وفي سنة 627 هـ 1230م، تمكَّن المُظفَّر من الفوز بأرزن، وعوَّض صاحبها مدينة حاني. وَطَرَقَ التَّتار مَيَّافارقين عام 642 هـ 1244م؛ حيثُ هاجمت فرقة كبيرة منهم المدينة، واستعدَّ المُظفَّر للحصار، ثُمَّ خرج المُظفَّر من مَيَّافارقين، وبعد مُناوشات مع التَّتار صانعهم نائب المُظفَّر في مَيَّافارقين بمال، فرحلوا، وعاد المُظفَّر إليها[3]. وقيل إنَّ وفاته كانت في العام نفسه 642 هـ 1244م، وقيل 645 هـ 1247م، وقيل 646 هـ 1248م[4]. وتولَّى بعده ابنه الكامل مُحمَّد[5].

وفي عام 650 هـ 1252م، نزل بايجو نوين على مَيَّافارقين، فخرج منها الكامل، والتجأ إلى حصن كيفا عند الملك المُوَحِّد، ومن هُناك؛ "اتَّصل الكامل بباتو خان، ووعده أن يسير إلى منكوقاآن" خان التَّتار الأكبر، ولمَّا وصل إليه، وجد عنده إسماعيل بن لُؤلُؤ صاحب المَوصل والمُظفَّر

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 524.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 526، ـ ويُضيف ابن شدَّاد: أن غياث الدِّين كان لا يزال بها حتَّى عام 679 هـ.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 472.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 324، وكانت وفاته عام 645، لدى ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 474، ولدى الصفدي، الوافي بالوفيات، 4/ 307.
5 - ترجمته في ذيل أبو شامة، 205، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 441، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 203، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 293، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 75، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 91، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 295، والوافي بالوفيات، الصفدي، 4/ 307.

صاحب ماردين، والملك الجواد يُونُس وليفون بن هيثوم ملك الأرمن[1]. وجاءت زيارة الكامل لخان التَّتَار بعكس النتائج المُتوقَّعة، ففور عودته إلى مَيَّافارقين أعلن العصيان على التَّتَـار، وحـبس نُـوَّابهم، وخرج باتِّجاه دمشق لُمقابلة الملك النَّاصر يُوسُف[2].

إن ردَّ الفعل الغريب والمُفاجئ للملك الكامل نحو التَّتَار يـدلُّ عـلى أنَّـه شـكَّل قناعـة مُحـدَّدة وأكيدة من خلال زيارته لهم وتعرُّفه عليهم عن قُرب، ورُبَّما كانت هذه القناعة قد تولَّدت لدى كثير من مُلُوك الإسلام، لكنَّ الكامل كان الوحيد الذي اتَّخذ خطوات عمليـة وُفقـاً لهـذه القناعـة، والتـي ستتوضَّح لدينا من خلال مباحثاته في الشَّام مع الملك النَّاصر.

أسباب خُرُوج الكامل على التَّتَار:

لابُدَّ بأنَّ الأسباب التي دفعت الكامل لقراره بتحدِّي التَّتَار، والخُرُوج عـن طـاعتهم، كانـت أسباباً وجيهة برأيه، وإلاَّ لما اتَّخذ هذا القرار الصعب، والذي عجزت عنه ممالـك أقـوى مـن مملكتـه، وأكبر، وإذا حاولنا استقراء هذه الأسباب نجد أنَّه يشرحها بالتفصيل للملك النَّاصر يُوسُـف عنـدما قابله، وتتلخَّص بما يلي:

1 ـ لا تفيد المُداراة مع التَّتَار، ولا ينفع تقديم الطاعة لهم، ويأتي بمثال على ذلك بتصرُّف الملك النَّاصر مع التَّتَار.

2 ـ غرض التَّتَار هُو قَتْل السُّكَّان، والاستيلاء على الأرض، وقـد شـاهد ذلـك في كُـلِّ الـبلاد التي قطعها، وُصُولاً إلى عاصمتهم.

3 ـ تأكَّد الكامل أن التَّتَار سيقتلونه، إنْ كان معهم، أو ضدَّهم، فاختار الشهادة.

ـ نصُّ ما قاله الكامل للملك النَّاصر:

"إن هؤلاء التَّتَر لا تفيد معهم مُداراة، ولا تنجع فيهم خدمة، ولـيس لهـم غـرض إلاَّ في ذهـاب الأنفس، والاستيلاء على البلاد. ومولانا السُّلطان قد بذل لهم الأمـوال مـن سـنة اثنتَـيْن وأربعـين، وإلى

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 476ـ 481.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.

اليوم، فما الذي أثَّرت فيهم من خلوص المودَّة؟ فلا يغترّ مولانا بكلام بدر الدِّين ـ صاحب المَوصل ـ ولا بكلام رسولكَ ـ الزّين الحافظي[1]، فإنَّهما جعلاكَ خبزاً ومعيشة. وأُحذِّركَ كُلَّ الحذر من رسولكَ، فإنَّه لا يناصحكَ، ولا يختاركَ عليهم، وغرضه إخراج مُلككَ من يدكَ. وأنا فقد علمتُ أنني مقتول؛ سواء أَكُنتُ لهم، أو عليهم، فاخترتُ بأنْ أكون باذلاً مهجتي في سبيل الله، وما الانتظار، وقد نزلوا على بغداد، والمصلحة خُرُوج السُّلطان ـ النَّاصر ـ بعساكره لإنجاد المُسلمين، وأنا بين يدَيه، فإن أدركناهُ عليها، فبها، ونعمت، وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء، وإنْ لم ندركه أخذنا بثأره"[2].

الخطوات العملية التي اتَّخذها الكامل ضدَّ التَّتار:

عندما قرَّر الكامل نزع طاعة التَّتار بعد عودته من عند منكو قاآن إلى مَيَّافارقين، قام بما يلي:

1 ـ حبس النُّوَّاب الذين وضعهم التَّتار في مَيَّافارقين، وذلك حتَّى لا يترك لهم أيّ سُلطة، أو عُيُون عليه في مدينته .

2 ـ علم الكامل أن بدر الدِّين لُؤلُؤ المتعامل مع التَّتار يُحاول أن يمدَّ نُفُوذه إلى الجزيرة، وأنَّه يراسل سُكَّان آمد ليُسلِّموها له، وكانت تتبع سلاجقة الرُّوم، فأرسل الكامل عسكره، واحتلَّ آمد، وهزم حملة سلاجقة الرُّوم، وقطع الطريق ـ بذلك ـ على مدِّ نُفُوذ أعوان التَّتار إلى الجزيرة[3].

3 ـ علم منكو قاآن بما فعله الكامل، فأسرَّها بنفسه، ليُوقع به، وطلب منه التَّوجُّه بعسكره إلى بغداد لدعم هُولاكُو، فَسَوَّفَهُ الكامل، وتعلَّل، ثُمَّ غادر الجزيرة نحو دمشق للقاء الملك النَّاصر[4].

---

1 - الزين الحافظي: زين الدِّين سُلَيْمان بن المُؤيَّد بن عامر العقرباني، الحافظي نسبة للملك الحافظ صاحب جعبر؛ حيثُ انتقل من خدمته إلى خدمة الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، ثُمَّ انتقل عنه إلى خدمة هُولاكُو. وأغرى التَّتَر بالمُسلمين، فكُلُّ دم سفكوه في الشَّام هُو شريكهم فيه، ثُمَّ غضب عليه هُولاكُو، وقتله عام 662 هـ1264م .
(ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 234 ـ 239).

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 485.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 482.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 484.

مشروع الكامل لمُواجهة التَّتَار:

كانت لدى الكامل رؤية واضحة لموضوع الصراع مع التَّتَـار، وقـد تجلَّـت في المـشروع الـذي قدَّمه للملك النَّاصر عند زيارته له في دمشق، وهُو مشروع هُجُومي، وليس دفاعياً.

1 ـ أدرك النَّاصر أن نُزُول هُولاكُو على بغداد لحصارها هُو الهدف الأكبر للتَّتَار، وإنَّهـم بعـده سيتوجَّهون إلى الجزيرة والشَّام.

2 ـ تأكَّد الكامل أن سُقُوط بغـداد سيكون نهاية للدولـة العَرَبيَّـة الإسـلاميَّة بكُـلِّ رموزهـا ومعانيها وممالكها وإماراتها.

3 ـ لكُلِّ ذلك كان مشروعه يبدأ من بغداد، فقد طلب من النَّـاصر يُوسُـف التّوجُّـه بجيـشه، وسيكون الكامل معه، إلى بغداد لنجدتها، فمعركة بغداد هي التي ستحسم الصراع مع التَّتَار.

4 ـ كان يبدو من كلام الكامل ثقته ـ إلى حَدٍّ ـ ما بالنصر، فإنْ لم يُمكن نجدة الخليفة وإنقـاذه، فالثأر له.

5 ـ قام الكامل بتحذير النَّاصر من تضليل بدر الدِّين لُؤلُؤ المتعامـل مـع التَّتَـار، ومـن خيانـة رسول النَّاصر إلى التَّتَار وزيره الزين الحافظي، "فقد جعلوكَ خبزاً ومعيشة"[1].

ولكنْ؛ ما هي مرتكزات الكامل لهذا المشروع الذي بدا غير معقول للكثيرين في وقتـه؟! ومـا هي مُبرِّرات ثقته الكبيرة بإمكانية النصر على التَّتَار؟!

في الحقيقة؛ لقد كان الكامل واحداً من المُلُوك القلَّة الذين تجرَّؤوا على مُجرَّد التفكير بالمُقاومـة، ورُبَّما كان ذلك لتقديره الصحيح للموقف، فقد قَتَلَ التَّتَار المُلُوك المُستسلمين والخاضعين والمُقـاومين على السواء، وهذا ما أثبتت الأيَّام صحَّته، فالنَّاصر الهارب المُستسلم سيكون مـصيره غـير بعيـد عـن مصير الكامل المُقاوم المستبسل. بلا شكٍّ؛ إن هذا الإدراك للواقع قد توصَّل إليـه الكامـل مـن خـلال زيارته للتَّتَار، وتعرُّفه إليهم عن قُرب، فقد أيقن بغدرهم، كما أيقن بإمكانية هزيمتهم.

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 485.

ردّ النَّاصر على مشروع الكامل:

كان النَّاصر يُداري التَّتار، ويعلن طاعتهم، ويُقدِّم لهم الهدايا، ويُراسلهم، لذلك ما إنْ علم بتوجُّه الكامل المتمرِّد على التَّتار نحوه حتَّى جمع أرباب دولته واستشارهم، فكان رأي الأغلبية منهم استقبال الكامل، والاستماع إلى ما جاء من أجله، بينما عارض ذلك الزين الحافظي والصَّالح نُور الدِّين بن المُجاهد، والملك الأشرف بن المنصُور صاحب حمص، فإنَّهم كانوا مُتَّفقين مع التَّتار، وقال الزين الحافظي للناصر: "متى بلغ هُولاكُو خُرُوجكَ إليه جعله سبباً إلى قصد بلادكَ، والمصلحة اعتذاركَ إليه، وردّه. فلم يُمكن النَّاصر إلاَّ مُوافقة الجمِّ الغفير، فخرج إليه، وتلقَّاه، وأنزله بدار السعادة" [1].

إن ما نستنتجه من ما دار في مجلس الملك النَّاصر هُو أن أعوان التَّتار يُشكِّلون حزباً له وُجُوده، حتَّى في حاشية المُلُوك، ولكنَّهم قلَّة. وأن مُعظم الناس كانت مشاعرها ضدَّ التَّتار، وتميل للمُقاومة مهما كانت النتائج. ومع أن موقف الملك النَّاصر كان مع الأغلبية، لكنْ؛ بما لا يُعرِّضه للخطر المُباشر، فصحيح أنَّه استقبل الكامل، واستمع إليه، لكنَّه لم يوافق على مشروعه، وردّ على المشروع بما لم يكن يتوقَّعه الكامل، فبعد أن عرض الكامل مشروعه للمسير إلى بغداد أيَّد جميع الحاضرين في المجلس هذا المشروع، ما عدا حزب التَّتار، فقد كانت لهم جرأة في المعارضة، أمَّا الملك النَّاصر؛ فكان ردُّه متخاذلاً أكثر من تخاذله على أرض الواقع؛ إذْ عرض على الكامل أن يُرسل من طرفه رسولاً ليشفع له عند هُولاكُو، فأجابه الكامل قائلاً: "جئتكَ في أمر ديني تُعوِّضني عنه بأمر دنيوي؟ فقال: متى نزلوا عليكَ أرسلتُ لكَ عسكراً. فأجاب الكامل: هذا لا ينفعني حينئذ؛ إذْ لا وُصُول له إلي" [2].

لقد مثَّل الكاملُ إرادةَ الجهاد والمُقاومة مهما كلَّف الثمن، واختار الشهادة بعزَّة، إنْ لم يُمكن النصر. أمَّا الملك النَّاصر؛ فقد عبَّر عن جُبنه وتخاذله وحَيْرته وتردُّده، وانعدام قدرته على اتِّخاذ قرار ناجح في لحظة تحتاج إلى قرار.

وبقي الكامل في دمشق حتَّى سمع بسُقُوط بغداد، فرجع إلى بلاده عن طريق حلب؛ حيثُ التقى به ابن شدَّاد، وقال له: "أصبتَ في قصدكَ الملكَ النَّاصر، وما أصبتَ في رُجُوعكَ، هلا قصدتَ

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 485.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.

مصر؟ فيردّ الكامل: لقد خفتُ على قلب الملك النَّاصر، فيُشير عليه ابن شـدَّاد أن يُخـرج حريمـه مـن مَيَّافارقين، ويستخلف نُوَّاباً، ويعود للملك النَّاصر، لعلَّ تنهض عزيمته"[1]. ويتَّـضح لنـا مـن هـذا الحديث بين الكامل وابن شدَّاد أن فكرة قصد مصر كأمل أخير للوُقُوف في وجه التَّتَـار قـد خطـرت على بال الكامل، لكنَّه لم يُنفِّذها، حتَّى لا يغضب النَّاصر في وقت هُو بأمسّ الحاجة إليه، كـما تبـيَّن أن ابن شدَّاد كان مُطَّلعاً بدقَّة على الوضع العامّ، فقد عرف أن وضع الجزيرة ميؤوس منه، فنصح الكامل بإخراج حريمه من مَيَّافارقين، وعرف أن النَّاصر متخاذل خائف يحتاج لاستنهاض عزيمته.

نهاية الكامل وسُقُوط مَيَّافارقين:

في عام 656 هـ1258م، دخل يشموط بن هُولاكُو بقُوَّاته إلى الجزيرة، وأرسـل فرقـة بقيـادة كهداي إلى مَيَّافارقين2، وكان الكامـل ـ وقتهـا ـ في آمـد، فاستـشار خواصَّـه، فأشـاروا عليـه بعـدم الخُرُوج، فلم يوافق، وخرج بعسكره ليلاً يُريد أن يُفاجئ كهداي، فلمَّا اقترب من مُعسكر التَّتَـار رأى أن لا طاقة له بهم، فانسحب نحـو مَيَّافـارقين. وفي الـصباح؛ وصـلت القُـوَّات الرئيـسية للتَّتَـار مـع يشموط، وحـاصروا مَيَّافـارقين، وطلبـوا خُـرُوج الكامـل إلى يـشموط، فـأنكرت الحاميـة وُجُـوده، وأرسلوا هدية للتَّتَار مع رسول، فاستجوبه يشموط، فأقرَّ له بوُجُود الكامـل في مَيَّافـارقين. وفي هـذه الأثناء؛ وصلت النجدات للتَّتَار، فقد وصلت نجدة لُؤلُؤ صاحب المَوصل مع ولدَيْه، ووصلت نجدة صاحب ماردين مع ولده المُظفَّر، وشاركوا في الحصار.

وفي عام 657 هـ 1259م، رحل يشموط عن مَيَّافارقين بسبب قـسوة الـشتاء، وتـرك عليهـا ثلاثة آلاف رجل، ثُمَّ عاد في الربيع مع جُيُوش كثيفة، وشدَّد الهُجُوم عـلى مَيَّافـارقين، التـي صـمدت ببسالة[3]. وكانت رُسُلُ الكامل تتواتر إلى الملك النَّاصر طالباً النجدة، ولا من مُجيب[4].

إن الخوف المُتمكِّن في قلب الملك النَّاصر من التَّتَار، والذي دعمته انتصارات هُولاكُو، وفتحه لبغداد هي ما منعه من إرسال النجدة إلى الملك الكامل في مَيَّافارقين[5].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 196، ومُختصر تـاريخ الـدُّول، ابـن العـبري، 383، والأعـلاق الخطـيرة، ابـن شـدَّاد، 213/ 490، وزبدة الفكرة، الدَّواداري، 9/ 62.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 490.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498 ـ 499.

5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 91، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 45، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 483.

وكان التَّتار ـ كعادتهم ـ يُفضِّلون استسلام المُدُن والقلاع بالمُفاوضات من خلال الترهيب والترغيب، وهذا ما قاموا به في مَيَّافارقين، فلم يتركوا وسيلة إلاَّ واتَّبعوها لإقناع الكامل بتسليم المدينة، فكان ردُّه الدائم عليهم: إنَّه لا يثق بوُعُود التَّتار، وإنَّه لن ينخدع بكلامهم المعسول، ولن يخشى جُيُوشهم، وأنَّه سيضرب بالسيف مادام حياً[1].

ويبدو أنَّه كان في مَيَّافارقين إجماع من العَسْكَر والسُّكَّان على دعم موقف الكامل، لذلك صمدوا، واستبسلوا في القتال، ولم يقنعوا بالدفاع فكانت فرق من الجيش تخرج باستمرار لتُثخن في قُوَّات المغول، وتعود، كما "كان لهم منجنيق في غاية الإحكام ودقَّة الرمي"، ممَّا أعجز التَّتار عن إخضاع المدينة، رغم النجدات العسكريَّة القويَّة التي وصلتهم، والمُساعدة الكبيرة من بدر الدِّين لُؤلُؤ بالمنجنيقات. ممَّا دفع هُولاكُو لإرسال نجدة كبيرة إضافية لدعم حصار مَيَّافارقين بقيادة أرقتو، وحمَّله خُطَّة جديدة تتلخَّص بأنَّهم إذا عجزوا عن اقتحام ماردين، فليصبروا عليها حتَّى تنفد منها الأقوات.

ومع ذلك؛ استمرَّ الحصار سنة أُخرى، وبالفعل؛ نفدت الأقوات من المدينة، وحلَّت المجاعة فيها، وفي عام **658** هـ **1260**م، سقط آخر معقل للمُقاومة في الجزيرة، ودخل التَّتار مَيَّافارقين، "فوجدوا جميع سُكَّانها موتى، ماعدا سبعين شخصاً نصف أحياء، وقبضوا على الكامل، فعنَّفه هُولاكُو، وأمر بتقطيعه"[2]، ثُمَّ قطعوا رأسه، وطافوا به في الشَّام[3]، إلى أن وصل دمشق، فعلَّقوه على باب الفراديس، حتَّى أنزله الأهالي، ودفنوه[4]. وقتل التَّتار كُلَّ مَنْ وجدوه في مَيَّافارقين، وهدموها[5]. وهذا يدلُّ على شدة حنق المغول من الملك الكامل، ومن مُقاومته لهم، ورُبَّما كان أيسر ما كلَّفتهم إيَّاه هُو الخسائر البشرية والماديَّة، فهي ـ بلا شكٍّ ـ ساهمت في تحطيم سُمعتهم الحَرْبيَّة المُرعبة، لأن مُقاومة الكامل أصبحت رمزاً لإرادة المُقاومة ضدَّ التَّتار، وأصبح الكامل بموته قُدوة ومثالاً للتضحية والشهادة.

---

1 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 319.

2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 319.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 205، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 203، والحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 164، وزبدة الفكرة، الدَّواداَر، 9/ 62.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 506.

5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 506.

المبحث الرَّابع:

سفارة ابن شدَّاد بين السُّلطان النَّاصر وهُولاكُو

عجز الملك النَّاصر عن أيِّ تصرُّف عسكري أو سياسي تجاه هُجُوم التَّتار على الجزيرة، فهُو - رَسْميَّاً وسياسياً - حليف التَّتار، وصديقهم، ورُسُلُهُ وهداياه إليهم لا تنقطع "مُنْذُ عشرين سنة طوعاً واختياراً"[1]، ولكن النَّاصر كان يشعر بأنَّ وضع السِّلْم بينه وبين التَّتار غير حقيقي، حتَّى إنَّه لم يكن يأمنهم على رُوحه، ويبدو أنَّه كان يعلم في قرارة نفسه أن دوره ودور بلاده لم يحِنْ بعدُ في مُخطَّط التَّتار، وأنَّهم يسيرون بخطىً متتابعة نحوه، وخاصَّة بعدما هاجموا الجزيرة. ولكسر حالة الجمود هذه، من اللا سلْم واللا حرب بينه وبين التَّتار، أرسل الملك النَّاصر سفارة إلى يشموط وهُو يُحاصر مَيَّافارقين، ورُبَّما كانت سفارته تلك تعويضاً عن عدم قُدرته أو عن خوفه من إرسال أيِّ نجدة لذلك البلد المنكوب بحصار التَّتار. كانت السِّفارة تتألَّف من الملك المُفضَّل صلاح الدِّين يُوسُف بن مُوسى بن السُّلطان صلاح الدِّين، ولكونه من البيت الأيُّوبي نُرجِّح أن يكون هُو رئيس الوفد والمُخوَّل بالكلام.

وكان يرافقه المُؤرِّخ والكاتب ابن شدَّاد، الذي سطَّر في كتابه الأعلاق الخطيرة ما جرى معهم في تلك السِّفارة، وكان مصدر معلوماتنا عنها، ولأنَّه لم يذكر أسماء بقيَّة السِّفارة، فإنَّنا نعتقد أنَّهم مُرافقون ثانويون للمُساعدة الإدارية.

بدأ ابن شدَّاد حديثه عن هذه السِّفارة بصيغة الجمع، ولكنَّنا - بعد حين - نجده ينتقل للحديث بصُورة المُفرد، وكأنَّه وحده في السِّفارة، فهُو الذي يفاوض، وهُو الذي يتكلَّم، وإليه يُوجَّه الكلام، ولا ندري هل كان ابن شدَّاد - لأدبه وعلمه وخبرته، فعلاً - هُو رئيس السِّفارة؟ أم أنَّه تولَّى رئاستها لغياب المُفضَّل في الطريق لسبب من الأسباب؟ ويوصي الملكُ النَّاصر رُسُلَهُ أن يأخذوا معهم من حلب هدية قيِّمة تتألَّف من مال وجواهر، كما أرسل النَّاصر معهم من دمشق أولاده الثلاثة وحريمه ليكونوا بحلب، فهل كان النَّاصر يشعر بأنَّ حلب هي مكان أكثر أمناً لهم؟ إذنْ؛ لماذا تركها، وأقام بدمشق؟ إنَّها في الحقيقة خطوة مُحيِّرة من الملك النَّاصر، تزيد اعتقادنا بتردُّده وضياع قُدرته على اتِّخاذ قرار. وينطلق الرُّسُل، فيمرون على حماة وماردين، ثُمَّ يُتابعون نحو مَيَّافارقين، وهم يُرسلون

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 493.

رسائل تحذير للناس بالهرب من أمام التَّتار، فهل ذلك كان خُطَّة رَسْمِيَّة كُلِّفوا بها؟! أم ردّ فعل عشوائي قاموا به؟!

اعترضت سرايا التَّتار المنتشرة في الجزيرة طريق السِّفارة، فمنها مَنْ قنع قائدها بطعام بطنه، ومنها مَنْ طلب هدية، إلى أن اعترضتهم قُوَّة أرسلها يشموط لمُلاقاتهم، ففتَّشتهم، وفتَّشت دوابَّهم، ثُمَّ قاموا بتمريرهم بين نارَيْن مُوقدتَيْن وهم يضربونهم ضرباً خفيفاً بالعصي، ثُمَّ أخذوا منهم ثوب قماش، وقطعوا منه قطعة، ثُمَّ مزَّقوها إلى قطع صغيرة، وطرحوها في النار، إنَّه ـ بلا شكٍّ ـ طقس وثني من طقوس التَّتار له غاية مُحدَّدة. وبعد كُلِّ ذلك؛ أخذوهم مع الهدايا لمُقابلة يشموط، ولمَّا وصلوا إليه أدَّى ابن شدَّاد الرسالةَ، ويا للعجب من مضمونها، وهُو:

1 ـ تهنئة يشموط بسلامة الوُصُول إلى مَيَّافارقين.

2 ـ التشكِّي له من تعرُّض جُنُوده لبلاد الجزيرة، وقَتْل الناس فيها.

3 ـ تذكيره بانقياد النَّاصر لهم طوعاً مُنْذُ عشرين سنة، وبحجم الهدايا والأموال التي دفعها لهم.

فماذا كان ردُّ يشموط؟ إنَّه تقريع وتأنيب للرُّسُل على تجرُّئهم بقول ذلك الكلام، ثُمَّ تبرير لتصرُّفات التَّتار بأنَّ سُكَّان الجزيرة هُم من بدأ بحرب التَّتار، وكأن السُّكَّان هُم من ذهب إلى بلاد التَّتار، ودخلوها عليهم. وإن التَّتار ما دخلوا الجزيرة إلاَّ لطلب التُّركمان والعَرَب، وكأن التُّركمان والعَرَب في الجزيرة لا يعنون النَّاصر بشيء، فهم ليسوا رعايا ثابتين. ولمَّا طلب ابن شدَّاد من التَّتار ردّ ما نهبوه من حَرَّان أغاظهم ذلك، وهدَّدوه بالقتل، وروَّعوه بتمريره بجانب القتلى، وأنَّه سيكون منهم إنْ لم يعقل، والعقل ـ هُنا ـ بأنْ يقبل كُلَّ ما يُريده التَّتار. ولكن الغريب في أمر السِّفارة كلِّها أن أحداً لم يتحدَّث عن مَيَّافارقين المُحاصرة!.

وبعد ذلك؛ طلب التَّتار من ابن شدَّاد التّوجُّه إلى الكامل في مَيَّافارقين لإقناعه بالخُرُوج منها، فرفض، ولمَّا هدَّدوه قبل على شرط أن يسفر بينهما بالصُّلح، فأرسلوا معه أُذدمر بن بايجو، وتردَّد بينهما ثلاثة أيَّام حتَّى اتَّفقوا على الصُّلح لقاء دفع مبلغ من المال وهدايا للتَّتار ليرحلوا، وبالفعل؛ بدأ يشموط بالرحيل، لكنَّه عدل حين ورده كتاب لُؤلُؤ صاحب المَوصل يُخبره بقيام تمرُّد ضدَّ الملك النَّاصر يُوسُف، وإنَّه هرب، كما يُخبر لُؤلُؤ بأنَّ النَّاصر يُوسُف يراسله مُحرِّضاً إيَّاه على التَّتار. وهكذا؛ لم تسفر سفارة ابن شدَّاد إلاَّ عن أموال وهدايا تسلَّمها التَّتار[1].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 339 ـ 396، راجعْ نصَّ ابن شدَّاد في ملاحق هذا الكتاب.

المبحث الخامس:

مُقاومة ماردين

كانت ماردين آخر الإمارات الأرتقية في الجزيرة. وفي سنة 636 هـ 1239م، قُتل صاحبها المنصُورُ أرتقُ بن قُطب الدِّين أرسلان باتِّفاق مماليكه، وأخرجوا ابنَهُ السَّعيد نجمَ الدِّين إيلغازي، وكان أبوه قد حبسه، ونصَّبوه ملكاً على ماردين[1].

وفي عام 657 هـ 1259م، عندما دخل هُولاكُو الجزيرةَ قاصداً حلب، نزل على آمد، وحاصرها، ومن هُناك؛ أرسل إلى الملك السَّعيد صاحب ماردين يستدعيه، فسيَّر إليه ابنه المُظفَّر قرا أرسلان، وقاضي قُضاة ماردين مُهذَّب الدِّين مُحمَّد بن مجلي، والأمير سابق الدِّين بلبان مع هدية ورسالة يعتذر فيها عن الحُضُور بنفسه لمرضه، فقال هُولاكُو: "ليس مرض الملك السَّعيد صحيحاً، وإنما هُو متمارض مُحافظة للملك النَّاصر، فإن انتصرتُ عليه اعتذر بزيادة المرض، وإنْ انتصر عليَّ، فتكون له اليد البيضاء عنده؛ إذْ لم يجتمع بي، ولو كان للملك النَّاصر قُوَّة يدفعني بها لم يمكِّنني من دُخُول هذه البلاد، وقد بلغني أنَّه أرسل حريمه إلى مصر، وهذا يدلُّ على الهرب"[2]. ويبدو أن هُولاكُو قد أصاب عندما قال بأنَّ السَّعيد متمارض، حتَّى لا يحضر إليه، ولكنَّه ـ بالتَّأكيد لم يصبْ ـ عندما قدَّر أن ذلك مصانعةً للملك النَّاصر، فالنَّاصر ـ حتَّى قبل اجتياح التَّتَار للجزيرة ـ لم يكن له تأثير كبير على مُلُوك الجزيرة. ونجد أن هُولاكُو يردُّ على نفسه، فلو كان للناصر قُوَّة لدفعه عن بلاده، إنَّما نُرجِّح أن سبب عدم نُزُول السَّعيد بشخصه إلى هُولاكُو كان بسبب خوفه على نفسه من غدره.

واحتبس هُولاكُو ابن السَّعيد لديه، وأرسل القاضي ليبلغ صاحب ماردين بضرورة حُضُوره، وأبلغه القاضي أنَّه شاهد عند هُولاكُو عزّ الدِّين ورُكن الدِّين ولدي كيخسرو صاحب الرُّوم، "فتألَّم السَّعيد، وندم على إرسال ولده"[3].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 558، ـ المنصُور أرتق بن قُطب الدِّين أرسلان بن نجم الدِّين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق.

2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 342، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 960.

3 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 342.

وسارع السَّعيد بإرسال الأمير عزّ الدِّين يُوسُف بن الشماع رسولاً يحمل في الظَّاهر هدية إلى هُولاكُو، وفي الباطن ليبلغ ولده أن يتحيَّل للهرب من عند هُولاكُو، وليبلغ ولدي كيخسرو الحذر من هُولاكُو وضرورة الهرب من عنده[1]. وأبلغ الرسول عزّ الدِّين بن غياث الدِّين كيخسرو رسالة الملك السَّعيد، التي يُنكر فيها على عزّ الدِّين كونه ألقى بنفسه إلى التهلكة في محبَّة هُولاكُو، وقال له: متى أبقى عليكَ، فإنما ذلك ليغرّ الملك النَّاصر بكَ، لا لمحبَّة لكَ، ورغبة فيكَ، فأوسع الحيلة في الانفصال عنه، والحذر منه. فشكره عزّ الدِّين على ما نبَّهه عليه، وقال: والله؛ ما خرجت البلاد عن أيدينا إلاَّ بتخاذل بعضنا عن بعض، فلو كانت الكلمة مُجتمعة لم يجر علينا ما جرى"[2]. مع كُلّ الصدق في رسالة السَّعيد ومع كُلّ ما أبداه عزّ الدِّين من قناعة بها، فإنَّه لم يقمْ بأيِّ تصرُّف سوى مُواصلة الخُضُوع لهُولاكُو وللتَّتَار والسَّيْر في ركابهم.

مشروع السَّعيد:

كان السَّعيد مُتأكِّداً بأنَّ هُولاكُو سيقصده عاجلاً أم آجلاً، لذلك حاول تنفيذ مشروع دفاعي عسكري لمُواجهة التَّتَار، رُبَّما كان مشروعه متواضعاً أكثر من مشروع الكامل صاحب مَيَّافارقين، لكنَّه قابل للتحقيق أكثر، واحتمالات نجاحه أكبر.

أثناء سفر ابن شدَّاد إلى يشموط مرَّ بماردين، وقابل الملك السَّعيد صاحبها، وأبلغه رسالة شفهية من الملك النَّاصر يُوسُف تتضمَّن استشارته في أمر التَّتَار، يقول ابن شدَّاد: "فلم يُجبنا بكلمة، وقال: لقد ضجرتُ من نصحي إيَّاه"[3]، إذنْ؛ كان السَّعيد يُحاول إقناع النَّاصر، رُبَّما لتشكيل تحالف مع مُلُوك الجزيرة، أو لتطبيق خُطَّة مُعيَّنة، لكنَّ النَّاصر بتردُّده ما بين مُوالاة التَّتَار وبين خوفه منهم وعدم ثقته بهم أضاع كُلّ الفُرص، ولم ينتبه لنصيحة ناصح أو لمشروع مفيد.

لَمَّا عاد ابن شدَّاد من سفارته جعل طريق عودته على ماردين، وقابل الملك السَّعيد مرَّة أُخرى، ويبدو أنَّه استطاع إقناعه لبذل مُحاولة جديدة مع الملك النَّاصر، فعرض الملكُ السَّعيد مشروعَهُ قائلاً لابن شدَّاد: "أنا أُقرض صاحبكم ثلاث مئة ألف دينار مصرية، ويُسيِّر لي ثلاثة آلاف فارس

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 559، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 342.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 561.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 492.

اقترحهم عليه، ويصل إلى حلب بنفسه، وله عليَّ أنْ أُرَحِّلَ التَّتَرَ عن مَيَّافارقين، فإذا بلغت غرضي عن ذلك، اتَّفقتُ معه على قصد المَوصل وإخراجها من يد هذا المنافق"[1]. إن مشروع السَّعيد يكاد لا يُكلِّف الملك النَّاصر شيئاً، ويلقي عليه أقلَّ الأعباء مُقابل ما عرض السَّعيد من تحمُّله، فالمال من السَّعيد، وما على النَّاصر إلاَّ تجنيد الفُرسان الذين يطلبهم، وعليه أن يعود بجيشه إلى حلب ليحمي ظهر السَّعيد حتَّى يتمكَّن من مُهاجمة القُوَّة التي تُحاصر مَيَّافارقين، وهذه الخُطَّة كان من المُمكن أن تلاقي النجاح، فيشموط على مَيَّافارقين قد أصابه التعب، وبلغ منه الجهد مبلغه، وخاصَّة مع قُدُوم الشتاء، ولو هاجمه السَّعيد بفُرسان مُدرَّبين لأوقعه بين نارَيْن، حامية القلعة التي كانت تهاجم على الدوام وفُرسان السَّعيد، وكان احتمال النصر كبيراً، ورُبَّما كان له ما بعده. ثُمَّ إن خُطَّة السَّعيد مُركَّبة، وهي تقضي بعد توجيه هذه الضربة الكبيرة للتَّتار، والتي ستُؤدِّي إلى انسحابهم من الجزيرة، بالتوجُّه ـ بعدها ـ للقضاء على عميلهم في المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ، والذي كان الداعم لعملياتهم في الجزيرة، والمُوجِّه لها، فيحرم التَّتار من مُرتكز قوي إذا تمكَّن من طرده من المَوصل.

إن خُطَّة السَّعيد بدت لابن شدَّاد مُتكاملة فعلاً وعملية وقابلة للتحقيق، بدليل أنَّه تحمَّس لها، ونقلها للملك النَّاصر، لكنَّ موقف النَّاصر الخائف المُتردِّد، والذي كان ينظر إلى كُلِّ مشاريع المُقاومة على أنَّها بلا جدوى، أفسد من جديد مشروعاً كان من المُحتمل أن يكون بداية طريق جديدة للمنطقة بكاملها، فعندما أبلغه ابن شدَّاد خُطَّة السَّعيد، "لم يحرْ جواباً"[2].

ابن بطَّة وهُولاكُو:

بعد أن استولى هُولاكُو على حلب، وهرب الملك النَّاصر يُوسُف نحو مصر، استمرَّ الملك السَّعيد بالتواصل مع التَّتار، فأرسل عزّ الدِّين بن بطَّة بهدية إلى هُولاكُو، فوصل إليه وهُو يُحاصر عزاز، فقدَّم له الهدية، ثُمَّ إن هُولاكُو استدعى ابن بطَّة سرَّاً، وقال له: "اقض لي حاجة أقض لكَ ألف حاجة. قال له: ما هي؟ قال: أريد منكَ أن تُعرِّفني هل الملك السَّعيد مريض حقيقة؟ أم مُتمارض؟

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 499.

فقال له: كان مُتوعِّكاً، وازداد مرضه عند أخذك حلب، ثُمَّ عُوفي. فقال: إذا ألزمته بالمجيء تعلم أنَّه يفعل؟ قال له: ما يفعل أصلاً. فقال: لأيِّ سبب؟ قال: لأشياء كثيرة منها:

1 ـ أنكم لا تفون لأحد، ولا تقفون عند كلام تقولونه، وأنكم تُهينون المُلُوك، ولا ترعون حُقُوقهم، وقد تحقَّق أنَّه متى نزل إليكَ قتلته. قال: فإن قصدته أيقدر أن يمنع نفسه مني؟! قال: نعم. قال: بأيِّ شيء؟ قال: بحصانة قلعته، وما فيها من الذخائر والأقوات، فإنَّه ادَّخر فيها قُوتَ أربعين سنة"[1].

2 ـ أنَّها كلمة حقٍّ قالها ابن بطَّة في وجه أعظم سفَّاحي التاريخ، وبالتَّأكيد؛ كان ابن بطَّة يتمتَّع برباطة جأش كبيرة، وحنكة لا يُستهان بها، حتَّى تمكَّن من ترتيب أفكاره، وقول حقائق، قد تُؤدِّي إلى موته السريع، لكنَّ ما قاله شكَّل صدمة لهُولاكُو، جعلتْهُ يُعيد النظر بسياسته تجاه المُلُوك، ويُعطيه هدية، ويكتب إلى السَّعيد: "إني قد أعفيتكَ من النُّزُول، فطيب قلبكَ"، ويُرسل له مع الرسالة ابنه الملك المُظفَّر[2]. ولكن كلَّ هذا لن يجدي مع طبيعة التَّتار، ومع هُولاكُو بالذات الذي آمن بالقُوَّة وحدها، وبالقتل والدمار وسيلة لحُكْم الشُّعُوب، واحتلال البلاد.

سُقُوط ماردين:

تأكَّد الملك السَّعيد أن دوره قد حان، وأن التَّتار ـ لابُدَّ ـ سيقصدون بلده، فاستعدَّ لهم. وفي سنة **658** هـ **1260**م، وصلت طلائع المغول، وعسكروا خارج ماردين، وأرسلوا يطلبون من السَّعيد إذناً بدُخُول البلد لشراء الأقوات والعلوفات، ثُمَّ يرحلون، فأذن لهم، وتردَّدوا في الدُّخُول والخُرُوج، وفي وقت العصر؛ صعد التَّتار على أسوار البلد، ودقُّوا طبولهم، وهاجموا السُّكَّان، فقاوموهم "ودام القتال ثلاثة وستِّين يوماً، إلى أن فتح لهم بعض مُقدِّمي البلد درباً، فملكوه، فضعف أهل البلد، واحتموا بالكنائس لباطن كان لأصحابها مع التَّتار، فملكت التَّتار البلدَ، وأخذوا في قتال القلعة"[3]. وفي سنة **659** هـ **1261**م، وقع وباء في أهل القلعة، فأهلك أكثرهم، ومات منه الملك السَّعيد[4]. وقيل إنَّ ابنه الملك المُظفَّر قد سقاه دواء سامَّاً في مرضه، فمات، لأنَّه كان ينصحه بالنُّزُول

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 562 ـ 563.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 563.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 565.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 566، وكنز الدُّرر، ابن أيبك 8/ 65.

إلى التَّتار، فيرفض[1]، وهذا احتمال بعيد؛ لأن المُظفَّر لم ينزل إلى التَّتار مُباشرة عندما طلبوا منه ذلك بعد تولِّيه مكان أبيه، بل فاوضهم، وطلب رهائن، حتَّى يُرسل رُسُلَهُ إلى هُولاكُو، الذي أقرَّ الصُّلح معه، وانتدب كوهداي، وهُو من أكابر أُمرائه، ليُقيم في ماردين. وقد أسلم كوهداي بعد ذلك، وتزوَّج أُخت الملك المُظفَّر، وانتظم الصُّلح والهُدنة بين المُظفَّر والتَّتار[2].

حُكَّام مَيَّافارقين الأيُّوبيَّة

السُّلطان صلاح الدِّين: 581 هـ 1185م.

الملك العادل ابو بكر: 590 هـ 1194م.

الأوحد نجم الدِّين بن العادل: 595 هـ1199م.

الأشرف مُوسى بن العادل: 607 هـ 1210م.

المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن العادل: 618 هـ 1221م ت، تقريباً 645 هـ 1247م.

الكامل ناصر الدِّين مُحمَّد بن غازي: قتله التَّتار 658 هـ 1260م.

---

1 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 324.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 568.

الفصل الثَّالث
التَّتَار في الشَّام

المبحث الأوَّل:
العلاقات بين السُّلطان الأيُّوبي النَّاصر والتَّتَار

كانت خُطَّة التَّتار العسكريَّة للسيطرة على البلاد، يسبقها ـ على الدوام ـ تحرُّك ديبلوماسي لرُسُلهم وسُفرائهم، والمُتتبِّع لخطِّ سَيْر رُسُل التَّتار في البلاد يستطيع أن يحدِّد اتِّجاهاً مفترضاً لتحرُّكهم العسكري اللاحق، فبعد سيطرتهم على بلاد فارس، بدأت اتِّصالاتهم مع دولة الخلافة وممالك شمال العراق، ثُمَّ مع مُلُوك الجزيرة وسلاجقة الرُّوم، وبعدها؛ مُلُوك الشَّام. ففي عام 628هـ 1231م، بعدما أنهى التَّتار أمر الخوارزمية نهائيّاً، أرسلوا رُسُلهم إلى مُلُوك الشَّام[1]، ومع أنه كان وقتاً مُبَكِراً بالنسبة لخُططهم العسكريَّة نحو الشَّام، فقد كان لا يزال أمامهم احتلال العراق بكامله والجزيرة وبلاد سلاجقة الرُّوم، ولكنْ؛ كان لدى التَّتار لكُلِّ شيء حسابه، ولا شيء يمنع من استكشاف مُستقبلي يتعلَّق بالخُطط البعيدة، ويُمكن أنْ يفيد الخُطط القريبة. ونستطيع أنْ نُخمِّن أن رُسُلهم لم تنقطع عن الشَّام مُنْذُ ذلك الوقت على جري عادتهم في المناطق الأخرى، وذلك لبثِّ دعايتهم، والاستكشاف والاستطلاع للنوايا وللقوى العسكريَّة، ولطبيعة البلاد.

كان أوَّل شكل لفرض هيمنة التَّتار على الشَّام قد بدأ عام 642 هـ 1244م، عندما وصل إلى دمشق كتاب بدر الدِّين لُؤلُؤ، صاحب المَوصل حليف التَّتار وعميلهم، يقول فيه: "إنِّي قرَّرتُ على أهل الشَّام قطيعة التَّتَر في كلِّ سنة من الغني عشرة دراهم، ومن المُتوسِّط خمسة، ومن الفقير درهم"، وقرأ الكتاب على الناس، وشرعوا في الجباية[2]. وبالتَّأكيد؛ فقد كان الكتاب يشير أن هذا المال مقابل أن يكفَّ التَّتار عن البلاد، ويتركوها إلى غيرها.

ورُبَّما لم يكن بمقدور أحد من الشعب ولا من الحُكَّام أن يُفكِّر بأن هذا المال هو لتجهيز جيش التَّتار لغزو بلادهم، وهذه ـ أيضاً ـ كانت من جُملة خُطط التَّتار المُطبَّقة على البلاد قبل فَتْحها، لإضعاف أهلها بنَقْص الأموال، وتكون نفقات التَّتار من أموال تلك الشُّعُوب. ولكنَّ قراءة كتاب لُؤلُؤ على الناس، والمُباشرة بجمع المال أمور تدلُّ عن انعدام سيطرة الحُكْم الأيُّوبي في الشام، وإلَّا لماذا لم يكن

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 231.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419، و المُختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 192.

الخطاب مُوجَّهاً إلى صاحب دمشق النَّاصر يُوسُف؟! ولماذا لم يكـن الجمـع مـن خـلال عُمَّالـه؟! كـما أن المباشرة بالجَمْع وعدم الاعتراض تدلَّان على حالة الفوضى والرُّعب من التَّتار.

رُبَّما يستطيع أحدهم أن يجد بعض العُذر للملك الأشرف بن العادل لتهاونه بأمر التَّتار، ففـي أيَّامه؛ لم تكن قد توضَّحت مطامعهم في الجزيرة والشَّام، ورُبَّما تـصوَّرهم الأشرف مُغـيرين يـسلبون، وينهبون، ثُمَّ يتراجعون شرقاً، فقد كان الفرنج يبدون له أكثر خطـراً، خاصَّـة بعـد اسـتيلائهم عـلى دمياط. لكنَّ الذي لا يستطيع أحد إيجاد مُبرِّر أو عُذر لتهاونه وحَيْرته وتخاذله أمـام التَّتـار هُـو الملـك النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام، الـذي جعـل ضَـمَّ مـصر إلى مملكتـه همَّـه واهتمامـه، وكـان بارعـاً في التحالف مع مُلُوك الأيُّوبيّين الآخرين، ومع الفرنج ضدَّ المماليك في مصر، ومع ذلك؛ لم يـأت بحَرَكَـة سياسيَّة، أو عسكريَّة واحدة لجَمْع الشَّمل ضدَّ التَّتار، فبرهن عن شخصيَّة سياسيَّة هزيلة، تحمل عقلاً محدوداً محكوماً بهاجس من التَّهيُّؤات لإحياء دولة جَدِّه النَّاصر الكبـير، الـذي كـان يعتقـد أنَّـه لـيس ـ فقط ـ سَمِيَّه، بل وريثه، ومثيله، ولكنْ؛ أثبتـت الأيَّـام أنـه لا يحمـل مـن الـسُّلطان صـلاح الـدِّين إلَّا اسمه فقط.

كان أوَّل اتِّصال سياسي رسمي على مُستوى عال بين التَّتار وصاحب الشَّام النَّاصر يُوسُف في عام 648هـ 1250م عندما وصلته طَّمغا[1] من خان التَّتار كيـوك، ويبـدو أن النَّـاصر يُوسُـف فـرح كثيراً بهذه الطَّمغا، واعتـبر أنـه سينجو بواسـطتها مـن شرِّ التَّتـار هُـو وبـلاده، "فـصار يحملهـا في حياصته"[2]، وأرسل إلى الخان هدايا كثيرة[3]. وما يُلاحظ على التَّتار أنهم كانوا يُحرِّضون الحُكَّام على إرسال الهدايا الثمينة، ويُلحُّون بطَلَب أفخرها، وأغلاها، وهـذا مـن ضـمن خُطَّـتهم لإفقـار المُلُـوك والتَّقوي بمالهم، بينما كان خانـات التَّتـار وأُمـراؤهم يُرسـلون ـ فقـط ـ المناشـير المكتوبـة، والطَّمغـا، إلى المُلُوك. وكانت هدايا الملك النَّاصر إلى الخان كيوك سبباً لانزعاج هُولاكُو قائد حملة الشرق، الـذي اعتبر أن النَّاصر يتجاهله بعدم إرسال هدايا له[4]، ورُبَّما ستكون هـذه بدايـة سيِّئة لنهايـة أسـوأ بـين الرجلَيْن. وبعد تعيين هُولاكُو قائداً عامَّاً لحملة العراق، أَوْكَلَ إليه الخـان الاتِّـصال بـالمُلُوك، ولم يعـد مسموحاً لأحد الاتِّصال بالخان.

1 - الطَّمغا: كلمة تُركيَّة عُرِفَتْ ـ فيما بعد ـ بالدَّمغة، وهي خَتْم الملك، أو شعاره، على قطعة من المعدن، وكانت تعني أن مَنْ يحملها في رعاية الخان، فهي أمان له.
2 - الحياصة: الحزام يُلَفُّ حول الخصر، وتُستخدَم للفَرَس.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 471.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 471.

المبحث الثاني:

السُّلطان النَّاصر بين المقَاومة والاستسلام

عندما أنجز هُولاكُو مهمَّته الأُولى، واستولى على بغداد، بدأ ـ مُباشرة ـ بالالتفات إلى المهمَّة التالية؛ وهي الجزيرة، والشَّام، فأرسل عدَّة رسائل إلى صاحب الشَّام الملك النَّاصر يذكر فيها فتحه لبغداد، وقتله الخليفة، ويطلب من النَّاصر القُدُوم إليه مع رجاله وأمواله، ويُهدِّد ويُنذر الفارِّين نحو مصر[1]. وبعد أن تلاحقت رسائل هُولاكُو إلى الملك النَّاصر، وفيها من التهديد والوعيد ما جعل الملك النَّاصر يُفكِّر أكثر باتِّخاذ قرار المقاومة، فقد شعر بالغدر والحقد في طيَّات تلك الرسائل، ولكنْ؛ على ما يبدو أن النَّاصر لم يكن يملك الثقة بنفسه، ولا بجيشه، للقيام بهذا العمل، الذي لم ينجح به أحد حتَّى الآن، ولم يجد أمامه إلَّا مصر، فعسكرُهَا قوي، ومواردها كبيرة، وبدأ النَّاصر ينساق مع هذا الحلِّ، رغم معارضة حزب أعوان التَّتار من الأُمراء في بلاطه، وعلى رأسهم وزيره الزين الحافظي، ويبدو أنه انصاع لضغوط حزب المقاومة، وهم من أُمراء الجند، وعلى رأسهم بكتمر وعلاء الدِّين القيمري، فأرسل الملك النَّاصر كاتبه وثقته المُؤرِّخ ابن العديم بمهمَّة على غاية من الخطورة إلى مصر، وهي طلب النجدة لمواجهة التَّتار[2]، ولابُدَّ أن النَّاصر كلَّفه بمهمَّة أُخرَى سرِّيَّة هي كَشْف نوايا المماليك تجاهه. انطلق ابن العديم لتنفيذ مهمَّته، فوصل مجلس سُلطان مصر المنصُور علي بن المُعزّ آيبك، وعرض الأمر، وقبل أن يبتَّ بالجواب، قام قُطز بالقبض على المنصُور علي، وأعلن نفسه سُلطاناً على البلاد بحُجَّة الحاجة لسُلطان قوي قادر على الجهاد، والوقوف بوجه التَّتار، ثُمَّ أبلغ ابن العديم جوابه إلى الملك النَّاصر: "إنه يُنجده، ولا يُقصِّر عن نصرته"[3]. ويبدو أن هذا الجواب ـ مع وضوحه ـ لم يقض على مخاوف النَّاصر من المماليك، ولعجزه وتردُّده، اختار النَّاصر أمراً وَسَطاً، فقد قرَّر الاستمرار بالاتِّصال مع هُولاكُو، وإرسال الرُّسُل والهدايا إليه، دون أن يسير إليه بنفسه، وهذا يعني عدم ثقته به، وبالوقت نفسه؛ لم يقطع علاقته بالمصريين، بل رُبَّما كان أميل إليهم بدليل مسيره نحو مصر، لكنه ـ أيضاً ـ لم يكن واثقاً بوعودهم.

---

1 - وردت الرسالة في: العلاقات السِّياسيَّة، فايد عاشور، 37، و وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد ماهر حمادة، 352، راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 199.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 199.

لقد تسارعت الأمور من حول الملك النَّاصر يُوسُف ـ بشكل كبير ـ بعد فَتْح هُولاكُو لبغداد عام 656هـ "فأرسل له النَّاصر ولده العزيز مُحمَّد بتُحف وهدايا ليُصانعه بذلك"[1] ويسترضيه، ولكن هُولاكُو كان يعرف ـ تماماً ـ ماذا يريد من النَّاصر، فأرسل إليه رسالة بالعَرَبيَّة، كتبها نصير الدِّين الطوسي[2] تتضمَّن تهديداً، وتحذيراً، وطلبه ـ فوراً ـ إلى حضرة هُولاكُو[3]، فعاد النَّاصر، وأرسل وزيره الزَّين الحافظي بتُحف وهدايا مَلَكيَّة إلى هُولاكُو، لكن الوزير استغلَّ حضوره في الرسالة، وتقرَّب إلى التَّتار "فعرف في الدركاه، واشتهر، وصدر له فرمان، وبايزه"[4].

ورُبَّما كانت حَيْرَة وتردُّد النَّاصر، وتملُّقه إلى هُولاكُو بالرُّسُل والهدايا هي التي أوقعت رشيد الدِّين بالوَهْم؛ حيثُ قال: "وكان سُلطان حلب ـ أحياناً ـ يُظهر الطاعة والمَيْل إلى هُولاكُو في الخفاء، فاتُّهم ـ لهذا ـ السبب عند سلاطين الشَّام، وقصدوه، فهرب، والتجأ إلى حضرة هُولاكُو خان، فقوَّى ذلك عزمه على فَتْح حلب"[5].

فالنَّاصر هُو سُلطان الشَّام، وقد فتح هُولاكُو حلبَ قبل وصول النَّاصر إليه بمُدَّة طويلة، ويعود رشيد الدِّين ليُناقض ما كتبه، فيقول: "لمَّا وصل هُولاكُو خان إلى حلب، فرَّ النَّاصر إلى قلعة كرك، ولمَّا أراد كيتبوقا أن يُحاصره، طلب الأمان، وسلَّم نفسه، فأرسله إلى الحضرة "[6]، وهذا ـ بالتَّأكيد ـ وَهْم. فالنَّاصر ترك حلب قبل حصار هُولاكُو لها بمُدَّة طويلة.

ورُبَّما للسبب نفسه، وهُو تضارب مواقف الملك النَّاصر، وتردُّده، يذكر المقريزي معلومات مناقضة تماماً لما ذكره رشيد الدِّين عن العلاقة بين النَّاصر وهُولاكُو، يقول المقريزي: "أنفذ الملك النَّاصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هُولاكُو، ومعه تقادم وعدَّة من الأُمراء، فلمَّا وصل الملك العزيز إلى هُولاكُو، قدَّم إليه ما معه، وسأل على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك، فأمر

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 416.

2 - نصير الدِّين الطُّوسي: مُحمَّد بن مُحمَّد بن الحسن، فيلسوف وعالم فَلَكي، وُلد في طوس، حوالي 600 هـ-1204م، وتُوفِّي عام 672 هـ ـ 1274م في بغداد، عاش مُدَّة في قلعة ألموت، وبعد فتحها، رافق هُولاكُو، وخَدَمَه. راجعْ كتاب: الفيلسوف نصير الدِّين الطُّوسي، د. عبد الأمير الأعسم.

3 - وردت الرسالة في: جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 296، ووثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد ماهر حمادة، 353 ـ راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

4 - الدركاه هي الخيمة، وهُنا هي المعسكر، والفرمان هُو قرار من هُولاكُو، وبايزه هي الطّمغة.

5 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 305.

6 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 208.

هُولاكُو أن يتوجَّه إليه بعسكر فيه قدر عشرين ألف فارس"[1]، ثُمَّ يعود المقريزي ليُؤكِّد وُصُول نجدة هُولاكُو إلى النَّاصر بدمشق[2]. وهذا الخبر بكامله وَهمَ به المقريزي، فالعزيز بن النَّاصر ذهب إلى هُولاكُو وهُو على حصار بغداد؛ لتملُّقه، واسترضائه، وليس لطلب النجدة لأَخْذ مصر من المماليك، فهذا لا يتناسب ـ أبداً ـ مع خوف الملك النَّاصر من التَّتار، وانسحابه أمام هُجُومهم على الجزيرة الشَّاميَّة من حلب إلى دمشق، وإرسال ابن العديم إلى مصر يطلب نجدة المماليك ضدَّ التَّتار.

إن عودة المقريزي ليُؤكِّد وُصُول نجدة التَّتار إلى دمشق ـ مع أن ذلك لم يحصل وفقاً لكُلِّ مُؤرِّخي تلك الأيَّام ـ تجعلنا نعتقد أنه رُبَّما كان يُريد اتِّهام النَّاصر بالتعاون مع التَّتار ضدَّ المماليك، وهي تُهمة بالخيانة العُظْمَى للسُّلطان الأيُّوبي صاحب الشَّرعيَّة تُبرِّر أمام الرأي العامِّ القضاء على نظامه، وتُعلي شأن نظام المماليك المُجاهدين ضدَّ التَّتار، المُنتصرين على أعداء الدِّين.

ونتوقَّع أنه مهما بلغ تردُّد النَّاصر، وتخاذله، فإنه لم يصل إلى حَدِّ طلب النجدة من كُلٍّ من المماليك والتَّتار ضدَّ بعضهم، وطالما تُؤكِّد النُّصُوص وُجُود المُؤرِّخ ابن العديم بمصر لطلب النجدة، فهي تنفي ـ ضمناً ـ طلبه النجدة من التَّتار.

ولكنَّ الغريب في الأمر هُو رسالة أرسلها هُولاكُو من إنشاء نصير الدِّين الطُّوسي إلى أُمراء عسكر الشَّام، وأجنادها، يتهدَّدهم، ويتوعَّدهم، ويطلب منهم الطاعة وهُم صاغرون[3]، ولابُدَّ أن هُولاكُو وقادته كانوا يعتقدون بأن النَّاصر ميَّال إليهم، ولكنه يخشى قادة العسكر، ورُبَّما نقل هذه الصُّورة إليهم عميلهم الزَّين الحافظي وزير الملك النَّاصر، وهي صُورة حقيقيَّة؛ بدليل أن أُمراء جُند النَّاصر انقلبوا عليه لتهاونه بأمر التَّتار، وكادوا يُقيمون أخيه الملك الظاهر غازي في السَّلْطَنَة مكانه[4]، ولكنَّ الدليل الأقوى على موقف أُمراء الجُند هُو ردُّهم على رسالة هُولاكُو، فقد أرسلوا له ردَّاً كُلّه استصغار للتَّتار، وإظهار لقُوَّة جُند الشَّام، وعزمهم على المقاومة؛ خاصَّة بعد قَتْل التَّتار

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 508.

3 - الفيلسوف الطُّوسي، عبد الأمير الأعسم، 162 ـ راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200 و السُّلُوك، المقريزي، 1/ 512 ـ كذلك راجعْ ما قاله ناصر الدِّين القيمري في مجلس السُّلطان قُطز، الذي ناقش فيه مسألة التَّصدِّي للتَّتار، وكيف شجَّعه على الصُّمُود والمُواجهة. (وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 356 ـ 357).

للخليفة، بل وصل الأمر بهم إلى تحدٍّ سافر ومكشوف للتَّتار، فقد حدَّدوا موعداً؛ هُو شهر صَفَر، ومكاناً هُو الرّستن للقائهم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

ونلاحظ من رَدِّ أُمراء العسكر تمسُّكهم بوحدة الموقف مع الملك النَّاصر، فرسالة هُولاكُو لم تُشر إليه، لا من قريب، ولا من بعيد، وكأنه يُبعده عنهم، أو أنه يُشعرهم بذلك، بينما جاء رَدُّ الأُمراء يُشير إلى أنهم مُتَّحدون مع الملك النَّاصر، مُتَّفقون معه على المقاومة، يقولون في الرسالة يخاطبون هُولاكُو: "وسيأتيك الملك النَّاصر، وبكتمر، وعلاء الدِّين القيمري، وسائر أُمراء الشَّام ينفرون"[2].

ويبدو أنه في الوقت ذاته، عام 657 هـ وصلت رسالة المُظفَّر قُطز، الذي تسلطن في مصر، يُشجِّع فيها النَّاصر على الصُّمُود في وجه التَّتار، ويُعلن دعمه له، فقد خاف قُطز أن ينهار النَّاصر أمام الحرب النفسية التي يشنُّها التَّتار عليه، ويخضع لتهديدات هُولاكُو المُستمرَّة له، ورُبَّما كان هدف قُطز من هذه الرسالة، إن لم يكن تشجيع النَّاصر وتهدئة خوفه الكبير من التَّتار، فعلى الأقلِّ؛ طمأنتُهُ من جهة حُكَّام مصر، وتحييده، حتَّى لا يكون عوناً للتَّتار، فبعد أن ترفَّق قُطز في رسالته إلى النَّاصر يُوسُف، وأقسم فيها بالأيمان أنه لا يُنازعه في المُلك، ولا يُقاومه، وأنه نائب عنه في ديار مصر، ومتى حلَّ بها، أقعده على عرشها، ثُمَّ يقول في رسالته: "وإنْ اخترتَني خدمتُكَ، وإنْ اخترتَ، قدمتُ ومَنْ معي من العسكر نجدة لكَ على القادم إليكَ، فإنْ كُنتَ لا تأمن حُضُوري، سيَّرتُ إليكَ العساكرَ صحبة مَنْ تختاره"، فشعر الملك النَّاصر بالاطمئنان[3]، ولكنْ؛ ليس إلى درجة الثقة، وبدليل تصرُّفاته اللاحقة، فقد ظلَّ مُتردِّداً بين الحزبَيْن المتنازعَيْن في بلاطه: فأحدهما يريد الاستعانة بقُطز والمقاومة، والحزب الثاني يريد منه الاستسلام إلى هُولاكُو.

لم تكن المقاومة أكبر من قوى الملك النَّاصر العسكرية بقَدْر ما كانت أكبر من قواه النَّفسية، التي تُمكِّنه من اتِّخاذ قرارها، والنُّهُوض بعبء مواجهة، رُبَّما كان يراها محسومة سلفاً لغير صالحه،

---

1 - سُورة الشُّعراء، الآية / 227 ـ راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

2 - راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 508 ـ ويُقدِّم المقريزي هذه الرسالة في كتابه قائلاً: بأنَّ قُطز كتبها بعد وُرُود الخبر بوُصُول نجدة من عند هُولاكُو إلى الملك النَّاصر بدمشق. ويبدو أن المقريزي قد وَهِمَ بهذا الخبر من أساسه، وهذه الرسالة لا يمكن لقُطز أن يكتبها بعد وُصُول نجدة التَّتار للنَّاصر؛ إذ يكون الأمر قد خرج من يده، ولو قال إنه كتبها عند طلب النجدة، أو قبل وُصُولها، لكان في الأمر مكان للنَّظَر.

ونتيجتها ـ كما كان يعتقد ـ الهزيمة، والقتل. وأمَّا الخُضُوع لهُولاكُو، بالرغم من أن النَّاصر لم يقطع شعرة العلاقات معه، فالخُضُوع كما يريده هُولاكُو، هُو استسلام بدُون قَيْد، أو شرط، ونتيجته القَتْل كما فعل التَّتَار بغيره من المُلُوك.

بعد اغتيال مُقدَّم المماليك البَحْريَّة في مصر فارس الدِّين أقطاي؛ هرب البَحْريَّة إلى الشَّام، وقدموا على الملك النَّاصر، وكان بدمشق، فاستقبلهم، وأكرمهم، وكانت أخبار تقدُّم التَّتَار من العراق نحو الشَّام في عام 657 هـ 1259م، تتواتر على الملك النَّاصر، فقال له بيبرس[1]: "قَدِّمني على أربعة آلاف فارس، أقوم بهم إلى شطِّ الفُرات، أمنع التَّتَار من العبور إلى الشَّام. فلم يُمكِّنه الصالح صاحب حمص لباطن كان له مع التَّتَار"[2]، وفي الحقيقة؛ فإن رأي بيبرس يبدو منطقياً من الناحية العسكريَّة، فدفاعات الشَّام كان يجب أن تقوم عند الفرات، وهو مَعْبر مائي إجباري لجُيُوش التَّتَار، كان من الممكن إيقافهم عنده، ولكنْ؛ هل كان ذلك مُمكناً بأربعة آلاف فارس فقط، مقابل كلّ قُوَّات التَّتَار، وسُمعتهم الرهيبة؟! حتَّى إنه قد بدا أن التَّتَار قد سيطروا على الشَّام قبل أن يدخل جيشهم إليها، فقد كان لهم من السُّمعة المُرعبة فيها ما يجعل لهم فيها صَوْلة وجَوْلة، حتَّى أنَّ رُسُل التَّتَار أخذوا يتحكَّمون بمدينة كُبْرَى وكُرسي مملكة هي حماة، فاعتقلوا قائد جُندها، وشيخ شُيُوخها، وطلبوا ملكها ليأخذوه، كلّ ذلك بسبب مَقْتل رسول للتَّتَار قُرب حماة، ممَّا يدلُّ على حالة من الرُّعب القاتل من التَّتَار، التي كان يعيشها السُّكَّان والحُكَّام، ويصف هذه الحالة ابن شدَّاد، وقد شاهدها أثناء سفره إلى مَيَّافارقين، يقول: "فلمَّا وصلنا حماة، تعرَّضت رُسُل التَّتَر لصاحبها، وانتهكوا حُرمته، وأخذوا شُجاع الدِّين مُرشد الخادم ـ مُقدَّم عسكره ـ وشيخ الشُّيُوخ شرف الدِّين عبد العزيز بن مُحمَّد، وطلبوا الملك المُظفَّر، ليأخذوه معهم، بسبب الرُّسُل الذين قُتلوا في بلاده، فتوسَّطتُ بينهم على ألفَيْ درهم، وضيافة، فقبلوها، وأطلقوا مَنْ كان أُخِذَ"[3].

1 - رُكن الدِّين بيبرس البندقداري، أحد مُقدَّمي البَحْريَّة الفارِّين إلى الشَّام، وهُو الذي أصبح ـ فيما بعد ـ سُلطان مصر.

2 - المنهل الصَّافي، ابن تغري بردي 3/ 451 ـ الصالح هُو ابن صاحب حمص الملك المُجاهد وهُو: الملك الصالح إسماعيل بن الملك المُجاهد أسد الدِّين بن الملك القاهر مُحمَّد. لمُراجعة تفاصيل حياته انظرْ: مملكة حمص الأيُّوبيَّة، مُنذر الحايك، 126.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 491.

المبحث الثالث:

سقُوط حلب بيد التتَّار

بعد احتلال بغداد، ودُخُول التتَّار إلى الجزيرة الشَّاميَّة، كانت القوى السِّياسيَّة في المنطقة لا تدعو إلى التفاؤل أبداً، إذا ما فكَّر الملك النَّاصر يُوسُف بالتَّصدِّي للتتَّار.

وحتَّى نكون مُنصفين، وبغَضِّ النظر عن سُلُوك الملك النَّاصر السابق الناتج عن شخصية غير قيادية، الذي ساهم بتأزُّم الوضع العامّ، فالظُّرُوف السِّياسيَّة والعسكريَّة التي أخذت تحيط بالملك النَّاصر كانت قاسية جدّاً عليه، فمُعظم الحُكَّام قد قدَّموا الطاعة للتتَّار للحفاظ على عُرُوشهم، وكان منهم بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، وتاج الدِّين بن صلايا صاحب إربل، والمُظفَّر صاحب ماردين، وعزّ الدِّين ورُكن الدِّين أولاد كيخسرو وارثي عرش سلاجقة الرُّوم، والملك الوحيد الذي رفض الخُضُوع للتتَّار هُو الملك الكامل مُحمَّد بن المُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين، فحاصروه، وقتلوه[1]. أمَّا في الشَّام؛ فكان الملك المنصُور صاحب حماة تابعاً لسُلطان الشَّام الملك النَّاصر، فعندما تأزَّمت الأُمُور سَحَبَ جيشَهُ من حماة، والتحق بقُوَّات النَّاصر في دمشق، ويبقى السُّلطان الملك النَّاصر، صاحب أكبر قُوَّة عسكريَّة، فقد كان حائراً لا يدري ماذا يفعل، ويبدو أنه اتَّبع سياسة المُهادنة على كلِّ الجبهات، تاركاً الأُمُور تُقرِّر نفسها، ثُمَّ يُقرِّر هُو ماذا يفعل، ومن ضمن هذه السِّياسة أراد الابتعاد عن مسرح الأحداث، فترك حلب، وذهب ليُقيم بدمشق، فهي أبعد عن التتَّار، الذين رُبَّما ظنَّ أنهم قد يتوقَّفون بمُعجزة، وأقرب إلى مصر، التي لا زال يعتبرها حِمىً يمكن اللُّجُوء إليه. وضمن هذه الفوضى السِّياسيَّة والعسكريَّة، التي خلقها التتَّار في المنطقة، كان الفرنج غير قادرين على تحديد موقفهم، فأعداء المُسلمين القادمين هل سيكونون أعداءً لهم بالوراثة؟! أم أنه يمكن أن يكونوا حُلفاء ضدَّ ما تبقَّى من القوى الإسلاميَّة؟! ويبدو أن معظم فرنج الساحل الشَّامي كانوا يميلون لاعتبار التتَّار أعداء محتملين أشدّ أذى وقُوَّة من جيرانهم الحاليِّيْن المُسلمين[2].

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 198، و ذيل المُختصر، ابن الوردي ، 2/ 289، و السُّلُوك، المقريزي، 1/ 411، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 397، و ذيل مرآة الزَّمان، اليُونيني، 1/ 91 .

2 - راجعْ مبحث العلاقات بين الفرنج والتتَّار في هذا الكتاب.

أمَّا آخر القوى السِّياسيَّة والعسكريَّة في المنطقة، ورُبَّما أهمّها على الإطلاق، فهي في مصر، التي استولى عليها المماليك، وتوالى سلاطينهم عليها، ولكنها بالنسبة للملك النَّاصر دار أعداء مُغتصبين للحقِّ الأيُّوبي، ثُمَّ إنه لا يأمنهم على نفسه، رغم محنته هذه.

سُقُوط حلب:

اختار هُولاكُو أن يهاجم الجزيرة أوّلاً، ولكنه ـ كعادة التَّتار ـ ما إن احتلَّ حرَّان، حتَّى أرسل ابنه يشموط مع قُوَّة كبيرة إلى حلب، ولشدَّة حماس أهل حلب وعسكرها، خالفوا رأي المُعظَّم تُورانشاه بن السُّلطان صلاح الدِّين قائد الحامية، وخرجوا من حلب لقتال التَّتار، "فخدعهم التَّتَر، وقتلوا منهم مقتله عظيمة"[1]، ثُمَّ وصل هُولاكُو بالقُوَّات الرئيسيَّة لجيش التَّتار، فوزَّع قادته على الأسوار والأبواب، ووفقاً لأساليبهم المُتَّبعة في حصار المُدُن، فقاموا ببناء سُور واقي، يحميهم من رمايات حامية المدينة، وحفروا حولهم خندقاً يتحصَّنون فيه، ونصبوا منجنيقاتهم[2]. ولمَّا كان التَّتار يُفضِّلون استسلام المُدُن، ويعملون جهدهم لذلك؛ إذْ لم تكن جُيُوش التَّتار تملك الصبر ولا الوقت لحصار طويل الأمد، فمشاريعهم التوسُّعية الكبيرة جعلتهم أعداء للأسوار التي تعيق حَرَكَتهم، ولذلك قامت خُطَّتهم العسكريَّة للهُجُوم في الشَّام على تهديم القلاع والأسوار[3]، فقد عرض هُولاكُو الأمان على أهل حلب[4]، فأجابوه "مالك عندنا إلَّا السيف"[5]، فأمر هُولاكُو بمُهاجمة أسوار المدينة، وكانت قد وصلته نجدة الأرمن، ومعها قُوَّات من فرنجة أنطاكية[6]. وبعد أُسبُوع من الحصار؛ فُتِحَت المدينة، أمَّا القلعة؛ فقد قاومت أربعين يوماً[7].

يصف ابن العميد ـ وهُو مُؤرِّخ مسيحي ـ فظائع التَّتار في حلب، فيقول: "قتل التَّتار من أهل حلب وأهل البلاد الذين اجتمعوا بها ما لا يُحصى، حتَّى قيل: إن ما قُتل ببغداد ولا في مدينة من مدائن العجم مثلها، وامتلأت الطُّرُقات من القتلى؛ بحيثُ كانت خُيُول التَّتار تمشي عليهم، وأسروا فيها من

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 199.
2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 306.
3 - الرَّوض الظَّاهر، ابن عبد الظَّاهر، 93.
4 - راجعْ رسالة هُولاكُو إلى أهل حلب في: وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد ماهر حمادة، 354.
5 - راجعْ رسالة هُولاكُو إلى أهل حلب، وردّهم عليها في: وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 354.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 510، و البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 213، و ذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 291.
7 - جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 306.

النسوان والصبيان ما يزيد عن مائة ألف نَفْس، وأكثرهم بيعوا في بلاد الفرنج وبلاد الأرمن، ونقلوهم إلى جزائر البحر الجُوَّانيَّة"[1]، وإنْ لم يكن ناقل هذه الصُّورة من مُؤيِّدي التَّتَار، فهُو - على الأقلّ - مُحايد، ولن نجد من مُؤرِّخي الإسلام مَنْ ذَكَرَ عن أفعال التَّتَار بحلب أكثر ممَّا ذكره هذا المُؤرِّخ المسيحي.

ويُوضح الصُّورة - بجلاء أكثر - مُؤرِّخ أرمني، يمكن أنه اعتمد في استقاء معلوماته على الأرمن، الذين قاتلوا مع جيش هُولاكُو ضدَّ حلب، ودخلوها معه، يقول: ولمَّا دخلتْ قُوَّات هُولاكُو مدينة حلب "اقترف المغول بسُيُوفهم مجازر رهيبة ضدَّ المُسلمين، وقتلوهم دون رحمة أو شفقة، وما من أحد يمكنه أن يصف المجازر بحُكْم فظاعتها واتِّساع المساحة التي انتشرت فوقها الجُثث"[2]، ويردُّ على هذا المُؤرِّخ الأرمني الذي يُلقي على التَّتَار وحدهم مسؤولية الفظائع والدمار في حلب، مُؤرِّخ حلبي، فيقول ابن الشّحنة: "قرأتُ في تاريخ مُنتخب الدِّين يحيي بن أبي طي النَّجَّار الحلبي، ما آل إليه أمر المسجد الجامع في عصره، قال: ولمَّا استولى التَّتَر المخذولون على حلب، دخل صاحب سيس [3] إلى الجامع، وقتل خَلْقَاً كثيراً، وأحرق الجانب القبلي منه"[4].

ولمَّا بلغ الملكَ النَّاصر قصدُ التَّتَار لحلب، خرج مع جيشه من دمشق، وعسكر في برزة[5] ومعه الملك المنصُور مُحمَّد صاحب حماة بجُنده، "واجتمع عنده أُمم عظيمة من العساكر والجفال"[6]، فماذا فعل النَّاصر؟ "خاف النَّاصر وأكابر دولته وأُمراؤها خوفاً عظيماً، واتَّفق رأيهم على أن يُسَيِّروا نسوانهم وأولادهم وأموالهم إلى مصر، ويُقيموا جرائد، فوافقهم النَّاصر على ذلك، وكان لا يخالفهم في شيء البتَّة؛ لاعتماده عليهم، وإنهم مشائخ، وقد حنَّكتهم التجارب"[7].

---

1 - أخبار الأيُّوبيين، ابن العميد، 49.
2 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 331.
3 - هيثوم ملك الأرمن، وسيس هي عاصمة مملكة أرمينيا الصُّغرَى.
4 - الدّرّ المُنتخب، ابن الشّحنة، 68.
5 - برزة: بلدة قريبة من دمشق من جهة الشمال، هي - الآن - إحدى أحياء دمشق، (المُعجم الجغرافي للقطر العربي السوري، مادة: برزة).
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200.
7 - أخبار الأيُّوبيين، ابن العميد، 49.

لقد كان سُقُوط حلب كارثة بالنسبة للمُسلمين في كُلِّ أقطارهم، أُضيفت إلى كوارث أكبر، ولكنْ؛ هل كان من المُمكن ألّا تسقط حلب بيد هُولاكُو؟ أم أنه كان أمراً مفروغاً منه؟ في الحقيقة؛ إن كلّ جواب الآن سيكون بعيداً عن الدقَّة، وما نستطيع قوله ـ لنكون أقرب إلى الحقيقة ـ إنه لم يتمّ التعامل العسكري مع التَّتار في الشَّام بشكل سليم، فالمفروض أن حلب كانت تعني أشياء كثيرة للملك النَّاصر، فهي مُستقرُّ مُلكه وكُرسيه، وإن كان قد ملك دمشق، وهي مسقط رأسه، ومدرج صباه، وبالتَّأكيد؛ كان يدرك أن سُقُوطها سيكون سُقُوطاً للشَّام بيد التَّتار، وبداية النِّهاية للعصر الأيُّوبي بكامله. مع كُلِّ ذلك؛ ترك النَّاصر حلب وفيها حامية صغيرة، وسحب منها جيشه إلى دمشق.

فهل كان الملك النَّاصر يثق بأسوار حلب وحدها لتدافع عن مدينته وعن دولته. ومع أن سُقُوط حلب كان يُقرِّره سُقُوط مَيَّافارقين، فإن النَّاصر لم يدرك ذلك، وبدلاً من إرسال جيشه لمساعدة مَيَّافارقين، أرسل سفيره يُهنِّئ يشموط بن هُولاكُو بسلامة الوُصُول إليها[1].

كما أن وُجُود مُؤيِّدي التَّتار في بلاطه وبين مُستشاريه قد ساهم ـ بشكل كبير ـ في تخاذله، وعدم قيامه بأيِّ عمل جدِّي ضدَّ التَّتار، فقد كان حزب التَّتار في بلاطه يتألَّف من: الزَّين الحافظي، والصالح نُور الدِّين إسماعيل بن شيركوه[2]، وابن أخيه الملك الأشرف مُوسى صاحب حمص، والأمير حاجب نجم الدِّين مُحمَّد بن الافتخار ياقوت، وغيرهم[3].

وكذلك نجد أن النَّاصر يُوسُف قد وجَّه جُلَّ اهتماماته في السنوات الأخيرة للصراع ضدَّ المماليك في مصر، ممَّا عقَّد مهمَّته في التحالف معهم ضدَّ التَّتار. إضافة إلى ضعف شخصيَّة الملك النَّاصر القياديَّة؛ حيثُ فقد السيطرة نهائياً على جُنده، وحتَّى على مماليكه، وضاع بين اختلاف آرائهم وأهوائهم، وكلّ ذلك لن ينعكس عليه، وعلى مُلكه، بل وسيُؤدِّي إلى زوال الدولة الأيُّوبيَّة، واستقرار دولة المماليك بدُون مُعارض[4].

---

1 ـ الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.

2 ـ ذيل مرآة الزَّمان، اليُونيني، 2/ 126.

3 ـ الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.

4 ـ راجعْ : السُّلُوك، المقريزي، 1/ 513، و ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 203، و زُبدة الفكرة، الدوادار، 9/ 67.

المبحث الرّابع:

انسحاب النّاصر من الشام ونهايته

لقد أصبح النَّاصر مسلوب الإرادة مرعوباً، ليس له رأي، وعندما شاهد جُنده ومماليكه هذه الحال، قرَّروا تنحيته باغتياله، أو القبض عليه، "وسلطنة أخيه الملك الظّاهر غازي بن العزيز لشهامته"[1]، وعلم النَّاصر بالأمر، فترك المعسكر هارباً في الليل إلى قلعة دمشق، فأُسقط بيد مماليكه النَّاصرية، وأعوانهم، فهربوا ومعهم الظاهر غازي إلى غزَّة[2].

وكان تسارُعُ الأحداث في الشَّام أكبر من أن يترك صدى أو ذُيُولاً لهذه المحاولة الفاشلة، فالتَّتار لا يهدؤون، وقد انضمَّ إليهم ـ عَلَنَاً ـ الأشرف بن المُجاهد، فأعادوا له حمص، وأعمالها، وكذلك الملك السَّعيد بن العزيز؛ حيث أطلقه هُولاكُو من سجن البيرة، وأعاد له ولايته على بانياس، وقلعتها، التي تُعرَف بالصبيبة[3]، فقرَّر الملك النَّاصر الانسحاب جنوباً نحو مصر، وقد "تفلَّلت العسكر، وتصرَّمت، وقلَّت الحُرمة، وطمع كُلُّ أحد، ولم يبقَ عند النَّاصر إلَّا قوم قلائل"[4].

سار الملك النَّاصر عن دمشق على أمل جمع الكلمة مع المُظفَّر قُطز للقاء التَّتار، وأخذ ما بقي معه من الجيش، وترك دمشق خالية من العسكر، "وأهلها على الأسوار يشتمونهم، ويدعون عليهم، ويقولون: تركتُمُونا طُعمة للتَّتار، لا كَتَبَ الله عليكم السلامة"[5].

"وعبر الزَّين الحافظي إلى دمشق، وأغلق أبوابها، وسيَّر النَّاصر طلبه؛ ليجتمع به، فامتنع عن الخُرُوج إليه، وجمع أكابر دمشق، واتَّفق معهم على تسليم دمشق لنُوَّاب هولاوون"[6].

وسار النَّاصر ومعه المنصُور مُحمَّد صاحب حماة، فوصل نابلس؛ حيثُ ترك بها حامية، ولمَّا وصل غزَّة، انضمَّ إليه مماليكه الفارّون، وتصالح مع أخيه غازي، وعلم النَّاصر في غزَّة أن التَّتار

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 512، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 248، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 293.

2 - وهذا يُذكِّرنا بهَرَب الكامل من معسكره بمُواجهة الفرنج إلى المنصُورة، عندما حاول ابن المشطوب القبض عليه وتسليم السَّلْطَنَة لأخيه الفائز، وفي الحالتَيْن كلتَيْهما فشل الانقلاب العسكري في تبديل رأس السُّلطة.

3 - أخبار الأيُّوبيين، ابن العميد، 49، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 277.

4 - أخبار الأيُّوبيين، ابن العميد، 49.

5 - أخبار الأيُّوبيين، ابن العميد، 50.

6 - أخبار الأيُّوبيين، ابن العميد، 51.

قد احتلُّوا نابلس، فقصد العريش، وأرسل يخبر قُطز، ويسأله الاجتماع لمواجهة التَّتار، ويبدو أن جواباً شافياً مُطمئناً لم يصل من قُطز إلى النَّاصر، "فاستراب النَّاصر بأهل مصر"[1]، وكان قد بلغ قطية، "فخاف النَّاصر دُخُول مصر، فيُقبض"[2]، فسمح النَّاصر لِمَنْ يريد من مُرافقيه دُخُول مصر، فحزم المنصُور مُحمَّد أمره، "ودخل المنصُور والعسكر مصر، فالتقاهم قُطز، وأحسن للمنصُور، وأعطاه سنجقاً، ودخلوا القاهرة"[3].

أمَّا الملك النَّاصر؛ فقد أعمته الحَيْرَة فيما يفعل؟ وأين يتوجَّه؟ وأخذ يُفكِّر بالتوجُّه نحو الحجاز، "ثُمَّ عدل إلى ناحية الكَرَك، فتحصَّن به، ولكنه قلق، فركب نحو البرِّيَّة، واستجار ببعض أُمراء الأعراب"[4].

ورُبَّما بسبب الطمع، أو نيل الحظوة لدى التَّتار، قام واحد من مُرافقيه وخَدَمه هُو حُسين الطبردار الكُردي[5] بالتوجُّه إلى إحدى سرايا التَّتار، التي أخذت تنتشر جنوب الأردن وفلسطين، وأعلمهم بمكان وُجُود الملك النَّاصر، "فقصدتْهُ التَّتار، وأتلفوا ما هُنالك من الأموال، وخرَّبوا الديار، وقتلوا الكبار والصغار، وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي، وقتلوا منهم خَلْقَاً، وسبوا نسلهم ونساءهم"[6]، وقبضوا على الملك النَّاصر، وأرسلوه مع أخيه الظَّاهر غازي بن مُحمَّد[7]، وابنه الملك العزيز مُحمَّد بن يُوسُف[8]، وإسماعيل بن شيركوه، إلى كتبغا نوين، الذي سيَّره ـ بدوره ـ إلى هُولاكُو[9]، "وأقام النَّاصر عند هُولاكُو، حتَّى بلغتهم أخبار هزيمة التَّتار في عين

1 - العبر، ابن خلدون، 365.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 201، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 232.
3 - المُختصر، أبو الفداء،201، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 232.
4 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 233.
5 - الطبردار: هو الحارس الشخصي للسُّلطان، وكان يحمل السلاح بين يدَيْه، والطبر هو أداة قتال تُشبه الفأس (مُعيد النِّعم، السبكي، 35).
6 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 233.
7 - انظرْ ترجمته في: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 421، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 7/ 206، وشذرات الذَّهَب، ابن العماد، 5/ 298 .
8 - انظرْ ترجمته في: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 447، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 212.
9 - كتبغا: كان اسمه كيد بوقا باورجي، وباورجي تعني الطَّبَّاخ، فقد كان مسؤول الأطعمة والأشربة في حملة هُولاكُو على العراق (فاتح العالم، الجُويني، 2/ 226).

جالُوت، فقام هُولاكُو بقَتْل النَّاصر بنفسه، ثُمَّ قتلوا بقية مَنْ كان معه: أخاه الظاهر غازي[1]، والملك الصالح إسماعيل بن المُجاهد شيركوه صاحب حمص[2]، ولم ينجُ من نقمة هُولاكُو إلَّا العزيز مُحمَّد ابن النَّاصر يُوسُف لصغر سنِّه؛ حيثُ بقي عند التَّتار حتَّى مات[3].

لقد عدَّ هُولاكُو أن الملك النَّاصر كان سبباً لهزيمة عين جالوت، وأنه غرَّر بالتَّتار، وورَّطهم بالهُجُوم على مصر، وقد ردَّ النَّاصر قبل مقتله على هُولاكُو بقوله: مَنْ يكون بتبريز[4] كيف يحكم على الشَّام؟!

ويُبرِّر رشيد الدِّين ـ كاتب سيرة هُولاكُو ـ مقتل النَّاصر؛ مُحاولاً تبرئة هُولاكُو، وجعل سبب مقتل النَّاصر وشاية رجل شامي، يقول: "كان هُولاكُو قد أحاط الملك النَّاصر برعايته، وفوَّض إليه حُكُومة دمشق، وسيَّره في ثلاثمائة فارس شامي، ولكنْ؛ بعد أن وصله نبأ وفاة كيتوبوقا، قال له رجل شامي: إن النَّاصر ليس مُخلصاً لكَ، وقد أراد أن يفرَّ إلى الشَّام لإمداد قُطز، الذي هزم كيتوبوقا بتدبيره، فسيَّر هُولاكُو مَنْ قتله وهُو في الطريق"[5].

التَّتار في دمشق:

بعد هرب الملك النَّاصر نحو مصر، وتولِّي الزَّين الحافظي أمر دمشق، وعمله على تسليمها للتَّتار، ورد إلى أهل دمشق كتاب من هُولاكُو تُلي على الناس في الجامع الأُموي، وكان مطلعه: "أمَّا بعد؛ فنحنُ جُنُود الله، بنا ينتقم"، ثُمَّ يتابع التهديد والوعيد[6].

هذا الكتاب يدلُّ على أن هُولاكُو لا يزال يخشى من مقاومة حقيقية في دمشق، حتَّى بعد مغادرة النَّاصر يُوسُف بكامل عساكره، وتولِّي الزَّين الحافظي عميل التَّتار لأُمورها، فالرسالة كُلُّها تهديد ووعيد، ولا تدلُّ ـ أبداً ـ على أن التَّتار كانوا يُصدِّقون أن دمشق ستفتح لهم أبوابها كما حَدَثَ

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 420 ـ بينما تُجمع المصادر على أن الظَّاهر غازي أُسر مع الملك النَّاصر، وسار إلى هُولاكُو؛ حيثُ قُتل هُناك مع أخيه، ينفرد البدر العيني، بأنه كان مُقيماً بصرخد عندما دخل كتبغا دمشق، وأنه حضر إليه، فأقرَّه كتبغا على ما بيده. (عقد الجُمان، العيني، 1/ 237)، وهذا وَهْمٌ بالتَّأكيد.

2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليُونيني، 2/ 126 و شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 332.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 420، وذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 206 ـ 212.

4 - تبريز: أشهر مُدُن أذربيجان. راجعْ: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 357، ومُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تبريز.

5 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 316.

6 - انظرْ نصَّ كتاب هُولاكُو في ملاحق هذا الكتاب.

فعلاً، فكانت رسالة هُولاكُو ـ بما فيها من التهديد ـ جُزءاً من الحرب النَّفْسية التي اشتُهر بها التَّتار، ولتقضي على أيِّ محاولة قد يُفكِّر بها أهل دمشق للمقاومة.

وكانت رُسُل التَّتار تنتظر دخول دمشق، وقد أقاموا في حرستا[1]، "فأُدخلوا دمشق، وقُرئ بالجامع فرمان جاء من عند مَلكهم معهم، فيه أمان لأهل دمشق، وما حولها، وشرع أكابر دمشق تدبير أُمُورهم معهم، ثُمَّ وصل إلى دمشق نُوَّاب التَّتار، ولقيهم كُبراء البلد بأحسن ملقى، وقُرئ ما معهم من الفرمان"[2].

ومع كُلِّ مظاهر الاستقبال الوُدِّي للتَّتار في دمشق، وطُغيان أخبار قُوَّتهم وقسوتهم الوحشية، فإنَّ دُخُولهم دمشق لم يتمّ بلا مقاومة، وإنْ كانت مُقاومة العين للمخرز، فعندما وصلت طلائع قُوَّات التَّتار إلى غُوطة دمشق من جهة الكسوة[3] تصدَّى لهم "جماعة كانوا تجمَّعوا، وتحزَّبوا"، وانتهت مقاومتهم بسُرعة؛ حيثُ أبادهم التَّتار، وقتلوا معهم أهالي قرية حزرما[4]، بمَنْ فيهم مُؤذِّن القرية، لأن اعتراضهم تمَّ قُرب هذه القرية[5].

ويبدو أن المقاومة للتَّتار ـ وإن كانت مُتفرِّقة وغير مُنظَّمة، ومعروف سَلَفَاً أنها بلا جدوى ـ لكنها شملت معظم المناطق التي دخلوها من الشَّام، فعند اجتياح التَّتار لنابلس تصدَّى لهم "مُجير الدِّين بن سيف الدِّين بن أبي ذكرى، وكان شُجاعاً، وقد قتل منهم سبعة عشر، أو تسعة عشر قبل قتله"[6].

ولكن المقاومة الأكثر عنفاً في دمشق كانت من قلعتها التي "امتنع فيها الوالي والنقيب في جمع كثير بها، فاحتيج إلى حصارها"[7]، وتجمَّع حولها جيش المغول بآلات الحصار والمنجقيات، "وأصبحوا يرمون بها رمياً مُتتابعاً كالمطر، فأُخرب كثير من القلعة، فطلب مَنْ بها الأمان، فأُعطي لهم

---

1 - حرستا: بلدة شمال الغُوطة الشرقية، تبعد عن دمشق 7 كم. (المُعجم الجَغرافي للقُطر العربي السوري، مادَّة: حرستا).
2 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 405.
3 - الكسوة: بلدة قديمة جنوب دمشق 19 كم، على جانب النهر الأعوج (المُعجم الجَغرافي للقطر العربي السوري، مادَّة: الكسوة).
4 - حزرما: من قُرى غُوطة دمشق الشرقية، في منطقة دُوما، تقوم على تلٍّ أثري. (المُعجم الجَغرافي للقطر العربي السوري، مادَّة: حزرما).
5 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 463.
6 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 405.
7 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 405.

أمان التّتار[1] الذي لا يعني أيّ شيء، واقتيد مَنْ بها إلى معسكر التّتار؛ حيثُ تمّ إعدام والي قلعة دمشق بدر الدِّين بن قراجا، والنقيب جمال الدِّين بن الصيرفي الحلبي، اللذان قادا المقاومة في القلعة، مع مجموعة أُخرَى ممَّنْ قُبض عليه في القلعة[2].

وقام والي دمشق الذي نصَّبه التّتار يتتبّع رجالات الشّام، وفرض الغرامات عليهم، بعد تهديدهم، وإهانتهم، وهذا ما تعرَّض له مُؤرِّخ دمشق أبو شامة، الذي يقول: "جرت علي حكاية من نائب التاتار إيل سبان، إهانة، وتهديد بضرب الرقبة، على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظُلماً وقهراً"[3].

1 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 405.
2 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 409.
3 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 411

المبحث الخامس:

نهاية التَّتَار في الشَّام

عندما وصل الخبر إلى دمشق بهزيمة التَّتَـار في معركـة عـين جـالُوت، وأَسْر قائـدهم كتبغـا، وإعدامه، انهزمت حامية دمشق التَّتَاريَّة، التي كانت بقيادة إيل سبان، "وتبعهم الناس وأهل الـضياع ينهبونهم، ويقتلون مَنْ ظفروا به منهم"[1]، "وقتل العوامُّ وغـيرهم مـن التَّتَـار جماعـة كثـيرة ظـاهر دمشق، وألقى الله ـ تعالى ـ عليهم الذِّلَّة"[2]، وبدأت مطاردة بقايا التَّتَار المُنهزمين من عـين جـالُوت، والمُنسحبين من الحاميات، "ولحقهم الطلب من المُسلمين بأرض حـمـص، وغيرهـا، فـسيبوا مـا كـان معهم من أسرى المُسلمين، وتبعَّجت خُيُولهم، فتخفَّفوا ممَّا معهم، حتَّى إنهم رموا أولادهم، وضربـوا رقاب مَنْ عجزوا عن حمله من نسائهم"[3]، وهذا ما يجب مُقارنته بما حَدَثَ عند دُخُول التَّتَار الـشَّام؛ حيثُ كان الرجل منهم يقتل عشرات المُسلمين، دون أن يرفعوا أيديهم للدفاع عن أنفـسهم، وعنـدما كانت المرأة منهم تقتل عدَّة من الرجال بكُلِّ سُهُولة ودُون مُقاومة منهم، وعندما قام ألف فارس مـن التَّتَار بتدويخ الجزيرة، التي تضمُّ كُلُّ مدينة من مُدُنها آلاف الفُرسان، لنـستنتج مـن هـذه المُقارنـة أن انتصارات التَّتَار السابقة اعتمدت ـ بالدرجة الأُولى ـ على عامل الذُّعر والخوف، الـذين تقـصَّدوا أن يسبقهم، ويقاتل قبلهم أهل الشَّام، وبالفعل؛ كان له أكبر الأثر في انتصاراتهم تلك.

ويبدو أن فُلُول التَّتَار الناجية من عـين جـالُوت خـافوا أن يُـدركهم الطلـب وهُـم في طريـق انسحابهم المُتوقَّع من دمشق عبر حمص وحماة فحلب، لذلك انحرفـوا مـن حـمـص، "وعرجـوا نحـو طريق الساحل"[4]، وما كان للتَّتَار أن يسلكوا هذا الطريق بخبراتهم الشخصية، إنـما نُـرجِّح أن مَـنْ قادهم إليه، وكان دليلهم فيه هُو ملك الأرمن هيثوم، الذي شارك بقُـوَّة أرمنيَّـة تتـألَّف مـن خمـسمائة رجل مع قُوَّات كتبغا في عين جالُوت[5]، ولم تُشر المصادر الإسلامية إلى أَسْره، أو قتله، لذلك؛ نعتقـد

---

1 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 207.

2 - تُحفة ذوي الألباب، الصَّفدي، 2/ 162.

3 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 413.

4 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 413.

5 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 332.

أنه تمكَّن من الفرار، فهُو القادر على سُلُوك طريق الساحل، والالتجاء ـ عبره ـ إلى إمارة أنطاكية، ومن ثمَّ؛ إلى بلاده.

عندما دخل المُظفَّر قُطز إلى دمشق، لم يُهمل شأن المتعاملين مع التَّتار وأعوانهم، "فأمر بشنق جماعة من المُنتسبين إلى التَّتَر، فشُنقوا، وكان من جُملتهم حُسين الكُردي طبردار النَّاصر، وهُو الذي أوقعه في أيدي التَّتَر"[1]، وقبض المُظفَّر على العزيز فخر الدِّين عُثمان بن الملك المُغيث فتح الدِّين عُمر صاحب الكَرَك، وسجنه في دمشق، لأن والده كان قد أرسله إلى كتبغا بعد دُخُوله دمشق؛ ليُبرهن على حُسن نواياه تجاه التَّتار، وبقي عُثمان في سجن دمشق، حتَّى تسلطن الظَّاهر بيبرس، فأطلقه[2]. وكذلك فعل المنصُور مُحمَّد، "فلمَّا استقرَّ بحماة، قبض على جماعة كانوا مع التَّتر، واعتقلهم"[3].

لكنَّ العقوبات بالقتل والحبس التي طالت كُلَّ مَنْ آذى المُسلمين، ودلَّ التَّتار على عوراتهم، لم تطل المُتعاملين مع التَّتار، أو الذين تولّوا لهم بعض الأعمال، إنما أصبحوا معزولين عن الناس، مُتَّهمين يُرتاب بهم عند كُلِّ نازلة، ففي عام 659هـ عندما هاجم بيدرا شمال الشمال، وتقدَّم نحو حمص، خاف الناس في دمشق من عودة التَّتار إليها، فقبضوا على "كُلِّ مَنْ كان بينه وبين التَّتار تعلُّق، وأخرجوهم إلى مصر كرهاً"[4]، "وقُيِّد جماعة منهم"[5].

الأيُّوبيَّة في عين جالُوت وما بعدها:

يرى سعيد عاشور أن معركة عين جالُوت "كانت إيذاناً بغُرُوب شمس الدولة الأيُّوبيَّة، وارتفاع دولة المماليك"[6]، بينما نُلاحظ أن معركة عين جالُوت لم يكن لها كبير علاقة بإنهاء سَلطنة الأيُّوبيين في الشَّام، أو إماراتهم فيها، وليست هي التي أنهت الصراع بين الأيُّوبيين في الشَّام والمماليك في مصر، ففي الحقيقة؛ أن هُجُوم التَّتار على الشَّام واحتلالهم لها الذي سبق عين جالُوت بحوالي العام هُو مَنْ أنهى ـ فعليّاً ـ سَلطنة الأيُّوبيين، وقضى على إماراتهم في الشَّام، وكان ذلك قد تمَّ فعلاً بغَض

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 205، وزُبدة الفكرة، الدوادار، 52.
2 - زُبدة الفكرة، الدوادار، 69.
3 - المُختصر، أبو الفداء 3/ 206.
4 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 448 ـ منهم : ابن عنتر، وهُو شريف الدِّين مُحمَّد بن أحمد بن عنتر، كان مُحتسباً بدمشق في أيَّام التَّتار، وتُوفِّي بمصر عام 661 هـ بعدما أخرج إليها مُكرهاً.
5 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 434.
6 - العصر المماليكي في مصر والشَّام، سعيد عاشور، 37.

النظر عن معركة عين جالُوت، أو عن نتيجتها، لكننا نستطيع القول إن معركة عين جالُوت هي التي سهّلت على دولة المماليك ضمَّ الشَّام إلى سَلطنتها في مصر، بعد انتصارهم على التَّتار، الذين كانوا قد احتلُّوا الشَّام، وأزالوا حُكْم الممالك الأيُّوبيَّة فيه، وإن الأُمراء أو المُلُوك الأيُّوبيين، الذين تركهم التَّتار لم يعودوا مُلُوكاً حقيقيين، بل نُوَّاباً للتَّتار، يُشاركهم حتَّى سُلطة النيابة نُوَّاب من التَّتار، وشحنة عسكرية تَتَاريَّة، وهُو الأمر نفسه الذي سيقوم به سلاطين المماليك، فالأُمراء الأيُّوبيُّون الذين تُركوا في إمارتهم سيكونون نُوَّاباً للسُّلطان المملوكي.

مع أن هؤلاء النُّوَّاب كانوا شُركاء حقيقيين مع المماليك في صُنع نصر عين جالُوت؛ على التَّتار الذي نتج عنه إعادة ضمِّ الشَّام إلى مصر، فالمنصُور مُحمَّد صاحب حماة كان قد دخل مصر، ومعه ـ بالإضافة إلى عساكره ـ عساكر السُّلطان النَّاصر وكُلّ عساكر الشَّام، وقد قاتلوا جميعاً في عين جالُوت، إضافة إلى دور الأشرف مُوسى صاحب حمص، الذي نسَّق مع المُظفَّر قُطز بواسطة مملوكه أزبك، وساعد على زَعْزَعَة صُفُوف التَّتار من خلال انسحابه من جانبهم، وانضمامه إلى المُظفَّر أثناء المعركة، كما يجب أن لا ننسى مُشاركة كلّ جفال الشَّام، الذين اتَّجهوا إلى مصر في المعركة ضدَّ التَّتار، ومع الأسف؛ نجد أن كثيراً من الباحثين قد تغاضوا عن دور الشّوام في عين جالُوت.

يُعلِّل رشيد الدِّين كاتب سيرة هُولاكُو هزيمة التَّتار في عين جالُوت بأنها كانت "بسبب الكمائن التي نُصِبَتْ للتَّتار وهُم يتعقَّبون جيش قُطز بعد هزيمته"[1]، ونُلاحظ أنه تبرير واه، ولا يحتاج لمناقشة، كذلك وَهمَ رشيد الدِّين عندما قال: "إن أكثر جُيُوش الشَّام ومصر من بقايا التركمان والمنهزمين من جيش جلال الدِّين خوارزمشاه . . وفي مُقدِّمة أُمرائهم بركت خان"[2]، علماً أن بقايا الخَوَارزميَّة قد تشتَّتوا، وأن بركة خان قد قُتل قبل ذلك بزمن طويل[3]. ويُعلِّل كلُود كاهن سبب نصر عين جالُوت لكون المماليك أتراكاً، "ممَّا جعلهم أقلَّ ذُعراً من العرب والإيرانيين"[4]، ولا نعتقد بأن السبب العُنصُري له هذا الدور في الصُّمُود، إنَّما هي مجموعة ظُرُوف وأسباب عديدة تهيَّأت لتحقيق النصر.

---

1 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 314.

2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 310.

3 - راجعْ مبحث الفرْقة الخَوَارزميَّة في هذا الكتاب.

4 - الشرق والغرب، كلُود كاهن، ترجمة: أحمد الشيخ، 256.

الفصل الرَّابع

علاقات خاصَّة بين بعض المُلوك الأيُّوبيَّة والتَّتَار

المبحث الأوَّل:

انضمام بعض الملُوك الأيُّوبيَّة إلى التَّتَار

انقسمت المُلوك الأيُّوبيَّة بعد دُخُول التَّتَار إلى بلاد الشَّام، فقسم منهم بقي مع السُّلطان النَّاصر في حَيْرته وتردُّده، حتَّى قبض عليهم التَّتَار، وأرسلهم كتبغا إلى هُولاكُو، الذي قتلهم بعد كسرة عَيْن جالُوت. وقسم آخر دخل مع مُعظم عساكر الشَّام إلى مصر، وعلى رأسهم المنصُور مُحمَّد صاحب حماة، أمَّا القسم الآخر؛ فقد حالف التَّتَار، واتَّفق معهم، وصار في جملتهم.

الملك السَّعيد:

عندما وزَّع الملك العادل بن أيُّوب أولاده على ممالك مصر والشَّام وضع ابنه العزيز عُثمان[1] في ولاية بانياس[2] التي تقع جنوب دمشق على حُدُود مناطق السيطرة الفرنجيَّة، وكان أهمّ مواقعها العسكريَّة حصن تبنين[3]. وأثناء ولاية العزيز عُثمان بنى قلعة بانياس، التي عُرفَتْ باسم الصبيبة. تُوفِّي عُثمان عام 630 هـ1232م، فخلفه أخوه السَّعيد حسن[4]، وفي عام 644 هـ - 1246م وهب

---

1 - وهُو أخٌ شقيق للملك المُعظَّم (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 280)، - ترجمته في: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 320، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 136، والدارس، النعيمي، 1/ 549، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 478، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 281، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 137، والقلائد الجوهرية، ابن طولون، 131، - والسَّعيد هُو: ابن العزيز بن العادل بن أيُّوب، بينما النَّاصر يُوسُف هُو ابن العزيز بن الظَّاهر ابن السُّلطان صلاح الدِّين بن أيُّوب، علماً أن العيني يعود ليقول: " كان بالصبية السَّعيد بن الملك العزيز بن العادل". (عقد الجُمان، العيني، 1/ 235).

2 - بانياس: بلدة على طرف سهل الحولة في منطقة الجولان على مُثلَّث الحُدُود السُّوريَّة اللُّبنانيَّة الفلسطينية، شمال مدينة القنيطرة 25 كم، كانت موقعاً مُتقدِّماً لدمشق إبَّان الحُرُوب مع الفرنجة. (المُعجم الجَغرافي للقطر السوري، مادَّة: بانياس).

3 - تبنين: بلدة في جبال بني عامر، مُطلَّة على بانياس، بين دمشق وصور. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تبنين).

4 - ترجمته في: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 360، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 207، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 431، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 92، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 225، - ترويح القُلُوب، الزبيدي، 71 - وقد وهم البدر العيني عندما قال: "عبر هلاون من البيرة، وأخذها، ووجد بها السَّعيد بن العزيز أخا الملك النَّاصر يُوسُف مُعتقلاً". (عقد الجُمان، العيني، 1/ 229).

السَّعيد بانياس وقلعة الصبيبة إلى الملك الصَّالح أيُّوب، "وصـار في خدمته"، وعـاش في مـصر[1].
وهُناك رواية أُخرى تقول إن الملك السَّعيد لم يُسلِّم بانيـاس وقلعـة الـصبيبة إلى الـصَّالح أيُّـوب، بـل "أخذتا منه"[2]، وليس هذا بالاختلاف المُهمّ، فالاختلاف الأكبر بين روايات المُؤرِّخين كـان حـول مكان وُجُوده عند دُخُول التّتَار إلى الشَّام، وحول كيفية استعادته بانياس والـصبيبة، المجموعـة الأُولى من الروايات تُؤكِّد تسليم السَّعيد بلاده إلى الصَّالح أيُّوب، وتقول إن السَّعيد رحل من مـصر عقـب وفاة الصَّالح أيُّوب، ومرَّ على غزَّة، فأخذ ما فيها من مال، ومضى إلى الصبيبة، فتسلَّمها عـام 648 هـ 1250م[3]، وأنَّه عندما وصل التَّتَار إلى الشَّام كان موجُوداً في الصبيبة عام 658 هـ 1260م، فسلَّمها إليهم مع بانياس، "وصار معهم، وأعلن بالفسق والفجور وسفك الدماء"[4].

أمَّا المجموعة الثَّانية من روايات المُؤرِّخين حول الملك السَّعيد؛ فتقـول: إنَّـه كـان مـسجوناً في الشَّام، وهي تُؤكِّد ـ بذلك ـ رواية أخذ بلاده منه بالقُوَّة من قبَل الصَّالح أيُّوب، ولكن هذه الروايـات ـ أيضاً ـ تعود لتنقسم حول مكان سجن السَّعيد في الشَّام عند قُدُوم التَّتَار إليها، فمن قائـل بأنَّـه كـان "محبوساً في قلاع الشَّام"[5]، دُون تحديد لمكان سجنه، وإنَّه انضم إلى التَّتَار "وصار معهم، ويدلُّ على عورات المُسلمين"، وأنَّه قدم مع كتبغا إلى دمشق، "وحـضر فـتح قلعتهـا، وأعـادوه إلى بـلاده"[6]. وهُناك مَنْ يقول: إن السَّعيد "اعتُقل بحصن عزتا"، ولكنَّه كان مُطلق السراح عند دُخُـول التَّتَـار إلى الشَّام. وبعد دُخُول النَّاصر يُوسُف دمشق ذهب السَّعيد إلى الصبيبة، وكـان بهـا خـادم لـه، ففـتح لـه الخادم بابها، وتسلَّمها[7].

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 361، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 204، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 356، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 32.
2 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 235.
3 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 32، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 182، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 361.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 361، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 204.
5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 8/ 51.
6 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 8/ 15.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 224.

والمجموعة الأكبر من المُؤرِّخين تقول إنَّه كان محبوساً في قلعة البيرة، وإن هُولاكُو عندما فتح البيرة وجده معتقلاً في سجنها، فأطلقه، "وكتب له فرماناً ببانياس، وقلعتها"[1]. ومن الصُّعُوبة بمكان أن نُرجِّح ـ الآن ـ إحدى هذه الروايات، فكُلٌّ من أصحابها قد كَتَبَ ما وصل إليه سماعاً، أو ما قرأه في مصادره، ولكنْ؛ رُبَّما كان بعضها قد أُشيع عن السَّعيد، وأُلصق به لتبرير قتله من قبَل المُظفَّر قطز بعد عَيْن جالُوت، فقالوا: "إنَّه لبس سراقوج[2] التَّتَار، فناصحهم"[3]، وإنَّه قاتل معهم على قلعة دمشق[4]، وإنَّه قد "شهد عليه جماعة من الناس أنَّه كان يُقاتل مع التَّتَار أشدّ قتال"[5].

أمَّا عن السبب الأكثر احتمالاً لقتله؛ فلعلَّه حنق المُظفَّر قطز عليه، لأنَّه ـ قبل عَيْن جالُوت ـ أرسل إليه المُظفَّر يستميله "فأساء الرّدَّ على رسوله، وأوقع به"[6].

الصَّالح إسماعيل:

لم يكن الملك الأشرف مُوسى هُو الوحيد الذي كان له صلة بالتَّتَار من الأُسرة الأَسَديَّة، فقد كان لعمِّه إسماعيل بن المُجاهد شيركوه صلة ـ أيضاً ـ بالتَّتَار عند وُجُودهم في الشَّام، فعندما تملَّك المنصُور إبراهيم حمص بعد والده الملك المُجاهد لم يبقَ لإخوته شيء، فتركوا حمص، ومنهم الصَّالح إسماعيل، الذي أراد أن يُعبِّر عن معارضته لأخيه، فانضمَّ إلى أعدائه الخَوَارزميَّة، ولكنَّه ـ بعد هزيمتهم ـ أقام في بلاط الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، وكان للصَّالح اختصاص كبير بالملك النَّاصر[7]. ومع ما "كان عنده من حزم وعزم وسياسة . . فقد كان من رأيه مُداراة التَّتَر، وعدم مشاققتهم"[8].

ولذلك كان يُقال: "إن الزّين الحافظي قد أحضر له فرماناً من هُولاكُو، وإن للملك الصَّالح باطناً مع التَّتَر"[9].

---

1 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 49، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 411، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 229+ 277، وزبدة الفكرة، الدَّوادَار، 48.

2 - سراقوج: لباس الرأس عند التَّتَار.

3 - عقد الجمان، العيني، 1/ 277.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 11 4.

5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 8/ 51.

6 - ابن خلدون، العبر، 5/ 379، ـ يقول عصام شبارو: إن قطز "قتل السَّعيد صاحب بانياس لأنَّه ناصبه العداء" (السلاطين ـ مماليك، 75).

7 - المنهل الصافي، ابن تغري بردي، 2 / 394.

8 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 126.

9 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 126.

فعندما هاجم التَّتَار بلادَ الجزيرة عقد النَّاصر يُوسُف مجلساً لمناقشة الوضع العسكري، وكان الرأي السَّائد هُو الجهاد ومُقاتلة التَّتَار، "خلا الملك الصَّالح نُور الدِّين علي وابن أخيه الملك الأشرف مُوسى"[1]، وكان رأي الصَّالح إسماعيل يُعبِّر عن رأي جماعة كانت قليلة أوَّل الأمر، لكنَّها أصبحت لا يُستهان بها بعد سيطرة التَّتَار على الشَّام. ولابُدَّ أن هذه الجماعة قد سمعت عن أعمال التَّتَار في العراق والجزيرة، وعن عدم التزامهم بعُهُود، ولا بمواثيق، فهل كانوا يأملون منهم تصرُّفاً مغايراً في الشَّام؟ بل هُو الضلال الذي سيُكلِّفهم أرواحهم على يد التَّتَار.

وكان الصَّالح إسماعيل مع النَّاصر يُوسُف على طريق مصر بعد سُقُوط حلب[2]، وتأخَّر معه عندما تخوَّف من دُخُول مصر[3]. فعثرت عليهم طلائع التَّتَار، وأخذوهم إلى كتبغا، الذي أمر بتسييرهم إلى هُولاكُو، وأقاموا عند التَّتَار، حتَّى بلغت هُولاكُو أخبار هزيمة عَيْن جالُوت، فقتلهم[4].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 485، ـ وقد وهم ابن شدَّاد، فذكر "الصَّالح نُور الدِّين علي". بينما هُو الصَّالح نُور الدِّين إسماعيل.

2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 233.

3 - عقد الجُمان، العيني، 2/ 232.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 211، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي،420، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 284، والعبر، ابن خلدون،5/ 367.

المبحث الثَّاني:

الأشرف مُوسى نائب التّتَار في الشَّام

في عام **658 هـ-1260م**، عندما اكتسح التَّتار الشَّام كانت سُمعتهم السَّيِّئة قد سبقتهم إليها، فوقعت الشَّام بأسرها تحت ما سُمِّي "الجفلة"؛ أيْ هرب الناس خوفاً. وكان الفرار أمام تقدُّم التَّتار عامَّاً، حتَّى إنَّه شمل مُلُوك الجزيرة والشَّام وأُمراءهما، فالرُّعب والهلع كانا مُسيطرَيْن على الناس، ومع أن الخيال قد أضاف الكثير على الأحاديث المتناقلة عن فظائع التَّتار، فإن الحقيقة فيها تفوق الخيال، وهذا ما أضاف قُوَّة إلى قُوَّة التَّتار، وأسهم ـ بشكل فعَّال ـ في تحقيق انتصاراتهم.

وكان من أوَّل الهاربين في الجفلة سُلطان الشَّام النَّاصر يُوسُف، فقد سحب جُنده، ورافقه كُلُّ أُمراء البيت الأيُّوبي، وتوجَّهوا نحو مصر، تاركين أهل الشَّام يُواجهون جلاَّديهم عُزَّلاً. ولم يدخل النَّاصر مصرَ خوفاً من المماليك، وأقام في سيناء ومعه الصَّالح إسماعيل بن المُجاهد شيركوه[1]، وفارقهم "الملك المنصُور مُحمَّد صاحب حماة إلى مصر بحريمة وأولاده، وجفل أهل حمص وحماة"[2]. ولم يبقَ في الشَّام من مُلُوكه وأُمرائه إلاَّ الملك الأشرف مُوسى، الذي قابل هُولاكُو وهُو يُحاصر حلب عام **658 هـ-1260م**.

الأشرف أمام هُولاكُو:

لدينا روايتان مُتناقضتان حول بداية علاقة الملك الأشرف مُوسى بالتَّتار، **الأُولى**: قال بها ابن شدَّاد، وأكدها اليونيني[3]، وتُفيد بأنَّه ـ نتيجة لخذلان الملك النَّاصر يُوسُف للملك الأشرف مُوسى ـ بدأ بالاتِّصال بالتَّتار، بعد أن طرقوا شمال شرق الشَّام، واحتال على النَّاصر حتَّى لا يكشفه بأنْ استأذنه بمُراسلة صاحب المَوصل وصاحب ماردين، وأرسل رُسُلَهُ إلى التَّتار. ثُمَّ طلب إذناً لإرسال جواسيس لكشف أخبار التَّتار ليكون على يقظة منهم، "وكُلُّ ذلك وسيلة إلى مُراسلتهم لحقد كان في صدره للملك النَّاصر، بسبب أَخْذه حمص منه"[4]. وتُضيف الرواية أن الملك الأشرف أدّى دور

---

1 - العبر، ابن خلدون، 5/ 365.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 423.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 106، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 311.

4 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 311.

العميل للتَّتار، فشنَّ حرباً نفسية على الملك النَّاصر، "ولم تزل كُتُبُهُ واردة على الملك النَّاصر تُحدث له الرهبة، وكُتُبُ التَّتَر تصل إليه لتثبيط عزم النَّاصر"[1].

وعندما قصد هُولاكُو حلب عام 658 هـ1260م، كان الملك الأشرف بدمشق متواطئاً معه داعياً إلى مسالمته، حتَّى إنَّه أرسل مِن قِبَله مَنْ سَلَّم قلعة تلّ باشر إلى نُوَّاب هُولاكُو. وبالمُقابل؛ "عندما استولى هُولاكُو على بلاد الشَّام أبقى على تلّ باشر للملك الأشرف"[2]. ولَمَّا أخذ هُولاكُو حلبَ، خرج الملك الأشرف مع الملك النَّاصر يُوسُف إلى الصنمين[3]، ثُمَّ فارقه منها، وتوجَّه إلى تدمر، ومن هُناك؛ قصد هُولاكُو وهُو يُحاصر قلعة حلب[4].

أمَّا **الرواية الثَّانية**: فهي لصارم الدِّين أزبك[5] مملوك الملك الأشرف، الذي ذَكر أنَّه قدم على هُولاكُو، فجعله نديماً له، وأنَّه مهَّد لطلب مولاه الملك الأشرف، حتَّى قال له هُولاكُو: " يا أزبك؛ تقدر تُحضر أُستاذك الملك الأشرف؟ قُلتُ: نعم، حفظ الله القان، فأمر لي بخيل البريد".

ويُتابع أزبك: "ثُمَّ سقتُ إلى غزَّة، ودخلت البرِّيَّة، فوجدتُ المُلُوك مُشتَّتين في البرِّيَّة عند برك زيزان .. فقُلتُ للأشرف: القان يطلبكُ، فخاف، فقُلتُ: لا بأس عليكَ، وعليّ الضمان أن تعود إلى مُلككَ .. ثُمَّ أخذتُ الملكَ الأشرفَ، وعُدتُ به". ويذكر أزبك بأنَّ الملك الأشرف مَثَلَ بين يدَيْ هُولاكُو "وهُو قائم يرعد كالقصبة، .. ولمَّا نظرتْ إليه طقز خاتون ـ زوجة هُولاكُو ـ أعجبها.. ولم تزلْ الخاتون تُعنى بالملك الأشرف حتَّى أعاد عليه ـ هُولاكُو ـ مُلْكَه بحمص، وأضاف إليه غيرها، وأنعم عليه إنعاماً كثيراً"[6].

---

1 -ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 311.

2 -الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 106.

3 -الصنمَيْن: مدينة في حوران على الطريق بين دمشق ودرعا، وهي بلدة قديمة فيها آثار من العصر الرُّوماني والإسلامي. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة: الصنمين).

4 -ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 211.

5 -صارم الدِّين أزبك: بدأ حياته مملوكاً عند الملك الأشرف مُوسى، وقد شغل عدَّة وظائف إدارية في الشَّام، وعاش مع التَّتار مُدَّة، تُوفِّي عام 679 هـ1280م، وكان يبلغ حوالي الخمسين من العمر . راجعْ نصّ مذكّرات المملوك أزبك في ملاحق كتاب: مملكة حمص في العصر الأيُّوبي، مُنذر الحايك، المُلحق الأوَّل، 315.

6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8/ 56، ـ وردت في رواية أزبك عبارات عاميَّة أثبتُّها كما هي، فالمعنى واضح، والتصويب معروف.

لقد نقضت رواية الصارم أزبك الرواية السابقة تماماً، فالملك الأشرف لم يَسْعَ للقاء هُولاكُو حتَّى طلبه، وإن كُلّ ما حصل عليه الملك الأشرف من تكريم وولايات كان بسبب إعجاب طقز خاتون[1] بالملك الأشرف، وهذا مُحتمل؛ إذا عرفنا أنَّها كانت المُفضَّلة عند هُولاكُو، وتتمتَّع بشخصية قويَّة، ولها منزلة كبيرة في الدولة[2]، إضافة إلى أن موقفها من الملك الأشرف لم يكن الوحيد، فقد كان لها موقف مشابه عند هُولاكُو من عزّ الدِّين بن غياث الدِّين كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم[3].

وإذا أردنا أن نُوفِّق بين الروايتَيْن، فبإمكاننا القول إنَّه ـ رُبَّما ـ كان طلب هُولاكُو للأشرف بالذات نتيجة لمُراسلات سابقة بينهما، ولكن الأحداث اللاحقة ستُبرهن على صحَّة رواية الصارم أزبك من خلال سلوك الملك الأشرف مُوسى، وخاصَّة؛ في عَيْن جالُوت، وما بعدها.

الملك الأشرف مُوسى نائب الشَّام للتَّتار:

بقي الملك الأشرف مُوسى مع هُولاكُو في حلب حتَّى مسير هُولاكُو نحو الشَّرْق "لحُضُور الاجتماع لانتخاب خانٍ أعظم لجميع التَّتار بدل منكوخان أخي هُولاكُو الذي تُوفِّي، فولى الملك الأشرف مُوسى الشَّام بأسره نيابة عنه، وأعاد إليه حمص مع تدمر والرحبة وغيرها"[4]، "وكتب له منشوراً بنيابة دمشق وبلاد الشَّام" [5]. وفي الحقيقة؛ لم تكن ولاية الملك الأشرف مُوسى للشام مُطلقة، فمع أنَّه حضر لدمشق ومعه من هُولاكُو "مرسوم أن يكون نائب السَّلطنة بدمشق والشَّام"، ومع امتثال كتبغا للأمر وإحضار الدواوين وكلّ ما يتعلَّق بالولاية للأشرف[6]، فإن كتبغا وبيدرا كانا ـ أيضاً ـ نائبَيْن عن هُولاكُو[7]، فما هُو وضع الملك الأشرف بينهما؟ .

1 - طقز خاتون: أو دوقوز خاتون، كانت زوجة والد هُولاكُو، ثُمَّ تزوَّجها بعد وفاة أبيه. وكانت وصية منكوقاآن لهُولاكُو: "وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشُّؤون".(جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 220 + 237).

2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 220.

3 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 301.

4 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 11.

5 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 238.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 425.

7 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 427.

يبدو أن هُولاكُو قد "رسم بأمر الملك الأشرف أن يكون من جُملة نُوَّابه بالشام، وأقطعه مائة فارس"[1]. وهذا هُو واقع التنظيم ذي الأساس العسكري، والذي لم يكن التَّتَار يعرفون غيره حتَّى ذلك الوقت. فهُولاكُو لم يكن يحتاج إلى ملك للبلاد التي احتلَّها، أو حاكماً مُطلقاً، مهما كانت درجة ولائه، بل رغب في حاكم إداري له خبرة في شُؤُون البلاد، كما أن تعيين الملك الأشرف قائد مائة، هُو تحديد واضح لمرتبته في تسلسل المناصب الإدارية للتَّتَار في الشَّام؛ حيثُ كان كتبغا نوين قائد الألف، هُو الحاكم العسكري الأعلى والقائد الفعلي في الشَّام، وتجلَّى ذلك بقيادته لقُوَّات التَّتَار في عَيْن جالُوت[2]، بينما اقتصرت ولاية الملك الأشرف على الأُمُور المدنية المحلِّيَّة، وتسيير الدواوين. وهذا ما قصده ابن آيبك بقوله: "إن هُولاكُو جعل النُّوَّاب في المُدُن، وجعل رُجُوع الجميع إلى ما يأمر به الملك الأشرف"[3].

إن كلّ ذلك يقودنا للاعتقاد بأنَّ وساطة المملوك أزبك وإعجاب دوقوز خاتون بالملك الأشرف لم تكن إلاَّ أسباباً مُباشرة لاهتمام هُولاكُو بالملك الأشرف مُوسى، وتوليته النيابة، ولابُدَّ من وُجُود أسباب أُخرى بعيدة دفعت هُولاكُو إلى ذلك، منها:

1 ـ كان هُولاكُو يعرف مجد الأُسرة الأَسَديَّة التي يتحدَّر منها الملك الأشرف، وأدرك مدى الاحترام والتقدير الشَّعْبي والرَّسْمي الذي تحظى به هذه الأُسرة.

2 ـ لم يُقرِّر هُولاكُو أمرَ الملك الأشرف حتَّى قابله، فقد أراد أن يتأكَّد شخصياً ممَّا سمعه عن الملك الأشرف، ومدى تطابق ما سمعه عنه مع شخصيَّته الحقيقيَّة، واستخدم هُولاكُو فراسته في تقدير ذلك.

3 ـ مع أن فراسة هُولاكُو قد صدقت في تقديره لمواهب الملك الأشرف الشخصية، لكنَّها لم تصدق في توقُّع ولائه للتَّتَار، فهُولاكُو ـ بالتَّأكيد ـ كان يعتمد في فراسته هذه على حقد الملك الأشرف على الملك النَّاصر يُوسُف، الذي طرده من مملكته، فتوقَّع منه الإخلاص لمَنْ أعاد له عزَّه، وجعله سيِّد الشَّام.

---

1 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 377.
2 - وهم أحمد العبَّادي بقوله عن الملك الأشرف مُوسى: "وجعله ـ هُولاكُو ـ قائده العامّ في الشَّام". (في تاريخ الأيُّوبيِّين والمماليك، 133).
3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8/ 47.

ونُلاحظ أن عدم إخلاص الملك الأشرف للتَّتار قد بدأ بالظهور مُباشرة بعد رحيل هُولاكُو، الذي أمره بخراب قلعة حمص، "فلم يُخرِّب منها إلاَّ شيئاً قليلاً؛ لأنَّها مدينته"[1]. وخلال نيابة الملك الأشرف في الشَّام لم يستقرّ في مدينة مُحدَّدة، فقد أقام ـ أوَّلاً ـ في حماة؛ حيثُ نجده قد خرج مع نائب حماة عن التَّتار خسروشاه لاستقبال الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، الذي قبض عليه كتبغا، وسيَّره إلى هُولاكُو[2]. ثُمَّ ذهب الملك الأشرف إلى حمص، فأوهم التَّتار بأنَّه يهدم قلعتها، وسار ـ أخيراً ـ إلى دمشق، "فقُرِىء فرمانه بتسليم نظره في البلاد"، ثُمَّ شارك التَّتار فيها بتعقُّب البدو عندما استاقوا خُيُول التَّتار من المرعى، ولكنَّهم لم يُدركُوهم[3].

ويبدو أن كتبغا ـ الذي كانت قُوَّاته حول دمشق ـ لم يفهم تماماً ما قام به هُولاكُو من فصل بين السلطتَيْن الإدارية والعسكريَّة في الشَّام، واعتبر أن تولية الملك الأشرف هي انتقاصٍ لسيطرة القائد التَّتاري المعروفة في البلاد المفتوحة، لذلك كان يتحيَّن الفُرص للانتقاص من صفة الشجاعة التي يفتخر بها الملك الأشرف ساعياً لاستفزازه، ليتَّهمه بالخُرُوج عن الطاعة[4].

لكنْ؛ من جهة أُخرى، نرى كتبغا يستدعي الملك الأشرف، ويستشيره فيما يجب فعله للتّصدِّي لجُيُوش المُسلمين التي خرجت من مصر[5].

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 203، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 240.

2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 418، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 304.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 206.

4 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 66. ـ يروي ابن عبد الظَّاهر عن الأمير افتخار الدِّين والي بصرى قوله: "حضرتُ يوماً عند كتبغا وهُو في مجلس عظيم، وكان من جُملة مَنْ كان فيه المولى الملك الأشرف صاحب حمص، وقد التفتَ، وقال له: بأمر مَنْ أخذتَ حواصل شيزر، وسيَّرتها إلى ولدي هلاون؟. قال: بأمر ملك البسيطة ـ يعني هلاون ـ فقال له: ما فعلتَهُ إلاَّ من عندكَ جسارة، وإلاَّ ابني هلاون ما يُسيِّرني قطٌّ إلى جهة، ويكتب لغيري في مصلحة تتعلَّق بالبلاد، ولا به، ولا يتحدَّث في أمر من الأُمُور إلاَّ من جهتي، ولا يفعل أمراً إلاَّ ويشاورني فيه، وإنما هذه جرأة منكَ، ودعوى شجاعة. ولكنْ؛ قد سمعنا أن فلان ـ السُّلطان ـ قد خرج من مصر ومعه جماعة، فإنْ كُنتَ شُجاعاً، كما تزعم في نفسكَ، فاخرجْ، والتقيه".

5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 78.

المبحث الثّالث:

انقلاب الأشرف مُوسى على التتّار

1. دور الملك الأشرف في عَيْن جالُوت:

اجتمعت العساكر الإسلاميّة في مصر، وكان الصراع فيها بين المماليك البَحْريّة قد حُسم لصالح قُطُز، فتسلطن، وتلقّب بالملك المُظفَّر سيف الدِّين، ثُمَّ أعلن الجهاد، وقاد جُيُوشه، وانطلق نحو الشّام، ومعه الملك المنصُور صاحب حماة[1]، وعندما عرف قطز أنْ لابديل أمامه من التّصدِّي للتّتار، كان أوّل ما فعله الاتِّصال بالملك الأشرف مُوسى، فكتب إليه يلومه على انحيازه للتّتار، وتفضيلهم على المُسلمين، وطلب منه الخُرُوج عن طاعتهم، وعدم اشتراكه مع التّتار في المعركة المُتوقّعة، ووعده بحال مُوافقته "أن يُبقى عليه ما بيده من البلاد، فأجابه إلى ذلك"[2].

لقد كان نداء المُظفَّر قطز للأشرف نقطة انعطاف مُهمَّة بالنِّسبَة للملك الأشرف؛ حيثُ أعاد النظر في مُجريات الأُمُور من حوله، وكأن نداء المُظفَّر جعله يستفيق من هول صدمة التّتار، فأخذ يُفكِّر بمصلحة البلاد والأُمّة، فمُقاومة مصر للتّتار هي الأمل الوحيد، وعليه أن يقف معها. ولم يكتف الملك الأشرف بما طلب المُظفَّر منه بالوُقُوف على الحياد، بل أرسل إلى المُظفَّر "فوعده بالانهزام يوم اللقاء"[3]، وعلى هذا الأساس؛ تمّت الترتيبات بين الصارم أزبك مملوك الملك الأشرف وبين أُمراء مصر. ولمّا أراد كتبغا الخُرُوج للقاء المُظفَّر قطز طلب من الملك الأشرف المُشاركة بفرقته في جيش التّتار، فاعتذر الملك الأشرف عن الخُرُوج بنفسه، مُحتجّاً بمرضه، وأرسل مملوكه صارم الدِّين أزبك مُقدَّماً على عسكره[4]. ولا ندري ـ بالتحديد ـ ما هي دوافع الملك الأشرف لعدم المُشاركة في المعركة، وقيادة عملية الانسحاب منها بنفسه، فرُبّما لم يرغب الملك الأشرف بالانتظام ضمن جيش التّتار والقتال بإمرة كتبغا، حتّى لو كان الأمر مرحلياً، فالانسحاب لن يتمّ قبل اشتداد القتال، وإلاّ فقد فاعليّته، أو أنّه خاف انكشاف تواطئه مع المُظفَّر، فانتقام التّتار منه عندها سيكون قاسياً.

---

1 - العبر، ابن خلدون، 5/ 366.

2 - ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 2/ 312.

3 - ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 2/ 312.

4 - ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 2/ 312.

اصطفَّت قُوَّات التَّتار في عَيْن جالُوت، وكان الصارم أزبك يقود قُوَّات مولاه الملك الأشرف الموجُودة في ميسرة التَّتار. ووصف الصارم تنفيذه لتعليمات الملك الأشرف مُوسى في الانسحاب وتنسيق ذلك مع جيش المُسلمين، قال الصارم: "وأنفذتُ غلامي صفة أنَّه جاسوس من عندنا، وأمرتُهُ في الباطن أن يجتمع بالملك المُظفَّر من جهتي، ويُهوِّن عليه أمر التَّتار، ويُعرِّفه أنْ يُقوِّي الميمنة الإسلاميَّة، وأن يكون المُلتقى عند طلوع الشمس، وقُلتُ: عَرِّفهُم طلبي[1] ورنكي[2]، وأنَّهم ساعة يحملوا عليّ، انهزمتُ، فإن التَّتار يتبعوني في الهزيمة، فكان ذلك بمعونة الله عزَّ وجلَّ"[3].

وأكَّدت الأحداث والمصادر التاريخية رواية أزبك، فقد اندفعت الميمنة التَّتارية، ومزَّقت ميسرة المُسلمين، وشتَّتها لولا استبسال قطز[4]، وانسحاب أزبك مع قُوَّاته في الوقت المُناسب. إن هذا الموقف للأشرف مُوسى ولمملوكه وقائد فرقته في عَيْن جالُوت، لم ينسه المُظفَّر قطز، ولا الظَّاهر بيبرس، عندما أصبحا سُلطانَيّ الشَّام.

ولمَّا وصلت أخبار هزيمة التَّتار في عَيْن جالُوت إلى الملك الأشرف في دمشق، تظاهر بالهرب مع نُوَّاب التَّتار، حتَّى لا ينكشف أمره، "فلمَّا وصلوا إلى قارة، فارقهم، وتوجَّه إلى تدمر"[5]، وانتظر حتَّى استقرَّ أمر المُظفَّر قطز في دمشق، فأرسل إليه مملوكَيْه صارم الدِّين أزبك وحُسام الدِّين لُؤلُؤ، فطمأنهما قطز، وحلف لهما، وطلب الملك الأشرف إليه في دمشق، ولمَّا حضر ركب قطز بنفسه للقائه، وأحسن إليه، وبرَّ بوُعُوده، فأعطاه حمص وتوابعها، وبعدها؛ "توجَّه الملك الأشرف إلى حمص، وطلع القلعة"[6].

---

1 - الطلب: وجمعه أطلاب، "بلغة الغز هُو الأمير المُقدَّم، الذي له علم معقود وبوق مضروب، وعدَّة من الجُند ما بين مائتَيْ فارس، إلى مائة فارس، إلى سبعين فارس" (اتِّعاظ الحُنفا، المقريزي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، د.سُهيل زَكَّار، 25/ 329 _ 11804)، ثُمَّ صار يُطلَق على فرقة عسكريَّة.

2 - الرنك: لفظ فارسي معناه: اللون. (المُعجم الذهبي، مُحمَّد ألتونجي، مادَّة: رنك)، وقد استُعمل بمعنى الشعار الذي يتَّخذه الأمير لنفسه. _ حول الطلب والرنك راجعْ: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 61، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 673.

3 - كنز الدُّرر، ابن آيبك، 8/ 65.

4 - في التاريخ الأيُّوبي، أحمد العبَّادي، 143.

5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 312.

6 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 312.

ولكنْ؛ يجب أن نُشير إلى أن مُعظم المصادر لم تذكر اتِّفاق الملك الأشرف مع قطز، وكلّ ما ذكروه أن الملك الأشرف قد طلب الأمان من المُظفَّر بعد هزيمة التَّتار، فأمَّنه، وحضر الملك الأشرف إليه في دمشق، فأكرمه، وأقرَّه على ما كان له من البلاد[1].

ولكن الرواية بهذا الشكل لا تستقيم مع منطق الأحداث، فلماذا غاية الإكرام من قطز للأشرف، وردّ كلّ بلاده إليه، بينما ـ في المُقابل ـ قام المُظفَّر بضرب رقبة الملك السَّعيد[2]، الذي انضمَّ إلى التَّتار، وقاتل مع كتبغا في عَيْن جالُوت، ولمَّا حاقت الهزيمة "جاء إلى الملك المُظفَّر، فلم يقبله، وقال له: لولا الكسرة ما جئتَ إليَّ، وأمر به، فقُتل"[3].

إن موقف قطز هذا تأكيد مُهمٌّ لرواية الصارم أزبك، ولحقيقة موقف الملك الأشرف من التَّتار، فلولا تأكُّد قطز الكامل من موقفه الإيجابي وتعاونه معه ضدَّ التَّتار لجَعَلَ مصيره كمصير السَّعيد. ولو لم يكن قطز مدركاً لأهمِّيَّة مُساعدة الملك الأشرف له في تحقيق نصر عَيْن جالُوت لم يكن ليردّ إليه أملاكه السابقة كلّها غير منقوصة، ولمَّا جعله مُساوياً للمنصُور صاحب حماة[4]، الذي قاتل مع جيشه في عَيْن جالُوت، بل نجد أن تقدير المُظفَّر للأشرف كان أكبر، فقد أخذ سلمية من المنصُور، وأعطاها لعيسى بن مهنَّا أمير بني ربيعة[5]، ومن ثَمَّ؛ كان له التقدير نفسه عند الظَّاهر بيبرس، الذي أضاف تلّ باشر على مُمتلكات الملك الأشرف مُوسى[6].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 433، والمُختصر، أبو الفداء،3/ 205، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 234، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 66، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 82.

2 - الملك السَّعيد: حسن بن العزيز عُثمان بن العادل، كان صاحب الصبيبة وبانياس، وجده التَّتار مسجوناً، فأطلقوه.

3 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 366.

4 - وهم عصام شبارو عندما قال: " تمكَّن التَّتار من القضاء على سيطرة الأمراء الأيُّوبيِّين في بلاد الشَّام، ولم يبقَ من الوُجُود الأيُّوبي سوى الملك الأشرف مُوسى". (السلاطين المماليك، 62)، فالملك الأشرف مُوسى ليس من الأُسرة الأيُّوبيَّة. كما بقي المنصُور مُحمَّد التقوي الأيُّوبي حاكماً في حماة.

5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 234.

6 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 117.

2. دور الأشرف في معركة حمص الأُولى[1]:

بعد مقتل كتبغا؛ انفرد بيدرا بقيادة جُيُوش التَّتار، وكان يتحرَّق شوقاً للانتقام، فما إنْ سمع بمقتل السُّلطان المُظفَّر قطز، وثورة سنجر الحلبي والي دمشق على السُّلطان الجديد بيبرس، حتَّى رأى أن الفُرصة مُواتية لاكتساح الشَّام من جديد. ففي عام **659** هـ **1261**م، جمع بيدرا جند التَّتار الباقين في الجزيرة، وفلول الهاربين من عَيْن جالُوت[2]، وشكَّل فرقة قوامها ستَّة آلاف فارس[3]، وهاجموا حلب، فأخلتها قُوَّات المماليك، وكانوا من العزيزية والنَّاصريَّة، وهربوا مع مُقدَّمهم حُسام الدِّين الجوكندار، وما كادوا يصلون حماة حتَّى كان التَّتار في أعقابهم، فخرج منها الملك المنصُور صاحبها بجيشه، وساروا جميعاً إلى حمص[4]. فتلقَّاهم الملك الأشرف مُوسى، واجتمع بهم، فوجد أن الجوكندار يُريد مُتابعة هربه، فقد "عزم عسكر حلب على التّوجُّه إلى دمشق، وقارب التَّتَر حمصَ، فلام الملك الأشرف الجوكندار على هذا الرأي، وقال له: ما يُقال عنَّا في البلاد، وبأيِّ وجه نلقى صاحب مصر، وأخذ في تثنيته"[5].

ولموقف الملك الأشرف هذا دلالات أهمّها: أنَّه كسر حاجز الخوف من التَّتار، ورُبَّما لتعامله معهم دور كبير في هذا. وأنَّه كان يملك من الجرأة والشجاعة ما يكفي لتشجيع قُوَّات حلب وحماة للثبات والقتال معه ضدَّ التَّتار. في هذه الأثناء؛ كان التَّتار قد قاربوا حمص، "فخرج إليهم الملك الأشرف مُوسى بن شيركوه صاحب حمص، وكان معه الملك المنصُور بجيشه وحامية حلب المملوكية بقيادة الجوكندار. وكان الملك الأشرف قد طلب الأمير زامل بن علي، فجاء ومعه عدد من فُرسان بني ربيعة[6]، فبلغ جمع الملك الأشرف**1400** فارس[7]. وكان التَّتار قد تجاوزوا الرستن، والتقوا

---

1 - الأُولى: تمَيُّزاً لها من معركة حمص الثَّانية، والتي كانت ضدَّ التَّتار أيضاً، وقادها السُّلطان المنصُور قلاوون عام 680 هـ 1281م، وقد جرت في المكان نفسه شمال قبر خالد بن الوليد؛ حيثُ قُتل فيها قائد التَّتار منكوتمر بن هُولاكُو، الذي كان يقود جُيُوش أخيه أبغا. (العبر، الذهبي، 5/ 326).

2 - العبر، الذهبي، 5/ 257.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 442، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434، و النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 106.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 209.

5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 115.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 442.

7 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 442، والعبر، الذهبي، 5/ 251.

بفرقة من الفرنج أرسلتها الاسبتاريَّة لتُقاتل معهم[1]، وتـابعوا تقـدُّمهم حتَّـى قُـرب أسـوار حمـص؛ حيثُ كان الملك الأشرف قد عَسْكَرَ بقُوَّاته شمال قبر خالد بن الوليد[2]. وفي يوم الجمعة الخامس مـن مُحرَّم 659 هـ 1260م، التقى الجمعان. كان بيدرا قد وضع خُطَّته العـسكريَّة، ورتَّـب جيـشه مُتَّبعـاً تكتيك الصدم والخرق في العمق، مُستفيداً من قُوَّة انـدفاع فُرسـانه، ومـن تفـوُّقهم العـددي الكبـير؛ حيثُ كان لديه ستَّة آلاف فارس، ولمَّا كان تقسيم جيشه هُو التقسيم التَّتاري المعتاد؛ حيثُ ينتظم كُـلُّ ألف مُقاتل في فرقة ـ طلب ـ، فقد وضع ترتيب القتال؛ بحيثُ تكـون الفـرق الـستَّة خلـف بعـضها؛ لتشكل قُوَّة صَدْم كُبْرَى تتمكَّن من خرق دفاع المُسلمين، ومن ثَمَّ؛ الالتفاف عليهم وتطويقهم[3].

أمَّا الملك الأشرف مُوسى، فقـد لاحـظ التفـوُّق العـددي للتَّتـار، ووضـع خُطَّتـه العـسكريَّة لمُواجهة خُطَّة بيدرا، والتي تقوم على الصُّمُود أمام الصدمة الأُولى للتَّتار بـأيِّ ثمن، "وعبَّـأ صـاحب حمص المُسلمين طلباً واحداً، فجعل صاحب حماة في الميمنة وعسكر حلب في الميـسرة، وهُـو وعـسكر حمص في القلب"[4]. فكان ترتيب الجيشَيْن وخُطَّتهما أشبه ما تكون بالمطرقـة والـسندان، فـإن سَـحَقَ جيشُ التَّتار في ضربته الأُولى جيشَ المُسلمين، فقد نجحت المطرقة، وإنْ صمد المُسلمون، فقـد نجـح السندان. ويبدو أن السندان كان أصلب من المطرقة، فبعد أن ثبت جيش الملك الأشرف لهُجُوم التَّتـار تمكَّن من أن ينطلق للهُجُوم، "فانهزم التَّتار، وقُتِلوا، ومُزِّقوا كلَّ ممزَّق"[5]. وتبعهم المُسلمون"حتَّـى أبادوا أكثرهم، وهرب مُقدَّمهم بيدرا بأسوأ حال، ولم يُقتَل من المُسلمين سوى رجل واحد"[6].

ويُمكننا أن نعدَّ أن انتصار الملك الأشرف على التَّتار كان واحداً من أهمِّ الانتصارات علـيهم، لعدَّة أسباب، منها:

1 ـ كان بيدرا من مشاهير قادة التَّتار، ويتمتَّع بخبرة واسعة، وشجاعة كبيرة.

2 ـ التفوُّق العددي الكبير للتَّتار، فقد كانوا أكثر من أربعة أضعاف المُسلمين.

---

1 - الاسبتاريَّة، سميث، 189.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 209، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 442، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 106.

3 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.

4 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.

5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.

6 - العبر، الذهبي، 5/ 251.

3 ـ رُوح التخاذل التي بدت على حامية حلب، وانسحاب المنصُور من حماة، ولعلم التَّتار بذلك، فرُبَّما راهنوا على عدم صدْق حملتهم عند اللقاء.

4 ـ كان مع بيدرا عدد كبير من أُمراء ومُقدَّمي التَّتار، حتّى إنَّه قُتل منهم أكثر ممَّا قُتل في عَيْن جالُوت[1].

5ـ قتل عدد كبير من فُرسان التَّتار، بينما لم يفقد المُسلمون سوى جُندياً واحداً.

وبالوقت نفسه؛ كانت هُناك أسباب يُمكن أن نُلاحظها، ساعدت على هزيمة التَّتار، وانتصار المُسلمين، منها:

1 ـ ثبات الملك الأشرف، وحنكته العسكريَّة بإدراكه لخُطَّة التَّتار، والرّدّ عليها، فقد كان "ذا حزم ودهاء وشجاعة وعقل، مقداماً شُجاعاً"[2].

2 ـ كانت عوامل الطبيعة مُساعداً جيِّداً للمُسلمين، فقد كان يوم المعركة يوماً بارداً، ساد فيه الضباب، وانهمر رذاذ ثلجي كانت تعصف فيه رياح حمص الجنوبية الغَرْبيَّة، وتضرب به وُجُوه التَّتار، ويصف هذه الصُّورة للمعركة شاهد عَيَان[3] صادق[4]، شاهدها من موقع استراتيجي[5]، قال: "وكان الطُّيُور[6] والهوى والضباب في وُجُوههم، فانهزم التَّتار"[7].

---

1 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.

2 - شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، 5/ 311.

3 - الأمير بدر الدِّين مُحمَّد بن عزّ الدِّين حسن القيمري.

4 - كان بدر الدِّين "صدوقاً، وعنده دين وصلاة وصيام وعبادة كثيرة". (ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434).

5 - شاهد بدر الدِّين المعركة من قلعة حمص، (النُّجُوم الزَّاهرَة، 7/ 106)، ومَنْ يعتلي قلعة حمص يستطيع أن يرى ـ بوُضُوح ـ منطقة قبر خالد بن الوليد؛ حيثُ دارت المعركة.

6 - قال الأمير بدر الدِّين عن الطُّيُور :"كُنتُ في القلعة، فرأيتُ بعيني طُيُوراً بيضاء قد أقبلت، وجعلت تضرب وُجُوه التَّتار بأجنحتها". (عقد الجُمان، العيني، 1/ 268)، وما هذه الطُّيُور في الحقيقة إلاَّ رذاذ الثلج تعصف به رياح حمص، فيتحرَّك كالأجنحة البيضاء ليلفح وُجُوه التَّتار. وممَّا أكمل صُورة الطُّيُور إطلالة بدر الدِّين من القلعة، وبُعْد المسافة، وحالته النفسية بين الخوف والأمل، كلّ ذلك أسهم بتخيُّل الطُّيُور التي قاتلت التَّتار.

7 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.

وأبعدتْ معركةُ حمص الأُولى التَّتار عن الشَّام لفترة طويلة، ورفعت من قَدْر قائدها الملك الأشرف شعبياً[1] ورَسْمِيَّاً، "فنبل قَدْرُهُ"[2]. وعندما أعاد بيبرس سيطرته على الشَّام بعد قضائه على تمرُّد سنجر الحلبي قدَّر عالياً صُمُود الملك الأشرف، وزاد في تكريمه. وإذا كان هُناك مَنْ يُحمِّل الملك الأشرف وِزْرَ التعامل مع التَّتار، فإنْ لم يكن قد كفَّر عن تلك الهَنَةَ بما دبَّره في عَيْن جالُوت فقد "غسل هناته بيوم حمص"[3].

وكنتيجة للعلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والتَّتار، فإنَّنا نجد أنَّه قد سبق هُجُوم التَّتار على بُلدان العالم الإسلامي تحرُّك ديبلوماسي كبير، فقد تدفَّقت رُسُلُهُم، بمسوّغ، وبلا مسوّغ، يستطلعون، ويتجسَّسون، ويجمعون المعلومات عن البلاد والعباد. إضافة إلى ذلك ما كان يقوم به التَّتار عادة؛ حيثُ تنطلق رُسُلُهُم ومُراسلاتهم تحمل الترغيب والترهيب قبيل هُجُومهم على أيِّ بلد، وهذا سلاح معنوي أجاد التَّتار استعماله ببراعة.

وعندما أخذت تظهر طلائع التَّتار في الجزيرة الشَّاميَّة تجنَّب مُلُوك وقادة بني أيُّوب ما أمكنهم الاصطدام بهذه الطلائع، واستغلَّ هذا الظرف بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، الذي هادن التَّتار، وحارب مُلُوك الجزيرة. وعندما حاصر التَّتار بغدادَ تُركَتْ لتسقط، دُون أيِّ مُساعدة من السَّلطنة الأيُّوبيَّة، أو من غيرها، فالكُلُّ كان يخشى على نفسه، ويُجاهد ليُؤجِّل قُدُوم التَّتار نحوه، ولم يُفكِّروا بالوحدة، أو التضامن، بل استمرُّوا مُتصارعين مُتنافسين لاهين عن الخطر.

وكذلك عندما صمدت مَيَّافارقين الأيُّوبيَّة تُركَتْ لتسقط وحيدة دُون أن يقدِّم لها الملك النَّاصر سُلطان البيت الأيُّوبي أيَّ مُساعدة، في حين كانت المُراسلات والهدايا تتدفَّق منه على هُولاكُو.

---

1 - تحوّل الأشرف إلى بطل شعبي تنعقد عليه الآمال والأحلام، فقد ذكر أبو شامة أن رجلاً نصرانياً حلم أنَّه رأى النبي (ص)، فقال له: "مُرّ إلى أبي شامة، وأسلم على يده، وأخبره أن الملك الأشرف، يعني صاحب حمص، يملك بلاد سيس، ويهلك العدو بها"(6). إن دُخُول الأشرف أحلامَ العامَّة كمُحرِّر، ولو من باب الرواية فقط، لدليل واضح على شُهرة شجاعة الأشرف، وأنَّه كان يُمثِّل الأملَ الشَّعْبي للخلاص من خطر مملكة سيس الأرمنية، التي أدَّت ـ على الدوام ـ دور العميل والمُساعد والدليل لكُلِّ مَنْ غزا بلاد الشَّام، من الرُّوم والفرنج والتَّتار. ومع أنَّه لم يُقدَّر للأشرف أن يُحقِّق هذا الحلم، فقد حقَّقه الظَّاهر بيبرس عندما دمَّر عاصمتها سيس، وأنهى ـ بذلك ـ المملكة الأرمنية في الأناضول إلى الأبد.

2 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 311.

3 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 311.

لقد اتَّبع النَّاصر سياسة المداراة مع التَّتار على أمل تجنُّبهم، في حين كان قرار التَّتار قد اتُّخذ ليكون النَّاصر وبلاده ضحيَّتهم التَّالية.

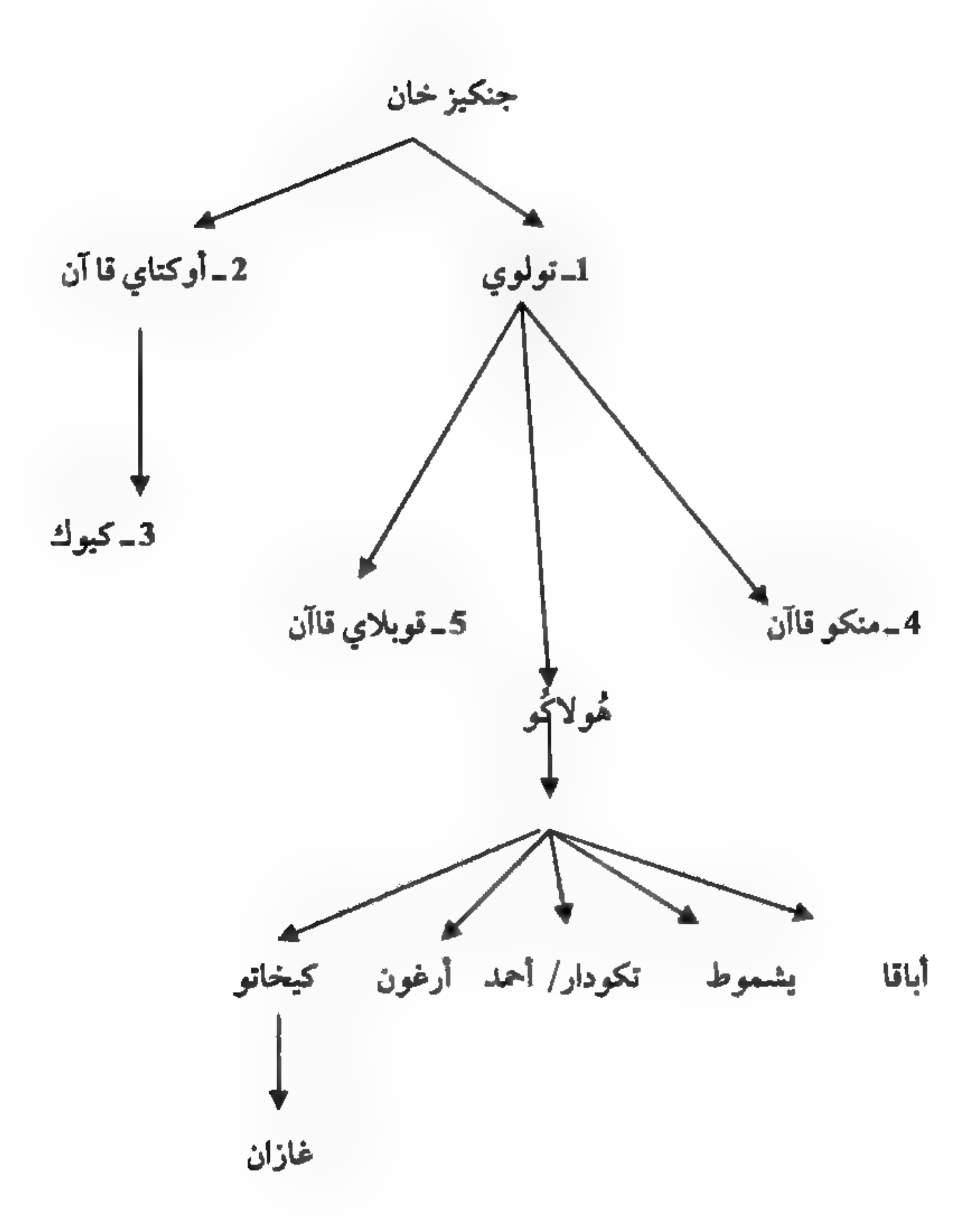
ولمَّا سقطت الشَّام بيد التَّتار كانت خُطَّتهم السِّياسيَّة تقضي بالاستفادة من المُبعدين والمسجونين من بني أيُّوب، فقاموا بتسليم الأشرف مُوسى والملك السَّعيد مناصب حكومية كبيرة، بالإضافة إلى ظُهُور طبقة من عملاء التَّتار، فيهم المُلُوك والوزراء. كما حاول التَّتار التقرُّب من المسيحيين المحلِّيِّين، فأعطوهم بعض الدعم ضدَّ المُسلمين.

عندما أنهى التَّتار العصرَ الأيُّوبي، بعد احتلال الشَّام، وقَتْلهم النَّاصر الثَّاني آخر سلاطين بني أيُّوب، شكَّل ذلك عاملاً مُهمَّاً؛ لتزامنه مع قيام حُكْم المماليك في مصر، فلولا القضاء على المُلُوك الأيُّوبيَّة لما تركوا أمر السَّلطنة في مصر يستقرُّ للمماليك. ولذلك نرى أن اجتياح التَّتار للشام كان السبب الأهمّ ليس ـ فقط ـ لزوال حُكْم الأيُّوبيِّين، بل ولتوطيد حُكْم المماليك، وقيام سلطتهم التي تعزَّزت بنصر عَيْن جالُوت.

أمَّا العلاقات بين الأرمن والتَّتار؛ فقد كان محورها أن الأرمن وجدوا بالتَّتار قُوَّة قادمة كُبْرَى أُشيع أنَّها مسيحيَّة، فأملوا الانتصار بهم على المُسلمين، فخضعوا لهم، وقاتلوا معهم، ثُمَّ تحوَّلوا إلى دويلة تابعة للتَّتار، تقدِّم الهدايا، وتدفع الأتاوات، وترسل الجُند للقتال في معارك التَّتار.

وكذلك نجد أن صلات سياسيَّة مُختلفة قد قامت بين الفرنج والتَّتار، ولكن هذا لم يمنع وُقُوع صدامات عسكريَّة محدودة بينهما، بينما نُلاحظ أن المُفاوضات والمُراسلات المُتبادلة شملت مُعظم فترة وُجُود التَّتار في الشَّام، فقد أمل الفرنج ـ ومن خلفهم أُورُوبا ـ بالتحالف مع التَّتار لسحق المُسلمين، وحَلُمَ الباباوات بضَمِّ التَّتار إلى كَنيسَتهم للسيطرة بهم على العالم، أمَّا التَّتار؛ فكما يبدو كان غرضهم من التفاوض مع الفرنج ودول أُورُوبا هُو فرض السيطرة، وإخضاعهم للنفوذ، لذلك لم يتحقَّق بينهما أيٌّ تعاون يُذكَر، فكُلٌّ منهم كان يرغب باستغلال الآخر.

سلسلة نَسَب مُلُوك التَّتار



القسم السَّادس

العلاقات الدّوليَّة للممالك المَسيحيَّة الشَّرْقيَّة

المبحث الأوَّل:

العلاقات الخارجيَّة لمملكة الكرَج - جُورجيا

بعد المَدِّ الإسلامي واكتساح بلاد الكرج، وهم مسيحيُّون يتبعون الكَنيسَة البيزنطيَّة الأرثوذكسية، تمكَّن الكرج، حين ضعفت الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وتمزَّقت إلى ممالك وإمارات، من أن يُنظِّموا أنفسهم، ويُشكِّلوا جيشاً لا يُستهان به، استطاع إعادة السيطرة على عاصمتهم تفليس[1] وإحياء مملكة الكرج من جديد.

وفي عصر الممالك الأيُّوبيَّة؛ كانت دولة الكرج قد وصلت إلى أوج قُوَّتها، وثبَّتت أقدامها بين قُوَّتَيْن كبيرتَيْن: الروس من الشمال في أقصى شرق أُورُبة، وسلاجقة الرُّوم من الجنوب والغرب في آسيا الصُّغْرَى[2].

أمَّا الإمارات والممالك الأُخرى في جنوب غرب إيران والجزيرة الشَّاميَّة؛ فكانت على حالة مزرية من الضعف، ممَّا حدا بالكرج لاعتبارها مناطق توسُّع مشروعة لها، ومن خلال مُحاولات الكرج التوسُّع في الجزيرة الشَّاميَّة نشأت مجموعة من العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة مع الممالك الأيُّوبيَّة.

بدأ الكرج توسُّعهم نحو البُلدان الإسلاميَّة، فهاجموا ـ أوَّلاً ـ بلاد أذربيجان[3]، وكانت للأمير أبي بكر بن البهلوان، فقد شنُّوا عدَّة غارات ناجحة في بلاده، كان أمير البلاد لاهياً عنها، فلم يسمع استغاثات السُّكَّان المُعرَّضين للقتل والنهب[4].

---

1 - تفليس: مدينة قديمة قُرب باب الأبواب، افتتحها المُسلمون أيَّام الخليفة عُثمان، واحتلَّها الكرج عام 515 هـ.(مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تفليس)، وهي ـ الآن ـ عاصمة دولة جُورجيا الحديثة.

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 233.

3 - أذربيجان: إقليم مشهور في بلاد العجم، أكبر مُدُنها تبريز، وفيها مُدُن المراغة وخوي وأردبيل. وهُو صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال، فيها قلاع كثيرة وخيرات وافرة.(مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أذربيجان).

4 - يقول ابن الأثير: " كان أبو بكر بن البهلوان مشغولاً ـ كعادته ـ بالشُّرب ليلاً نهاراً، لا يفيق، ولا يصحو، ولا ينظر في أمر مملكته ورعيَّته وجنده، قد ألقى الجميع عن قلبه، وسلك طريق مَنْ ليس له علاقة، ولمَّا استغاثت به أهل تلك البلاد من غارات الكرج، فكأنَّهم ينادون صخرة صماء". (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 183).

ثُمَّ قام الكرج عام **599** هـ **1203**م بحصار بلدة دوين[1]، "فاستنجد أهلها بأميرهم، فلم يُغثهم، ولم يتمكَّنوا من المُقاومة، فسقطت دوين، وأخذها الكرج عنوة بالسيف"[2].

إن سُقُوط دوين قد تمَّ بعد أن أحكم العادل سيطرته على مُعظم دولة أخيه صلاح الدِّين، وغدا السُّلطان الأعظم للأيُّوبية في مصر والشَّام والجزيرة، ولكنَّنا لم نسمع عن أيِّ إجراء قام به ضدَّ الكرج، أو تحرّك لردّ غاراتهم عن بلاد المُسلمين، رُبَّما لأنَّهم لم يقتربوا ـ بعدُ ـ من مُمتلكاته الخاصَّة، أو أنَّه لم يجد بنفسه القُوَّة لخوض صراع كبير بعيد عن أرضه. ونجد أن الأقرب للحقيقة هي طبيعة العادل التي تميل لتجنُّب المُشكلات ما أمكن، والمُحافظة على مُمتلكاته بأقلِّ ما يُمكن من الخسائر.

واتَّخذ الكرج من دوين قاعدة انطلاق لهم ضدَّ البُلدان الإسلاميَّة، فعاثوا في نواحي أذربيجان نهباً وسلباً، ففي عام **601** هـ **1205**م، "أغاروا على ناحية خِلاط . . فأوغلوا حتَّى بلغوا ملاذ كُرد، ولم يخرج إليهم أحد من المُسلمين يمنعهم، وكُلَّما تقدَّموا تأخَّرت عساكر المُسلمين عنهم"[3]، فقد "كان صاحبها صبي، والمُدبِّر ليس له طاعة على الجُند"[4].

ثُمَّ عاد الكرج للإغارة على خِلاط، فهاجموا أرجيش، ونهبوا ما حولها، فاستنجد صاحب خِلاط بابن قليج أرسلان صاحب أرزن الرُّوم، "فسيَّر جميع عسكره معه، فلقوا الكرج، وتمكَّنوا من هزيمتهم، وقتل زكري الصغير قائد جيش الكرج، وكان من أَجَلِّ قُوَّادهم"[5].

ويبدو أن الإغارة على بلاد خِلاط كانت ضمن خُطَّة طويلة الأمد، يعتمدها الكرج لأخذ مدينة خِلاط في نهاية المطاف، فبالرغم من هزيمتهم السابقة؛ كرَّر الكرج الهُجُوم في العام التالي **602** هـ **1206**م، وهاجموا خِلاط، ونهبوا، وسبوا في بلادها، "فلمَّا اشتد البلاء؛ اجتمعت العساكر

---

1 - دوين: وهي بلدة حُدُودية ما بين أذربيجان وبلاد الكرج، وكان يسكنها الأكراد الرواديه، وهم ينتمون إلى قبائل الهذانيه الكبيرة (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 430، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 12، ومُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: دوين).

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 184، وكذلك راجعْ: من عقد الجُمان، العيني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 59 / 72، أحداث عام / 599 هـ دفع سُقُوط دوين مجموعات كبيرة من الأكراد لتتَّجه نحو شمال العراق والجزيرة الشَّاميَّة، وشكَّلوا جُزءاً كبيراً من قوام المتطوِّعة في جُيُوش العراق والجزيرة والشَّام.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 204.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 240، من عقد الجُمان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 59 / 72، أحداث عام / 599 هـ.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 204 ـ 205.

الإسلاميَّة، وانضافت إليهم المتطوِّعة، وساروا نحو الكرج. . فأمسكوا الطريق عليهم، وقتلوا منهم خلق كثير، وأسروا، ولم يفلت من الكرج إلاَّ القليل"[1].

رُبَّما بتأثير الهزيمة؛ وافق ملك الكرج على تزويج ابنته إلى أبي بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان، الذي ضمن حماية بلاده منهم بهذا الزواج[2].

واقتضى تلافي نتائج هزيمة الكرج، وإعادة ترتيب جيشهم حوالي ثلاث سنوات، توجَّه ـ بعدها ـ جيش كبير من الكرج عام **605** هـ **1209**م، إلى بلدة أرجيش[3]، وهي من ولاية خِلاط، "فحصروها، وملكوها عنوة، وأحرقوها بالكُلِّيَّة"[4]، والجديد بالذِّكر أن صاحب خِلاط ـ الآن ـ هُو الملك الأوحد نجم الدِّين أيُّوب، الذي استُدعي من قَبْلُ لحمايتها، وكان نجم الدِّين ـ وقت هُجُوم الكرج على أرجيش ـ مُقيماً في خِلاط، "وعنده كثير من العَسْكَر، فلم يخرج لكثرة الكرج، ولخوفه من أهل خِلاط"[5]، ولكن ما فعله نجم الدِّين هُو أن استنجد بوالده الملك العادل، الذي "أجمع رأيه على جمع العساكر وأصحابها، ويقصد بلاد الكرج، وحدّد الجمع على حَرَّان"[6].

ويبدو أن الكرج لم يكن في نيَّتهم الصدام المُباشر مع جيش أيُّوبي قوي فانسحبوا، واستفاد العادل من تجميع الجُيُوش عنده بعد انسحاب الكرج بالتفرُّغ لاحتلال سنجار، فسار نحوها.

ولكن غيبة الكرج عن الساحة لم تطلْ، ففي عام **607** هـ **1210**م، دخلوا الجزيرة بقُوَّة كبيرة يقودها ملكهم إيواني[7] بنفسه، ويُقال إن هُجُوم الكرج كان ضمن اتِّفاق مُلُوك الجزيرة ضدَّ العادل[8]، ويقال بأنَّ الملك الأوحد كان قد هاجم قلعة أوان، وهي للكرج، فاحتلَّها بمُساعدة

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 240.

2 – من عقد الجُمان، العيني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 59 / 72. ـ ولابن الأثير تعليق طريف على طريقة ابن البهلوان في حلِّ مشاكله مع الكرج، راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 240.

3 - أرجيش: مدينة قديمة بالقُرب من خِلاط، أكثر أهلها أرمن نصارى. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أرجيش).

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 279.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 279.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 57.

7 - يذكر أبو شامة اسمه: أبواي (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 131).

8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 146.

عسكريَّة من أخيه الملك الأشرف[1]. ومهما كان السبب، فقد قصد الكرج مدينة خِلاط، وفيها الأوحد بن العادل، وحاصروها، وكان ملك الكرج مُصمِّماً على إنهاء أمر خِلاط، ويصف أبو شامة تطوُّر المعركة على أبواب خِلاط، فيقول: "فأشرف على أَخْذها، وقصد باب أرجيش، فخرج المُسلمون إليه، فقاتلوه، ورأوا ما لا قِبَل لهم به، فبينما هُم كذلك عثر به حصانه، فقتل عليه جماعة من خواصّه، وأُخذ أسيراً"[2]. وأثبت الأوحد أنَّه لاعب ماهر في حقل السياسة والمُفاوضات، فقد أكرم الملك إيواني، وخلع عليه، وفاوضه على عدَّة شُرُوط مُقابل إطلاق سراحه، ومع أن شُرُوط الأوحد كانت باهظة، لكنَّ إيواني قبلها، ويُقال إنَّه هُو مَنْ بذلها للأوحد[3]، وهي:

1 ـ تسليم عدَّة قلاع كانت تحت سيطرة الكرج للملك الأوحد.

2 ـ إطلاق خمسة آلاف أسير مُسلم من سُجُون الكرج.

3 ـ دفع مائة ألف دينار نقداً.

4 ـ أن يُزوِّج إيواني ابنتهُ للملك الأوحد[4].

5 ـ عقد هُدنة مُدَّتها ثلاثون سنة بين الطرفَيْن[5].

وأطلق الملك الأسير إيواني، الذي أثبت أنَّه مُعاهد شريف وصادق، حيثُ نفَّذ كُلَّ شُرُوط المُعاهدة بدقَّة، بما فيها زواج ابنته بالأوحد، وستكون هذه آخر عُهُود الكرج بالهُجُوم على الجزيرة، فقد التزموا بالمُعاهدة التزاماً كاملاً، خاصَّة أن إيواني قد عاد للعرش، واستمرَّ ملكاً للكرج فترة طويلة، وكان يحرص على علاقات وُدِّيَّة مع الأيُّوبيِّيْن، ورُبَّما أن جُزءاً كبيراً من هذا الالتزام بالمُعاهدة كان بسبب الظُّرُوف الصعبة التي تعرَّضوا لها مع الخَوَارزميَّة، ثُمَّ مع التتَار. ولم يطل الأمر بالملك الأوحد، ففي السنة نفسها **607 هـ 1210م**، مرض، وتُوفِّي، فضمَّ أخوه الملكُ الأشرفُ خِلاط إلى

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 273.

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 131.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 2001.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 2001، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 131.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 2001، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113.

بلاده، وجعل الأشرف نائبه فيها أخاه المُظفَّر شهاب الدِّين عيسى[1]، وتزوَّج الملك الأشرف بأرملة أخيه الأوحد ابنة ملك الكرج إيواني، وتركها في خِلاط[2].

واستمرَّت بنت إيواني الكرجية مقيمة في خِلاط، حتَّى فتحها جلال الدِّين منكبرتي عام 627 هـ 1230م[3]، وأخذها، ودخل بها في ليلته[4]، انتقاماً من الملك الأشرف، الذي أخذ نائبه في خِلاط الحاجب عليّ زوجة جلال الدِّين من مدينة خوي عندما تمكَّن من دُخُولها[5].

وبقيت الكرجية مع الخوارزمي حتَّى هزمه التَّتار، فقابلت خاقان التَّتار، وحصلت منه على منشور بخِلاط وأعمالها، ولمَّا وصلت الجزيرة عام 643 هـ 1246م "راسلت الملك الكامل شهاب الدِّين غازي تقول: أنا كُنتُ زوجة أخيك الملك الأشرف، فإنْ تزوَّجتَ بي، فالبلاد لكَ، فلم يفعل"[6].

واستمرَّ ملك الكرج إيواني على عهده مع المُلُوك الأيُّوبيَّة، فكان مع الأشرف مثلما كان مع الأوحد، ويبدو أن الهدايا كانت تُتبَادَلُ بين الأشرف وملك الكرج، ففي عام 610 هـ 1213م، طلب الأشرف فيلاً من مصر ليحمل هدية إلى حميِّه ملك الكرج[7]، وعلى أساس المُعاهدة والصداقة، سارت العلاقات بين الكرج وبني أيُّوب، ولذلك عادت غارات الكرج ـ بعدها ـ تتوجَّه نحو أذربيجان، ولم تعد تتعرَّض لبلاد الجزيرة[8].

وعندما اقترب خطر التَّتار من بلاد الكرج عام 617 هـ 1220م، لم يجدوا أمامهم إلاَّ الملك الأشرف، فوصلت رُسُلُهُم إلى حَرَّان، وكان الأشرف فيها يتجهَّز للسّير نحو مصر لنجدة أخيه الملك الكامل، بعد أن احتلَّ الفرنجُ دمياطَ، وقال رُسُلُ الكرج للأشرف: "إن لم توافقونا على قتال هؤلاء

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.
2 - ذَيْل الرَّوضَتيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 146.
3 - ذَيْل الرَّوضَتيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 309.
4 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، ترجمة: مُحمَّد ألتونجي، 2 / 79.
5 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 158.
6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 199.
7 - ذَيْل الرَّوضَتيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 166.
8 - ذَيْل الرَّوضَتيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 172.

القوم ودفعهم عن بلادنا، وتحضروا بنُفُوسكم وعساكركم لهذا المُهمّ، وإلاَّ صالحناهم عليكم"[1]، فاعتذر الكامل إليهم بالمسير إلى مصر، وقال لهم: "إني أقطعتُ مملكة خِلاط لأخي، وسيرته ليكون بالقُرب منكم، وتركت عنده العساكر، فمتى احتجتُم إلى نصرته لدفع التَتَر، حضر معكم، ودفع التَتَر عنكم"[2].

وبعد أن انحسرت الموجة الأُولى لهُجُوم التَتَار، ولم تتعرَّض للكرج، استغلُّوا فُرصة الفوضى في البلاد التي اجتاحها التَتَار، فهاجموا أران[3] عام **619** هـ **1222**م، "وفعلوا فيها من النهب والقتل أكثر ممَّا فعله التَتَر، وصاحب البلاد مُظفَّر الدِّين أزبك بن البهلوان مُشتغل بشُربه ولهوه، ومُلُوك الإسلام كُلّ منهم قد اشتغل بصلاح قطره"[4].

ويبدو أن حالة السلام العامَّة، التي كانت سائدة بين الكرج والأيُّوبية بعد مُعاهدة خِلاط، رغم تطبيقها بعمومياتها، لكنَّها لم تمنع بعض الصراعات الهامشية، والتي تجري ـ عادةً ـ بين أيِّ دولتَيْن بينهما حُدُود مُشتركة، وأحياناً؛ قد تخرج عن السيطرة، وتستفحل، وهذا ما جرى عام **620** هـ **1223**م، مع صاحب سر ماري[5]، الذي كان في طاعة المُظفَّر غازي نائب أخيه الأشرف، ووَلِيّ عهده في خِلاط، فقد كانت الإغارات المحدودة على الحُدُود بينه وبين الكرج دائمة، ثُمَّ أعدَّ لهم كميناً، وقتل، وأسر، كثيراً منهم، فأرسل ملك الكرج إلى الأشرف يُذكِّره بالصُّلح والمُعاهدة، ويطلب إطلاق الأسرى، فأمر الأشرف صاحب سر ماري بإطلاقهم، وأكَّد على تجديد حالة الهُدنة مع الكرج[6].

ومع القُوَّة العسكريَّة المعهودة للكرج، فقد تعرَّضوا لضربة كبيرة عام **622** هـ **1225**م، عندما سيَّر إليهم الخوارزمي جلال الدِّين منكبرتي جيشاً أثناء تواجده في العراق على نيَّة قصد الخليفة،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 368.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 90.
3 - أران: ولاية واسعة، وبلاد كثيرة، فيها مدينة كنجة، يفصلها عن بلاد أزربيجان نهر الرس. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أران).
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 113.
5 - سر ماري: قلعة وولاية بين تفليس وخِلاط (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: سرماري.).
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 130.

لكنَّ قادة هذا الجيش أرسلوا إلى منكبرتي: أنْ "أدركنا؛ ما لنا بالكرج طاقة، وبغداد ما تفوت، فسار إلى تفليس، فخرج إليه الكرج، فضرب معهم مصاف، فقتل منهم سبعين ألف، وفتح تفليس عنوة، وقتل منهم سبعين ألفاً، فصار مائة ألف"[1]. وفي عام 627 هـ 1230م، وبعد أن هزم الخوارزمي في معركة ياصجمن، أرسل الملك الأشرف شمس الدِّين التكريتي رسولاً إلى ملك الكرج لاطِّلاعه على واقع الحال، والنصر على الخوارزمي[2].

وبينما كان الأشرف في أرجيش، وصله ردُّ كتابه من حميِّه إيواني ملك الكرج، "ومعه سيفاً للأشرف صحبة الكتاب، لأن عادة الكرج إذا ظفر جارهم، سيَّروا له سيفاً"، وقال إيواني في رسالته للأشرف: "وأنا على ما تعهَّده من المُعاهدة"[3].

وقد ضعفت مملكة الكرج بعد إيواني، كما ضعفت ممالك بني أيُّوب في الجزيرة بعد الأشرف، ثُمَّ تعرَّضوا جميعاً لخطر التَّتار الماحق الذي قضى على الطرفَيْن؛ لتبقى علاقة مملكة الكرج بممالك الأيُّوبيِّين الجزرية علاقة فريدة في مضمونها، ذات دلالات هامَّة في واقعها، السِّياسي والعسكري[4].

وبعد كُلِّ ذلك؛ نتبيَّن بأنَّه كان لمملكة الكرج مشروعها الخاصّ في الجزيرة الشَّاميَّة، ومن هُنا؛ اصطدمت مصالحها بالمصالح الأيُّوبيَّة، فقد كانت للكرج غارات مُنظَّمة في الجزيرة، وكان هدفهم المُباشر الاستيلاء على مدينة خِلاط، ثُمَّ السيطرة الكاملة على الجزيرة الشَّاميَّة، لكنَّ أَسْرَ ملك الكرج في خِلاط، واتِّفاقه مع الملك الأوحد الأيُّوبي، عزل الكرج، وأقصاهم عن الجزيرة، فقد التزم ملكهم بالهُدنة. ولمَّا هاجم التَّتار المنطقةَ هبَّ الكرجُ طلباً لتوحيد قواهم مع الممالك الأيُّوبيَّة في الجزيرة، لكنَّهم ابتلوا بجلال الدِّين الخوارزمي، الذي احتلَّ بلادهم، ثُمَّ جاء غزو التَّتار ليقضي على هذه المملكة.

1 - المفروض أن قتلى الكرج سبعين ألفاً أوَّلاً، وسبعين ألفاً ثانياً في تفليس، يُصبح مجموعهم مائة وأربعين ألف، وليس كما ذكر أبو شامة: مائة ألف، الذي رُبَّما هُو من أخطاء النُّسَّاخ. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 144، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 277).

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 218.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 219 ـ 220.

4 - من عقد الجُمان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 59 / 72، ـ أحداث عام / 599 هـ.

المبحث الثّاني:

علاقات مصر مع بلاد النوبة

أُطلق اسم بلاد النوبة على المنطقة المُمتدَّة جنوب صعيد مصر، وكانت منطقة قليلة الموارد، لا تعني الكثير لحُكَّام مصر، فكانت العلاقات معها ـ على الدوام ـ شبه معدومة.

وكان النُّوبيُّون قد اعتنقوا الديانة المَسيحيَّة بواسطة التبشير، انطلاقاً من مصر، مُنْذُ العصر البيزنطي، وفي أغلب الأحيان؛ كانت تقوم اتِّفاقيات شكلية بين النُّوبيين وحُكَّام مصر، ينقضها كُلُّ طرف عندما تتعارض مع مصالحه، وغالباً ما كان النُّوبيُّون يشنُّون الغارات على صعيد مصر، وينهبون قُراه، ويعودون إلى بلادهم[1].

ويُرجع بعض الكُتَّاب هجمات النُّوبيين المسيحيين على صعيد مصر إلى رُوح صليبية وحقد ديني[2].

لكنْ؛ على ما يبدو، كان هُناك وجه آخر للعلاقة السِّلْمية بين النُّوبيين ومصر، فقد تدفَّقوا عليها بالآلاف، وعملوا لدى حُكَّامها، وقد كان منهم أعداد كبيرة في خدمة الدولة الفاطمية، وقد ورد على لسان صلاح الدِّين برسالة أرسلها إلى الخليفة العبَّاسي من إنشاء القاضي الفاضل، وهُو يصف حال مصر، قوله: "وصلنا البلاد، وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير. . وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل، كلّهم أغتام أعجام، إنْ هُم إلاَّ كالأنعام، لا يعرفون ربَّاً إلاَّ ساكن قصره، ولا قبلة إلاَّ ما يتوجَّهون إليه من رُكنه"[3].

---

1 - المقريزي، اتِّعاظ الحُنفا، 2/ 201.

2 - مُصطفى مُحمَّد حسن، الإسلام والنوبة في العُصُور الوُسْطَى، 144.

3 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 84.

وبعد سيطرة صلاح الدِّين على مصر، اصطدم بهم عندما قاموا بثورة عليه، ولكنَّه قضى عليها بشدَّة، وهرب الجُنُود السودان بعد فشل ثورتهم ضدَّ صلاح الدِّين نحو بلادهم جنوباً، فأتبعهم السُّلطان بأخيه تُورانشاه، الذي قصد النُّوبة، واستولى على قلعة ابريم من ملكها، ودخل عاصمتهم دنقله، وبعد أن أخضع شمال بلاد النوبة، عاد تُورانشاه إلى أسوان في صعيد مصر، تاركاً حامية قويَّة في قلعة ابريم، ونتيجة لجُهُود تُورانشاه في النوبة، حصل على إقطاعات واسعة جنوب مصر، تمتدُّ ما بين خوص وأسوان وعيذاب[1].

ونستنتج بأنَّ الدولة الأيُّوبيَّة ـ مُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين ـ فرضت نُفُوذها في بلاد النُّوبة المَسيحيَّة، ومُنْذُ ذلك التاريخ؛ بدأ الإسلام والتعريب يدخلان المنطقة، وتعزَّز ذلك بنزوح قبائل عربية بعد فشل ثورة الكنوز في صعيد مصر، وهي التي عرَّبت شمال وأواسط السودان الحالي.

1 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 208 ـ 209.

المبحث الثّالث:

العلاقات الدّوليّة لمملكة أرمينيا[1]

الأرمن في الدولة الإسلاميَّة:

بدأت هجرة الأرمن من بلاد أرمينيا في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) نحو كيليكيا وأعالي الفُرات، مدفوعين بالتقدُّم السلجوقي في الأناضول من جهة، وبتراجع السياسة البيزنطيَّة وسُوء إدارتها من جهة أُخرى[2]، وتوالت هجرة الأرمن بكثافة إلى شمال الجزيرة الشَّاميَّة، فشكَّلوا ـ أوَّل الأمر ـ قسماً مُهمّاً من طبقة الفلاحين هُناك، ثُمَّ تمكَّن بعضهم من تأسيس إقطاعات مُستقلَّة، تمتلك قُوّات عسكريَّة صغيرة[3].

وعندما دخلت الحملة الصَّليبيَّة الأُولى شمال الشَّام عام **490** هـ **1097**م، وجدت أمامها في جبال طوروس الشَّرقيَّة والغربية جماعات مُستقلَّة من الأرمن، يحكمهم أُمراء منهم[4]، فقد استطاع بعض الأُمراء الإقطاعيين الأرمن من إقامة القلاع، والسيطرة على الممرَّات الجبلية الحصينة في كيليكية، حتَّى إن منهم مَنْ تمكَّن من حُكم مُدُن صغيرة في شمال الجزيرة الشَّاميَّة[5]، بينما كان الأرمن في المُدُن الكُبْرَى وفي سُهُول الجزيرة وشمال الشَّام يخضعون لحُكم الأتراك السلاجقة[6].

وممَّا يدلُّنا على تزايد أعداد الأرمن في الجزيرة أنَّه في عام **531** هـ **1136**م، بعد أن تمكَّن بهرام الأرمني من تولِّي منصب الوزارة في القاهرة الفاطمية، "تكاثر وُصُول أقارب بهرام وإخوته وأهله وقومه، ومجيؤهم من ناحية تلّ باشر، وقدموا ـ أيضاً ـ من بلاد الأرمن، حتَّى صار منهم بديار مصر نحو ثلاثين ألف إنسان . . وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يُغيِّروا الملَّة الإسلاميَّة، ويكلبوا على

---

1 - قامت هذه المملكة ما بين سنوات: 594 ـ 776 هـ= 1198 ـ 1374م، ويُقال لها أرمينية الصُّغرَى تمييزاً لها عن الدولة القومية الأرمنية الكُبْرَى، التي يُطالب بها الأرمن.

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 88.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 99.

4 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 88.

5 - ميخائيل السوري الكبير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، 5/ 108.

6 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 88.

البلاد، فيردُّوها دار كُفْر"[1]. واستمرَّت قُوَّة الجُند الأرمنية التي شكَّلها بهرام في مصر حتَّى بعد القضاء عليه، فقد كانت مُحتفظة بفاعليَّتها عندما تولَّى صلاح الدِّين أُمُور مصر؛ حيثُ يقول صلاح الدِّين في رسالة من إنشاء القاضي الفاضل إلى الخليفة في بغداد يصف حال مصر: "وبها عسكر من الأرمن، باقون على النصرانية، موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشكة، وحمية وحمة"[2]، ويبدو أنَّهم كانوا مُعادين لقيام صلاح الدِّين بأمر الدولة، دفاعاً عن مكاسبهم ووُجُودهم، لكنَّ صلاح الدِّين تغلَّب عليهم، وطردهم، فقد تابع في الرسالة المذكورة آنفاً قوله: "وشرعنا في تلك الطوائف من الأجناد السودان والأرمن، فأخرجناهم من القاهرة"[3].

إن هذه الأعداد الكثيفة من الأرمن التي وصلت مصر، مع أن قسماً كبيراً منها قد تمَّ اعتراضه في الشَّام، ومُنع من مُواصلة طريقه إلى مصر[4]، تدلُّ على كثافة سُكَّانية كبيرة للأرمن في شمال الشَّام، لذلك كان من الطبيعي أن يسعوا لتوحيد كيانهم القومي في ظلِّ إطار سياسي، وإقامة دولة تجمعهم، خاصَّة إذا عرفنا أن أهمَّ ميزات تكوين الأرمن أنَّهم شعب جبلي مُقاتل بالفطرة.

لقد هاجر الأرمن من أرمينيا الكُبْرَى نحو الجنوب نتيجة ظُرُوف صعبة أخذت تُحيط بهم، لكنَّهم لم يجدوا ظُرُوفاً أفضل؛ حيثُ هاجروا، فقد وصلوا إلى مُحيط إسلامي يحكمه الأتراك السلاجقة المُتشدِّدون، لذلك ما إن أطلَّ رجال الحملات الفرنجيَّة الغازية حتَّى رحَّب بهم الأرمن، وقدَّموا لهم الدعمَ، وساعدوهم بكُلِّ إمكاناتهم، حتَّى أقاموا إمارة الرُّهَا، وكان الأرمن مدفوعين بعدائهم الدِّيني للأتراك، فوجدوا الفرنج أقرب ما يكون إليهم[5]، ولذلك انخرط الأرمن ـ بكثافة ـ في جُيُوش الفرنجة، وقاتلوا مع روجر وبلدوين بحماسة، وقد شكَّل منهم الفرنجة مجموعات قتالية مُهمَّة تدعم تكتيكهم العسكري الثقيل، فكوَّنوا فِرَق فُرسان خفيفة وفِرَقاً من المشاة الرماة[6].

---

1 - اتِّعاظ الحُنفا، المقريزي، 3/ 159.

2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 84.

3 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 84.

4 - اتِّعاظ الحُنفا، المقريزي، 3/ 158

5 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 89، والشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 99.

6 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 89.

ولكنْ؛ ما إن بدأ الفرنجة يواجهون الانتكاسات العسكريَّة حتَّى انقلب عليهم كثير من الأرمن، وتعاونوا مع المُسلمين، ممَّا عرَّضهم لانتقام الفرنجة[1].

قيام دولة أرمينيا:

وفي عام 594 هـ 1198م، ساعدت الظُّرُوف السِّياسيَّة والعسكريَّة[2] أرمن كيليكيا لإقامة دولتهم المُستقلَّة[3]، التي عملوا ـ تدريجياً ـ على تأسيسها، وتوِّج ليون الثَّاني ملكاً على مملكة أرمينيا الصُّغْرَى[4]، وقد تَوَّجه هنري السَّادس إمبراطُور ألمانيا في كَنيسَة طرطوس تقديراً لجُهُوده في الحملة الصَّليبيَّة الثَّالثة، بمباركة من إمبراطُور بيزنطة وبابا رُوما[5]، فالإمبراطُور البيزنطي أمل أن تكون دولة أرمينية شوكة في جنب السلاجقة، إنْ لم تكن حاجزاً يمنعهم عن بلاده، ومهما كان، فالأرمن مسيحيُّون يُقيمُون دولة مسيحيَّة على أراض كانت تحت سيطرة إسلامية، ولو كانت ـ في كثير من جوانبها ـ اسميَّة، أمَّا البابا؛ فقد بارك دولة مسيحيَّة في مُحيط إسلامي، لكنَّه ـ أيضاً ـ أمل أن يضمَّها ـ فيما بعد ـ إلى كَنيسَته في رُوما. كذلك حصلت دولة أرمينيا الصُّغْرَى على دعم الجمهوريات الإيطالية، التي حصلت فيها على ميناء[6] لما فيه من التسهيلات الشيء الكثير، ويُوفِّر الأمن الذي عجزت موانئ الفرنجة في الساحل الشَّامي عن تأمينه بسبب هجمات المُسلمين المُتكرِّرة عليها.

ومع كُلِّ العلاقات الوثيقة بين الأرمن والفرنج في أُورُبة، وطموح الأُمراء الأرمن ليكونوا جُزءاً من المُجتمع الفرنجي في الشَّرْق، لكنَّهم ظلوا مُتمسِّكين بكَنيسَتهم القومية، وميِّزاتهم الوطنية[7].

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 91.
2 - أهمُّ هذه الظُّرُوف كان انشغال مُلُوك سلاجقة الرُّوم بصراعهم على السُّلطة بعد وفاة السُّلطان قليج أرسلان.
3 - حول مملكة أرمينيا في كيليكيا؛ راجعْ: تاريخ سنباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 304.
4 - راجعْ مُخطَّط مملكة أرمينيا ضمن مُصوَّر المنطقة في ملاحق الكتاب.
5 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 232، وفُصُول ببيلوغرافية، مُحمَّد مُؤنس أحمد، 80.
6 - هُو ميناء إياس الواقع على الساحل الشمالي لخليج الإسكندرونة.
7 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 232.

العلاقات الأرمينية الأيُّوبيَّة:

بدأت العلاقات بين الأرمن والأيُّوبيين بوقت مُبكِّر من التاريخ السِّياسي لكُلٍّ منها، فعندما كان السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة عام 576 هـ هاجم بلاد ابن لاون[1] الأرمني، الذي أسر جماعة من التُّركمان، كان قد استهالهم للرعي في أرضه، ثُمَّ غدر بهم، فأوغل السُّلطان في أراضي الأرمن، وتمكَّن من احتلال قلعة المناقير، فاستولى على موجُوداتها، وأمر بهدمها، وإحراقها، "فخاف ابن لاون، وخضع، وذلَّ، ودخل تحت طاعة السُّلطان، وأطلق ما بيده من الأسرى"[2]. لكنْ؛ ما إن انشغل السُّلطان صلاح الدِّين بحصار الفرنج لعكَّا، وسحب حاميته من قلعة بغراس، حتَّى سارع الأمير الأرمني ليفون، واحتلَّها[3]، وأصبحت بغراس مجال نزاع بين الأرمن وطائفة الدَّاوية، الذين طالبوا بها؛ لأنَّها كانت لهم قبل أن يُحرِّرها صلاح الدِّين لها[4]. واستمرَّ الأُمراء الأرمن يُدركُون أهمِّيَّة العلاقة بمَنْ يحكم الشَّام والجزيرة، ويحرصون على إرضائهم، أو التآمر ضدَّهم، إنْ أمكن، فعندما قدمت الحملة الألمانية لتعبر كيليكية عام 586 هـ 1190م، في طريقها إلى ساحل الشَّام، قام أقوى أُمراء الأرمن في ذلك الوقت ليفون[5] بمُلاقاة ملك الألمان فريدريك بربروسا، وقدَّم له كُلَّ ما يلزم، وتطوَّع أن يكون دليلاً لطريقهم حتَّى سُورية. لكنَّ أميراً أرمنياً آخر هُو غايوس صاحب قلعة الرُّوم[6]، أرسل إلى السُّلطان صلاح الدِّين رسالة يشرح فيها بالتفصيل حَرَكَة الحملة الألمانية عبر بلاد

---

1 - ابن لاون: هُو لافون بن اصطفانه بن لاون (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 320)، الذي كان أوَّل مُلُوك أرمينية الصُّغرَى، وهُو ليون الأوَّل، وتحريفاً لاسم ليون أطلق العرَب المُسلمون أسماء: ابن لاون، وليفون، (بحوث ودراسات في تاريخ العُصُور الوُسْطَى، سعيد عاشور، 239)، وأحياناً؛ أسموه: تكفور (التعريف بالمُصطلح الشريف، العمري، 55). ويقول ابن العديم عن ليون الأوَّل: "وهُو من وُلد بردس الفقاس الذي كان في زمن سيف الدولة. (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 625)، والمعروف أن اسم نقفور أو نقفور الفقاس كان العرَب يُطلقونه على الإمبراطُور البيزنطي المُعاصر لسيف الدولة الحمداني وهُو: Nicephorus II Phocas

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 98، ـ وكذلك راجعْ: الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 16.

3 - ذيل وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 358.

4 - ذيل وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 359.

5 - ليفون: هُو لاون، أو ليون الثَّاني، الذي تُوِّج ـ آنذاك ـ ملكاً على الأرمن. (ذيل وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 358).

6 - غايوس: يبدو أنَّه كان ذا رُتبة دينيَّة مسيحيَّة عالية؛ إذْ يقول عنه ابن واصل: "هُو للأرمن بمنزلة الخليفة عندنا". (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 320)، ـ قلعة الرُّوم: قلعة حصينة في غربي الفُرات مُقابل البيرة، بينها وبين سُمَيساط، بها مقام بطرك الأرمن. وهذه القلعة في وسط بلاد المُسلمين، وما أظنُّ بقاءها بيد الأرمن إلاَّ لقلَّة جدواها، ولأجل مقام البطرك بها، كأنَّهم يتركونها كما يتركون البيع والكنائس في بلاد الإسلام. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قلعة الرُّوم).

السلاجقة، ويُخبره بموت الملك الألماني فريدريك الكبير غرقاً، ويبدو أنَّه كان مُنافساً لليفون، فيذكر للسُّلطان بشيء من التَّشفِّي: أن ليفون كان سائراً ليلقى ملك الألمان، فسمع بموته، فأسرع إلى حصن له قريب، واحتمى به[1].

مملكة أرمينيا والفرنج:

إن علاقات الأرمن المُبكِّرة بالفرنج وحملاتهم وإماراتهم في الساحل الشَّامي تفاعلت إلى درجة كبيرة من خلال علاقة مملكة أرمينية مع إمارة أنطاكية، وانعكس ذلك على علاقات الجانبَيْن كلَيْهما مع الممالك الأيُّوبيَّة من خلال استراتيجية كُلِّ مملكة منها، فبعد شهر عسل طويل بين الأرمن وفرنجة أنطاكية، تدهورت العلاقات بينهما إلى درجة كبيرة، وغدا هُم أرمينية ومُلُوكها الهُجُوم على إمارات أنطاكية الفرنجيَّة، حتَّى حكموها في النِّهاية. وقد أدَّت المُعاهدة التي عقدها صلاح الدِّين مع الفرنج قُبيل وفاته، واشترطوا فيها أن تشمل إمارة أنطاكية[2]، إلى قيام حالة من السِّلْم بين أنطاكية والممالك الأيُّوبيَّة التي قامت بعد موت السُّلطان، والتي التزمت بالمُعاهدة، وخاصَّة مملكة حلب، التي حكمها الظَّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدِّين، وهي المملكة الأيُّوبيَّة الأكثر اهتماماً والتصاقاً بمملكة الأرمن وإمارة أنطاكية، لمُجاورتها بحُدُود طويلة.

إن حالة السِّلْم التي أقامتها مملكة حلب الأيُّوبيَّة مع إمارة أنطاكية الفرنجيَّة، فرضت نوعاً من التَّوتُّر بينها وبين مملكة أرمينية، لكنَّ الملك الظَّاهر صاحب حلب سعى جاهداً لتهدئة الوضع مع الأرمن؛ ليتفرَّغ لمشاكله مع عمِّه العادل في أوَّل الأمر، ولمَّا عادت الأُمُور إلى مجاريها بينهما، واستقرَّ كُلٌّ منهم في بلاده، كان العادل بصفته سُلطان الأيُّوبيَّة يفرض الكثير من المواقف على الظَّاهر تجاه علاقاته بالأرمن وأنطاكية. فهل هُو التنافس الأيُّوبي؟! أم عدم وُجُود استراتيجية سياسيَّة مُوحَّدة للبيت الأيُّوبي؟! لقد كانت خُطَّة الأرمن أن يُسيطروا سلْمياً، وبطريقة شبه شرعية، على أنطاكية، لكنَّ مُخطَّطاتهم واجهت العراقيل، فعندما تُوفِّي أمير أنطاكية الفرنجي بُوهمند الثَّالث[3]، خلفه كوريث شرعي، ابن ابنه ريموند، الذي كان قد تُوفِّي في حياة والده، وهذا الابن هُو حصيلة زواجه من الأميرة

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 319.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2 / 403.
3 - بُوهمند الثَّالث: عاش في الفترة ما بين سنوات 558 ـ 597 هـ ـ 1163 ـ 1201 م.

الأرمنية أليس ابنة روبين الثَّالث أخو ليون الثَّاني[1] ملك أرمينيا، وذلك حسب القانون السَّائد بتوريث الابن الأكبر، لكنَّ عمَّه بُوهمند الرَّابع صاحب طرابلس حضر بسُرعة إلى أنطاكية، وأعلن ـ يوم دَفْن والده بُوهمند الثَّالث ـ وراثته للعرش، وأيَّده في ذلك رجال الدِّين والقُوَّات العسكريَّة النِّظاميَّة والدَّاويَة في أنطاكية، وهذا التأييد كان ضدَّ طموح ليون الثَّاني بمَدِّ سيطرته على أنطاكية[2]، فما كان من ليون إلاَّ أن حشد قُوَّات الأرمن، وهاجم أنطاكية عام **601** هـ ـ **1205**م، "فسيَّر الملك الظَّاهر غازي عسكراً من حلب لنجدة البرنس صاحبها، فلمَّا وصلوا العاصي، ضعف أمر ابن لاون، وأخرجوه من أنطاكية، وقتلوا جماعة من أصحابه، فعاد عسكر حلب إليها"[3]، لكنَّ ابن لاون اعتبر أن حلب فسخت الهُدنة معه، فأغار على العمق، واستاق مواشيها، وأرسل إلى الملك الظَّاهر "وسأله أن يُخلِّي بينه وبين أنطاكية، وأن يُعيد جميع ما أخذه من العمق، فأجابه إلى ذلك، وهادنه على هذا الأمر" فعاد ابن لاون للهُجُوم على أنطاكية، "فكان الظَّاهر يمدُّ أهل أنطاكية بالغلال حتَّى قويت"[4]. ويبدو أن هذا قد أزعج ابن لاون، واعتبره مُخالفاً للهُدنة مع الظَّاهر، ففي عام **602** هـ ـ **1206**م، هاجم دربساك، ونهب أرض العمق، فسيَّر الظَّاهر قُوَّةً من عسكره بقيادة ميمون القصري[5]، فهاجمه ابن لاون على حين غرَّة، ثُمَّ عاد عنه. وخرج الملك الظَّاهر من حلب وقد جاءته النجدات من عمِّه العادل وغيره من بني أيُّوب، وَعَسْكَرَ بمرج دابق، ثُمَّ تحرَّك إلى سهل العمق، فأرسل ابن لاون يعرض الصُّلح، فلم يلتفت إليه، ولمَّا ألحَّ؛ تمَّ الاتِّفاق على أن يردَّ ابن لاون جميع ما أُخذ في الغارة، ويُحرِّر جميع أسارى المُسلمين، وأن لا يعرض لأنطاكية[6].

1 - ليون الثَّاني: عاش في الفترة ما بين سنوات 583 ـ 616 هـ 1187 ـ 1219 م.

2 - راجِعْ: ذيل وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 359. ومملكة حلب، كمال بدور، 119 ـ 120.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 225، وتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، 3/ 170، وحسين عطية، إمارة أنطاكية، 255.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 226.

5 - نسبة إلى قصر الخُلفاء الفاطميين؛ حيثُ أخذه صلاح الدِّين، وضمَّه إلى مواليه.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 762 ـ 628، والكامل في التاريخ، 12/ 238، وذَيْل الرَّوضَتَيْن،أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 20/ 102، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 170، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 406.

أرمينيا ومملكة حلب:

ويبدو أن هذه المُعاهدات والهُدنات بين مملكة حلب والأرمن لم تكن لتعني شيئاً للطرفَيْن كلَيْهما، حين يكون أحدهما في وضع مُناسب ضدَّ الآخر، فعندما حشد سُلطانُ سلاجقة الرُّوم كيخسرو قُوَّاته للهُجُوم على بلاد الأرمن عام 605 هـ 1209م، طلب نجدةَ الملك الظَّاهر، فأمدَّه بقُوَّة عسكريَّة يقودها سيف الدِّين بن علم الدِّين ومعه عدد من الأُمراء. فدعموا هُجُوم كيخسرو على برتوس[1]، ففتحوها مع عدَّة حُصُون[2]. ولكنَّ دعماً غير مُتوقَّع يأتي إلى ابن لاون من الملك العادل، فبعد أن راسله ابن لاون كتب إلى كيخسرو وإلى الظَّاهر كي يكفَّا عنه، وفعلاً؛ استجابا إلى طلبه، وعقد الصُّلح مع ابن لاون[3]، ممَّا يدلُّ على عدم وُجُود تنسيق بين الممالك الأيُّوبيَّة في علاقاتها السِّياسيَّة تجاه مملكة أرمينية، ورُبَّما كان الأمر كذلك بالنِّسبَة لبقية الدُّول الأجنبية. كما يدلُّ على تحرُّك سياسي واسع لملك الأرمن، وعلى معرفته الجيِّدة بالعلاقات بين الممالك الأيُّوبيَّة، ممَّا مكَّنه من اللعب على حبال الخلافات بينها أكثر من مرَّة.

وتتَّضح معالم حلف غير مُعلَن تجمَّعت أطرافه وُفقاً لمصالحها، بغَضِّ النظر عن الانتماءات والعقائد، فنجد الملك الظَّاهر غازي صاحب حلب في صفٍّ واحد مع بُوهمند الرَّابع أمير أنطاكية ومعه طائفة الدَّاويَة، وكيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم، يُقابلهم السُّلطان العادل في صفٍّ واحد مع ليون الثَّاني ملك أرمينية ومعه طائفة الاسبتاريَّة[4]. يتحدَّث الكاتب الفرنجي المجهول لذيل تاريخ وليم الصُّوري عن العلاقة بين حلب ومملكة الأرمن من خلال الصراع حول أنطاكية، فيقول: "أرسل الكُونت من داخل أنطاكية إلى سُلطان حلب يطلب المُساعدة ضدَّ الأرمن، وكان سُلطان حلب لا يُحبُّ ملك أرمينية، ووافق ذلك أمير أنطاكية، الذي كان بإمكانه المُقاومة ضدَّ ملك أرمينية، وأنْ يحول بينه وبين السيطرة على أنطاكية، ودامت الحُرُوب سبع سنوات، ثُمَّ سُلِّمَتْ أنطاكية إلى

---

1 - وهي في مُفرِّج الكُرُوب: بغرقوس (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 187)، ـ ويقول د. سُهيل زَكَّار في تحقيق كتاب زُبْدَة الحَلَب: لعلَّها تصحيف عربسوس؛ أيْ أفسوس. (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629).

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629.

4 - Armenia cradle of civilization, Lang. p. 200

ملك أرمينية عن طريق الخيانة"[1]، ففي عام 612 هـ 1215م، تمكَّن ابن لاون ملك الأرمن من السيطرة على أنطاكية[2] بمُساعدة الاسبتاريَّة[3]، وكعربون صداقة وبداية لعلاقات أفضل، "أطلق جماعة من أسرى المُسلمين فيها، وحملهم إلى حلب، ووقع الصُّلح بينه وبين الملك الظَّاهر"[4]، وكتب ابن لاون إلى الملك الظَّاهر: "إنَّه فتح أنطاكية باسمه، وإنَّه أطلق أسرى المُسلمين، وسيَّرهم إلى حلب"[5]. وكذلك وفى ابن لاون بوعده، وسلَّم قلعة بغراس إلى الدَّاويَة، وعاد إلى بلاده؛ لأن عزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم لم يُهادنه، وباشر بشَنِّ الغارات على بلاد أرمينية، وفتح إحدى قلاعها المنيعة؛ وهي قلعة لُؤلُؤ[6]. وقبل أن يُغادر ابنُ لاون أنطاكيةَ نصب فيها "ابن أُخته روبين بن ريمند بن ريمند الكبير"[7].

ويبدو أن صُلح الظَّاهر صاحب حلب مع مملكة الأرمن لم يُعجب كيكاوس، ففي عام 613 هـ 1216م، ضغط على الظَّاهر، وألحَّ عليه للهُجُوم على الأرمن، وكانت خُطَّته أن يُهاجم كيكاوس من جهة مرعش، ويهجم الظَّاهر من جهة دربساك، فيحصرا ابن لاون وجيشه بين فكَّيْ كمَّاشة، وبالوقت نفسه؛ يُهاجم البرنس أنطاكية، تدعمه قُوَّات دمشق وحمص وحماه[8]. نظرياً؛ إنَّها خُطَّة مُحكمة وفاعلة بالتَّأكيد؛ حيثُ يحصر ابن لاون في المُرتفعات، ولا يُمكنه الخُرُوج بجيشه من الدربندات[9] لإنقاذ أنطاكية، التي يُهاجمها صاحبها السَّابق الإبرنس بقُوَّات دمشق وحمص وحماه، ولكنْ؛ عملياً، يبقى الاتِّفاق ناقصاً مُوافقة الملك العادل سُلطان الأيُّوبيَّة، وهُو صاحب القرار في دمشق، والتأثير الكبير في حمص وحماه، ورُبَّما كان يأمل كيكاوس أن يتكفَّل الظَّاهر بتأمين مُوافقة عمِّه العادل.

---

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 484.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 174.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 408.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 233.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 408.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 233.
7 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 406، ـ بقيت أنطاكية بيد روبين حتَّى قصدها السُّلطان الظَّاهر بيبرس، وفتحها عام 666 هـ(الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 408).
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 234.
9 - الدربندات: جمع دربند، وهي الممرَّات الوعرة في جبال طوروس.

وبالفعل؛ فقد أعجبت الخُطَّةُ الملكَ الظَّاهر، الذي لم يكن له استراتيجية ثابتة في التعامل مع الأرمن، أو مع أنطاكية، وكان هَمُّهُ تأمين طريق تجارة حلب البحري مع أنطاكية، لكنْ؛ بدُون انتهاج خُطَّة دائمة وثابتة للتعامل معها، فلم يلتزم ـ بشكل كامل ـ لا مع أُمراء أنطاكية، ولا مع مملكة أرمينية، ولا مع مملكة سلاجقة الرُّوم، إنَّما كان يتبع تكتيكاً سياسيّاً آنيّاً، لا يدلُّ على بُعْد نظر، وهذا غير مُستغرَب على الظَّاهر، فقد كانت هذه سياسته في الشَّام، وضمن البيت الأيُّوبي. وأخذ الملك الظَّاهر بالاستعداد العسكري للحملة، وأرسل إلى عمِّه السُّلطان العادل يطلب منه الدعم لإتمام الخُطَّة، فأرسل إليه العادل يُهجِّن رأيه، ويطلب منه ألا يجتمع بكيكاوس أصلاً، وشرح له الورطة التي يُمكن أن يُوقع نفسه فيها، فأصابت الظَّاهر الحَيْرَةُ بين أن ينكل بوعده لكيكاوس وبين مُخالفة عمِّه[1].

وكأن السُّلطان العادل كان يرى أن خطر مملكة الأرمن يشغل بال الظَّاهر غازي عن المُطالبة بالسَّلْطَنَة، فتدخَّل لمصلحة الأرمن، وألحَّ على الظَّاهر بعقد الصُّلح معهم.

ومرَّة أُخرى؛ يثبت ابن لاون مقدرته السِّياسيَّة، ويُثبت أكثر اطِّلاعه على ما يجري ضمن البيت الأيُّوبي، فقد توجَّه ـ هذه المرَّة ـ برسالته إلى الملك الظَّاهر، ويبدو أنَّه كان يُدرك أن موقف الملك العادل مُناسب له، فركَّز على الملك الظَّاهر، وأوصل إليه رسالة فيها كُلّ ما يُريده الظَّاهر، وكأنَّه كان يعرف تماماً ما يُريده الظَّاهر، فقد بدأ رسالته بالتذلُّل والخُضُوع، وهُو ما يُناسب شخصية الظَّاهر، التي تملك طموحاً كبيراً مُستمدّاً من إرث والده العظيم، ولا يملك مُقوِّمات شخصية والده لتحقيق طموحاته، فكلمات ابن لاون المستعطفة المتذلِّلة التي أجاد انتقاءها؛ حيثُ يقول: "إني مملوك السُّلطان، وغرس دولته، وقد دخلت عليه دُخُول العَرَب، وأطلب منه إنقاذي من هذه الورطة، وأكون مملوكه ما عشتُ"[2]، لابُدَّ أن هذه الكلمات فعلت فعلها في نفس الظَّاهر. ثُمَّ ينتقل ابن لاون في رسالته إلى تعداد خدماته السابقة للظاهر، ويذكره بها استعطافاً؛ كي لا يردَّ الجميل بالمكروه، فيقول: "وقد حفظتُ بلاد السُّلطان غير مرَّة، وخدمتُهُ، ومنها: أن السُّلطان لَمَّا حاصر دمشق المرَّة الأُولى، وبقيت البلاد شاغرة من العساكر ما شغلتُ قلبَهُ، ولا آذيتُ بلده، بل ساعدتُهُ، وعاونتُهُ بمالي

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 234.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 235.

ورجالي، وكذلك لمَّا حاصر دمشقَ المرَّة الثَّانية، وقد بُذلَتْ لي الأموالُ كُلّها لأشـغلَ قلبَـهُ، ويفـتر عـن الحصار، فلم أفعل"[1]. وبالطبع؛ يُشير ابن لاون إلى أشياء لم يفعلها، ولم يـذكر مـا قـام بفعلـه ضـدَّ مملكة حلب، من احتلاله لبغراس وهُجُومه المُتكرِّر على أراضي العمق، وضربـه لقُـوَّات حلـب التـي كانت مع ميمون القصري.

ويلفت النظر في الرسـالة تلمـيح ابـن لاون إلى عـرض الملـك العـادل أثنـاء حـصار الظَّـاهر لدمشق، وهُو إشارة إلى أن ذلك مُمكن أن يتكرَّر، وأنَّه قد يحالف العادل على الظَّاهر في قادمات الأيَّام.

ويُتابع ابن لاون في رسالته إلى الظَّاهر، فيُقارن بين خدمات برنس أنطاكية للظـاهر وخدماتـه هُو، واعداً أنَّ مصالح الظَّاهر في أنطاكية ستكون مُؤمّنة أكثر، وأن أميرها سيكون في خدمته، فيقـول: "وإن كان الإبرنس قد خدم السُّلطان، فخدمتي أكثر من خدمته، وسوف يـبصر الـسُّلطان خـدمتي، ومُلازمتي بابه الشريف، وقد أوصيتُ ابن أُختي الـذي نـصبتهُ بأنطاكيـة بمُلازمـة خدمتـه"2. لقـد اجتمع على الظَّاهر تأثير رسالة ابن لاون مع تحذير عمِّه الملك العادل من القيـام بالحملـة، لكنَّـه بقـي مُتردِّداً، فقد وعد كيكاوس، وهُو جار قوي وخطر، ولا تسهل مُعاداتـه. وجـاء الفـرج للظـاهر مـن حادثة بسيطة على الحُدُود مع مملكـة الـسلاجقة، كـان مـن المُمكـن أن لا يلتفـت إليهـا في غـير هـذه الظُّرُوف، فقد أغارت قُوَّة من عسكر سلاجقة الرُّوم على منطقة البلاط التابعة لحلب، قاصدين تجمُّعاً للأرمن فيها، لأنَّهم ساعدوا ابن لاون في غارته على بلاد سلاجقة الـرُّوم، ونهبهـا، فلـمَّا بلـغ الخـبر إلى مسامع الظَّاهر، انتهزها فُرصة، وقال لرسول كَيْقُبَاذ الذي يستحثُّه لسُرعة الحَرَكَة: "العجيـب أنكـم تطلبون منا المعاونة، وتُخرِّبون بلادنا"[3]، ولم تُجد تبريرات رسول كَيْقُبَاذ، ونجا ابن لاون مـن هُجُـوم كان من المُمكن أن يُسبِّب له أذىً كبيراً، خاصَّة بعد إبرامه تحالفاً مع إمبراطُور نيقية البيزنطي ثيـودور لاسكارس، ممَّا اضطرَّ كيخسرو ـ الذي أصبح معزولاً ـ للتحالف مع لاتين القسطنطينيَّة[4].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 235.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 235.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 235.
4 - التُّرك في العُصُور الوُسْطَى، زبيدة عطا، 118.

ويبدو أن سياسة حلب تجاه الأرمن وإمارة أنطاكية، كانت ـ غالباً ـ تسعى لتحقيق عدم تفوُّق أيٍّ منهما على الأُخرى، فالتوازن بينهما هُو مصلحة لمملكة حلب، وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّه بعد وفاة الظَّاهر وعودة أنطاكية لحُكْم الفرنج قامت حملة من أنطاكية على بلاد الأرمن عام **623** هـ **1226**م، فاستنجدوا بالأتابك شهاب الدِّين طَغْريل القائم بأمر مملكة حلب، فأمدَّ الأرمنَ بجند وسلاح، مكَّنهم من التّصدِّي لقُوَّات أنطاكية، وعودتها دُون تحقيق أيِّ شيء[1].

وفي نهاية البحث؛ نستطيع أن نستنتج بأنَّ دولة الأرمن في كيليكيا قد قامت مُستغلَّة الأوضاع المُضطربة للمنطقة، وكان سرُّ نجاحهم هُو فَتْحَهُم ميناء إياس على المُتوسِّط، الذي شكَّل بديلاً لموانئ الساحل الشَّامي، التي أغلقت الحُرُوب مع الفرنجة مُعظَمَهَا. وقد لاحظنا بأنَّ الأرمن وقفوا بكُلِّ قواهم ـ في أوَّل الأمر ـ مع الفرنجة في الجزيرة والرُّهَا، يدفعهم عداءٌ ديني ضدَّ السلاجقة الأتراك، وقاتلوا مع جُيُوش الفرنجة، وشاركت قُوَّاتهم في الحملة الثَّالثة على عكَّا، لكنْ؛ بتراجع القُوَّة الفرنجيَّة ـ وخاصَّة بعد تحرير الرُّهَا ـ انقلب كثير من الأرمن على الفرنجة.

لقد ارتبطت مملكة الأرمن بعلاقة مُتناقضة مع المالك الأيُّوبيَّة، وخاصَّة جارتها حلب، فغالباً ما كان يسود العداء المُستحكم بينهما، وعندما كان الأرمن يتنمَّرون ويُهاجمون أطراف مملكة حلب سُرعان ما كانت تُوجَّه نحوهم حملة عسكريَّة، فيعودون للخُضُوع والتذلُّل. وضمن هذا الصراع حاولت مملكة أرمينيا أن تُجرِّب سياسة اللعب على وتر الخلافات الأيُّوبيَّة، لكنَّها لم تنجح، ممَّا جعلها تحرص على إقامة علاقة طيِّبة مُتميِّزة مع جارتها حلب، وتطوَّرت العلاقات بينهما، حتَّى إن حلب دعمت الأرمن عسكريّاً في بعض المواقع.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 465 ـ 466.

المبحث الرّابع:

العلاقات الدّوليّة للإمبراطوريّة البيزنطيّة

كانت القسطنطينيَّة عاصمة الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة تعيش شعبياً في حالة مزرية من الانحطاط الأخلاقي، ورَسْميًّا؛ تُسيطر عليها نزعة الانقلابات على الأباطرة، وسَحْلهم في الشوارع، وأحياناً؛ أكل جُثثهم[1]. وكانت الدولة تعيش أسوأ أوقاتها في العصر الأيُّوبي، فسلاجقة الرُّوم قد سلخوا منها قسماً كبيراً وهامًّا في الأناضول، وقامت في كيليكيا مملكة الأرمن، التي مع كونها مسيحيَّة أرثوذكسية، لكنَّها مُتعصِّبة لقوميَّتها غير مُستعدَّة للانصياع لبيزنطة. كما أن الفرنجة رغم مُحاولاتهم المُتعدِّدة للتفاهم، إن لم نقلْ التحالف مع بيزنطة، فقد ظلُّوا ـ على الدوام ـ مصدر خطر حقيقي لها في عُبُورهم للشرق، وفي وُجُودهم فيه، حتَّى فتحوا القسطنطينيَّة، وأقاموا فيها الحُكْم اللاتيني، الذي استمرَّ حوالي ستِّين عاماً[2]. كُلُّ ذلك جعل أباطرة بيزنطة يسعون لإقامة علاقات طيِّبة مع السُّلطان الأيُّوبي، ولم تتعدَّ علاقاتهم مركزَ السُّلطة الأيُّوبيَّة الكُبْرَى إلى الممالك، أو الإمارات. ورُبَّما كان ذلك بسبب عدم وُجُود علاقات قويَّة من جهة، ولعدم وُجُود حُدُود مُشتركة، أو مصالح كُبْرَى مُشتركة بين البلدَيْن.

بيزنطة والحملات الفرنجيَّة على سُورية ومصر:

رُبَّما شعر أباطرة بيزنطة بخطر الحملات الفرنجيَّة التي تجتاز بلادهم، وحاولوا ـ ببراعة ـ تفادي الصدام بها، لكنَّ مُحاولتهم الأهمّ كانت لتسخير هذه الحملات لصالحهم، والاستفادة منها ما أمكن. لذلك تُعدُّ بيزنطة ذات مُساهمة جدِّيَّة في نجاح الحملات الفرنجيَّة الأُولى، فقد ساعدتهم بأُسطُولها، الذي كان من أقوى الأساطيل في شرق المُتوسِّط، ولولا ارتياب كُلٍّ منهم بالآخر، لتمكَّنوا مُتَّحدين من تحقيق نجاحات كُبْرَى[3]. لقد كان الفرنجة في الحملات الأُولى، وقبل أن يقتنعوا بأفضلية الطريق البحري المُباشر، مُضطرِّين للعُبُور في أراضي بيزنطة، ورغم وحدة الدِّين المسيحي بينهما، فإن اختلاف المذهب ـ والأهمّ منه اختلاف المصالح السِّياسيَّة والعسكريَّة بينهما ـ

1 - ذيل وليم الصُّوري، مخطوطة ليون، 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 265، وكان قد حصل ذلك للإمبراطُور أندرونيكسون، عندما ثار عليه كيرساك، وقتله، ثُمَّ سلَّمه إلى النساء، فمزَّقتهُ، وأكلتهُ حتَّى آخر جُزء منه.

2 - أقام الفرنج إمبراطُوريَّتهم اللاتينيَّة في القسطنطينيَّة في عام 1204م، واستمرَّت حتَّى عام 1261م.

3 - سبع معارك، جوزيف داهموس، ترجمة: فتحي الشاعر، 110.

قد عقَّد مسألة عُبُور الفرنجة للأراضي البيزنطيَّة بشكل كبير، وتمَّ العُبُور في مراحل كثيرة منه بـالقُوَّة، أو بتهديد القُوَّة، فنهب الفرنجةُ البلادَ، وقتلوا الناسَ، وبالمُقابل؛ تآمر البيزنطيون عليهم، وضلَّلوهم، وهاجوهم عندما كانوا يتمكَّنون من ذلك، ويصف هذه الحالَ صاحبُ أعمال الفرنجة المُرافق للحملة الأُولى من وجهة نظر الفرنجة بقوله: "وثقنا بألكسيوس[1] وأتباعه، وصدَّقناه، واعتقدنا أنَّهم إخواننا في المَسيحيَّة، وحُلفاؤنا، لكنَّهم انقضُّوا علينا بوحشية كالأسود، وهجموا على رجالنا وهُـم غـافلون، ذبحوا رفاقنا في الحدائق، وكُلّ مَن ابتعد عن المُعسكر، في حـين كـان قائـدهم حنَّـا كومينـوس يعـدُ بالسلام"[2].

لكنَّ كُلَّ ذلك لم يمنع قيام تعاون عسكري بينهما ضدَّ المُسلمين، فبعد أن وطَّد الفرنجةُ أقـدامَهُم في الشَّرق، حاولت بيزنطةُ الاستفادةَ من هذا الوضع الجديد، وتسخيره لمصلحتها، خاصَّة بعد أن بـدأت تظهر ملامح القُوَّة الإسلاميَّة عندما تمكَّن صلاح الدِّين من حُكْـم مـصر، وتوحيدها مـع الـشَّام تحـت حُكْم نُور الدِّين، فشعر الفرنج بجدِّيَّة الخطر، الذي بات يُشكِّله، فكاتبوا الرُّوم في بيزنطة، بعد أن فشلوا في تأمين الدعم اللازم من أُورُبة، ولبَّى طلبهم بسُرعة الإمبراطُور مانويل[3]، الذي عبَّأ أُسطُوله، وانـضمَّ إلى الفرنج، ومن ثَمَّ؛ هاجوا دمياط عام **565** هـ **1170**م، بقـصد احتلالهـا رأسـاً لجسر يعـبرون إليـه للسيطرة على مصر كُلِّها. كان قائد الحملة الملك أموري صـاحب مملكـة القُـدْس، وسـاهم الأُسـطُول البيزنطي المُشارك بكثافة في هذه الحملة بتأمين النقل والدعم والإسناد البحري لها[4].

ويصف وليمُ الصُّوري حصارَ الحملة لدمياط، ويذكر المُقاومةَ الـشديدةَ، وعمليـات إحـراق السُّفُن، التي ألحقت نكبـة ـ بـلا شـكٍّ ـ بالأُسـطُول البيزنطـي[5]، فلـم يـستطع الأُسـطُول مُواصـلة الحـصار، وانـسحب بعـد خمـسين يومـاً[6]. يقـول صـلاح الـدِّين في رسـالة إلى الخليفـة المُستـضيء:

---

1 - ألكسيوس: هُو ألكسيس الأوَّل إمبراطُور بيزنطة: (1081 ـ1118 م).
2 - أعمال الفرنجة، مُؤرِّخ مجهول، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 6/ 180.
3 - مناويل الأوَّل: عاش في الفترة ما بين سنوات 1143 ـ 1180م.
4 - راجعْ: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 180.
5 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3/ 380.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 179، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 73.

إن المراكب البيزنطيَّة التي هاجمت دمياط "كانت ألف مركب مُقاتل وحامل"[1]. ويقـول المقريـزي إن الأُسطُول المُحاصر لدمياط كان يُعدُّ ألفاً ومائة مركب، وإنَّـه قـد غـرق منهـا أثنـاء الحـصار نحـو الثلاثمائة مركب[2]، وهذه ـ بلا شكٍّ ـ خسارة كبيرة للبيزنطيين، أجبرتْهُم ـ فيما بعد ـ على نَبْذ سياسـة التعاون العسكري مع فرنجة الساحل الشَّامي، ولكـنْ؛ مـن جهـة أُخـرى، كـان فـشل هـذه الحملـة البيزنطيَّة الفرنجيَّة المُشتركة مُفيداً لظهور شخصية القائد صلاح الدِّين، ولتمكُّنه ـ في المُستقبل ـ مـن تحقيق مشروعه للتوحيد والتحرير[3].

العلاقات البيزنطيَّة الأيُّوبيَّة:

بعد موت نُور الدِّين محمود وتولِّي صلاح الدِّين أُمُـور الدولـة في مـصر ومُعظـم الـشَّام، كـان صلاح الدِّين يَعُدُّ إمبراطُور بيزنطة من أكبر أعدائه، ففي رسالة من إنشاء القاضي الفاضل إلى الخليفة العبَّاسي المُستضيء؛ يقول صلاح الدِّين:

"أمَّا الأعداء الذين يُحدقون بهذه البلاد، والكُفَّار الذين يُقاتلونهـا بالممالـك العظـام والعـزائم الشداد؛ فمنهم صاحب قسطنطينية، وهُو الطاغية الأكبر والجبَّـار الأكفـر، وصـاحب المملكـة التـي أكلتْ على الدهر، وشربتْ"، ثُمَّ يصف صلاح الدِّين في رسالته العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بينـه وبين إمبراطُور بيزنطة[4]، فيقول: "وجرت لنا معـه غـزوات بحريـة، ومنـاقلات ظاهريـة وسرِّيَّـة، وكانت له في البلاد مطامع، فأخذنا، ولله الحمد، بكظمه، .. ولم نخرج من مصر، إلى أن وصلتنا رُسُـلُهُ في جُمعة واحدة في نوبتَيْن، كُلّ واحدة منهما يظهر فيه خفض الجنـاح وإلقـاء الـسلاح، والانتقـال مـن مُعاداة إلى مهاداة . . حتَّى إنَّه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله"[5]. فبعد أن جرَّب إمبراطُـور بيزنطـة القُوَّة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة لتحقيق مطامعه، وتأكَّد من عدم جـدواها غـير سياسـته، واعتمـد سياسـة التفاهم والتصالح مع الدولة الأيُّوبيَّة، وأرسل رُسُلَهُ تترى إلى صلاح الدِّين، وبرهن عـن حُـسن نيَّتـه

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 85.

2 - اتِّعاظ الحُنفا، المقريزي، 3 / 315 ـ 316.

3 - راجعْ: تاريخ الفاطميين، مُحمَّد سهيل طقوش، 519.

4 - الإمبراطُور مانويل الأوَّل.

5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 87.

بإبلاغ صلاح الدِّين عن تحرُّك صاحب صقلية، وحملته التي تمَّتْ ضدَّ الإسكندرية، وفتحت ـ بذلك ـ صفحة جديدة من العلاقات الوُدِّيَّة بين بيزنطة والدولة الأيُّوبيَّة الفتية .

وبعد أن تمكَّن صلاح الدِّين من هزيمة الفرنج في حطِّين، وتحرير قسم كبير من البلاد من سيطرتهم، أصبح صلاح الدِّين قُوَّة إسلامية كُبْرَى، وكانت علاقات بيزنطة بأُورُبة الكاثوليكية وبفرنجة الساحل الشَّامي قد ازدادت سُوءاً، فرغم تدفُّق مُلُوك أُورُبة وجُيُوشهم لسَحْق صلاح الدِّين، وتكالبهم على حصار عكَّا، نجد أن الإمبراطُور البيزنطي إسحق الثَّاني[1] أرسل إلى صلاح الدِّين رسولاً عام 586 هـ ـ 1190م، يحمل رسالة شفهية ورسالة خطِّيَّة مع هدايا إلى السُّلطان، فقابله الملك العادل، فأبلغه: أن الإمبراطُور "لم يُجب ملك الألمان وصاحب صقلية وغيرهم من جُيُوش الفرنج المُوافقة على حرب السُّلطان، وإطلاق طريقهم، ونصحهم بالتأخُّر للسنة القادمة"[2]، ونقل القاضي الفاضل ما جرى في لقاء رسول ملك الرُّوم إلى السُّلطان برسالة من إنشائه، ثُمَّ عقَّب عليها برأيه، قال: "وهذا ملك الرُّوم خائف من الفرنج على بلده، مُدافع عن نفسه، إنْ تمَّ له الدفع ادَّعى أنَّه بسببنا، وإنْ لم يتمّ ادَّعى أنَّه غائب عن مقصده، وعن مقصدنا"، وقال القاضي الفاضل: إن ملك الرُّوم يطلب أن يُعيِّن البطاركة في كَنيسَة القيامة من قبله، حتَّى يستطيع أن يُقيم العذر لنفسه بمحالفة السُّلطان، وسامحه ببناء مسجد في القسطنطينيَّة تُقام فيه الصلاة والخطبة الإسلاميَّة. ثُمَّ يقترح القاضي الفاضل على السُّلطان أن تكون إجابته للرسول بعد تفكير وتثبيت، وأن لا يكون فيها ما يُوجب على الإسلام غضاضة، ثُمَّ يُعطي القاضي رأيه بملك الرُّوم، مُلخِّصاً العلاقة بين بيزنطة والدولة الأيُّوبيَّة، بقوله: "والعلَّة ما أفلح ملك الرُّوم قطُّ، ولا نفع أن يكون صديقاً، ولا ضرّ أن يكون عدوَّاً"[3].

1 - إسحق الثَّاني: عاش في الفترة ما بين السنوات 1185 ـ 1195م.

2 - أشاع الفرنج أن إسحق كان صديقاً لصلاح الدِّين، وأنَّه تآخى معه. حملة الملك ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 31/ 50، ـ وحقيقة الأمر هي صدام المصالح والنُّفُوذ والاختلاف العقائدي بين الرُّوم والفرنجة.

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 308 ـ 309.

فاغتنم صلاحُ الدِّين الفُرصة، وكما طلب الإمبراطُور أن تكون رُهبانه في كَنيسَة القيامة، وهي في بلاد السُّلطان، أرسل إليه رسولاً لإقامة الخطبة في مسجد القسطنطينيَّة[1]، فمضى الرسول، وأقام الخطبة، ولُقي باحترام عظيم وإكرام زائد، وكان السُّلطان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً من المُؤذِّنين، وكان يوم دُخُولهم إلى القسطنطينيَّة يوماً مشهوداً عظيماً من أيَّام الإسلام[2].

ويبدو أن الطلبات بدأت بالتبادل بين بيزنطة والدولة الأيُّوبيَّة، ففي عام 590 هـ 1194م، قدم رسول إمبراطُور الرُّوم يطلب صليب الصلبوت، "فأُحضر من القُدْس، وكان مُرصَّعاً بالجوهر، وسُلِّم إليه"[3]. ثُمَّ ورد في العام التالي 591 هـ 1195م، كتاب إمبراطُور الرُّوم[4]: أن كلمه الرُّوم قد اجتمعت عليه، وأنَّه يُحسن إلى المُسلمين في بلاده، وهم يُقيمُون الجمعة فيها، وأنَّه ساعدهم بماله على بناء جانب من الجامع كان قد تهدَّم. "والتمس الوصية بالبطرك والنصارى، وأن يُمكَّنوا من إخراج موتاهم بالشمع المُوقد، وإظهار شعائرهم بكنائسهم، وأن يُفرج عن أسارى الرُّوم بمصر"[5].

كُلُّ ذلك يدلُّ على أن العلاقات السِّياسيَّة بين الطرفَيْن قد وصلت إلى مرحلة مُتقدِّمة جدَّاً من الوُدِّ والتعاون، ولكنَّها لم ترتق إلى مرحلة تعاون مُعلَن ضدَّ الفرنج، الذين هُم ـ في الواقع ـ أعداء للطرفَيْن.

العلاقات بعد احتلال الفرنج للقسطنطينيَّة:

ولم يطلْ هذا التفاهم البيزنطي الأيُّوبي؛ إذ إنَّه في عام 600 هـ 1204م، استولى الفرنج على القسطنطينيَّة، وأزالوا حُكْم الرُّوم منها[6]. فقد أعلن أنوسنت بابا رُوما عام 595 هـ 1199م: "أن كُلَّ مَنْ يحمل الصليب، ويخدم جيش الرَّبِّ سنة نغفر له أيَّ خطيئة ارتكبها"، فاندفع عدد كبير من المُتطوِّعين والحُجَّاج الفرنج فيما عُرفَ بالحملة الرابعة، واختاروا البُنْدُقيَّة ميناءً لإبحارهم نحو

1 - وهُو المسجد القديم الذي بُني في عهد بني أمية.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 228 ـ 229.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 322.

4 - الإمبراطُور ألكسيس الثَّالث: عاش في الفترة ما بين سنوات 1195 ـ 1203م.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 229.

6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105، ـ ويجعله أبو شامة عام 601 هـ(ذَيْل الرَّوضَتَيْن، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 100، وكذلك في كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 158).

الشَّرق؛ لأن فيها أكبر عدد من السُّفُن[1]. وحوَّل البنادقة وجهة الحملة وُفقاً لهواهم، وانقضُّوا على القسطنطينيَّة بسبب عدم حُصُولهم فيها على امتيازات تجارية تُناسبهم، وتمكَّنوا من الاستيلاء عليها، "وانتهبوا ذخائرها، وما حوتْهُ كنائسها من آلات ورُخام، وحملوه إلى الديار المصريَّة والشامية، فبيع، ووصل منه إلى دمشق رُخام كثير"[2]. وأقام الفرنجُ مملكتَهُم في القسطنطينيَّة، واستمرَّ حُكْمهم لها حتَّى عام 660 هـ 1261م[3].

ثُمَّ تمكَّن الرُّوم من إحياء دولتهم في أطراف الإمبراطُوريَّة الشَّرقيَّة، فقد قامت دولة في طرابزون جنوب شرق البحر الأسود، ما بين أعوام 4120 ـ 1222م، كان مُؤسِّسها وأوَّل مُلُوكها ألكسيس كومننس الأوَّل. وقامت دولة في نيقية ما بين أعوام 4120 ـ1261م، أوَّل مُلُوكها ثيودوروس الأوَّل لاسكاريس، ونسبة إليه عرف العَرَبُ كُلَّ مُلُوك هذه الأُسرة باسم الأشكري[4]، وهي تقريب للفظة لاسكاريس إلى العَرَبيَّة.

وبعد أن وطَّدت دولة الرُّوم في نيقية أُمُورها أرسل ملكها[5] رسولاً في البحر عام 624 هـ إلى السُّلطان الكامل بعد انتصاره في دمياط على حملة الفرنج، وعرض صداقته ومودَّته[6]، ولا نعرف كيف كان ردُّ الكامل، لكنَّنا نتوقَّع أن يكون ردَّاً دبلوماسياً، فلم يكن السُّلطان الكامل في ذلك الوقت ليُعلِّق كبير أهمِّيَّة على التعاون مع هذه الدولة.

وفي المحصِّلة نُلاحظ بأنَّ العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة لبيزنطة مع الدولة الأيُّوبيَّة قد ارتبطت بمُجريات الحملات الفرنجيَّة، وبعلاقات بيزنطة مع الفرنجة. فقد حاولت بيزنطةُ ـ أوَّل الأمر ـ تسخيرَ الحملات لصالحها، وفي ظلِّ هذه السياسة؛ قامت بيزنطة بحملة مُشتركة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة بعهد صلاح الدِّين، ولمَّا تأكَّدت بيزنطة من استحالة تسخير قُوَّة الفرنجة، انقلبت عليهم، وحاولت أن تمدَّ يداً مُرتعشة للتحالف مع السُّلطان صلاح الدِّين، وحاولت استرضاءه، فتعدَّدت

---

1 - الاستيلاء على القسطنطينيَّة، فيلهاردين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 32.

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 100، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 158.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105.

4 - التعريف بالمُصطلح الشريف، العمري، 55.

5 - الإمبراطُور يُوحنَّا الثَّالث: عاش في الفترة ما بين السنوات 1222 ـ 1254م.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 149.

رُسُلُ بيزنطة، وهداياها، وطلبوا من السُّلطان أن يمنحهم نُفُوذاً دينياً في القُدْس، مُقابل فتح مسجد القسطنطينيَّة. وبعد أن احتلَّ الفرنجةُ القسطنطينيَّةَ، حاول الإمبراطُور البيزنطي في نيقيه الاتِّفاق مع السُّلطان الكامل ضدَّ الفرنج، لكنْ؛ لم يُترجَم هذا الاتِّفاق لأيِّ خُطوات عملية.

بعض الأباطرة البيزنطيُّون

. الكسيس الأوَّل: 473 . 512 هـ 1080 . 1118م (عاصر الحملة الفرنجيَّة الأُولى).

. يُوحنَّا الثَّاني: 512 . 538 هـ 1118 . 1143م.

. مناويل الأوَّل: 538 . 576 هـ 1143 . 1180م.

. الكسيس الثَّاني: 576 . 579 هـ 1180 . 1183م.

. اندونيكس الأوَّل: 579 . 581 هـ 1183 . 1185م.

. إسحق الثَّاني: 581 . 561 هـ 1185 . 1195م.

. الكسيس الثَّالث: 561 . 599 هـ 1195 . 1203م.

. إسحق الثَّالث: 599 . 600 هـ 1203 . 1204م.

. الكسيس الخامس: 600 هـ 1204م.

. قسطنطين الحادي عشر: 600 هـ 1204 (فتح الفرنج للقسطنطينيَّة).

الأباطرة البيزنطيُّون في نيقية

. قسطنطين الحادي عشر: 600 هـ 1204م.

. تيودوروس الأوَّل: 600 هـ 619 هـ 1204 . 1222م.

. يُوحنَّا الثَّالث: 619 . 652 هـ 1222 . 1254م.

. تيودورس الثَّاني: 652 . 656 هـ 1254 . 1258م.

. يُوحنَّا الرَّابع: 656 هـ 1258م.

. ميخائيل الثَّاني: 656 . 659 هـ 1258 . 1261م (العودة إلى القسطنطينيَّة).

القسم السَّابع

العلاقات الدّوليَّة لمملكة

وإمارات فرنج الساحل الشَّامي

الفصل الأوَّل

العلاقات السِّياسيَّة بين السَّلطنة الأيُوبيَّة والفرنج

المبحث الأوَّل:

بداية العلاقات بين المُسلمين والفرنج

الحَرْب المُقدَّسة:

مُنْذُ أن خلق الله البشر والقتلُ والقتالُ فيما بينهم لم يتوقَّف، حتَّى إن الحَرْب تُعدُّ ظاهرة اجتماعيَّة، يلجأ إليها الناس والدُّول داخلياً وخارجياً، وفي النتيجة يخضع طرف لرأي الآخر، ولحُكْمه بالقُوَّة، فالحرب هي أداة السياسة.

وفيما يتعلَّق بالحُرُوب بين المُسلمين والفرنجة، والتي اصطُلح على تسميتها بالحُرُوب الصَّليبيَّة، فقد كان الدافع المُباشر إليها هُو الحُصُول على الأرض، أكثر ممَّا هُو حماسة لحرب دينيَّة، وإنقاذ القبر المُقدَّس، كما كان يحلو للبعض أن يقول، فقُوَّة الحاكم الإقطاعي الفرنجي واستقرار حُكْمه كانا نابعَيْن ممَّا يملكه من مساحات على الأرض، وخسارة الأرض تعني للإقطاعي حرمانه من الخدمات العسكريَّة المفروضة على تلك الأرض[1]. لذلك نجد أنَّه بسبب فُقدان الفرنج ـ بعد معركة ـ حطِّين للكثير من مناطقهم التي كانوا يُسيطرون عليها، فقد انحطَّت فاعليَّتهم العسكريَّة، وحلَّت محلَّ الهجمات الواسعة للاكتساح والتوسُّع سياسة انتهاز الفُرص والهجمات المُتفرِّقة، وباتوا يعتمدون ـ بشكل شبه كُلِّيّ ـ على دعم أُورُبا لهم بالمال والسلاح، وخاصَّة بالرجال.

أمَّا بالنِّسبة للمُسلمين؛ فقد كان لهذه الحَرْب معان وأهداف ودوافع مُختلفة تماماً عمَّا كان لدى الفرنجة، فقد خاض المُسلمون هذه الحَرْب على أنَّها جهاد، والجهاد في الإسلام هُو فرض ديني مُقدَّس، فرضه الله على المُسلمين، وحثَّ عليه، قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ سُورة (الحجّ/ 78)، وقال:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ (سُورة الأنفال/ 65).

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 52 ـ 66.

والجهاد في الشرع الإسلامي فرض دائم لا يحلُّ للمُسلم تَرْكُهُ بأمان، أو بمُوادعة، إلاَّ لغرض الاستعداد[1]، فكلّ مُقاتل مُسلم هُو مُجاهد يؤدِّي فرضاً دينياً مُقدَّساً، وإذا قُتل فهُو شهيد في الجنَّة.

وفي الأحكام الشرعية نجد أنَّها تؤكِّد على ضرورة إقامة الجهاد ضدَّ الكُفَّار في كلّ زمان ومكان[2]، فكيف بهم وقد هاجموا دار الإسلام، واحتلُّوا أجزاء منها!!. ولذلك نجد أن الدولة الأيُّوبيَّة قد قامت ـ أساساً ـ على فكرة الجهاد الدِّيني ضدَّ الفرنج[3].

وقد ألهب رجالُ الدِّين الناسَ حماساً بالخطب والمواعظ ومُؤلَّفات الجهاد وفضائله، وتأليف كُتُب فضائل مُدُن الشَّام، التي كانت تتعرَّض للغزو[4]، وخاصَّة فضائل بيت المَقْدس، ممَّا شكَّل أدب جهاد مُتكامل.

وكان السُّلطان صلاح الدِّين يحرص على إذكاء رُوح الجهاد، قال القاضي الفاضل: "وأنا ممَّنْ جمع له في الجهاد كتاباً جمعتُ فيه آدابه وكلّ آية وردت فيه. . وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يطالعه"[5].

الفرنجة في الشَّام:

كان وُصُول الفرنج إلى بلاد الشَّام مُفاجئاً، لا لسرِّيَّة حملاتهم، بل لجهل العالم الإسلامي بما يجري خارج أرضه، أو على أبوابها. فقد حسب الناسُ الفرنجةَ من جند الرُّوم البيزنطيين، حتَّى تبيَّن لهم الأمر، وعرفوا أنَّهم الفرنجة[6]. ومع أن هؤلاء الغُزاة قد حملوا شارة الصليب، فالمُؤرِّخون العَرَب لم يستخدموا ـ أبداً ـ في وصفهم مُصطلح صليبي، أو صليبية، وإنما استخدموا على الدوام: فرنجة، أمَّا الأُورُبيون؛ فيُسمُّونها الحَرْب المُقدَّسة، أو الحملة، أو الحَرْب العادلة[7].

---

1 - العلاقات الدّوليَّة، وهبة الزحيلي، 93.

2 - الماوردي، تحرير الأحكام، 35.

3 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 16 ـ 18.

4 - انفردت المدرسة الشَّاميَّة بكثرة كُتُب الفضائل، فهُناك قرابة العشرين كتاباً في فضائل مُدُن الشَّام، دمشق أوَّلاً، ثُمَّ القُدْس، ثُمَّ الخليل، ثُمَّ عسقلان.(في التاريخ الشَّامي، شاكر مُصطفى، 1/ 21).

5 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 221.

6 - حكاية الصليبيات، د. شاكر مُصطفى، 145، ـ أعمال الأسبوع التاريخي الأوَّل، الجمعية التاريخية السُّوريَّة، حمص / تشرين ثاني، 1991.

7 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، 15، وراجعْ أيضاً كتاب: (Holy War, Karen Armstrong)

مُبرِّرات الحملة:

وكان فَتح طريق الحُجَّاج المسيحيين إلى القُدْس من جُملة الأهداف المعلنة لهذه الحَرْب، ولكنْ؛ حتَّى بعد ما قامت به بيزنطة، إثر حُصُولها من الحاكم بأمر الله الفاطمي على حماية الأماكن المُقدَّسة في فلسطين عام **412** هـ **1021**م؛ حيثُ كانت تُعرقل مُرُور الحُجَّاج إليها، خاصَّة بعد الانشقاق الدِّيني عام **426** هـ **1054**م[1]، لم تكن هُناك أخطار تُهدِّد الحُجَّاج إذا ساروا بمجموعات صغيرة[2].

ولكن البابويَّة ـ التي كان لها أهداف أُخرى بالتأكيد ـ استعارت فكرة الجهاد من الإسلام، بعد أن ملأتها حقداً وكراهية، وسيَّرت مجموعات كبيرة من المُتعصِّبين المُشبعين بالعاطفة الدِّينيَّة، بعد أنْ مَنَّتْهُم بالجنَّة، وثروات الشَّرق[3]، فارتكبوا ـ باسم المَسيحيَّة ـ أعمالاً وحشية، أقلّ ما يُقال فيها إنَّها تتعارض مع تعاليم المَسيحيَّة[4]. وبينما كان الفرنج يرون أنفسهم رعايا المسيح، فإنَّهم رأوا المُسلمين أبناء الضلال[5]. وهذه نظرية قديمة، فأُورُبة المَسيحيَّة كانت مشغوفة بالنظرة التوراتية للعرب، وبتأثيرها أطلقوا عليهم اسم: **Sarasins**، وهي من العبرية: سارة – قين؛ أيْ عبيد سارة، إشارة إلى أن العَرَب هُم أبناء هاجر جارية سارة[6].

رَدُّ فعل المُسلمين على الحملة:

وكان من المفروض أن مثل هذا الخطر سيُوحِّد أُمراء الشَّرق العَرَبي المُسلمين، وأنْ يُعيد للخلافة هيبتها؛ لتتصدَّى له. لكنَّ شيئاً من هذا لم يحدث، فالخلافة ـ رغم كلِّ المُتوسِّلين القادمين من الشَّام الجريح لاستنهاض الهمَم، لم تُحرِّك ساكناً[7]. فَوَقَعَ العبءُ الأكبر على سُكَّان الشَّام، الذين

---

1 - " الكلمة الإنكليزية: Crusade ، ابتُكرت في عُصُور لاحقة، عندما كتب لويس ميمور، مُؤرِّخ بلاط الملك لويس الرَّابع عشر عام 1675م، كتاباً أسماه: تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ثُمَّ تبعه المُؤرِّخ ليسنغ ". (الأسبوع التاريخي الأوَّل، الحملات الصَّليبيَّة، صالح الحمارنة، 9).

2 - A History of the Crusades , S. Runciman , p. 1\ 48

3 - الأسبوع التاريخي الأوَّل، حكاية الصليبيات، شاكر مُصطفى، 146.

4 - الأسبوع التاريخي الأوَّل، الحملات الصَّليبيَّة، صالح حمارنة، 9.

5 - A History of deed's done beyond the sea , William of Tyr , P. 1/39

6 - التنبيه والإشراف، المسعودي، 143.

7 - المُنتظم، ابن الجوزي، 17/ 43ـ74ـ120.

ظلُّوا يدفعون من دمهم وأرزاقهم ثمن ضَعْفهم، وفرْقتهم، وتخاذل حُكّامهم. حتّى جاء عماد الدِّين زنكي، ووضع مشروعه الوحدوي التحرُّري، وكانت فكرة الجهاد لتحقيق التحرير والوحدة هي رُوح مشروع عماد الدِّين زنكي، وبعد وفاته؛ تابع إنجازه ابنه نُور الدِّين محمود، ثُمَّ أتمّ جُزءاً كبيراً منه صلاح الدِّين يُوسُف بن أيُّوب.

مشروع عماد الدِّين زنكي مُقابل مشروع الفرنج:

عندما تولّى أتابك زنكي المَوصل كانت الشّام تعيش أسوأ أيّامها، فقد احتلّ الفرنج أقساماً كبيرة، شملت كُلّ الساحل، ومُعظم مناطق الشمال. فلهم من ماردين حتّى العريش، لا يتخلّلها إلاّ حلب وحماة وحمص ودمشق، وقد انزوت هذه المُدُن خلف أسوارها، في حين كان الفرنج يصولون، ويجولون حولها، يتخطّفون الناس من على أبواب حماة، ويُقاسمون حلبَ نصف دَخْلها، ويتدخّلون في شُؤُون دمشق الدّاخليّة، ويجبون منها الضرائب.

لكنّ خطر الفرنج الداهم كان يتمركز في الرُّهَا، فهذه الإمارة شكّلت رأس حربة مُتقدِّمة باتِّجاه الجزيرة، ومن ثَمَّ؛ العراق، فقد بلغت سرايا الفرنج المُنطلقة منها، آمد في ديار بكر، ونصيبين في الجزيرة، وحَرّان والرقّة في الشّرق. وقطعوا الطريق ما بين العراق والشّام إلاّ على الرحبة؛ حيثُ يواجه المسافرون فيها مفاوز أسهل ما فيها العطش، وقد تنتهي بهُجُوم مباغت من الأعراب، فيسلبون، ويقتلون، بلا رحمة[1].

وفي الطرف الآخر كان الضعف والتمزُّق يستشريان بين العَرَب سُكّان البلاد، أمّا الحُكّام من السلاجقة وأتباعهم؛ فلا هُم لهم إلاّ التسلُّط والتحكُّم، واستنزاف ما تبقّى من خيرات البلاد. وبلغ الأمر حَدّاً لا يُطاق من ذُلِّهم، وإذلالهم للبلاد، أمام الفرنج، فقد عاهدوهم، ودفعوا لهم الجزية والأتاوات صاغرين.

هذا ما شاهَد أتابك زنكي أمامه في الشّام، أمّا عنده في المَوصل؛ فالأمر أدهى، فالرُّعب المُتولّد عن وُجُود الباطنية، الذين يتخفّون بما لا يخطر على بال من الأشكال، فخناجرهم قد تلمع فجأة،

---

1 - الباهر، ابن الأثير، 33.

ليغتالوا الوزراء العظام كنظام الملك[1]، أو الوُلاة الأقوياء كوُلاة المَوصل مودود، وخَلَفه البرسقي. أَ فلا يحقُّ ـ إذنْ ـ لخليفتهما زنكي أن يُقلقه أمر الباطنية، أو يشغله ؟!.

إن ذلك ليس كلّ شيء، فماذا كان خلف أتابك زنكي؟.

كان الخليفة المسترشد يُمثّل حالة صحوة الموت بالنِّسبة للخلافة العبَّاسيَّة المُتردِّية، وعلى الرّغم من كلّ مُحاولاته اليائسة لإعادة هيبة الخلافة وبعض صلاحياتها، فإنَّه لم يستطع أن يُحقّق شيئاً يُذكَر، لتعود الخلافة ألعوبة بيد حُجَّاب القصر، وَخَدَمه، حتَّى إنَّهم قتلوا مَنْ عارضهم من الخُلفاء، واختاروا مَنْ يُريدون غيره ليكون لهم الأمر[2].

وكان يُقابل سُلطة الخلافة، التي أصبحت اسمية، سُلطة سلاطين السلاجقة الفعليَّة، والذين استهلكتهم مُؤامرات أتباعهم وأقربائهم للوُصُول إلى السَّلطنة.

إن هذا الواقع الذي فرض على زنكي أن يتعامل معه، أوجب عليه وضع مشروع لمُواجهته، ومن تحرُّكات زنكي اللاحقة نستطيع أن نستشفَّ ملامح هذا المشروع، والذي يُمكن أن نسمِّيه المشروع الجهادي، وهُو يستند إلى محورَيْن أساسيَّيْن:

ـ الأوَّل: التوحيد، وذلك بضَمِّ أكبر عدد من الإمارات المتناثرة الضعيفة، حماية لها من الفرنج، وليدعم بها دولته المركزية.

ـ والثاني: التحرير، وذلك بقلب حصار الفرنج للدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة إلى حصار لمناطق الفرنج المحتلَّة، والبدء بالهُجُوم عليها، وإضعافها، ثُمَّ استردادها؛ بالتدريج[3].

وتتجلَّى لنا مُنطلقات أتابك زنكي من كونه شخصاً تركي الأصل، شامي المولد، عراقي جزري النشأة، ولكونه مُسلماً؛ فهي أوَّلاً: الجهاد المُقدَّس ضدَّ أعداء الدِّين الفرنج. وثانياً: ردَّاً لظُلم

---

1 - نظام الملك: (408 ـ 485 هـ)، أبو علي قوام الدِّين الحَسَن بن علي بن إسحاق الطوسي، وزير حازم عالي الهمَّة، تأدَّب بآداب العَرَب، وزر للسُّلطان ألب أرسلان، ولولده السُّلطان ملك شاه، وكان بيده الأمر كُلّه، فأحسن التدبير، وكانت أيَّامه دولة أهل العلم، اغتيل قُرب نهاوند، ودُفن في أصبهان.

2 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 417.

3 - حول توجُّهات زنكي الوحدوية الجهادية راجعْ: الحُرُوب الصَّليبيَّة، د.سُهيل زَكَّار، المُقدِّمة 1/ 72.

الفرنج وعُدوانهم على أرض لم يعرف غيرها وطناً، فقد وُلد فيها، وتربَّى ضمن بيئتها، واختزن قِيَمها، وفُتن بحضارتها.

لم يهدر عماد الدِّين زنكي وقته أبداً، وكأنَّه كان يُدرك أن عليه أن يُسابق عمره الذي لن يطول كثيراً، لتحقيق مشروعه الجهادي الضخم. فقام ـ مُباشرة ـ بالاستيلاء على كلّ ما حول المَوصل[1]، ليضمن أمن قاعدته. ثُمَّ هادن جوسلين الفرنجي حاكم الرُّهَا، ليأمن شرَّه ريثما يتفرَّغ له. وانطلق إلى جزيرة ابن عُمر، فاحتلَّها، كما استولى على نصيبين من بلاد الجزيرة، وأتبعها بمنطقة الخابور، وبعدها سنجار، ثُمَّ حَرَّان[2].

وكانت حلب تتبع ولاية المَوصل مُنذُ أيَّام البرسقي، وبعد موته ولَّى ابنه مسعوداً أمرها إلى قتلغ أبه[3]، فظلم الناس، وقرَّب إليه الأشرار، فالتفَّ أهل حلب حول سُلَيْمان بن عبد الجبَّار بن أرتق، وزحفوا إلى القلعة لخلع قتلغ أبه، فقرَّر هُو وسليمان أن يحتكما إلى زنكي، الذي لم يُقِرّ أيّاً منهما على حلب، ووجَّه إليها قُوَّاته، وكان أهل حلب يميلون إليه، فتسلَّمها عام **522** هـ **1128**م[4]، وسُرعان ما جاءته التغطية الشرعية بتوقيع السُّلطان السلجوقي له ليس على حلب فقط، بل على كلّ ما هُو غرب العراق[5].

وأخذت تحرُّكات عماد الدِّين تتَّسم بالسُّرعة والقُوَّة، فقد سار نحو حماة، وكانت مع سونج ابن تاج المُلُوك بوري بن طُغْتكِيْن أتابك دمشق، فأخذها عام **524** هـ **1130**م، ثُمَّ أكمل مسيره نحو حمص، ونازلها، لكنَّه لم يستطع دُخُولها[6] لحصانتها، وفي ذروة اندفاع عماد الدِّين لتحقيق مشروعه تدخَّلت يد الغدر، واغتالته وهُو يُحاصر قلعة جعبر[7].

---

1 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 2/ 327.
2 - الباهر، ابن الأثير، 37.
3 - قتلغ أبه: اسم تركي، وقد يُقال خطلبا، وهُو من مماليك السُّلطان ملكشاه. راجعْ ترجمته في: بغية الطلب، ابن العديم، من الموسوعة الشَّاميَّة، سُهيل زَكَّار، 16 / 342 ـ 7419.
4 - الكامل، ابن الأثير، 10/ 649، وبغية الطلب، ابن العديم، 8/ 3845.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 302.
6 - الكامل، ابن الأثير، 10/ 658.
7 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 109، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 326، وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 444، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 12/ 237، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 15 / 315.

نُور الدِّين محمود يُتابع تنفيذ المشروع:

وُلد محمود في شوَّال **511** هـ **1117**م، وكان أشبه إخوته بأبيه أخلاقاً وعملاً، فقد أخذ على عاتقه إكمال مشروع زنكي الجهادي، لذلك ترك أخاه غازياً يحكم بهُدُوء في المَوصل، مُفضِّلاً حلب، التي مكّنته من أن يكون فيها أقرب إلى أعدائه الفرنج. فكان"أكثر مُلُوك زمانه جهاداً، هزم الإفرنج وأخافهم وجرّعهم المر"[1]، "وأنكى بهم حتَّى لقبوه السفاح"[2]، "وانتزع منهم نيِّفاً وخمسين مدينة وحصناً"[3]، لقد كان جُلُّ أمل نُور الدِّين أن يُحرِّر بيت المَقْدس، وعمل لذلك كلّ جهده، حتَّى إنَّه أمر بصنع منبر في حلب،"جاء في غاية الإتقان، لوضعه في المسجد الأقصى بعد تطهيره"[4].

بعد أن استقرَّ نُور الدِّين في حلب، توجَّه نحو حمص؛ ليُوحِّد أقرب أجزاء الشَّام إليه، وليفتح الطريق نحو دمشق، ولمَّا كانت حمص تتبع لأخيه سيف الدِّين غازي صاحب المَوصل، فاستغلَّ نُور الدِّين فُرصة تبدُّل زعامة المَوصل عام **544** هـ **1149**م، عندما مات أخوه غازي، وخلفه أخوهما الآخر قُطب الدِّين مودود، فاحتلَّ غازي مدينةَ سنجار القريبة من المَوصل، ثُمَّ عرض على أخيه مُبادلتها بحمص والرحبة، فتمَّ له ذلك[5].

وفي عام **549** هـ **1154**م، جد نُور الدِّين في الاستيلاء على دمشق التي كانت تحت حُكْم مُجير الدِّين آبق بن مُحمَّد بن بوري بن طُغْتكِيْن، لأن الفرنج كانوا قد ملكوا عسقلان، وهي آخر معاقل المُسلمين على ساحل فلسطين، يقول أبو شامة: "ولمَّا كانوا يحصرونها، كان نُور الدِّين يتلهَّف، ولا يقدر على إزعاجهم؛ لأن دمشق في طريقه، وليس له على غيرها مَعْبَرٌ لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط"[6].

---

1 - شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، 4/ 288.
2 - صلاح الدِّين، شاندور، 116.
3 - المُنتظم، ابن الجوزي، 18/ 209.
4 - المُختصر، أبي الفداء، 3/ 73، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 112.
5 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 141، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 12/ 242.
6 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 94.

ثُمَّ قام مُجير الدِّين بتسليم قلعة بانياس للفرنج[1]، وخاف نُور الدِّين أن يسبقه الفرنج إلى دمشق؛ فتكون ـ عندها ـ الطامَّة الكُبْرَى، فقد استعرضوا رقيق دمشق مِمَّنْ أُخذ من سائر بلاد النصرانية، وخيَّروهم بين المقام، أو العودة لأوطانهم، بينما كان أسرى المُسلمين بالآلاف المُؤلَّفة لديهم يُجْبَرُون على أشقِّ الأعمال[2].

فما كان من نُور الدِّين إلاَّ أنْ حاصر دمشق، ففتح أهلُهَا الأبوابَ، ليتخلَّصوا من ذُلِّ أميرهم مُجير الدِّين أمام الفرنج[3]. فضمَّ نُورُ الدِّين دمشقَ إلى دولته، وانفتح أمامه ـ الآن ـ عمق الفرنجة، وطريق مصر.

رُبَّما كان ضَمُّ مصر إلى دولة نُور الدِّين، وإتمام التطويق التامِّ لمناطق الفرنج، يُعَدُّ ـ في أحسن الحالات ـ حُلماً بعيد المنال، لكنَّ تقلُّب الظُّرُوف السِّياسيَّة والعسكريَّة، وصراع الوُزراء في مصر، حوَّل أغرب الأحلام إلى حقيقة، ففي عام 55 هـ 1164م، التجأ الوزير شاور[4] إلى نُور الدِّين هارباً بعد هزيمته أمام ضرغام[5] بعد صراعهما على وزارة الخليفة الفاطمي العاضد[6].

فلم يتردَّد نُور الدِّين بقبول مُساعدة شاور، وغالباً؛ لم يلتفت للإغراءات التي قدَّمها شاور، بل فكَّر في حُلم توحيد مصر مع الشَّام، ولم يرَ نُور الدِّين لتحقيق هذا الأمر "أَقْوَمَ ولا أَشْجَعَ من أسد الدِّين"[7]. سار أسد الدِّين شيركوه إلى مصر، وَقَتَلَ ضرغامَ، لكنَّ شاورَ ـ بعد أن عاد إلى الوزارة ـ غدرَ به، واستقدمَ الفرنجَ إلى مصر، فاضطرَّ أسد الدِّين لمُغادرتها[8].

ولكنَّ أسد الدِّين عاد إلى مصر مُصطحباً نخبة من جند نُور الدِّين عام 562 هـ 1167م[9].

---

1 - النُّجُوم الزَّاهرة، ابن تغري بردي، 6 / 5.
2 - الكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضي شهبة، 92.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 97، وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 503.
4 - شاور: أبو شجاع شاور بن مُجير السعدي من بني هوازن، ولي صعيد مصر، ثُمَّ استولى على الوزارة، بعد أن قتل الوزيرَ رزيكَ.
5 - ضرغام: الأمير ضرغام بن سوار، كان نائب الباب في قصر الخلافة، ثُمَّ طَرَدَ شاورَ من الوزارة، وتولاَّها.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 344.
7 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 331.
8 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 299، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 345.
9 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 348.

وعاد شاور لطلب الفرنج، الذين قدموا مصرَ، واشتبكوا مع أسد الدِّين، ثُمَّ اتَّفقوا على مُغادرة مصر جميعاً[1]. لكنَّ الفرنج أدركوا أن السبق ـ الآن ـ بينهم وبين نُور الدِّين على مصر، ومَنْ يفزْ بها، فاز على الآخر، فاندفعوا إليها، واحتلُّوا بلبيس، وارتكبوا مجزرة فيها[2]، ثُمَّ توجَّهوا نحو القاهرة، فانهالت كُتُبُ الخليفة الفاطمي مُستنجداً بنُور الدِّين، مُستغيثاً، وقد ضمَّن كُتُبَهُ شُعُورَ نسائه[3].

ولبَّى نُورُ الدِّين النداءَ، وأعاد توجيه قائد جُيُوشه أسد الدِّين في حملة ثالثة إلى مصر، ولمَّا وصلها، انسحب الفرنجُ منها[4]، وَقَتَلَ شاورَ، وتولَّى أسدُ الدِّين منصبَ الوزارة للخليفة الفاطمي[5].

لكنَّه لم يعشْ بعدها سوى بضعة أسابيع، فَخَلَفَهُ ابنُ أخيه النَّاصر صلاح الدِّين يُوسُف، الذي ألغى الخلافة الفاطمية بوفاة العاضد، وخطب لبني العبَّاس، وَحَكَمَ مصرَ نائباً لنُور الدِّين[6]، فانتظمت الوحدةُ التي عمل لها عماد الدِّين، وأتمَّها ابنُهُ نُور الدِّين، أمَّا تتمَّة المشروع بالتحرير؛ فسيُتْرَك ليُنجزه صلاح الدِّين، بعد نصر حطِّين.

لكنَّ الدولة الأيُّوبيَّة ـ التي انقسمت إلى ممالك بعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين ـ بدَّلتْ استراتيجيةَ الجهاد إلى استراتيجية المُوادعة والمُهادنة مع الأعداء الفرنجة، وشنّ الحُرُوب، وعقد التحالفات ضدَّ بعضهم، ومع بعضهم، لتوسيع رُقعة المملكة على حساب الإخوة وأبناء العمِّ.

ولم يعدْ لهم نظرٌ لاستخلاص ما اغتصبه الفرنج، بل توجَّهت أنظارهم لاستخلاص ما بأيدي الآخرين من أفراد الأُسرة الأيُّوبيَّة.

---

1 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 326.
2 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 335.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 350.
4 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 49.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 351، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 7/ 151.
6 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 342، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 350، والكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضي شهبة، 182.

وقد بدأ الملكُ العادلُ هذا التوجُّهَ، وعمل عليه، حتَّى سيطر على كامل دولة أخيه ما عدا حلب، وقد استهجنَ الناسُ والأُمراءُ هذا التّحوُّلَ، لكنْ؛ على ما يبدو، لم يكن باليد حيلة مع مَنْ يملك القُوَّةَ والمالَ، فقد كَتَبَ الملكُ العادلُ بإرسال كتاب بُشرى بعد فَتْحه مدينة خِلاط إلى أحد أُمراء الدولة، فردَّ عليه برسالة جوابية قال فيها: "وعكًّا أقرب من خِلاط، وأنفع للمُسلمين فتحاً، وأعظم في الكُفَّار قدحاً، فو الله لإن انغلقَ باب الشَّام في وجه الكُفْر، لتنقطعنَ آمال أهل البحر والبرّ، ومادام في الشَّام بقيَّةٌ من الكُفْر، فهُو يقبل الزيادة، وينتظر النجدة، ويأمل الاستعادة"[1].

وصحيح أن الملك العادل لم يعرْ هذه الرسالة أذناً صاغية، لكنَّها كانت خير تعبير عن رؤية استراتيجية شديدة الوُضُوح تجاه الوُجُود الفرنجي على أرض الشَّام، إنَّها رؤية عماد الدِّين زنكي ونُور الدِّين محمود، والتي تابعها صلاح الدِّين يُوسُف، وبنى على أساسها استراتيجيَّته العسكريَّة، فمع أنَّه بدأ سياسته بضَمِّ بُلدان الشَّام والجزيرة ليُؤسِّس دولة، لكنَّه لم ينهمك في ذلك، ولم يغضَّ الطرفَ عن الفرنج، فما إنْ أسَّس دولةً تفي بحاجاته الاقتصاديَّة، وتُؤمِّن له مَدَداً من المُقاتلين، حتَّى انقضَّ على الفرنج، فلم يترك قتالهم، حتَّى حطَّمهم في حطِّين.

ولمَّا كَرَّتْ عليه مُلُوك أُورُبا بجُيُوشهم، تصدَّى لهم، وأفشل سعيهم، ولم يسمح لهم بالاقتراب من أسوار القُدْس، واكتفوا بالحُصُول على مدينة عكًّا.

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 7/ 69.

المبحث الثَّاني:

العلاقات بين الحَرْب والسِّلْم

مع أن الحُرُوب والهجمات وردّ الهجمات كانت هي الشكل السَّائد في العلاقات بين المالك الإسلاميَّة في الشَّام ومصر وبين الفرنج، فإن أنواعاً أُخرى من العلاقات نشأت بينهما، كان من أهمّها العلاقات السِّياسيَّة، التي اتَّصف قسم منها بالسِّلْمية. فبعد هُدُوء عاصفة الاكتساح الفرنجي، ومُرُور سنوات عديدة على توضُّع الفرنج في الساحل الشَّامي وفلسطين، تحوَّل المُقيمون منهم إلى بلديين، أو بوليانز، وهؤلاء لم يأخذوا بأسباب الحضارة العَرَبيَّة الإسلاميَّة فقط، بل أخذوا كثيراً من العادات والتَّقاليد الشَّرْقيَّة، بما فيها الانقسامات والتكتُّلات[1].

وقد بدأت العلاقات السِّياسيَّة الوُدِّيَّة والتحالفات بين قوى الفرنج والقوى المحلِّيَّة في وقت مُبكِّر نسبياً؛ حيثُ انضمَّ تنكريد أمير أنطاكية إلى رضوان بن تتش ملك حلب، وشكَّلا حلفاً عسكريَّاً ضدَّ تحالف الأمير جاولي والي المَوصل والملك بغدوين ومعه ابن خالته جوسلين. وجرت بين الطرفَيْن عام **502** هـ**1109**م، معركة دامية[2]. وعندما ضغطت قُوَّاتُ عماد الدِّين زنكي على دمشق، أصبح تحالف صاحبها مُعين الدِّين أنر مع الفرنج سياسة ثابتة للحفاظ على إمارته، واستقدم أنرُ قُوَّات الفرنجة لصدِّ هُجُوم صلاح الدِّين الياغسياني[3] على دمشق[4]. وبالمُقابل؛ فقد رأى الفرنج أن دمشق هي الحليف التقليدي لهم في هذه المرحلة[5].

1- Holy War , Karen Armstrong , p. 291... ..

2 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 466.

3 - صلاح الدِّين الياغسياني: مُحمَّد بن أيُّوب. وكان والياً على حماة لعماد الدِّين زنكي.

4 - وصف العرقلة الكلبي قلقَ أمير دمشق، وآماله المُعلَّقة بنجدة الفرنج، فقال:

يظنُّ صلاح الدِّين فُرسان جُلَّق ... كفُرسانه ما الأسد مثل الثعالب

غداً تطلع الشَّام الفرنج بفيلق ... مُعوَّدة أبطاله للمصائب

رجال إذا قام الصليب تصلَّبت ... رماحهم في كلِّ ماش وراكب

(الديوان، 5).

5 - الاسبتاريَّة، سميث، 178.

المشاريع السِّياسيَّة:

بمُواجهة المشروع الفرنجي الذي التفَّتْ عليه أُورُبا دُولاً وشُعُوباً ومُلُوكاً ورجال دين، والذي يهدف ـ بشكله النهائي ـ لإقامة ممالك لاتينية في الشَّرق، والقضاء على الإسلام والمُسلمين، إنْ أمكن ذلك، وإلاَّ فَدَفْعُهُم إلى المناطق الدّاخليَّة بالعُمق المُمكن.

وردّاً على هذا المشروع الذي امتلك السُّلطان صلاح الدِّين رُؤية واضحة له، وضع مشروعه المُضادّ، الذي يهدف إلى طرد الفرنجة من بلاد الشَّام نهائيّاً، ومن ثَمَّ؛ مطاردتهم إلى بلادهم، ومُحاولة القضاء على دولهم، وإقامة دولة إسلامية، إنْ أمكن ذلك. فقد كَتَبَ صلاحُ الدِّين ـ ردّاً على رسالة أرسلها له فريدريك الأوَّل إمبراطُور ألمانية ـ يقول له فيها: " . . كما أنَّنا لن نكتفي بالأراضي القائمة على شاطئ البحر، بل سوف نعبر نحوكم بمشيئة الله، ونأخذ منكم أراضيكم بعون الله وقُدرته"[1].

أمَّا بعد وفاة صلاح الدِّين؛ فقد مُسخَت المشاريع السِّياسيَّة للمُلُوك الأيُّوبيَّة، واقتصرت توجُّهاتهم ـ بمُعظمها ـ على الطمع بمُمتلكات الآخرين، والعمل على الاستيلاء عليها. بينما كان الفرنج همّاً مُقيماً بالنِّسبة إليهم، عملوا على تجنُّب إثارته ما أمكن، وهذا ما نستطيع اعتباره العامل الرئيس في العلاقات السِّياسيَّة للأيُّوبيين مع الفرنج، والذي ترتَّب عليه استمرار الوُجُود الفرنجي لمئة سنة أُخرى في بلاد الشَّام. فإذا تمكَّن الفرنجة من احتلال أجزاء من الشَّام بقُوَّتهم، والاحتفاظ بها لمُدَّة مئة عام، فإنَّهم استمرُّوا مئة عام أُخرى بسبب الضعف والتشرذم التي أعقبت وفاة صلاح الدِّين. وقد أدرك الفرنج تمام الإدراك أن ضعف المُسلمين يكمن في تفرقتهم، فحاولوا جهدهم تكريس هذه التفرقة القائمة أصلاً[2].

ولكنْ؛ مع كلّ ذلك، لا يُمكننا إلاَّ أن نُسجِّل مواقف إيجابية للمُلُوك الأيُّوبيَّة في حلبة الصراع ضدَّ الفرنجة، فيُمكن أن نقول إن الفرنجة نادراً ما تمكَّنوا من احتلال بلدة أو مدينة، والاستقرار فيها،

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 44/ 325.
2 - الاسبتاريَّة، سميث، 95.

وحتَّى الحملات القويَّة والكبيرة للفرنج فقد هُزمت عسكريَّاً، وخاصَّة الحملات ضدَّ دمياط. ونجد أنَّه من الإجحاف بمكان أنْ لا نُسجِّل للممالك الأيُّوبيَّة هذه الوقفات[1].

وكان ممَّا يُميِّز التعامل بين الطرفَيْن الفرنجي والأيُّوبي هُو عدم الالتزام بأيِّ عهد أو اتِّفاق من قبَل الفرنجة ومُلُوكهم، إلاَّ أن يكونوا بحالة إكراه على ذلك لضعفهم عن الغدر، أو لقُوَّة المُسلمين، فعندما أطلق السُّلطانُ صلاح الدِّين ملكَ القُدْس غي شرط عليه خَلْعَ نفسه من المُلك، والمُغادرة فوراً إلى بلاده في أُورُوبة، لكنَّ غي ما إنْ تحرَّر حتَّى تنكَّر لأيمانه، وعُهُوده، وحمل السلاحَ، وَجَمَعَ الرجالَ مُطالباً باسترداد القُدْس، وقام بمُحاصرة عكَّا[2]. ولم يكن أُمراء الفرنجة أو مُلُوكهم بأفضل من عامَّتهم في انتهاك الاتِّفاقات، وخرق الهُدنات المعقودة مع المُسلمين، كُلَّما لمسوا قُوَّة من أنفسهم، فالسَّلْب والنَّهب ومُهاجمة القوافل التِّجاريَّة، التي تتحرَّك ضمن اتِّفاقيات مُسبقة، كُلُّ ذلك كان عاديَّاً بالنِّسبة للفرنجة، لذلك كان الحُكَّام الأيُّوبيُّون في حالة شديدة من الحرج أمام شُعُوبهم، مع أنَّهم قلَّما حسبوا لها حساباً، يقول أرنست باركر: "فإذا جاز للمُسلمين أن يصبروا على قيام دولة من الكُفَّار، فإنَّهم لا يطيقون قيام دولة من اللُّصُوص"[3].

علاقات سياسيَّة فردية:

في بعض الحالات الخاصَّة نجد تصرُّفات لبعض الأفراد لا تنسجم مع السياق العامِّ للطرف الذي ينتمي إليه هذا الفرد، وبالتَّأكيد؛ كان لهذه التصرُّفات دوافعها القويَّة، فبالرغم من شراسة الاسبتاريَّة في القتال، فقد أجرى معهم المُسلمون المُراسلات، وأقاموا التحالفات مُنْذُ عام **552** هـ **1157**م، ونتيجة لهذه العلاقات المُباشرة كان مُعظم الاسبتاريَّة يتكلَّمون العَرَبيَّة، ويُلمُّون بأوضاع المُسلمين بشكل جيِّد، حتَّى إنَّه ـ في بعض الأحيان ـ كانت لهم مواقف داعمة لطرف من أطراف المُسلمين، ممَّا كان يصدم باقي الفرنج[4]، وكذلك في المُقابل؛ وُجد لدى المُسلمين مَنْ عامل الفرنجَ، واتَّفق معهم، ورُبَّما كان من أشهر هذه الحالات:

---

1 - صلاح الدِّين بين العبَّاسيين والصليبيين، حسن الأمين، 196.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 24/ 327.

3 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 71.

4 - الاسبتاريَّة، سميث، 136.

تسليم جبيل:

أثناء انشغال أبناء السُّلطان صلاح الدِّين بالخلافات فيما بينهم، أهملوا الساحل الشَّامي وحامياته، فانتهز الفُرصة قائد حامية جبيل، وهُو فقيه كُردي كان صلاح الدِّين قد سلَّمها إليه، عندما حرَّر هذا الثَّغرَ من صاحبه هيو أمبرياكو، ورُبَّما كان السُّلطان مخدوعاً بتُقاه الظَّاهر وتفقُّهه بالدِّين، فعندما قام الفرنج بالاتِّصال به وأغروه بالمال، وافق على تسليمهم الثغر، فدفعوا له ستَّة آلاف دينار، ودخل ريمون أخو صاحب جبيل القديم إلى الحصن عام 590 هـ 1194م، وَشَحَنَهُ بالرجال والعتاد، ولمَّا بلغ الخبر إلى أبناء صلاح الدِّين خرج الملك العزيز من مصر، وخرج الأفضل من دمشق، مُحاولين تدارك الأمر، وإنقاذ الحصن قبل استقراره بيد الفرنج، لكنَّ جُهُودهم ذهبت سدى، وبدلاً من الهُجُوم على الحصن هاجم العزيز أخاه في دمشق لأَخْذها منه، ونسي أمر حصن جبيل[1]. علماً بأنَّ بعض المُؤرِّخين قد أشار إلى أن رجال الحامية هُم مَنْ عقد الاتِّفاق مع الفرنج[2]، ومنهم مَنْ يُؤكِّد أنَّهم قتلوا والي الحصن؛ ليتمكَّنوا من إتمام صفقتهم مع الفرنج[3]، بينما يُشير عدد آخر من المُؤرِّخين إلى الفقيه الكُردي والي الحصن على أنَّه مَنْ كان وراء عملية التسليم[4]، ويصفه ابن واصل بأنَّه كان "كُردياً مُتنمِّساً"[5].

الملك الجواد يُونُس:

في عام 635 هـ 1238م، بعد وفاة السُّلطان الكامل، ولَّى أُمراؤه ابنَ أخيه الملكَ الجوادَ يُونُس على دمشق نيابة عن العادل الثَّاني بن الكامل، الذي تسلطن في القاهرة، ولكن الجواد كان ضعيف الهمَّة، فعرض على الصَّالح أيُّوب مُبادلته بدمشق على بعض مناطق الفُرات والجزيرة، فقبل أيُّوب، وغادر الجوادُ دمشقَ، ولكنَّه لم يتمكَّن من حفْظ مُمتلكاته الشَّرْقيَّة، فعاد خاوي الوفاض إلى الشَّام[6].

---

1 - البستان الجامع، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 390، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 5، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 116، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 26، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 2/ 2/ 97، ونهاية الأَرَب، النويري، 28/ 442، والفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، 638، ولُبنان من السُّقُوط، تدمري، 2003.

2 - نهاية الأَرَب، النويري، 28/ 442.

3 - البستان الجامع ، العماد الصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 390.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 20 5.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 26.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 498.

ولم يأمن الصَّالح إسماعيلُ صاحبُ دمشق لوُجُود الجواد في بلده، فحاول القبض عليـه، لكنَّـه هرب إلى مناطق الفرنج في بيروت، فاستقبله صاحبها باليـان الإبلينـي، وأكرمـه، وشـهد معـه وقعـة قلنسوة، التي قتل فيها ألف مُسلم، وكان يُقـال إن سـبب لجوئـه للفـرنج بـسبب كـون أمّـه فرنجيـة الأصل. ولمَّا طلبه الصَّالح إسماعيل من صاحب بيروت هرب الجوادُ إلى عكَّا، ثُمَّ استدرجه الـصَّالح، فعاد إلى دمشق؛ حيثُ قبض عليه الصَّالح، وأخفى أمره[1].

الصَّالح إسماعيل وتسليم القُدْس والقلاع:

بعد سيطرة الصَّالح أيُّوب على مصر شعر عمُّه الصَّالح إسماعيل صاحب دمشق بالخطر.

خاصَّة بعد استدعاء الصَّالح أيُّوب للخَوَارزميَّة، ورُبَّما تكون دمشق إحـدى أهـدافهم، وهُـو لا طاقة له بهم[2]. وخاف ألا تكون قُوَّة حُلفائه في ممالك حمص والكرك وحلب كافية لردع أيُّوب عن دمشق، فاتَّصل بالفرنج، ووافق الدَّاويَة على التحالف معه مُقابل شُرُوط مُجحفة بحقِّه، فقد طلبوا مـن إسماعيل تسليمهم قلعتَيْ صـافيتا[3]، وشـقيف أرنـون[4]، مـع جميـع الأراضي العائـدة للقُـدْس مـن الساحل حتَّى نهر الأردن، مُقابل أن لا يعقدوا هُدنة أو صُلحاً مع صـاحب مـصر، وأن يمنعـوه مـن المُرُور إلى الشَّام[5]. وحضر الملك المنصُور إبـراهيم صـاحب حمـص احتفـال المُـصادقة النهائيـة عـلى المُعاهدة في عكَّا عام **642 هـ 1244**م؛ حيثُ أقسم عليها هُناك، كما أقسم عليها جميع بارونات جيش الفرنجة[6]. وبعد ذلك، تمَّ تسليم القلاع والأراضي المُتَّفق عليها[7].

---

1 - لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 248.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 332.

3 - صافيتا: اسم سرياني يعني: صفاء الحياة، دعاها البيزنطيون: أجيرو كاسترون، والفرنجة: القلعة البيـضاء / **Castel Blanc** تبعد 29 كم جنوب شرق طرطوس. حرَّرها الظَّاهر بيبرس عام 669 هـ-1271م. (المُعجم الجَغرافي، مادَّة: صافيتا).

4 - شقيف أرنون: الشقيف تعني الكهف، وهي قلعة حصينة جـدّاً في كهـف مـن الجبـل، قُـرب بانيـاس، بينهـا وبـين الساحل. (مُعجم البُلدان، ياقوت، مادَّة: شقيف أرنون)، وكان الفرنجة يُسمّونها: **Belfort**.

5 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 207.

6 - حملة لويس، مُصطفى زيادة، 73.

7 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 626، ـ ذكر المطران الدّبس المُعاهدة، فقال: " تحدَّث عن هذه المُعاهدة مُؤرِّخ فرنجي يبدو أنَّه كان مُطَّلعاً على تفاصيلها، وهُو إنكليزي اسمه متَّى باريس، من هيئة القدِّيس عبد الأحد".(تاريخ سُورية، الدّبس، 255).

وفي رسائل رئيس بيت فُرسان الدَّاويَة في فلسطين المُعلِّم هيرمان أوف بريفورد إلى رئيس بيت فُرسان الدَّاويَة في إنكلترا المُعلِّم روبيرت أوف ساندفورد يُبرِّر تحالف الدَّاويَة مع سُلطان دمشق، قائلاً: "لأنَّه أعاد لهم المنطقة بأكملها من نهر الأردن"[1]. ويتحدَّث في رسالة أُخرى عن سبب رفضهم التحالف مع سُلطان مصر، ويقول عنه: "لم يُعطنا سوى الكلام المُخادع الفارغ، فأدركنا مَكْرَهُ وغَدْرَهُ، لأنَّه أراد الهُدنة منَّا فقط، حتَّى يتمكَّن من إخضاع أصحاب دمشق وحمص والكرك، عندها؛ لن يتمكَّن الصَّليبيُّون الذين هُم على هذا الجانب من البحر، والذين هُم ضعفاء جدَّاً وعددهم صغير من الصُّمُود، فرفضنا هُدنته"[2]. ويبدو أن مُقدَّم الدَّاويَة قد اشتطَّ في المُبالغة؛ إذْ يُضيف: "إن سُلطان دمشق قد اقترح بشكل مُؤكَّد بأنَّه سوف يتلقَّى طقوس التعميد"[3]، وهذا شيء لا يُمكن لأحد أن يُصدِّقه، ولذلك "لم يُصدِّق كثير من المسيحيين أخبار هذه الرسالة لسُوء سُمعة الدَّاويَة"[4].

وقد لا يفوق ذلك، من تهاون الحُكَّام بأمر البلاد المُوكل إليهم حمايتها، إلاَّ تسليم الملك الكامل لمدينة بيت المَقْدس إلى الإمبراطُور فريدريك صفواً عفواً بلا أدنى قتال[5].

التجسُّس والاستطلاع:

كانت عملية استطلاع أحوال العدوِّ من أولويات السياسيين والعسكريين في عصر الحُرُوب مع الفرنجة، وكانت لهم وسائل وأساليب تتماشى مع الإمكانات المُتاحة لهذا العمل، فكان كُلُّ طرف يحرص على إرسال مجموعات لاستطلاع أحوال الطرف الآخر في حالة الحَرْب، أو قبلها.

وأكثر ما كان يخشاه المُسلمون هُو المُفاجأة خاصَّة عند انتهاء الهُدنة، ويُحدِّثنا البدرُ العيني عن ما كان يتمُّ في عصر الملك المُعظَّم بن العادل صاحب دمشق لتلافي ذلك، يقول: "كان في أيَّام الفسخ ـ أيْ فسخ الهُدنة، وانتهاؤها ـ مع الفرنج يُرتِّب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكَّا، وعلى عكَّا

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 376.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 606.
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 376.
4 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 609.
5 - راجعْ مبحث العلاقات بين الملك الكامل والإمبراطُور فريدريك في هذا الكتاب

جبل قريب منها يُقال له الرمل، وكان عليه المُنوّرون وبينهم وبين الجواسيس علامات . . . وكان يُعطي الجواسيسَ كُلَّ فسخ جُملة كثيرة"[1].

ويُفَصِّل ابن العماد الحنبلي هذه العملية أكثر بقوله: "كان بجبل عكَّا جواسيس لهم مع نساء عكَّا علامات، فإذا عزم الملك على إخراج مائه أوقدت المرأة شمعة، وإذا كانوا مائتَيْن أوقدت شمعتَيْن"[2].

ويبدو أن الملك المُعظَّم كان يعتمد ـ بشكل كبير ـ على استطلاع أحوال أعدائه، ويستفيد من جمع المعلومات عنهم، وممَّا يفيد ذلك ما رواه سعدُ الدِّين مسعود، قال: "كُنتُ والياً بالشوبك، وكان بها راهب مُنفرد ببعض الجبال، فجاءني كتاب المُعظَّم بنَفْيه، فغاب مُدَّة، وجاء في كتابه: أَعِدْهُ إلى مكانه، وتوصَّى به، فبحثتُ عن القصَّة؛ فإذ به قد بعثه يكشف أخبار الإمبرور، وإنما نفاه لئلاَّ يُتَّهم، وأطلق له أرضاً، وأعطاه مائة دينار"[3].

ولم يكن الملك المُعظَّم يكتفي بما يصله من المعلومات عن الفرنج، فقد تنكَّر في زيِّ زيَّات، ودخل عكَّا، وأقام بها أيَّاماً"[4]. وإذا كان هذا ما رُوي عن المُعظَّم، فبالتأكيد كان باقي المُلوك الأيُّوبيَّة لهم الاهتمام نفسه، مثل ذلك، أو أكثر، وبالتَّالي؛ فالفرنج ـ أيضاً ـ كان لهم عُيُونهم وجواسيسهم، ففي حملة دمياط، "قدم جواسيس الملك لويس الذين كانوا في مُعسكر المُسلمين يحملون إليه أخبار مشروع الهُجُوم"[5].

إن هذا الشكل في العلاقات كان يرافق العلاقات الحَرْبيَّة والحملات، ولم يكن القاعدة، بل الاستثناء، أمَّا القاعدة؛ فكانت على عكس ذلك تماماً، فالعلاقات الاقتصاديَّة لا يُوقفها حتَّى الحَرْب، والمُراسلات والهُدنات والمُفاوضات لا تتوقَّف، بأيِّ حال من الأحوال.

---

1 - من عقد الجُمان في تاريخ أهل الزّمان ـ ج 45، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 59/ 54.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 280.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 280.
4 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 111.
5 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 35/ 104.

المبحث الثَّالث:

الاتِّفاقيات بين الأيُّوبيِّيْن والفرنج

إن انشغال الدُّول الأُورُوبيَّة بمشاكلها الدّاخليَّة ومشاكلها السِّياسيَّة والعسكريَّة فيما بين مُلُوكها، وانشغال البابويَّة بصراعها ضدَّ الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسة، أدَّى إلى قَطْع المَدَد عن فرنجة المشرق، ودفعهم للبحث عن صيغة تعايش سلْمي مع جيرانهم المُسلمين، فعندما يتحقَّق الأمن سلمياً يتحقَّق ـ بشكل تلقائي ـ النُّمُوُّ التِّجاري والاقتصادي. وكانت إمارة أنطاكية، التي تضمُّ طرابلس، أسرع الدُّويلات الفرنجيَّة في الشَّرْق للتخلِّي عن فكرة الحَرْب المُقدَّسة، وعقدت اتِّفاقيات سلام مع المالك الأيُّوبيَّة، والتفتت لتخوض صراعاً عسكريَّاً مُدمِّراً مع أرمن كيليكيا، قبل أن يتمكَّنوا من السيطرة عليها.

أمَّا في جنوب الساحل الشَّامي؛ فكان الفرنجة يُعانون ضائقة اقتصاديَّة خانقة، فامتيازات الأُمراء، وطوائف الرُّهبان العسكريَّة، وما حصلت عليه المُدُن الإيطالية من حُقُوق، كُلُّ ذلك لم يترك لاقتصاد هذه الدُّويلات أيَّ فُرصة للنُّمُوِّ، خاصَّة بعد أن حُرمت من المناطق الدّاخليَّة. فكان طلب السِّلْم هُو المنفذ الوحيد أمام الفرنجة للاستمرار في العيش على أرض الشَّام[1].

ومن أهمِّ المُعاهدات[2] بين الأيُّوبيِّيْن والفرنج:

1. مُعاهدة الرملة:

كانت حملة مُلُوك أُورُبا لإنقاذ الأراضي المُقدَّسة بعد هزيمة حطِّين وسُقُوط القُدْس، قد وصلت إلى طريق مسدود، ولم تُحقِّق الحملة أيَّ نتيجة مُهمَّة، ما عدا استيلاؤهم على عكَّا، الذي يعدُّ نتيجة تافهة للحشد العسكري الهائل الذي قامت به أُورُبا في الشَّرْق. وبعد موت فريدريك إمبراطُور ألمانيا وتشتُّت حملته، وانسحاب فيليب ملك فرنسا، ومُغادرته لفلسطين، لم يبقَ إلاَّ ريتشارد، الذي بعد أن يأس من تحقيق أيِّ مكسب على أرض فلسطين، وبلغته من إنكلترا أخباراً مُقلقة على عرشه،

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 230.

2 - كان الاسم الغالب لاتِّفاقيات السلام أو المُعاهدات وُفقاً لرواية المُؤرِّخين المُسلمين، هُو: الصُّلح.

حاول أن يجد لنفسه انسحاباً مُشرِّفاً من الشَّرْق، فأرسل بالين دي أبلين صاحب صيدا، "وطلب منه بذل قصارى جهده لعقد هُدنة"[1].

ولم يقدم السُّلطان صلاح الدِّين على إجابة ريتشارد إلاَّ بعد أن جمع الأُمراء، وعرض عليهم الأمر، وطلب مشورتهم، وأعلمهم رأيه الخاصّ بمُتابعة الجهاد ورفض طلب الصُّلح، قائلاً: "نحنُ قُوَّة، وقد ألفنا الجهاد، ورأيي أن أخلف الهُدنة ورائي، فقالوا له: انظرْ إلى أحوال البلاد والرعايا والأجناد"[2]، وأقنعوه بقبول الصُّلح، ولكن السُّلطان أبى أن يدخل شخصياً في أُمُور الصُّلح، وفوَّض ذلك إلى أخيه الملك العادل[3]. وترتَّب الصُّلح، وعقدت الهُدنة بين الفرنج يُمثِّلهم الملك الانكليزي ريتشارد وبين المُسلمين يُمثِّلهم الملك العادل بتكليف من السُّلطان صلاح الدِّين، وتمَّ توقيع الصُّلح في 23 شعبان عام 558 هـ المُوافق 3 أيلول 1192م. "وكان يوم الصُّلح مشهوداً غشي الناس من الطائفتَيْن فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى"[4].

وكان الصُّلح هُدنة كما سبقها، وكما سيتبعها من الهُدنات.

وهُناك ـ اليوم ـ مَنْ يلوم صلاح الدِّين على قبوله الصُّلح، ويعدُّه مُفرِّطاً في حُقُوق المُسلمين، خاصَّة وإنَّه كان يملك جيشاً قوياً، لم تستطع جُيُوش أُورُبا التّصدِّي له، بدليل عدم تقدُّمها نحو القُدْس. ولكنْ؛ يبدو أنَّه قد غاب عن بالهم حالة الجُند والقادة في جيش صلاح الدِّين بعد سنوات أمضوها في قتال مُستمرٍّ لم يهدأ. وقد أشار ابن شدَّاد في كتابه النَّوادر السُّلطانيَّة إلى سبب قبول السُّلطان صلاح الدِّين الصُّلح بقوله: "وكان الحامل على ذلك ما أخذه الناس من تعب مُواظبة الغُزاة وكثرة الديون والبُعد عن الأوطان"[5]. ويبدو أن السُّلطان صلاح الدِّين كان شبه مُكرَه على قبول الصُّلح، بسبب ضغط الأُمراء الذين تحمَّلوا مشقَّات هائلة في حرب مُستمرَّة لسنوات طوال، ويُؤكِّد ذلك القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد قاضي العَسْكَر وصديق السُّلطان ومُستشاره وكاتبه، يقول ابن

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 443.
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 412.
3 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 258 .
4 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 260.
5 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 223.

شدَّاد: "والله العظيم؛ إن الصُّلح لم يكن من إيثاره"[1]، "فإنَّه قال لي في بعض مُحاوراته في الصُّلح: أخاف أن أصالح، وما أدري أيَّ شيء يكون منِّي، فيقوى هذا العدوّ، وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجون لاستعادة ما في أيدي المُسلمين"[2]. ويُعقِّب القاضي ابن شدَّاد مُستعرضاً واقع المُسلمين بعد الصُّلح، فيقول: "رأى السُّلطانُ المصلحةَ في الصُّلح لسأمة العَسْكَر، وتظاهرهم بالمُخالفة، وكانت مصلحة في علم الله تعالى، فإنَّه اتَّفقت وفاته بعيد الصُّلح، ولو كان اتَّفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر، فما كان الصُّلح إلاَّ توفيقاً وسعادة"[3]. وبالفعل؛ كان السُّلطان قد لمس الضعف والتخاذل من الجُند في وقعة يافا، "يوم أمرهم بالحملة، فلم يحملوا، فخاف أن يحتاج إليهم، فلا يجدهم، فرأى الصُّلح للاستعداد"[4].

2 ـ مُعاهدة 594هـ 1198م، بين العادل والفرنج:

أُبرِمَتْ هذه المُعاهدة عام **594** هـ **1198**م، وكانت لمُدَّة خمس سنين وثمانية أشهر[5]، ولمَّا انتهت هذه الهُدنة في عام **600** هـ **1204**م، تحرَّك الفرنجُ من عكَّا بجموعهم، "ونهبوا كثيراً من البلاد في نواحي الأردن"، فَجَمَعَ العادلُ العساكرَ، ونزل عند الطور، حتَّى انعقدت الهُدنة التَّالية معهم عام **601** هـ **1205**م، والتي كانت شُرُوطها تُشير بجلاء إلى ضعف موقف العادل، وتنامي قُوَّة الفرنجة، الذين لم يقبلوا بعقد الهُدنة، حتَّى تنازل لهم العادل عن جميع المناصفات في صيدا والرملة، وأعطاهم النَّاصرة، وغيرها[6].

ولمَّا انتهت هذه الهُدنة عام **603** هـ **1207**م، كان الملك العادل قد استعدَّ وحشد قُوَّات جيِّدة، فسار نحو عكَّا، فصالحه أهلها على أن يُطلقوا جميع أسرى المُسلمين عندهم[7]. ويبدو أن الفرنجة كانوا في حالة من الضعف أجبرتْهم على هذا الصُّلح. كما أن هذه الهُدنة لم تشمل إلاَّ مملكة

---

1 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 260.

2 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15 / 206، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 405، تُوفِّي السُّلطان بعد حوالي ستَّة أشهر من الصُّلح (27 صفر/ 589 هـ4 آذار 1193).

3 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 260، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 406، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 204.

4 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 258.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 18.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 194.

7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 106.

القُدْس، بدليل أن العادل سار من عكّا نحو أراضي إمارة طرابلس، فنازل قلعة الحصن، واستولى على حصن مُتقدِّم من حُصُونها هُو بُرج عناز، ثُمَّ انتقل إلى طرابلس، ورماها بالمجانيق، ثُمَّ عاد عنها، ولمَّا دخل عام **604هـ 1208م**، عقدت طرابلسُ هُدنةً مع العادل[1].

ولم يقتصر الأمر في عقد المُعاهدات على السلاطين، فقد عقدت كُلُّ الممالك الأيُّوبيَّة التي تجاور المناطق المُحتلَّة مُعاهدات سلام مع الفرنج، فبعد انتصار الملك المنصُور صاحب حماة، على الفرنج واسبتارية حصن الأكراد، عام **599 هـ 1203م**، طلب الاسبتاريَّة الصُّلحَ، فأرسل المنصُور يستأذن الملكَ العادلَ في توقيع الصُّلح معهم، فأرسل إليه المُوافقة، لكنْ؛ مع التشدُّد بالشُّرُوط لضعف الفرنج، وقال العادل في جوابه: "الذي يراه المجلس من الصواب يعتمده، وأمَّا الفرنج خذلهم الله؛ فإن مادَّتهم قليلة، ونجدتهم مُتأخِّرة، وقد وصلت الكُتُبُ من كُلِّ جهة تُخبر بضعفهم،. . . ويُوعز المجلس بأنْ يُقوِّي عليهم القول، ويُشدِّد عليهم الطول"[2]. وهذا يُعطينا فكرة واضحة عن العوامل المُؤثِّرة في شُرُوط المُعاهدات، وهي ميزان القُوَّة والضعف.

وعندما عقد الملكُ الكاملُ مُعاهدَتَهُ المشهورة مع الإمبراطُور فريدريك، التي تنصُّ على تسليم القُدْس عام **626 هـ 1229م**، لم تشمل المُعاهدة إمارة طرابلس، ولا فُرسان الاسبتاريَّة، الذين هاجموا مملكة حماة، فقصدوا بلدة بعرين، أو بارين، ونهبوها، وأسروا أهلها مع ستِّ قُرى ممَّا حولها[3]، وكان من جُملة مَنْ ظفروا به جماعة من التُّركمان كانوا نازلين قُرب بعرين "فلم يسلم منهم إلاَّ النادر والشارد"[4]. ممَّا اضطرَّ الملك الكامل للإغارة على قلعة الحصن معقل الاسبتاريَّة، فردُّوا بالعودة للإغارة على بعرين في العام التالي **627 هـ 1230م**[5]. "وقد صالح الملك المُظفَّر صاحب حماة الفرنج على مبلغ يُؤدِّيه لهم، حتَّى لا يُهاجموا بعرين عام **630 هـ 1233م**، وجدَّدها عام **634 هـ 1237م**"[6]، وكان هذا المبلغ يزيد أو ينقص وُفقاً لتأرجح ميزان القوى بين الفرنج وقُوَّات حماة.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 107.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 152، ووثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 245 ـ 246.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 188.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 279.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 748 ـ 488.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 252.

الاتِّصالات السِّياسيَّة بين الفرنج والأيُّوبيين:

مُنْذُ أن أسَّس صلاح الدِّين الدولة الأيُّوبيَّة في مصر والشَّام أخذ يتصرَّف كزعيم سياسي، إضافة لكونه قائداً عسكريّاً، وقد أملت عليه الظُّرُوف السِّياسيَّة البالغة الخُطُورة التي مرَّت بها دولته أن يتمرَّس بالعمل السِّياسي، وما يقتضيه من اتِّصالات بالأصدقاء وبالأعداء، وحتَّى بالأعداء والأصدقاء المُحتملين. فقد راسلَ الإمبراطُورَ الجرماني فريدريك قبل خُرُوجه في حملته الصَّليبيَّة، وعلى بُعْد بلاده تعدَّدت رسائله إليه[1]. ومع كلِّ الجُهُود التي كان يبذلها صلاح الدِّين لاسترداد القُدْس، فلم يمنعه ذلك من أن يكون دبلوماسياً إلى أبعد حَدٍّ، فعندما تُوفِّي ملك القُدْس أرسل صلاح الدِّين إلى ابنه الملك الجديد، "مُعزِّياً بأبيه، ومُهنِّئاً بجلوسه على عرش القُدْس"[2]، وكان رسوله الرئيس العميد مُختار الدِّين[3]. وعندما طلب الملك الإنكليزي ريتشارد الصُّلح عام 587 هـ 1191م، بعد استيلائه على عكَّا، وفشله في التَّحرُّك نحو القُدْس، رفض صلاح الدِّين الاجتماع به، وكلَّف أخاه الملكَ العادلَ بتولِّي المُفاوضات معه، ولطول أمد المُفاوضات كان العادل وريتشارد يأكلان، ويسمران، ويسمعان الغناء معاً، وقد تعدَّت الأحاديثُ بينهما إلى كُلِّ المواضيع[4].

ويبدو أن العلاقات الدِّبلُوماسيَّة توثَّقت أكثر بين الأيُّوبيِّين والفرنج بعد موت صلاح الدِّين، فعندما أبل الملك المُعظَّم بن العادل صاحب دمشق من مرضه عام 623 هـ 1226م، "وردت عليه الرُّسُل بالهناء من البلاد، وَسَيَّرَ كاتبَهُ إلى عكَّا يُعرِّفهم بعافيته"[5]، وهذا دليل على علاقات دبلوماسية حيمة. كذلك نجد أن الملك المُجاهد صاحب حمص عندما تُوفِّي البرنس بُوهمند الرَّابع عام 630 هـ 1233م، "سَيَّرَ الملك المُجاهد يُعزِّي ولده، ويُهنِّئه"[6]، ويبدو أن العلاقات بين صاحب حمص الملك المُجاهد وأُمراء الفرنج قد تعدَّت المجاملات الدِّبلُوماسيَّة، فقد كانوا يتبادلون الهدايا أيضاً[7].

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 44/ 325.
2 - وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 118.
3 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 7/ 115.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 73.
5 - تاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 5/ 178، ـ انظرْ: المنصُوري، ابن نظيف، 120.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 257.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

اتّفاقيات السلام المُحدَّدة:

وهي هُدنة يُتّفق على مدَّتها بين الطرفَيْن، وكانت شائعة، حتّى إنّنا نستطيع أن نقول إنّها شملت كُلَّ عهد الفرنج في الشَّرْق العَرَبي. وممّا يُشار إليه أن هذه الاتّفاقيات ـ في غالب الأحيان ـ لم تكن شاملة تضمُّ كُلَّ دُويلات الفرنجة، وكُلَّ ممالك وإمارات المُسلمين، فغالباً؛ هي هُدنات محلّيّة، مع إدراك الطرفَيْن لأهمّيّة أن تشمل الهُدنةُ كُلَّ أطراف الصراع، ولذلك فقد سعى الفرنج لعقد هُدنات مرحلية مع أقوى المُلوك الأيُّوبيّة؛ ليتفرّغوا لمَنْ هُو أضعف، وهُو ما حدا بالملك الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين صاحب حلب إلى أن يطلب من عمّه الملك العادل صراحة عام **613** هـ **1216**م، "لأن يكون صُلح الملك الظَّاهر وصُلح الملك العادل مع الفرنج واحداً، وفكسهما معهم واحداً"[1].

وكان إمضاء الهُدنة أو الاتّفاقية بعد الاتّفاق على شُرُوطها ومُدّتها لا يتمُّ إلاَّ بتوثيقها من السُّلطان، أو الملك، صاحب الأمر مُباشرة، وكانت طُرُق ذلك مُختلفة، فالمُسلمون كانوا يحلفون بأيمان مُغلَّظة على الوفاء، وهذا أقصى توكيد لإمضاء الهُدنة، بينما كان مُلُوك الفرنج تُؤخَذ يدهم (مصافحة)، ويتعهّدون بالوفاء والالتزام بالشُّرُوط، وعندما أمضى السُّلطان صلاح الدِّين المُعاهدة مع ريتشارد ملك إنكلترا عام **588** هـ **1192**م، اعتذر ريتشارد بأنَّ المُلُوك لا يحلفون، فأخذوا يده، وعاهدوه.. ووصل جماعة من المُقدَّمين الفرنج، وأخذوا يد السُّلطان على الصُّلح، واستحلفوا بقيّة الأُمراء"[2].

وعادةً تُذكَر مُدَّة الهُدنة بالتفصيل، سنوات وأيّام، وهذا من أهمّ شُرُوطها، فالهُدنة التي أقرَّها السُّلطان صلاح الدِّين مع الفرنج كانت مُدَّتها: "عشر سنين وستَّة أشهر وأربعين يوم"[3]. وفي عهد الملك العادل جرت عدَّة هُدنات مع الفرنج، ففي عام **594** هـ **1198**م، وبعد فشلهم أمام حصن تبنين، طلب الفرنج الهُدنة، فوافقهم الملك العادل، وعقدت بينهم لمُدَّة خمس سنين وثمانية أشهر[4]، وأعقب ذلك هُدنة أُخرى بين الفرنج والملك العادل عام **606** هـ**1209**م[5].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 236، ـ الفكس، أو الفسخ هُو انحلال الهُدنة، أو خرقها.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 82.

3 - أخبار الأيُّوبيّين، ابن العميد، 43.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 20/ 18.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 20/ 136.

وكانت الهُدنة لا تُعقَد في حالة ضعف أحد الفريقَيْن إلاَّ بترضية الطرف الأقوى بدفع مبالغ من المال[1]، أو بالتنازل عن أراضي ومُمتلكات، ففي عام 624 هـ 1227م، عندما اضطرَّ الملك الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين إلى صُلح الدَّاويَة، ليتفرَّغ إلى الصراعات الدّاخليَّة ضمن البيت الأيُّوبي، اضطرَّ أن يتنازل لهم عن نصف إقطاع شيزر[2].

وكان هُناك ـ على ما يبدو ـ مَنْ يختصُّ بالسِّفارة والتفاوض لدى الفرنج ممَّنْ يُتقنون العَرَبيَّة، وربَّما كان أشهرهم المدعو سيمون، وهُو من اسبتارية قلعة الحصن، فكان مُفاوض الصُّلح مع الملك المُجاهد صاحب حمص، وصحب رُسُل المُجاهد إلى الملك الأشرف بن العادل ليُطلعه على مُجريات اتِّفاقية الصُّلح الذي تمَّ بينهما عام 627 هـ1230م[3]، وعلى يدَيْ سيمون هذا أيضاً كان صُلح الدَّاويَة مع الملك العزيز صاحب حلب عام 630 هـ 1233م[4].

إن قيام الهُدنة التي تقطع حالة الحَرْب الدائمة كانت ضرورية لكلا الطرفَيْن، فالفرنج كانوا بحاجة إلى مُعاهدات السلام المُؤقَّتة هذه للتفرُّغ لإدارة اقتصادهم التِّجاري، والتمكُّن من زراعة المحاصيل وجنيها بسلام، وهذا ما يكون مُتعذّراً في حالة الحَرْب. أمَّا بالنِّسبَة للمُسلمين؛ فقد كانت الهُدنة أهمّ لهم ممَّا هي للفرنج، فتركيبة الجُيُوش الإسلاميَّة كانت بغالبيَّتها من عسكريين إقطاعيين عليهم العودة بأسرع ما يُمكن لإقطاعياتهم، والتي يُمكن أن تكون بعيدة جدَّاً عن مسارح القتال، ليتمكَّنوا من جني محاصيلهم التي يعيشون على إيرادها، فما إن تُعقَد الهُدنة حتَّى يُعطي الملك الأيُّوبي الدُّستُورَ لعساكره، فيتفرَّقون إلى إقطاعاتهم[5]. وممَّا يُذكَر أن وُجُود هُدنة كان لا يعني ـ أبداً ـ عدم وُجُود هجمات عسكريَّة هُنا، أو هُناك، كُلَّما لمس أحد الأطراف في نفسه قُوَّة، أو تجمَّع لديه عدد وافر من العساكر، أو رغب في تنفيذ غارة لتنفيذ غرض مُحدَّد، وهذا ينطبق على الطرفَيْن أيُّوبيين وفرنج.

وقد كانت الطوائف الدِّينيَّة العسكريَّة كالاسبتارية والدواية مشهورين بعدم التزامهم بالاتِّفاقيات ونقضهم المُستمرّ لكُلّ ما يعقدونه من هُدنات مع المُسلمين. وكذلك نجد أن المُسلمين

1 - الإعلام والتبين، الحريري، 72.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 152.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 203.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 261.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 136.

ـ في كثير من الأحيان ـ يُهاجمون أهدافاً فرنجية مع وُجُود هُدنة، كما فعل الملك المنصُور إبراهيم صاحب حمص عام 640 هـ 1243م، عندما أغار على مناطق طرابلس، بالرّغم من وُجُود هُدنة[1].

وهكذا؛ فإنّنا نُلاحظ أن الحالة العامّة للممالك الأيُوبيّة ولدُويلات الفرنج قد أثّرت على علاقتها السّياسيّة المُشتركة، فالسياسة الأيُوبيّة كانت مُرتبكة بشكل عامٍّ بسبب تقسيم الدولة الواحدة بعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين، وعلى ما يبدو لم تكن للمُلُوك الأيُوبيّة سياسة خارجية واضحة، وخاصّة تجاه الفرنج، فلم تظهر بوادر أيِّ مشروع سياسي كامل لطرد الفرنج لأيٍّ من المُلُوك الأيُوبيّة بعد مشروع السُّلطان صلاح الدِّين.

وبالمُقابل؛ فإن فرنج الساحل الشّامي، فيما عدا أيّام الحملات الأُورُوبيّة الكُبْرَى، قد انكمشوا على أنفسهم، وكان أقصى طموحاتهم هُو تنفيذ إغارة ناجحة ضدّ جيرانهم المُسلمين، لتُعيد لهم ذكرى أمجاد غابرة. وأحياناً؛ تنحصر هذه الطموحات في السعي لتحقيق صُلح يُتيح لهم جَمْعَ الثروات واستثمار الأراضي المُحتلّة، كما أنّهم كانوا يُدركُون تماماً أن وُجُودهم بات يرتهن ببقاء الشّام ومصر مُنفصلتَيْن، والشّام ممزّقة إلى دُويلات وإمارات وممالك، فلم يُوفِّر الفرنج جُهُودَهُم لتكريس التجزئة وتعميق الخلافات بينها، حتّى ليُظَنّ ـ أحياناً ـ أن تحالفاتهم مع بعض الدُّول الأيُوبيّة كانت ضمن هذا المُخطّط.

ولكنْ؛ لحُسن حظِّ المُسلمين لم يكن الفرنج ـ فيما بينهم ـ أحسن حالاً من جيرانهم، فقد انخرطوا في تحرُّكات سياسيّة، وتحالفات عسكريّة، كُنّا نجد في بعض الأحيان أن بعض الدُّويلات الأيُوبيّة طرف فيها، ممّا أدّى إلى خلط الأوراق في المنطقة، وكان هذا الخلط ـ بشكل ما ـ لمصلحة الفرنج، فقد أطال أمد بقائهم في الشّام حوالي المائة عام، حتّى عادت الشّام ومصر لتتوحدا من جديد في ظلِّ دولة المماليك. ومن الجدير بالذِّكر أن العلاقات بين الفرنج والممالك الأيُوبيّة لم تكن عدائية على الدوام، فقد كانت ـ في بعض الأحيان ـ علاقات سلمية، وفي بعضها الآخر؛ وُدّيّة تصل إلى درجة التحالف والقتال المُشترك.

---

1 ـ مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، ٥/ ٣١١.

الفصل الثَّاني

العلاقات العسكريَّة بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والفرنج

"اعلمْ أنَّ الحُرُوب وأنواع المُقاتلة لم تزلْ واقعةً في الخليقة مُنْذُ براها الله"

(ابن خلدون، المُقدِّمة، **201**)

المبحث الأوَّل:

معارك الساحل الشَّامي

بعد أن سقط خطُّ دفاع الشَّام الأوَّل؛ حيثُ احتلَّ الفرنجُ سلسلةَ مُدُن الساحل الشَّامي، بسبب تفوُّقهم البحري، وعدم الإمداد المُنظَّم لهذه المُدُن من داخل البلاد، صمد خطُّ الدفاع الثَّاني المُتمثِّل بسلسلة مُدُن الشَّام الدّاخليَّة، فقد قاومت حلب وحماة وحمص ودمشق حتَّى النِّهاية، وكان قدر حمص أن تكون ثغر الجهاد الأوَّل، من حيثُ تركيز هجمات الفرنج نحوها، أو انطلاق الهجمات المُعاكسة نحو مناطق سيطرتهم.

بعد موت السُّلطان صلاح الدِّين استقرَّ في سلطنة بني أيُّوب الملك العادل، الذي رافق مسيرة الجهاد الطويلة لأخيه صلاح الدِّين، وكان العادل ـ بحقٍّ ـ صانع اتِّفاقية الهُدنة مع الفرنج، التي أنهت الحملة الثَّالثة، ويبدو أنَّه كان رجل سياسة أكثر منه رجل حرب، على عكس أخيه السُّلطان صلاح الدِّين، فكان العادل لا يُحارب في موقع يُمكن أن يعقد فيه اتِّفاق سلام، ولكنْ؛ إذا اضطرَّ كان مُحارباً قديراً.

وبشكل عامٍّ؛ نستطيع القول إن الملك العادل كان رجل دولة وسياسة، وليس رجل مبادئ وجهاد مُقدَّس كأخيه صلاح الدِّين، فقد اكتفى العادل بإحكام سيطرته على ما أُتيح له من ولايات دولة أخيه؛ ليُورثها إلى أبنائه، فتوقَّف ـ بذلك ـ مشروع التحرير، الذي بدأه عماد الدِّين زنكي، وتابعه ابنه نُور الدِّين محمود، وأتمَّ أهمَّ فُصُوله السُّلطان صلاح الدِّين.

ومع كُلِّ اتِّفاقيات الهُدنة التي عقدها الملك العادل مع الفرنج، فلم تخل أيّامه من صدامات عسكريَّة معهم، وإنْ غابت عنها المعارك الطاحنة الفاصلة، التي ميَّزت عهد أخيه صلاح الدِّين.

فبعد أن أعاد الفرنجة احتلال بلدة جبيل على الساحل الشَّامي عام **590** هـ **1194**م[1]، وكانت من الفتوح الصَّلاحيَّة، بقيت بيروت وصيدا في الساحل الأوسط بيد المُسلمين، وهي تقطع شريط السيطرة الفرنجيَّة بين إمارة طرابلس ومدينة عكَّا التابعة لمملكة القُدْس.

وكانت بيروت تُشكِّل خطراً حقيقيّاً على التجارة البَحْريَّة لطرابلس وعكَّا، فقد كان أميرها عزّ الدِّين أُسامة، وهُو من الأُمراء الصَّلاحيَّة، يجتهد في تقوية أُسطُوله، "وكان يُرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج"[2]، ولمَّا لم يتمكَّنوا من الظفر به طلبوا نجدة أُورُبا، فجاءتهم جُمُوع الحُجَّاج عام **593** هـ**1197**م، وتحرَّكت الحملة نحو بيروت، فاستنجد أُسامة بالسُّلطان العادل، الذي عَسْكَرَ قُرب صُور.

كان العادل يُدرك أن الدعم البحري للفرنجة وتفوُّقهم بالأساطيل قد لا يُمكِّنه من إنقاذ بيروت، فأمر أُسامة بهَدْمها، فاعترض أُسامة، وأكَّد للسُّلطان أن بإمكانه الدفاع عنها، وتكفَّل له بذلك[3]. فقام الملك العادل بقطع الطريق على جيش الفرنج قُرب صيدا لإيقاف تقدُّمهم نحو بيروت، "جرت مُناوشة، وقُتل من الفريقَيْن جماعة، وحجز بينهم الليل، ثُمَّ سار الفرنج إلى بيروت"[4].

ويبدو أن العادل قد قام بهذه المُناوشة لاختبار قُوَّة جُيُوش الفرنج، فتبيَّن أنَّه لا طاقة له بهم، فأخلى بينهم وبين الطريق إلى بيروت، "فتركها أُسامة ومَنْ معه، فكانت غنيمة باردة"[5]، وهرب أُسامة إلى صيدا[6]، "وكثر فيه الحديث، فمن قائل: تجبَّن وتجنَّب، ومن قبل أن ينكب تنكّب، ومن

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 6.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 127، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 2/ 102.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.

6 - الإعلام والتبيين، الحريري، 44.

قائل: رجاله هابوا، فغابوا، ولو أنّه دعاهم ما أجابوا"، وبقي لأُسامة بعد أخذ الفرنج لمدينة بيروت الولاية الجبلية في شرق المدينة، "لذلك سُمِّي في كثير من المصادر: أُسامة الجبلي"، لكنَّ أُسامة تركها، وغادر المنطقة[1]، وأصبح هرب أُسامة عن بيروت، وتسليمها للفرنج من غير قتال مسبَّة له على الدهر[2].

ولَمَّا علم العادل بأَخْذ بيروت، عاد جنوباً، فخرَّب ما تبقَّى من عمارة صيدا[3]، فقد ضعف دفاعها بعد سُقُوط بيروت، وأصبح يُخشى عليها من الفرنج، وتابع العادل طريقه جنوباً بعد أن وصلته الإمدادات من ابن أخيه العزيز صاحب مصر، ووصل سنقر الكبير مع نخبة من حامية القُدْس، وميمون القصري مع نجدة من قُوَّات نابلس، فهاجم العادل ضواحي مدينة صُور، "فقطعوا أشجارها، وخربَّوا ما حولها من قُرى وأبراج"[4].

ثُمَّ تحرَّك العادل نحو يافا، وألقى عليها الحصار، وهاجمها، واحتلَّها بالسيف، "فقتل مُقاتليها وأعيان مَنْ بها من الفرنج، وامتلأت أيدي المُسلمين بالسبي والغنائم، وكان هذا ثالث فَتْح لها"[5]، وقُدِّر عدد أسرى الفرنج بعشرة آلاف أسير، عدا العدد والذخيرة والميرة والمال الذي لا يُحصَى[6]، وكان من جُملة الأسرى رسول ملك قبرص، وأحد فُرسانه المُعتمدين، الفارس وليم بر الياس، الذي أُسر مع زوجته[7]، وبعد فَتْح الملك العادل ليافا أمر بهَدْمها، ورمي حجارتها في البحر في مينائها[8].

---

1 - الروضتَيْن، أبو شامة، 233، وخُطْفَة البارق وعَطْفَة الشَّارق، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 464.

2 - عندما حاصر الفرنج حصن تبنين نظم بعضهم يقول:

سلِّمْ الحصن ما عليك ملامة ... ما يلام الذي يروم السلامة

فعطاء الحُصُون من غير حرب ... سُنَّة سَنَّها ببيروت سامة

وأطلق كثير من المُؤرِّخين ـ فيما بعد ـ اسم سامة على عزّ الدِّين أُسامة، وهُو وَهْمٌ، فسامة هُنا لضرورة الشعر، بينما اسمه الصحيح هُو أُسامة (الروضتَيْن، أبو شامة، 233 ـ وخُطْفَة البارق وعَطْفَة الشَّارق، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 464).

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 127.

4 - من عقد الجُمان، البدر العيني ، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 59 / 451.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 78.

6 - البستان الجامع، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 394.

7 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8/ 504.

8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 12 .

إن هذا التبادل في احتلال المُدُن السَّاحليَّة ليدلّ على تعادل القوى العسكريَّة لدى الطرفَيْن، وتكون الغلبة، إذا حدثت، مرحلية يُمكن للطرف الآخر الرّدّ عليها بسُرعة.

كانت الحملات الفرنجيَّة تتجدَّد مُنطلقة من عكَّا غالباً، فكُلَّما وصلت مجموعات جديدة من الحُجَّاج المُقاتلين تتحفَّز، وتتجمَّع، ومتى وجدت في نفسها قُوَّة للهُجُوم انطلقت صوب أراضي المُسلمين في الداخل، وفي عام **600** هـ **1204**م "اجتمع من الفرنج بعكَّا جَمْع عظيم، وأخذوا في الإغارة ونهب البلاد وقتل المُسلمين"[1]، فخرج العادل بعسكره من مصر، وعَسْكَرَ عند سفح جبل الطور شمال فلسطين، وهُو مشرف على عكَّا، للتَّصدِّي لقُوَّات الفرنج التي كانت مُعسكرة في مرج عكَّا. لذلك عمد الفرنج إلى القيام بغارة بحرية غير مُتوقَّعة، مُستفيدين من قُوَّة أساطيلهم البَحْريَّة وغفلة المُسلمين الذين يتوقَّعون هُجُومهم في فلسطين.

فخرج من عكَّا أُسطُول فرنجي، وتوجَّه نحو مصر، فدخل النيل من فرع رشيد، ووصل إلى مدينة فوة، وأقام الفرنج فيها خمسة أيَّام ينهبون، ويسبون، وعساكر مصر لا تتمكَّن من الوُصُول إليهم لعدم توفُّر أُسطُول حربي جاهز هُناك[2]، لقد أضعف ذلك موقف الملك العادل، واضطرَّه لقبول مُفاوضات الصُّلح مع الفرنج، الذين تعنَّتوا، ولم يوافقوا على الهُدنة، حتَّى نزل لهم العادل عن يافا ومناصفات اللّدّ والرملة، وانعقدت الهُدنة على ذلك عام **601** هـ **1205**م[3].

وفي عام **603** هـ **1207**م، تجمَّع الفرنج في طرابلس، وخرجوا منها تدعمهم اسبتارية قلعة الحصن، وهاجموا حمص، ويبدو أن الملك المُجاهد صاحبها أدرك أنَّه لا يستطيع مُقاومة كلّ تلك الحشود، فاستنجد بالمُلُوك الأيُّوبيَّة، وبالملك العادل سُلطان البيت، فوصلتْهُ نجدة الملك الظَّاهر صاحب حلب، وتحرَّك الملك العادل بقُوَّاته من مصر، فأيُّ خرق داخلي يُحقِّقه الفرنج سيقلب موازين القوى، إضافة لالتزامه بالدفاع عن الممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام، التي تتبع له اسمياً على الأقلّ.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 159.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 161، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 50، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 591 ـ 600/ 46، وتاريخ ابن سبناط، 1/ 236.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 162، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 106.

وبدأ العادل هُجُومه في الشَّام بمُناوشة عكَّا، وبالتَّأكيد؛ لم يُفكِّر بفَتْحها، بـل مُجـرَّد مُـضايقتها، "فصالحه أهلها على إطلاق مَنْ في أيديهم من أسرى المُسلمين"[1]، وشُرُوط هذا الصُّلح دليل واضح على ميزان القوى، الذي يُشير إلى عدم تفوُّق ساحق لأيٍّ من الطرفَيْن[2].

وسار العادل نحو هدفه في أواسط الشَّام حتَّى نزل عـلى بُحَـيْرة قَـدَس، فخـيَّم في سـهلها[3]، واستدعى العادل إليه مُلُوك الشَّام مع قُوَّاتهم، فتحشَّد عنده المُجاهد بقُوَّات حمص، والمنصُور بقُـوَّات حماة، والأمجد بقُوَّات بعلبك، مع نجـدة حلـب التـي أرسـلها الظَّـاهر، وعـسكر المَوصـل وسـنجار والجزيرة وآمد، إضافة إلى ولدَيْه الأشرف والمُعظَّم، فتجمَّع لدى العادل حوالي عشرة آلاف فارس[4].

ولمَّا استكمل العادل استعداداته تحرَّك غرباً صوب طرابلس، فاصطدم بقلعـة الحـصن، وهـي أكبر مركز عسكري داخلي للفرنج في بلاد الشَّام، فحاصر القلعة، وقاتل عليها أشـدَّ قتـال[5]، ولكـن العادل لم يكن جادَّاً في فتح قلعة الحصن، فهُو يُدرك ـ تماماً ـ أنَّهـا كانـت أبعـد مـن أن تُفـتَح في تلـك الحملة، وبدون استعدادات خاصَّة لفتح معقل بهذا الحجم وهذه القُوَّة، ولم يكـن فَتْحُهـا في مُخطَّطاتـه أصلاً، فهُو يُريد ـ فقط ـ الضغط على الفرنج لمَنْع هجماتهم داخل الشَّام، ولكن العادل لم يُضيِّع فُرصـة تجمُّع هذه الجُيُوش، فهاجم أحد أبراج المُراقبة التابعة لقلعة الحـصن، وهُـو بُـرج أعنـاز[6]، واحتلَّـه، وأسر منه خمسمائة مُقاتل، وسلاحاً، وأموالاً[7]، وكان بجانب البُرج طاحونة كبيرة للفـرنج، فخرَّبهـا العادل[8]، وتابع الملك العادل هُجُومه نحو طرابلس، فهاجم البلـدة، وقطـع أشـجارها، وقناتهـا[9]، وضيَّق عليها.

---

1 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 172.

2 -راجعْ شُرُوط هذا الصُّلح في: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 273، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 591ـ600 / 46.

3 -تُوجد حول بُحَيْرة قَدَس، من الجنوب والشرق والشمال، سُهُول واسعة ومروج مُمتدَّة، إضافة إلى مياه البُحَـيْرة ونهـر العاصي الذي يخترقها، ممَّا يُشكِّل مكاناً مثالياً لإقامة المُعسكرات.

4 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 172، والمنصُوري، ابن نظيف، 52.

5 -شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 215.

6 -عناز: حالياً هي قرية في جبل الحلو غربي حمص، على الطرف الشمالي الغربي من سهل البقيعـة، وهـي جنـوب شرق قلعة الحصن حوالي 5 كم (المُعجم الجَغرافي للقطر السوري، مادَّة: عناز).

7 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 172، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 215.

8 -المنصُوري، ابن نظيف، 52.

9 -شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 215.

لكنَّه فعل بها كما فعل بقلعة الحصن، فلم تكن طرابلس هدفه الحقيقي، بل كان حصن القليعات[1]، فاستسلم الحصن له صُلحاً، فخرَّبه، وغنم ما فيه[2].

ولم يُشدِّد على طرابلس، فقد لمس من قُوَّاد النجدات التي ترافقه "فشلاً ومَلَلاً"[3]، إضافة إلى مُراسلة صاحب طرابلس بُوهمند الرَّابع، وخُضُوعه، وذُلّه، وإرساله الهدايا والمال، وإطلاقه ثلاثمائة أسير مُسلم[4].

---

1 - القليعات: حصن كبير مُشرف على خليج عرقة شمال طرابلس.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 274، والمنصُوري، ابن نظيف، 52.

3 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 591 ـ 600 / 46.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 175، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 591 ـ 600 / 46.

المبحث الثَّاني:

الصراع على قلعة الطور[1]

في عام 607 هـ 1210م، قرَّر الملك العادل بناء قلعة على جبل الطور، وكانت عليه قلعة فرنجية حرَّرها السُّلطان صلاح الدِّين، ثُمَّ خرَّبها المُسلمون لَمَّا حرَّروا عكًّا[2]، فأمر العادلُ ابنَهُ الملكَ المُعظَّم، نائبه في دمشق، أن يجتهد في بنائها[3]، "ونزل الملك العادل بعساكره نحوها، وأحضر الصُّنَّاع من كُلِّ بلد، واستعمل جميع أُمراء العَسْكَر في البناء ونقل الحجارة"[4]، وجاءت قلعة الطور بنياناً عسكريًّاً فذّاً في ذلك الوقت، لمتانة بنائها وموقعها الاستراتيجي المُسيطر على تحرُّكات الفرنج في الساحل من عكًّا إلى صُور[5].

ولعدم تمكُّن الفرنج من التدخُّل لوقف بناء القلعة، أرسلوا وُفُودهم إلى أُورُبا يُعلنون النفير، ويقولون: بأنَّ العادل سيملك الساحل بهذه القلعة، "فَجَدَّ الفرنجُ في وُصُولهم من البحر، والملك المُعظَّم يجدُّ في عمارته"[6].

وفي عام 614 هـ 1217م، انتهت الهُدنة مع الفرنج، فنزل الملك العادل في مرج الصُّفر، "وأرسل إلى مُلُوك الشَّرْق ليقدموا لقتال الفرنج، وكان أَوَّل مَنْ قدم صاحب حمص أسد الدِّين"[7]، ثُمَّ تحرَّك العادل إلى بيسان ومعه ابنه المُعظَّم بعساكر دمشق[8]، وخرجت جُمُوع الفرنج من عكًّا بعد

---

1 - الطور: كلمة في العَرَبيَّة والسريانية تعني الجبل، وهي هُنا اسم لجبل مُطلٍّ على عكًّا قريب منها.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 215، والمنصُوري، ابن نظيف، 62.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 63.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 215.

5 - بعد انتهاء الملك العادل من بناء قلعة الطور مدحه كمال الدِّين بن النبيه المصري بقصيدة منها:

الملك العادل من أَمه	فقد رأى مُوسى على الطور
إنْ كان قد دُكَّ قديماً	فقد عمَّرته أحسن تعمير
كأنها أوقفته حارساً	يحرس من عكًّا إلى صُور

(مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 216).

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 63.

7 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 83.

8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197.

اكتمالها بوُصُول ملك قبرص هيو بقُوَّاته، وملك هنغاريا بجيشه[1]، وجيش مملكة القُدْس، الذي ضمَّ جميع بارونات الساحل، فشكَّلوا حوالي خمسة عشر ألف مُقاتل[2].

ويبدو أن الملك العادل فُوجِئ بضخامة جيش الفرنج[3]، فانسحب بقُوَّاته نحو عجلون، وأراد المُعظَّم الثبات للقاء الفرنج، لكنَّ والده العادل لم يلتفتْ له، بل إنَّه شتمه، واتَّهمه بسُوء إدارة الإقطاع العسكري، ممَّا جعلهم في حالة ضعف[4]، وسار ليحمي الطريق نحو دمشق، وأمر ابنه المُعظَّم أن يتحرَّك صوب القُدْس لحمايتها، فنزل بينها وبين نابلس، وتابع العادل تراجعه أمام الفرنج، فوصل إلى جنوب دمشق وطلائع الفرنج تتابعه، حتَّى وصلت الجولان، فنهبوا، وأسروا، ثُمَّ عادوا[5]. وممَّا يُلفت النظر أن حملة بهذه الضخامة تتحرَّك على غير هُدى، وتكتفي بنهب بعض البلدات والقُرى، ثُمَّ تعود أدراجها نحو عكَّا، دُون تحقيق أيِّ هدف ذي قيمة.

ويبدو أن الملك العادل كان يتوقَّع أن لا تتوقَّف الحملة إلاَّ عند أسوار دمشق، لذلك أرسل إلى واليها ليستعدَّ ويُمَوِّن المدينة بالغلال، ويُغرق بعض المناطق حولها بالماء، قائلاً له: "إن الفرنج مُظهرون قَصْدَهَا"[6]، والملك العادل مُرابط في مرج الصُّفر جنوبي دمشق لحمايتها[7]. ولكن الحملة عادت أدراجها إلى عكَّا، وعسكرت في مرجها، ومن هُناك؛ تابع الفرنج تخبُّطهم العسكري، فشنُّوا غارات غير مُجدية قام بها المُجرِّبون نحو صيدا والشقيف، وذلك بالرّغم من نصائح الفرنج المحلِّيِّيْن وتحذيراتهم، فقد اندفع المُجرِّبون بغاراتهم في المناطق الجبلية، فهلكت أعداد كبيرة منهم لوُعُورة الطُّرُق، وبالكمائن التي نُصبَتْ لهم، وتخطَّف المُسلمون مَنْ بقي منهم[8]، وسيقت أسراهم إلى دمشق[9].

---

1 - كان المُسلمون يُسمُّونه الهنكر، وقيل إن جيش الهنغار كان ـ وحده ـ يضمُّ خمسة عشر ألف مُقاتل.(شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 224).

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197، والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنيسمان، 3/ 263.

3 - لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 223.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 196.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 255 ـ 256.

8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.

9 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.

ويبدو أن الفرنج أثناء تجمُّعهم في مرج عكَّا تشاوروا، وقرَّروا اختيار هدف ثمين يليق بحملتهم وجموعهم، فاختاروا الهُجُوم على قلعة الطور، وتحرَّكوا صوبها، وقد تخلَّف عنهم الملك هيو، الذي كان يحضر زواج أُخته غير الشقيقة بأمير إنطاكية بُوهمند الرَّابع، وكان مسيرهم في يوم كثير الضباب، فلم يُحسّ بهم المُسلمون إلاَّ والفرنج عند باب الحصن.

فخرجت إليهم الحامية، واشتبكت معهم حتَّى ردُّوهم إلى أسفل الجبل، ثُمَّ عادوا إلى الهُجُوم بالسلالم، فأُحرقت بالنفط، واشتدَّ الهُجُوم، فقُتل عدَّة أُمراء للفرنج، واستشهد عدَّة أبطال للمُسلمين، "وأغلق المُسلمون الباب وضربوا مشورة، واتَّفقوا أنَّهم يُقاتلون قتال الموت ولا يسلمون أنفسهم، وكان في الطور أبطال المُسلمين وخيار عسكر الشَّام"[1]. وشدَّد الفرنج ضغطهم على القلعة "وكادوا يملكونها"[2]، واضطربت الشَّام ومصر لأهمِّيَّة الحصن واستراتيجية موقعه، ولما يحويه من الرجال والذخائر، وضاق الأمر بالملك المُعظَّم بن العادل وهُو المعني الأوَّل بهذا الحصن، فأرسل يستنجد بالخليفة العبَّاسي، وفي مُقدِّمة كتابه إليه بيتان من الشعر للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي، يقول فيهما:

قُلْ للخليفة لا زالت عساكره ... لها إلى النصر إصدار وإيراد

إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا ... لا يغفلن فحصن الطور بغداد[3]

وهذا يدلُّ على أهمِّيَّة الحصن للدولة الأيُّوبيَّة وللمُسلمين بشكل عامٍّ، وبالنتيجة؛ ولاستبسال حامية الحصن، واستماتتها في الدفاع، ووُصُول خبر موت الملك هيو في طرابلس، انسحب الفرنج من حصار قلعة الطور[4].

وممَّا يُلاحظ أن عمليات الفرنج العسكريَّة ضدَّ المُسلمين لم تكن كُلُّها محسوبة جيِّداً، ولم تكن كُلُّ قطعاتهم مُسيطراً عليها من قبَل قيادة واحدة، بل كان مُعظمها يتبع لأمير أو ملك له حُرِّيَّة التصرُّف، أو هي عبارة عن حُجَّاج مُتلهفِّين للقتال، لا يحسبون النتائج جيِّداً.

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 198.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 256.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

بعد انسحاب الفرنج من حصار الطور عادوا للتجمُّع في مرج عكَّا، وعادوا للتشاور فيما يفعلون، فقرَّروا بشكل غير مُتوقَّع ـ قصد مصر، "وقالوا: إن صلاح الدِّين استولى على الممالك، وأخذ القُدْس والساحل من الفرنج بمُلكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد مصر أوَّلاً، ونملكها، وحينئذ؛ فلا يبقى لنا مانع عن أَخْذ القُدْس، وغيره من البلاد"[1]، ويبدو أنَّهم قرَّروا ـ أخيراً ـ قراراً صائباً، فالشام مليئة بحُصُون المُسلمين، وقُوَّاتهم ورجالهم مُستعدُّون دائماً للحرب، بينما مصر مكشوفة تماماً، أو هكذا اعتقدوا. وفي عام **615** هـ **1217**م، ركبت جُمُوعُ الفرنجة البحرَ، وتوجَّهوا صوب مصر، وألقت الأساطيل مراسيها على برِّ الجيزة أمام مدينة دمياط، فتحرَّك الملك الكامل بن العادل نائب والده في مصر بجُيُوشه، وأقام قبالتهم[2].

أمَّا في الشَّام؛ فقد اغتمَّ الملك العادل لهذا الخبر، وبدأ بتجميع القُوَّات، وإرسالها إلى مصر، واستدعى ولده المُعظَّم، وقال له: "لقد بنيت هذا الطور، وسيكون سبباً لخراب الشَّام، وقد سلَّم الله مَنْ كان فيه، وأرى من المصلحة خرابه؛ ليتوفَّر مَنْ فيه على حفظ دمياط"، ولم يُوافق المُعظَّم أوَّلَ الأمر، لكنَّه رضخ لرغبة والده في النِّهاية، ونقل موجُودات الطور من العدد والذخائر إلى القُدْس وعجلون والكرك ودمشق، وخرَّبه، وأزال تحصيناته[3].

وكان آخر خبر يودُّ الملك العادل سماعه هُو ما حمله إليه من مصر رسول ابنه الكامل؛ حيثُ أعلمه بسُقُوط دمياط بيد الفرنج، فلم يحتمل قسوة النبأ، ومات خلال أيَّام، إنَّ مَنْ أمضى حياته في الجهاد، وحفظ البلاد بالحَرْب أو بالسِّلْم صُعق لخبر سُقُوط دمياط، فمات[4].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 258.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 258.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 209.

4 - يذكر الدَّواداري في حوادث عام 596 هـ خبراً عن العادل، فيقول: "كان الأفضل مع جُيُوش أخوته يُحاصر دمشق، وبها العادل عمُّه، فضاق العادل من الحصار، وعدم القُوت، وفارقه جماعة من أصحابه، فلمَّا ضاق به الأمر، استدعى الأسرى الذين كانوا عنده من الفرنج، وقال: أُسلِّم إليكم هذا البلد، وتعطوني الكَرَك بجميع ما فيها، فلم يُوافقوه على ذلك". (كَنز الدُّرر، الدَّواداري، 7/ 140)، ويبدو أن الدَّواداري قد وهم بهذا الحديث جُملة وتفصيلاً، فتسليم دمشق لأبناء أخيه لم يُقِرّ به العادل، فكيف يُسلِّمها للفرنج؟! كما أن دليل فساد الخبر بين طيَّاته، فالعادل كان يملك الكَرَك بكُلِّ ما فيها، ولا يحتاج لأحد كي يُعطيها له، كما أن أسرى الفرنج ماذا بيدهم ليُقرِّروه، وهم بصفة سجناء، لم يهتمّ بفدائهم أحد من الفرنج، حتَّى يُسمَح لهم بالمُوافقة، أو عدمها، عن أمرائهم ومُلُوكهم.

وبعد وفاة الملك العادل، وهزيمة الحملة الفرنجيّة على دمياط، يبدو أن الملك الكامل - الذي خلف أباه سُلطاناً على مصر - قد أسقط من حساباته - نهائيّاً - الجهاد ضدَّ الفرنج في الساحل الشَّامي، أو أنَّه اعتبر أن ذلك هُو مسؤولية أخيه الملك المُعظَّم صاحب دمشق والقُدْس، وقام بدل الجهاد ضدَّ الفرنج بالتحالف معهم، فقد رَاسَلَ الإمبراطُور فريدريك، وطلب منه الحُضُور إلى الشَّام بقُوَّاته ليدعمه ضدَّ أخيه الملك المُعظَّم، على أن يُسلِّمه القُدْس، وما حوله، وهُو ما حصل فعلاً[1]. أمَّا الملك المُعظَّم؛ فبعد جهاده المعروف ضدَّ الفرنج، وضربه لهم في فلسطين أثناء هُجُومهم على دمياط، اضطرَّ لتهدئة جبهته مع الفرنج، نتيجة لتفاقم خلافاته مع أخوَيْه الكامل والأشرف، ولم نعد نسمع عن أيِّ نشاط حربي مُوجَّه ضدَّ الفرنج تقوم به مملكة دمشق. ولمَّا سمع الملك المُعظَّم بنيَّة أخيه الكامل، تسليم القُدْس إلى فريدريك، سار إليها عام 624 هـ 1227م، وأكمل تخريب حُصُونها، وردم عدَّة صهاريج حولها[2]، فهل هذا كُلُّ ما كان يُمكن الملك المُعظَّم فعله لحماية القُدْس؟

---

1 - حول تسليم القُدْس راجعْ مبحث العلاقات السِّياسيَّة مع الفرنج في هذا الكتاب

2 - كان المُعظَّم قد خرَّب أسوار القُدْس عندما احتلَّ الفرنجُ دمياط، خوفاً من أن يأخذوها، ويتحصَّنوا بها. (السُّلُوك، المقريزي، 1/ 346).

المبحث الثَّالث:

العلاقات العسكريَّة بين السُّلطان الصَّالح أيُّوب والفرنج

استمرَّت العلاقات العسكريَّة مع الفرنج زمن السُّلطان الصَّالح أيُّوب كما كانت ـ من قبلُ ـ مع مَنْ سبقه من سلاطين ومُلُوك بني أيُّوب، فكُلَّما وجد الفرنج في أنفسهم قُوَّة قاموا بغارة على بلاد المُسلمين، وتُحدَّد قُوَّةُ الإغارة وفاعليَّتها بالقُوَّة التي تجمَّعت لديهم، وهي ـ غالباً ـ من الحُجَّاج الوافدين إلى ساحل الشَّام المُتحمِّسين للقتال.

ففي عام 640 هـ 1242م، بينما كان الخلاف بين الصَّالح أيُّوب ـ الذي تمكَّن من الاستيلاء على السُّلطة بمصر ـ والصَّالح إسماعيل صاحب دمشق على أشدِّه، تحرَّكت حملة من الفرنج من عكَّا إلى نابلس، فنهبوا المدينة، وقتلوا، وأسروا مَنْ قدروا عليه من أهلها، حتَّى الجامع لم يسلم منهم، فأخذوا منبر الخطيب من جامعها[1].

معركة غزَّة:

انتهت مُدَّة المُعاهدة التي عقدها الإمبراطُور فريدريك الثَّاني مع السُّلطان الكامل عام 638 هـ 1240م، وكان البابا يمنع كُلَّ مُساعدة مُمكنة لمملكة القُدْس طالما هي بيد عدوِّه الإمبراطُور فريدريك، ورغم حظر البابا، فقد أبحر إلى عكَّا ثيوبولد أمير شمباني[2]، ثُمَّ تبعه ريتشارد أمير كورنوول شقيق هنري الثَّالث ملك انكلترا، لكنَّ هذا الدعم لم يُقدِّم الكثير لواقع الفرنجة المُتردِّي في الشَّرق، فقد أُصيب الفرنج بعدوى الخلافات والانقسامات، التي كانت تُسيطر على الممالك الأيُّوبيَّة، وكانت جماعتا الاسبتاريَّة والدَّاويَة تتزعَّمان هذه الخلافات، وهما من أشدِّ المُحرِّضين عليها[3]؛ حيثُ اعتضدت كُلُّ جهة منهما بواحد من مُلُوك المُسلمين، وسعت لكسب الأنصار من الفرنج، وخاصَّة من الأُمراء القادمين الجُدُد من وراء البحار[4]، وشقُّوا ـ بذلك ـ صفَّ الفرنجة.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 415.

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 118.

3 - الدَّاويَة: جمعية فُرسان المعبد Templiers ، تأسَّست عام 513 هـ1119م، لحماية الحُجَّاج المسيحيين.

4 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35 / 206 ـ 208.

وعندما قام الصَّالح أيُّوب سُلطان مصر بتهديد الصَّالح إسماعيل صاحب دمشق اتَّصل إسماعيل بالفرنج طالباً التحالف معهم، فانضمَّت الدَّاويّة إلى حلفه بشُرُوط قاسية، تفضي بتسليمهم عدَّة قلاع إسلامية، مع جميع الأراضي العائدة للقُدْس، مُقابل أن يدعموه في حربه ضدَّ صاحب مصر[1]. وسلَّم الصَّالح إسماعيلُ حليفَهَ الملكَ المنصُورَ إبراهيمَ صاحبَ حمص قيادةَ جيش دمشق، فضمَّه إلى قُوَّاته، وتوجَّه نحو فلسطين؛ حيثُ وافته قُوَّات النَّاصر داود صاحب الكَرَك، وقُرب عكَّا؛ وافته قُوَّات الفرنج، وعلى رأسها فُرسان الدَّاويّة[2]. وكان حجم المُشاركة الفرنجيَّة في الحملة على أعلى مُستويات القادة، وبمُعظم قواهم العسكريَّة، فقد رافق الجيشَ بطريركُ القُدْس روبيرت، ورئيسُ أساقفة صُور، ورالفُ أسقف الرملة، وطوائفُ الفُرسان الرُّهبان: الدَّاويّة، الاسبتاريَّة، والتِّيُوتُون، وكانوا يُشكِّلون أكثر من ثلاثمائة فارس، وكُلّ منها بقيادة مُقدَّمها الأكبر، وكانت فرقة الفُرسان من خارج الطوائف الرُّهبانية بقيادة فيليب مونتفورت صاحب صُور وتبنين، وقُوَّات أنطاكية بقيادة يُوحنَّا ووليم سيدي البترون أبناء عمّ بُوهمند أمير أنطاكية، ومعهم يُوحنَّا سيدهام كند سطبل طرابلس، وقيل إنَّ عدد فُرسان الفرنجة بلغ ألفاً وخمسمائة فارس، وأن الجُنُود المشاة كانوا عشرة آلاف مُقاتل[3].

ومن وصف المقريزي لمسير المنصُور إبراهيم مع قُوَّات الفرنج، نستطيع أن نُلاحظ مدى استياء العالم الإسلامي، ورفضه للتحالف مع الفرنج. قال: "فسار المنصُور جريدة إلى عكَّا، وأخذ الفرنج ليُحاربوا معه عساكر مصر .. وقد رفع الفرنجُ الصُّلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس المنصُور صاحب حمص، والأقس تصلِّب، وبأيديهم أواني الخمر تسقي الفُرسان"[4]. في هذه الأثناء كان الصَّالح أيُّوب قد راسلَ الخَوَارزميَّة، فتحرَّكوا جنوباً بقُوَّاتهم التي تُقدَّر بعشرة آلاف مُقاتل، والتحقوا بقُوَّات مصر، قُرب غزَّة[5]. ونشبت المعركة يوم الاثنَيْن 12 جمادى الأُولى عام 643 هـ

---

1 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 207.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 317.

3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 746، والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3 / 394، و The Crusaders in the East, Stevenson, p 239

4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 317، ـ والجريدة: سَيْرُ الفُرسان بسلاحهم الشخصي فقط.

5 - حملة لويس، مُصطفى زيادة، 73.

1246م] في ظاهر غزَّة[2]. واللقاء في هذا الموقع يدلُّنا على أن التحالف الشَّامي الفرنجي كان في موقف الهُجُوم، ويبدو أنَّهم كانوا ينوون دُخُول مصر. وأن جيش مصر كان في موقف الدفاع عن أبواب بلاده، وما طَلَبُ المصريين للخَوَارزميَّة إلاَّ لتقديرهم مدى قُوَّة التحالف المُعادي وخُطُورته على مصر، وهذا ما سيُثبته تراجع المصريين في المعركة. وقد تولَّى قيادة جيش التحالف المصري الخوارزمي رُكن الدِّين بيبرس[3]. أمَّا جيش التحالف الشَّامي الفرنجي؛ فقد كان بقيادة الملك المنصُور إبراهيم، الذي رتَّب قُوَّاته مُسنداً ميمنته، التي تضمُّ الفرنج، إلى أسوار عسقلان[4]، وجعل قُوَّات الكَرَك وعليها الوزيري في الميسرة[5]. وكان المنصُور مع قُوَّات حمص في القلب[6]. ومن مُجريات المعركة نستنتج أن الخَوَارزميَّة كانوا في ميسرة المصريين، ويواجهون الفرنج، بينما واجه جيشُ مصر قُوَّات المنصُور وقُوَّات الكَرَك.

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 174،. وتاريخ المعركة هُو: 17 تشرين أوَّل 1244م (تاريخ سُورية، الدبس، 255).

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 317، و شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 323. بينما ذُكر أنَّه "ما بين غزَّة وعسقلان" في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 174، وحوادث الزَّمان، ابن الجزري، 190. وأنَّه: "عند بلدة جاذر" في: تاريخ سُورية، الدبس، 255، ـ وأنَّه "عند لافوربي ـ قرية حيربيا الحالية ـ" في: حملة لويس التَّاسع، مُصطفى زيادة، 75. وكُلُّها مواقع في المنطقة نفسها.

3 - رُكن الدِّين بيبرس: البندقداري الصالحي، أحد مماليك السُّلطان الصَّالح أيُّوب الأخصَّاء، كان معه في حبس الكَرَك، ولمَّا تسلطن أيُّوبُ قدَّمه على الجيش في معركة غزَّة، ولمَّا سمع باتِّفاقه مع الخَوَارزميَّة ضدَّه، استدرجه إلى القاهرة، ثُمَّ قبض عليه، ولم يُعرَف له خبر بعدها. وبيبرس هذا هُو غير بيبرس البندقداري، الذي أصبح سُلطان مصر فيما بعد، وبيبرس السُّلطان أصغر من بيبرس الأوَّل، وقد التحق بخدمة الصَّالح أيُّوب في مصر، فهُو من المماليك البَحْريَّة. (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 322، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 184)، وقد وهم بعض المُؤرِّخين، فاعتقدوا أن بيبرس الأوَّل والثاني شخصاً واحداً، ومنهم ابن خلدون، يقول: " لمَّا بُويع المُعظَّم تُورانشاه، وكانت له بطانة من المماليك، جاء بهم من كيفا، فتسلَّطوا على موالي أبيه، وكان للصَّالح جماعة من الموالي وهم البَحْريَّة. وكان كبيرهم بيبرس، وهُو الذي كان الصَّالح بعثه بالعسكر لقتال الخَوَارزميَّة . . . " (العبر، ابن خلدون، 5/ 429)، كذلك وهم أرنست باركر عندما تحدَّث عن معركة غزَّة، قال: "بيبرس قائد القُوَّات المصريَّة والسُّلطان المملوكي الذي تولَّى ـ فيما بعد ـ حُكمَ مصر". (الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 119)، ثُمَّ يعود ليقول: "فبيبرس هُو أعظم هؤلاء المماليك، والذي تولَّى القيادة في معركة غزَّة/ 1244، وكان من قادة المماليك أثناء القتال ضدَّ القدِّيس لويس/ 1250، ثُمَّ أصبح ـ فيما بعد ـ سُلطاناً/ 1260، (الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 123).

4 - حملة لويس التَّاسع، مُصطفى زيادة، 75.

5 - حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 190.

6 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 133.

كانت خُطَّة قائد التحالف الشَّامي الملك المنصُور إبراهيم تقضي بتحصين مُعسكر التحالف[1]، والدفاع عنه ضدَّ هُجُوم مُؤكَّد سيقوم به الخَوَارزميَّة، وكان المنصُور يعتمد في هذا التوقُّع على خبرته الطويلة في قتال الخَوَارزميَّة، فهم غير مُؤهَّلين لُمهاجمة التحصينات، كما أنَّهم لا يطيقون الانتظار في مكان واحد، أو المثابرة على حرب طويلة الأمد، وقد أيَّد القادةُ المنصُورَ إبراهيمَ في خُطَّته ماعدا كُونت يافا وولتر بريين، فقد ألحَّ بطلب الهُجُوم لشُعُوره بالتفوُّق العددي، ثُمَّ بادر بالتحرُّك بقُوَّاته، فتبعتهُ بقيَّة الجيش[2].

وبدأت معركة من أغرب المعارك، ليس لما فيها من تناقض المُتحالفين وتقارب المُتصارعين فحسب، بل لما في مُجرياتها أيضاً، فقد ثبت الفرنج والخَوَارزميَّة لبعضهما بعضاً ثباتاً عجيباً، ودار صراع دموي قلَّما شهدت له الجُيُوش المُتحاربة في عصر المماليك الأيُّوبيَّة مثيلاً. أمَّا على الجانب الآخر؛ فقد"هرب جيش مصر"[3]، وتراجع أفراده فارِّين نحو بلادهم، حتَّى وصلوا إلى العريش[4]. وبدلاً من أن تبدأ قُوَّات الشَّام بمُطاردة المهزومين، أو الالتفاف على الخَوَارزميَّة لمُساعدة حُلفائهم الفرنج، حدث ما ليس بالحُسبان؛ حيثُ فرَّت ـ أيضاً ـ قُوَّات التحالف الشَّامي، وتركت أرض المعركة مُتراجعة صوب الشمال، يقول بطريرك القُدْس: "وهرب المُسلمون الذين معنا جميعاً، وترك الصَّليبيُّون وحدهم"[5]، فانكشفت القُوَّات الفرنجيَّة، ممَّا أتاح للخَوَارزميَّة تطويقها[6]. ولتتحوَّل المعركة إلى مجزرة للفرنج؛ حيثُ"قُتِل منهم كثيرون، حتَّى لم يبقَ من الهيكليين إلاَّ ثلاثة وثلاثون فارساً، ومن الإسبتالية خمسة، ومن فُرسان القدِّيس يُوحنَّا ثلاثة"[7].

---

1 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 394.
2 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 394.
3 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 2/ 133.
4 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 190.
5 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47/ 658.
6 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 190.
7 - تاريخ سُورية، الدبس، 255، ـ يُؤكِّد بطريرك القُدْس أن الناجين من الدَّاوية هُم ثلاث وثلاثون، ولكنَّه يقول إن الناجين من الاسبتاريَّة كانوا ستَّة وعشرين، وثلاثة أشخاص من التيُوتُون (التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47/ 660).

"وغُنِم منهم أموال عظيمة، وأُسِر من الفرنج خلق من مُلُوكهم وكبرائهم، وقُتل منهم مقتلة عظيمة"[1].

"وأخذت الفرنجَ سُيُوفُ المُسلمين، فأفنوهم قَتْلاً وأَسْرَاً، ولم يفلتْ منهم إلاّ الشارد والنادر"[2]، فقد قُتل مُقدَّم الدَّاويّة، ورئيس أساقفة صُور، وأسقف الرملة، وسيدا البترون، وكان عدد القتلى الفرنج حوالي خمسة آلاف رجل، وأُسر كُونت يافا ومُقدَّم الاسبتار وكند سطبل طرابلس، وهرب فيليب مونتفورت ومعه بطريرك القُدْس[3] الذي يقول: "وجئتُ وأنا نصف ميِّت إلى عسقلان"[4]، "وكان عدَّة من أُسر منهم ثمان مئة رجل"[5].

إن مُجريات هذه المعركة تجعلنا نميل للاعتقاد بأنّه لم يجر قتال بين المصريين والشاميين، وبأن كلاً منهم قد انهزم من صاحبه بعد مُناوشات بسيطة. وآثر كُلٌّ منهم السلامة، تاركين حسم المعركة بين الخَوَارزميَّة والفرنج. فعلى الرّغم من هزيمة المصريين والشاميين لم نسمع عن خسائر بشرية في صُفُوفهما[6]، ممَّا يدلُّ على انسحاب الطرفَيْن في الوقت نفسه، ودُون أن يعرف أيٌّ منهما بانسحاب الآخر. ويبدو أن المنصُور إبراهيم، وهُو القائد المُجرِّب والعسكري المُحنَّك، وهازم الخَوَارزميَّة عدَّة مرَّات، قد اتَّخذ قرار الهزيمة سلفاً، أو أنَّه كان يراها واقعة لا محالة، فلم يَصدُق القتالَ، وآثر الانسحاب، بالرّغم من تراجع المصريين، ويبدو أن دافعه كان هاجساً نفسياً سيطر عليه، بعد أن سار بين أعداء الأُمَّة وتحت راياتهم "فقد حُكي عن المنصُور أنّه قال: والله؛ لقد حضرتُ الحَرْب ذلك اليوم وأوقع الله تعالى في قلبي إنَّا لا ننتصر لانتصارنا بالكُفَّار على المُسلمين"[7].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 174.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338.
3 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 394.
و The Crusaders in the East, Stevenson, p 239
4 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 662.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 317.
6 - كُلُّ ما عرفناه عن خسائر الحلف الشَّامي أنّه "أُسر من عسكر دمشق والكرك جماعة مُقدَّمين وغيرهم، ونُهبت أثقال الدمشقيين". (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338)، أمَّا ما ذكره المقريزي بأنّه قد "قُتل من الفرنج ومن أهل الشَّام زيادة عن ثلاثين ألف"، (السُّلُوك، المقريزي، 2/ 317)، فهذا رَقْم فيه مُبالغة واضحة، تُبيح لنا إهماله بالكامل.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338.

وإنَّه بعد المعركة "جعل يبكي ويقول: قد علمتُ أنَّـا لَمَّـا سرنـا تحت صُـلبان الفـرنج أنَّـا لا نُفلح"[1]. وبذلك يكون المنصُور إبراهيم هُو المسؤول عن نكبة الفرنج في معركة غزَّة[2].

وكانت نتائج معركة غزَّة بالغة الأهمِّيَّة لكُلِّ الأطراف، فإضـافة إلى الخسائر البـشرية الكبيرة التي تكبَّدها الفرنج، فإن قُوَّات التحالف المصري الخوارزمي استولت منهم عـلى "غـزَّة والـسواحل والقُدْس"[3]، واندفعت لتُحاصر دمشق، وقد تحصَّن بها صاحبها الصَّالح إسماعيل وحليفه المنصُور إبراهيم[4]، حتَّى خرجوا منها، وسلَّموها. ورُبَّما كان التّحوُّل بـسياسة دمـشق بعـد تبعيّتهـا لـسلطنة النَّاصر أيُّوب أقسى على الفرنج من الخسائر العسكريَّة في غزَّة، يقول متَّى باريس عن هذا التحـوُّل في سياسة دمشق: "كانت مُتحالفة مع الصليبيين، ولم تكن تُؤذي أحداً منهم، وكانت نافعـة جـدَّاً لهـم، ومُوائمة من خلال التجارات والعلاقات، ولكنْ؛ ـ الآن ـ تحوَّلت إلى المدينة الأكثر عُدوانية"[5].

كُلُّ ذلك دفع بالفرنج للاستنجاد بأُورُبة، فأوفدوا أسقف بيروت فاليران، الذي حضر مـؤتمر ليون الكَنَسي عام 642 هـ 1245م، برئاسة البابا أنوسنت الرَّابع، وسرد فيـه فـاليران وقـائع معركـة غزَّة، "وكيف ذهبت أعداد هائلة من صفوة أبطال الفرنجة وزهرة فُرسانهم"[6].

وكذلك كانت هزيمة عكَّا إحدى أسباب حملة لويس التَّاسع على مصر[7]. وممَّا يلفـت النظـر أنَّه لا الفرنج ولا المُسلمون استفادوا من دروس معركة عكَّا[8]، كما أن المُنتصرين فيها لم يعملـوا عـلى

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 493 ـ 494.

2 - ويبدو أن هذه الفكرة هي التي دفعت عاشور ليذكر أن" القُوَّات الشَّاميَّة لم تقبل فكرة طعن إخوانهم المصريين، فلم تكد تصل هذه القُوَّات إلى غـزَّة حتَّى انـضمَّت إلى جانـب الجـيش المـصري ليـشترك الجميـع في مُهاجمـة الـصليبيين" (مصر والشَّام، عاشور، 110)، وهذا وَهْم.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338.

5 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 816.

6 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم، 45.

7 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم، 47.

8 - لقد عادت نغمة التحالفات بسُرعة بين الفرنج وأطراف إسلامية، ففي عام 651 هـ 1253م، وخلال هُجُوم النَّاصر يُوسُف سُلطان الشَّام على المماليك، الذين استولوا على السُّلطة في مصر، " مالأ الجيش المصريُّ الفرنجَ، ووعـدهم بـأنْ يُسلِّموا إليهم بيت المَقْدس إنْ نصروهم على الشاميين". (البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 196).

استثمار نصرهم ضدَّ مواقع الفرنج الأساسية على الساحل، خاصَّة في غفلة أُورُبة عنهم، وانتظر الصَّالح أيُّوب حتَّى داهمته جُيُوش لويس التَّاسع في دمياط.

وقد حمَّل فريدريك الثَّاني ـ بشيء من الشماتة ـ بطريركَ القُدْس المسؤوليةَ الكاملة عن هذه الهزيمة، وقال في رسالته إلى ريتشارد إيرل أف كورنوول: "بطريرك القُدْس يأمل أن يحصل على مجد النصر كُلِّه، بحث عن كُلِّ أمير وشريك غير جدير، وألهبهم بشجاعة وصلت حَدَّ الطيش، . . فلم ينجُ أحد من جميع الصليبيين"[1].

ويُتابع فريدريك هُجُومه على بطريرك القُدْس، فيقول: "إضافة لإثارته هياج الفخار الدِّيني للدَّاويَة، فأرغموا ـ بحرب غير عادلة وغير حكيمة ـ سُلطانَ مصر على طلب مُساعدة الخَوَارزميَّة"[2]، إنَّه دفاع واضح عن سُلطان مصر، وحقّه بالدفاع عن النفس، ويقول فريدريك: إن عدم الالتزام بمُعاهدة الصُّلح التي عقدها مع سُلطان مصر هُو سبب الكارثة[3].

ويُعطي أرنست باركر بُعْداً إقليمياً وتاريخياً كبيراً لمعركة غزَّة، فيقول: "إن معركة غزَّة لم تكن إلاَّ فصلاً من فُصُول القصَّة الطويلة لما وقع من صراع بين مصر وشمال سُورية"[4].

لكنَّ باركر الذي ذكَّرتْهُ معركة غزَّة بالصراعات الحثِّيَّة الفرعونية، من خلال تحالف القوى العسكريَّة في سُورية باختلاف أجناسها ضدَّ مصر، تجاهل نتائج المعركة؛ حيثُ تخلَّى المُسلمون عن الفرنج، ورُبَّما لم يعرف بما أبداه المنصُور إبراهيم من ندم على تحالفه مع الفرنج ضدَّ بني قومه، ورُبَّما تجاهل النتائج للوُجُود الفرنجي الغريب في أرض سُورية، وكيف تمَّ التخلُّص منه نهائيَّاً بجُهُود دولة المماليك التي تضمُّ مصر وسُورية.

إن كلَّ صيحات الاستغاثة التي أطلقها فرنج الشَّرق لم تُحقِّق لهم أيَّ مُساعدة مرجوَّة، فالبابا كان مشغولاً بصراعاته الأُورُبيَّة، وحملاته الصَّليبيَّة كانت تُوجَّه ضدَّ أعدائه الأُورُبيين، ويبدو أن الحماسة الدِّينيَّة في أُورُبا ـ بشكل عامٍّ ـ قد فترت، وأن صيحات كثيرة كانت ترتفع ضدَّ الحُرُوب

---

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 619.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 619.
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 619.
4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 124.

الصَّليبيَّة، وتتَّهم البابويَّة بأنَّها تستغلّها. ولكن المُسلمين لم يكونوا أفضل حالاً، فالصالح أيُّوب لم يستغلّ الوضع المأساوي للفرنج بعد هزيمة غزَّة، الذي وصفه بطريرك القُدْس بقوله: "إن الحزن من الماضي كبير جدّاً، ولكن الخوف من المُستقبل استولى على الجميع، لأن المنطقة التي أخذها الصَّليبيُّون بسُيُوفهم هي - الآن - خالية من جميع البشر، وقُوَّة المُدافعين قد دُمِّرَتْ، وفيها عدد من الأجناد انحدروا إلى حافة الموت، ويتوجَّب أن يسقط كلُّ المُتبقِّي بيد أعداء الصليب. . وما لم يتمّ تقديم المُساعدات إلى الأرض المُقدَّسة، فإن الخراب والتدمير المحيق لا يُمكن النجاة منه"[1].

فقبل أن يُفكِّر بالهُجُوم على معاقل الفرنجة، التي أصبحت شبه خالية من المُدافعين، التفت السُّلطان أيُّوب ليُصفِّي حساباته مع الخَوَارزميَّة حُلفاء الأمس، الذين انقلبوا عليه، ثُمَّ ليخوض صراعاً ضدَّ مملكة حلب، من أجل السيطرة على حمص، وفي غمرة صراعه هذا، فاجأتهُ حملة لويس التَّاسع، التي استهدفت مصر قاعدة مُلكه، وبالتَّأكيد؛ لو هاجم أيُّوبُ القواعدَ الفرنجيَّةَ، مُستغلاً الرُّعب الذي أوقعه الخَوَارزميَّة في نُفُوس الفرنج، وخسائرهم الكبيرة في الأرواح، لتمكَّن من تحقيق فتوح، رُبَّما كانت تُضاهي فُتُوحَ صلاح الدِّين.

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 664.

المبحث الرَّابع:

علاقات عسكريَّة خاصَّة بين الأيُّوبيِّيْن والفرنج

لم تكن كلّ الصدامات التي تمّت بين المُسلمين والفرنج مُخطَّطاً لها ضمن الاستراتيجية السِّياسيَّة العسكريَّة للممالك الأيُّوبيَّة، أو للإمارات الفرنجيَّة في الشَّرق؛ حيثُ نجد العديد من العلاقات العسكريَّة خارجة عن خُطط الدولة، التي تتمُّ هذه العلاقات على أراضيها، حتَّى إنَّها كانت ـ أحياناً ـ ضدَّ رغبة الدولة، فقد نشبت معارك صغيرة ومُتوسِّطة، شنَّتها قوى داخلية قبلية، أو دينيَّة، لا تتبع ـ بشكل مُباشر ـ إلى القيادة السِّياسيَّة للمملكة، أو للدولة، التي تُقيم على أراضيها، أو تتحرَّك خلالها. ومن أمثلتها الجماعات القبلية من بدو، أو تركمان، والجماعات الدِّينيَّة المُقاتلة، وكانت عند المُسلمين تتمثَّل في مُقاتلي قلاع الدعوة الإسماعيليَّة، وقد اشتهروا بقُدرتهم الخارقة على اغتيال قادة أعدائهم. وعند الفرنج؛ تمثَّلتْ بطوائف الرُّهبان المُقاتلين، مثل: الدَّاويَة فُرسان المعبد، والاسبتار فُرسان المستشفى، والفُرسان الألمان التِّيُوتُون، وغيرهم.

وكلّ هؤلاء لم يكونوا مرتبطين بأيِّ رابط سياسي مع الممالك، أو الإمارات، التي يُقيمُون فوق أراضيها، إذا لم نقل إنَّهم كانوا ـ أحياناً ـ خارجين عليها.

وقد بُحثَتْ نشاطات كلِّ هذه الجماعات في أمكنتها من هذا الكتاب، ولكنْ؛ تبقى أهمّ مظاهرها لدى الفرنج المتمثِّلة بالحُجَّاج، الذين كانوا يتدفَّقون على ساحل الشَّام طوال تواجد الفرنج فيه بلا انقطاع، وكانوا بين حملات كبيرة تصل إلى حَدِّ تشكيل جيش، أو حملات صغيرة، وحتَّى مجموعات، أو أفراد أحياناً، لكنَّهم جميعاً جاءوا إلى الشَّرق ليس لزيارة الأماكن المُقدَّسة والحجِّ فقط، بل ليُعمِّدوا حجَّهم بالدم، ويقتلوا المُسلمين، ويعيدوا أمجاد مملكة القُدْس.

وكان الحُجَّاج يُشكِّلون دعماً غير محدود، ولا منقطع، لقوى الفرنجة في الشَّرق، لذلك كانت مواسم حُضُور الحُجَّاج هي مواسم القتال بشكل عامٍّ، فمتى انقضى الشتاء، وأمكن السفر في البحر، يبدأ توافد الحُجَّاج، وبالتَّالي؛ يحين زمن القتال، فتتجمَّع ـ بالمُقابل ـ العساكر الإسلاميَّة، قال العماد الأصفهاني: "ولمَّا انقضى الشتاء، وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الإسلاميَّة من

البلاد"[1]. ولكنْ؛ على الدوام، كانت هُناك مشاكل بين الحُجَّاج الوافدين والفرنج البلديين المقيمين في ساحل الشَّام، فقد كانت الحماسة والاندفاع والتصرُّفات اللامسؤولة هي أهمّ ميِّزات الحُجَّاج، ولذلك كثيراً ما كان ينشب الخلاف، أو حتَّى الصراع بينهم وبين البلديين، وهم الأكثر دراية بالمنطقة، وبالتعامل مع المُسلمين، فلا يقبل الحُجَّاجُ نصائحَ البلديين، وبالتَّالي؛ يندفعون، ويتسرَّعون، فيقعون في شرِّ أعمالهم.

في عام 599 هـ 1203م، وصل إلى سواحل الشَّام جَمْعٌ كبير من حُجَّاج الفرنج، وسارت طائفة منهم شمالاً، وعبروا على اللاذقية بالقُوَّة، على أمل أن يأخذوها، إذا تمكَّنوا من ذلك، فخرج سيف الدِّين بن علم الدِّين صاحب إقطاع اللاذقية بحاميتها، وتصدَّى لهم، "ونصره الله عليهم، فأسر مُقدَّميهم، وكان ملكهم أعور، وقتل منهم"[2]. وفي عام 625 هـ 1228م، جاءت حملة حُجَّاج من البحر، فزحفت نحو صيدا، وعمَّروها، وذلك بغير رضى فرنج الساحل الشَّامي[3]، "فكانت ردَّة فعل المُسلمين بأنْ أغار الملك العزيز عُثمان بن العادل على صُور، وأخذ منها جماعة أسارى، وفعل في ذلك فعلاً عظيماً"[4]. وفي عام 627 هـ 1230م، وصل إلى عكَّا حشد عظيم من الفرنج، فقام أحد نُبلائهم بقيادة أتباعه، وهاجم عدداً من البلدات حول عكَّا، وتمكَّن من نهبها، وأسر عدداً من سُكَّانها، فتحمَّس الباقون، وزحفوا صوب غزَّة، "فنصب لهم المُسلمون الكمائنَ، وانقضُّوا عليهم، وأُسروا جميعاً، أو قُتلوا، وعدد قليل منهم عاد إلى عكَّا"[5].

ضرب السواحل:

لجأ الأيُّوبيُّون إلى خُطَّة عسكريَّة تقضي بالهُجُوم على معاقل الفرنج في سواحل الشَّام كُلَّما قام الفرنج بحملة على مصر، وفي الحقيقة؛ فإن هذه الخُطَّة هي تقليد قديم، وكان أوَّل مَن اتبعها السُّلطان نُور الدِّين محمود، فعندما أرسل كبير قُوَّاده ومُمهِّد ملك البيت الأيُّوبي أسد الدِّين شيركوه في حملته الأُولى إلى مصر، انقلب الوزير شاور عليه، واستقدم الفرنج، وحاصروه في بلبيس، فما كان من نُور

---

1 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 152.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 623.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 156.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 158.

5 - جولات ورحلات، 1480 ـ 1483، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 43/ 1169.

الدِّين إلاَّ أن ضرب بكُلِّ قُوَّته عُمق الفرنج، وألحق بهم هزيمة حارم الكُبْرَى، ممَّا اضطرَّهم للتفاوض مع أسد الدِّين، وفكّ الحصار عنه، والعودة مُسرعين لحماية مناطق سيطرتهم، التي باتت مكشوفة في الشَّام[1].

وعندما سار تجمُّع الفرنج من عكَّا إلى مصر، وحاصروا دمياط، كان الملك العادل مُخيِّماً في مرج الصّفر، يجمع الجُيُوش لإرسالها إلى مصر لنجدة ابنه الكامل، واستدعى ابنَهُ الآخرَ الملكَ الأشرفَ من الجزيرة، وطلب منه دُخُول بلاد الفرنج من جهة حمص، "ليشغلهم عن حصار دمياط"[2].

فحاصر الأشرف حصن صافيتا عام **615** هـ **1218**م، وخرَّب ما حولها من الحُصُون، وانتقل إلى حصن الأكراد، فحاصره، حتَّى أشرف على أَخْذه، ثُمَّ خرَّب ما حوله، وعاد ليُعسكر "عند بُحَيْرة قَدَس في مُقابلة الفرنج"[3].

ومن جهة أُخرى؛ وجَّه الملكُ العادلُ ابنَهُ الثَّالث الملكَ المُعظَّم بعساكر الشَّام إلى حُصُون الفرنج في ساحل فلسطين لمشاغلتهم، وتُوفِّي الملك العادل والمُعظَّمُ مُرابطٌ بعسكر الشَّام في مُقابلة الفرنج، ثُمَّ التقى بهم المُعظَّم في معركة القيمون[4] في العام نفسه **615** هـ **1218**م، فانتصر عليهم، وقتل عدداً كبيراً منهم، وأسر مائة فارس من الدَّاوِيّة، وأَدْخلَهُم القُدْسَ مُنكَّسي الأعلام[5]، ثُمَّ سار المُعظَّم عام **616** هـ **1219**م، نحو قيسارية، على الساحل الجنوبي لفلسطين، وهاجمها حتَّى فتحها عنوة[6]، وتابع المُعظَّم هُجُومه، فحاصر عتليت[7]، ولمَّا علم المُعظَّمُ بأَخْذ الفرنج لدمياط، ترك الساحل، وسار نحو دمشق لاستنفار كلِّ قوى الشَّام، وحثّهم على المسير لاستنقاذ دمياط، ولكنَّه ترك عدَّة فِرَق من جيشه تُغير على حُصُون الفرنج في سواحل الشَّام[8].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 300.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 460.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 209.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 210، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 223.
6 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 239.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 126.
8 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 239.

العادل الثَّاني ابن الكامل:

يبدو أن العادل الثَّاني اتَّبع خُطَّة أبيه الاستراتيجية نحو فرنج الشَّام، باعتباره قد ورث دمشق والقُدْس ضمن سلطنته عن أبيه، فقد أُلقي عليه عبء الدفاع ضدَّ تحرُّكات الفرنج في الشَّام، لذلك عندما سمع العادل بتحشُّد مجموعات كبيرة من الفرنج للإغارة في الشَّام أرسل جماعة من العَسْكَر المصري بقيادة رُكن الدِّين الهيجاوي لحفظ المناطق الإسلاميَّة من الساحل الشَّامي، ورابطت القُوَّات المصريَّة هُناك، حتَّى اصطدمت بالفرنج عام 637 هـ 1239م، فانتصرت عليهم، وأسرت عدَّة من أُمرائهم ونُبلائهم، وبلغ عدد الأسرى ثمانين فارساً، ومائتين وخمسين راجلاً، ساقوهم إلى القاهرة، وقتلوا منهم في المعركة ألفاً وثمانمائة رجل، "ولم يُقتَل من المُسلمين غير عشرة"[1].

النَّاصر داود والتحرير الثَّاني للقُدْس:

في عام 626 هـ 1229م، سلَّم الملكُ الكاملُ مدينةَ القُدْس وما حولها إلى الإمبراطُور فريدريك، وكان التسليم "على شرط أن لا يجددوا فيه عمارة"[2]، وكانت مدينة القُدْس مُدمَّرة الأسوار مُنْذُ غزو دمياط، فقد خاف الملكُ المُعظَّم ـ بعد احتلال دمياط ـ أن يُتابع الفرنج انتصاراتهم، ولا يتوقَّفوا حتَّى القُدْس، فقام بتدمير أسوارها، وأبراجها، ولم يترك فيها سوى بُرج داود، وعندما تُوفِّي الملكُ الكاملُ، ودبَّ الخلاف بين ابنَيْه العادل الثَّاني والصَّالح أيُّوب، قام الفرنج ببناء قلعة في القسم الغربي من مدينة القُدْس، وجعلوا بُرج داود واحداً من أبراجها[3]، واستعادوا نشاطهم المُعادي للمُسلمين على طول الساحل الشَّامي إثر قُدُوم جماعات جديدة من الحُجَّاج المُقاتلين بقيادة ثيوبلد الكمباني، فأعادوا تحصين عسقلان وعدَّة قلاع ساحلية[4]، وقطعوا الطريق بين مصر والشَّام، ونهبوا القوافل المارَّة فيه[5].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 398 ـ 400.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 246.

3 - Meddle History, Stevenson, 317 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 246، شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 351.

4 - The Crusades,Campell, P: 412 & The Latin Kingdom, Conder, P: 315

5 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 373.

وكان النَّاصر داود بن الملك المُعظَّم بن العادل قد طرده عمَّاه الكامل والأشرف من دمشق، ولم يُبقيا عليه سوى الكَرَك، وما حولها، فاهتمَّ داود بتحرُّك الفرنجة؛ إذْ وصل أذاهم إلى طريق التجارة الحيوي، الذي يمدُّ بلاده بمُعظم دَخْلها، وكاد يتوقَّف النقل التِّجاري بين مصر والشَّام، خاصَّة؛ بعد أن استولى الفرنج على قافلة للمُسلمين قُرب نهر الأردن. وكان النَّاصر داود قد استردَّ هيبته بين بني أيُّوب، بعد أن قبض على ابن عمِّه الصَّالح أيُّوب صاحب دمشق وهُو في طريقه للاستيلاء على مصر، وتقوَّى بمَنْ كان معه من العَسْكَر، فتوجَّه نحو القُدْس عام **637** هـ **1239**م، وحاصر الفرنج في قلعتهم، ورماها بالمنجنيقات[1]، حتَّى استسلمت، فَسَمَحَ لِمَنْ كان بها من الفرنج بالتوجُّه إلى بلادهم في الساحل، واستولى على القُدْس، وهدم القلعة وبُرج داود[2].

النَّاصر يُوسُف الثَّاني:

مع أن الخطر الداهم الذي كان يُهدِّد دولة الأيُّوبيِّيْن في الشَّام، بعد أن وحَّدها النَّاصر الثَّاني صاحب حلب وحفيد صلاح الدِّين، هُو خطر التَّتار، لكنَّ ذلك لم يمنع من قيام بعض الصدامات العسكريَّة بين قُوَّات الدولة الأيُّوبيَّة والفرنج، ففي عام **651** هـ **1253**م، جرَّد الملك النَّاصر حملةً ضدَّ الفرنج، نزلت على عكَّا، فدمَّروا المنطقة التي حولها، ولحصانة عكَّا، ولعدم نيَّة الحملة حصارها، أو الهُجُوم عليها انتقلوا إلى صيدا، ويبدو أنَّها لم تكن مُحصَّنة جيّداً، فأخذوها بالسيف، وهرب أهلها، واعتصموا بالقلعة[3].

ولم تكن الظُّرُوف الدّوليَّة الجديدة، التي أوجدها توجُّه التَّتار نحو المنطقة، تسمح بتطوُّر العلاقات العسكريَّة بين الأيُّوبيِّيْن وأعدائهم التقليديين من الفرنج، فخطر التَّتار كان الشغل الشاغل للطرفين.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 291، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 225.

2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 351، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 246.

3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232.

الفصل الثَّالث

علاقات عسكريَّة مُنفردة لبعض الممالك الأيُّوبيَّة مع الفرنج

المبحث الأوَّل:

العلاقات العسكريَّة بين مملكة حماة الأيُّوبيَّة والفرنج

كانت مدينة حماة ـ عاصمة مملكة حماة الأيُّوبيَّة ـ تُشكِّل واحدة من قلاع المُقاومة الدّاخليَّة أمام مُحاولات الخرق الفرنجيَّة المُتكرِّرة لخطِّ المُدُن الدّاخليَّة دمشق، حمص، حماة، وحلب، فقد قاومت هذه المُدُنُ الحصينةُ مشاريعَ الفرنج، ولو سقطت إحداها، وخُرق خطُّ الدفاع الداخلي لكان من المُمكن اتِّساع الخرق. وكانت حماة مركز دفاع قويّاً في هذا الخطِّ، ومن أمامها وقفت قلعة شيزر مُتحدِّية الضغط العسكري الفرنجي، خاصَّة خلال الفترة الزمنية التي خضعت فيها آفاميا لحُكْم الفرنجة، إلى أن طُردوا منها.

كان فُرسان الاسبتاريَّة في قلعة الحصن هُم رأس الحربة للهُجُوم الدائم على حماة عبر بعرين، خاصَّة عندما تصلهم الإمدادات من الساحل[1]، وكان مُلُوك حماة الأيُّوبيُّون من سُلالة تقي الدِّين ابن أخي صلاح الدِّين، وهُو من أبطال بني أيُّوب المعدودين، وكانت له مكانة خاصَّة في ترتيب جُيُوش السُّلطان صلاح الدِّين، فقد كان قائد قُوَّات الميمنة على الدوام، واستمرَّ مُلُوك حماة من الأُسرة التقوية يقودون ميمنة القُوَّات الأيُّوبيَّة في أيِّ معركة يُشاركون فيها، وتوارثوا هذه المكانة[2]، لذلك كان مُلُوك حماة يحملون تراث قُوَّة عسكريَّة، ليس من السهل الحفاظ عليه، بغير الكثير من الجهد والاستعداد.

ففي عام 599 هـ 1202م، عندما انتهت الهُدنة مع الفرنج، خرج الملك المنصُور من حماة بعساكره، ورابط في بعرين، وأرسل يطلب نجدة العادل سُلطان البيت الأيُّوبي، فقد كان يتوقَّع هُجُوم الفرنج، الذين سمع باستعداداتهم، فأرسل الملك العادل يُطمئنه، وطلب من الملك المُجاهد صاحب

1- الاسبتاريَّة، سميث، 144.

2- المُختصر، أبو الفداء، 3/ 124.

حمص والملك الأمجد صاحب بعلبك أن يُنجداه بالعساكر، لكنَّهما تمهَّلا، وتأخَّرا في إرسال النجدات، ممَّا دفع الملك العادل إلى إعادة الطلب منها لإرسال النجدات إلى الملك المنصُور، كما كَتَبَ إلى الملك الظَّاهر صاحب حلب لإرسال قُوَّة دَعْم له[1].

وبالفعل؛ وصلت النجدات إلى الملك المنصُور وهُو على بعرين، فبادر بالهُجُوم، وتحرَّك غرباً، فاصطدم بجموع الفرنج المُؤلَّفة من الفُرسان الاسبتاريَّة أصحاب قلعة الحصن وعسكر طرابلس، فهزمهم، وتمكَّن من قَتْل وأَسْر أعداد منهم[2]، "أدخلهم حماة راكبين بعُددهم"[3]. وعاد المنصُور للمُرابطة في بعرين، فأعاد الفرنج تنظيم صُفُوفهم، وجمعوا قُوَّات جديدة، تألَّفت من **400** فارس، "ما عدا التركبولية، ومعهم رُماة الجروخ والزنبورك"، و**1200** راجل، وهم من اسبتارية قلعة الحصن وقلعة المرقب، إضافة إلى قُوَّات من طرابلس ومجموعات من الحُجَّاج المُقاتلين، فتصدَّى لهم المنصُور، وصمد أمامهم، وتمكَّن ـ في النِّهاية ـ من هزيمتهم، بعد أن قتل قائد قُوَّات الفُرسان الخفيفة التركبولية، وأميراً من قادة الحُجَّاج القادمين من البحر، وعدداً من الفُرسان، وأسر عدداً آخر[4]. وظلَّ المنصُور مُرابطاً في قلعة بعرين ومعه عساكر النجدات، خوفاً من عودة الفرنج إلى الهُجُوم حتَّى عام **600** هـ **1204**م؛ حيثُ توصَّل إلى عقد هُدنة مع الفرنج[5]، بشُرُوط جيِّدة، كانت ـ بمُجملها ـ لمصلحته، وذلك نتيجة لتردِّي وضع الفرنج، فقد قام الاسبتاريَّة بتوسيط الدَّاويَّة لدى المنصُور، ليقبل بالصُّلح[6]، وتمَّ هذا الصُّلح بناء على نصيحة الملك العادل وتوجيهاته[7]، ثُمَّ رجع المنصُور بعساكره إلى حماة، وتفرَّقت الجُند[8]. ويبدو أن الهُدنة لم تكن لأكثر من عام واحد، فعندما شعر الفرنج بقُوَّتهم عام **601** هـ **1205**م، عاد الاسبتاريَّة للهُجُوم على حماة، ومعهم جُمُوع عظيمة من الفرنج، فنهبوا،

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 142، ـ راجعْ نصّ الرسائل في: وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 244 ـ 245.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 141.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 32/ 143.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 148، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 339.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 154، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 105.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 146.
7 - راجعْ رسالة الملك العادل إلى المنصُور في: وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 245.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 154.

وسبوا، وقتلوا، حتَّى وصلوا باب حماة[1]. وبدا أن المنصُور ملك حماة كان عاجزاً عن مطاردتهم، فقد اكتفى بردِّهم عن أبواب البلد، فرجعوا، بعد أن "ملؤوا أيديهم بالسّبي" [2]، فقد أخذوا نساءَ حماة من على العاصي، وهزموا عسكر حماة، ولولا ثبات المنصُور، "ولولا وُقُوفه لراحت حماة"[3].

فأسرع الملك المنصُور يطلب النجدة من المُعظَّم نائب أبيه العادل على دمشق، فأمدَّه بالعساكر[4]، وفي الوقت نفسه؛ ترددت الرُّسُلُ بين المنصُور والاسبتاريَّة، حتَّى جدَّدوا الصُّلح بينهما[5]. ويبدو أن جبهة حماة قد هدأت حتَّى عام 626 هـ 1229م؛ حيثُ هاجم الاسبتاريَّة مملكةَ حماة من جديد، بالرّغم من الصُّلح الذي كان الملك الكامل قد عقده مع الإمبراطُور فريدريك، لكنَّ الاسبتار اعتبروا أنفسهم غير مُلزمين به، ممَّا اضطرَّ الملك الكامل للهُجُوم على معقلهم في حصن الأكراد، لوَقْف تعدّياتهم على حماة[6]، وما إن انسحب الكامل حتَّى ردَّ الاسبتار بالإغارة على أراضي حماة عام 627 هـ 1230م، وكانوا في عدد وعُدَّة كبيرة، فخرج إليهم المُظفَّر محمود بن المنصُور صاحب حماة، "وقاتلهم، فولُّوا منهزمين، وقتل من خيَّالتهم ورجالتهم خَلْق كثير، وأسر جماعة، واستردَّ ما غنموه"[7]، ويقول أبو الفداء: "إن هذه المعركة قد جرت عند قرية لفيون بين حماة وبارين"[8]، ويجعل الحنبلي اسمها أفيون[9]، وهُو الأصحُّ، فَتَلُّ أفيون لا يزال يحمل هذا الاسم حتَّى الآن، وهُو قُرب خربة كفر بهم جنوب غرب حماة[10]، "وقرية أفيون هي ـ الآن ـ خربة لا تزال تُعرَف بخربة أفيون"[11].

---

1 - الباب الغربي (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 162)، والباب القبلي (المنصُوري، ابن نظيف، 44)، وباب البلد على العاصي (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة،51).

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 162.

3 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 45 ـ 601/ 700.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 45.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 106، والمنصُوري، ابن نظيف، 44.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 487.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 303، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 488، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 147.

8 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 147.

9 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 339.

10 - الملك العالم أبو الفداء، أحمد الكيلاني، 46.

11 - المُعجم الجُغرافي للقطر السوري، مادَّة : كفر بهم.

المبحث الثَّاني:

العلاقات العسكريَّة بين مملكة حلب الأيُّوبيَّة والفرنج

بعد أن سلَّم أميرُ طرابلس الفرنجي قلعةَ الحصن لفُرسان الاسبتاريَّة[1]، انقطعت العلاقات العسكريَّة لمملكتَيْ حمص وحماة بإمارات الساحل الفرنجيَّة، وبعد مُدَّة بسيطة لم يبقَ بيد المُسلمين من الفتوح الصَّلاحيَّة للساحل سوى اللاذقية، التي تتبع لها جبلة. وكانت اللاذقية ـ مُنْذُ الأيَّام الصَّلاحيَّة ـ تتبع ولاية حلب، واستمرَّت بتبعيَّتها لمملكة حلب الأيُّوبيَّة، التي أسَّسها الظَّاهر بن صلاح الدِّين، لذلك كانت مملكة حلب المملكة الأيُّوبيَّة الوحيدة التي تملك موطئ قدَم في شمال الساحل الشَّامي، وبالتَّالي؛ تنخرط في الصراعات العسكريَّة القائمة هُناك بين قوى عديدة.

وبشكل عامٍّ؛ كانت العلاقات العسكريَّة لمملكة حلب في غاية الحساسية، لذلك كانت كثيرة التقلُّب، فقد كانت تتحكَّم بها مُجمل علاقات سياسيَّة مع قوى خارجية عديدة، مُتنافرة غالباً، ومُتحالفة أحياناً، فهُناك السياسة العامَّة لحلب المحكومة بالالتزام بسياسة البيت الأيُّوبي بشكل عامٍّ، وبسياسة سُلطان البيت بشكل خاصٍّ، مع وُجُود قوى سياسيَّة خارجية كُبْرَى وصغرى تُحيط بحلب، منها سلاجقة الرُّوم الجار المُسلم القوي، المهادن حيناً، الطامع في حين آخر. وكذلك وُجُود جيران أقوياء مُتربِّصين، منهم ما هُو عدوّ على الدوام كمملكة الأرمن، المُحاربين القُساة، أصحاب المناطق الوعرة، التي يُفكِّر أيُّ جيش ألف مرَّة قبل أن يشرع بغزوها. والوُجُود الفرنجي المُتمثِّل بإمارة أنطاكية، وعلاقاتها المُتشعِّبة مع البيزنطيين والأرمن والسلاجقة. إضافة لوُجُود قوى فرنجية مُستقلَّة، مثل طائفتَيْ الرُّهبان الاسبتاريَّة والداوية، الذين سيطروا على قلاع مُهمَّة على حُدُود مملكة حلب، وكانت لهم مواقفهم الخاصَّة وسياساتهم العسكريَّة الخاصَّة. لكنَّ عُنصُر العلاقة العسكريَّة الأساسي لمملكة حلب مع الفرنج كان مع إمارة أنطاكية.

فعندما كان السُّلطان صلاح الدِّين يُتابع فَتْحَ السواحل، بعد انتصاره في حطِّين، ألقت قُوَّاته رحالها أمام أسوار أنطاكية، ورابطت مُقدِّمة هذه القُوَّات على أبوابها، فأرسل بُوهمند صاحب أنطاكية يطلب الصُّلح من السُّلطان صلاح الدِّين، فصالحه السُّلطان، "لشدَّة ضجر العَسْكَر، واستقرَّ الصُّلح

---

1 - راجعْ : مملكة حمص، منذر الحايك، 197.

على أنطاكية لا غير، على أن يُطلقوا أسارى المُسلمين، والهُدنة ستَّة أشهر، فإن جاء منْ ينصرهم، وإلاَّ سلَّموا البلد"[1]، ويبدو أن شرط تسليم البلد قد ألغى نفسه بعد تجمُّع الحملة الثَّالثة، وقَصْدها عكَّا.

وبعد وفاة صلاح الدِّين؛ تولَّى ابنه الظَّاهر غازي مملكة حلب، وكان يعاصره في أنطاكية البرنس بُوهمند الثَّالث[2]، ويبدو أنَّه كانت هُناك رغبة مُتبادلة لدى الرجلَيْن بإقامة سلْم، أو حالة مُؤقَّتة من الهُدُوء، ليتفرَّغ كلّ منهما لحلّ مشاكله، فالظاهر كان يخوض معركة السُّلطة مع عمِّه العادل، وبُوهمند كان يخوض صراعاً مريراً ضدَّ ليون الثَّاني ملك الأرمن في كيلكيا[3]. واستمرَّ هذا السِّلْم بينهما حتَّى وفاة بُوهمند الثَّالث في عام **590** هـ-**1194**م؛ حيثُ اندلع الصراع بين خليفته بُوهمند الرَّابع حاكم طرابلس، الذي نصَّب نفسه أميراً على أنطاكية، وبين ليون الثَّاني المُطالب بعرش أنطاكية للأمير ريموند روبين بن ريموند بن بُوهمند الثَّالث[4].

لكنَّ عمَّه بُوهمند الرَّابع لم يعترف بحقِّه في وراثة العرش، ودخل أنطاكية بتأييد رجال الكَنيسَة وأُمراء الجيش ومُقدَّمي الدَّاويَة، الذين اتَّفقوا جميعاً على مُقاومة امتداد نُفُوذ ليون الثَّاني إلى أنطاكية.

فما كان من ليون الثَّاني إلاَّ أن هاجم أنطاكية بقُوَّاته العسكريَّة، "فأرسل بُوهمند الرَّابع يستنجد بالظاهر، فكتب الظَّاهر إلى والي حارم على جناح طائر، فخرج بعساكره لنجدة البرنس"[5].

ولكن الوضع العسكري في أنطاكية تفاقم؛ إذْ تمكَّن ليون من اقتحام أسوار أنطاكية، ولم يستطع بُوهمند الرَّابع الصُّمُود أمامه سوى بعض الوقت، ثُمَّ التجأ إلى القلعة، "ونادى بشعار الملك الظَّاهر، ووصل الخبر إلى الظَّاهر على جناح طائر، فخرج من حلب بالعساكر، وقصد أنطاكية، فبلغ ذلك ابن لاون، فَكَرَّ راجعاً إلى بلاده"[6].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 399.

2 - بُوهمند الثَّالث: (558 ـ 597 هـ/ 1163 ـ 1201م)، وغالباً ما يُشير إليه المُؤرِّخون العَرَب باسم: بيمند.

3 - ليون الثَّاني: (583 ـ 616 هـ/ 1187 ـ 1219م)، كان يُشير إليه المُؤرِّخون العَرَب باسم: ابن لاون.

4 - ريموند ـ روبين: هُو ابن ريموند المُتوفَّى في حياة والده بُوهمند الثَّالث من الأميرة الأرمنية أليس بنت روبن أخي الملك ليون الثَّاني.

5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 405، وذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8 / 470. والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 170، و إمارة أنطاكية، عطية، 255، ومملكة حلب، 199.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 154.

إنَّ تراجع ليون عن أنطاكية بعد أن أصبحت بيده كان اضطرارياً، فقُوَّات حلب بكاملها تزحف ضدَّه، فإنْ تصدَّى لها، فسيُهاجمه بُوهمند الرَّابع بقُوَّاته التي في القلعة من الخلف. ولمَّا علم الملك الظَّاهر بانسحاب ليون، وكان قد وصل إلى حارم، عاد إلى حلب[1].

وبالتَّأكيد؛ فقد كان للملك الظَّاهر أسباب كثيرة تدفعه لنجدة أنطاكية، منها: كسب حليف فرنجي قوي، يملك إمارتَيْ أنطاكية وطرابلس؛ حيثُ يُمكن الإفادة منه سياسياً وعسكريّاً، إضافة إلى أن أنطاكية هي المرفأ الطبيعي لحلب، وحياة حلب الاقتصاديَّة تقوم على كونها محطَّة تجارية لقوافل الشمال والشرق، وكلّ البضائع تصبُّ فيها، وكلّ ازدهارها مرتبط بقدرتها على تصريف هذه البضائع بأمان نحو البحر، ولا يتمّ ذلك إلاَّ عبر أنطاكية، فهي ميناؤها الطبيعي.

ولكن العلاقة المتميّزة مع أنطاكية لم تكن لتمنع قيام علاقات عسكريَّة مُتوتِّرة مع الفرنج الآخرين، ففي عام 600 هـ 1204م، انطلقت القُوَّات الأيُّوبيَّة من جبلة بقيادة الأسد الهكاري، وهاجمت قُوَّات الاسبتاريَّة في قلعة المرقب، فنهبوا، ودمَّروا ما حولها. وقد كرَّروا هذا الفعل مراراً، فخرج لهم الفرنج، وأسروا سيف الدِّين حسين ابن الأسد الهكاري، "وقوي الفرنج، وطمعوا"[2]، ونتيجة لذلك؛ أرسل الملك الظَّاهر غازي قُوَّة عسكريَّة بقيادة مبارز الدِّين أقاجا عام 60 1هـ 1205م، إلى المرقب، فحاصر الحصن، وتمكَّن من "هَدْم البُرج الذي له على باب الميناء"[3]، واستشهد أقاجا بسهم أصابه، فعادت العَسْكَر بالغنائم[4]. ردَّت الاسبتاريَّة على ذلك مُباشرة، ففي العام نفسه؛ خرجت قُوَّة من الحصن مع دَعْم جاءهم من طرابلس، وساروا نحو مُمتلكات حلب في جبلة واللاذقية، ونصبوا الكمائن، فلمّا خرجت حامية جبلة للتصدِّي لهم، انقضت عليها الكمائن، وفتكوا بها، "فقُتل من المُسلمين جماعة كثيرة"[5].

وعندما أرسل الملك العادل يُعلم الظَّاهر بخُرُوج قُوَّات الحملة الألمانية شمالاً عام 601 هـ 1205م، بعد احتلالها لبيروت، أمر الظَّاهر غازي بهدم جبلة واللاذقية، فأبلغ بُوهمند قادة جند

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 43.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 165، والبُرج مايزال قائماً حتَّى الآن، ويُسمَّى بُرج الصبي.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 165.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 166.

العزيز، الأمير نُور الدِّين قلج وحُسام الدِّين عُثمان بن طهان، بأنَّ الألمان قد عادوا أدراجهم نحو عكَّا[1]، فتوقَّفا عن الهدم. وعندما هاجم ليون الثَّاني أنطاكية في العام نفسه 601 هـ ـ 1205م، أرسل الملك الظَّاهر إليها النجدات، ممَّا أجبر ليون على فكِّ حصاره لأنطاكية، واعتبر أن ذلك العمل من الظَّاهر هُو فسخ للهُدنة بينهما، فهاجم منطقة سهل العمق، وقام بتحصين قلعة دربساك المُشرَّفة على العمق، ثُمَّ جرت مُفاوضات بينه وبين الظَّاهر انتهت بتجديد الصُّلح، ممَّا فتح طريق أنطاكية ـ مرَّة أُخرى ـ أمام ليون، فهاجمها، وضرب ما حولها من البلاد، ولم يتمكَّن الظَّاهر من إرسال نجدة عسكريَّة لحليفه وصديقه بُوهمند الرَّابع أمير أنطاكية، واكتفى بإرسال المؤن والغلال، ممَّا جعل الحصار غير مُجدٍ[2]. كذلك قدم بُوهمند نجدة من عشرة آلاف مُقاتل إلى قُوَّات الملك الظَّاهر عندما هاجمت عدوّهما المُشترك ليون الثَّاني عام 602 هـ 1206م[3].

وهذا ما يجعلنا نستنتج بأنَّ الصفة المميّزة للعلاقات بين حلب والاسبتاريَّة هي الصدامات العسكريَّة، وتبادل الهجمات والمعارك سجال. بعكس العلاقات مع إمارة أنطاكية، التي كان أميرها بُوهمند الرَّابع يقدِّم كلّ مُساعدة مُمكنة لقُوَّات الظَّاهر. لكنَّ العلاقات الوُدِّيَّة لم تكن خالصة بين مملكة بُوهمند الرَّابع، التي تضمُّ أنطاكية وطرابلس ومملكة الظَّاهر غازي في حلب، فلكُلٍّ منهم دوافعه لهذا التحالف، الذي نعدُّه مرحلياً للأسباب التي ذكرناها، لكنْ؛ في بعض الأحيان، كانت هُناك أسباب تدفع أحدهما لعدم الإخلاص لحليفه، فنتيجة الدعم الكامل من قِبَل طائفة الدَّاوية لبُوهمند الرَّابع ضدَّ ليون الثَّاني، قام ليون بالاتِّفاق مع طائفة الاسبتاريَّة، أعداء الدَّاوية، وقدَّم لهم مواقع استراتيجية، جعلها بعُهدتهم على حُدُوده مع سلاجقة الرُّوم[4]، ممَّا دفع بُوهمند لمُحاولة استمالة الاسبتاريَّة، فتغاضى عن هُجُومهم عام 601 هـ 1205م، الذي قاموا به في قلعة المرقب ضدَّ جبلة، وتركهم يعودون بالأسرى والغنائم[5]، وبالمُقابل؛ فقد تصدَّى الملك الظَّاهر لهُجُوم بُوهمند الرَّابع على مناطق الإسماعيليَّة بعد اغتيالهم لابنه الأكبر ريموند في كَنيسَة طرطوس، ولمَّا استنجد الإسماعيليَّة بالظاهر

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 106 ـ 611، مملكة أنطاكية، عطية، 285.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 625

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 170، وتاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 5/ 1/ 43.

4 - Stevenson, The Crusaders in the East, p. 299

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 166، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 164، والاسبتاريَّة، سميث، 160.

كان عليه المُوازنة بين حليف استراتيجي هُم: الإسماعيليَّة، وحليف تكتيكي هُو: بُوهمند، فاختار دعم الإسماعيليَّة، وأرسل مجموعة فُرسان مدعومة بمائتَيْ راجل، لكنَّ الفرنج كمنوا لهذه النجدة، التي أصبحت بين قتيل وأسير، ولولا هُجُوم الملك المُعظَّم صاحب دمشق على طرابلس لفتك بُوهمند بالإسماعيليَّة[1]، ولكن حلفهم الوثيق مع البيت الأيُّوبي بكامل فروعه أنقذهم من هُجُوم بُوهمند، ثُمَّ أجبر على إطلاق أسرى نجدة حلب.

ويُمكننا القول إن ليون الثَّاني ملك الأرمن استغلَّ الخلافات بين الظَّاهر وبُوهمند، وتمكَّن من دُخُول أنطاكية عام 612 هـ 1216م، ونصَّب ريموند روبين ملكاً عليها، ولمَّا لم يعترض الملك الظَّاهر، أطلق ريموند أسرى المُسلمين من أنطاكية، وأوصلهم إلى حلب[2]، ورُبَّما تكون تلك صفقة عُقدت بينهما، فالظاهر لا يهمُّه شخص مَنْ يملك أنطاكية، بل كان كُلُّ همِّه في أن تظلَّ أنطاكية ومِيناؤها مفتوحَيْن أمام تجارة وقوافل حلب، وقد أثبتت الأيَّام أن إخلاص ريموند روبين للتحالف مع حلب كان أفضل من إخلاص بُوهمند، فلم يستغلّ ريموند الظُّرُوف الحرجة التي مرَّت بها مملكة حلب عقب موت الملك الظَّاهر 613 هـ 1216م، فقد كان يستطيع أن يُحقِّق مكاسب كبيرة على الأرض، عندما غزا سُلطانُ سلاجقة الرُّوم يدعمه الأفضل بن صلاح الدِّين مملكةَ حلب، واحتلا أجزاء منها. وكذلك لم يستغلّ فُرصة انشغال جيش حلب، وجُيُوش البيت الأيُّوبي بكامله، بالمُشاركة ضدَّ حملة الفرنج على دمياط. وبعد موت الملك الظَّاهر يبدو أن حلب لم تعدْ تُولي مسألة أنطاكية الكثيرَ من اهتماماتها، واقتصرت العلاقات العسكريَّة مع الفرنج على صدامات مع الدَّاويَة، الذين يتمركزون في قلاع وحُصُون مُتاخمة لأراضي حلب، فمع أن بُوهمند الخامس أمير طرابلس[3] حافظ على العلاقات الوُدِّيَّة القديمة مع مملكة حلب، لكنَّ الدَّاويَة حاولوا استغلال وفاة الملك الظَّاهر، وتولِّي الأمير طَغْريل الوصايةَ على ابنه العزيز عام 613 هـ 1216م، فهاجموا التُّركمان النازلين في سهل العمق ردَّاً على قَتْلهم أحد الفُرسان الدَّاويَة، فقتلوا عدداً من التُّركمان، وأسروا آخرين، لكنَّ

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 3/ 166، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 224، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 179.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 233، وتاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 5/ 1/ 168.

3 - بُوهمند الخامس: عاش ما بين 1233 ـ 1258م / 630 ـ 656هـ.

طَغْريل ردعهم بحزم، وتصدَّت لهم قُوَّات حلب، فأسروا فارسَيْن للدَّاوِيَة، وقتلوهما، عندها؛ طلب الدَّاوِيَة الصُّلح على قاعدة رَدِّ المنهوبات والأسرى[1].

وفي عام 628 هـ 1231م، كان السُّلطان الكامل قد عقد الصُّلح مع الإمبراطُور فريدريك، الذي يُمثِّل مملكةَ القُدْس الفرنجيَّة، لكنَّ صُلحه لم يشمل طرابلس، ولا أنطاكية، ويبدو أن طوائف الرُّهبان المُقاتلين من داوية واسبتارية أرادوا إحراج فريدريك المحروم من البابا، الذي يتبعون له مُباشرة، فقاموا بالهُجُوم على مدينة جبلة، وقد تمكَّنوا بغارة مُفاجئة من الاستيلاء عليها، وكانت تتبع اللاذقية، التي هي من مُمتلكات حلب.

فخرج عَسْكَرُ حلب على جناح السُّرعة، وقام الأتابك شهابُ الدِّين طَغْريل الوصيّ على الملك العزيز صاحب حلب بتكليف بدر الدِّين ابن الوالي بقيادة الحملة، وأَقْطَعَهُ جبلة، فلحق بالفرنج، وقد تحصَّنوا في قلعة المرقب، فأغار عليها، وحاصرها، واحتلَّ حصن بانياس[2]، وأطلق أسرى المُسلمين منه، وبعد عدَّة صدامات وإغارات اتَّفق الطرفان على الهُدنة[3].

ثُمَّ حاول الدَّاوِيَة استغلالَ وفاة الملك العزيز 634 هـ 1236م، وعادوا للهُجُوم على تركمان العمق، فخرج عسكر حلب بقيادة تُورانشاه بن السُّلطان صلاح الدِّين، وحاصر قلعة بغراس قاعدة الدَّاوِيَة، "فأشرفت على الأُخْذ، فَسَيَّرَ البرنس صاحب أنطاكية، وشفع فيهم، بعد أن كان مُغاضباً لهم، فعقدوا هُدنة مع الدَّاوِيَة، ورحلوا، ولو أقاموا عليها يومَيْن آخرَيْن لأخذوها"[4].

ولم يقتنع الدَّاوِيَة بهذه النتيجة،ولم يحرصوا على الهُدنة، فما إن سار جيش حلب عنهم حتَّى جمعوا جُمُوعهم، واستقدموا نجدةً من جبيل، وغيرها، وقد أمدَّهم هيو أمبرياكو صاحب جبيل، فهاجموا قلعة دربساك، وعاثوا فساداً في ربضها، فتصدَّت لهم حامية دربساك، ولحق بهم عَسْكَرُ حلب، "فهزموهم هزيمة شنيعة، وقُتل منهم خلق عظيم، وأسر المُسلمون فارسَهُم، وراجلهم،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 375.

2 - بانياس: بلدة على ساحل الشَّام، ما بين طرطوس واللاذقية، كنعانية الأصل، عُرِفَتْ في العصر اليوناني ـ الرُّوماني باسم بالانيا، وسمَّاها العَرَبُ بلنياس، ودعاها الفرنجة باسم فاليني. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة بانياس).

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 504، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 300، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 688.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 681.

وفيهم جماعة من المُقدَّمين، ولم ينجُ منهم إلاَّ القليل"[1]، وكان من جُملة القتلى مُقدَّم الدَّاويَة الأكبر وليم مونتفرات، ويقول ابن العديم: إن هذه الوقعة فَتَّتْ في عضد الدَّاويَة في كُلِّ الساحل، ولم تقمْ لهم بعدها قائمة[2]، "وكان هذا الفتح من الفُتُوح الجليلة المشهورة، ودخل عَسْكَرُ حلب ورُؤُوس الفرنج محمولة على الرماح والأسرى معهم"[3]، وأقام الأسرى في سُجُون حلب ما بين القلعة والخندق، حتَّى عام 638 هـ 1240م، عندما هُزم جيش حلب أمام الخَوَارزميَّة، "فأطلق الأسرى الدَّاويَة الذين كانوا بحلب؛ استكفاءً لشرِّهم"[4]، وكان هذا الإفراج عن الأسرى إشارة سلام إلى الدَّاويَة، الذين لم يكونوا ـ وقتها ـ قادرين على إلحاق أيِّ أذى بحلب، ولكنْ؛ نتيجةً لنكبة الحلبيين الكُبْرَى اضطرُّوا لهذا الإجراء الاحترازي، ويبدو أن هُدنة غير مُعلنة استمرَّت قائمة لسنوات بين النَّاصر الثَّاني ملك حلب وبين بُوهمند الخامس أمير طرابلس حتَّى قُدُوم المغول إلى الشَّام، فانقلبت موازين العلاقات العسكريَّة والسِّياسيَّة.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 682.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 682، ـ راجعْ : مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 331، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 159، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 409، وذيل المختصر، ابن الوردي، 2/ 242.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 131.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 698.

المبحث الثَّالث:

العلاقات العسكريَّة بين مملكة حمص الأَسَديَّة والفرنج

عُدَّتْ حمص في بدايات الحُرُوب أملاً واعداً للفرنجة، ورُبَّما ظنُّوا أنَّها ستكون أُولى مُدُنهم الدَّاخليَّة الكبيرة، فوجَّهوا جُزءاً كبيراً من جهدهم العسكري صوبها، حتَّى سُمِّيَتْ ناقة الفرنجة[1].

ولإدراك صلاح الدِّين أهمِّيَّة حمص وخُطُورة موقعها، فقد كان من أهمِّ أسباب اختيار ابن عمِّه ناصر الدِّين مُحمَّد بن شيركوه لتولِّيها هُو مقدرته العسكريَّة، وشجاعته. وفوق كُلِّ ذلك ليكون ناصر الدِّين في مُواجهة داهية أُمراء الفرنجة، وفارسهم كُونت طرابلس ريموند[2]، وللأسباب نفسها؛ كان اختيار صلاح الدِّين للمُجاهد بن ناصر الدِّين. وكان ريموند كُونت طرابلس يُخطِّط للحُصُول على حمص بوصفها عُمقاً استراتيجياً اقتصادياً، وجُزءاً مُكمِّلاً، لا غنى عنه لإمارته في طرابلس. ولكنَّه ـ بعد عدَّة هجمات مُخفقة عليها ـ استعان بالاسبتارية لتحقيق مشروعه.

الاسبتاريَّة في مُواجهة مملكة حمص:

تأسَّست فرقة الاسبتاريَّة[3] عام 492 هـ 1099م، وهي جمعية تُعنى بعلاج المرضى، وبالحُجَّاج، ثُمَّ تحوَّلت إلى هيئة حربية دينيَّة، لعبت دوراً كبيراً في مُجمل حُرُوب الفرنجة في الشَّرق.

وقد تعمَّد ريموند كُونت طرابلس أن يسدَّ بهم الممرَّ الجبلي الخطر، بعد أن أخفق بامتلاك طرفة الآخر عند حمص، وأن يضعهم كرأس حربة للفرنجة، أمام أهمِّ المداخل من الساحل إلى عمق بلاد الشَّام. فقام عام 539 هـ1144 م بمنحهم قلعة الحصن. وأعطاهم الحُقُوق على بُحَيْرة حمص حتَّى السدّ القائم في نهايتها. ثُمَّ منحهم عام 576 هـ 1180م، حصن الطوبان[4]، ففتح لهم الطريق إلى حمص ذاتها. واحتفظ لنفسه بحقِّ الاستيلاء على مدينة حمص، والأراضي الواقعة شرق نهر

---

1 - " The la Chamele - of the Franks " (الاسبتاريَّة، سميث، ترجمة: صُبحي الجابي، 144). وورد اسمها في المصادر الفرنجيَّة بعدة أشكال: Camolla - Chamelle - Emessa- Homs - Hims . (الاسبتاريَّة، سميث، 482).

2 - كُونت طرابلس ريموند الثَّالث. Reymond de Saint -Gilles

3 - الاسبتاريَّة: فُرسان المستشفى Hospitaliers.

4 - الطوبان: أحد حُصُون الممرّ الجبلي بين حمص وطرابلس (Tobanic).

العاصي. ويبدو أن أمله في امتلاك حمص قد تلاشى سريعاً، فعاد في عام 580 هـ 1184 م، فمنح الاسبتاريَّة جميع الحُقُوق على حمص، وأراضيها[1].

أمَّا غرباً؛ فقد منحهم أمليريك ملك القُدْس قلعةَ عرقة، وحُصن ابن عكَّار[2] عام 565 هـ 1170م[3]. ومع أن قلعة الحصن كانت قويَّة وحصينة بما فيه الكفاية، فإن الاسبتاريَّة أعادوا تحصينها وتوسيعها حوالي عام 596 هـ 1200م[4]. وبالتَّأكيد؛ فإن ذلك تمَّ بعد زلزال عام 592 هـ 1196م.

وفي الواقع؛ استمرَّ تحصين الاسبتاريَّة لقلعة الحصن حتَّى عام 669 هـ 1271م، ممَّا جعلها أضخم القلاع الفرنجيَّة في الشَّام، فقد كانت تتَّسع لألفَيْ جُندي في آن واحد[5]. واستطاع الاسبتاريَّة أن يجعلوا من هذه القلعة شوكة دامية في جنب مملكة حمص الأَسَديَّة. وبما أن الاسبتاريَّة لم تكن تدين بالولاء لسيِّد طرابلس، فلم تكن تخضع لشُرُوط أيِّ هُدنة يعقدها مع المُسلمين، وكانت لهم حُرِّيَّة التعامل مع جيرانهم، وشنّ الهجمات عليهم[6]. لذلك لم يكن الاسبتاريَّة جاراً مُقلقاً لمملكة حمص فقط، بل جاراً بالغ السُّوء، فقد كانت كلّ الهجمات الفرنجيَّة التي تعرَّضت لها حمص مُنْذُ عام 539هـ 1144م، بقيادة الاسبتاريَّة، أو بمُشاركتهم الفعَّالة. ورُبَّما كان هذا ما دفع الملك المُجاهد بن ناصر الدِّين صاحب حمص عام 627 هـ 1230م، لعقد الصُّلح معهم، وكان "سيمون رسول بيت الاسبتار في صحبة رُسُل المُجاهد إلى الملك الأشرف لإعلامه بالصُّلح"[7]. ويبدو أن هذا الصُّلح مع الاسبتاريَّة كان مُقابل فرضهم أربعة آلاف دينار سنوياً على حمص، وظلَّت هذه الضريبة حتَّى عهد الظَّاهر بيبرس؛ حيثُ اشترط إلغاءها مُقابل تجديد الهُدنة مع الاسبتاريَّة[8]. إن هذا التعايش الطويل بين الاسبتاريَّة والعَرَب المُسلمين في الحَرْب والسلام، هُو الذي مكَّن طائفة الاسبتاريَّة من التكلُّم باللُّغة العَرَبيَّة، ومن أن تكون على دراية كاملة بأوضاع الممالك الأيُّوبيَّة حولها، ولتسعى ـ بالتَّالي ـ لإبقائها مُجزَّأة مُتناحرة[9].

---

1 - الاسبتاريَّة، سميث، 70.

2 - حصن ابن عكَّار: Giblacr أوحصن عكَّار، يقع في منطقة عكَّار شمال شرق طرابلس.

3 - الاسبتاريَّة، سميث، 69.

4 - الاسبتاريَّة، سميث، 191.

5 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتَّى، 244.

6 - الاسبتاريَّة، سميث، 183.

7 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

8 - الاسبتاريَّة، سميث، 145 ـ 146.

9 - الاسبتاريَّة، سميث، 136.

حمص: ناقة الفرنجة:

في عام 573 هـ1177م، توجَّهت قُوَّة فرنجية يُساندها فُرسان الاسبتاريَّة للإغارة على حمص، وكان صاحبها ناصر الدِّين مُحمَّد قد بث عُيُونه يترصَّد تحرُّكاتهم، ولمَّا عرف بـالأمر "سـارع، وكمـن لهم، فقتل أكثرهم، وأسر جميع مُقدَّميهم، ولم يفلت منهم إلاَّ مَنْ هُو مُثخن بالجرَّاح"[1].

ولكن علاقة حمص العسكريَّة بالفرنج لم تصل إلى مداها إلاَّ زمن المُجاهد بن ناصر الدِّين، الذي كانت أوَّل أعماله الحَرْبيَّة ضدَّ الفرنج عام 586 هـ 1190م، بمُشاركته في ملحمة عكَّـا؛ حيـثُ كان أوَّل المُلبِّين لطلب صلاح الدِّين بالقُدُوم مع النجدات. فقد قـال العـماد: "ولمَّـا انقضى الشتاء، وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الإسلاميَّة من البلاد. فكان أوَّل مَنْ وصـل الملـك المُجاهد أسد الدِّين شيركوه صاحب حمص"[2].

وعندما يتوقَّف القتال على عكَّا في الشتاء كان المُجاهد يعود إلى حمص، كَكُلِّ الأُمراء والمُلُوك المُشاركين؛ حيثُ لا يبقى مُرابطاً عليها إلاَّ السُّلطان صلاح الدِّين وجيشه.

فاستغلَّ المُجاهد فُرصة وُجُوده في حمص عام 587 هـ 1191م، وأغار على أراضي طـرابلس، "واستاق منها شيئاً كثيراً من الخُيُول والأبقار والأغنام، وظفروا بخلق كثير من الفرنج، فقتلوهم"[3]. وأرسل يُعلم السُّلطان صلاح الدِّين بغارته،وبظفره[4]. وكان المُجاهد يعود إلى عكَّا في موعد القتال، ولم يتخلَّف عنها حتَّى تمَّ الصُّلح، بعد إخفاق حملة أباطرة أُورُبة العظـام عـلى الـشَّرق؛ حيثُ انحصرت مكاسبهم بالاستيلاء على عكَّا، وتوقيع صُـلح يـضمن للحُجَّـاج المـسيحيين حُرِّيَّـة الوُصُول للأماكن المُقدَّسة. "ومن هذه النتيجة الضئيلة تتَّضح شناعة الخاتمة التي حلَّت بها عُقـد عـلى تلك الحملة من آمال"[5]. وكان الملك المُجاهد واحـداً مـن المُلُـوك الـذين عقـدوا هـذا الـصُّلح مـع الفرنج، وحلفوا عليه عام 589 هـ 1193م[6].

---

1 - سنا البرق، البِنْداري، تحقيق: ششن، 275، والكامل، ابن الأثير، 11/ 448، وقد أكَّد رنسيمان هذه الواقعة. (A History of the Crusades , S. Runciman , p. 2 \ 679)

2 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 152.

3 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 12/ 363.

4 - الفَتْح القِسِّي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13 / 316 ـ 6057.

5 - تاريخ أُورُبة، العُصُور الوُسْطى، هـ. فيشر، ترجمة: مُصطفى زيادة، 187.

6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 87.

وفي عام 559 هـ 1164م، أرسل الملك المُجاهد[1] قُوَّات حمص لغزو الفرنج مع المنصُور صاحب حماة، فاجتمعت عليه قُوَّات الفرنجة من حصن الأكراد وطرابلس، والتقوا عند بعرين.

فانهزم الفرنج، وقُتِل وأُسِر منهم عَدَد كبير، ثُمَّ عاود الفرنج الهُجُوم على المنصُور ومعه قُوَّات حمص بعد عدَّة أيَّام، فتكرَّرت هزيمتهم[2]. وفي عام 601 هـ 1205م، عبر الفرنج نهر العاصي، وهاجموا أراضي حمص، فقتلوا، وأسروا، ثُمَّ تصدَّى لهم الملك المُجاهد، وطاردهم[3].

ولكن نهر العاصي الذي كان يرسم الحُدُود بين حمص ومناطق السيطرة الفرنجيَّة لم يكن ليبعد عن حمص أكثر من 5 كم، وهذا ما جعل منها مدينة حُدُودية مُقاتلة، وانعكس ذلك على الكثير من أُمُورها الدَّاخليَّة. كما أن هذه الإغارة الخاطفة للفرنجة شكَّلت قلقاً كبيراً لمملكة حمص، وربَّما عدها المُجاهد مُقدِّمة لأعمال عسكريَّة أكبر، فطلب الدعم من الملك العادل في مصر، فوعد بحُضُوره مع جيشه إلى الشَّام[4].

وفي عام 603 هـ 1207م "نزلت الفرنج على حمص"[5]. ويبدو من الخبر أنَّهم كانوا ينوون حصارها، والاستيلاء عليها. وكان يقود هُجُوم الفرنجة فُرسان الاسبتاريَّة، بعد أن حصلوا على نجدات من عكَّا، ومن قُبرُص[6]. وأمام هذا الهُجُوم الكبير طلب المُجاهد المُساعدة من صاحب حلب الظَّاهر غازي، الذي أرسل نجدة بقيادة المبارز يُوسُف بن خطلج، فتمكَّن المُجاهد من الصُّمُود لهُجُوم الفرنج؛ حيثُ جرت بينهما معركة غير حاسمة، انسحب على إثرها الفرنج[7].

ولكنَّهم عاودوا هُجُومهم على حمص عام 604 هـ 1208م، بعد أن وصلت أعداد كبيرة منهم إلى طرابلس وحصن الأكراد، فشنُّوا الغارات على أطراف حمص، ثُمَّ هاجموا المدينة نفسها

---

1 - وَهِمَ د. عُمر تدمُري؛ حيثُ ذكر أنَّه " الأمجد صاحب حمص" دراسات في تاريخ الساحل الشَّامي: تاريخ طرابلس السِّياسي والحضاري عبر العُصُور، 1/ 360.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 46.

4 ـ المنصُوري، ابن نظيف، 46.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 57، و البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 50، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 601 ـ 610 / 50.

6 - الاسبتاريَّة، سميث، 144.

7 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 192.

بجُمُوع غفيرة، يقودها ـ كالعادة ـ فُرسان الاسبتاريَّة[1]. فاستنجد المُجاهد بمُلُوك الشَّام وبالعادل في مصر، فلم يُنجده سوى الظَّاهر صاحب حلب، الذي وصلت نجدته إلى حمص في الوقت المُناسب، وساعدت على المُقاومة، حتَّى رحل الفرنج[2].

ويبدو أن بُعْد المسافة وبُطء الاستعدادات هي ما أخَّر العادل عن نجدة حمص. فقد وصل بعد رحيل الفرنج، ونزل بقُوَّاته عند بُحيرة حمص، وطلب المَدَد من مُلُوك الجزيرة، ثُمَّ دخل بلاد الفرنج مُتَّجهاً صوب طرابلس عبر وادي البقيعة، فاستولى على القليعات، وعاد بسبب دُخُول الشتاء[3].

وتكرَّر هُجُوم الفرنج على حمص للعام الثَّالث على التوالي، ففي عام **605** هـ **1209**م، توجَّهوا نحوها بخُطَّة جديدة، تُؤمِّن لهم التملُّص من مخافر الحراسة الأمامية على مخاوض العاصي، فقد صنعوا جسراً خشبياً، وحملوه مُفكَّكاً على الجمال، وعبروا عليه العاصي، من إحدى المناطق غير المحروسة. وكانوا يأملون تحقيق مُفاجأة، تُتيح لهم دُخُول حمص، وبالفعل؛ مكَّنتْهُم المُفاجأة من الوُصُول إلى باب تدمر[4]. ووُصُولهم إلى هذا الباب الواقع في الطرف الشمالي لسُور حمص الشرقي يدلُّ على أن الفرنج قد تعمَّدوا تجنُّب الأبواب المُتَّجهة نحو حُدُودهم، أو الأقرب إليها، واختاروا الباب الأبعد. ويبدو أن هذا جُزءاً من الخُطَّة، فالأبواب الغَرْبيَّة قد تكون الحراسة عليها أشدّ، والحذر عند حُرَّاسها أكبر، ولذلك قدَّر الفرنج أن باب تدمر المُتَّجه نحو البادية سيكون أقلّ حراسة، وَحَرَسُهُ أقلّ حذراً. وهذا ما يُؤكِّد اعتمادهم المُطلق على عُنصُر المُفاجأة. وللوُصُول إلى باب تدمر كان عليهم الالتفاف حول المدينة بقوس كبيرة للوُصُول إلى طرفها الشرقي.

ولكن كلَّ ذلك باء بالفشل، فقد انتبه لهم الحَرَسُ، وقاوموهم، فهربوا. وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا قُوَّة كبيرة، واتَّجهوا جنوباً صوب بُحيرة حمص[5]. ولعودتهم بهذا الاتِّجاه نُرجِّح أنَّه كان طريق قُدُومهم أيضاً. وقد تركوا الجسر وكلّ المعدَّات وراءهم، وَقَتَلَ جُندُ حمص منهم أعداداً كبيرة،

---

1 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 273.

2 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 273، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 54، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 601 ـ 610 / 50.

3 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 273. ـ القليعات: حصن قريب من الساحل شمال طرابلس، راجعْ: الكامل، ابن الأثير، 9/ 297.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 67، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 57.

5 - ذكر أبو شامة: "فهربوا عن طريق القُدْس". (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 67)، والأصحّ عن طريق قَدَس، وقَدَس اسم لبُحيرة حمص.

وغنموا غنائم كثيرة[1]. ويدلُّنا تتابع هجمات الفرنجة على حمص على توالي قُدُوم الإمدادات إليهم من البحر، وتدفُّق الرجال الذين يُريد كلّ منهم أن يـنجح حيـثُ فـشل الآخـرون، وأن يُحقّـق مكاسـب وانتصارات، وحمص هي الهدف الأوّل. وبالمُقابل؛ فإن نجاح الملك المُجاهد بالتصدِّي لهذه الهجمات جعله بطلاً شعبياً، يثق الناسُ بقُدرته وشجاعته، ففي عام 614 هـ 1217م، عندما بلغ الخوف أشدَّه بأهل دمشق لتوقُّع هُجُوم الفرنج، لم يُهَدِّئ روعَهم إلاَّ وُصُول المُجاهد بقُوَّاته ودُخُوله دمشق[2].

وبعد يأس الفرنج من تحقيق أيِّ مكاسب على الأرض في الشَّام توجَّهوا نحو مصر، وهاجموا دمياطَ، فاستنفر الملكُ الكاملُ قُوَّاته في مُواجهتهم، وطلب من الملك المُجاهد الهُجُوم على معاقلهم في الشَّام لتخفيف الضغط عن مصر[3]. ولكنْ؛ بعد دُخُول الفرنج دمياط، تغيَّرت خُطَّةُ الكامل، وطلب من كلِّ مُلُوك الشَّام نجدته بقُوَّاتهم لخُطُورة الموقف، فوصل الملك المُجاهد مع جيشه إلى مصر، عام 618 هـ 1221م، "وسكن المنصُورة إلى انقضاء الغُزاة"[4]، ودعم السُّلطان الكامل بقُوَّاته "وقاتل معه حول دمياط، حتَّى أُخذت"[5]. وعندما استسلم الفرنج في دمياط، تقرَّر الصُّلح على شُرُوط، "وكان المُقرِّر لهذا الصُّلح الملك المُجاهد شيركوه باتِّفاق المُلُوك"[6].

ووقَّع الصُّلح نيابة عن المُسلمين. وفي مجلس الصُّلح، "جلس السُّلطان في خيمته، وحضر عنده المُلُوك، فكان على يمين السُّلطان صاحب حمص الملك المُجاهد، ودُونه الملك الأشرف شاه أرمن، ودُونه الملك المُعظَّم عيسى، ودُونه صاحب حماة، ودُونه الحافظ صاحب جعبر.. ثُمَّ مُقدَّمو النجدات.. وكان على يساره نائب البابا، وصاحب عكَّا، وصاحب قبرص، وصاحب طرابلس، وصاحب صيدا، وعشرون من الكنود، ومُقدَّم الدَّاويَة، ومُقدَّم الاسبتار"[7].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 67، و البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 57.
2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 83، و تاريخ الإسلام، الذهبي، 611 ـ 620/ 16.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 460.
4 - ترويح القُلُوب، الزبيدي، 37، الغُزاة: هكذا وردت، ويقصد الغزو.
5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 92.
7 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 611 ـ 620/ 27.

ويدلُّنا التقديم الذي حظي به المُجاهد في جلسة الصُّلح، حتَّى على المُلُوك أخوة السُّلطان، ليس على مكانة المُجاهد فقط، بل على أهمِّيَّة دوره في التّصدِّي للفرنج بشكل عامٍّ، وفي معركة دمياط بشكل خاصٍّ.

وعندما خلف الملك المنصُور إبراهيم بن المُجاهد والده في مملكة حمص، تابع خُطاه في التّصدِّي للفرنج، وكانت تأتيه النجدات من جيش دمشق، فيضمّهم إلى جيشه، ويدخل بلاد الفرنج للإغارة[1]. وفي عام 640 هـ 1243م، بعد أن هزم الخَوَارزميَّة في الجزيرة، "سار المنصُور ومعه جماعة من عَسْكَر حلب قاصداً بلاد الفرنج للإغارة عليهم من جهة طرابلس"[2]، فهل هُو واجب الجهاد الذي لا يشغل مُلُوك الأَسَديَّة عنه شيء؟! أم أن الإغارات على الفرنج غدت نوعاً من العمل الدوري؟! ورُبَّما كانا الأمرَيْن كلَيْهما.

العلاقات العسكريَّة بين حمص والفرنج بعد غزو التَّتار:

بعد معركة عَيْن جالُوت عاد الأشرف مُوسى إلى عاصمة مُلكه حمص، ولكنْ؛ كنائب لسُلطان المماليك في مصر. ورُبَّما تأكَّد للفرنج في هذه المرحلة أنَّهم لا يُمكن أن يخوضوا حُرُوباً ضدَّ المُسلمين مُنفردين، لذلك استغلُّوا فُرصة هُجُوم المغول الثَّاني على الشَّام عام 659 هـ 1261م؛ حيثُ سارع الاسبتاريَّة بتقديم العون لهم، وعَدوُّهم حُلفاء طالما أن العدوّ واحد. وكانت مُساعدة الاسبتاريَّة بفرقة فُرسان انضمَّت إلى الجيش المغولي[3]، وخاضت معه معركة حمص، التي تصدَّى فيها الأشرف مُوسى لقُوَّات هذا التحالف، وألحق بهم هزيمة مُنكرة[4]. وبعدها مُباشرة؛ شارك الأشرف مُوسى بقُوَّاته في حملة الظَّاهر بيبرس على معاقل الفرنجة في الساحل الشَّامي[5]. وفي عام 660 هـ 1262م، أوعز السُّلطان بيبرس لجُيُوش الشَّام بالإغارة على أنطاكية، فخرجت جُيُوش حلب وحماة وجيش حمص بقيادة الأشرف مُوسى[6]. فساروا إليها، وهاجوها، وتمكَّنوا من أَخْذ الميناء

1- زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 504.
2- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 311.
3- الاسبتاريَّة، سميث، 189.
4- راجعْ تفاصيل هذه المعركة في ص 95 من هذا الكتاب.
5- النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 153.
6- المُختصر، أبو الفداء، 3/ 214.

"السويدية"[1]. ففتحوا حواصله، وأحرقوا المراكب الراسية فيه[2]، وأسروا أكثر من ثلاثمائة أسير[3]. وعادوا سالمين، فأرسل الظَّاهر بيبرس ـ على إثرها ـ الهدايا الكثيرة إلى الأشرف مُوسى[4]. ومع كُلِّ مظاهر الضعف التي اعترت الفرنجة في بلاد الشَّام في بدايات العصر المملوكي، فإنَّنا نجد أنَّهم لم يتخلّوا عن حُلمهم القديم باحتلال حمص. ففي عام 664 هـ 1266م، قام بُوهمند أمير طرابلس بالهُجُوم على حمص، وحاول أن يعبر إليها عبر مخاضة بلالة، لكنَّ واليها المملوكي عَلَم الدِّين الباشقردي عرف بتحرُّكه، وسبقه إلى المخاضة، فحماها، وحاول بُوهمند العُدُول إلى غيرها، فتبعه عَلَمُ الدِّين، فانهزم هارباً[5].

أُسرة حماة الأيُّوبيَّة

1. المُظفَّر تقي الدِّين عُمر: 357. 587 هـ 1178. 1191م.

2. المنصُور مُحمَّد: 587. 617 هـ 1191. 1220م.

3. النَّاصر قليج ارسلان بن مُحمَّد: 761. 626 هـ 1220. 1229م.

4. المُظفَّر محمود بن مُحمَّد: 626. 641 هـ 1229. 1244م.

5. المنصُور مُحمَّد بن محمود: 164. 683 هـ 1244. 1284م.

6. المُظفَّر محمود بن مُحمَّد: 368. 697 هـ 1284. 1298م.

---

1 - السويدية: بلدة عند مصب نهر العاصي، تبعد 18 كم جنوب غرب أنطاكية، أسَّسها سلوقس نيكاتور، وسمَّاها سلوقيا على اسمه، أُعيد إعمارها في العصر العبَّاسي، ثُمَّ احتلَّها الفرنج، واهتمُّوا بها، وجعلوها مرفأً لأنطاكية. وقد سُلِخَتْ عن سُورية ضمن لواء إسكندرون أثناء الانتداب الفرنسي.

2 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 132.

3 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 332.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 472.

5 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 245، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 447.

أُسرة حلب الأيُّوبيَّة:

1. العادل ابو بكر بن أيُّوب: 579. 582 هـ 1183. 1186م.

2. الظَّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدِّين: 582. 613 هـ 1186. 1216م.

3. العزيز مُحمَّد بن غازي: 613. 633 هـ 1216. 1236م.

4. يُوسُف بن مُحمَّد النَّاصر صلاح الدِّين الثَّاني: 633. 658 هـ 1236. 1260م.

أُسرة حمص الأَسَديَّة:

1. أسد الدِّين شيركوه: ت 564 هـ 1169م.

2. ناصر الدِّين مُحمَّد: ت 581 هـ 1185م.

3. المُجاهد أسد الدِّين شيركوه الثَّاني:956. 637 هـ 4117. 1240م.

4. المنصُور إبراهيم: 600. 622 هـ 1204. 1246م.

5. الأشرف مُوسى: 762. 662 هـ 1230. 1263م.

الفصل الرَّابع

دور الجيش في العلاقات العسكريَّة الدّوليَّة

المبحث الأوَّل:

نظام الإقطاع العسكري ودوره في العلاقات العسكريَّة

ورثت الدولة الأيُّوبيَّة نظام الإقطاع الزراعي العسكري[1] عن نظام الإقطاع في دولة الأتابكة الزنكيين، الذي هُو تطوير لـنُظُم الإقطاع السلجوقية، فبدايات نظام الإقطاع الأيُّوبي نجدها في تنظيمات نُور الدِّين بن زنكي، الذي كان يُقطع أمراءَهُ وأتباعَهُ البُلدانَ والأراضي التي تضمُّها دولته، مُقابل أن يُساهم كُلٌّ منهم بقدر معلوم من الفُرسان والجُنُود حين الحاجة، وكانت عوائد الزراعة في هذا النظام هي بدل رواتب الجُند، وكان نُور الدِّين إذا أَقْطَعَ أميراً إقطاعاً قرَّر عليه رجالاً ذوي عدد مُحدَّد بخيلهم وسلاحهم[2]، ومُنذُ أن طبق نُور الدِّين نظام الإقطاع الزراعي العسكري، جعل الإقطاع وراثياً[3]؛ حيثُ ينتقل الإقطاع إلى الابن الأكبر، فيتولَّى إقطاع أبيه، ويتعهَّد بتقديم ما يتوجَّب عليه من المُقاتلين، وقد ضمَّت سجلات الإقطاع كُلَّ ما هُو مُقرَّر على المُقطع من الرجال والسلاح[4]، ويُذكَر أن أسد الدِّين شيركوه عندما تولَّى إقطاع حمص كان عليه تقديم خمسمائة جُندي للقتال في جيش نُور الدِّين[5].

وكان المُقطع مسؤولاً عن زراعة الأرض، وريِّها، وعمارة الجُسُور[6]، وجباية الخراج[7].

---

1 - راجعْ تعريف نظام الإقطاع في: صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 104 ـ 117.

2 - سنا البرق، البنْداري، تحقيق: نبراوي، 64.

3 - الباهر، ابن الأثير، 308.

4 - الباهر، ابن الأثير، 308، والروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 219.

5 - الشَّرق الأدنى، الباز العريني، 155.

6 - الجُسُور: هي السُّدُود، يقول ابن مماتي: "هي الحابسة للمياه على أرض بلادها إلى حين استحقاق الزراعة". (قوانين الدواوين، ابن مماتي، 276)، وحول الجُسُور انظرْ: صُبح الأعشى، القلقشندي، 3/ 444، والتُّحفة المُلُوكية، الماوردي، 133.

7 - قوانين الدواوين، ابن مماتي، 276.

وقد كانت وثيقة الإقطاع في ذلك العصر تأمر المُقطع "بالمُحافظة على الإقطاع، وعمارته، وحُسن إدارته"[1].

ومن الجدير بالذِّكْر أن الجيش الأيُّوبي لم يعتمد ـ بشكل مُطلق ـ على الجُنُود الإقطاعيين، فقد كان لكُلِّ ملك أو أمير جُنُود مُتطوِّعة لهم جامكيات؛ أيْ رواتب، وينتظمون في جرائد الأجناد، التي تضمُّ أسماء هؤلاء الجُنُود، ومقدار رواتبهم[2].

أمَّا مَنْ لم يردْ اسمه في جرائد الجُند؛ فقد اشتهروا باسم البطَّالين، وكانوا يحصلون على أرزاقهم بشكل أُعطيات، أو من الغنائم، ويُستخدمون حين الحاجة إليهم[3].

وقد سعت الدولة الأيُّوبيَّة، وقبلها الأتابكة، لتكريس الاقتصاد الزراعي، الذي هُو عماد اقتصاد البلاد، ليكون بواسطة الإقطاع العسكري اقتصاد حرب مُوجَّه لخدمة الآلة العسكريَّة، ولكن هذا النظام تسبَّب في تأخُّر الزراعة، وظُلم الفلاحين، وتشغيلهم بالسُّخرة[4]، وبالكاد كان يقوم بأود المُتطلَّبات المُتزايدة لآلة الحَرْب. ممَّا جعل المُلُوك الأيُّوبيَّة يزيدون ـ باضطراد ـ اعتمادهم على عائدات التبادل التِّجاري عبر أراضيهم، بل والمُتاجرة، وحتَّى احتكار التجارة في كثير من الأحيان[5].

إضافة إلى ذلك؛ فقد ساهم نظام الإقطاع العسكري في تكوين طبقة أرستقراطية عسكريَّة تحكم مُجتمعاً هي غريبة عنه، وبفضل الإقطاع؛ أصبح لها كُلّ الحُقُوق عليه، وعندما تقوم ببعض الواجبات يتغنَّى بها الشُّعراء على أنَّها منَّة وفضل من الحاكم إلى رعيَّته.

ولم يقتصر نظام الإقطاع العسكري على الجانب المُسلم في عصر الحُرُوب مع الفرنجة، بل كان هُو النظام السَّائد في الممالك والإمارات الفرنجيَّة، وقد طبَّقوا نظامهم الإقطاعي الأُورُبي كما هُو في المناطق التي احتلُّوها في الشَّرْق العَرَبي.

---

1 - انظرْ "وثيقة عهد الإقطاع" في : صُبح الأعشى، القلقشندي، 11/ 124.

2 - الروضتَيْن، أبو شامة1، 219

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 196

4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 212

5 - بعد السُّلطان صلاح الدِّين لا يُوجد ملك أيُّوبي إلاَّ واستغل التجارة، بدءاً من الملك العادل، (راجعْ حادثة التاجر كليام الجنوي في مبحث العلاقات مع جنوة في هذا الكتاب) وابن عمه الملك المُجاهد. (راجعْ: تاريخ الإسلام، الذهبي، 631ـ 640 / 307)

فالقرن العاشر الميلادي شهد ذروة ازدهار النظام الإقطاعي في أُورُبا، ويُقال إنَّه كان سبب نُشُوء قوانين الفُرُوسية، وعلاقة الفارس السَّيِّد بأتباعه، وأن هذه القوانين هي التي ألهبت الحماس للتبشير بالحملات الصَّليبيَّة، والقيام بحرب مُقدَّسة ضدَّ المُسلمين[1].

انعكاس نظام الإقطاع على فاعلية الجيش:

مع أن نظام الإقطاع العسكري كان سائداً لدى كلِّ الجُيُوش في المنطقة، خلال العصر الأيُّوبي، لكنْ؛ على ما يبدو كانت مُعاناة الأيُّوبيِّيْن من مُشكلات هذا النظام وانعكاسها سلباً على قُوَّة جُيُوشهم هي الأشدّ أثراً بين جُيُوش الحُلفاء، أو الأعداء في المنطقة.

فقد كانت الجُيُوش الأيُّوبيَّة لا يلتئم شملها إلاَّ في أوقات الفراغ من الأعمال الزراعية الأساسية، كالفلاحة في أوائل الشتاء، وجني المحاصيل في أواخر الربيع. وكان من المُحتَّم في أوقات قد تكون حرجة عسكريَّاً تسريح القُوَّات الإقطاعية لتعود إلى بلادها لمُباشرة أعمالها الزراعية، التي لا تُؤجَّل، فكانت من أكبر الميِّزات السلبية للجُيُوش الأيُّوبيَّة عدم قُدرتها على تعبئة طويلة الأمد، كما أن جمع العساكر بعد تسريحها يحتاج إلى وقت وإلى خبرة ونظام بالغَيْ الدقَّة، وهُو ما لم يكن مُتوفِّراً في مُعظم الحالات.

وقد اضطرَّ كثير من القادة العسكريين الأيُّوبيِّيْن للقبول بشُرُوط مُعاهدات لا تتناسب مع تفوُّقهم العسكري على الفرنج، ولكن ضغط الأُمراء الإقطاعيين لإنهاء الحَرْب للتفرُّغ لأعمالهم الزراعية كان أقوى من أن يحتمله أيُّ قائد أيُّوبي. إضافة إلى أن اهتمامات الأُمراء بإقطاعاتهم كانت أعظم من اهتمامات الجُنُود، فوُجُود المُقطع في إقطاعه من ضرورات تثبيت مُلكيَّته.

فكانت الجُيُوش الأيُّوبيَّة مُجبرة على التفرُّق في نهاية، أو بداية، المواسم الزراعية، ولم يكن في مقدور الفرنجة تحقيق نصر في معركة أكبر بكثير ممَّا يُمكن أن يُحقِّقه لهم مثل هذا الوضع[2].

---

1 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 9/ 11 - بينما يعتقد كلود كاهن أن ظُهُور نظام الفُرُوسيَّة، وما ترتَّب عليه من حفْظ الدوابِّ وصيانة السلاح التي كانت تُكلِّف غالياً، هي التي سبَّبت ظُهُور نظام الإقطاع (الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 88).

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 127.

كان الفرنجة ـ على الدوام ـ يحرصون على إبقاء الفلاحين من أهل البلاد كعُمّال زراعيين بالمُحاصصة، حتَّى لا يشغلوا جُنُودهم بالأرض، فالجُندي عندما يُمنَح قطعة أرض مُقابل خدماته العسكريَّة سُرعان ما تطغى مصالحه الزراعية على اهتماماته العسكريَّة[1]، وإذْ لم يعتمد الفرنجة نظام الإقطاع بشكل واسع للجُنُود، فقد اعتمدوه كُلِّيّاً للأمراء والنُّبلاء، الذين كانوا يُبرِّرون عدم قيامهم بالحملات شتاء بسبب عدم صلاحية الأرض للتحرُّك، وأن أيَّ حملة عسكريَّة في الشتاء لا تكون لها نتائج مُهمَّة[2].

ولكنْ؛ هُناك حقيقة أُخرى عن سبب تجنُّب الفرنجة للقتال شتاء، وهي أن الحُجَّاج المُقاتلين كانوا يفدون إلى ساحل الشَّام مع الربيع، حين ينفتح البحر للملاحة، ويُغادرون مع الخريف، ولذلك كان وقت الصيف هُو المُلائم للجميع لتنفيذ أغراضهم العسكريَّة، وهُو أمر ناسب الطرفَيْن المُتصارعَيْن، ولم يخرجا عنه إلاَّ في الحملات الكُبْرَى.

The English ecclesiastical tenants in chief and knight service, Chew, p.326 - 1

The Historical Geography of the Holy Land, Smith, p. 423 - 2

المبحث الثّاني:

الجيش الأيّوبي

كانت الجُيُوش الأيُّوبيَّة تتشكَّل من خليط عجيب من الجنسيات والأعراق، وهي أكثر اختلاطاً من الجُيُوش السلجوقية، التي كان مُعظم قوامها من الأتراك، ورُبَّما كان ذلك بسبب انتماء قادة الجُيُوش الأيُّوبيَّة إلى أرستقراطية عسكريَّة مُختلفة الأُصُول[1].

ومع ذلك؛ كانت هذه الجُيُوش تتمتَّع بتماسك جيِّد، فقد أوجد القادةُ الأيُّوبيُّون وسائلَ ناجحةً للسيطرة والتحكُّم بهذه المجموعات وقت الحَرْب، خاصَّة في عهد السلاطين الأقوياء، مثل صلاح الدِّين وأخيه العادل؛ حيثُ كان كبار أُمراء العَسْكَر، من المُلُوك أو الأُمراء أصحاب الإقطاعات، يقودون ـ بشكل مُباشر ـ جُنُودهم المُشكَّلين في إقطاعهم، إضافة إلى جُنُود الحلقة، وهم أصحاب الرواتب المُتواجدون تحت السلاح بشكل دائم، وهُم ـ غالباً ـ الحَرَسُ الخاصُّ للملك، أو الأمير[2]. أمَّا السُّلطان أو القائد العامُّ؛ فله حلقته الخاصَّة من الجُند، إضافة إلى المماليك الخاصَّة المُدرَّبين والمُعدِّين للقتال، والذين لم يقتصر وُجُودهم على السُّلطان والمُلُوك والأُمراء، بل تعدَّى ذلك إلى الفُرسان والجُنُود الإقطاعيين، وحين يصف العمادُ الأصفهاني جيشَ الملك العزيز بن السُّلطان صلاح الدِّين صاحب مصر، يقول: "تجهَّز الملك العزيز، وخرج في عسكر لا يُوصَف في قُوَّته وكَثْرَته، وحُسْن عُدَّته، وكثرة خيله، حتَّى إن الجُندي يكون معه عشرة مماليك تُرك"[3].

رُبَّما كانت الصُّعُوبات المُتزايدة للنظام العسكري الإقطاعي، وصُعُوبة جَمْع العَسْكَر الإقطاعية وقت الحاجة، وعدم تواجدهم تحت السلاح طيلة الوقت، هُو ما دفع بالمُلُوك والأُمراء الأيُّوبيَّة لزيادة اعتمادهم على المماليك، فأضحوا القُوَّة الأكثر تنظيماً في الجُيُوش الأيُّوبيَّة، وغدا منهم أُمراء الجُند

---

1 - كان القادة الأيُّوبيُّون ينتمون إلى أُصُول مُتباينة، تمتدُّ من آسيا إلى أُورُوبة وأفريقية. (تاريخ الشُّعُوب العَرَبيَّة، ألبرت حوراني، 165).

2 - راجعْ شرح الحلقة في: الشَّرق الأدنى، أيُّوبيون، السَّيِّد الباز العريني، 225.

3 - البُستان الجامع، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 391.

والقادة، وذلك لتدريبهم العالي، وانضباطهم العسكري، حتَّى أصبحوا عماد الجيش، وجمرة قُوَّاته، وآل بهم الأمر إلى أن تولّوا السَّلطنة في نهاية المطاف[1].

وإذا عرفنا أن الجُندي في الجيش الأيُّوبي كان إقطاعه عشرة آلاف دينار، فإنَّنا نُدرك أنَّه يستطيع امتلاك عشرة مماليك، وأنَّه قادر على النفقة المُترتِّبة على وُجُودهم عنده. وقد شهدت الجُيُوش الأيُّوبيَّة قفزات كُبْرَى في احتوائها على المماليك مع السلاطين والمُلُوك المُتأخِّرين، حتَّى شكَّلوا مُعظم قوام هذه الجُيُوش وقُوَّتها الضاربة.

المُتطوِّعة:

إضافة إلى الجُند الإقطاعيين والمماليك وجُنُود الحلقة كان يتمُّ تطويع عدد من الراغبين في الخدمة العسكريَّة المأجورة في صُفُوف الجيش، وغالباً كان هؤلاء من أُصُول قبلية، تُركمان، أو أتراك، أو بدو، يمتهنون القتالَ بالأجرة. علماً أن أصل المُتطوِّعة هُم المُقاتلون المُتطوِّعون للقتال ضدَّ أعداء الدِّين احتساباً وتلبية لفريضة الجهاد، دُون أن يتقاضوا على ذلك أيَّ أجر. واستمرَّ توافد المُتطوِّعة من المُجاهدين على الجُيُوش الأيُّوبيَّة أثناء قتالها للفرنج والتَّتار بشكل دائم لم ينقطع، حتَّى إن أعداداً كبيرة منهم كانت من خارج الشَّام، بل وكان قسم كبير منهم من أقاصي المغرب العَرَبي.

لكنْ؛ فيما بعد، اعتمد نظام المُتطوِّعة على مَنْ يتطوَّع بأجر، وهُو أجر مُجز كان يُشجِّع على الدوام أعداداً مُتزايدة للعمل كمُتطوِّعة في الجيش، وهُم ـ غالباً ـ مُتطوِّعة موسميُّون للمُشاركة في حملة، أو للتصدِّي لخطر. وكان التطويع يتمُّ لأفراد، ولجماعات، فقد ذُكِرَ أن جماعة من التُّركمان تزيد عن سبعين ألف مُقاتل قد تطوَّعت[2]، وغالباً؛ ما كان لهذه الجماعات عندما تكون كبيرة قائد، أو مُقدَّم منهم[3]، والتطوُّع مهنة رابحة، ليس بالراتب فقط، بل هُناك الغنائم، والفُرص الدائمة للارتقاء والشُّهرة، لكونهم قُرب القادة والحُكَّام في الجيش.

---

1 - راجعْ مبحث المماليك في هذا الكتاب.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331.
3 - كنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 350.

أمّا الانقسام الأكبر في الجُيُوش الأيُّوبيَّة؛ فقد كان عرْقياً، فمع أن الإسلام كان يُوحِّد بين الغالبية العُظْمَى إنْ لم نقل كامل المُقاتلين في تلك الجُيُوش، لكنَّ الانتماء العرْقي كان مُتبايناً جدّاً، فالمماليك كانوا من مُختلف أصقاع الدُّنيا، إضافة إلى مجموعات عرْقية كانت تُشكِّل قوى مُهمَّة ضمن الجُيُوش الأيُّوبيَّة، مثل: الأتراك، أو الأكراد، أو التُّركمان[1].

المُتطوِّعة الأجانب (المُرتزقة):

احترفت القتالَ، في العصر الأيُّوبي، مجموعاتٌ مُختلفة الأعراق والأديان، فقد كانت الحُرُوب تجذب إليها المُتطوِّعة كما تجذب النارُ الفراشَ، فهي عمل كُلِّ مَنْ لا عمل له، وبالتَّأكيد؛ كان كُلٌّ منهم لديه دوافع كافية للانخراط في المعارك، ولم يكن هذا غريباً، لا في جانب المُسلمين، ولا في جانب الفرنج، ففي الجانب الإسلامي؛ حيثُ لم ينعدم وُجُود مُتطوِّعة فرنج، ولكن بشكل أقلّ، بل، ورُبَّما نادر، وذلك لأن حرمان الكَنيسَة كان يطال كُلَّ فرنجي يُقاتل في صُفُوف المُسلمين، ومع أن فُرسان الفرنجة ورُماتهم قاتلوا كمُتطوِّعة في جُيُوش المُوحِّدين، لكنْ؛ ذلك ظلَّ استثنائياً في بلاد الشَّام[2].

وكذلك نجد أن مُتطوِّعة من الفرنجة يُقاتلون مع قُوَّات سلاجقة الرُّوم بشكل كثيف، حتَّى إنَّهم انفردوا في القتال بإحدى المعارك بعد إحجام جيش السُّلطان غياث الدِّين كيخسرو[3].

وهُناك إشارة إلى وُجُود مجموعة من الرُّماة الفرنج كانوا يعملون كمُرتزقة ضمن عسكر بلدة رأس عين، حين هاجمها الخَوَارزميَّة[4]، وهذه كُلُّها مواقع بعيدة عن ساحات المعارك في ساحل الشَّام، وهُو أمر طبيعي، فمُرتزقة الفرنج يتجنَّبون القتالَ ضدَّ بني قومهم، أو ضدَّ مسيحيِّيْ أُورُوبا بشكل عامٍّ، ولم يمنع ذلك من التجاء عدد من فُرسان الفرنج إلى جانب المُسلمين، وانضمامهم إليهم، لينجوا بأنفسهم من جحيم المعارك[5].

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 13/ 151، والأعلام والتبين، الحريري، 90.

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 224.

3 - مُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 439.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 705.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 446.

كما وُجدَتْ مجموعة من الفرنج استأمنوا إلى السُّلطان صلاح الدِّين، وطلبوا منه سُفُن وزوارق، فزوَّدهم بها، فأخذوا يُغيرون على سُفُن الفرنج في البحر المُتوسِّط، ووصلوا بغاراتهم حتَّى جزيرة قبرص، فقتلوا، وسلبوا، وعادوا إلى اللاذقية[1]، فكانوا حالة فريدة من المُرتزقة، يعملون لحسابهم الخاصّ كقراصنة، ولكنْ؛ في النتيجة، فإن هجماتهم تصبُّ في صالح المُسلمين.

ولا نستطيع هُنا أن نعدَّ بقايا جيش جلال الدِّين الخوارزمي، التي جعلت الشَّام مسرحاً لعمليَّاتها، من المُتطوِّعة، فقد عملت هذه الفرقة لحسابها الخاصّ، أو كحُلفاء لغيرهم من المُلُوك والأُمراء، لكنْ؛ مَنْ سلم منهم، بعد كسرتهم العُظْمَى عند بُحَيْرة حمص، وتشتُّت شملهم، تحوَّلوا إلى مُتطوِّعة في جُيُوش الإمارات والممالك من بغداد حتَّى القاهرة.

دور العامَّة في الجيش:

كانت العامَّة في العصر الأيُّوبي لا تُعدُّ من قوام القُوَّات العسكريَّة في شيء، مع أنَّه كان لهم أدوار عسكريَّة في معارك عديدة، فقد كانوا مصدر المُتطوِّعة للجهاد؛ حيثُ يُسمّون غُزاة، أو مُجاهدين، أو مُرابطين. وقد لا يكون للعامَّة دور فعَّال ضمن قطعات الجيش النِّظاميَّة، ولكنْ؛ على الدوام، كانوا يُسخَّرون للأعمال الداعمة للمجهود الحربي، وكانوا يُقاتلون بضراوة عند مُحاصرة مُدُنهم، بل كانوا يُساقون للتجنيد في حالات الخطر على شكل تعبئة عامَّة، كما فعل الملك الكامل بعد أَخْذ الفرنج لدمياط؛ "حيثُ كانت الفرنج تخاف من الحرافيش أكثر من العَسْكَر"[2]، فقد كان للعامَّة نكاية عظيمة في الفرنج، فقد قتلوا منهم الكثير، "وكانوا يتحيَّلون في خَطْفهم كُلَّ حيلة"[3].

ويبدو أن التطوُّع في الجيش الأيُّوبي كان من الأعمال التي تدعو إلى الفخر في ذلك العصر، فقد كان الجُنُود يُميِّزون أنفسهم، فيما عدا لباسهم الحربي الخاصّ، بإطالة الشارب، بينما كانت العامَّة والفُقهاء والكَتَبَةُ يحفُّون الشارب[4].

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 320.

2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 376.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 447.

4 - الفرج بعد الشدَّة، التنوخي، 2/ 253.

إقامة الجيش:

كانت القلاع والحُصُون والمُعسكرات هي مكـان إقامـة الجُيُوش النِّظاميَّـة، أو جُنُـود الحلقـة والمماليك المُقاتلة في أوقات السِّلْم، أمَّا في حالة التَّحرُّك والحَرْب؛ فقد كان الجُند يُقيمُـون مُعـسكرات مُتنقِّلة، تنتقى لها أمكنة مُناسبة، يتوفَّر فيها الماء والمرعى للخُيُول ودوابّ التحميـل والجَـرّ، والاتِّـساع وسُهُولة الأرض، ومن أشهر أمكنة المُعسكرات في بلاد الشَّام كان مرج الصّفر جنوب دمشق، ومـرج راهط شمال شرق دمشق، وسهل بُحَيْرة قَـدَس جنـوب حمـص، ومُجمَّـع المُـرُوج شـمال شرق حمـص، وغيرها كثير.

وكان ممَّا يُميِّز كلَّ مُعسكر هُو الخدمات المُلحقة به، وأهمّها الـسُّوق، ويـصف عبـد اللطيـف البغدادي السُّوق المُلحق بمُعسكر السُّلطان صلاح الدِّين على عكَّا، فيظهر كأنَّه مدينة، وليس سُوقاً في مدينة، فيقول: أنَّه كان للسُّوق شُحنة؛ أيْ رئيس، وكان به سبعة آلاف دُكَّان، كان منها مائة وأربعون دُكَّان بيطار، إلى أن يقول: "وعددتُ عند طبَّاخ واحـد ثمانيـاً وعـشرين قـدْراً، كُـلُّ قـدْر تـسع رأس غنم"، ويُتابع: "أمَّا سُوق البزّ؛ أيْ سُوق الأمتعة والأسلحة، فشيء يُبهر العقـل"، ثُـمَّ يقـول: "أنَّـه كان في سُوق المُعسكر أكثر من ألف حمَّام، ومُعظم مَنْ يتولاها المغاربة"[1].

وكذلك يشهد وليم الصُّوري بأهمِّيَّة دور مُتعهِّدي خدمـة الجـيش ونـشاطهم في مُعـسكرات المُسلمين، من باعة وحرفيين، وغيرهم[2].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 119.

2 - الشَّرق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 168.

A History of deed's done Beyond the sea, William of Tyre, P: 503و

المبحث الثَّالث:

جيش الفرنج

كانت جُيُوش الإمارات الفرنجيَّة في الشَّرْق تختلف بقوامها عن جُيُوش الحملات القادمة مُباشرة من أُورُبا، علماً أنَّهم غالباً ما كانوا يُقاتلون معاً، وكان جيش فرنجة الشَّرْق يعتمد على:

الفُرسان :

إن كلمة فارس في لُغات أُورُبا قد تعني رُتبة، فيكون صاحبها قد رُسِم بالسيف في رُتبة فارس، فانضمَّ ـ بشكل رسمي ـ إلى مُنظَّمة الفُرُوسية، التي تُقابل مُنظَّمة الفُتُوَّة العَرَبيَّة، ولكن الفارس قد لا يكون مرسوماً، ولكنَّه يُقاتل على فَرَس، ويملك سلاحاً حربيّاً كاملاً، يتوافق مع ثروته ومنزلته، وهُو خُوذة وسابغة ودرع من الفُولاذ وسيف ورمح وهراوة وغيرها، وله مجموعة من الأتباع تُرافقه وتدعمه في المعارك التي يخوضها[1]. ويتبع سلاح الفُرسان مجموعات أُخرى تُقاتل راكبة، منها:

آ. السرجندية:

لأن إعداد الفارس الثقيل كان مُكلفاً للغاية، فقد شجَّع ذلك على ظُهُور فرقة فُرسان[2] خفيفة التسليح نسبياً، أُطلق عليها اسم المُساعدين (sergeants)[3]، فالسرجندي هُو فارس خفيف مُساعد للفارس الثقيل[4]. وقد يكتفي السرجندية بالسيف والهراوة، وسوابغهم من الجلد، أو القماش المُبطَّن، وكذلك خُيُولهم أخفّ[5]. وكانوا وُفقاً لترتيب قتال الفرنجة يدعمون سلاح الفُرسان الثقيلة بالقتال أمامهم[6].

---

1 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 9/ 39.

2 - يُرجِّح سميل أن السرجندية كانوا مُشاة، وأنَّهم لا يُستَدْعون للخدمة إلاَّ أثناء الحملات الكبيرة. (فنُّ الحَرْب، سميل، 153)، ولكن الوقائع والإشارات التي أوردها المُؤرِّخون المُعاصرون لا تدعم وُجهة نظره.

3 - سبع معارك، جوزيف داهموس، 15.

4 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 3/ 335.

5 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 9/ 39.

6 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 8/ 502.

ب ـ التركبول:

بداية؛ يجب أن نُشير إلى أن هُناك خلافات كثيرة في الرأي بين المُؤرِّخين حول أُصُول هذه الفرقة، مع أن الجميع قد اتَّفقوا على طُرُق تسليحها وقتالها، فهي فرقة من الفُرسان الخفيفة[1]، يتبعون طُرُق القتال الإسلاميَّة، فيرمون بالقوس من الحَرَكَة[2]، ويُشكِّلون وحدات دعم خفيفة لقُوَّات الفرنجة[3]. ولكن الخلاف كان حول أُصُول هذه الفرقة، فقد قيل: إنَّها مزيج من الأقلِّيَّات، كالأرمن، والإغريق، ولذلك كان قائدهم يُسمَّى: تركبلير[4]، أو أنَّهم من أبناء الأتراك حصراً، بدلالة اسمهم التركبول[5]. وهُناك مَنْ يقول: إنَّهم من السريان والمُسلمين[6]. ولكن كلود كاهن يعترض على كلِّ هذه الآراء، فيقول: "لا يبدو أن ذلك صحيحاً، ففي الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة ـ خلال القرن الحادي عشر والقرن الثَّاني عشر ـ كان الجيش يستخدم التركوبولوا، والفرانكوبولوا، على نطاق واسع، ويتعلَّق الأمر ـ فيما يبدو ـ بأتراك تحوَّلوا إلى المَسيحيَّة، وبفرنجة مُرتزقة تزوَّجوا بيُونانيَّات"، وهذه الفرَق الأجنبية سيكون لها ـ فيما بعد ـ ما يُشابهها في فرقة الجاسمود لدى دولة اللاتين في القسطنطينيَّة، وهُم أبناء الزيجات المُختلطة بين اللاتين واليُونانيَّات، وفرقة الإيجديش[7]، وهُم من المُولَّدين الذين اعتنقوا الإسلام، ولا شكَّ بأنَّ التسمية تتعلَّق بأتراك اعتنقوا المَسيحيَّة الكاثوليكية، وتزوَّجوا بفرنجيات، ويبدو أنَّهم قلَّة، ولم يشغلوا سوى وظائف ثانوية[8].

الحُجَّاج المُقاتلون:

كان الحُجَّاج القادمون من أُورُبا يُشكِّلون المصدر الأهمَّ لدعم قوام الجُيُوش الفرنجيَّة في الشَّرق، وكانوا يتوافدون مع ربيع كلِّ عام من كلِّ أصقاع أُورُبة، مُستفيدين من الحسم الذي تمنحه السُّفُن الإيطالية بمُناسبة عيد الفصح لرُكَّاب الربيع: **Passangium Vernale**، القادمين للاحتفال

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 58.

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 181.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 222.

4 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، سُهيل زَكَّار، من الموسوعة الشاملة، 3/ 336.

5 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، 235.

6 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 58.

7 - الإجديش: غير الأصيل، ومنها قالت العامَّة عن الحصان غير المعروف نسبه: إكديش.

8 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 222.

في الأماكن المُقدَّسة، وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء الحُجَّاج يعتقدون أن حجَّهم لا يتمُّ دُون المُشاركة في الحَرْب المُقدَّسة ضدَّ المُسلمين، فينخرطون في حملات أُمراء فرنجة الساحل الشَّامي[1]، ومع أن مُشاركتهم كانت مُؤقَّتة، فقد كانوا يُشكِّلون القُوَّة المُتجدِّدة لجُيُوش الفرنجة في الشَّرْق، والدماء الجديدة التي تُضخُّ في عُرُوقهم[2]. ويجب عدم الاستهانة بأعداد الحُجَّاج القادمين من ما وراء البحار، ففي ما عدا الحملات الكُبْرَى القادمة بجُيُوش كاملة، كان الحُجَّاج الفُرادى والجماعات يتدفَّقون بشكل قوي ومُستمرٍّ، وهذا ما دعا الحريري ليقول في وصف تدفُّق الحُجَّاج: "ويأتي الفرنجة من البحر مراكب في عدد أمواجه، فإذا قَتَلَ المُسلمون أفرنجياً، أخلفَ البحرُ مكانَهُ ألفَ أفرنجي"[3].

علماً بأنَّ الفرنجة المحليُّون، البوليانز، كانوا لا يُرحِّبون كثيراً بحملات الحُجَّاج هذه، فهُم يشكُّون بنوايا الأُمراء القادمين من أُورُبا، ويعتقدون أنَّهم قدموا طامعين بتشكيل إمارات شرقية.

كما كانت حملات الحُجَّاج تُهدِّد اتِّفاقياتهم التِّجاريَّة مع المُسلمين، وتقضي على أرباحهم منها[4].

ولكنَّهم - في الوقت نفسه - كانوا يُدركُون - تماماً - أن وُجُودهم مُرتبط بتوارد الحملات، وبالدعم الأُورُبي لهم بالمال، والرجال. وبمُراجعة رسالة مُقدَّم الدَّاويَة في عكَّا إلى أُورُبا، بعد احتلال دمياط؛ حيثُ يقول: "إنَّنا مُتوقِّعون مُنْذُ وقت طويل وُصُول الإمبراطُور ونُبلاء آخرين، فبهم نأمل أن نتحرَّر، ولكنْ؛ إذا خابت آمالنا بشأن هذه المُساعدات، ولم تصل في الصيف المُقبل، سوف يكون وضع البلدَيْن؛ أيْ مصر وسُورية، وما تملَّكناه مُؤخَّراً، والذي نتملَّكه مُنْذُ وقت طويل، في موضع شكٍّ"[5]، نجد أن حملات الحُجَّاج برجالها ومالها هي سرُّ استمرار الإمارات الفرنجيَّة في الشَّرْق، وليس فقط قُوَّتها، وعُدوانيَّتها نحو جيرانها المُسلمين، حتَّى إنَّه يبدو - أحياناً - أن دور البوليانز أو فرنجة الشَّرْق كان يقتصر على الدلالة والتوجيه والمُشاركة الثانوية في الحملات الكُبْرَى والمُتوسِّطة، وهذا ما دفعهم - على الدوام - لتحمُّل صلف وعنجهية وجهل مُعظم القادة الأُورُبيين،

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 153.
2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 68.
3 - الأعلام والتبين، الحريري، 86.
4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 69.
5 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 45/ 786.

الذين يقدمون مع الحملات، كما كانت الحال مع الملك الإنكليزي ريتشادر في الحملة الثَّالثة، ومع نائب البابا الكاردينال بيلاجيوس في حملة دمياط الثَّانية.

طوائف الرُّهبان:

ارتبط العامل الدِّيني بالعلاقات العسكريَّة لفرنجة الشَّرق بشكل مُؤقَّت بواسطة حملات الحُجَّاج الموسمية، لكنَّ هذا العامل كان له رباط دائم بعلاقات الفرنج العسكريَّة بواسطة طوائف الرُّهبان المُقاتلين من داوية، واسبتارية، وتيوتون، وغيرهم[1]. فقد شكَّلت الأخويات الرُّهبانية جُزءاً مُهمّاً من قوام الجُيُوش الفرنجيَّة في الشَّرق، وأخذ دورها بالتعاظم مع الزمن، فامتلكوا المُقاطعات والقلاع، وحشدوا الجُيُوش، وعقدوا الاتِّفاقيات، وتحولت كلّ طائفة منهم إلى ما يُشبه الدولة، بعلاقاتها الدّاخليَّة والخارجية.

آ. الدَّاويَة:

أو فُرسان الهيكل، لأن جماعتهم أقامت ـ أوَّل الأمر ـ في هيكل سُلَيمان في القُدْس، فقد خرج من رُوما واحد من النُّبلاء الإيطاليين ومعه ثلاثون فارساً، وقد نذر مُساعدة ملك القُدْس بلدوين لمُدَّة ثلاث سنوات، ونتيجة لنجاحات هذا الفارس، طلب منه بلدوين أن يستمرَّ في خدمة المملكة، وأعطاه هيكل سُلَيمان للإقامة مع رجاله، ومنحهم بطريركُ القُدْس بعضَ الأوقاف، فقامت هذه الطائفة، بعد أن وُضع لها نظام خاصٌّ يقضي ألا يتزوَّجوا، وأن لا يتحمَّموا، وأن تكون مُلكيَّتهم جماعية. وفتحوا باب الانضمام لِمَنْ يرغب على أن ينزوي سنة كاملة في صومعة؛ ليُفكِّر؛ لأنَّهم سيقتلونه إذا ارتدَّ، وإذا وافق بعدها يلفُّونه بثوب أبيض، لا يرتدي معه أيَّ زينة سوى زنَّار فقط، ثُمَّ يُعاهد الرئيس على الطاعة المُطلقة[2].

ب. الاسبتاريَّة:

أو فُرسان المُستشفى، إذا كانت طائفة الدَّاويَة قد نشأت بمُبادرة أُورُبية، فإن طائفة الاسبتاريَّة قد نشأت بمُبادرة محلِّيَّة، بدأت برعاية الجرحى والمرضى، وقد تأسَّست هذه الفرقة عام 492 هـ 1099م، وكُرِّست في بداياتها لعلاج الجرحى والاهتمام بالحُجَّاج بشكل عامٍّ، ثُمَّ تحوَّلت إلى هيئة

---

1 -وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 45/ 864.

2 -روايات المُؤرِّخ ميخائيل السوري الكبير، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 5/ 87.

حربية دينيَّة، لها نُظُمها، وقوانينها[1]، وقد لعبت دوراً كبيراً هي والدَّاويَة في مُجمل حُرُوب الفرنجة مع المُسلمين.

ونتيجة لفتَن هاتَيْن المُؤَسَّستَيْن العسكريَّتَيْن الدِّينيَّتَيْن، ولأن مواردهم أصبحت أعلى من موارد النُّبلاء الإقطاعيين سادة البلاد، فقد حوَّلوا إليهم ملكية القلاع الرئيسية[2]، لأن صيانتها وتدعيمها يحتاجان لمبالغ طائلة، لذلك امتلكت الرُّهبانيات المُقاتلة قوى أكثر، وسُلطة أكبر من ما كان يملكه الأُمراء العلمانيون[3]. وكانوا لا يدينون بالولاء للملك أو للأمير المُتواجدَيْن على أرضه، ويعدُّون البابا مرجعهم الأعلى[4]، فكانت لهم حُرِّيَّة حَرَكَة كبيرة بأُمور خطيرة كالحرب، أو السلام[5]، حتَّى إنَّهم أقاموا علاقات دولية حقيقيَّة مع المالك الأيُّوبيَّة، فعقدوا معهم المُعاهدات والاتِّفاقيات، واقتسموا معهم الأراضي والنُّفُوذ والضرائب في مناطق المُناصفات[6]، ولذلك نجدهم يتكلَّمون العَرَبيَّة، ويتولّون الترجمة بها بين الفرنجة والأيُّوبيين[7].

ولكنْ ـ بالتدريج ـ أخذ ضَرَرُهُم للوُجُود الفرنجي في الشَّرْق يتزايد على نَفْعهم له، وظهرت مطامعهم، وخُصُوماتهم، التي بلغت حَدَّ الحَرْب فيما بينهم[8]، فدُعاة الفقر والتقشُّف والحرمان والطاعة تحوَّلوا إلى جماعات نَفْعية، قاتلوا من أجل الغنائم، وسلبوا، وتاجروا، ولم يتورَّعوا عن فعل أيِّ شيء في سبيل منافعهم الخاصَّة[9]. وبعد أن كانوا ـ في نظر المُسلمين، ألدَّ وأخطرَ الأعداء، لا يُفدى أسيرهم، ولا يُعفى عنه ـ أخذ العالم المسيحي ينظر إليهم بازدراء، وأطلقوا عليهم اسم: لُصُوص الفرنجة[10]، وردَّدوا في أُورُبا: آه من خيانة الدَّاويَة القديمة، آه من تحريض الاسبتاريَّة الدائم على الفتنة[11].

---

1 - لتفصيلات أكثر حول الاسبتاريَّة راجعْ كتاب: الاسبتاريَّة، جُوناثان رايلي سميث، تعريب: صُبحي الجابي.
2 - يعقد فيليب حتِّي مُقارنة لطيفة بين هذه الطوائف وطائفة الإسماعيليَّة لدى المُسلمين. (تاريخ سُورية ولُبنان، 2/ 252).
3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 223.
4 - رُبَّما لبُعْده عن الساحة، وليُبيحوا لأنفسهم أكبر قَدْر مُمكن من حُرِّيَّة التصُّرف وعدم الخُضُوع لأيِّ سُلطة سياسيَّة.
5 - الاسبتاريَّة، سميث، 139.
6 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 36 / 188.
7 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 36 / 168.
8 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 223.
9 - العَرَب والرُّوم، جوزيف نسيم يُوسُف، 90.
10 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 36 / 154.
11 - الاسبتاريَّة، سميث، 183.

كما أنّهم لم يكونوا بأقلّ وطأة بمُؤامراتهم وخيانتهم على الفرنجة أنفسهم، فإن ما اعتاد عليه الاسبتاريَّة من نقض للعُهُود، ومن جرائم ومخازي مع جيرانهم المُسلمين، جعلهم يتعاملون بالطريقة نفسها مع فرنجة الشّرق، فأضافوا إليهم تسمية أُخرى هي: "محراك النار"[1].

النساء في جيش الفرنجة:

كان للنساء مُساهمة فعّالة في جُيُوش فرنجة الشّرق؛ إذْ ساندنَ الرجال في نواح عديدة، فقد ذكر العماد الأصفهاني: أن نساء الفرنج كُنَّ يُقدِّمنَ أنفسهنَّ للمُقاتلين تقدمه دينيَّة بمُباركة رجال الدِّين[2]، ولكن الجانب المُهمَّ الذي انفردت به نساء الفرنج هُو المُشاركة الفعليَّة في القتال، حتّى إنَّه وقع منهنَّ قَتْلَى، كما أسر المُسلمون بعضهنَّ[3]، وكانت بعضهنَّ فوارس يُقاتلنَ على الجياد بالدُّرُوع، والسلاح الكامل، ولم يكن المُسلمون يُميِّزوهنَّ إلاَّ في حالة مَقتلهنَّ، وتعريتهنَّ من الدُّرُوع. إضافة إلى أن إحدى النساء النبيلات قدمت لتُشارك في الحَرْب المُقدَّسة وهي تقود خمسمائة فارس، "وهم يركبون برُكبانها"، أمّا العجائز؛ فقد امتلأت بهنَّ ساحات القتال، "وهُنَّ يُحرِّضنَ، وينخينَ، ويقلنَ إن الصليب لا يرضى إلاَّ بالإباء"[4].

المُرتزقة:

نظراً لمحدودية الثروة البشرية لدى الفرنج في الشّرق، وعدم قُدرتهم على تجنيد السُّكّان المحلّيّين، لقلَّة الثقة، أو لقلَّة الفائدة، فقد اضطرُّوا لقبول المُرتزقة كمُقاتلين في جُيُوشهم، فشكَّلوا فرقة من المُشاة الأرمن، وفرقة من الرُّماة الموارنة من جبل لُبنان[5]، إضافة إلى اضطرار الفرنجة في الشّرق للاستعانة بالجاليات الأُورُبيَّة التِّجاريَّة المُتواجدة في مُدُنهم عند الضرورة، وخاصَّة من جاليات المُدُن الإيطالية بيزا، وفلورنسا، وغيرها[6].

1 - فُرسان القدِّيس يُوحنَّا، سميث، ترجمة: صُبحي الجابي، 112.
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 13/ 237.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 19/ 225.
4 - الفَتْح القِسِّي، العماد، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 13/ 237.
5 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، 235.
6 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 8/ 502.

المبحث الرّابع:

تسليح الجيُوش ودوره في العلاقات العسكريَّة

كانت الجُيُوش في العصر الأيُّوبي تتوزَّع على قطعات عسكريَّة بسيطة، وُفقاً لتنوُّع الأسلحة المُتاحة للجُيُوش في ذلك العصر، وكان من أهمِّ هذه القطعات:

آ. سلاح الفُرسان:

كان الفُرسان يُشكِّلون الجُزء الأكثر فاعلية من الجيش في ذلك العصر، فالحصان كان يُعطي للفارس قُوَّةَ حمل أسلحة عديدة، وقُوَّة اختراق بما يملكه من سُرعة واندفاع، إضافة إلى إمكانية المُناورة الواسعة[1].

1. **سلاح الفُرسان الفرنجي:** يُلخِّص العمادُ الأصفهاني رأيَ المُسلمين في سلاح الفُرسان عند الفرنج بقوله: "إن فارسهم مادام فَرَسُهُ سالماً لم يذلّ للصّرعة، فإنَّه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كأنَّه قطعة حديد، ودراك الضرب والرمي إليه غير مُفيد، لكنَّ فرسهُ إذا هلك فُرس ومُلك"[2]. فالحصان كان عُنصُراً أساسياً بالنِّسبَة للفارس الفرنجي؛ إذْ إن كلَّ معدَّاته وقُوَّته وتدريباته لا تُساوي شيئاً إذا فَقَدَ فَرَسَهُ؛ حيثُ يتمكَّن أيُّ جُندي مُتواضع من المُشاة أن يطعنه، أو يأسره[3].

فالذرديَّات تُغطِّي كامل جسم الفارس، وفوقها الدُّرُوع الصّلبة، إضافة إلى مجن دفاعي طويل من الفُولاذ، يُمكن أن يستر مُعظم جسمه.

وكان الفارس الفرنجي يعتمد ـ بعد دُرُوعه الثقيلة على رمحه الطويل الفعَّال، المصنوع من خشب السنديان، أو البلُّوط القاسي[4]، فكان يستخدم رمحه وقُوَّة حصانه لخَرق الصُّفُوف، وتمزيق الكتائب. وامتلك الفرنجة قواعد للقتال بالرّمح، تقوم على استخدام قُوَّة الرّمح، وسُرعة الحصان[5].

---

1 - حول أهمِّيَّة الحصان في معارك العُصُور الوُسْطَى راجعْ كتاب: حلية الفُرسان، ابن هُذَيْل الأندلسي.
2 - البرق الشَّامي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 29.
3 - سبع معارك، داهوس، 15.
4 - فنُّ الحَرْب، سميل، 132.
5 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 9/ 42.

وفي بعض الأحيان؛ كان الفارس يستخدم رمحه كأداة رمي، فيقذفه باتِّجاه الخصم بقُوَّة ساعده، مُستفيداً من قُوَّة الدفع الناتجة عن سُرعة حصانه. وإذا فَقَدَ الفارسُ الفرنجي رمحه، ولم يتوفَّر معه تابع ليُزوِّده برمح جديد، يُقاتل بسيفه الثقيل، الذي يُمكن ـ في حالات كثيرة ـ أن يستخدم يدَيْه كلتَيْهما للضرب به، ويترك عنان فَرَسه المُدرَّب ليُتابع المهمَّة وحده[1]. ويُمكن للفارس ـ في بعض الحالات ـ أن يُقاتل بالهراوة، أو الدّبُّوس[2].

وبشكل عامٍّ؛ كان الفارس الفرنجي كُتلة من الفُولاذ ما بين دُرُوعه وزرده وأسلحته، فهُو قُوَّة حربية كُبْرَى طالما كان مُمتطياً جواده.

أمَّا السلاح الوحيد الذي كان يصعب استخدامه على الفارس الفرنجي؛ فهُو القوس، لأن دُرُوعه الثقيلة كانت تُعيقه عن دقَّة التسديد، وسُرعة الإيتار.

2 ـ **سلاح الفُرسان المُسلمين**: امتاز سلاح الفُرسان لدى المُسلمين بخفَّة حَرَكَته، وقُدرته العالية على المُناورة، والتَّحرُّك في أرض المعركة، ممَّا كان يُربك فُرسان الفرنجة لثقل حَرَكَتهم.

واستخدم الفارس المُسلم في ذلك العصر ـ بالدرجة الأُولى ـ حربة خفيفة، قناتها من القصب[3]، وسيف يعتمد عليه الفارس في الانقضاض بشكل كامل، إضافة إلى قوس يُجيد استخدامها، ويتمكَّن من الرمي بها من الحَرَكَة وهُو فوق جواده. ويُمكن أن يحمل هراوة لاستخدامها عند الحاجة.

أمَّا دُرُوع الفارس المُسلم، فكانت زرديات خفيفة تُغطِّي القسم الأعلى من جسمه، مع درع صغير وخفيف، شكله مُستدير، أو بيضوي، وصحيح أنَّها كانت أقلّ فاعلية في الحماية من دُرُوع الفرنجة، ولكنَّها أعطتْهُم ميِّزة الخفَّة، فلم يُثقلوا خُيُولهم بأوزان الفُولاذ، وبالتَّالي؛ تمكَّنوا من امتلاك سُرعة مُناورة، كانت أفضل ـ في كثير من الحالات ـ من قُوَّة الدُّرُوع.

لكنْ؛ بسبب احتكاك المُسلمين بالفرنجة، ولما كانوا يحصلون عليه من أسلحتهم كغنائم حرب، بدأت بعض أسلحة الفُرسان المُسلمين تُصبح أكبر وأثقل، فقد لبسوا الدُّرُوع الفرنجيَّة

1 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 9/ 42.
2 - الهراوة: أداة قتال معدنية، كبيرة الرأس، تُسمَّى ـ أحياناً ـ اللّت، والدّبُّوس شبيه بها، لكنْ؛ له رأس مُدبَّب، ورأس قاطع. (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 144 ـ 146).
3 - فنُّ الحَرْب، سميل، 132.

تدريجياً، ويعتقد كلود كاهن أن كلمة: طارقا، التي كانت تعني في العصر الأيُّوبي الدرع الكبير، ما هي إلاَّ كلمة: تارج ـ Targe الأُورُبيّة[1]، وقد أكَّد ذلك أُسامة بن مُنقذ عندما عدَّد ـ ضمن دُرُوعه ـ زردية إفرنجية[2]، كذلك ذكر أُسامة أنَّه ظهرت عادة حمل الرماح الطويلة[3]، ممَّا استدعى ظُهُور تقنيات جديدة لدى المُسلمين في فنِّ القتال بهذه الرماح[4]. وممَّا يُعطينا فكرة عن تعامل المُسلمين مع الرماح قول أسد الدِّين شيركوه عندما كان يُشرف بنفسه على التدريب العسكري لابن أخيه صلاح الدِّين، فكان يقول له ـ أثناء التدريب على الطعن بالرّمح ـ: "أَمْسكْ به بقُوَّة تحت ذراعكَ، ولا تُلوِّح به، شُدَّه إليكَ لكي يحمل كُلَّ ثقلَ جسمكَ، وثقل جوادكَ"[5].

ب. أسلحة الرمي:

1. **الأقواس:** اهتمَّ العَرَبُ والمُسلمون بالقوس، واستخدموه في حُرُوبهم مُنْذُ القِدَم، وتميَّزت أقواسهم بالخفَّة، ممَّا ميَّزها بسُهُولة الاستخدام، وسُرعة الرمي، وعوَّضوا عن صغر سهامهم وقصر مداها بغزارة الرمي، ففي ليلة واحدة وزَّع السُّلطان صلاح الدِّين أربعمائة حمل من النشَّاب، إضافة إلى ما كان مع المُقاتلين[6]. ومع ذلك؛ فقد عرف المُسلمون ـ أيَّام الحُرُوب مع الفرنج ـ أنواعاً أُخرى من الأقواس[7]، منها: الأقواس الزيارة[8]، وأقواس الزنبورك[9]، وأقواس الجرخ[10]، وأقواس العقار[11]، وغيرها[12].

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 89 - Targe بالفرنسية وTarget بالإنكليزية، تعني درع.

2 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، 95.

3 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، 96.

4 - صلاح الدِّين وعصره، نيوباي، 39.

5 - صلاح الدِّين وعصره، نيوباي، 39.

6 - البرق الشَّامي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 23.

7 - Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P:457

8 - القوس الزيار: قوس قوي، أخذ اسمه من تزيير الوتر؛ أيْ شدّه، ممَّا يُعطي اندفاعة السهم سُرعة وقُوَّة أكبر. (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 174).

9 - قوس الزنبورك: وهُو قوس كبير يرمي بعدَّة سهام دفعة واحدة (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 185).

10 - قوس الجرخ: قوس ضخم، يرمي بسهم ذي رأس حديدي لاختراق الأجسام الصلبة (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 179).

11 - قوس العقار: العقار هُو النفط، وقوس العقار هُو القوس الذي يرمي قوارير النفط (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 187).

12 - راجعْ: البرق الشَّامي، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 13/ 23. وما ورد حول الأقواس في كتاب: ذكْر فضيلة الرمي وأوصافه، مرضي بن علي الطرطوسي.

2 ـ المنجنيقات: مع أن الفرنج كانوا يعرفون بناء المنجنيقات، واستخدامها، لكنَّهم لم يصلوا يوماً إلى براعة المُسلمين ودقَّة رَمْيهم بها، فعندما يصف جوانفيل تبادل الرمي بالمنجنيقات في حملة دمياط، بين المُسلمين في مصر وقُوَّات حملة الملك الفرنسي لويس التَّاسع، يذكر ـ صراحة ـ عدم جدوى منجنيقات الفرنجة، يقول: "عند وُصُولنا إلى النهر أمر الملك ببناء ثماني عشرة آلة قذف، وتطايرت قذائف آلاتنا ضدَّ الأعداء وآلاته، وقاموا ـ بدورهم ـ بالرمي علينا، غير أنِّي لم أسمع أن آلاتنا قد سبَّبت أذىً كبيراً"[1].

ويُؤكِّد ذلك وليم الصُّوري خلال حديثه عن حصار المُسلمين لقلعة فرنجية، يقول: "حاول المُحاصرون أن يُشيِّدوا آلة حربية خاصَّة بهم، إلاَّ أن أفراد العدوِّ، المسؤولين عن آلات القذف الحَرْبيَّة الموجُودة في الخارج، سدَّدوا قذائف الصُّخُور بخبرة مُتناهية، إلى درجة أن المسيحيين تخلَّوا عن المُحاولة، بعدما روَّعتهم الضربات المُستمرَّة"[2].

ويبدو أن المُسلمين قد طوَّروا صناعة المنجنيقات، حتَّى إنَّهم تمكَّنوا من بناء منجنيق كبير جدَّاً يرمي بصُخُور هائلة لا يصمد أمامها شيء، كان يُسمَّى المنجنيق المغربي، رُبَّما نسبة لمكان اختراعه، أو لمُخترعه[3]، إن هذا التقدُّم في آلات القذف كان ضرورة بالنِّسبَة للمُسلمين لمُوازنة تفوُّق الفرنجة في بناء وتحصين القلاع.

3 ـ النفط: ويلحق بأسلحة الرمي، لأنَّه كان من أشدّ مقذوفاتها فتكاً، ويُعدُّ من بدايات الرمي الناري. وقد تمرَّس العَرَب بصناعة النُّفُوط، وتطييبها[4]، وكان المُسلمون يستخرجون خام النفط من شمال العراق؛ حيثُ تركَّزت ـ هُناك ـ صناعة تكريره من الشوائب لتحويله إلى مادَّة سريعة الاشتعال، وهُناك ـ أيضاً ـ تطوَّرت أساليب رميه بالمزاريق والمنجنيقات، وكان أجود النُّفُوط يُسمَّى الأبيض[5]، أو الطيار[6] لتبخُّره السريع.

---

1 ـ جان جوانفيل، سيرة القدِّيس لويس، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 35/ 81.
2 ـ وليم الصُّوري، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 7 / 500.
3 ـ مُفرِّج الكُرُوب، أحمد الحنبلي، 5/ 65.
4 ـ تطييبها: أيْ تكريرها لزيادة فاعليَّتها.
5 ـ الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 238.
6 ـ الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 247.

كانت النُّفُوط تُوضع بقوارير زُجاجية، ثُمَّ تُرمَى بالمنجنيقات بعد إشعال فتيلها، ورُماتها ومُعدُّوها هُم النفَّاطون المُشتغلون بإعداد أنواع النفط، وأدوات رميه، كما يُمكن أن يُقذَف النفطُ بالمزاريق، وهي مواسير يُوضَع بها النفط، ويُنفخ بطرفها الزرَّاق، فيندفع النفط المُشتعل من الطرف الآخر على فُرسان وجُنُود العدوّ، وهي أشبه بقاذفة اللّهب اليوم.

4 - البُنْدُق: لا نعتقد بأنَّ رمي البُنْدُق وصل في العصر الأيُّوبي إلى درجة تشكيل فِرَق عسكريَّة له، أو حتَّى اعتماده في القتال كسلاح، فبالرغم من معرفة المُسلمين للرمي بالبُنْدُق بواسطة ماسُورة تدفع البُنْدُقة في داخلها، بواسطة وتر القوس، الذي يضرب عتلة داخل الماسُورة، فتندفع البُنْدُقة لتخرج من فوهة الماسُورة كمقذوف البُنْدُقيَّة، ممَّا يحملنا على القول بأنَّها كانت بُنْدُقية بدائية ستنتظر حتَّى استخدام البارود كقُوَّة دافعة؛ لتُصبح أداة حربية فتَّاكة.

وكان رمي البُنْدُق في العصر الأيُّوبي يقتصر - على ما يبدو - على كونه رياضة رمي على أهداف ثابتة، أو مُتحرِّكة؛ كالحَمَام والطُّيُور الأُخرى. أمَّا مادَّة الرمي، وهي البُنْدُقة؛ فكانت تُصنَع من معدن، أو حجر منحوت كالكُرة، أو من الطين المشوي[1].

صناعة الأسلحة:

اشتهر في الشَّام خلال العصر الأيُّوبي فُولاذ دمشق، وكان يُعتقَد أن مهارات تصنيعه قد أخذها الدمشقيون عن الهند، ومع أن المادَّة الأولية للفُولاذ كانت تُجلَب من مكامن المعادن في مناطق بعيدة، كجبل لُبنان مثلاً، لكنَّ تصنيع الفُولاذ الدمشقي، أو ما كان يُعرَف بالسقاية؛ أيْ مُعالجة المعدن ليبدو ذا بريق خاصٍّ يميل إلى الأزرق، ويكتسب صلابة مع مُرُونة كبيرة جدَّاً في الوقت نفسه، فكان ذلك سرَّاً دمشقياً خاصَّاً، وبقي فُولاذ دمشق المَسْقي مشهوراً حتَّى بعد أن أخذ الأُورُبيون صناعة الفُولاذ، وانتشرت في أُورُبة الوُسطَى، وأنتجوا السُّيُوف الفرنجيَّة المشهورة، التي كان يُباع أحدها في مصر بألف دينار، لأنَّه يضرب بالحَدِّ وبالسِّنِّ معاً[2].

---

1 - راجعْ عن شَيِّ البُنْدُق: سيرة الملك الظَّاهر بيبرس، مجهول، 81.
2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 87.

وقد اهتمَّ المُسلمون بصناعة كافَّة أنواع الأسلحة، وألَّفوا فيها الرسائلَ والكُتُبَ، ورُبَّما كان منها ما ألَّفه مرضي بن علي الطرسوسي لصلاح الدِّين بعُنوان: ذكْر فضيلة الرمي، وأوصافه[1]، ولابن هُذَيْل الأندلسي كتاب: حلية الفُرسان، ولمُحمَّد بن منكلي العلمي كتاب: الحيَل في الحُرُوب وفَتْح المدائن وحفْظ الدروب[2].

السيف العَرَبي:

ردَّد مُؤرِّخو الحُرُوب مع الفرنجة المُحدثون مقولة فاعلية السيف الفرنجي المصنوع من الفُولاذ القاسي، والكبير الحجم، الثقيل الوزن، الذي يطعن بالسِّنِّ، ويقطع بالحَدِّ، في مُقابل السيف العَرَبي، الصغير نسبياً، الخفيف الوزن، الأعكف الذي يضرب بالحَدِّ فقط، ولتحدُّب نصله لا يتمكَّن حامله من الطعن فيه، وفي الحقيقة؛ هذه مسألة فيها نظر:

ففيما ذُكِر تُوجد مُسلَّمات، بل، وتكاد تكون كُلُّها صحيحة ماعدا ما يتعلَّق بحدبه السيف العَرَبي، فطُول السيف الفرنجي وعرضه يُكسبانه وزناً أكبر، يُمكن أن يكون ذا فائدة بإضافة وزن السيف إلى قُوَّة الضربة، فيُمكن أن تقطع الدرع، ولكن ثقل السيف يجعله غير قابل للمُناورة أبداً، وغير قابل لسُرعة رَدِّ الضربة عند المُفاجئة، وقد استعاضت السُّيُوف العَرَبيَّة عن ثقل الضربة بخفَّة الحَرَكَة، كذلك استعاضت عن المتانة والصلابة باللُّيُونة، فهُو لا ينقصف بسُهُولة؛ إذْ إنَّه حادٌّ جدَّاً، وخفيف جدَّاً، ولَيِّنٌ في الوقت نفسه، أمَّا عن عكفة السيف العَرَبي، فمن المُتعارف عليه أن السُّيُوف العَرَبيَّة القديمة كُلّها كانت مُستقيمة[3]، إلى أن بدأ يظهر ـ مع بداية الحُرُوب مع الفرنجة ـ تحدُّب بسيط في مُقدِّمة السيف[4]، أمَّا الحدبة الكبيرة، التي تكاد تُشكِّل سيفاً معكوفاً؛ فإنَّنا نعتقد أنَّها كانت لسُيُوف الزينة، التي تُحمَل في المُناسبات فقط، مثلها مثل الخناجر اليمنية المعكوفة، وإن أبسط استعمال

---

1 - حقَّق هذه المخطوطة ونشرها في باريس كلود كاهن، ونشرها بدمشق المعهد العلمي الفرنسي، بتحقيق: بودولاموت عام 1968 ـ كذلك يُوجد للمُؤلِّف مرضي بن علي الطرسوسي، وفي الموضوع نفسه كتاب آخر عُنوانه: تبصرة أُولي الألباب.

2 - راجعْ استعراض كارول هلنبراند لكُتُب السلاح والجهاد في العصر الأيُّوبي:

Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P.P:435 – 439

3 - Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P:453

4 - الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 98.

هذا النوع المعكوف يُظهر عدم فاعليَّتها القتالية. أمَّا التقوُّس البسيط في رأس سيف القتال العَرَبي، فهُو - في الحقيقة - تطوُّر هامٌّ لم يكن الهدف منه تغيُّر شكل السيف، بل كان الهدف هُو إكساب السيف ميْزة هامَّة في القتال، فالتقوُّس البسيط لا يمنع - أبداً - من الطعن بهذا السيف بفاعلية كبيرة، إذاً؛ لم هذا التقوُّس؟ إنَّه بتقديرنا، إن لم يكن لتقنية صناعية تُؤثِّر على صلابة حَدِّ السيف[1]، فهُو - بالتَّأكيد - لتشتيت انتباه الخصم عن مكان الطعنة الدقيقة لرأس السيف، فيصعب عليه الاتِّقاء منها بترسه[2].

1 - هذا أمر يحتاج لمُختبر صناعي يُمكن أن يُؤدِّي إلى نتيجة واضحة.
2 - يُمكن إجراء تجربة عملية بسيطة، وذلك بطعن شخص بخشبة مُستقيمة وأُخرى مُنحنية.

المبحث الخامس:

أساليب القتال

1. عند المُسلمين:

شهد العصر الأيُّوبي تطوُّراً كبيراً في فُنُون القتال وأساليبه، التي ارتقت لتتناسب مع تطوُّر الأسلحة، وكان هذا التطوُّر تُمليه الضرورات العسكريَّة؛ حيثُ كانت المعارك شبه يومية، والقتال يكاد لا يتوقَّف، ممَّا اقتضى ظُهُور نُظُم وتقاليد حربية عالية المُستوى، فكانت هُناك قواعد للارتقاء بالمراتب العسكريَّة، وأصبح العمل العسكري لدى الأيُّوبيِّين عملاً احترافياً بشكل كامل، إنْ كان في التدريبات، أو في قيادة المعارك وإدارة الحُرُوب، وبرعوا في تحقيق التعبئة الشاملة، خاصَّة أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين، وفيما بعد؛ أثناء حملة دمياط.

وعرف الجيشُ الإسلاميُّ في ذلك العصر نظاماً خاصَّاً في التقنية العسكريَّة لخوض المعارك، فكان هُناك نظام الأطلاب، والطلب هُو كتيبة، لها قائدها، ولها مهمَّات خاصَّة، ومهامّ ضمن بقيَّة الجيش، إضافة إلى وُجُود التقسيم الرئيسي المُتعارف عليه سابقاً، وهُو تقسيم الجيش إلى قلب وميسرة وميمنة، وأتقن القادةُ المُسلمون تنسيقَ التعاون بين هذه الأقسام، والتناغم بينها خلال المعركة. ويبدو أن كلَّ قسم من هذه الأقسام الرئيسة كان ينقسم إلى ميمنة وميسرة، يقول العماد الأصفهاني واصفاً ترتيب جيش السُّلطان صلاح الدِّين قُبيل إحدى المعارك: "رتَّب السُّلطانُ جيشَهُ ميمنة وميسرة وقلباً على ترتيب منازلهم طلباً طلباً، المُظفَّر تقي الدِّين في الميمنة، والعادل في الميسرة، والأفضل في ميمنة القلب، والظافر في ميسرة القلب"[1].

ولكن هذا الترتيب لم يكن دائم التطبيق، فقد تحرَّر القادة الأيُّوبيُّون، خاصَّة قادة الجُيُوش منهم، من هذه القواعد، ورتَّبوا قُوَّاتهم وُفقاً لما تُمليه الظُّرُوف، وخير مثال على ذلك هُو ترتيب الملك الأشرف مُوسى صاحب حمص لجيشه في مُواجهة الهُجُوم الثَّاني للتَّتار على الشَّام، فقد اتَّبع تعبئة غير مُعتادة، أملاها عليه واقع تفوُّق العدوِّ العددي، وقُوَّة اندفاع فُرسانه، فقد رتَّب قُوَّاته؛ بحيثُ تتشكَّل من بضعة صُفُوف مُتراصَّة، لا عُمق لها؛ ليُؤمِّن امتداداً على عرض أرض المعركة[2]، ونجحت خُطَّته أيَّما نجاح.

---

1 - الفَتح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 247.

2 - راجعْ تفاصيل خُطَّة المعركة في: مملكة حمص، مُنذر الحايك، 241.

فنُّ القتال لدى المُسلمين:

استغلَّ المُسلمون امتيازهم بامتلاك سُرعة الحَرَكَة، وخفَّة المُناورة، فسيطرت على خُطَطهم العسكريَّة فكرة المُناورة بشكل واسع، ولذلك لم يكن المُسلمون يتعجَّلون الالتحام بالفرنجة، بل يُبقون قُوَّاتهم بعيدة بعض الشيء، مُحتفظين بحُرِّيَّتهم لاختيار الزَّمان والطريقة المُناسبَيْن للالتحام، ومن ثَمَّ؛ تطوير المعركة، أو الانسحاب إذا لم يكن هُناك مطمع في العدوّ[1]. وكثيراً ما كانت القُوَّات الأيُّوبيَّة تُطبِّق أُسلُوب التقهقر المُضلِّل، فتتراجع مُظهرة الضعف، لإرهاق الفرنجة بالحركة، وإبعادهم عن قواعدهم، وغالباً ما كان يُمارِس هذا التقهقر فرقة صغيرة تكون طُعماً مغرياً لقُوَّة فرنجية كبيرة، فتتبعها، عندها؛ تنقضُّ عليها الكمائن، أو تصدمها قُوَّة الجيش الرئيسة.

وقد أجاد المُسلمون الهجمات السريعة لضرب أطراف جيش العدوّ لخلخلة ترتيبه، وتوازنه، قبل أن ينقضُّوا عليه. وكان أكثر ما يخافه الفرنجة هُو انقضاض الفرَق العسكريَّة الإسلاميَّة الخفيفة على قُوَّاتهم أثناء المسير، فتكتيك الفرنجة قائم على رَصِّ التشكيلات، والهُجُوم بقوى مُتساندة. وقد لمس المُسلمون في مُؤخِّرة جُيُوش الفرنجة نُقطة ضعف مُؤثِّرة، فكانت ـ على الدوام ـ مجالاً لهجماتهم؛ حيثُ تتمكَّن فرَق الفُرسان الإسلاميَّة السريعة من الالتفاف حول الجيش الفرنجي، وضرب مُؤخِّرته المُثقلة بالمعدَّات، والتي تكون في أسوأ حالاتها أثناء المسير.

وفي مُعظم الأحيان كان رُماة السهام في الفرَق الأيُّوبيَّة هُم مَنْ يبدؤون القتال؛ حيثُ يُصلُون العدوَّ بوابلٍ من رشقاتهم؛ لاستفزاز الفرنجة، ودفعهم للهُجُوم، والتخلِّي عن تشكيلاتهم[2]. ولكن السمة التكتيكية التي امتازت بها القُوَّات الأيُّوبيَّة هي الرمي من الحَرَكَة بوتيرة عالية جدًّا، فحتَّى أثناء التقهقر كان الفُرسان المُسلمون يقومون بإيتار أقواسهم، ورَمْي قَدْر كبير من السهام بسُرعة كبيرة[3].

وإذا كان الفُرسان الأتراك هُم مَن ابتدع الرمي من الحَرَكَة بشكل فعَّال[4]، فإن القُوَّات الأيُّوبيَّة قد طبَّقتهُ بإتقان كبير[5]، وصحيح أن سهام المُسلمين كانت خفيفة، قليلة المدى، قليلة

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 140.
2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 139.
3 - كتاب البُلدان، ابن الفقيه، 137.
4 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 88.
5 - راجعْ بحث الاستراتيجية العسكريَّة عند المُسلمين في العصر الأيُّوبي:
(Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P:511)

الفاعلية، لكنَّ الكثافة كانت تُعوِّض كُلَّ ذلك، كذلك فإن غزارة الرمي كانت تُربك مُقاتلي الفرنجة، فقد لا تخترق النبالُ دُرُوعَهُم، لكنَّها تعلق بها، وتُسبِّب لهم توتُّراً نفسياً، إضافة إلى فاعليَّتها في جرح وقَتْل الخُيُول[1]، وهي مُصيبة كُبْرَى للفارس الفرنجي. وبعد كُلِّ هذه المُناورات والرمي والمُناوشات تحتاج هزيمة العدوِّ ـ في النِّهاية ـ للالتحام معه، عندها ـ فقط ـ يتنكَّب الفارس المُسلم قوسَهُ، ويُشهر سيفه، أو يُشرع رمحه، وينقضّ على الفرنجة[2].

وبشكل عامٍّ؛ نستطيع أن نقول إن السمة المسيطرة في التكتيك الأيُّوبي كانت الهُجُوم المُتحرِّك في الأرض المكشوفة، أو الدفاع المُتحرِّك وُفقاً للحالة الراهنة. أمَّا الدفاعات الثابتة والقلاع؛ فكانت من نقاط الضعف لدى المُسلمين في العصر الأيُّوبي، وخاصَّة تلك التي تُطلُّ على السواحل مُباشرة، لذلك كانت خُطَطهم الدفاعية عنها بهَدْمها، وبعثرة حجارتها.

يصف جوانفيل خُطط المُسلمين القتالية عندما قاموا بالقتال ضدَّ قُوَّات الملك الفرنسي لويس التَّاسع بعد احتلاله دمياط، يقول: "أنشب المُسلمون القتال مع كُونت دي أنجو، لأنَّه كان في طليعة جيشنا، وُفق طريقة اللعب بالشطرنج؛ حيثُ أرسلوا ـ أوَّلاً ـ رجالتهم نحو الأمام لقتاله، وبعثوا ـ أيضاً ـ الذين قذفوا النار الإغريقية نحو عساكره، ثُمَّ ضغط المُسلمون جميعاً من خياله ورجاله بشدَّة مُتناهية على عساكرنا إلى حَدِّ أن الكُونت قد قُهر تماماً"[3]. ولذلك يُمكن القول إن المُسلمين في العصر الأيُّوبي قد تمكَّنوا من خَلْق جُيُوش كانت الأُولى بتنظيمها، وتدريبها، "فهي من رجال مهْنتهم الوحيدة هي الحَرْب"[4]، فقد كانت أعداد كبيرة من قوام جُيُوش صلاح الدِّين ـ كما في عهد نُور الدِّين ـ من مُقاتلين مُحترفين أتراكاً وأكراد[5].

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 137، وكتاب البُلدان، الهمذاني، 138.

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 139.

3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 35 / 106.

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، سوريال عطية، 148.

5 - Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P:444

ب. فنُّ القتال لدى الفرنجة:

كانت أهمّ سمات تكتيك الحَرْب عند فرنجة الشَّرْق هُو تجنُّب خوض المعارك الكُبْرَى، وانتظار تفرُّق جيش المُسلمين الموسمي. وكانت قُوَّات الطوائف الرُّهبانية المُقاتلة تكاد تكون الجيش العامل الوحيد، والجاهز دوماً[1]، بالإضافة إلى شجاعتهم وتمرُّسهم بالقتال[2]، ولأنَّهم كانوا فُرساناً يُقاتلون بكامل عدَّتهم وهُم مُثقلون بالحديد، فغدوا عرضة للسعات فُرسان المُسلمين الخفاف، لذلك لجؤوا لتدبيرَيْن احترازيَّيْن: فقد أَوجدوا فرقة التركبول، وهي من الفُرسان الخفيفة، واعتمدوا - بشكل مُتزايد - على المُشاة لحماية الفُرسان[3].

وتعلَّم الفرنجة في الشَّرْق من تجاربهم دُرُوساً في فنِّ القتال، دفعوا ثمنها من دمائهم، ومنها ألا يبتعدوا كثيراً عن قواعدهم، ولا عن مصادر الماء، ولا أن يُواصلوا المُطاردة لجيش مُنسحب، وعدم الانتشار بحثاً عن الغنائم، وأن عليهم المُحافظة على كُتلة الجيش وحدة مُتماسكة[4]، فطالما سعى المُسلمون لفصل وحدات الجيش الفرنجي في المعركة، لمُحاصرتها كمجموعات، وإبادتها، أو أَسْرها.

كما اعتمد الفرنج على القلاع كملاذ أمن، في ظلِّ وُجُود رعية غير موثوقة، فطوَّروا فنَّ البناء العسكري، وأشادوا مُنشآت عسكريَّة غاية في الفاعلية والإتقان[5]. وطالما شهد المُسلمون ببسالة وشجاعة الفرنج، فلم يبخسوهم حقَّهم، ومنهم ابن شدَّاد، الذي وصف قتال الفرنج أثناء حصار السُّلطان صلاح الدِّين ليافا، فقال: "أمر السُّلطانُ الناسَ، فزحفوا، وضايقوا القوم مُضايقة عظيمة، فلله درّهم من رجال أقيال، ما أشدّهم وأعظم بأسهم، فإنَّه مع هذا كُلِّه لم يُغلقوا لها باباً، ولم يزالوا يُقاتلون خارج الأبواب أعظم قتال"[6].

---

1 - سبع معارك، داهوس، 116.

2 - كانت الطوائف الرُّهبانية تتكوَّن من أشرس مُقاتلي الفرنجة، ولذلك أطلق المُسلمون على الدَّاويّة اسم: جمرة الفرنجة.

3 - سبع معارك، داهوس، 118.

4 - سبع معارك، داهوس، 120.

5 - فنُّ الحَرْب، سميل، 111.

6 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 222.

وبالنتيجة؛ نتبيَّن أنَّه كان هُناك مدرستان عسكريَّتان مُتباينتان تتحاربان طوال العصر الأيُّوبي، وهُما:

المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة:

وتُركِّز على ابتداء المعركة بالرَّشْق الكثيف للنِّبال، ثُمَّ الطعن بالرماح، والرمي من الحَرَكَة، وإنْ لاحت فُرصة مُواتية، فالالتحام بالسُّيُوف، والضرب بالدبابيس، وإلاَّ؛ فالفَرّ؛ لسَحْب قُوَّات العدوّ، وخلخلتها، ثُمَّ الكرّ عليها بخفَّة. مع تميُّزهم باستخدام سلاح النفط كقُوَّة حارقة، واستخدام المجانيق كقُوَّة تدميرية، كُلُّ ذلك ضمن حَرَكَة واسعة خفيفة وسريعة.

المدرسة العسكريَّة الفرنجيَّة:

امتازت بوُجُود سلاح الفُرسان الثقيلة كقُوَّة كُبْرَى في الميدان، واعتمدت قواها الرئيسة على دُرُوع فُولاذية، وأسلحة كبيرة قويَّة، وأقواس ونبال قويَّة وبعيدة المدى، كذلك ركَّز الفرنجة على قُوَّة التحصينات وتعدُّد القلاع، فالاحتماء خلف الأسوار ـ وخاصَّة في المُدُن ـ جنَّبهم مخاطر كثيرة.

ولكنْ؛ لا يُمكن لأحد أن ينفي أنَّه ـ في نهاية العصر الأيُّوبي ـ كان هُناك كثير من التأثيرات الحَرْبيَّة المُتبادلة بين المدرستَيْن.

المبحث السّادس:

القلاع والحصُون

قبيل قُدُوم الفرنج نحو الساحل الشّامي وفلسطين كانت القلاع وأسوار المُدُن تكاد تكون بلا فعّالية عسكريّة حقيقيّة، ولم تُوجد قلاع إسلامية قويّة إلاّ في مناطق الثُّغُور في شمال بلاد الشّام، وهذا ما سهّل ـ جُزئياً ـ عملية استيلاء فرنجة الحملة الأُولى على الساحل والقُدْس.

القلاع والتحصينات الفرنجيّة:

سُرعان ما قام الفرنجة بتحصين المُدُن التي احتلُّوها، فبنوا حولها الأسوار، وعليها الأبراج، وأقاموا القلاعَ والحُصُونَ في المناطق الاستراتيجية للسيطرة على أطراف البلاد المُحتلّة، والتحكّم بطُرُق التجارة والمُواصلات وإدارة الأراضي الزراعية، فأمّنتْ لهم هذه القلاعُ استقلالَ البلاد اقتصادياً، وكانت ـ بالوقت نفسه ـ أمكنة آمنة، يتحصّنون بها عند الهجمات المُفاجئة ضدّهم، ويُعيقون بها حَرَكَة الجُيُوش الغازية لمناطقهم.

حقّق الفرنجُ تقدُّماً هائلاً في مجال التحصينات، وفي صناعة منجنيقات الحصار، بعد استقرارهم في الشّرْق[1]. ولكنْ؛ لقلّة أعداد الفرنجة، كان الدفاع عن المعاقل يستنفذ مُعظم قُوّاتهم البرّيّة، فإذا أرادوا دفع جيش إلى الميدان، فكان عليهم المُخاطرة بتعريض حُصُونهم ومُدُنهم إلى الخطر، لنَقْص المُدافعين عنها[2]. وترسّخت لدى الفرنجة في الشّرْق قيَم عسكريّة، تعتمد على فكرة أن الأمن لا يتحقّق إلاّ وراء الحُصُون المنيعة، واعتمدت طوائف الرُّهبان المُقاتلين على هذه الفكرة في أواخر أيّام الفرنج في الشّام اعتماداً كبيراً، لكنْ ـ في النّهاية ـ سقطت هذه الفكرة بتهاوي هذه الحُصُون واحداً بعد آخر بيد المُسلمين.

تركّزت قُوّات الدّاويّة والاسبتار في مجموعة قلاع وحُصُون على التُّخُوم مع المُسلمين. وتركّزت قُوّات الاسبتاريّة في قلعة ساحلية هي قلعة المرقب، وقلعة الحصن الدّاخليّة، وهي

1 - كلود كاهن، الشّرْق والغَرْب، 89.

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 171.

من القلاع الضخمة؛ حيثُ كانت تتَّسع لألفَيْن من الجُنُود. أمَّا الدَّاويَة؛ فقد تواجدوا في قلعة طرطوس على الساحل، وفي الداخل كان لهم بُرج صافيتا. وقد زُرعَت المنطقة السَّاحليَّة بالحُصُون، حتَّى لا تكاد تخلو قمَّة استراتيجية من قلعة، أو حصن، أو بُرج، وقد أحصى الإدريسي ـ أثناء تجواله في ساحل الشَّام ـ أكثر من ستِّين حصناً ما بين بيروت واللاذقية[1]. وهُنا؛ يجب أن لا ننسى أنَّه بمُقابل قلاع الاسبتاريَّة والدَّاويَة كانت تربض قلاع الإسماعيليَّة، وكأن الإسماعيليَّة ـ بشكل، أو بآخر، ومع كُلِّ التشابهات والفُرُوقات بينهم، وبين الرُّهبان المُقاتلين لدى الفرنج ـ وجدت قلاعهم لتُواجه بندية قلاع الدَّاويَة والاسبتاريَّة[2].

القلاع والتحصينات الأيُّوبيَّة:

انقسم الاهتمام الأيُّوبي بالتحصينات إلى قسمَيْن مُتناقضَيْن:

بناء التحصينات والقلاع:

كان عهد صلاح الدِّين كُلّه حُرُوباً لتثبيت دولته أوَّلاً، ومن ثَمَّ؛ مُواجهة الفرنجة، الذين كانوا شُغله الشاغل، لذلك كان بناء التحصينات والاهتمام بها قليلاً في عهده، وكان من أهمِّ ما جرى في هذا الشأن هُو أمر صلاح الدِّين، الذي أصدره إلى نائبه في القاهرة الأمير قراقوش؛ لبناء سُور شامل، يضمُّ القاهرة والمدينة القديمة مصر، إضافة إلى ترميمه لكُلِّ القلاع وأسوار المُدُن، التي استولى عليها من الفرنج.

ولكنْ؛ ما إن استقرَّ الملك العادل في مُلك دمشق حتَّى نقض قلعتها القديمة، وكانت حصناً سلجوقيّاً بسيط[3]، وأقام قلعة دمشق، التي لا تزال كثير من مبانيها وأسوارها صامدة حتَّى الآن، ورُبَّما لتأكيد سلطنته على مُلُوك بني أيُّوب، أو لحاجته فعلاً لهم، طلب من كُلِّ ملك من مُلُوكهم إنجاز بُرج من أبراجها[4].

---

1 - نُزهة المُشتاق، الإدريسي، 1/ 414، ـ تُوفِّي الإدريسي عام 560 هـ1165م.
2 - يَعقد أجفان الصغير مُقارنة وافية بين قلاع الإسماعيليَّة وقلاع الاسبتاريَّة والدَّاويَة.
(القلاع في فترة الحُرُوب الصَّليبيَّة، أجفان الصغير، رسالة ماجستير، 79).
3 - عن قلعة دمشق السّلجوقية، راجعْ: في التاريخ الشَّامي، شاكر مُصطفى، 1 / 109.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 55، وراجعْ نصَّ قلعة دمشق في الملاحق ـ وحول بناء القلعة الأيُّوبيَّة راجعْ كتاب:
The Citadel of Damascus, Hazar Omran & George Dabboura

وبشكل عامٍّ؛ فإن الباحث لا يجد أيّاً من مُلُوك بني أيُّوب لم يُحصِّن، أو يُرمِّم في مُدُنه وقلاعه، ورُبَّما كان من أشهر أعمالهم ما قام به الملك المُجاهد صاحب حمص، فقد حصَّن أسوار المدينة، وعمَّق خندقها، وزاد في ارتفاع القلعة، وحصَّنها[1]. كما بنى الملكُ المُجاهدُ القلاعَ الضخمةَ في المناطق الرئيسية التي يُسيطر عليها، فقد استُحدثت قلعة على جبل يُشرف على تدمر[2]، وكذلك هَدَمَ القلعةَ الصغيرةَ القديمةَ التي كانت في الرحبة، وبنى مكانها قلعة كبيرة، تُشرف على وادي الفُرات[3]، وعندما ضمَّ سلمية إلى مملكته، قام ببناء قلعة على جبل قريب منها، يُشرف عليها، هي قلعة شميميس[4]. وكذلك قام الملك المنصُور صاحب حماة بناء قلعة في المعرَّة، وحصَّن قلعة بارين، وقوَّى أسوار حماة، وحُصُونها[5].

وبنى الملك المُعظَّم قلعة هائلة على جبل الطور المُطلّ على عكَّا[6]، لمُراقبتها والتصدِّي لكُلِّ مَنْ يخرج منها. وعندما تولَّى الملكُ الصَّالح أيُّوبُ السَّلطنة في مصر بنى قلعته المشهورة على النيل، وجعلها مقرّاً مَلكياً له، ولحَرَسه، ومماليكه، وأوْقَفَ الأوقافَ لحفْظ سُور القاهرة، والقلعة[7]، كذلك رمَّم أسوار القُدْس، وأمر أن يُصرَف ما يُجبى من القُدْس من ضرائب على عمارة سُورها[8].

وفي الحقيقة؛ لا نجد مَنْ لم يهتمّ بالتحصينات والقلاع من مُلُوك بني أيُّوب[9]، وذلك للطابع العسكري الذي ميَّزهم، وميَّز حُكْمهم بالكامل، فكانت القلاع لإقامة المُلُوك، ففيها يشعرون بالأمان، خاصَّة من عساكرهم، وفيها يكنزون أموالهم لوقت الحاجة[10].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 122 ـ 137.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 221.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 55.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 604، والمنصُوري، ابن نظيف، 221.

5 - يقول ابن نظيف: "وبالغ غاية المُبالغة في الحصانة". (المنصُوري، 252).

6 - ذيل أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 136.

7 - قوانين الدواوين، ابن مماتي، 341.

8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 359.

9 - راجعْ بحث القلاع الإسلاميَّة في العصر الأيُّوبي، مع صُور ومُخطَّطات وافية لها:
Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P.P:467 – 503

10 - راجعْ عن الحُصُون والقلاع ما ورد في كتاب: الحيَل في الحُرُوب وفتح المدائن وحفْظ الدُّرُوب، مُحمَّد بن منكلي العلمي.

هَدْمُ الحُصُون، وإزالة الأسوار:

بمُقابل كُلِّ ما قام به الأيُّوبيُّون، من تحصين وترميم وبناء للقلاع والأسوار، نجد أنَّهم قد اختطُّوا خُطَّةً لا سابق لها، فعندما كانوا يخشون على حصن، أو قلعة، أو حتَّى مدينة، مهما عَظُمَتْ، كانوا يهدمونها، أو يُزيلون أسوارها، وذلك عند شُعُورهم بالعجز عن الدفاع عنها، وحمايتها بالقُوَّة العسكريَّة. رُبَّما كان هذا العمل جُزءاً من خُطَّة استراتيجية كانت تُطبَّق في حُرُوب تلك الأيَّام، وهي خُطَّة الأرض المحروقة، فكُلُّ الأطراف كانت تُدمِّر المُدُنَ، وتقطع الأشجارَ، وترعى الزُّرُوعَ في أراضي العدوِّ، ولكنْ؛ لا نجد إلاَّ الأيُّوبيِّين يُدمِّرون مُدُناً وحُصُوناً يُسيطرون عليها، حتَّى لا يكون للعدوِّ فيها مَطْمَع، دُون أن يُجرِّبوا الدفاع عنها. فقد كان الأيُّوبيُّون يُفضِّلون الدفاع من الحَرَكَة الواسعة، ويخافون الحصار، وقد طبَّقوا هذه الخُطَّة مُنْذُ بدايات عهد الدولة الأيُّوبيَّة، فالنَّاصر صلاح الدِّين عندما فتح عسقلان أشار عليه الأمير سُلَيْمان بن جندر، وهُو أحد خاصَّته، "بخراب عسقلان مصلحة للمُسلمين"[1]، ورُبَّما لم يُدمِّر صلاح الدِّين عسقلان لوُجُود مَنْ يعارض خُطَّة التدمير، واللُّجُوء إلى الدفاع من الحَرَكَة، وكان القاضي الفاضل، قاضي عسكر صلاح الدِّين، ومُستشاره، واحداً منهم، فهُو يرى أن تدمير الحُصُون هُو أسوأ من الهزيمة بحَدِّ ذاتها، يقول القاضي الفاضل عن تخريب القلاع والأسوار: "المُنهزم ينهزم بالرجال، ونحنُ ننهزم بالبلاد"[2].

وإنْ نجت عسقلان من التدمير أيَّام صلاح الدِّين فإنَّها سُرعان ما أُزيلت من الوُجُود على يد أخيه الملك العادل، وابنه الملك العزيز، فقد أمرا بخراب عسقلان عام **594** هـ **1198**م، يقول المقريزي عن هدم عسقلان: "فتلفت مدينةٌ لا مثيل لها، وثغرٌ لا نظير له في الثُّغُور، وعمارة لا تخلف الأيَّام ما تلف بها، لعجز المُلُوك عن مُمانعة الفرنج بالسلاح، واضطرارهم إلى هدم المُدُن، وتعفية رُسُومها"[3]. وكان الملك العادل عام **593** هـ **1197**م، عند مدينة يافا عندما "أمر بهدمها، فرُميت حجارتها في البحر في مينائها"[4]. وبالمُقابل؛ عندما استولى الفرنج على بيروت، في العام نفسه، أعادوا

---

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 113.

2 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 304.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 253.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 10.

تحصين القلعة، ورمّوا الأسوار، وجعلوها غاية في المناعة. فهل هي استراتيجية مُعاكسة لاستراتيجية إزالة الحُصُون الأيُّوبيَّة؟

في الواقع؛ كان كُلٌّ من الفرنج والأيُّوبيين يملك مُنطلقات في التخطيط الاستراتيجي للصراع ضدَّ الآخر تنطلق من إمكانات مُتاحة، فالفرنج يمتلكون السيطرة المُطلقة في البحر بواسطة الأساطيل التي تقوم بالدعم والإمداد والمُشاركة في القتال، ودعم المُدُن الواقعة على السواحل، وذلك بعكس الأيُّوبيِّين، الذين كانوا يُفضِّلون المعارك المكشوفة في الداخل لافتقارهم لدعم أُسطُول قوي، وبالتَّأكيد؛ لو كانت لهم قُوَّة الأساطيل الفرنجيَّة لما قاموا بتخريب أيِّ حصن على الساحل، فبالأساطيل تكتمل حلقة الدفاع عن الثُّغُور البَحْريَّة.

وبعد أَخْذ الفرنج لثغر بيروت تردَّدت الأخبار بأنَّهم عازمون على مُواصلة التَّحرُّك شمالاً لاحتلال جبلة واللاذقية، وكانتا تتبعان مملكة حلب، فأرسل الملك العادل عام **594** هـ **1198**م، يُعلم الملكَ الظَّاهر صاحبَ حلب بحركتهم، فما كان من الظَّاهر ـ بدل تسيير الجُيُوش والإمدادات إلى الساحل ـ إلاَّ أنْ أرسل "الحجَّارين والزرَّاقين لهَدْم حصنَيْ جبلة واللاذقية، ولمَّا وصلوا اللاذقية نقبوا القلعة ... وهدموا المدينة، وذهب أهلها"، ولكن الفرنج عادوا من بيروت إلى صُور، فأمر الظَّاهر بإعادة بناء ما انهدم من اللاذقية[1]. ولكن الأمر لم يطلْ كثيراً، ففي عام **600** هـ **1203**م، وصلت الأخبار إلى الظَّاهر بحَرَكَة الفرنج إلى جبلة واللاذقية، "فَسَيَّرَ السُّلطانُ العساكرَ، وأمرهم بخراب جبلة واللاذقية، فلم يكن للفرنج حَرَكَة، وخربت قلعة اللاذقية"[2]. وهكذا لمُجرَّد خبر غير موثوق هُدمت القلاعُ الإسلاميَّة الوحيدةُ المُتبقِّية على ساحل الشَّام، والتي تتمتَّع بموقع استراتيجي هامّ جدّاً للمُسلمين، فهي منفذهم الوحيد إلى البحر، كما أنَّها كانت تقطع الاتِّصال البرِّيَّ المُباشر بين إمارة أنطاكية ومملكة القُدْس في الجنوب.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 610.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 625.

كانت فكرة هدم الحُصُون تُطبَّق ـ أحياناً ـ لاستراتيجية محلِّيَّة لا علاقة لها بالحَرْب ضدَّ الفرنجة، فعندما قبض الملك المُعظَّم بن العادل على عزّ الدِّين أُسامة، وكان بحُكْمه قلعتَا كوكب وعجلون، قام المُعظَّم بإشارة من والده العادل بتخريب قلعة كوكب[1]، وأبقى على قلعة عجلون[2].

وكان الملك المُعظَّم من أكثر مُلُوك بني أيُّوب هدماً للحُصُون، فهل كان ذلك تهاوناً في الدفاع عنها، علماً أنَّه من شُجعان بني أيُّوب، وأحزمهم، وأقواهم، وصاحب مشروع بناء قلعة الطور؟ أم أنَّه تقدير صحيح منه لميزان القوى، الذي يُبيِّن استحالة الدفاع عنها إذا هاجمها الفرنج؟ وأنَّها ستكون عوناً كبيراً لهم ضدَّ المُسلمين إذا احتلُّوها. وفي الحقيقة؛ لا ندري ما هي الدوافع الحقيقيَّة للملك المُعظَّم في ذلك، ولكنْ؛ لا يخفي على الباحث حرج موقفه العسكري، والهجمة الكُبْرى للفرنج نحو دمياط، فعندما أمر الملك المُعظَّم بهَدْم حصنَيْ بانياس وتبنين، "وكانت قفلاً للبلاد، وملجأ للعباد، أظهر أن ذلك خوفاً من استيلاء الفرنج"[3]. وفي الواقع؛ كان ذلك عام 615 هـ 1218م، وهُو عام وفاة أبيه السُّلطان العادل، وهُجُوم الفرنج على مدينة دمياط، واحتلالها. ولكنْ؛ سيكون لهذا العمل نتائجه على الوضع العسكري للفرنج والأيُّوبيين كلَيْهما، ففي عام 625 هـ 1228م، عندما وصل الإمبراطُور فريدريك الثَّاني إلى فلسطين اجتمع مع أمير جبيل جاي أمبرياكو، وأمير صيدا باليان[4]، وَجَمَعَ فرنجَ عكَّا، وصُور، وبيروت، وسار بهم إلى صيدا، وكانت مُناصفة مع المُسلمين، فاستولوا عليها بدُون أيِّ مُقاومة، وذلك لهَدْم حصن تبنين وغيره من الحُصُون الإسلاميَّة المُجاورة قبل سنوات[5]، وكانت تلك الحُصُون ملجأ حاميات تلك المنطقة، وتُسيطر على التَّحرُّكات العسكريَّة في الساحل المُقابل لها[6]. وبمُقابل تخريب المُسلمين لحُصُونهم كان الفرنج كُلَّما استولوا على

---

1 - قلعة كوكب: تقع فوق الجبل المُطلِّ على مدينة طبرية، وهي قلعة حصينة تُشرف على وادي الأردن، وهي من الفُتُوح الصَّلاحيَّة (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة : كوكب).

2 - قلعة عجلون: تقع فوق جبل عجلون، وتُشرف على وادي الأردن من جهة الشَّرْق. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار،20/ 158، والمُختصر ، أبو الفداء، 3/ 114 وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 175.

3 -ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار،20/ 217.

4 -الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 323، ولُبنان من السُّقُوط، تدمري، 225.

5 -المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 144.

6 - راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 477، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 235، و مرآة الزَّمان، ابن الجوزي، 8/ 2/ 597، ونهاية الأرَب، النويري، 29/ 86.

بلدة أو حصن يجعلونه في غاية الحصانة، فعندما استولوا على صيدا، وأزالوا عنها حُكْم المُسلمين حصَّنوا سُورها[1].

يظهر أن هدم الحُصُون وأسوار المُدُن كانت من أسهل الطُّرُق للحُكَّام المُسلمين في حال عجزهم عن حمايتها، بغَضِّ النظر عن التأثير المعنوي الكبير على موقف الناس، والخوف والهلع الذي ستُسبِّبه لهم، والمصائب والنكبات التي ستلي هجرة السُّكَّان. ورُبَّما كان أسوأ ما قاموا به من تهديم هُو تخريب الملك المُعظَّم لسُور مدينة بيت المَقْدس، ففي عام **616** هـ **1219**م، بعد سُقُوط دمياط كان المُسلمون جميعاً يعتقدون أن الهُجُوم على مصر غايته وُصُول الفرنجة إلى القُدْس، لذلك "أرسل الملك المُعظَّم عيسى الحجَّارين والنقَّابين إلى القُدْس، وخرب أسواره، وكانت قد حُصِّنت إلى الغاية، فانتقل منه عالم عظيم، وكان ذلك لمَّا رأى قُوَّة الفرنج، وتغلُّبهم على دمياط، فخشي أن يقصدوا القُدْس، فلا يقدر على مَنْعهم، فخرَّبه"[2]، فاتَّهمه مُعاصروه بالخوف من الفرنج، والعجز عن مُقاومتهم[3]، وهجوه بأشعارهم[4]. فعندما "أخرب المُعظَّم أبراج القُدْس وسُوره كان على أتمِّ الأحوال من العمارة، وكثرة السُّكَّان"، ومع أن قادة حامية القُدْس، وكان فيها العزيز عُثمان بن السُّلطان العادل، وأُستاذ الدار عزّ الدِّين آيبك، قد حاولوا منع تدمير القُدْس، وقالوا للمُعظَّم: نحنُ نحفظه، وهذا تعهُّد واضح بالدفاع عن القُدْس من قبَل حاميته، وهُمْ مَنْ يعرف إمكانية الدفاع عنه، لكنَّ المُعظَّم رفض طلب أخيه العزيز عُثمان، وأرسل يقول له: "لو أخذوه لقتلوا كُلَّ مَنْ فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشَّام"[5]. ويُبرِّر ابنُ واصل تدميرَ المُعظَّم أسوار القُدْس بقوله: "خاف المُعظَّم أن تصل من البحر أُمم عظيمة، إذا سمعوا بتمكُّن أصحابهم من مصر، فيقصدون البيت المُقدَّس، وهُو عامر، فيملكونه، ولا يُمكن بعد ذلك استنقاذه منهم"، ولكن ابن واصل يعود ليُناقض تبريره، فيذكر أن تخريب أسوار القُدْس أدَّى إلى هجرة السُّكَّان، واستياء المُسلمين[6].

1- المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 144.
2- المُختصر، أبو الفداء، 3/ 122.
3- مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 26.
4- ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 222.
5- ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 222.
6- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 32.

ويبدو أن التخريب أصبح عادة لكُلِّ أولاد السُّلطان العادل من المُلُوك، ففي عام 620 هـ 1223م، بعد عودة الملك الأشرف بن العادل من دمياط، اتَّفق مع أُمراء حلب "على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكراً، وهدموها إلى الأرض"[1]، ممّا يدلُّ على أنَّه أُعيد بناء قلعة اللاذقية مرَّة أُخرى، أو على الأغلب؛ أنّها لم تُهدَم بشكل كامل في المرَّة السابقة، ولكنْ؛ هل كان تهديم قلعة اللاذقية ضرورياً؛ خاصَّة بعد نصر دمياط الساحق على الفرنج؟! يُحتمَل أن ذلك كان خوفاً من انتقام بحري فرنجي.

لم تكن استراتيجية تهديم الحُصُون والقلاع وتخريب أسوار المُدُن تنبع خوفاً من الفرنجة وأساطيلهم فقط، بل اتَّبعها المُلُوك الأيُّوبيُّون على جبهات أُخرى، فعلى جبهة سلاجقة الرُّوم؛ قام السُّلطان الكامل عام 630 هـ 1232م "بهَدْم قلعة الرُّهَا، وبلدها"[2]. وكذلك قلعة السُّويداء، بعد أن عجز عن حمايتها من هجمات علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم[3].

وعندما تعرَّضت مملكة حماة لهُجُوم عساكر حلب، واحتلالهم المعرَّة عام 636 هـ 1238م، "خاف ملك حماة المُظفَّر أن تخرج بعرين من يده بسبب قلعتها، فتقدَّم بهَدْمها، فهُدمَتْ إلى الأرض"[4].

لقد كان كُلُّ ذلك الهدم للحُصُون في الشَّام، أمّا في مصر؛ فلم يهدم الأيُّوبيُّون فيها أيَّ حصن، أو سُور، رُبَّما لقناعتهم بتمكُّنهم من الدفاع عنها، أو رُبَّما لكثافة سُكَّانها، وتعداد رجالها، ومُقاتليها، ولكن الهدم في حُصُون مصر كان على يد المماليك، الذين تربّوا في قُصُور المُلُوك والأُمراء الأيُّوبيِّين، ولابُدَّ أنّهم شهدوا معهم، أو شاركوا بأنفسهم، تخريب العديد من الحُصُون في الشَّام. ففي عام 648 هـ 1250م، وبعد انتصار المماليك على حملة الملك لويس، وأَسْره، وتحرير دمياط، دخلوا في صراع على السُّلطة ضدَّ الوريث الأيُّوبي الشرعي سُلطان الشَّام الملك النَّاصر يُوسُف، فخافوا أن يغتنم الفرنجُ فُرصةَ خلافهم معه، ويُعاودوا الكَرَّة على دمياط، فيملكوها، "فاجتمع رأي أُمراء المماليك على خراب دمياط"[5]، وهذا أسهل ما يقومون به للدفاع عنها، وكانوا ـ بذلك ـ تلامذة حقيقيين للأيُّوبيين.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 132.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.
3 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 315.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 163.
5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 8/ 15.

لكنْ؛ للحقيقة، ولذكْر كُلِّ جوانب الأمر، فإن مُلُوك بني أيُّوب كانوا إذا شعروا بالاطمئنان العسكري، وبدَّدت الظُّرُوف المُحيطة خوفَهم من امتلاك الآخرين، إنْ كانوا أعداء خارجين، أو داخلين، لما بأيديهم من القلاع والمُدُن، كانوا يميلون إلى عمارة البلاد، وتحصينها، فعندما استتبَّ الأمرُ للملك الصَّالح أيُّوب أَمَرَ ـ أثناء زيارته إلى القُدْس عام **646** هـ **1248**م ـ "بإعادة بناء سُور القُدْس، الذي هدمه عمُّه الملك المُعظَّم"[1]، ولذا؛ فإنَّنا نعدُّ إعادة تسوير القُدْس هُو مُنتهى الشُّعُور بالقُوَّة والسيطرة التامَّة على البلاد، وابتعاد التهديدات الخارجيَّة، وهذه هي دوافع الملك الصَّالح أيُّوب.

تهديم الحُصُون خلال المعارك:

كان من الطبيعي أن يتحصَّن المُدافعون في قلاع، أو حُصُون، أو خلف أسوار المُدُن، وأن ينقضَّ الجيش الغازي على التحصينات، مُحاولاً هدمها؛ لاختراقها، والوُصُول إلى المُدافعين لقَتْلهم، أو إجبارهم على الاستسلام. فلهذا الغرض تأسَّست في الجُيُوش الأيُّوبيَّة، ولدى أعدائهم بالتَّأكيد، فرَق هندسية مُختصَّة بهدم التحصينات، وكان يُطلَق على فرَق النقَّابين اسم الخراسانية[2]، وكانوا يُباشرون عملهم فور إلقاء الحصار على الحصن، أو المدينة، ويقومون بالحفر تحت بُرج، أو باشورة[3]، ثُمَّ يدعمون سقف النقب بالأخشاب، وعند وُصُولهم للأساسات، "يحشون النقب بالحطب، ويُلقون النار فيه، فينهار البناء"[4].

وكخُطَّة دفاعية كان أهل المدينة أو الحصن عندما يُبدأ نَقْبُ أسوارهم يبنون بطانة للسُّور من الداخل، فإذا انهار السُّور الخارجي، وجد المُهاجمون سُوراً آخر أمامهم[5].

---

1 - النجوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 359.

2 - الخراسانية: مُهندسو نقب الأسوار، (الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، 142)، ـ ورُبَّما كانت نسبتهم إلى خراسان مُجرَّد اسم لهم، ولم يكونوا ـ بالضرورة ـ من خراسان.

3 - الباشورة: مبنى بارز على السُّور، فوق المدخل، أو مُجاور له ليحميه، وهُو من أصل البناء، ويكون للحصن أو السُّور أكثر من باشورة. (قلعة الحصن، طلاس، الجلاد/ 153).

4 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، 73.

5 - المنصُوري، ابن نظيف، 184.

تهديم الطبيعة للحُصُون:

كان لعوامل الطبيعة الدور الأهمّ، بعد العمليات العسكريّة، في انهيار الحُصُون، ممَّا يستدعي دوام الترميم والتدعيم فيها، فالمطر والرياح دائمان، وخاصَّة في سواحل بلاد الشَّام، ومعاقلها الجبلية؛ حيثُ تكثر القلاع والحُصُون. ولكن الظاهرة الطبيعية الأكثر تدميراً كانت ـ ومازالت ـ هي الزلازل، ويبدو أن العصر الأيُّوبي قد شهد عدداً من الزلازل، كان منها الشديد التدمير، وكان منها المُتوسِّط الشدَّة[1]. وربَّما كان زلزال عام 597 هـ 1201م، من أشدّها، وقد وصفه عبد اللطيف البغدادي بقوله: "كانت الأرض تسير سيراً، والجبال تمور موراً، وما ظنَّ أحد من الخلق إلاَّ أنَّها زلزلة الساعة"[2]. أمَّا مُقدَّم الدَّاويَة في عكَّا فيليب دي بليسيس ـ **Philip Du Plessis**؛ فقد وصف ما فعلته الزلزلة في بلاد الإفرنج في رسالته إلى أرنولد رئيس أساقفة شيتو **Arnold I Abbot of Chateaux**، فكان برأيه أعنف زلزال مُنذُ بدء الخليقة، فقد دمَّر عكَّا، وقتل مُعظم سُكَّانها، وحطَّم صُور، وطرابلس، وطرطوس، وقد دمَّر قلعة عرقا بالكامل، وأرسوف، وبُرج صافيتا، ثُمَّ انتشر الطاعون، فمات به مَنْ لم يمت تحت الأنقاض، ومن شدَّة يأس مُقدَّم الدَّاويَة لم يطلب سوى الصلاة[3]. وكذلك مُقدَّم الاسبتاريَّة جفري أوف دونجون– **Geoffrey of Donjon** ، فقد أرسل يشكو حال الفرنج بعد الزلزال إلى سانشو السَّابع ملك نافار ـ **Sancho VII of Navarra** ، ويصف حال الخراب بمناطق الفرنجة بأنَّه: "يحتاج إلى أكثر من جيل لإصلاحه، ويتحدَّث بتفصيل عن دمار معقلَيّ الاسبتاريَّة: حُصن الأكراد، وقلعة المرقب، ويقول إن مَنْ بقي حياً سيُواجه مصير مَنْ قتله الزلزال لعدم وُصُول الإمدادات إليهم"[4].

وهذا يدلُّ على عدم بقاء مَنْ يمدُّ يد المُساعدة لمنكوبي الحُصُون البعيدة عن المُدُن، ولذلك ساد الاعتقاد بأنَّ خسائر الفرنج كانت أكبر بكثير جرَّاء زلزلة عام 597 هـ 1201م، من خسائر المُسلمين، فقد دُمِّرَتْ قلاع الفرنجة وحُصُونهم وأبراجهم، التي كانت عمادهم الأساسي في خُططهم

1 ـ راجعْ كتاب: الزلازل في بلاد الشَّام، عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد مُؤنس أحمد عوض، 113 ـ 135.

2 ـ الإفادة والاعتبار، البغدادي، 100.

3 - Tow unpolished letters on the Syrian, Mayer, p. 304

4 - Tow unpolished letters on the Syrian, Mayer, p. 304

الحَرْبِيَّة؛ سواء في الدفاع، أم الهُجُوم، وهي ما كان يُعوِّض لهم نقص الرجال، والتواجد في مناطق مُعادية.

ولكنْ؛ يجب أن لا نُعطي الأمرَ أكبرَ من حجمه؛ إذْ سُرعان ما قامت طوائف الرُّهبان المُقاتلين من داوية واسبتارية بعملية إعادة الترميم والبناء للحُصُون والقلاع التي كانت بحُكْمهم، وساعدهم على ذلك ثرواتهم الواسعة، فأصبحت حُصُونهم أقوى، وقلاعهم أكبر.

أمَّا إذا سألنا لماذا لم يغتنم المُسلمون فُرصةَ الدمار ونَقْص الرجال لدى الفرنج، ويقوموا بهُجُوم يكتسحون فيه الفرنج نهائيّاً من الساحل، فالجواب لن يكون بسبب انشغالهم بترميم حُصُونهم ومُدُنهم، فدمارها كان جزئياً، وقُوَّة جُيُوشهم الرئيسية كانت شبه كاملة، فدمار مُدُن الشَّام الإسلاميَّة كان يسيراً بالنِّسبَة لما جرى في الساحل وُفقاً لروايات المُؤرِّخين[1]، ولذلك نرى أنَّه قد يكون السبب الأهمّ لعدم اغتنامهم الفُرصة أنَّها صادفت صراع أبناء السُّلطان صلاح الدِّين ضدَّ عمِّهم العادل، فقد عدَّ مُلُوك الأيُّوبيَّة أن هذه الزلزلة هبة من الله لإلهاء الفرنج عنهم.

---

1 - راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 170، والمنصُوري، ابن نظيف، 25، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 174، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 29، ومُختصر الدُّول، ابن العبري، 208، والصلصلة عن وصف الزلزلة، السُّيُوطي، 198 ـ 195، ـ أكَّد المُؤرِّخون المُسلمون بأنَّ الدمار في الديار الإسلاميَّة اقتصر على بعض أجزاء الأبنية، والقتلى يُعدُّون على أصابع اليد في كُلِّ بلد إسلامي أصابته، ولكنَّهم أدركوا حجم الدمار الهائل لدى الفرنج، فقد ذكروا أن قُوَّة الزلزلة كانت على الساحل.

المبحث السَّابع:
الأُسطُول والحَرْب البَحْرِيَّة

مُنْذُ أن وصل العَرَب المُسلمون إلى سواحل بحر الشَّام أدركوا إن عليهم للاحتفاظ بها أن يتقنوا الدفاع والهُجُوم في البحر، فللدفاع أقاموا الرباطات في الثُّغُور البَحْرِيَّة، وقد امتلأت بالمُجاهدين، يتحدَّث المَقْدسي المُتوفَّى عام 380 هـ عن واحد من هذه الرباطات كان في قرية كفر سلام من قُرى قيسارية جنوب الساحل الشَّامي، يقول: "لها رباطات على البحر، ويقع فيها النفير، وتُقلع إليها شلنديات الرُّوم، وشوانيهم . . وقد ضجَّ بالنفير لمَّا تراءت مراكبهم، فإنْ كان ليل أُوقدت منارة ذلك الرباط، وإنْ كان نهار دخَّنوا، ثُمَّ تُوقد المنارة التي تليها، ثُمَّ الأُخرى، فلا تكون ساعة، إلاَّ وقد أنفر مَنْ بالقصبة، وضُرب الطبل على المنارة، ونُودي إلى ذلك الرباط، وخرج الناس بالسلاح، والقُوَّة"[1].

أمَّا للهُجُوم؛ فسُرعان ما برع العَرَب في الحَرْب البَحْرِيَّة، فأقاموا دُور بناء السُّفُن، وشكَّلوا الأساطيل، التي انتشرت على سواحل الشَّام، وسُرعان ما انتصر العَرَب على الأُسطُول البيزنطي، أعرق أساطيل البحر المُتوسِّط، وأقواها، في معركة ذات السواري. ودعم الأُسطُولُ الإسلاميُّ من موانئ الشَّام حملةَ الأمويين الثَّانية على القسطنطينيَّة بآلاف القطَع البَحْرِيَّة.

ولكنْ؛ بعد انقسام الدولة العَرَبِيَّة الإسلاميَّة، وتشرذم دُولها، أصاب الوهنُ الأُسطُولَ الشَّامي، حتَّى كاد أن يتلاشى، وانتقل مركز ثقل البَحْرِيَّة الإسلاميَّة من سواحل الشَّام إلى سواحل مصر، بعد سيطرة الفاطميين عليها، فقد أحضروا معهم تُراثهم البحري من المغرب، فاهتمُّوا بالأساطيل، وأقاموا في مصر قُرب عاصمتهم القاهرة داراً لصناعة السُّفُن، وكان يُشرف عليها ديوان العمائر التابع لديوان الجهاد، يقول ابن الطُّوَيْر: "كان من أهمِّ أُمُورهم احتفالهم بالأساطيل ومُواصلة إنشاء المراكب بمصر والإسكندرية ودمياط من الشواني الحَرْبِيَّة والشلنديات والمُسطَّحات، وإنفاذها إلى بلاد الساحل، وكانت جريدة قواد الأُسطُول تزيد عن خمسة آلاف مُدوَّنة، منهم عشرة أعيان يُقال

---

1 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المَقْدسي، 177.

لهم القواد تصل جامكية كُلّ منهم إلى عشرين دينار، ولهم إقطاعات تُعرَف بأبواب الغُزاة. ويُقدَّم على الأُسطُول أمير كبير من أعيان الأُمراء، وأقواهم"[1].

لم يكتف صلاح الدِّين بحراسة الشواطئ البَحْريَّة، بل أَوْلَى الأُسطُول كبير عناية، وأفرد له ديواناً عُرف بديوان الأُسطُول، وعيَّن له الإقطاعات، وحدَّد له الخراج، وأَوْقَفَ على الأُسطُول أشجار السنط في مصر، وأَوْكَلَ بديوان الأُسطُول أخيه الملك العادل، الذي أقام في مُباشرته وعمالته صفي الدِّين بن شكر[2]، ذلك لشدَّة اهتمام صلاح الدِّين بالأُسطُول، ولإدراكه أن سلامة دولته ورخائها يعتمدان على قُوَّتها البَحْريَّة[3].

عندما شنَّ أمير الكَرَك هُجُومه البحري من ميناء إيله عبر البحر الأحمر نحو المدينة المُنوَّرة، اضطرَّ السُّلطان صلاح الدِّين إلى شحن أُسطُول في البحر الأحمر، مُستعيناً بنجدة المغاربة البحريين المُتواجدين في مصر وقتها[4]؛ حيثُ تمكَّن أمير الأُسطُول لُؤلُؤ من القضاء على حملة الفرنجة، وأسرهم. ولأن ساحل الشَّام وموانيه التي تمَّ تحريرها من الاحتلال الفرنجي لم يعمرها السُّلطان، بسبب ضغط الأساطيل الفرنجيَّة، وبالتَّالي؛ ظلَّت الدولة الأيُّوبيَّة تفقد دعم الأُسطُول البحري قُرب مناطق العمليات الحَرْبيَّة في الشَّام. واقتصر الأمر في الموانئ المُحرَّرة على الدفاع عنها من البرّ.

لكنَّ الأمر في مصر، التي تتبع ـ أيضاً ـ للدولة الأيُّوبيَّة، كان مُختلفاً، فعندما بدأ الفرنج حصارهم الشهير لعكَّا استدعى السُّلطان صلاح الدِّين أُسطُول مصر، وكانت عدَّته خمسين شينياً، ولمَّا وصل أمام عكَّا، وكان بقيادة أمير البحر حُسام الدِّين لُؤلُؤ صاحب مأثرة البحر الأحمر، هاجم أُسطُول الفرنجة، وشتَّته، وغنم منه شيني[5] عظيم[6]، ويبدو أن هذه الهجمة للأُسطُول المصري كانت في نهاية الخريف؛ حيثُ تنقطع طُرُق الإمداد البحري من أُورُبا، وتتوقَّف أساطيل الفرنجة عن الحَرَكَة، وتغادر إلى موانيها، ويُؤكِّد ذلك العماد الأصفهاني، بقوله: "وانقطعت طُرُق الفرنج البَحْريَّة،

1 - نُزهة المُقلتَيْن، ابن الطُّوَيْر، 95 ـ 96، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 7/ 204 + 10/ 212.
2 - الخُطط والآثار، المقريزي، 3/ 12، ـ صفي الدِّين عبد الله بن علي بن شكر، وسيكون وزير العادل في سلطنته.
3 - الشَّرق الأدنى ـ أيُّوبيون، الباز العريني، 188.
4 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 35
5 - الشيني: سفينة حربية كبيرة.
6 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 231.

فاستطالت بها أساطيلنا، فعملت ما شاءت"[1]، ويقول أيضاً: "اغتنم السُّلطانُ هيجانَ البحر، وحُضُور مراكب الأُسطُول من مصر، فما زال يُقوِّي عكَّا، فلمَّا سَكَنَ البحرُ، وعادت مراكب الكُفْر، عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، وشدَّت مراكبنا في موانيها"[2]. إنَّها حالة تفوُّق فرنجي بحري واضحة تماماً؛ إذْ لا تخرج السُّفُن الحَرْبيَّة الأيُّوبيَّة إلاَّ في حال مُغادرة الأساطيل الفرنجيَّة أيَّام هيجان البحر، لذلك كان المُلُوك الأيُّوبيُّون المُتعاقبون يُدركُون هذا التفوُّق، ولا ندري هل عملوا على تلافيه، وعجزوا؟ أم أنَّهم اقتنعوا بالتفوُّق الفرنجي البحري، ووضعوا استراتيجياتهم العسكريَّة على أساسه؟! هذا هُو الأغلب، بدليل عدم بذل أيِّ جهد لبناء أساطيل، أو إقامة دُور صناعة بحرية بشكل واسع لقلب ميزان القوى البَحْريَّة في البحر المُتوسِّط. وهذا ما يُفسِّر عدم قيام معارك بَحْريَّة هامَّة في العصر الأيُّوبي، فأساطيلهم البَحْريَّة في ساحل الشَّام هي سُفُن قليلة في بعض الثُّغُور الشَّاميَّة، ولبعض الوقت، تقوم بمهمَّات خاصَّة بسيطة، ومُحدَّدة، بينما كانت مصر مركز القُوَّة البَحْريَّة الأيُّوبيَّة؛ حيثُ تلجأ السُّفُن إلى النِّيل في حال الخطر، إضافة لوُجُود بقايا قواعد لبناء السُّفُن مُنْذُ العصر الفاطمي، وخاصَّة في دمياط، والإسكندرية.

أدرك السُّلطان صلاح الدِّين نقطة ضعفه في البحر، فأرسل يطلب من سُلطان المغرب دعم أُسطُوله القوي في الجهاد ضدَّ الفرنجة، ولكنَّه تجاهل هذا الطلب[3]. وبسبب خسارة الدولة الأيُّوبيَّة لقواعد الأُسطُول في موانئ الشَّام[4]، ولضعف ونقص الخبرات الفنيَّة وقلَّة وُجُود الأخشاب المُناسبة في بلادها، كُلُّ ذلك لم يكن ليسمح لصلاح الدِّين، ولا لخُلفائه بالدُّخُول في سباق تسلُّح بحري مع الفرنج[5]. لكنْ؛ مع كُلِّ هذا كان أُسطُول مصر يتحرَّك، ويُهاجم كُلَّما سنحت له الفُرصة، فعندما تولَّى العزيز بن صلاح الدِّين حُكْم مصر، بعد وفاة والده، جهَّز أُسطُول النيل من مصر ودمياط، وأُسطُول الإسكندرية، وَسَيَّرَهُ لغزو بلاد الفرنج، فاستولوا على عدَّة سُفُن فرنجية، وأحرقوا لهم

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 231.
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 244.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 288.
4 - البَحْريَّة الإسلاميَّة، سيِّد عبد العزيز سالم، 292.
5 - راجعْ كتاب: الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 176.

مركباً كبيراً[1]. وستكون آخر المُحاولات لتشكيل أُسطُول أيُّوبي مُقاتل في البحر تلك التي جرت أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين[2]، وسيتخلَّى خُلفاؤه عن هذه المُحاولات.

عندما تولَّى الملك العادل السَّلطنة في دولة بني أيُّوب بعد أخيه صلاح الـدِّين، كـان لـه اهـتمام خاصٌّ بالأُسطُول، فحاول تجديد الأُسطُول المصري، ودعمه، حتَّى تمكَّن مـن القيـام بغـزوات بعيـدة بمواعيد موسمية من كُلِّ عام، ففي عام **593** هـ **1197**م، خرج أُسـطُول مـصر للغـزو، "وعـاد إلى القاهرة غانماً سبعين فارساً"، كان فيهم أمير، أو قائد كبير، "فبُذل في فدائـه ثمانيـة آلاف دينـار"[3]. وأعاد أُسطُول مصر الكَرَّة في العام التالي **594** هـ **1198**م، فوصل حتَّى ميناء إيـاس، وضرب مملكـة الأرمن، وعاد إلى مصر ومعه منهم أربعمائة وخمسون أسيراً[4]. وظلَّ اهتمام الملـك العـادل بالأُسـطُول وغزواته السنوية حتَّى تعرَّض أُسطُول مصر لكارثة طبيعية كُبْرَى دمَّرتْهُ، ففي عام **602** هـ **1205**م، جهَّز العادل في ميناء الإسكندرية خمسة عشر شينياً، وشحنها بالرجال والعتاد، وَسَيَّرَهُم للغزو، وبينما هُم قبالة شواطئ إمارة طرابلس الفرنجيَّة ضربتْهُم عاصفة بَحْريَّة، رمت بهم على الساحل، فتكسَّرت المراكب، وهلك عدد كبير من البحَّارة والجُنُود، "ما بين أسرى، وغرقى، ولم يسلم من الـشواني غـير ستَّة"[5]. وربَّما كانت هذه الكارثة البَحْريَّة هي سبب عدم سـماعنا عـن أيِّ غـزوة بَحْريَّـة، أو نـشاط للأُسطُول الأيُّوبي في البحر المُتوسِّط حتَّى غزوة دمياط.

المعارك البَحْريَّة:

ففي عام **615** هـ **1218**م، بعد وُصُول الحملة الفرنجيَّة بحراً إلى دميـاط، وإلقـاء الأسـاطيل مراسيها قبالتها، تحرَّك الملك الكامل نائب أبيه في مصر بجُيُوشه برَّاً، وأمر بتحريك أُسطُول النيل نحو دمياط[6]. ونستطيع أن نقول إن معارك هذه الحملة كان العامل الحاسم فيها هُـو الأُسـطُول الأيُّـوبي،

---

1 - البُستان الجامع، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 344.

2 - The Crusades, Carole Hillenbrand, p. 570

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 11.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 18.

5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 159.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.

وقد أثبتت البَحْريَّة الأيُّوبيَّة وُجُودها ـ من جديد ـ أمام أقوى أساطيل العصر، وأمنع سُفُنه[1]، فعندما جنحت مرمة[2]، فرنجية تجاه ساحل البحر الذي فيه المُسلمون، استولوا عليها، "فإذ هي مُصفَّحة بالحديد، لا تعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع، وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً"[3].

ولمعرفة الأيُّوبيِّين بأنَّ النيل هُو مدخل مفتوح أمام الأساطيل الفرنجيَّة، فقد سدُّوا منفذه أمام دمياط بسلسلة مشدودة بين بُرجَيْن، قاتل الفرنج عليها، حتَّى ملكوا الأبراج، وقطعوا السلسلة، فلجأ الملك الكامل إلى تغريق عدَّة مراكب في النيل لمَنْع تقدُّمهم البَحْري، فاحتالوا على ذلك بحَفْر فرع قديم للنيل، وأجروا الماء فيه، وعبروا جنوباً، ولمَّا تجاوزوا الحاجز المائي، سهل عليهم احتلال دمياط، فانسحب الكامل بقُوَّاته إلى الخلف، وَعَسْكَرَ في المنصُورة، وقدم الأُسطُول، وكان حوالي مائة قطعة.

وكان أمير الأُسطُول بدر الدِّين بن حسُّون، فسارع، وحصر قُوَّات الفرنج بعد تقدُّمهم نحو المنصُورة من الخلف، وقطع عنهم الميرة والإمدادات القادمة من البحر، وانقض الأُسطُول المصري على أساطيل الفرنج، ودارت معارك بَحْريَّة حقيقيَّة، فقد استولى على ستِّ شواني وجلاسة وبطسة[4] للفرنج، أسر فيها ألفَيْن ومائتَيْ رجل، ثُمَّ ظفروا بثلاث قطع بَحْريَّة أُخرى برجالها، وأسلحتها. وهاجم أُسطُول مصر مرمة عظيمة قادمة من البحر، وحولها عدَّة حرَّاقات تحميها، وكُلُّها كانت مشحونة بالميرة والسلاح، فدارت معركة بَحْريَّة هائلة، ظفر ـ في نتيجتها ـ أُسطُول مصر بالمرمة والحراقات[5].

وفي الحقيقة؛ كانت الحَرْب البَحْريَّة في غزوة دمياط الثَّانية أيَّام الملك الكامل هي الحَرْب الأساسية، ومعاركها هي التي فرضت النِّهاية المحتومة للفرنج بالهزيمة.

---

1 -حول أنواع السُّفُن الفرنجيَّة وتسليحها راجعْ: كتاب الأسرار، مارينو سانوتو، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 38/ 156 ـ 157، 160 + 40 / 232.
2 -المرمة: سفينة من أكبر أنواع السُّفُن.
3 -السُّلُوك، المقريزي، 1/ 313.
4 -الجلاسة: سفينة نقل جُنُود صغيرة ـ البطسة: سفينة نقل حربية ذات سعة تخزين كبيرة، وكانت من سُفُن البنادقة، وقد اشتُقَّ تعريب اسمها من كلمة: Buzzus (حملة الملك ريتشارد، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 31/)50.
5 -السُّلُوك، المقريزي، 1/ 944ـ451.

وعندما تولَّى الملك الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب سلطنة مصر بعد أبيه الكامل، وجد أُسطُول البحر الأحمر كافياً ومُناسباً لتجهيز حملة بَحْريَّة نحو اليمن عام 638 هـ 1240م[1].

وفي غزوة دمياط الثَّالثة؛ حيثُ واجه الملك الصَّالح أيُّوب هُجُوم لويس التَّاسع ملك فرنسا بحملته البَحْريَّة على دمياط عام 647 هـ 1249م، حرَّك أيُّوبُ قُوَّاته البرِّيَّة نحو دمياط، وأمر نائبه في القاهرة حُسام الدِّين ابن أبي علي "أن يُجهِّز الشواني من صناعة مصر، فشرع في تجهيزها، وتسييرها شيئاً بعد شيء"[2]، فكانت الشواني المصريَّة ترد بالعدد الكاملة والرجَّالة[3]، ممَّا يدلُّ على وُجُود ترسانة كاملة ومُستعدَّة لتصنيع السُّفُن في القاهرة. وبعد وفاة أيُّوب وحُضُور ابنه المُعظَّم تُورانشاه لتولِّي قيادة المعركة ضدَّ الفرنج، تسلَّلت قطَع الأُسطُول المصري إلى ما وراء سُفُن الفرنجة، ثُمَّ أطبقت عليها من الخلف، وتقدَّم باتِّجاهها أُسطُول دمياط من الأمام، فتمَّ الفتك بها، وأُسر منها أعداد كبيرة، وذهب بحَّارتها بين قَتْلَى، وغرقى. وصحيح أنَّه أعقب ذلك معركة بَحْريَّة خسر فيها المُسلمون عدَّة قطَع، لكنَّهم ثأروا لها بالمعركة الثَّالثة، التي دمَّروا فيها مُعظم ما تبقى للفرنج من أساطيل مُتقدِّمة، فنفدت مُؤن الحملة البرِّيَّة، وقُطع إمدادها، وطمع فيهم المُسلمون، فأخذوهم قَتْلاً وأَسْراً[4].

ومع كُلِّ هذه النجاحات؛ فإنَّنا نتبيَّن أن حال الأُسطُول الأيُّوبي كانت ـ بشكل عامٍّ ـ تسير من سيِّئ إلى أسوأ، يقول المقريزي: "ثُمَّ قلَّ الاهتمام بالأُسطُول، وصار لا يُفكَّر بأمره إلاَّ عند الحاجة إليه. فإذا دعت الحاجة إلى تجهُّزه طُلب له الرجال، وقُبض عليهم من الطُّرُقات، وقُيِّدوا بالسلاسل نهاراً، وسُجنوا في الليل، حتَّى لا يهربوا، فصارت خدمة الأُسطُول عاراً يُسبُّ به الرجال في مصر، وإذا قيل لرجل "يا أُسطُولي" غضب غضباً شديداً، بعدما كان خُدَّام الأُسطُول يُقال لهم المُجاهدون في سبيل الله، والغُزاة في أعداء الله، ويُتبرَّك بدُعائهم للناس"[5].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 408.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

4 - الخُطط والآثار، المقريزي، 1/ 221. ـ راجع: العُدوان الصليبي على مصر، جُوزيف نسيم، 191 ـ 192.

5 - الخُطط والآثار، المقريزي، 2/ 174.

غزوات الفرنج البَحْريَّة:

كانت الأساطيل الفرنجيَّة كُلَّما وجدت في نفسها قُوَّة، أو لمست ضعفاً من المُسلمين، تقوم بغزوة كبيرة نحو بلد لا ندري كيف كان يتمُّ اختياره، وغالباً بواسطة استطلاع بَحْري مُقنَّع بطابع تجاري، ففي عام **600** هـ **1203**م، "توجَّهت عشرون قطعة من أُسطُول الفرنج من عكَّا، ودخلت من فم رشيد إلى قرية فوة بمصر، ونهبوها، وأقاموا بنواحيها يومَيْن، ثُمَّ خرجوا من حيثُ دخلوا غانمين سالمين، ولم يسمع أحد بمثل ذلك مُنْذُ فتح مصر"[1]. يقول صاحب عقد الجُمان إن من قام بهذا الهُجُوم هُو صاحب قبرص[2]، ويقول أبو الفداء وابن الأثير: "إن الفرنج أقاموا ينهبون في نواحي فوة خمسة أيَّام"[3]، فأين كان سُلطان بني أيُّوب العادل؟! وأين ابنه ونائبه في مصر الكامل؟! وأين جُيُوش مصر، وأساطيلها؟! يقول ابن الأثير مُعلِّلاً ذلك: "كانت عساكر مصر مُقابلهم بينهم النيل، ليس لهم وُصُول إليهم لأنَّه لم تكن لهم سُفُن"[4]. وهذا ليس بعُذر، فلماذا لم يعبروا بأيِّ واسطة مُتاحة؟ أو يصلوا إلى بلدة فوة من البر التي هي عليه؟!

ولم يكتف الفرنج بالهُجُوم البَحْري على بلاد المُسلمين من ميناء عكَّا وموانئ ساحل الشَّام المُحتلَّة، فقد كانت جزيرة قبرص قاعدة أساطيل الفرنجة، وملجأ قُوَّتهم البَحْريَّة بعد عكَّا. فبعد موت السُّلطان صلاح الدِّين واختلاف أبنائه وعمّهم العادل، اغتنم ملك قبرص عموري لوزنيان الفُرصة، وهاجم بيروت بأساطيله، واستولى عليها عام **593** هـ **1197**م، بعد هرب حاميتها، التي كانت بقيادة عزّ الدِّين أُسامة، بدُون مُقاومة. وفي عام **607** هـ **1210**م، توجَّه إليان القبرصي قائد أُسطُول عكَّا إلى مصر، وأرسى غرب دمياط، وأنزل رجاله إلى البرّ، وهاجموا قرية بورة الواقعة على النيل، فسبى أهلها، ونهبها، وعاد آخر النهار نحو مراكبه، وأبحر، دُون أن يتمكَّن أحد من اللحاق به[5].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 95.

2 - من عقد الجُمان، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، مُجلَّد/ 59، أحداث عام 609 هـ.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 106، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 198.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 198.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 149. ـ تمكَّن إليان القبرصي عام 609 هـ، من الاستيلاء على أنطاكية، وشنَّ هُجُوماً على التُّركمان في سهلها، فقتلوه، وحملوا رأسه إلى الملك العادل. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 154).

المبحث الثَّامن:

أسرى الحَرْب

كان الأسرى في عصر الحُرُوب مع الفرنجة على نوعَيْن، فهُم إمَّا عسكريون يُؤسرون في المعارك، أو بعد فَتْح المُدُن والقلاع، أو أنهم مَدَنيون يُؤخذون كغنائم عند فَتْح المُدُن، أو الهُجُوم على مواقع آهلة. وغالباً؛ لم تكن الجُيُوش الأيُّوبيَّة تأخذ أسرى من المدنيين، وعند فَتْح المُدُن يُسمَح للسُّكَّان الفرنج المدنيون بالرحيل إذا استسلمت المدينة بدُون قتال. وبشكل عامٍّ؛ كان القادة الأيُّوبيُّون يلتزمون بشُرُوط المُعاهدات، أو شُرُوط استسلام المُدُن والقلاع، أمَّا إذا سقطت المدينة حرباً وبقُوَّة السلاح، فسُكَّانها غنائم بشرع قانون الحَرْب في ذلك العصر، لكنَّ القادة الأيُّوبيِّين كانوا ـ دائماً ـ يسمحون للسُّكَّان بافتداء أنفسهم بمبالغ بسيطة.

الأسرى المَدَنيون:

على العكس من مُعاملة المُسلمين كان الأسرى المَدَنيون المُسلمون لدى الفرنج يُسامون العذاب، ويُنفِّذون أشقَّ الأعمال، وخاصَّة بتسخيرهم لبناء التحصينات، وحفر الخنادق، حتَّى يتمكَّن الأسير من شراء نفسه، أو أن يفتديه أمير، أو مُحسن، كما حصل للشاعر سعدي الشيرازي، فقد خطفه الفرنج، وهُو في طريقه إلى القُدْس، وأجبروه على العمل في حفر خندق طرابلس، وبالصُّدفة مرَّ به تاجر من حلب، فافتداه مُقابل عشرة دنانير[1].

ولم يرحم الفرنج الأسيرات المُسلمات، فقد عوملوا كالعبيد تماماً، وعندما وصف ابن جُبَيْر حال الأسرى والأسيرات المُسلمات في بلاد الفرنج التي زارها في رحلته، قال: "يرسفون في القُيُود، ويُصرَّفون في الخدمة الشاقَّة تصريف العبيد، والأسيرات المُسلمات كذلك في أسوقهنَّ خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يُغني الإشفاق عنهم شيئاً"[2].

---

1 - روضة الورد ـ كلستان، سعدي الشيرازي، 114.

2 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 280.

لذلك كان فداء أسرى المُسلمين من الفرنج أحد أهمِّ أوجه الصدقات في عصر الحُرُوب مع الفرنجة. وخاصَّة الأسرى الغُرباء، أو المغاربة على وجه الخُصُوص؛ حيثُ كانت تُترك الوصايا، وتُخصَّص أموال من صدقات المُحسنين لفدائهم[1].

الأسرى العسكريون:

القادة والأُمراء:

وقع في أَسْر المُسلمين عدَّة شخصيَّات فرنجية كبيرة؛ منهم بلدوين أوف بورج، الذي أُسر مرَّتَيْن، الأُولى عندما كان أميراً للرُّهَا، والثَّانية عندما كان ملكاً للقُدْس، وفي المرَّتَيْن أُطلق سراحه، وتعهَّد أنْ لا يُحارب المُسلمين، لكنَّه نكث بوُعُوده، وعاد لحربهم. كذلك أُسر جوسلين الأوَّل مرَّتَيْن، مرَّة وهُو صاحب تلّ باشر، والأُخرى عندما كان أميراً للرُّهَا. كما أُسر بُوهمند أمير أنطاكية، وريموند الثَّاني أمير طرابلس[2]، وأُسر عدد كبير من الأُمراء ومُقدَّمي الدَّاويَّة والاسبتاريَّة في معركة حطِّين[3]. أمَّا في معركة المنصُورة؛ فقد أسرَ الجيشُ الأيُّوبي الملكَ الفرنسيَّ لويس التَّاسع، وأخوَيْه، وكبار قادته، وقيَّدوهم بالسلاسل، ثُمَّ أفرجوا عنهم[4]. ويبدو أن المُسلمين في العصر الأيُّوبي كانوا يُقدِّرون المُلُوك والأُمراء، ويُجلُّونهم عن الأسر، وعلى الدوام؛ كان يُطلَق سراحهم ما عدا مَنْ يُعدُّ منهم مُجرم حرب، فيُقتَل كما فعل السُّلطان صلاح الدِّين بأرناط أمير الكَرَك، الذي كان أشبه بقاطع طريق منه بأمير. وبالمُقابل؛ فإنَّنا نُلاحظ أن المُلُوك الأيُّوبيِّيْن والأُمراء لم يقع أيٌّ منهم في أَسْر الفرنجة، ورُبَّما كان مَرَدُّ ذلك إلى تحرُّكاتهم المدروسة، واستطلاعهم الجيِّد، وخبرتهم الكاملة بالأرض.

كان الشرع الإسلامي يحمي الأسرى الفرنج من التعذيب والتجويع، فقد أفتى الفُقهاء بأنَّه لا يجوز تعذيب الأسير بالجُوع، والعطش، وغيرهما من أنواع التعذيب[5]. ولكثرة ما كان المُسلمون في العصر الأيُّوبي يأسرون من جُنُود الفرنجة، فقد كانوا يرغبون بفدائهم، حتَّى لا يكونوا عبئاً عليهم،

---

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 281.

2 - حول إمارة الرُّهَا وأَسْر بُوهمند راجعْ:

A History of the expedition to Jerusalem, Falcher of Charter's, p.135

3 - راجعْ كتاب: القادة الصَّليبيُّون الأسرى، محمود عُمران.

4 - راجعْ معركة دمياط الثَّانية في مبحث العلاقات العسكريَّة مع الفرنج في هذا الكتاب.

5 - العلاقات الدّوليّة، وهبة الزحيلي، 78.

بإقامتهم، وطعامهم، وحراستهم، فبعد جَمْع الأسرى كان يُطلَب مِمَّنْ يستطيع منهم أنْ يفدي نفسه بالمال[1]. كما كان المُسلمون يُطلقون أسرى الفرنج في كثير من المُناسبات، لإثبات حُسْن النيَّة، أو لاستكفاء الشَّرِّ[2]، أو بمُناسبة عقد الصُّلح، وغالباً ما كانت شُرُوط مُعاهدات الصُّلح تنصُّ على ذلك[3]. ولكنْ؛ في بعض الحالات، كان الجُنُود الفرنج الأسرى يُعامَلون بالمثل، فيُجبرون على العمل في البناء، فقد بنى الملك الصَّالح أيُّوب قلعة الروضة، وبعض المدارس في القاهرة، وشغَّل فيها أسرى الفرنج في معركة غزَّة[4].

وفي حالات نادرة؛ كان الأيُّوبيُّون يأمرون بقَتْل الأسرى الخطرين من جماعات الدَّاويَة والاسبتاريَّة، فقد كانوا يعدُّونهم لا عهد لهم، وقد أعلنوا أنفسهم أعداء للإسلام، فعدَّهم المُسلمون مُجرمي حرب، وكانوا ـ غالباً ـ يقتلون أَسْرَاهم[5]، لكنْ؛ في كثير من الحالات، كان أسرى الدَّاويَة والاسبتاريَّة يُحتفَظ بهم لحين الحاجة، حتَّى إنَّه أُطلق سراحهم في بعض الحالات[6].

---

1 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 12/ 197.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 505.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 408.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 407.
5 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 57، ـ كذلك راجعْ: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، سُهيل زَكَّار، من الموسوعة الشاملة، 2/ 429.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 505.

المبحث التَّاسع:

نتائج العلاقات العسكريَّة بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والفرنج

إن أهمَّ ما يُلاحَظ على مُجمل العلاقات العسكريَّة بين الفرنج والمُسلمين، أن الفرنج قد أخذوا في حُرُوبهم بعادات الرُّومان، التي كانت ماتزال سائدة في أُورُبة، والتي تتمثَّل بالقسوة المُتناهية والاستباحة في الحُرُوب، فالإبادة والمجازر البشرية كانت أُمُور عادية مارسها الفرنج بكُلِّ بساطة، وخاصَّة؛ في حملتهم الأُولى قبل أن تلين طبائعهم بعض الشيء، ويتأثَّروا بعادات الشَّرق.

بينما نجد أن الجُيُوش والمُقاتلين المُسلمين في العصر الأيُّوبي كانوا يلتزمون بقواعد الجهاد، فهُم يُقاتلون لغاية مُقدَّسة هي تحرير الأرض، والدفاع عن الأُمَّة، وبالتَّالي؛ يتقيَّدون بالتعليمات الدِّينيَّة الواردة في كُتُب الجهاد، التي شاع تأليفها، وقراءتها في ذلك الوقت، ومنها وصايا النبي(ص)، والخُلفاء الراشدون للمُقاتلين، ومنها أحاديث الرسول (ص) التي يُوصي فيها بعدم قَتْل النساء والأولاد ورجال الدِّين المُتفرِّغين للعبادة. كذلك نَصَّ الشرع الإسلامي أنَّه "لا يجوز شَرْعَاً قَتْلُ غير المُقاتلين"[1].

كذلك يُلاحَظ على العلاقات العسكريَّة في العصر الأيُّوبي ارتباطها الوثيق بالعلاقات السِّياسيَّة، وصحيح أن الاستراتيجية السِّياسيَّة هي التي كانت تُوجِّه العلاقات العسكريَّة، ولكنْ؛ بعد انتهاء الصراع، فإن النتائج العسكريَّة هي التي تُوجِّه التَّحرُّك السِّياسي، وتفرض طبيعة العلاقات السِّياسيَّة. وكانت الاستراتيجية العسكريَّة للمالك الأيُّوبيَّة تقوم ـ بشكل عامٍّ ـ على تجنُّب الحَرْب ما أمكن، حتَّى مع الفرنج، على عكس استراتيجية السُّلطان صلاح الدِّين. فلذلك ركَّزت المالك الأيُّوبيَّة لتحقيق أهدافها بدلاً من الحَرْب مع الفرنج على عقد سلسلة من مُعاهدات الصُّلح معهم، وفيما بينها ركَّزت على التآمر عن طريق الاتِّصالات السِّرِّيَّة بالأعوان والأُمراء، وكَسْب تأييدهم، وكانت وسائل ذلك مُتاحة، فلكُلٍّ منهم ثمن، ولا يُوجد ولاء سياسي مُطلق، ولا تبعية عسكريَّة، أو سياسيَّة دائمة، إنَّما مصلحة ومنافع فقط. وإذا اضطرَّ الأمر ـ أحياناً ـ كان المُلُوك الأيُّوبيَّة يلجؤون للتهديد بالقُوَّة العسكريَّة، فتتدخَّل الوساطات، وتنشط الرُّسُل، وغالباً ما تُحلُّ المشاكل في هذه المرحلة، وإلاَّ؛ فالتَّحرُّك العسكري في آخر المطاف.

---

1 - العلاقات الدّوليّة، وهبة الزُّحيلي، 66 ـ 67.

وبالرغم من الخلافات الشديدة والدائمة بين أفراد البيت الأيُّوبي، والصراعات المُستمرَّة بينهم على السُّلطة، وعلى السيطرة على البلاد، فإنَّنا لا نجد حرباً حقيقيَّة واحدة قامت بينهم، فأكثر ما في الأمر هُو الحصار واستعراض القُوَّة، فإذا ظفر أحدهم بعدوِّه نادراً ما يقتله، وإذا حدث ذلك، فبعد مُدَّة، وبشكل سرّيّ. ومع أن المُلُوك من بني أيُّوب كانوا سُلالة مُقاتلين شُجعان، فإن قلَّة منهم مَنْ ورثت هذه الصفات، فإذا استثنينا سُلالة شيركوه في حمص، فإنَّنا لا نكاد نجد منهم قادة عسكريين يليقون بأمجادهم السالفة سوى الملك المُعظَّم تُورانشاه بن السُّلطان صلاح الدِّين، الذي كان يعمل لصالح أبناء أخيه الظَّاهر غازي قائداً لجُيُوشهم في حلب.

رُبَّما كان سبب ذلك هُو عدم وُجُود قضيَّة عُليا، يُؤمنون بها، ويُقاتلون من أجلها، كما كان لدى مُؤسِّس دولتهم السُّلطان صلاح الدِّين، الذي جعل تحرير الأرض قضيَّته المُقدَّسة، ونجح في ذلك، ولكنْ؛ لم يكن لخُلفائه من قضيَّة سوى مصالحهم الآنية، كما دلَّت الأحداث عن جهل سياسي فاضح لدى كثير منهم، رُبَّما وصل حتَّى السذاجة السِّياسيَّة، وخير مثال على ذلك الملك الأفضل علي بن السُّلطان صلاح الدِّين، والنَّاصر داود بن الملك المُعظَّم بن العادل، كذلك كانت حملة ابن أبي علي العسكريَّة، التي سَيَّرَهَا الملك المنصُور صاحب حماة، لدعم دمشق دليلاً مُهمَّا على سذاجة سياسيَّة وعسكريَّة قاتلة. ولذلك نستطيع القول: إن رُوح الحسم العسكريَّة التي أقامت الدولة الأيُّوبيَّة سُرعان ما غابت عنها، وتلاشت. ومن كُلِّ ما سبق تظهر بعض الملامح العامَّة للعلاقات العسكريَّة، التي أقامتها الممالك الأيُّوبيَّة بعد صلاح الدِّين، ويتجلَّى منها:

1 ـ لم يبتكر الأيُّوبيُّون أسلحةَ قتال جديدة، أو يُطوِّروا تكتيكاً عسكريَّاً مُتميِّزاً، كما كان مُتوقَّعاً، نتيجة لاحتكاكهم بالفرنجة.

2 ـ لم يحرصوا على الجهاد وتحرير المناطق المُحتلَّة، بل إنَّهم سلَّموا كثيراً من الفُتُوح الصَّلاحيَّة للفرنج.

3 ـ لم يُطوِّروا اقتصاداً حربيَّاً يخدم الآلة العسكريَّة، ويدعمها، باستمرار وكفاءة.

4 ـ أهمل الأيُّوبيُّون الأُسطُولَ، ولم يستخدموه إلاَّ جُزئياً، وعند الحاجة الماسَّة إليه.

5 ـ كان لكُلِّ من المُلُوك الأيُّوبيِّيْن مشروعه السِّياسي الخاصّ، الذي وظَّف له كُلَّ قواه العسكريَّة المُتاحة، وأهمل كُلَّ ما عداه من مشاريع عامَّة.

القسم الثّامن

العلاقات الدّوليّة بين أورُوبا والشرق الإسلامي

المبحث الأوَّل:

سياسة الدولة البابويَّة تجاه الشَّرْق الإسلامي

رُبَّما لم تُواجه البابويَّة مُشكلة استحوذت على اهتمامها وجُهُودها، مُنْذُ القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري، وحتَّى نهاية العُصُور الوُسْطَى، مثل تنظيم وتوجيه الحملات الصَّليبيَّة[1].

وكان أوَّلهم دعوة لهذه الحُرُوب هُو البابا أُورُبان الثَّاني، الذي استغلَّ استغاثة بيزنطة، بعد هزيمتها الشنعاء في معركة ملاذكُرد أمام السلاجقة المُسلمين، ففي عام **489** هـ **1096**م، دعا البابا أُورُبان الثَّاني جُمُوع المسيحيين في أُورُبا للتوجُّه إلى الشَّرْق لاستخلاص قبر السَّيِّد المسيح من المُسلمين،وخصّ الجنويين، وهُم ـ آنذاك ـ من أكبر القوى البَحْريَّة في المُتوسِّط، بطلبه إليهم التَّوجُّه إلى السواحل الشَّرْقيَّة للبحر المُتوسِّط، للمُساعدة في الحملة على الأرض المُقدَّسة[2]. وقد جعل البابا أُورُبان الثَّاني الانتصار للمسيحية واستخلاص قبر السَّيِّد المسيح هدفه المُعلن، بينما كانت كُلُّ تصريحاته وتصرُّفاته تدلُّ على إنَّه يُريد ـ من وراء ذلك ـ ضمَّ اليُونان إلى الكَنيسَة الكاثوليكية تحت زعامته[3]، والقضاء على الهرطقة الأرثوذكسية، كما كان يعتقد.

كان أُورُبان الثَّاني من باباوات المنفى، ففي عام **468** هـ **1076**م، طرد الإمبراطُور الجرماني هنري الرَّابع البابا غريغوري من رُوما، وعزله بالقُوَّة، وعيَّن بديلاً له، يُوافقه، ويُناسبه. ولكن عدداً كبيراً من الكرادلة اجتمعوا في فرنسا، وانتخبوا بابا شرعيَّاً، حسب اعتقادهم، وقامت بابوية مُزدوجة، حتَّى انتُخب أُورُبان الثَّاني في مدينة ليون الفرنسيَّة، وكان مُنافسه في رُوما البابا كليمنت الثَّالث يحتلُّ قصر اللاتيران. ومن هذا الواقع المُجزَّأ للبابوية؛ انطلقت مُعظم دوافع أُورُبان الثَّاني، رُبَّما كان أهمّها أنْ تُتيح له الحَرْب الصَّليبيَّة فُرصة امتلاك قُوَّة عسكريَّة، يتمكَّن ـ بواسطتها ـ من تحقيق النصر على الإمبراطُوريَّة، والعودة إلى قصر اللاتيران في رُوما. وأيضاً؛ رُبَّما لم يغفل عن الفُرصة الذهبية التي لاحت له، والتي رغب بانتهازها لتوحيد الكَنيسَتَيْن الغَرْبيَّة والشَّرقيَّة، ليُصبح رجل

---

1 - سبع معارك، جوزيف داهموس، ترجمة: فتحي الشاعر، 19.

2 - History of the Crusades, Runciman, Vol:1, p. 112

3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 1/ 11.

المَسيحيَّة الأوَّل في العالم، ورأسها الوحيد. وهذه الأهداف لابُدَّ أنْ يتبعها هدفاً آخر كان من أحلام البابويَّة مُنْذُ عقود من الزمن؛ وهُو القضاء على الإسلام[1]، عندها؛ لن يقف أمام البابويَّة شيء للسيطرة على العالم بكامله[2].

الحملة الصَّليبيَّة الرابعة، حملة البابويَّة على المسيحيين:

كانت جُمُوع الحملة الرابعة ـ بمُعظمها ـ من الفرنسيين، وكالعادة؛ كانوا حُجَّاجاً كاثوليك مُتعصِّبين، مُندفعين لقَتْل المُسلمين، وإنقاذ القُدْس منهم، أو الموت في سبيل ذلك. وبعد اتِّفاق البارونات الفرنسيين قادة الحملة مع دُوق البُنْدُقيَّة أنريكيو واندولو على نقلهم إلى سُورية[3]، انطلقت جُمُوع الحُجَّاج على سُفُن البُنْدُقيَّة، وبنيَّتهم التّوجُّه صوب الأراضي المُقدَّسة في سُورية، ولكن نيَّة البنادقة كانت في التّوجُّه صوب وُجهة أُخرى، إنَّها مدينة زارا، والتي مع كونها مدينة مسيحيَّة كاثوليكية، ولكنَّها كانت ـ بالنِّسبَة للبنادقة ـ من ألدِّ الأعداء؛ لأنَّها خرجت عن سيطرة البُنْدُقيَّة، وأخذت تحول دُون تحكُّمها المُطلق في بحر الأدرياتيك. لم يُؤخذ أهل زارا على حين غرَّة، فقد كانت لهم شُكُوكهم في نوايا البنادقة، فعندما أقنع البنادقةُ الحُجَّاجَ بالهُجُوم على زارا، أرسل أهل المدينة مرسوماً بابوياً يقضي بحرمان كُلِّ مَنْ يعتدي عليهم، وتُلي المرسوم في مُعسكر الحملة[4]، فالبابا قد ألقى بثقله مع أهل زارا ضدَّ كُلِّ مَنْ يعتدي عليها، لكنَّ القُوَّة العسكريَّة البرِّيَّة للحُجَّاج والبَحْريَّة للبنادقة كانت أقوى من القُوَّة المعنوية لمرسوم البابا، فتحدّوا الحرمان، وتابعوا حجَّهم المُقدَّس بالقَتْل والنهب والتدمير في مدينة زارا. فماذا فعل البابا؟ يبدو أنَّه لم يفعل شيء، فلم يصب لعناته ولا حرمانه ولا عُقُوباته الكَنَسية ضدَّ دُوق البُنْدُقيَّة المُتحدِّي له، أو ضدَّ حُجَّاج خرجوا لقتال المُسلمين، فانقضُّوا على المسيحيين.

وبعد الاستيلاء على المدينة، وإتمام نهب ثرواتها، والاتِّفاق بين حُجَّاج الحملة والبنادقة على اقتسامها، تذكَّروا أنَّهم خالفوا مرسوم البابا، وارتكبوا إثماً كبيراً بوُقُوعهم تحت الحرمان الكَنَسي،

---

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3/ 264 ـ247 .

2 - لقد أشار المقريزي إلى ذلك، وهُو يصف هُجُوم الفرنجة على مصر، فقال: " وقد زيَّن لهم سُوء عملهم أنْ يملكوا أرض مصر، ويستولوا منها على ممالك البسيطة كُلِّها". (السُّلُوك، 1/ 321).

3 - الاستيلاء على القسطنطينيَّة، فيلهاردين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 36 .

4 - سُقُوط القسطنطينيَّة، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 212 .

وبدلاً من الانسحاب من المدينة، والتعويض على سُكَّانها، وجدوا حلاً أسهل بكثير لتحليلهم من الحرمان، وهُو استرضاء البابا، وطلب عفوه، وبالفعل؛ أرسلوا وفداً يطلب الغُفران برئاسة أسقف سواسون، "فحصل من صاحب الكرسي الرسولي على منشور غُفران لجميع الحُجَّاج والبنادقة"[1]، وابتهاجاً بهذا المرسوم قرَّرت الحملة تمضية الشتاء في زارا، فما قاموا به مع الحرمان ضدَّ زارا سيُكملونه ـ الآن ـ في ظلِّ عفو البابا.

وفي شتاء زارا؛ حدث التحوُّل الأكبر في وُجهة الحملة، وفي أهدافها، ومقاصدها، وذلك بطلب رسمي ومُباركة مُقدَّسة من البابا. فقد كان دُوق البُندُقيَّة يُحاول إقناع الحُجَّاج، وأُمراء الحملة، بتَرْك بلاد المُسلمين، والتَوجُّه نحو القسطنطينيَّة لفَتْحها، واصفاً لهم ثرواتها المُكدَّسة، ولكنْ؛ كانت هُناك عدَّة عوائق أمام تنفيذ مشروعه، فالقسطنطينية بلد مسيحي، وإنْ كان يتبع كَنيسَة مُختلفة بعض الشيء، ثُمَّ إن وُجهتهم الأساسية كانت نحو الأراضي المُقدَّسة، إضافة إلى خوفهم من موقف مُعارض للبابا. لكنَّ الذي حصل فاق توقُّعات الجميع، وكانت بداياته في ألمانيا، فقد ذهب ألكسيوس المُطالب بعرش القسطنطينيَّة إلى خاله ملك ألمانيا، يطلب منه المُساعدة ضدَّ ألكسيوس آخر، استولى على العرش، وسمل عُيُون أبيه إسحق فاتانزس، فقال له خاله: إنَّه سمع بتجمُّع للفرنجة في البُندُقيَّة يقصدون سُورية، فإنْ كُنتَ قادراً على إجبار اليونانيين للتقيُّد بكَنيسَة رُوما، وأن يتوحَّدوا معنا في الإيمان، فإن البابا يُمكن أن يأمر الحُجَّاج بالتخلِّي عن حملتهم المُوجَّهة إلى الأراضي المُقدَّسة، والذهاب إلى القسطنطينيَّة لإعادتها إليكم، فوافق ألكسيوس. "وعندما سمع البابا هذا غلبه السُّرُور، وأمر بكتابة رسائل ـ على الفور ـ إلى الحُجَّاج، وأرسل أحد الكرادلة، وجعل منه مُمثِّلاً له، وأرسل بركاته للجميع، ودعوة بأنَّهم إذا تخلَّوا عن الحملة إلى سُورية للذهاب إلى القسطنطينيَّة . . فإن كُلَّ مَنْ يموت في هذا الحملة سينال العفو، وتُوضَع عنهم خطاياهم، كما لو كانوا ماتوا عند قبر المسيح". وسافر الكاردينال مندوب البابا إلى زارا، وتلا عليهم المرسوم البابوي، وبيَّن لهم أن الحملة ضدَّ القسطنطينيَّة أفضل بكثير من الحملة ضدَّ سُورية؛ لأنَّها ستجمع المسيحيين على الاتِّفاق، وتماثل الكلمة إنْ كانوا فرنجة أو يُونانا، بدلاً من الذهاب إلى سُورية، بدُون أمل في النجاح[2].

---

1 - سُقُوط القسطنطينيَّة، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 213.
2 - تاريخ المورة، مجموع هافنس / 57، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 385ـ386 .

فانـدفعت الحملـة بـأمر مُبـاشر مـن البابـا مـع بركاتـه ودعواتـه وغُفرانـه، وانقـضَّت عـلى القسطنطينيَّة من البرِّ، والبحر، حتَّى فتحوها بالسيف، وأقاموا الحُكْم اللاتيني فيها.

ولكن أحلام البابويَّة تبخَّرت باتِّحاد الكَنيسَتَيْن، فالبنادقة لم تكن تهمُّهم الكَنيسَة، بقدر مـا كـانوا مُهتمِّين برواج تجارتهم، وتزايد أرباحهم، فقد تفرَّغـوا لإقامـة المراكـز التِّجاريَّـة في الجُـزُر اليُونانيـة، ولم يلتفتوا ـ مُطلقاً ـ للتبشير الدِّيني، أو حتَّى لترسيخ سُلطة الكَنيسَة الغَرْبيَّة في القسطنطينيَّة، كما أن رُومـا لم تكن راضية ـ أبداً ـ عن نبيل بُندُقي يتحوَّل إلى بطريرك في القسطنطينيَّة، ويُمارس الشعائر باسمها[1].

البابويَّة تقود الحملة الخامسة على مصر:

بعد استيلاء الفرنجة على القـسطنطينيَّة، وانتخـاب بلـدوين دي فلانـدرز إمبراطُـوراً لاتينيـاً عليها، اعتقد البابوات أنَّهم أنهوا أمر الكَنيسَة الشَّرْقيَّة إلى الأبد باحتلال كرسـيها البيزنطـي، فـالتفتوا مُجدَّداً صوب المُسلمين، ودعا البابا أينوسنت الثَّالث عام **612 هـ ـ 1215**م، إلى تجنيـد حملـة جديـدة، على أن يكون هدفها مصر[2]، فقد توصَّل مجمع اللاتيران إلى مُحصِّلة، قضت بوُجُوب إرسـال الجـيش الفرنجي إلى مصر؛ لأن الخبراء في ذلك المجمع قد برهنوا بأنَّه لا يُمكن للفرنجة أن يحكموا بـسلام في الأرض المُقدَّسة ما لم يُسيطروا على مصر، ويُلحقوها بمملكتهم، وقد استدلُّوا على ذلك بوحدة الشَّام ومصر أيَّام عموري ملك القُدْس؛ حيثُ أحاط الخطر العظيم بالمملكة، بينما قبل ذلك ما كان بإمكـان أيِّ إنسان إلحاق أدنى أذى بالمملكة[3].

بعـد وفـاة البابـا أينوسـنت الثَّالـث؛ تـولَّى البابـا هونوريـوس الثَّالـث الكـرسي الرسـولي (**1216ـ1227**م)، وكان مُتحمِّساً لتنفيذ الحملة التي دعا إليهـا سـلفه. وفي عـام **614 هـ ـ 1217**م، كانت قُوَّات الحملة تنطلق من المجر وألمانيا والنمسا، وفي عام **615 هـ ـ 1218**م، تكاملـت في مينـاء عكَّا، بما انضمَّ إليها من قُوَّات قبرص ومملكة القُدْس وإمـارة أنطاكيـة وفُرسـان الاسـبتالية والدَّاويـة والتِّيُوتُون[4]، وأبحر الجميع نحو دمياط، وآمالهم مُشرعة نحو المدينة الأكثر غنـىً في مـصر، والمليئـة

1 - تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 247.

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 108.

3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1159.

4 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 295.

بالتجارات[1]، ورُبَّما تدلُّنا هذه الفكرة عن دمياط، التي كانت لدى الفرنج عن الكثير من دوافعهم؛ لاختيارها هدفاً لهُجُومهم. ورُبَّما كانت هذه معلومات البابوات عن دمياط، وعن غنى مصر، فلذلك قرَّروا توجيه الحملة إليها[2].

كان من المُفترض أن يكون قائد الحملة هُو جان دي برين ملك القُدْس[3]، فمع أن المواهب العسكريَّة والسِّياسيَّة تنقصه، وليس له سُلطات فعليَّة، لا على فرنجة الشَّرْق المُرافقين له من قبرص، أو أنطاكية، ولا على البارونات الأُورُبيين، وخاصَّة بوُجُود ملك المجر أندريه ودُوق النمسا ليوبولد[4]، ومع ذلك؛ كان يُفترض أن يقود ملك القُدْس الحملة ضدَّ مصر، وذلك لعدَّة أسباب: فهُو ـ أوَّلاً ـ صاحب المملكة وقائد جُندها المُشاركين بالحملة، إضافة إلى خبرته الطويلة بالصراع مع المُسلمين، لكنَّ البابا هونوريوس الثَّالث كان له رأي آخر، فقد أوفد مندوباً شخصياً له ـ قاصد رسوليَّاً ـ هُو الكاردينال بلاجيوس[5]، وقد زوَّده بكُتُب رَسْميَّة تُؤكِّد قيادته للحملة[6].

ومع كُلِّ الخلافات بين بيلاجيوس وجان دي برين، فقد تمكَّنت الحملة من احتلال دمياط عام 616 هـ 1219م، ومُباشرة؛ قام النائب البابوي بتحويل جامع دمياط الكبير إلى كَنيسَة كاثوليكية، وأمر أسقف عكَّا بتعميد جميع الأطفال الذين وجدوهم في المدينة[7]، وأقاموا بها حتَّى عام 618 هـ1221م، يُقوُّون دفاعاتهم، ويتزوَّدون بالمُؤن؛ ريثما يصل الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، الذي أعلن عن نيَّته بالتَّوجُّه لدعم الحملة.

---

1 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1160.

2 - لقد تغيَّرت فكرة الفرنج عن دمياط، فبعد هزيمتهم المُنكرة أخذوا يُردِّدون مع شاعرهم: "دمياط تلك السَّيِّدة المُتكبِّرة على البحر، والمُعذِّبة للصليبيين". (جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1163).

3 - ملك القُدْس: جان دي برين: تولَّى الملك خلفاً لأمليريك الثَّاني، بزواجه من ماريا بنت إيزابيلا زوجة أمليريك من زوجها السَّابق كونراد مونتفرات (الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 108)، وكان المُسلمون يُسمُّونه الملك النَّوَّام. (المنصُوري، ابن نظيف، 93).

4 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296

5 - الكاردينال بيلاجيوس: من أصل إسباني (الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 295)، وهُو أسقف ألبانو (وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45 / 750 ـ 759).

6 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 108.

7 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45 / 774 ـ 775.

في هذه الأثناء قدَّم لهم السُّلطان الكامل عرضاً مُغرياً ينصُّ على تسليمهم القُدْس والساحل وإطلاق الأسرى مُقابل انسحابهم من دمياط، كان ملك القُدْس يرغب بالمُوافقة واستعادة مملكة القُدْس كما كانت قبل الفُتُوح الصَّلاحيَّة[1]، لكنَّ المندوب البابوي بيلاجيوس، الذي كان يرغب بملكية دمياط، كانت له وُجهة نظر أُخرى، فقد أعلن ـ بعد احتلال دمياط ـ تبعيَّتها إلى مُمتلكات البابا[2]، وكان يطمح أن تكون مصر بكاملها تابعة لحُكْم البابويَّة، لذلك خالف ملك القُدْس، ولكونه القائد الأعلى للحملة أصدر أمراً بمُتابعة الهُجُوم جنوباً[3]. قدَّم ملك القُدْس نصيحة إلى بيلاجيوس بعدم الحَرَكَة من دمياط، لكنَّ النائب البابوي انزعج كثيراً من هذه النصيحة، وأعلن عن حرمان كَنَسي عامّ ضدَّ كُلِّ مَنْ يعيق تنفيذ خُطَّته لإكمال احتلال مصر[4]، فقد كانت استراتيجية بيلاجيوس تنحصر في جُملة واحدة هي: "لا صُلح البتَّة مع الكُفَّار"، إن رجل الدِّين هذا الذي لا تنقصه الغطرسة ولا الطُّمُوح قد اضطلع بدور القائد الأعلى للجيش، وقد أثبتت الأحداث أنَّه دور لا يُناسبه أبداً، لكنَّ دعم رجال الدِّين وقادة الطوائف الدِّينيَّة العسكريَّة مكَّنه من أن يفرض نفسه قائداً بالقُوَّة[5]. وتقدَّمت الحملة الفرنجيَّة من دمياط عام 618 هـ 1221م، بكامل رجالها، وعُددها، والسُّفُن تُرافقهم مُبحرة في النيل، فواجهوا مُقاومة عنيفة من المُسلمين، وانتصارات عديدة على سُفُن الحملة؛ حيثُ أُسرت، أو دُمِّرت بغالبيَّتها، ثُمَّ فتح المُسلمون عليهم مياه النيل، فاضطرُّوا لطلب الصُّلح، وتسليم دمياط وإطلاق الأسرى، مُقابل الحفاظ على أرواحهم، "ولحرص الملك الكامل على دمياط؛ أجابهم ولو أقاموا يومَيْن أخذهم برقابهم"[6]، وكان بعض قادة المُسلمين يرغبون بعدم إعطائهم الأمان، وأخذهم بدُون عهد، حتَّى يُسلِّموا ما بقي بأيديهم من الساحل، لكنَّ طُول مُدَّة الحَرْب، وضجر العَسْكَر، جعلت في قبول عرض الفرنجة مصلحة للجميع[7].

---

1 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45 / 773.

3 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 108 ـ 109.

4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1164.

5 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 298.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 248.

7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 130.

وحمَّلتْ أُورُبا للبابوية وللقاصد الرسولي بيلاجيوس مسؤولية هذه الهزيمة الشنيعة، فقد نعتت الملكَ الفرنسي فيليب الثَّاني بيلاجيوس ومَنْ معه بالأغبياء؛ لرفضهم قبول مملكة مُقابل مدينة، وكتب الشاعر الفرنسي يوون دي سان كنتان: "يا رُوما؛ إن القُدْس تئنُّ من الجشع، الذي استحوذ عليكَ، وعكَّا تئنُّ، ودمياط أيضاً، بسببكَ كان هذا الوضع". وقال الشاعر غليوم كليرك يستنكر تصرُّفات بيلاجيوس في الحملة: "حين يأخذ رجال الدِّين رسالة أمر الفُرسان، فهذا مُخالف للقانون، لأن واجب الكَهَنَة قراءة الكتاب المُقدَّس والمزامير، وترك ميدان القتال للفُرسان". وفي الحقيقة؛ كان فشل الحملة البابويَّة على دمياط ضربة كبيرة لمكانة البابويَّة، عدا خسائرها الباهظة في الأموال، التي جُمعَتْ من كُلِّ كنائس أُورُبا[1].

الصراع بين البابويَّة والإمبراطُور فريدريك الثَّاني وأثره على السَّلطنة الأيُّوبيَّة:

كان من ضمن خُطط البابويَّة لدفع مُلُوك أُورُبا وأُمرائها نحو الحَرْب الصَّليبيَّة ضدَّ المُسلمين ما قدَّمته من دعم لفريدريك الثَّاني عام 612 هـ 1215م، ممَّا أدَّى إلى تتويجه إمبراطُوراً على الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسة. وحتَّى يضمن البابا مُشاركة فريدريك في الحملة على الأراضي المُقدَّسة أجبره على القَسَم، لكنَّ فريدريك لم يبرَّ بقَسَمه إلاَّ بعد اثنَتَيْ عشرة سنة، فقد كان يُدافع البابا، ويعتذر له سنة بعد أُخرى. ولكنْ؛ بعد تخلُّف فريدريك عن الالتحاق بالحملة الخامسة على دمياط، وفشل تلك الحملة، اعتبر البابا هونوريوس الثَّالث أن فريدريك هُو سبب فشلها[2].

وفي عام 620 هـ 1223م، بعد فشل حملة دمياط، وجد ملك القُدْس جان دي برين أنَّه قد خسر كُلَّ شيء، "فتوجَّه إلى رُوما يستجدي العون، فوجد البابا غريغوري التَّاسع غاضباً جدَّاً من الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، فقام بمُصالحتهم"[3]، إن هذه المُصالحة لابُدَّ أن البابا كان راغباً فيها، فهُو مايزال يأمل أن يحلَّ فريدريك كُلَّ مشاكل البابويَّة في الشَّرق، وخاصَّة بعد نتيجة حملة دمياط، وجان دي برين كان يأمل منها دعم فريدريك لاستعادة مملكة القُدْس. لكنَّ أهمَّ نتائج هذه المُصالحة تجلَّت في عام 622 هـ 1225م؛ حيثُ تمَّ ترتيب زواج سياسي على غاية من الأهمِّيَّة بالنِّسبَة لأطراف

---

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 929 ـ 301

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 112.

3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1166

ثلاثة قامت به، فقد تقرّر زواج الابنة الوحيدة لجُون دي برين ملك القُدْس من الإمبراطُور فريدريك الثَّاني بمُباركة وتدبير من البابا، وباعتبار الزوجة هي وريثة مملكة القُدْس، فقد نزع فريدريك لقبَ ملك القُدْس من جان دي برين، وتلقَّب به[1]. كان البابا يرغب بهذا الزواج؛ ليُورِّط فريدريك في القضية الصَّليبيَّة، فقد نقل إليه رَسْمياً حقَّ مملكة القُدْس الصَّليبيَّة، وعليه ـ الآن ـ الاندفاع لاستعادتها من المُسلمين، أمّا الملك السَّابق جان دي برين؛ فيبدو أنّه يئس من قضيَّة المملكة، واستعادتها بإمكانياته الخاصَّة، ففضَّل أن تُوكَل إلى فريدريك، علَّه يُحقِّق ما عجز هُو عنه. أمّا فريدريك، الذي لم يكن يرغب أصلاً بالانخراط في المسألة الصَّليبيَّة، فيبدو أن مُوافقته لم تكن تعني أكثر من إضافة لقب معنوي كبير على ألقابه، مُقابل قضيَّة هُو مُتورِّط بها أصلاً، وقد صدر منه قَسَم عليها، ولن يزيد زواجه الأمر سُوءاً أكثر ممَّا هُو عليه الأمر، فلذلك وافق.

لكنَّ فريدريك فاته أن البابا جدِّيّ بالأمر أكثر من اللازم، فما كاد يُطلُّ عام **624** هـ **1227**م، حتَّى كان البابا غريغوري التَّاسع قد جهَّز أُسطُولاً كبيراً في ميناء برنديزي، وشحنه بالرجال، ودعا الإمبراطُور للوفاء بوعده، وقيادة الحملة إلى فلسطين، وهُناك؛ أُسقط بيد الإمبراطُور فريدريك، ولم يجد بُدّاً من الوفاء بوُعُوده، والالتحاق بالحملة، التي أقلعت بوُصُوله من برنديزي نحو الشَّرْق، فاطمئنَّ البابا، ولكنْ؛ بعد وقت قصير جدّاً عادت كوامن غضبه لتنفجر على فريدريك، الذي عاد أدراجه، بعد أن قطع مسافة قصيرة في البحر بحُجَّة المرض المُفاجئ، ممَّا أدَّى إلى تعطُّل الحملة بكاملها. فجاء ردُّ البابا مُباشراً وعنيفاً، فقد "أعلن حرمان فريدريك للمرَّة الثَّانية، وعدَّه خائناً حانثاً بيمينه"[2]، ويبدو أن هُناك أسباباً وجيهة وراء عودة فريدريك المُثيرة، فقد قيل إنَّه سمع أن البابا كان ينوي منح صقلية وأبوليا إلى جان دي برين أثناء غيابه في فلسطين، وقيل إنَّ رُجُوعه كان بتدخُّل من سُلطان مصر، الذي "بعث له رسائل ورشوات كبيرة، ووعده بمملكة القُدْس دُون حرب، شرط إعاقة هذه الرحلة"[3].

---

1 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1166، والحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 112.

2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1167.

3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1167

ونميل إلى الاعتقاد بأنَّ تخوُّف فريدريك من البابا له الاحتمال الأكبر في عودته عن هذه الحملة، وصحيح أن السُّلطان الكامل راسله في هذه الأثناء، أو قبلها بقليل، لكنَّ المُراسلة ما كانت لتمنعه عن الإبحار، فالكامل يطلبه إلى الشَّرق لمُساندته ضدَّ أخيه المُعظَّم.

وبعد أن رتَّب فريدريك أُموره الأُورُبيَّة، وجهَّز بلاده، وأمَّنها ضدَّ مطامع البابا، قرَّر في العام التالي **625** هـ **1228**م، الإبحار مُحارباً صليبياً من طراز فريد، فهُو محروم ومنبوذ ومُحارَب من البابا، والبابا هُو السُّلطة التي تُشرِّع الحَرْب الصَّليبيَّة، وتدعو لها، فقد أبحر فريدريك من برنديزي نحو سُورية، رغم مُعارضة البابا غريغوريوس التَّاسع الشديدة، "الذي أعلن أن فريدريك ليس صليبياً، بل قُرصاناً، خادماً مُحمَّد، وأن حملته ليست ضدَّ الإسلام، بل لسرقة مملكة القُدْس"[1]. واستخدم البابا حملة فريدريك ضدَّه في كلِّ المجلات، حتَّى إنَّه استغلَّها عسكريَّاً، فأمر جُنُوده، "بعد أن كرَّسهم مُحاربين صليبيين يُقاتلون ملكاً غير مسيحي"، بالهُجُوم على مُمتلكات الإمبراطُوريَّة لاحتلالها.

هذا الوضع كان مُربكاً جدَّاً للإمبراطُور، فدينيَّاً؛ هُو عدوُّ الكَنِيسَة، وعسكريَّاً؛ تُهاجَم بلاده من قِبَل حملة صليبية، وسياسياً؛ هُو معزول عن دَعْم أيِّ ملك مسيحي له، وحتَّى طاعة جُنُوده له تعرَّضت للاهتزاز، وتعرَّض هُو من البابا ومن رجال الدِّين وغيرهم إلى قدر كبير من الإهانة[2]، ويبدو أنَّه لكُلِّ ذلك خرج فريدريك من بلاده بحملة رمزية لا تضمُّ سوى خمسمائة فارس، فقد وفَّر جُنُوده للدفاع ضدَّ هُجُوم البابا، واعتمد على مُراسلاته السابقة مع السُّلطان الكامل، "وكان ذهاب فريدريك نحو الأرض المُقدَّسة ليس عن غيرة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المَسيحيَّة"، وأخذ القُدْس، بمُعاهدة سلام مع السُّلطان الكامل، وتوَّج نفسه ملكاً عليها عام **626** هـ **1229**م، ولم يُوافق الكاردينال نائب البابا في فلسطين على هذا السلام، ورفضه بطريريك القُدْس، وطوائف الدَّاوية والاسبتاريَّة، والبارونات، باستثناء الألمان والصقليين . . ولمَّا أرسل فريدريك يرجو البابا غريغوري تحليله من الحرمان؛ رفض، ولم يعترف بتحالفه مع المُسلمين"[3]. وما إن أنهى فريدريك حملته الاستعراضية في الشَّرق حتَّى عاد مُسرعاً نحو أُورُبة، "فقهر جُيُوش البابا، وأجبر جريجوري

1- الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 302.

2- الحُرُوب الصَّليبيَّة ، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 113.

3- جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 43/ 1168.

التَّاسع عام 626هـ 1229م على إبراءه وتحليله"[1]، واضطرَّه ـ أيضاً ـ للمُصادقة على مُعاهدتـه مـع السُّلطان الكامل، وأن يُوعز للاسبتاريَّة والدَّاويَة في فلسطين لُمراعاة شُرُوط الصُّلح[2].

علاقات البابويَّة مع الشَّرْق بعد تسلُّم فريدريك القُدْس:

لقد أثارت المُعاهدةُ مع السُّلطان الكامل، والتي تسلَّم بمُوجبها الإمبراطُور فريـدريك مدينـة القُدْس، البابا، وأقامته، ولم تُقعده، وانطلق يُشنِّع على فريدريك، وقال واصفاً مُعاهدتـه مـع الكامـل: "إنَّها تتوافق مع شريعة المُسلمين، أكثر من توافقها مع شريعة إيماننـا، واتَّبـع عـاداتهم في عـدَّة نُقـاط، منها: مُساعدة السُّلطان ضدَّ جميع الناس من مُسلمين ومسيحيين"[3].

وفي رسالة أرسلها البابا لمندوبه في فرنسا، يقول:

"أخذ فريدريك بوسائل المُسلمين ،وهاجم ميراث الكرسي الرسولي، والذي هُو أكثـر مقتـاً، إنَّه يُبرم ـ الآن ـ مُعاهدة مع السُّلطان، ومع مُسلمين آخرين، ويُظهر اللُّطف نحوهم، ويُبدي الكراهية المكشوفة تجـاه المـسيحيين"، ثُـمَّ يـذكر أن فريـدريك يُـشجِّع المُـسلمين عـلى الإغـارة عـلى طـائفتَيْ الاسبتاريَّة والدَّاويَة، فعندما هاجم المُسلمون أراضيهم، "وبعد أن قتلـوا عـدداً كبـيراً مـن أتبـاعهم، حملوا معهم كمِّيَّات كبيرة من الغنائم، فهاجمهم الدَّاويَة، وانتزعوا منهم بعضاً من الغنائم، فقام وزيـر الإمبراطُور بمُهاجمتهم عندما كانوا عائدين، وانتزع منهم بالقُوَّة هذه الغنائم، وأعادها للمُـسلمين . . كما أنَّه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتاريَّة والدَّاويَة، وأعطاهم للمُـسلمين". وضـمَّن البابـا رسـالتَهُ اتِّهامات كبيرة ضدَّ فريدريك، حتَّى إنَّه يُسمِّيه: "نائب مُحمَّد".

وفي الحقيقة؛ كان اعتراض البابا على فريـدريك، وتـصرُّف وزيـره في فلـسطين أنهـما يُطبِّقـان الاتِّفاقية مع الكامل، فردَّ غنائم الدَّاويَة من المُسلمين وإعادة الأسرى، الذين يُسمِّيهم البابا عبيداً، كان من شُرُوط الاتِّفاقية بين فريدريك والكامل.

---

1 -الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 114.

2 -الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 303

3 -وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 899.

وفي قرار حرمان البابا انوسنت الرَّابع[1] للإمبراطُور فريدريك الصادر في مجمع ليون يُعدِّد البابا ذُنُوبَ فريدريك وخطاياه العظيمة، ومنها:

1 ـ التحالف بحلف مقيت مع المُسلمين.

2 ـ إرسال الرُّسُل والهدايا إليهم، وتلقِّي الهدايا منهم.

3 ـ تبنِّي عادات المُسلمين، والاعتماد على مُسلمين في خدماته اليومية.

4 ـ سمح لاسم مُحمَّد أنْ يُذكَر عَلَنَاً في هيكل الرَّبِّ.

5 ـ استقبل سُفراء سُلطان مصر، الذي يُلحق الأذى بالأرض المُقدَّسة[2].

إن هذه الذُّنُوب التي يُعدِّدها البابا لفريدريك تُعطينا فكرة واضحة عن نظرة البابوية إلى المُسلمين، وإلى التعامل معهم، ومدى الحقد والكراهية التي كانت تزرعها البابويَّة في نُفُوس المسيحيين الأُورُبيين لتدفعهم ضدَّ المُسلمين في حملات ظاهرها الدفاع عن الدِّين وباطنها إعلاء سُلطة البابويَّة، وزيادة مُمتلكاتها، وثرواتها، فقد وظَّف البابا علاقةَ فريدريك بالمُسلمين لتشريع الحرمان ضدَّه، لكنَّ فريدريك ـ بالمُقابل ـ وظَّف علاقته بالمُسلمين من خلال السُّلطان الكامل؛ ليتقوَّى شعبياً في أُورُبا ضدَّ البابا. ولم يخسر فريدريك من علاقته الطيِّبة بالسُّلطان الكامل، بقدر ما ربح في أوساط الشُّعُوب الأُورُبيَّة، التي كانت تتململ من ظُلم البابوات، وانحرافهم الواضح عن مهامِّهم الدِّينيَّة، وانغماسهم بأُمُور الحُكم والسياسة.

فقد ساعد فرديريك في وُقُوفه بوجه البابويَّة الخيالَ الشَّعْبي الأُورُبي، الذي اعتبره خَلَفَاً لبربروسا، ومُحرِّراً للضريح المُقدَّس. وصحيح أن البابويَّة حَرَمَتْهُ كَنَسياً، واعتبرته مُهرطقاً ومُجحفاً، وحانثاً بالقَسَم، لكنَّ فريدريك حرم البابويَّة من ثرواتها، ومن كثير من أملاكها، فتحوَّل في الخيال الشَّعْبي الأُورُبي إلى شخصية تُعاقب رجالَ اللاهوت في آيَّام الدُّنيا الأخيرة. أمَّا في ألمانيا؛ فقد اعتبر المُخلّص ضدَّ ظُلم الكَنيسَة، لذلك ردَّ البابا بوضع كُلِّ ألمانيا تحت الحرمان، وردَّ على البابا الوُعَّاظ المُتجوِّلون، الذين "أعلنوا البابا أنوسنت الرَّابع شرِّيراً، إلى درجة أن حرمانه لا يعني شيئاً، وأن البابا

---

1 - البابا أنوسنت الرَّابع: نبيل جنوي، ضالع في القانون الكَنَسي، ماهر في الأُمُور المالية. (تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 255).

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47/ 770.

والأساقفة مُهرطقين، وطلبوا من الناس الصلاة للإمبراطُور فريدريك وابنه كونراد الصالحَيْن الكاملَيْن معاً"[1].

لقد كان للصراع بين البابا أينوسنت الرَّابع والإمبراطُور فريدريك الثَّاني أثراً واضحاً في الشَّرق تعدَّى الإمارات الفرنجيَّة إلى الممالك الأيُّوبيَّة، فبعد فشل الحملة الخامسة، حملة البارونات على مصر، مُباشرة، أصدر مجمع ليون642 هـ 1245م، قراراً بتوجيه حملة جديدة، لكنَّ انشغال البابا بالصراع مع فريدريك جعله يُوجِّه هذه الحملة ضدَّه، لذلك لَعَنَهُ، وحَرَمَهُ كَنَسياً، وعدَّه مُلحداً؛ ليستحقَّ أن تتوجَّه حملة صليبية ضدَّه، فأخذ البابا التبرُّعات المالية للحملة الصَّليبيَّة، واستخدمها ضدَّ فريدريك.

إن صراع البابويَّة ضدَّ فريدريك كان مُنبِّهاً لكثير من الفُرسان والنُّبلاء الأُورُبيين لاستغلال البابويَّة لهم، فقد رفض الباروناتُ الإنكليزُ ـ صراحةً ـ الاشتراكَ في الحملة التي دعا إليها مجمع ليون، وقال هنري الثَّالث ملك إنكلترا لمبعوث البابا: إن وُعَّاظ الحملة يخدعون الشعب، ولن نسمح لهم بعد ذلك. وحتَّى في أوساط اللاهوتيين؛ ارتفعت أصوات المُعارضة للحملات الصَّليبيَّة نحو فلسطين، فقد صرَّح اللاهوتي رادولف نيفر قائلاً: من الجُنُون التدخُّل في شُؤُون فلسطين حين تتعرَّض المَسيحيَّة في الغَرْب لخطر الهرطقة، وقال: أيُّ معنى لتحرير القُدْس من المُسلمين حين يتجذَّر الكُفْر في أرض الوطن. وكان الشاعر المُغنِّي الجوَّال الفرنسي ريمون جوردان يتغنَّى في إحدى قصائده قائلاً: إن ليلة مع الحبيبة أفضل من جميع أطايب الجنَّة، التي يُوعَد بها المُشارك بحملة صليبية. أمَّا الشاعر الجوَّال بيرود؛ فكان يتغنَّى بمقطع يقول فيه:

من صلاح الذين شبعنا أرض الوطن عزيزة على الناس

وتعدَّى الأمر إلى التفكير في أُورُبة بشرعية الحملات أصلاً، فنقدوها بشكل لاذع، وعبَّر الشاعر الجوَّال الألماني فولفرام فون ايشتنباخ عن رأي عدد من الفُرسان حين قال: إنَّه من المشكوك فيه أن يكون من العدل قتل أتباع الأديان الأُخرى. إضافة إلى أن الصراع بين البابويَّة والإمبراطُور قد

1 - السعي وراء الفترة الألفية السَّعيدة، فورمان كوهين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 4/ 143 ـ 144.

مزّق إيطالية وألمانيا[1]. أمّا إنكلترا؛ فقد حزم ملكها هنري الثَّالث[2] أمره بعدم المُشاركة في أيِّ حملة، ودفع للبابا أنوسنت الرَّابع ليس لإعفائه من السفر بنفسه فقط، بل لمنع الإنكليز كافَّة من الإبحار نحو الشَّرْق، وفرض حراسة مُشدَّدة على شواطئ بلاده لمنع أيِّ صليبي من المُغادرة[3]. أمّا الحملة الفرنسيَّة نحو مصر؛ فلم تتمّ إلاَّ بضغط شديد يُشبه الهَوَس من قِبَل لويس التَّاسع ملك فرنسا.

إن البابويَّة وازنت بين مصالحها في أُورُبة وما تُحقِّقه الحملات إلى الشَّرْق، فتبيَّن لها أن الكفَّة تميل بشدَّة نحو أُورُبا، إضافة إلى المُقاومة التي كانت تلقاها فكرة الحملات الجديدة. أمّا الوُعَّاظ البابويون؛ فقد طوَّروا أُسلُوبهم في الدعوة، ولأن الجانب المالي من رسالتهم هُو المُهمّ، لذلك غفروا خطايا مَنْ يتبرَّع بالذهب والفضَّة كفداء لنفسه من الاشتراك الشخصي بالحملة. أمّا البابا؛ فكان تطويره لأفكار الحملات وأهدافها أكبر من ذلك، فقد أعلن: "أن القُدْس لم تعدْ هدف الحملة"[4]، فهُو يُريد تحقيق مشاريعه السِّياسيَّة والعسكريَّة أوّلاً، فالهدف السِّياسي للبابا أزاح بسُهُولة الهدف الدِّيني للحملة، ولذلك عندما قام لويس التَّاسع بحملته الصَّليبيَّة على مصر لم يقمْ البابا بأيِّ خُطوة إيجابية لمُساعدته، فقد كان البابا يخوض حربه الصَّليبيَّة الخاصَّة ضدَّ فريدريك، وانشغل ـ تماماً ـ عن القدِّيس لويس[5]. وقام فريدريك بإرسال المُؤن إلى لويس عندما هدَّدته المجاعة في قبرص، فكتب لويس إلى البابا يرجوه إيقاف الحَرْب ضدَّ فريدريك، لإنقاذه الجيش الصليبي، فلم يلتفت له.

ثُمَّ كتبت بلانشي أُمّ الملك لويس إلى البابا تلتمس عفوه عن فريدريك، " فرفض البابا كُلَّ ذلك، وضايق فريدريك أكثر، فأكثر"[6].

وبعد الفشل المأساوي لحملة لويس، وأَسْره في مصر، ثُمَّ إطلاق سراحه، عاد أخوا الملك كُونت أنجو وكونت بواتيه إلى ليون، وقابلا البابا أنوسنت الرَّابع، وأبلغاه طلب لويس المُساعدة والصُّلح مع فريدريك؛ ليتفرَّغا من حربهما لمُساعدته، لكنَّ البابا ـ على ما يبدو ـ لم يتحمَّس للطلب،

---

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين، 305 ـ 312.

2 - هنري الثَّالث: عاش في الفترة ما بين أعوام 1216 ـ 1272م.

3 - A Chronicle of The Pops from St Peter to Pius X, Mc Killiam, p 432

4 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين، 304.

5 - Bray, p 263

6 - التاريخ الكبير، متّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 27 / 1057.

فهدَّدا بإخراجه من مدينة ليون الفرنسيَّة[1]، واتَّهماه بالتسبُّب بهزيمة لويس في مصر؛ لتصرُّفه بالأموال التي جمعها باسم الحملة في أغراض أُخرى[2].

البابوات من وُجهة النظر الإسلاميَّة:

لقد كانت في العالم الإسلامي فكرة قريبة جدًّاً إلى الواقع عن الموقع الحقيقي للبابوات في أُورُبا المَسيحيَّة، وبالتَّالي؛ ربطوا هذا الموقع ـ بدورهم ـ في الحُرُوب الصَّليبيَّة. فقد شبَّه المُؤرِّخون المُسلمون مركزَ البابا الدِّيني بالنِّسبَة للمسيحيين في أُورُبا بمركز الخليفة في ديار الإسلام، حتَّى إنَّهم كانوا يُسمُّونه أحياناً: خليفتهم البابا[3]، وقد أدركوا أنَّه رأس النصرانية الغَرْبيَّة الدِّيني، فقد وصفوه بأنَّه: إمام رُومية[4]. ولذلك كان جُزء كبير من تقديرهم لفريدريك ينبع من علاقته السَّيِّئة بالبابا، وحربه معه، وقد ساعد فريدريك بنفسه على هذه النظرة من خلال مُقارنة طريقة أجراها أثناء الحديث مع فخر الدِّين بن الشَّيخ بين البابا والخليفة العبَّاسي[5]، وكان المُسلمون يعرفون ـ أيضاً ـ أن البابويَّة قد تحوَّلت إلى منصب سياسي أكثر منه ديني، فقد تحدَّث مُؤرِّخو المُسلمين عن حُرُوب البابا مع الإمبراطُوريَّة الجرمانية، وردَّدوا أنباء انتصارات فريدريك على البابا وإخضاعه له[6]، وعرفوا أن البابا لا يقوم بالمُؤمرات السِّياسيَّة فقط ضدَّ خُصُومه، بل يلجأ إلى تنظيم الاغتيالات السِّياسيَّة ضدَّهم إذا لزم الأمر، فقد ذكرت عدَّة روايات أن البابا قد اتَّفق مع بعض خواصِّ الإمبراطُور فريدريك الثَّاني

---

1 - أقام البابوات في ليون بعد طردهم من رُوما عام 1244م.

2 - Bray, p 263

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 194.

4 - وردت هذه التسمية في رسالة من الملك الجواد إلى أحد مُلُوك الفرنجة عام 630 هـ في سلطنة الملك الكامل بن العادل. (صُبح الأعشى، القلشندي، 7/ 118).

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 247، ـ قال ابن واصل: "بلغني أن الإمبراطُور لمَّا كان بعكَّا قال لفخر الدِّين ابن الشَّيخ: أخبرني عن الخليفة الذي لكم؛ ما أصله؟ فقال: هُو ابن عمِّ نبيِّنا مُحمَّد (ص)، أخذ الخلافة عن أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مُستمرَّة في بيت النبوة، لا تخرج منهم. قال الإمبراطُور: ما أحسن هذا؟ لكنَّ هؤلاء القليلي العُقُول، ـ يعني الفرنج ـ يأخذون رجلاً من المزبلة، ليس بينه وبين المسيح نسبة، ولا سبب، جاهلاً، فدماً (الفدم: العي عن الحُجَّة والكلام، وهُو الأحمق. ـ لسان العَرَب، مادَّة: فدم)، يجعلونه خليفة عليهم، قائماً مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتكم ابن عمِّ نبيِّكم، فهُو أحقُّ الناس بمرتبته. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 251).
إن هذه الرواية، بغَضِّ النظر عن مُناقشة دقَّتها، تُعطينا فكرة كاملة عن مفهوم المُسلمين الواضح لمنصب البابويَّة من خلال مُقارنته بمنصب الخلافة.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.

لاغتياله وهُو نائم، ولكن فريدريك علم بالأمر من عُيُونه، فَقَتَلَ المُتآمرين[1]. كـذلك ذكـروا هزيمـة مانفريد بن فريدريك أمام قُوَّات البابا، الذي تحالف مع شارل دي أنجو أخو لـويس التَّاسـع، مُقابـل تسليمه صقلية، فهاجماها، وأسرا مانفريد، ويصف ابن واصل نهاية الإمبراطُور بقوله: "وتقدَّم البابا بذبحه، فذُبح"[2].

وكانت البابويَّة مُتشدِّدة بشأن الاتِّصال المُباشر بالسَّلْطَنَة الأيُّوبيَّة، فقد كان أكثر ما أخذه البابـا على الإمبراطُور فريدريك الثَّاني هُو علاقته بالسُّلطان الكامل، ومُعاهدته معه، ولكنْ؛ عـلى مـا يبـدو، فإن البابا اضطُرَّ أن يسلك سُلُوك فريدريك عينه، دُون أن يجد أيَّ حرج، فقد أرسل البابا إلى السُّلطان الصَّالح أيُّوب يطلب منه أن يمنح الصليبيين في فلسطين مُعاهدة سـلام، أو عـلى الأقـلِّ؛ هُدنـة، فـردَّ عليه أيُّوب أن العلاقة المُميّزة بين السُّلطان والإمبراطُور، والعلاقة المُتوتِّرة بين البابويَّة والإمبراطُور لا تمنحه حُرِّيَّة عقد هذا الاتِّفاق، دُون معرفة رأي الإمبراطُور، وأنَّـه قـد أرسـل إلى بـلاط الإمبراطُـور، وسوف يُبلغه الرَّدَّ[3]. فالسُّلطان الصَّالح أيُّوب لم يردْ تقديم خدمة مجَّانية للبابا تدعم نُفُـوذه في العـالم المسيحي، دُون الرُّجُوع للإمبراطُور لمعرفة رأيه، وكأن الـصَّالح أيُّـوب لا يُريـد أن يُـضحِّي بـصداقة الإمبراطُور، وبالتحالف معه، خاصَّة بعد مُرُور زمـن طويـل عـلى هـذا التحـالف، أثبـت ـ خلالـه ـ إخلاصه، بعلاقة غير مضمونة مع البابويَّة، التي لا تخجل من إظهار عدائها الـدائم، وتحريـضها ضـدَّ المُسلمين.

وبشكل عامٍّ؛ كانت العلاقات المُباشرة بين البابويَّة والسَّلطنة الأيُّوبيَّة شـبه معدومـة، لتعنُّـت البابوات، وتعصُّبهم ضدَّ علاقة كهذه، لكنَّ العلاقات غير المُباشرة كانت واسعة وذات تأثيرات فعَّالة جدًّا، فالحملة الرابعة حرفتها رغبة البابا عن الشَّرْق الإسلامي، والحملة الخامسة كان من أهمِّ أسباب فشلها تصدِّي النائب البابوي لقيادتها، وبالمُقابـل؛ كانـت مُعاهـدة الكامـل مـع فريـدريك، وتـسليم القُدْس، أمضى سلاح استخدمه فريدريك لمُقاومة البابا، والنصر عليه، أمَّا التحريمات واللعنات التي

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 760، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 641 ـ 650، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 171، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 204.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 251، ـ راجعْ تفاصـيل الـصراع بـين البابويَّـة وأبـاطرة الإمبراطُوريَّـة الرُّومانيَّـة المُقدَّسة من أفراد أُسرة هوهنشتاوفن في: أُورُبا العُصُور الوُسْطَى، سعيد عاشور 1/ 559.

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 899

كان يُطلقها البابوات على الدوام ضدَّ كُلِّ مَنْ يُتاجر مع المُسلمين، أو ينقل إليهم موادّ تدعم مجهودهم الحربي[1]؛ فيردّ عليها كلود كاهن بقوله: "بالرّغم من التحريمات الكَنَسية فلم تشهد تجارة الشَّرْق أيَّ توقُّف" [2].

وأخيراً؛ نجد أن علاقات الدولة البابويَّة مع الشَّرْق الإسلامي عامَّة، والسَّلطنة الأيُّوبيَّة خاصَّة، كانت من خلال اهتمامها بقضية الأراضي المُقدَّسة، التي رمت ـ من خلفها ـ إلى احتلال الشَّرْق الإسلامي، وإقامة دولة لاتينية كاثوليكية فيه، والقضاء على الهرطقة الأرثوذكسية، ومن ثَمَّ؛ القضاء على الإسلام، وسيادة العالم. وبدأ هذا المشروع الطُّمُوح عندما أعلن البابا أُورْبان الثَّاني الدعوة إلى حرب صليبية لإنقاذ الأراضي المُقدَّسة، وتابع خُلفاؤه من بابوات رُوما الدعوة والتحريض، بل وإرسال الكاردينالات لقيادة المعارك ميدانياً، ولم يتورَّعوا ـ في سبيل تحقيق مشروعهم ـ عن القيام بأيِّ شيء بما فيه مُحاربة المسيحيين الكاثوليك، فقد تغاضوا عن نهب الملك ريتشارد لمدينة مسينا المَسيحيَّة، وسبي نسائها، وغفروا للصليبيين نَهْبَ مدينة زارا الكاثوليكية، وقَتْلَ سُكَّانها، وشجَّعوا الهُجُوم على الأرثوذكس في القسطنطينيَّة؛ لإجبارهم على اعتناق الكاثوليكية.

واستخدم البابواتُ مسيحيِّي أُورُوبا كأدوات سياسيَّة وعسكريَّة لتنفيذ مشروعهم الكبير، لكنَّ أدواتهم هذه كانت ـ في كثير من الأحيان ـ تهتمُّ بمصالحها قبل اهتمامها بالولاء الدِّيني للبابوات، فالإيطاليون كان يهمُّهم الربح في التجارة أوَّلاً، والإمبراطُور فريدريك انقلب على البابوات، وحاربهم، أمَّا القدِّيس لويس، وهُو آخر أداة مُهمَّة للبابوية؛ فقد كان فشله ذريعاً.

وكان البابوات يُعلنون ـ دائماً ـ رفضهم لأيِّ علاقات مُباشرة مع المُسلمين إلاَّ علاقة الحَرْب، ولذلك لم نُلاحظ قيام علاقات سياسيَّة مُباشرة بين البابويَّة والسَّلطنة الأيُّوبيَّة. أمَّا العلاقات العسكريَّة المُباشرة؛ فقد تمثَّلت في قيادة النائب البابوي بيلاجيوس للحملة على دمياط في عهد الملك الكامل. ولم يهتمّ حُكَّام المُسلمين عموماً، والأيُّوبيُّون خُصُوصاً، بقيام علاقات مُباشرة مع البابويَّة، ولم يسعوا إليها، فقد كانت الفكرة السائدة لدى المُسلمين عن البابا بأنَّه ذا منصب سياسي ديني يُشبه منصب الخليفة العبَّاسي بالنِّسبَة للمُسلمين.

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 107.
2 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 262.

المبحث الثَّاني:

سياسة دُول المدُن الإيطالية تجاه الشرْق الإسلامي

في عصر الممالك الأيُوبيَّة كانت إيطالية تتشكَّل من جُمهُوريات مُستقلَّة، وكانت كُلُّ جُمهُورية منها تقوم في مدينة كُبْرَى، مثل: البُنْدُقيَّة، بيزا، جنوة، وأمالفي، ولكنَّها كُلّها تتبع نمطاً اقتصادياً واحداً، يقوم على التجارة البَحْريَّة، وقد تمكَّنوا جميعاً، بفضل الأساطيل المُتنوِّعة الضخمة، من أن يُحقِّقوا أرباحاً خيالية، وأن تصل هذه المُدُن إلى مُستويات عالية من الثروة[1]. ورُبَّما بسبب هذه الثروة؛ كان الأُورُبيون ـ وخاصَّة الفرنسيون ـ يحتقرون الإيطاليين، ويقولون بأنَّ سُكَّان إيطالية ما هُم إلاَّ عبيد، وقراصنة، أو تُجَّار، وبحَّارة، بينما الفرنسيون فُرسان[2]. ورُبَّما نلحظ شيئاً من هذا في الحُرُوب المُستمرَّة والمُدمِّرة ـ أحياناً ـ بين الجُمهُوريات الإيطالية، وذلك بسبب تنافسهم التِّجاري، وحماية المصالح التِّجاريَّة الخاصَّة لكُلّ منهم إن كان في أُورُبة، أو في خارجها، لذلك عندما دعا البابا أُورُبان الثَّاني إلى مُؤتمر كليرمونت عام **488** هـ **1095**م، أرسلت المُدُنُ الإيطالية الكُبْرَى مندوبيها لحُضُوره[3]، فهي لا يُمكن أن تغيب عن حدث كبير لم يكن أحد ـ وقتها ـ يستطيع أن يُقدِّر ما سيتمخَّض عنه.

وما إن بدأت الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق الإسلامي، حتَّى انشغلت بها الجُمهُوريات الإيطالية، وشكَّلوا الجناح التِّجاري الاقتصادي، مُقابل الجناح الاستعماري الاستيطاني، حتَّى قيل: "إن الاستعمار والتجارة أمران ارتبطا ـ بشدَّة ـ بتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة"[4]، فمن الحملة الأُولى حتَّى حملة لويس التَّاسع على دمياط[5] قلَّما كان يُوجد نشاط صليبي، بدُون مُشاركة إيطالية فعَّالة.

لكنْ؛ في أوَّل الأمر، كانت تصرُّفات الإيطاليين ـ بشكل عامٍّ ـ تتَّصف بالتردُّد، ورُبَّما كان ذلك لأنَّهم كانوا يدرسون موقفهم التِّجاري، وفي أيِّ طرف هُو أكثر ربحاً؟ وما هي الظُّرُوف

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، عزيز سوريال عطية، 146.

2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، مخطوطة مدينة ليون / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 291.

3 - مصر في عصر الأيُوبيِّين، السَّيِّد الباز العريني، 9.

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 146.

5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 149.

الجديدة الناشئة عن الحَرْب؟ وأين ستكون مصلحتهم الحقيقيَّة؟ فأوَّل الأمر كان منهم مَنْ هُو ضدَّ الحَرْب؛ لأنَّها تُؤدِّي إلى كساد التجارة، وخاصَّة إذا كانت مع المُسلمين الذين يتحكَّمون في كُلِّ الطُّرُق التي تُؤدِّي إلى الشَّرْق، فلم يكن الإيطاليون على استعداد ـ أبداً ـ للتضحية بمصالحهم، والقضاء على مصادر ثرواتهم تجاه الله، فقامت كُلُّ مدينة إيطالية بطُرُقها الخاصَّة بإجراء اتِّصالات سرِّيَّة مع المُسلمين، لإعلان تنصُّلهم من العُدوان، وإبداء الرغبة في التفاهم[1]. وهذا ما أعاق انخراط المُدُن الإيطالية في الحَرْب مُنْذُ بداياتها، فلم يظهر أثرهم المحسوس فيها إلاَّ بعد انتهاء الحملة الأُولى، وقيام مملكة القُدْس والإمارات الفرنجيَّة الأُخرى في الشَّام، فقد لمسوا ـ عندها ـ إمكانية الفائدة التِّجاريَّة من الوضع الجديد، خاصَّة أنَّهم كانوا قد مهَّدوا للتعاون مع الفرنج، فالسُّفُن الإيطالية التي كانت قُرب الساحل الشَّامي قدَّمت المُؤن والذخائر، ودعمت ـ بفعَّالية ـ الحملة في حصارها لأنطاكية، وكذلك فعلت في حصار القُدْس، ورُبَّما بدُون هذا الدعم البَحْري لما تمَّتْ هذه الانتصارات السهلة للفرنجة[2]. وكذلك قامت أساطيل كُلِّ المُدُن الإيطالية: جنوه، البُنْدُقيَّة، بيزا، وأمالفي، بدعم مدينة صُور عندما حاصرها السُّلطان صلاح الدِّين[3]، وسيكون لأساطيل هذه المُدُن دور بارز في الحملات الفرنجيَّة التي تمَّتْ فيما بعد على مصر[4]. ولكن الثمن الذي طلبته المُدُن الإيطالية مُقابل خدماتها للفرنجة كان باهظاً، فقد حصلوا على امتيازات تجارية كبيرة بلغت حدَّ قيام أحياء كاملة لكُلِّ جالية منهم في المُدُن المُحتلَّة، وكانوا يُديرونها كأنَّها مُلك لهم.

وقام الإيطاليون بعرقلة مشاريع الحُكَّام الفرنجة في الإدارة، وحتَّى في التعامل مع المُسلمين، ما أمكنهم إلى ذلك من سبيل، فاهتمامهم الأوَّل هُو التجارة بما فيها التجارة مع المُسلمين، فكانوا غالباً ضدَّ أيِّ سياسة تُعرِّض السلام للخطر[5]، لذلك استنتج كثير من المُؤرِّخين الأُورُبيين أن المُدُن الإيطالية كانت تهدف ـ بالدرجة الأُولى ـ من مُشاركتها في الحُرُوب ضدَّ المُسلمين إلى السيطرة على

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، عزيز سوريال عطية، 147.
2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 29
3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3/ 385
4 - العلاقات بين الشَّرْق والغَرْب، مُحمَّد عبد المنعم خفاجي، 95
5 - سبع معارك، داهوس، ترجمة: فتحي الشاعر، 107

الطُّرُق التِّجاريَّة للسلع الشَّرْقيَّة، وما ستدرُّه عليهم من مكاسب كبيرة[1]، مُستدلِّين على ذلك بالمُعاهدات التي وقَّعوها مع مُلُوك وأُمراء الفرنجة في الساحل الشَّامي[2]، وقالوا إن الضرورة ألجأت الفرنجة للتعامل مع الإيطاليين، فقد كانوا بحاجة ماسَّة لأساطيلهم للنقل وللدعم البَحْري، بعد أن قنطوا من إمكانية استخدام الطريق البرِّيّ بسبب المُراوغة والغدر البيزنطي والهجمات الشرسة للتُّركمان في الأناضول. مع أن الفرنجة اللاتين كانوا ـ بالتَّأكيد ـ يعرفون أن الإيطاليين تُجَّاراً في الدرجة الأُولى، ثُمَّ مسيحيين فيما بعد، فشعار البنادقة كان على كُلِّ لسان؛ حيثُ يقولون: "لنكن ـ أوَّلاً ـ بنادقة، ثُمَّ ـ بعد ذلك ـ مسيحيين"[3].

ومع كُلِّ الآثار الضارَّة للعلاقات التِّجاريَّة بين الإيطاليين والمُسلمين على الوُجُود الفرنجي، فإن ما يفوقها ضرراً عليه هي الخلافات التِّجاريَّة والتحزُّبات السِّياسيَّة، التي أدَّت إلى صراع عسكري مكشوف بين الإيطاليين في فلسطين، كان له أسوأ الأثر على وُجُود الإمارات الفرنجيَّة في الشَّرْق، وسيكون له دور كبير في فنائها. وهذا ما دعا بعض المُؤرِّخين ليقول بأنَّ جشع الإيطاليين، وخلافاتهم، ومُنازعاتهم على المكاسب، قد تُسبِّب بتدمير القواعد البَحْريَّة اللازمة لنجاح المشروع الفرنجي في الشَّرْق، ويقول: إنَّهم فعلوا ما هُو أسوأ من ذلك؛ حيثُ عقدوا المُعاهدات التِّجاريَّة مع المُسلمين أعداء الفرنج[4]، وفي الحقيقة؛ فقد تأكَّد الإيطاليون بأنَّ المُعاهدات التِّجاريَّة المُتبادلة النَّفْع مع البُلدان الإسلاميَّة أوثق وآمن من الامتيازات التي حصلوا عليها في الأراضي المُحتلَّة، فقلَّ اهتمامهم ـ تدريجياً ـ بالمشروع الاستعماري الأُورُبي، وأخذوا ينظرون إلى الفرنجة بأنَّهم لا يقومون إلاَّ بعرقلة كَسْبهم للأرباح بصُورة مُنظَّمة ومُستمرَّة من التجارة المشرقية[5].

1- Economic and Social, Pirenne, p. 181

2- الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 29.

و Economic and Social Pirenne, p. 181

3- كان البنادقة يقولون: Siamo Veneziani, poi Christiani

(The Invasion of Egypt , Davis, p. 411)

4- الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 134.

5- الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 229.

وبالُمقابل؛ فقد أدركت المهالكُ الأيُّوبيَّةُ حاجتَها لكَسْب التُّجَّار الإيطاليين، فلوَّحت لهم بالمكاسب، وعقدت معهم الاتِّفاقيات على أساس الفائدة المُشتركة، فتحدّوا كُلَّ قرارات المنع وكُلّ التزام ديني، ونقلوا البضائع من وإلى الموانئ الإسلاميَّة، وخاصَّة موانئ مصر. وعلى ما يبدو؛ أدرك المُسلمون ما للمصالح الإيطالية من أهمِّيَّة في بقاء الإمارات اللاتينيَّة، وأدركوا التنافس القائم بين الجُمهُوريات الإيطالية وما يحدث بينهم من خلافات، وعلى هذه الأُسُس ركَّزوا اهتمامهم على التجارة الإيطالية. فمُنْذُ أوائل عهد الدولة الأيُّوبيَّة نشط التُّجَّار الإيطاليون فيها، وخاصَّة في مصر، بعد تأمينها طريق البحر الأحمر، فموانئ الشَّام ـ بمُعظمها ـ بيد الفرنج، وما هُو بيد المُسلمين إمَّا مُهدَّم، أو غير آمن، فزادت موارد الدولة الأيُّوبيَّة من جهة، وأضعف النشاط التِّجاري للفرنجة، وبالتَّالي؛ مواردهم المالية.

وكان للملك العادل دور كبير في تشجيع التجارة عبر مصر، ففي عام **608** هـ **1211**م، كان يجتمع في مدينة الإسكندرية وحدها ثلاثة آلاف تاجر من الفرنج[1]، ما عدا مُرافقيهم، ومُساعديهم، وعمَّالهم، وبحَّارة سُفُنهم، ممَّا شكَّل حَرَكَة تجارية نشطة، كانت المهالك الأيُّوبيَّة بأمسِّ الحاجة إليها، لحاجتها إلى كثير من الموادِّ المجلوبة، وللرُّسُوم الوافرة المفروضة على التجارة. وسار الملك الكامل على نهج والده العادل في دعم حُرِّيَّة التجارة لإدراكه أهمِّيَّة استفادة بلاده منها، ففي عام **629** هـ **1232**م، كان الكامل في دمشق يستعدُّ لحملة الجزيرة، فوصله الخبر أنَّ رُسُلَ جُمهُوريات البُندُقيَّة، وجنوة، وغيرهم، في الإسكندرية ينتظرون الإذن بمُقابلته[2]. ويجب أن لا نفهم من هذا أن الإيطاليين قد قاطعوا الفرنجة في الساحل الشَّامي، بل، على العكس، فهُم لا يُفوِّتون فُرصة للربح، ولا مكاناً لاقتناصه، فقد كانت جالياتهم في المُدُن الفرنجيَّة في فلسطين تصول، وتجول، وتُقيم دُولاً ضمن الدولة[3].

ويبدو أن التجارة والأرباح تكون ـ دائماً ـ فوق المُعتقدات، وفوق مُقتضيات السياسة، وحتَّى لا نظلم الإيطاليين، فلننظر إلى حال التجارة بين المُسلمين والفرنجة في فلسطين من خلال ما رآه ورواه ابن جُبَيْر في رحلته إلى مناطق السيطرة الفرنجيَّة عام **581** هـ **1185**م، في عهد السُّلطان صلاح الدِّين، يقول ابن جُبَيْر: "ونحنُ بدمشق على قدم الرحلة إلى عكَّة، التماس رُكُوب البحر مع تُجَّار النصارى، في

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 294.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.
3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 2/ 409.

مراكبهم المُعدَّة لسفر الخريف. وكان انفصالنا في قافلة كبيرة من التُّجَّار المسافرين بالسلع إلى عكَّة، ومن أعجب ما يُحدَّث به في الدُّنيا أن قوافل المُسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المُسلمين"، فقد استولى صلاح الدِّين على مدينة نابلس، وعاد الجيش بالغنائم والأسرى إلى دمشق، "وخرجنا نحنُ من دمشق وأوائل المُسلمين قد طرقوا بالغنائم، وكان مبلغ السبي آلافاً لم تتحقَّق إحصاءها.. وخرجنا نحنُ إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل بلاد المُسلمين، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة"[1]، إن هذه الواقعية في التجارة، وفصلها عن الأُطُر السِّياسيَّة والعقائدية والصراعات العسكريَّة أمر مطلوب لمصلحة الجميع، وهُو اعتدال مرغوب كما قال ابن جُبَيْر، فعكَّا ـ على سبيل المثال ـ كانت مدينة تجارة دولية، فيها الجاليات الإيطالية والإسلامية على السواء.

1. البُنْدُقيَّة (فينيسيا):

كانت مدينة البُنْدُقيَّة تُشكِّل أكبر قُوَّة بَحْريَّة في البحر الأدرياتيكي، وتتطلَّع للسيطرة على كامل الحوض الشرقي للبحر المُتوسِّط، ولا يُنافسها ـ في ذلك ـ إلاَّ مدينتا بيزا وجنوة[2]. ولم تكن المُنافسة عسكريَّة، أو استعمارية، في أهدافها البعيدة، بل تجارية محضة، فقد آمنوا بجني الأرباح، وجمع الثروات من خلال نقل البضائع، والبيع، والشراء. ويبدو أن البُنْدُقيَّة تمكَّنت من احتلال موقع الصدارة بين المُدُن الإيطالية؛ بفضل الأُسطُول الهائل، الذي كانت تملكه، فقد بلغت أعداد سُفُنه عام **823** هـ **1420**م، ثلاثة آلاف سفينة مُتنوِّعة، يعمل عليها سبعة عشر ألف بحَّار، يدعمهم ستَّة عشر ألف عامل في أحواض السُّفُن[3].

كانت علاقات البُنْدُقيَّة العسكريَّة بالشرق الإسلامي مُبكِّرة، تعود إلى أيَّام الحملة الفرنجيَّة الأُولى على الشَّرق؛ حيثُ دعم أُسطُولها ـ بشكل فعَّال ـ حصار أنطاكية، ثُمَّ دعم حصار القُدْس.

وفي عام **518** هـ **1124**م، وصل دُوق البُنْدُقيَّة دُومنغو ميشيل على رأس أُسطُول ضخم إلى عكَّا، وكان يضمُّ أكثر من مائة وعشرين سفينة قتالية مع سُفُن النقل، ما عدا القوارب، وقد حملوا

---

1 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 244 ـ 246.

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 144.

3 - مارينو سانودو، حياة قُضاة البُنْدُقيَّة، نقل عنه: عزيز سوريال عطية، الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، 169.

معهم أدوات الحصار، وضمَّت الحملة خمسة عشر ألف مُقاتل وحاجّ، وثلاثمائة حصان[1]. وأثناء الاحتفال بعيد الميلاد في القُدْس وبيت لحم في العام نفسه 518 هـ ـ1124 م، اتَّفق فرنج الساحل الشَّامي مع دُوق البُنْدُقيَّة للهُجُوم على مدينة صُور، وبالفعل؛ تمَّ حصار المدينة، وكان للبنادقة دور مُهمٌّ كبير في سُقُوطها، فحصلوا ـ مُقابل ذلك ـ على ثُلث مدينة صُور، وأراضيها[2]، ورُبَّما كانت مُساهمة البُنْدُقيَّة في احتلال صُور هي نُقطة التحوُّل في علاقاتها بفرنجة الشَّرْق، فقد كانت البُنْدُقيَّة حتَّى ذلك الوقت لا تزجُّ بقُوَّات كبيرة في دعم فرنجة الشَّرْق، لكنْ؛ بعدما رجحت كفَّة الفرنجة على المُسلمين، وبدا أن الامتناع عن المُشاركة الفعَّالة سيُؤدِّي إلى حرمانهم من غنائم كبيرة، قرَّرت البُنْدُقيَّة تأمين الدَّعْم العسكري البَحْري لفرنجة الساحل الشَّامي، مُقابل الحُصُول على مكاسب وامتيازات تجارية مُتزايدة[3].

البُنْدُقيَّة تقود الحملة الرابعة:

تجمَّعت الحملة الفرنجيَّة على الشَّرْق، والتي تُعرَف بالرابعة، في فرنسا، وكانت أُورُبا قد اقتنعت بأنَّ الطريق البَحْري إلى الشَّرْق هُو الطريق الأفضل، ولوُجُود أكبر عدد من السُّفُن في أُورُبا في البُنْدُقيَّة سارت رُسُلُ القائمين على الحملة إليها. وبعد أن رحَّب دُوق البُنْدُقيَّة أنتكيو داندولو برُسُل الفرنسيين عرضوا رسالتهم أمام مجلس البُنْدُقيَّة قائلين: "إن أمراءنا يعرفون أنَّه ليس هُناك شعب يُمكن أن يُساعدهم بشكل جيِّد جدّاً مثل شعبكم"، وأبلغوهم طلب الحملة أُسطُول البُنْدُقيَّة لنقلها إلى الشَّرْق. وتمَّ الاتِّفاق بين الرُّسُل والدُّوق على ما يلي:

1 ـ نقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس مع خُيُولهم.

2 ـ نقل عشرين ألف جُندي مُشاة.

3 ـ تقوم البُنْدُقيَّة بتموين الحملة لُمدَّة ستَّة أشهر.

---

1 - تاريخ الحملة إلى القُدْس، فُولتشر أُوف تشارترز، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 6 / 474 ـ 479.
2 - تاريخ الحملة إلى القُدْس، فُولتشر أُوف تشارترز، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 6 / 506.
3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 104.

4 ـ أجور النقل: للرجل ماركان، وللحصان خمسة ماركات، فتكون الكلفة الكاملة للحملة خمسة وثمانون ألف مارك[1].

5 ـ إعطاء البُندُقيَّة مُهلة سنة واحدة لبناء وإعداد السُّفُن اللازمة للحملة.

6 ـ تتبرَّع البُندُقيَّة بخمسين سفينة كبيرة مُقابل نصف الغنائم التي تحصل عليها الحملة[2].

ووُقِّعت الاتِّفاقية، وخُتمَتْ، وأقسم الدُّوق بالإنجيل على الالتزام بالاتِّفاق، وكذلك الستَّة والأربعون عُضواً في مجلس البُندُقيَّة، وتلا ذلك إقامة اجتماع شعبي في كاتدرائية سان ماركوس طلب فيه الدُّوق مُوافقة شعب البُندُقيَّة على الاتِّفاقية، فوافقوا، وقام رُسُلُ الحملة لتأكيد الاتِّفاق باقتراض خمسة آلاف مارك، وسلَّموها للدُّوق عُربوناً[3]، وأرسل الدُّوق معهم مندوبيه لاستلام عشرين ألف مارك أُخرى هي تتمَّة الدفعة المُعجَّلة من المبلغ المُتَّفق عليه[4].

وبعد أن أكملت البُندُقيَّةُ إعدادَ أُسطُولها، واكتمل تجمُّع حملة الحُجَّاج فيها، وأقلعوا باتِّجاه الشَّرق، وبعد فترة وجيزة من إبحارهم كانوا مُقابل مدينة زارا[5]، فجمع الدُّوق بارونات الحملة، وقال لهم: "لقد ألحقت هذه المدينة بي وبشعبي مضارَّ عظيمة، وأذى كبير، وإنَّه لمن دواعي سُرُوري الانتقام منها، لهذا؛ أرجو مُساعدتكم"، فرحَّب البارونات بذلك، وبدأ الحصار، فأرسل أهل زارا إليهم نُسخة مرسوم من البابا يقضي بحرمان كُلِّ مَنْ يُهاجمهم، أو يلحق الضرر بهم، وتُلي المرسوم في مُعسكر الحملة، فانبرى الدُّوق قائلاً: "أيُّها السادة؛ تيقَّنوا إنِّي لن أتخلَّى مهما كانت الضُّغُوط عن الانتقام من أهل زارا، حتَّى مع وُجُود قرار الحرمان من البابا"، فوعده الجميعُ بالمُساعدة عن طيب خاطر. وانقضُّوا على المدينة، حتَّى استسلمت، فتمَّ اقتسامها مُناصفة بين الحُجَّاج والبنادقة. ولمَّا بدا أن القسمة لم تكن عادلة، ولشُعُور الحُجَّاج بالغُبن، نشب بينهم وبين البنادقة قتال عنيف استمرَّ حتَّى

---

1 - يقول روبرت دي كلاري: إن دوق البُندُقيَّة طلب مائة ألف مارك ذهبي، ثُمَّ تمَّ الاتِّفاق على سبع وثمانون ألف مارك. (سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 206)

2 - يُضيف روبرت دي كلاري شرطاً آخر وهُو: أن يرافق الحملة نصف القادرين على القتال من البنادقة. (سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،10/ 206)

3 - الاستيلاء على القسطنطينيَّة، فيلهاردين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،10/ 36

4 - سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،10/ 206

5 - زارا: مدينة في إقليم دلماشيا على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي، تتبع الآن لجمهورية كرواتيا.

أُبرم الصُّلح، وأعادوا الاتّفاق على توزيع الغنائم[1]. وقد نستغرب كيف أن الحُجَّاج المُؤمنين قادتهم أطماع البُنْدُقيَّة لقتل ونهب وتدمير بلدة مسيحيَّة كاثوليكية مُؤمنة، وفوق كُلِّ ذلك تتمتَّع بحماية البابا خليفة بطرس رأس الكَنيسَة، وقد دعمها بحرمان واضح لكُلِّ مَنْ يعتدي عليها، ومع ذلك؛ لم يرفّ جفن لحاجٍّ، أو بُنْدُقي، وهُو يقتل، ويُدمِّر، وينهب إخوانه في العقيدة. ولكن الأمر الأعجب من ذلك هُو موقف البابا نفسه، فبعد الاستيلاء على زارا أرسل الحُجَّاج والبنادقة يطلبون غفران البابا، فأصدر صاحب الكرسي الرسولي منشور غُفراناً لجميع الحُجَّاج والبنادقة، الذين هاجموا، وقتلوا، ونهبوا أهل زارا، وهذا ما دفع الحُجَّاج والبنادقة للاحتفال، وقرَّروا إمضاء الشتاء في المدينة المنكوبة للإجهاز على ما بقي فيها[2]. وإنْ كُنَّا لا ندري ما هُو ثمن تلك الصفقة مع البابا، فإنَّنا نعرف ـ بالتَّأكيد ـ أنَّها تمَّتْ على حساب أهل زارا، إنْ لم نقلْ من أموالهم ومنهوباتهم.

وخلال تمضية الحملة لفصل الشتاء في زارا، كان قادة الحملة من البارونات ودُوق البُنْدُقيَّة يتباحثون، حول وُجهة الحملة، فتبيَّن لهم عدم إمكانية التَوجُّه إلى مصر، أو سُورية، فتمويل الحملة وغنائمها أنفق مُعظمها أُجُور نقل ومصاريف احتفالات باذخة في زارا، بينما البُنْدُقيَّة ترفع ـ باستمرار ـ أُجُور سُفُنها، ولمَّا استعصى الحلُّ "انبرى الدُّوق قائلاً: إن في بلاد البيزنطيين أراض عظيمة الخصب، تُنتج كُلَّ ما هُو طيِّب، وعندي أن أفضل خُطَّة نعتمدها هي أن نبحث عن ذريعة تُسوِّغ زحفنا إلى تلك البلاد، لنتزوَّد بها من مُؤن، وأعلاف، وغير ذلك ممَّا نحتاجه، عند ذلك نمتلك القُدرة على استئناف السفر إلى ما وراء البحار"[3]. ومع أن المسافة من زارا إلى القسطنطينيَّة تكاد تكون المسافة نفسها إلى سُورية، فقد كانت حُجَّة دُوق البُنْدُقيَّة مُقنعة جدّاً للحُجَّاج، فالحجُّ الثَّاني لهم سيكون في القسطنطينيَّة بعد زارا، فإنْ كانت زارا مسيحيَّة كاثوليكية تتمتَّع بحماية البابا، فإن القسطنطينيَّة، مع أنَّها مسيحيَّة، لكنَّها أرثوذكسية مارقة بنَظَرهم، وحدث ما لم يكن في الحُسبان، "فعندما سمع البابا هذا غلبه السُّرُور، وأمر بكتابة رسائل على الفور إلى الحُجَّاج، وأرسل أحد الكرادلة، وجعل منه مُمثِّلاً له، وأرسل معه بركاته للجميع، ودعوة بأنَّهم إذا تخلّوا عن الحملة إلى سُورية للذهاب إلى القسطنطينيَّة،

1 - سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10 / 212.
2 - سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 212.
3 - سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 214.

فإن كُلَّ مَنْ يموت في هذه الحملة سينال الغُفران، وتُوضَع عنهم خطاياهم، كما لو كانوا ماتوا عند قبر المسيح"[1].

ولمَّا وصل الكاردينال مُمَثِّل البابا النائب الرسولي إلى زارا، قام بتلاوة أمر البابا، ثُمَّ شرح لأفراد الحملة أن هذا أفضل لجميع المسيحيين؛ حيثُ سيتمُّ الاتِّفاق، وتماثل الأفكار بين الفرنجة واليونان، بدل الذهاب إلى سُورية بدُون أمل في النجاح[2]. ولم يكن لا الحُجَّاج، ولا البنادقة، بحاجة إلى ذريعة، إنَّما جاءتهم هذه الفتوى البابويَّة كدعم مجَّاني لمشاريعهم، فسواء كان الأمر ضدَّ رغبة البابا، كما حدث في زارا، أو تمشِّياً مع رغباته، كما هُو الحال الآن، فالهُجُوم على القسطنطينيَّة كان قد تقرَّر بين دُوق البُنْدُقيَّة وبارونات الحملة. ولمَّا جاء الربيع كان حُجَّاج الحملة والبنادقة يُحاصرون القسطنطينيَّة، ثُمَّ انقضُّوا عليها، واحتلُّوها عام 601 هـ 1204م، وبمُنتهى الديمُقراطية انتخبوا بلدوين كُونت فلاندرز أوَّل إمبراطُور لا تيني في القسطنطينيَّة، وأضحت المدينة الأُسطُورية، العظيمة بثرواتها وكُنُوزها نهباً لرُعاع فرنسا وقراصنة البُنْدُقيَّة، مُبرِّرين عملهم أمام الله بأنَّهم يتزوَّدون بها لقتال أعدائه المُسلمين، واسترداد الأرض المُقدَّسة منهم، واستمرَّ التزوُّد من خيرات القسطنطينيَّة ستِّين عاماً، دُون أن يُفكِّر أيُّ لاتيني بالسفر إلى الأرض المُقدَّسة، أو إلى غيرها، إلى أن تمكَّن البيزنطيون من طَرْدهم منها بعد مذبحة رهيبة ارتكبوها في الحيِّ اللاتيني، ردَّ عليها الهاربون بمذابح أرهب لسُكَّان الجُزُر اليونانية العُزَّل[3].

لقد كَتَبَ كثير من المُؤرِّخين عن خيانة البُنْدُقيَّة للقضية المَسيحيَّة بتحويلها الحملة عن هدفها في الشَّرق الإسلامي إلى القسطنطينيَّة، وأنَّها كانت في ذلك مُتواطئة مع الملك العادل لتحصل منه على امتيازات تجارية في مصر، ومع أن البُنْدُقيَّة ـ بالفعل ـ عقدت اتِّفاقاً مع الملك العادل عام 605 هـ 1208م، حصلت فيه على امتيازات تجارية في مصر[4]، لكنَّ مُجريات هذه الحملة بكاملها تدين الفكرة الصَّليبيَّة بكاملها، بدءاً من الدُّعاة والمُحرِّضين في رُوما، إلى المُنفِّذين من الحُجَّاج الأُورُبيين، ثُمَّ

---

1 - تاريخ المورة، مجموع هافنسيس/ 57، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 386.

2 - تاريخ المورة، مجموع هافنسيس/ 57، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 386.

3 - راجعْ: مبحث العلاقات مع بيزنطة في هذا الكتاب.

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 103.

أدواتها الإيطاليين، لأن البُنْدُقيَّة لا يُمكن أن تُعدَّ المسؤولة الوحيدة عن مُجمل جرائم الحملة الرابعة في زارا، وفي القسطنطينيَّة، وفي عدم التوجُّه إلى الشَّرْق الإسلامي، لعدَّة أسباب، منها:

. **أولاً**: غَفَرَ البابا ـ رغم حرمانه السَّابق ـ كُلَّ ما قام به الحُجَّاج في زارا من جرائم وقتل ونهب.

. **ثانياً**: كان البارونات الفرنسيون يُوافقون على الخُطط التي يطرحها دُوق البُنْدُقيَّة، ليس لبراعته في الإقناع، بل لبراعته في إثارة طمعهم بالغنائم.

. **ثالثاً**: يُمكن القول إن البُنْدُقيَّة كانت تحصل على كُلِّ ما تُريده من امتيازات في الشَّرْق، وحملة الشَّرْق قد تزيد في غنائمها، لكنْ؛ بالنِّسبة لها كان إزاحة المُنافسين من الطريق كمدينة زارا، وضرب قواعد البيازنة والجنوبيين الذين حصلوا على امتيازات أفضل في القسطنطينيَّة، كان أَوْلَى وأهمّ، فلذلك سعى البنادقة لتحويل وُجهة الحملة بما يُناسب مصالحهم، وهذا شيء غير مُستغرب من بلد يحكمه التُّجَّار، ويعيش على التجارة.

إن كُلَّ ذلك لا يعني انفصال البُنْدُقيَّة عن عالم الفرنجة ومُستعمراتهم في الشَّرْق الإسلامي، بل استمرَّت في مكانتها العسكريَّة والتِّجاريَّة هُناك، واستمرَّت في مُنافستها الفعَّالة للبيازنة والجنوبيين، أمَّا بالنِّسبة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة؛ فقد سعت البُنْدُقيَّة لتوثيق العلاقات معها، وكانت مُعاهداتها التِّجاريَّة تتجدَّد باستمرار، فعندما تولَّى الملكُ الكاملُ سلطنةَ مصر عقدت البُنْدُقيَّة مُعاهدةً تجاريةً معه[1]، رُبَّما كانت تجديداً لمُعاهدتها مع والده السُّلطان العادل.

2 . جنوة:

مُنذُ بداية الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق الإسلاميَّة كانت أُورُبة تُدرك أهمِّيَّة القوى البَحْريَّة للمُدُن الإيطالية، ففي عام **489 هـ 1096م**، دعا البابا أُورُبان الثَّاني الجنويين إلى أن يتوجَّهوا بسُفُنهم إلى الشَّرْق لاستخلاص الطريق المُؤدِّي إلى قبر السَّيِّد المسيح[2]، لبَّى الجنويون النداءَ، وردَّدوا أنَّهم: جُندُ المسيح، وأعداء الإسلام. ومع أنَّه لم تُشارك قُوَّات جنوة بشكل مُباشر في القتال لكنَّها لعبت دوراً مُهمَّاً في الحملة الأُولى، فعندما كان الفرنج يُحاصرون أنطاكية من البرِّ كان الأُسطُول الجنوي يُحاصرها

1 ـ الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 134.

2 ـ History of the Crusades, Runciman, Vol: 1, p.112

من البحر، وعندما ضاقت الأحوال ببُوهمند اتَّصل بالسُّفُن الجنوية الراسية في ميناء السويدية[1]، فأمدَّته بالمُؤن ومعدَّات الحصار[2]. وعندما حاصر الفرنجة ميناء عكّا، قدَّمت السُّفُن الجنوبية مُساعدات فعَّالة، وكان ما حصل عليه الجنويون من امتيازات في هذا الميناء هُو تعويض عمَّا قدَّموه من عون[3]. وفيما بعد؛ عقد الجنويون اتِّفاقاً مع الملك بلدوين ينصُّ على مُساعدته في احتلال أرسوف وقيسارية من الفاطميين، مُقابل حُصُولهم على ثُلث الغنائم، وملكية شارع في كُلِّ بلدة يحتلُّونها.

ولذلك نستطيع القول بأنَّ جنوة وحدها من بين المُدُن الإيطالية كانت صاحبة المُشاركة بدُون توقُّف بالحملات الفرنجيَّة على الشَّرق الإسلامي، من خلال مُبادرات ميدانية خاصَّة أوَّلاً، ثُمَّ عبر مُشاركات رَسْميَّة، وكان ذلك بعد أن لاحظت جنوة أن مُنافستيْهَا البُنْدُقيَّة وبيزا قد انخرطوا، ليس في دعم الحملات، بل، والمُساهمة فيها[4]، فكان اندفاع جنوة للمُساهمة في الحملات لتظلَّ في حيِّز المُنافسة على تجارة الشَّرق، وإلاَّ؛ فكان من المُمكن أن تُقصيها عنها مدينتا البُنْدُقيَّة وبيزا. وأيضاً؛ كانت جنوة وحدها من بين المُدُن الإيطالية التي عرفت كيف تُقيم علاقات رابحة من جهة، ومُتوازنة من جهة أُخرى مع طرفَيْ النزاع كليْهما في الشَّرق، فقد حصلت على تنازلات مُهمَّة من الإمارات الفرنجيَّة الناشئة في سُورية[5]، وعلى امتيازات تجارية مُهمَّة في السَّلطنة الأيُّوبيَّة، وخاصَّة في موانئ مصر، فالتُّجَّار الجنويون كانوا معروفين تماماً في ميناء الإسكندرية، وخاصَّة عائلة الإمبرياشي[6].

كليام التاجر الجنوي:

بعد نجاح الحملة الصَّليبيَّة الرابعة باحتلال القسطنطينيَّة تمكَّنت البُنْدُقيَّة من الحُصُول على القسم الأكبر من مُمتلكات الإمبراطُوريَّة البيزنطية، وإذا كانت البُنْدُقيَّة قد أعلنت أن ذلك كان حملة حجٍّ في سبيل الكرسي البابوي وخُطوة لتوحيد الكَنيسَة، لكنَّ البُنْدُقيَّة نفسها كانت تُدرك ـ قبل المُدُن الإيطالية الأُخرى ـ بأنَّ ما قامت به كان في سبيل مصالحها الخاصَّة، وقد ترجمته المُدُن لأُخرى بأنَّه ضدَّ

1 - السويدية: ميناء أنطاكية على البحر المُتوسِّط، وكان يُسمِّيه الفرنجة: سان سيمون.
2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 34.
3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 143.
4 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 105.
5 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 105.
6 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 144.

مصالحها، وخاصَّة جنوة، التي كان لها امتيازات كُبْرَى في القسطنطينيَّة، وبالتَّالي؛ زاد الخلاف بين البُنْدُقيَّة وجنوة حول السيطرة على جزيرة كريت، التي تضمُّ أهمَّ ميناء في الطريق إلى الساحل الشرقي للبحر المُتوسِّط، وإلى مصر. لذلك تحرَّكت جنوة في كُلِّ الاتِّجاهات لكسب معركتها ضدَّ البُنْدُقيَّة، فإذا كانت البُنْدُقيَّة قد فازت بالقسطنطينية، فعلى الأقلِّ؛ ليكن لجنوة موقع مُتميِّز في مصر، فأرسلت سفيراً سرِّيّاً إلى السُّلطان العادل[1]، لم يُعلن السفير عن هُويَّته، ونزل مصر على أنَّه تاجر، وكذلك لم يُعلن السُّلطان العادل عن السِّفارة، بالرَّغم من الضجَّة الكُبْرَى، التي قامت حول شخصية السفير، واتِّهامه بالتجسُّس، وقد روى المُؤرِّخون المُسلمون قصَّة هذه السِّفارة على الشكل التالي:

قدم إلى مصر في عام 607 هـ 1210م، تاجر من مدينة جنوة اسمه كليام، رُبَّما غليوم أو وليام، وتمكَّن من الاتِّصال بالسُّلطان العادل، وقدَّم له الهدايا، فأُعجب العادل به، وصادقه، "وأحسن السُّلطان إليه، وكان من جُملة إحسانه إليه أن يأخذه معه إلى أين اتَّجه"[2]، ويبدو أن صحبة العادل وكليام كانت مثار استغراب لمُعاصريه، ودهشتهم، ولم يجدوا لها مُبرِّراً، فاستغربوا، واسترابوا بتاجر فرنجي يُصادق سُلطان المُسلمين، ويُرافقه في جولاته، فلم يجدوا مُبرِّراً، إلاَّ أنَّه يتجسَّس على المُسلمين، وينقل أخبارهم، فبدأ الناس يتقوَّلون عليه، "وقيل للسُّلطان، فما التفت" إلى ما قيل عنه[3]. والغريب في أمر هذا السفير الذي لم يكشف هُويَّته أنَّه أطال الإقامة المعهودة لسفير، فقد طالت إقامة كليام مع السُّلطان العادل حتَّى دخل عام 608 هـ 1211م، وفيه "توجَّه الملك العادل إلى الإسكندرية لكشف أحوالها وكليام صحبته"[4]. وبالتَّأكيد؛ فقد تحادثا في الإسكندرية، وهي ميناء مصر ومقصد التُّجَّار، عن التجارة والنقل البحري وصناعة السُّفُن، إضافة إلى أُمُور أُخرى قد تتعلَّق بالتعاون بين البلدَيْن. ثُمَّ خرج العادل من مصر "إلى الشَّام، وسار إلى الجزيرة، ورتَّب أحوالها، وعاد إلى دمشق، وكُلُّ هذا وكليام الفرنجي صحبته"[5]. وهذه الجولة الطويلة مع العادل زادت

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 235.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 65، وراجعْ: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 291.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 65، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 291.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 67.

5 - المنصُوري، ابن نظيف، 68، وراجعْ: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 293.

الشُّكُوك بكليام، الذي يجول مع السُّلطان في بلاده، ويتفقَّدها معه، فشاع بين الناس أن "كليام كان في باطن الأمر عيناً للفرنج"[1]، "وكان الملعون يكشف الأحوال أوَّلاً، فأولاً، ويُكاتب بها الفرنج"[2].

ورُبَّما كانت من إحدى اهتمامات كليام كَشْف أحوال المُسلمين، لكنْ؛ بالتَّأكيد، كان اهتمامه الأكبر توثيق التفاهم بينه وبين السُّلطان الأيُّوبي، وبالتَّالي؛ الوُصُول إلى تعاون بين جنوة وبين السَّلطنة الأيُّوبيَّة. ولكن المُستغرب في الأمر هُو طُول إقامة كليام لدى العادل في الشَّام، وتقريب العادل له تقريباً غير معهود للسُّفراء؛ إذْ إنَّه استمرَّ مُقيماً بصحبته، حتَّى خرج العادل من الشَّام إلى مصر عام 611 هـ 1214م "وكليام لا يُفارقه"[3]، ونزل العادل بدار الوزارة في القاهرة، "وأمر أن يُقيم معه كليام الفرنجي الجنوي فيها"[4]. ومع وُجُود التراجمة بكثرة، وخاصَّة كمُرافقين للتُّجَّار، لكنَّ طُول إقامة كليام مع السُّلطان العادل لا تُشير إلى أن الحديث بينهما كان من خلال ترجمان، بل نُرجِّح أن كليام كان يُجيد العَرَبيَّة مثل مُعظم التُّجَّار في إجادتهم للُغات البلاد التي يرتادونها.

ومع أنَّه لا نتائج سياسيَّة واضحة للمُفاوضات الطويلة بين السُّلطان الأيُّوبي والسفير الجنوي، إلاَّ أن هُناك ما يُؤكِّد أن التجارة الجنوية مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة قد وصلت في عهد العادل إلى ذروة نشاطها في الموانئ المصريَّة[5]. وهذا جُزء من نشاط جنوة التِّجاري، الذي كان يشمل البحر المُتوسِّط بكُلِّ دُوله وأنظمته السِّياسيَّة، بما فيهم دُول المغرب العَرَبي، فقد روى القاضي الفاضل: أنَّه ورد كتاب من المهدية عام 586 هـ يذكر تكرار دُخُول مراكب الجنويين إلى ميناء المهدية، "بأمان من صاحبها، فباعت فيها، وتزوَّدت منها، وأنَّها قاصدة الشَّام"[6]. ويبدو أن المراكب الجنوية كانت تتبع خُطُوطاً بَحْريَّة في المُتوسِّط، فتتحرَّك من ميناء إلى آخر عبر توقيت مُحدَّد وخُطَّة مرسومة معروفة في كُلِّ ميناء؛ حيثُ ينتظرها المُسافرون، وبضائعهم، فالرَّحَّالة العَرَبي ابن جُبَيْر عندما أراد السفر من سُورية إلى بلاده في المغرب قصد عكَّا، وهُو يعرف أن المراكب ترسو وتُبحر منها في أوقات مُحدَّدة معلومة،

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 191.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 65.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 70.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 299.
5 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 235.
6 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 307.

فانتظر مركبه المُناسب لوُجهته، وكان مركباً جنوياً، امتلأ بالمُسلمين والفرنج، الحُجّاج والتُّجّار القاصدين بلاد الغَرْب الأُورُبي، ومنها إلى بلاد المغرب العَرَبي[1].

ورُبَّما تكون مُصادفة أكثر ممَّا هي حادثة تُخطَّط لها أن تقود البُنْدُقيَّة الحملة الفرنجيَّة إلى القسطنطينيَّة، وتفتحها، وتُقيم بها الإمبراطُوريَّة اللاتينيَّة، وأن جنوة مُنافسة البُنْدُقيَّة هي التي تدعم وتسمح بالقضاء على الإمبراطُوريَّة اللاتينيَّة في القسطنطينيَّة وعودة الحُكْم اليُوناني إليها، وعودتها إلى حُكْم الأباطرة البيزنطيين. فبعد سُقُوط القسطنطينيَّة انتخبَ النُّبلاء البيزنطيون كير ثيودورس لاسكاريس[2] إمبراطُوراً عليهم، فاتَّخذ من نيقية عاصمة له، وبدأ العمليات العسكريَّة ضدَّ الفرنجة في القسطنطينيَّة، ولمَّا تُوفِّي خلفه ابنه ثيودورس الثَّاني لاسكاريس، ولمَّا مات أوصى لابنه إيوانس الرَّابع لاسكاريس وكان عُمره ثماني سنوات، وأقام نُبلاء البلاط في نيقية النبيل ميكائيل باليولوغوس وصياً على الإمبراطُور الصغير، وكان بلدوين إمبراطُور القسطنطينيَّة قد قتل وتُوِّج خلفاً له روبرت فلاندرز، ولمَّا مات تولَّى ابنه بلدوين حُكْم الإمبراطُوريَّة وهُو مُعاصر لباليولوغوس الذي بدأ الهُجُوم على القسطنطينيَّة، واتَّفق مع الهيئة الحاكمة في جنوة، وأعطاها موقع غالاتا الاستراتيجي، فبنوا فيه حيَّاً جنوياً ومُؤسَّسة كبيرة للخدمات التِّجاريَّة، وأقسم باليولوغوس للجنوبيين، ووقَّع معهم مُعاهدات تُعفيهم من دفع الرُّسُوم التِّجاريَّة في كُلِّ أرض الإمبراطُوريَّة، مُقابل أن يُقدِّموا له السُّفُن المُقاتلة وسُفُن النقل لكُلِّ المعارك مع اللاتين في القسطنطينيَّة، وإنَّه سيدفع لهم أُجُورهم كمُرتزقة مع هدايا إضافية.

وبالتَّأكيد؛ كانت خُطط باليولوغوس ضدَّ القسطنطينيَّة غير قابلة للتنفيذ، بدُون المُساعدة الجنوية، فقد كانت جنوة تُسيطر على كُلِّ المنافذ البَحْريَّة، ممَّا مكَّن باليولوغوس من مُحاصرة بلدوين في القسطنطينيَّة، ودُخُولها، بعد أن حاصرها الجنويون من البحر، وهاجمها هُو من البَرِّ، وقام اليُونانيون داخل القسطنطينيَّة بثورة مُسلَّحة، وبدؤوا بقتل اللاتين، ممَّا جعل بلدوين يفرُّ هارباً في سفينة سريعة، ودخل باليولوغوس إلى القسطنطينيَّة فاتحاً مُنتصراً، وأعلن نفسه إمبراطُوراً بيزنطياً، ولكنَّه ـ قبل ذلك ـ سمل عينَيْ ابن سيِّده القديم ووارث الإمبراطُوريَّة الشرعي إيوانس الرَّابع

1 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات لأسفار، ابن جُبَيْر، 275، وما بعد.
2 - ثيودوروس: كان زوج ابنة ألبكسيوس الثَّالث.

لاسكاريس، ووضعه في السجن، حتَّى مات فيه[1]. وإذا كان الفرنج قد اتَّهموا البُنْدُقيَّة بأنَّها حرفت الحملة الرابعة عن أهدافها في الأرض المُقدَّسة، وقادتها نحو القسطنطينيَّة، فبماذا يتَّهمون جنوة بعد مُساهمتها في طرد الفرنجة من القسطنطينيَّة؟

3 ـ بيزا:

كانت الحملات الفرنجيَّة على الشَّرق الإسلامي مُنْذُ بداياتها تأمل بالدعم البَحْري للمُدُن الإيطالية كافَّة، وخاصَّة بيزا، التي سبقت الآخرين بدعمها للحملات، فقد اتَّصل أُمراء الحملة الأُولى بتشجيع من البابويَّة بالبيازنة، وأطلقوا لكبير أساقفة بيزا ديمبيرت وُعُوداً كثيرة، فجهَّزتْ بيزا أُسطُولاً كبيراً من السُّفُن السريعة والضخمة منها ذوات الصفَّيْن من المجاذيف، ومنها ذوات الثلاث صُفُوف بلغت تسعمائة سفينة، وكانت حملتهم بقيادة مُباشرة من رئيس الأساقفة ديمبيرت. ولم ينسَ البيازنة في طريقهم نحو الشَّرق أن ينهبوا الجُزُر والمُدُن السَّاحليَّة اليُونانية، مثل: كورفو وكيوكاس، وكيفالونيا، وغيرها، ممَّا دفع الإمبراطُور البيزنطي، رغم معرفته "أن أهل بيزا هُم سادة الحُرُوب البَحْريَّة"، أن يخوض ضدَّهم معركة بَحْريَّة غير حاسمة، أَنْهَتْهَا عاصفة بَحْريَّة[2]. بعدها؛ وصلت حملة بيزا إلى أنطاكية، وساعدت الأمير بُوهيمند، الذي كافأ البيازنة بسخاء، وكان بإمكان البيازنة أن يلعبوا الدور نفسه مع مملكة القُدْس، ويحصلوا على المكاسب نفسها، لكنَّ النزاع الذي نشب بين ديمبيرت والملك بُودوان الأوَّل أدَّى إلى زعزعة مواقع بيزا في مملكة القُدْس، ولم يكن لهذا أيّ علاقة بصلات البيازنة بالممالك الإسلاميَّة، فقد كانت الصلة التِّجاريَّة بينهما قليلة حتَّى الآن[3].

لكنْ؛ بعد معركة حطِّين، وانتهاء حملة المُلُوك على عكَّا، وإعادة احتلالها، انقلب الوضع في مملكة القُدْس لصالح البيازنة، وامتلكوا سُلطات واسعة في المملكة الفرنجيَّة، "حتَّى إنَّهم كانوا يُكبِّدون الذين يقدمون إلى سُورية، خاصَّة الجنويين، خسائر عظيمة، وشكاوي الجنوية تصل كُلَّ يوم إلى الكُونت، فطلب البيازنة، وقال لهم: إن ما تفعلونه في مدينة عكَّا عمل سيِّئ جدّاً، فلم يلتفتوا إليه، وتصرَّفوا ضدَّ رغباته، وقرَّر طردهم، فاحتجَّ ايمري لوزنجان، كافل المملكة، وأخو الملك غي،

1 - تاريخ المورة، مجموع هافنسيس/ 57، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 403 ـ 405.
2 - الألكسياد، آنا كُومينا، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 6 / 66.
3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 105.

ودافع عنهم"[1]، وهذا يدلُّ على أهمِّيَّة موقع البيازنة وتفوُّقهم في عكَّا، ودعم المملكة لهم، وبالتَّالي؛ نستنتج أن التواجد العسكري البحري والمُقاتلين البيازنة كان لهم دور مُهمّ في عكَّا، ويُؤكِّد ذلك أنَّه عندما وصلت الحملة الألمانية ـ التي سيَّرها الإمبراطُور هنري إلى فلسطين، وجعلوا هنري كُونت بالادين قائداً عامَّاً للجيش ـ صادف تقدُّم السُّلطان العادل بقُوَّاته نحو عكَّا، فخرج الألمان، وتصدُّوا له، فهزمهم، واضطرَّهم للانسحاب، والتحصُّن بعكَّا، ولـمَّا حرَّض هيو صاحب طبرية الكُونت هنري، واستنفر له الناس، تشجَّع هنري، وأعاد تنظيم فرَق جيشه، "وحصل على عدد كبير من البيازنة المُسلَّحين بشكل جيِّد، وُفق طرائق بلادهم، فأمر بوضعهم في المُقدِّمة"[2]. كذلك عندما اندفعت جُمُوع الفرنجة نحو مصر في ما يُعرَف بالحملة الخامسة، كان المُقاتلون البيازنة معهم، وكانت قُوَّات بيزا البرِّيَّة تتميَّز بمقدراتها القتالية، فعندما هاجمت الحملةُ قُوَّاتِ الملك الكامل المُعسكرة قُرب دمياط، واندحرت قُوَّات الفرنجة بما يُشبه هزيمة كُبْرَى، قامت مجموعات قليلة من المُقاتلين، بمَنْ فيهم البيازنة، بتشكيل قُوَّة حماية للفارِّين، وشكَّلت سُوراً في وجه المُسلمين لمَنْع مذبحة رهيبة كانت ستقع بهم[3].

4. مدينة أمالفي:

لم يُوجد ما يُشير إلى مُساهمة هذه المدينة الإيطالية الجنوبية في الحملات الفرنجيَّة على الشَّرق، فرُبَّما كان ذلك بسبب الهُجُوم النورماندي عليها عام **489 هـ 1096**م، المُتزامن مع بداية الحملات، ورُبَّما كانت أمالفي غير راغبة في خوض مُنافسة غير مضمونة مع المُدُن القويَّة: بيزا وجنوة والبُندُقية، حول الامتيازات في الأراضي المُحتلَّة، فاكتفت بعلاقاتها التِّجاريَّة الجيِّدة مع البلاد الإسلاميَّة، ورُبَّما كان هذا هُو الاحتمال الأغلب؛ لأن تجارة أمالفي استمرَّت مع البُلدان الإسلاميَّة والممالك الأيُّوبيَّة[4].

---

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، مخطوطة مدينة ليون/ 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 453.
2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، مخطوطة مدينة ليون/ 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 499 ـ 502.
3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 769.
4 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 106.

خصائص وميِّزات العلاقات الإيطالية:

وكنتيجة لاستعراض علاقات المُدُن الإيطالية بكُلٍّ من فرنجة الشَّام والمهالك الأيُّوبيَّة نجد أن التجارة كانت فوق كُلِّ شيء، والأرباح كانت مُقدَّسة أكثر من المُعتقدات، فبالرغم من التحريمات الكَنَسية المُستمرَّة التي كان يُطلقها البابا ضدَّ كُلِّ مَنْ يُتاجر مع المُسلمين، أو ينقل لهم البضائع والموادَّ، فلم تشهد التجارة بين الشَّرْق والغَرْب أيَّ انقطاع[1]، ولم يكن حقُّ الفرنجة في الأراضي المُقدَّسة، وإنقاذ قبر السَّيِّد المسيح، ولا حقّ المُسلمين في أراضيهم وبلادهم له أيّ معنى في عُرف تُجَّار وزُعماء المُدُن الإيطالية، فالمُؤمن ـ بالنِّسبَة لهم ـ مَنْ يُؤمِّن لهم الربح، والكافر مَنْ يكفر بحقِّهم فيه، والحقُّ هُو حقُّ التجارة، وحُرِّيَّة تنقُّلها، إنَّها نظرة شُمُولية للعالم ولمُشكلاته، ولكن المنظار الذي نظروا من خلاله كانت فيه مُشكلة، فقد ضيَّق الإيطاليون مساحة الرُّؤية فيه، حتَّى لم يعد يظهر في الصُّورة إلاَّ مصلحتهم الضيِّقة جدّاً، والمحدودة جدّاً، وهذا ما يُفسِّر تناقض مواقفهم السِّياسيَّة والعسكريَّة من قضيَّة الصراع في الشَّرْق، وتناقض تصرُّفاتهم مع أو ضدَّ السَّلطنة الأيُّوبيَّة، فبالرغم من كُلِّ الوُدِّ السَّائد بين التُّجَّار الإيطاليين والسُّلطان العادل، وكُلِّ الامتيازات التِّجاريَّة والتسهيلات في موانئ مصر، فقد شاركت المُدُن الإيطالية بكاملها في الحملة الخامسة ضدَّ مصر، فالبيازنة شاركوا بقُوَّة بَحْريَّة وبرِّيَّة[2]، وكذلك الجنوية[3]، أمَّا البنادقة؛ فكانوا من المحُرِّضين على الحملة، والداعين لها[4]. وعندما عرض الملك الكامل على الفرنجة إعادة دمياط التي احتلُّوها مُقابل التنازل لهم عن القُدْس والساحل، وإطلاق الأسرى، وافق قائد الحملة ملك القُدْس جان دي برين، وكثير من القادة، لكنَّ المُعارضة التي قادها الإيطاليون: البنادقة، والجنوية، والبيازنة، أدَّت إلى رفض عرض الملك الكامل، ومُتابعة الحَرْب[5]. إن موقف الإيطاليين هذا لا يُمكن تفسيره إلاَّ بمطامعهم لإقامة مراكز تجارية يُسيطرون عليها مُباشرة في مصر، التي كانت أهمَّ موقع استراتيجي للتجارة العالمية، وعندها؛ يُسيطرون على تجارة العالم فعلاً.

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 177 + 262.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 769.
3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162.
4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 110.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162.

ويبدو أن هُناك نوعاً من التفاهم بين المُدُن الإيطالية كان قائماً خلال الحملة الخامسة، فكانت لهم مواقف مُوحَّدة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة، وهذا ما افتقدوه في حملة لويس على مصر، فعندما طلب لويس السُّفُن لنقل حملته من فرنسا إلى مصر وافق الجنويون، وقدَّموا له السُّفُن اللازمة، أمَّا البُندُقيَّة؛ فقد رفضت المُساهمة في تقديم أيِّ عون للملك لويس في حملته تلك، لأنَّها كانت قد حصلت على موقع تجاري مُتميِّز في مصر[1]، ففي الإسكندرية وحدها كان للبنادقة فُندُقان وكَنيسَة خاصَّة، وتسهيلات تجارية إضافية، حصلوا عليها من الملك الصَّالح أيُّوب[2]، والحَرْب على مصر ستُغلق أبواب الأرباح المُؤكَّدة التي تجنيها البُندُقيَّة هُناك، وهذا يُفسِّر تأييد جنوة المُعلن والقوي للحملة ضدَّ مصر، لكنَّ متَّى باريس يذكر أن البنادقة لم يتردَّدوا بإرسال المُساعدات التي طلبها الملك لويس عندما هدَّدت المجاعة حملته وهُو في قبرص[3].

ولم يكن الوئام بين الفرنجة والقوى الإيطالية هُو وحده المُهمّ لبقاء الفرنجة في الشَّرق، أو لنجاح حملاتهم، بل كان الأهمّ منه الوئام والاتِّفاق الوُدِّيّ بين القوى الإيطالية نفسها، ففي عام 642 هـ 1244م، خلال بابوية أنوسنت الرَّابع، "نشب خلاف شيطاني بين الجنويين والبنادقة في عكَّا، كُلٌّ منهما تُريد أن تكون أعظم من الأُخرى، وتحاربت أساطيلهما، وصار البحر خطيراً جدَّاً، وانقطع الحجُّ؛ لأن الفئتَيْن كانت قويَّتَيْن في البحر والبرِّ، وكانتا أداتا رُعب لكُلٍّ من الصليبيين والمُسلمين على السواء"[4]. لقد كانوا ـ فعلاً ـ أدوات لرفاهية الإنسان، ولغنى الكثيرين وسعادة غيرهم ببضائع مجلوبة من مكان إلى مكان، لكنَّهم ـ في الوقت نفسه ـ إذا لاح لهم مطمع، أو اعترضهم مُنافس، فهُم أشدُّ ما يكون من الخطر، على كُلِّ الأطراف بدُون تمييز للعِرْق، أو الدِّين. ورُبَّما كان ما قاله عنهم السُّلطان صلاح الدِّين في رسالته إلى الخليفة المُستضيء، يُعبِّر عن واقع هذه الحال بأفضل شكل، قال في رسالته ـ وهي من إنشاء القاضي الفاضل ـ: "ومن الذين يسربون الجُيُوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كُلُّ هؤلاء ـ تارة ـ لا تُطاق ضراوة ضرِّهم، ولا تُطفأ شرارة شرِّهم، وتارة؛ يجهرون سفاراً،

---

1 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يُوسُف، 61.

2 - Histovy of Eygpt. Lane- poole, p. 218

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 1057.

4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1107.

يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة"[1]، ثُمَّ يُتابع صلاح الدِّين واصفاً للخليفة العلاقة بين دولته والمُدُن الإيطالية، يقول: "وما منهم ـ الآن ـ إلاَّ مَنْ يَجْلُبُ إلى بلدنا آلَةَ قتاله وجهاده، ويتقرَّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وكُلُّهم قد قرَّرتُ معهم المُواصفة، وانتظمتْ معه المُسالمة على ما نُريد، ويكرهون"[2]. وهذه الحالة نستطيع تعميمها على كامل عهد الدولة الأيُّوبيَّة، فالإيطاليون ما انقطعوا عن موانئ مصر، يجلبون كافَّة البضائع؛ بما فيها السلاح، وكُلٌّ منهم حريص على عقد مُعاهدة تُميِّزه، ولو بالقليل من غيره، وقد عرف السلاطين الأيُّوبيُّون ـ على الدوام ـ كيف يُثيرون طمع التُّجَّار الإيطاليين، ويحصلون منهم على كُلِّ البضائع المطلوبة.

وأخيراً؛ نستطيع القول بأنَّه كان للمُدُن الإيطالية دور ملموس في الحَرَكَة الصَّليبيَّة، ولكن هذا الدور يختلط ويتضارب بين غاية الإيمان والاندفاع والشجاعة، وغاية الخيانة والغدر والاستغلال، وكما اختلفت الأدوار الإيطالية بالحَرْب في الشَّرْق، كذلك اختلفت الآراء بحقيقة الدوافع الإيطالية للمُشاركة فيها، فهل كانت دينيَّة، أم تجارية، أم سياسيَّة، أم هي بواعث شخصية؟ وفي الحقيقة؛ إذا غابت الدوافع، فالوقائع تُساعد على كَشْفها، ومن الوقائع التي يندر الخلاف بشأنها:

1 ـ زوَّدت إيطاليةُ الحملاتِ برجال أشدَّاء، ومُقاتلين في البرِّ والبحر، وقد شاركوا ـ بقُوَّة ـ في قسم كبير من معارك الفرنجة في الشَّرْق.

2 ـ نقلت السُّفُنُ الإيطاليةُ الجُنُودَ اللاتين، والأسلحة، والخُيُول، والإمدادات، دُون توقُّف خلال مُدَّة الوُجُود الفرنجي في الشَّرْق. وكان الأُسطُول الإيطالي يُمثِّل شريان الحياة لفرنجة الشَّرْق. وأسهمت الأساطيلُ الإيطالية باحتلال مُدُن الساحل السوري، ومن ثَمَّ؛ شاركت في الدفاع عنها، فلولا الأساطيل الإيطالية، وخاصَّة الجنوية، ما استطاع الفرنج احتلال المُدُن السَّاحليَّة في سُورية، وبالتَّالي؛ لعجزوا عن تأمين استمرار وُجُودهم فيها.

3 ـ كان التواجد في موانئ البحر المُتوسِّط الشَّرْقيَّة مسألة حياة أو موت لكُلِّ مدينة إيطالية، لذلك كانت مُشاركتهم في الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق لفرض نُفُوذهم التِّجاري فيه، وحتَّى لا تنفرد فيه مدينة إيطالية دُون الأُخريات.

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 88.

2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 88.

ولم تنفصل ـ في يوم من الأيَّام ـ لدى الإيطاليين الحَرْب عن التجارة، فقد كانوا ـ بمُجملهم ـ تُجَّاراً، ومُقاتلين، حملوا السلاح، وجنَّدوا الحُرَّاس للدفاع عن بضائعهم، وقاتلوا الجميع للحُصُول على مكاسب، وكانوا مُستعدِّين لقتال أيٍّ كان، حتَّى إنَّه جرت بين الإيطاليين أنفسهم حُرُوب وحشية. إن رُوح التاجر المُقاتل تجعله أقرب ما يكون إلى القرصان في تفكيره، إنَّما لكُلٍّ منهما طريقته. وكنتيجة عامَّة؛ تتجاوز كُلَّ الأحداث نرى أن المُدُن الإيطالية قد جنت ثروات طائلة أثناء الحُرُوب بين المُسلمين والفرنجة، وأن الذين قبلوا القيام بدور الحمَّالين للسادة والنُّبلاء الأُورُبيين الصليبيين أوَّل الأمر، قاموا ـ فيما بعد ـ بمَصِّ دماء هؤلاء السادة إلى آخر قطرة.

كما أنَّنا نجد أن أهمَّ ما كان يُميِّز سياسات المُدُن الإيطالية في العصر الأيُّوبي هُو تنافس هذه المُدُن فيما بينها، فبعد تفوُّق الإيطاليين في بناء الأساطيل التِّجاريَّة والعسكريَّة ضمنوا السيطرة البَحْريَّة في مُعظم حوض المُتوسِّط، واستغلُّوا تفوُّقهم البَحْري بإمساك زمام التجارة الأُورُوبيَّة مع الشَّرْق، وجنوا أرباحاً هائلة، زادت في قُوَّتهم، وانجرُّوا إلى حرب مُنافسة طويلة فيما بينهم.

في أوَّل الأمر؛ تردَّدت المُدُن الإيطالية عن دعم المشروع الفرنجي في الشَّرْق، خوفاً على تجارتهم، ثُمَّ لاحت لهم الامتيازات التِّجاريَّة، وزيادة الأرباح، فشاركوا في الحملات، وهُم يسعون للسيطرة على الموانئ والطُّرُق التِّجاريَّة. ومع أن الفرنجة كانوا ـ دائماً ـ يرمون الإيطاليين بالجشع، ويحتقرونهم، لكنَّهم كانوا ـ على الدوام ـ يسترضونهم بالمال، والامتيازات التِّجاريَّة، لحاجتهم إلى دَعْم أساطيلهم. ولم يترك الإيطاليون مُطلقاً التعامل التِّجاري مع المُسلمين، خاصَّة مع مصر، فقد كانت رُسُلُ الجُمهُوريات الإيطالية تتردَّد على الملك العادل، وعلى الملك الكامل بشكل دائم، وكانوا ـ على ما يبدو ـ يُطبِّقون مقولة إن السِّياسيَّة تُوجِّهها التجارة، فكان الإيطاليون يُقيمُون علاقات تجارية كُبْرى مع المُسلمين، رغم تحريمات البابا، ولم تُعطِّلهم الحَرْب مع المُسلمين عن التجارة معهم.

وقد تمتَّعت جُمهُورية البُندُقيَّة بصدارة المُدُن الإيطالية، في التجارة والحَرْب، لأنَّها امتلكت أُسطُولاً كبيراً، مكَّنها من جني أرباح واسعة، والقيام بمشاريع حربية مُهمَّة، فبالإضافة لمُشاركتها المُبكِّرة في الحملات الأُولى، كان لها الدور الأهمّ في الحملة الرابعة؛ حيثُ تمكَّنت من توجيه الحملة عن

فلسطين، والهُجُوم على مدينة زارا المَسيحيَّة الكاثوليكية؛ لأنَّها مُنافسه لها، ثُـمَّ احتلَّـت القـسطنطينيَّة، وأقامت إمبراطُوراً بُنْدُقياً عليها.

وتمكَّنت جُمهُورية جنوة من مُنافـسة البُنْدُقيَّـة بـشدَّة، وكـان لهـا مُـشاركة مُبكِّـرة في المـشروع الفرنجي مُنْذُ الحملة الأُولى، ولذلك حصلت على امتيازات تجارية مُهمَّة في موانئ فرنجة الشَّام.

وفي الوقت نفسه؛ كان لجنوة امتيازات تجارية مُهمَّة في مصر، وخاصَّة أيَّـام الـسُّلطان العـادل، الذي ربطتهُ علاقة خاصَّة بالتاجر الجنوي كليـام. ولم تتخلَّـف بيـزا عـن المُـشاركة العـسكريَّة لـدَعْم الحملات الفرنجة بَحْرِيَّاً، وكانت أقلّ الجُمهُوريات الإيطالية صلةً بالمُسلمين.

المبحث الثَّالث:

علاقات الإمبراطُوريَّة الجرمانية المقُدَّسة بالشرق الإسلامي

أدَّى سُقُوط إمارة الرُّهَا الفرنجيَّة عام 538 هـ 1144م، بيد عماد الدِّين زنكي إلى صدمة هائلة للفرنج في أُورُبا[1]، أثارت موجة عاتية من الحماس الدِّيني، نتج عنها حملة صليبية جديدة عُرِفَتْ بالحملة الثَّانية، كان أهمّ قادتها كونراد الثَّالث إمبراطُور ألمانيا، ولويس السَّابع ملك فرنسا، وهُما أكبر مُلُوك أُورُبا في ذاك الوقت.

اتَّبعت الحملةُ الطريقَ البرِّيَّ، مُتعثِّرة بأثقالها، فَسَلَكَ كونرادُ الطريقَ المُباشر عبر الأناضول، ممَّا أدَّى لإبادة مُعظم جُنُوده على يد السلاجقة، ولم يكن حظُّ لويس، الذي سلك الطريق المُحاذي للبحر أفضل؛ بحيثُ تعرَّض لهزيمة مُرَّة أمام عساكر السلاجقة، لكنْ؛ في النِّهاية، تمكَّنت الحملة من الوُصُول إلى فلسطين؛ حيثُ انضمَّ إليها بلدوين الثَّاني ملك القُدْس، وقادهم لحصار دمشق، ثُمَّ رفع بلدوين الحصار، ممَّا أحنق كونراد ولويس، فاتَّهماه بالخيانة، وعادا أدراجهما[2]. وكانت الحملة الألمانية تجربة غير سعيدة لأباطرة ألمانيا، لكنْ؛ على ما يبدو، كان الحماس الدِّيني هُو الغالب عليهم، ممَّا دفعهم لتكرارها، وعدم الإفادة من دُرُوس فشلها.

عندما سقطت صقلية بيد النورمان، تابع الملك النورماندي روجر زحفه عبر مضيق مسينا، وانتقل للهُجُوم على سواحل تُونُس، وفي عام 537 هـ 1143م، تمكَّن من الاستيلاء على المهدية العاصمة، وعلى مدينة صفاقس، وجزيرة جربا، وفي عام 540 هـ 1147م، وصل إلى طرابلس الغَرْب، واحتلَّها[3]،واستمرَّت السيطرة النورماندية على إقليمَيْ تُونُس وليبيا، حتَّى عام 553 هـ

---

1 - كان لمدينة الرُّهَا ما للقُدْس من قداسة وأهمِّيَّة دينيَّة في أذهان الأُورُبيين، فقد انتشرت حولها أفكار عديدة، تربطها بأُصُول المَسيحيَّة الأُولى، كما أنَّها أوَّل الإمارات الفرنجيَّة تأسيساً في الشَّرق، وكانت أمل الفرنجة للتوغُّل في قلب الشَّرق المُسلم، ودرع الإمارات الفرنجيَّة، وسُورهم أمام القوى المحلِّيَّة المُسلمة، راجعْ كتاب: الرُّهَا المدينة الفاضلة، سيغال، ترجمة: يُوسُف جبرا.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 130 ـ 131، وتاريخ أُورُبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 184 ـ 186.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 60 ـ 70، والعبر، ابن خلدون، 5/ 202.

1158م؛ حيثُ تمكَّن عبد المُؤمن زعيم المُوحّدين من طَرْد النورمان، وضمَّ كُلَّ مناطق ساحل أفريقيا الشمالي، حتَّى طرابلس إلى دولته[1].

قبل أن تتوَّحد صقلية مع الإمبراطُوريَّة المُقدَّسة كان ملكها وليام الثَّاني عام 569 هـ 1174م، يرغب في المُشاركة بالحملات ضدَّ المُسلمين، ولقُوَّة وشُهرة الأُسطُول الصقلي انفرد وليام بالحملة، ويصف السُّلطان صلاح الدِّين أعداد هذه الحملة ومسيرها في رسالة إلى الخليفة العبَّاسي المُستضيء، وهي من إنشاء القاضي الفاضل، يقول: "ومن هؤلاء الكُفَّار صاحب صقلية . . أراد أن يظهر قُوَّته المُستقلَّة بمُفردها، . فعمَّر أُسطُولاً، استوعب فيه ماله، وزمانه، فإنَّه ـ إلى الآن ـ مُنْذُ خمس سنين يُكثر عدَّته، إلى أن أوصل منها إلى الإسكندرية، أمر رائع وخطب هائل، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله. . وجيش ما احتفل ملك قُطر بنظيره"[2].

وصلت الحملةُ الصقليةُ البَحْريَّةُ إلى الإسكندرية، وأنزلت إلى الساحل قرابة ثلاثين ألف مُقاتل ما بين فارس وراجل صدموا حامية الإسكندرية، التي حاولت منع الإنزال، وقتلوا منها حوالي سبعمائة شخص، وردُّوهم إلى داخل المدينة، ممَّا سمح للأُسطُول بدُخُول الميناء. وفي صباح اليوم الثَّاني "زحفوا، وحاصروا، ونصبوا الدبَّابات بكباشه، والمجانيق"[3]، أمَّا في صباح اليوم الثَّالث؛ فقد "فتح المُسلمون البابَ، وخرجوا، فتكاثروا على الفرنج، وأحرقوا الدبَّابات، واتَّصل القتال إلى عصر اليوم التالي، ثُمَّ دخل المُسلمون البلدَ، ثُمَّ كبسوهم عند قُرب اختلاط الظلام"[4]، وكانت المُفاجأة تامَّة، فاستولى المُسلمون على الخيام، وكانت خسائر الفرنج لا تُحصى، ولم ينجَ إلاَّ مَنْ ألقى بنفسه إلى البحر، "واقتحم المُسلمون البحرَ، فخسفوا بعض المراكب، وأغرقوها، وغنم المُسلمون ما لا يُملَك مثله"[5]. يقول مُؤرِّخ الفرنجة في الشَّرق وليم الصُّوري: إن الحملة "تكبَّدت خسائر كبيرة بالموت والأسر"، ويُعلِّل هذه الخسارة "بسبب فُقدان الحذر، الذي أظهره الحُكَّام والقادة"[6]، ومن الطبيعي

---

1 - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، 172، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 60 ـ 70، والعبر، ابن خلدون، 5/ 202.
2 - صُبح الأعشى ، القلقشندي، 13/ 88.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 11.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 15.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 16.
6 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 375.

أنْ لا يُشير وليم الصُّوري إلى ضراوة المُقاومة التي واجهتها الحملة، أو الهُجُوم الذي انقضَّ فيه المُسلمون عليهم.

ورُبَّما كانت هذه التجربة الصقلية لا تُنسَى لولا التحريض الدائم وإثارة الشُّعُور الدِّيني من قبَل البابوات ومبعوثيهم، الذين لا يهدؤون. ولكن دور صقلية في المُشاركة بالحملات الصَّليبيَّة، أو دعم فرنجة الشَّرْق سيكون ضعيفاً جدّاً، وبلا جدوى. فبعد انتصار صلاح الدِّين في حطِّين، وتدمير مملكة القُدْس الفرنجيَّة، تابع حملته ضدَّ مواقع الفرنجة السَّاحليَّة، فأراد صاحب صقلية أن يدعم هذه المواقع، "فجهَّز أُسطُولاً في ستِّين قطعة، كُلُّ قطعة منها قلعة. . فوصل طرابلس، فلا نفع، ولا ضرَّ، بل صار على الفرنج وبالاً بسبب مؤونته، فسار إلى صُور، ورجع إلى طرابلس، وتردَّد في البحر"[1].

واعتمد السُّلطان صلاح الدِّين على اتِّصالات ديبلوماسية واسعة بالنِّسبة لزمانه، فبعد تحريره للقُدْس عام 583 هـ 1187م، أدرك أن أُورُوبا لن تتغاضى عن ذلك، وعندما أخذ يسمع باستعدادات الأُورُوبيين لمُهاجمته قام بمُراسلة الإمبراطُور الجرماني فريدريك الأوَّل قبل خُرُوجه في حملته الصَّليبيَّة نحو الشَّرْق بمُدَّة غير يسيرة، بل وتعدَّدت رسائله إليه، ولا ندري هل كان يقصد صلاحُ الدِّين بهذه الرسائل كَسْبَ وُدِّ فريدريك؟ أم تحييده ـ على الأقلّ ـ عن مُلُوك أُورُبا المُتورِّطين بغزو الشَّرْق؟ أم أن هُناك أُمُور أُخرى لم نُدركها؟ لكنَّ فريدريك وصف ما طلبه صلاح الدِّين منه بأنَّه: "أُمُور ثقيلة وهامَّة"، وهي ـ غالباً ـ أُمُور الحَرْب والسلام، والحملات الفرنجيَّة. ويتبيَّن من نصِّ رسالة فريدريك إنَّه لم يكن يكترث بالرَّدِّ على صلاح الدِّين، فلم تكن قد تبلورت لديه بعد الفكرة الصَّليبيَّة والتوجُّه شرقاً، ولكنْ؛ ما إن بدأ حملته الصَّليبيَّة عام 584هـ 1188م، حتَّى بادر بمُراسلة صلاح الدِّين، إنَّما مُهدِّداً مُتوعِّداً طالباً منه تسليم الأراضي المُقدَّسة، لكنَّ صلاح الدِّين ردَّ عليه بلهجة عنيفة قائلاً: إنَّنا لن نكتفي بالأراضي القائمة على شاطئ البحر، بل سوف نعبر نحوكم[2]. وكان ردُّ فعل إمبراطُور ألمانيا أقوى وأعنف، فقد انضمَّ فريدريك الأوَّل برباروسا[3] إلى فيليب ملك فرنسا، وريتشارد ملك إنكلترا، وجهَّز حملته الألمانية الخاصَّة، وكان معه ابنه أمير سوابيا،

---

1 - القَدْح القِسّي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 54.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 44/ 352.

3 - كان فريدريك وريث أُسرة هوهنشتاوفن – **Hohenstaufen**

تقدَّم فريدريك بربروسا عام 585 هـ 1189م، عبر هنغاريا على خُطى الحملات الأُولى في البرّ، بينما تأخَّرت الحملتان الإنكليزية والفرنسية؛ لتُبحرا في العام التالي[1]، وبذلك؛ كان فريدريك آخر مُلُوك أُورُوبا بالتعهُّد بحَمْل الصليب، وأوَّلهم بتنفيذ تعهُّده[2]، لقد بكَّر فريدريك بالخُرُوج من بلاده تدفعه حماسته للثأر من المُسلمين[3]، فمع تقدُّمه في العُمر، كان يجمع صفات الفارس الكامل: الشجاعة، المرح، الشغف بالقتال، ولذلك لُقِّب: الجُندي الأوَّل، وبالوقت نفسه؛ كان يمتلك طُمُوحاً كبيراً، فقد عمل على إعادة الدولة الرُّومانيَّة القديمة، وتمكَّن من تحقيق حُلمه بتتويجه في رُوما إمبراطُوراً عام 549 هـ 1155م. ورُبَّما كان أكبر دليل على شجاعته هُو تمكُّنه من هزيمة السلاجقة، بعد أن أرهقوه بهجماتهم على مُؤخِّرة وأطراف جيشه[4]، ومن ثَمَّ؛ نجاحه في عُبُور الأناضول بأقلّ خسائر مُمكنة.

وصلت أخبار الحملة الألمانية إلى صلاح الدِّين، ولكنْ؛ تضاربت المصادر في تقدير أعدادها[5]، لكنَّ فريدريك لقي حتفه، قبل أن يدخل سُورية، فقد غرق في أحد أنهار كيليكيا[6]. ويُقال: إنَّه لو وصل إلى سُورية ـ بعد عُبُوره الناجح ـ لوجد صلاحُ الدِّين به نِدَّاً قوياً، ولاختلفت النتائج[7]، ولكنْ؛ رُبَّما كان في هذا القول بعض المُبالغة، فقد كان ريتشاردُ بالغَ الشجاعة، ولويس امتاز بدهائه، فما هي احتمالات نجاح فريدريك الإضافيَّة؟ اللّهُمَّ إلاَّ زيادة الخلاف والتنافس بين مُلُوك أُورُبا كما حصل بين لويس وريتشارد.

وبموت فريدريك بربروسا تلاشت الحملة الألمانية، فقد تخطَّفَ الأتراكُ قسماً منهم، وأبحر قسم آخر عائداً إلى بلاده، وسارت فرقة من الجيش إلى قلعة بغراس؛ حيثُ أُسرت بالكامل، بينما لم يتمكَّن من الوُصُول إلى عكَّا سوى عدد بسيط من الجُند الألمان[8]. ولكن ابنه وخليفته هنري

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 23.

2 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31/ 31.

3 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 30.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 20.

5 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 115، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 150، ـ قدَّر ابن واصل أعداد الألمان من 200 ـ 260 ألف رجل (مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 317)، أمَّا المقريزي؛ فقد قدَّرهم بحوالي مليون رجل (السُّلُوك، 1/ 216).

6 - غرق فريدريك في نهر غوكسو على حُدُود أرمينيا.(حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31/31).

7 - تاريخ أُورُبا في العُصُور الوُسطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 187.

8 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، 395، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 156، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 322 .

السَّادس، الذي حصل على صقلية بزواجه من الأميرة كونستانس النورماندية وريثة عرش صقلية، وبعد أن تُوِّج إمبراطُوراً أراد أن يُتابع مهمَّة والده تجاه الأراضي المُقدَّسة، وإنْ كان لا يملك صفاته، فقد أمر هنري السَّادس أُمراءَ ألمانيا بحَمْل الصليب، وقام بتجهيز السُّفُن في ميناء بيولا؛ حيثُ تجمَّع حوالي ثلاثة آلاف فارس، وعدد كبير من المُشاة، لكنَّ هنري لم يُرافق الحملة، مُكتفياً بإعدادها، والدعوة لها، وعندما توجَّهت الحملة الألمانية نحو الشَّرْق كان فيها القاصد الرسولي نائب البابا، وكبير رجال الدِّين الألمان كونراد رئيس أساقفة مينس، وكونراد مُستشار القصر الإمبراطُوري، الذي كُلِّف بقيادة الحملة[1]. ولَمَّا وصلت الحملة الألمانية إلى عكَّا، عاملوا فرنجة الشَّرْق بازدراء، "وعندما كان فُرسان البلاد يخرجون في مهامّ كانوا يذهبون، ويطردون نساءهم، ويسكنون محلَّهم"، فتألَّب فرنجة عكَّا ضدَّهم، وأخرجوهم منها؛ ليُقيمُوا مُعسكراً لهم خارجها[2].

الحملة الألمانية على بيروت وتبنين:

كانت بيروت تُشكِّل خطراً حقيقيّاً على التجارة البَحْريَّة لطرابلس وعكَّا، فقد كان أميرها عزّ الدِّين أُسامة، وهُو من الأُمراء الصَّلاحيَّة، يجتهد في تقوية أُسطُوله، "وكان يُرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج"[3]، ولَمَّا لم يتمكَّنوا من الظفر به طلبوا نجدة أُورُبا، فجاءتهم جُمُوع الحُجَّاج عام 593 هـ 1197م، ومُعظمهم من الألمان يقودهم كونراد[4] رئيس أساقفةماينز[5]، وتحرَّكت الحملة نحو بيروت مدعومة بالقُوَّات المحلِّيَّة للفرنج، فاستنجد أُسامة بالسُّلطان العادل، الذي تحرَّك نحو الساحل، وَعَسْكَرَ قُرب صُور. كان العادل يُدرك أنَّه ـ بوُجُود القُوَّة الألمانية والدعم البَحْري للفرنجة، وتفوُّقهم بالأساطيل ـ قد لا يُمكنه إنقاذ بيروت، فأمر أُسامة بهَدْمها، فاعترض أُسامة[6].

1 - ذيل وليم الصُّوري ـ ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 8/ 489 ـ 494.
2 - ذيل وليم الصُّوري ـ ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 8/ 499.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
4 - وكان المُسلمون يُسمُّونه: الخنصلير (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126)، أو الجصكير (من عقد الجُمان، العيني، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 59/ 10).
5 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 169، ـ راجعْ التفاصيل في : لُبنان من السُّقُوط بيد الصليبيين، تدمري، 206.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 127، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 2/ 102.

قام الملك العادل باعتراض الفرنج قُرب صيدا؛ حيثُ جرت مُناوشات بسيطة، لكنَّها لم تمنع الحملة الألمانية وفرنج الساحل من التقدُّم إلى بيروت[1]، وكانت المُفاجأة بأنَّ أُسامة ومَنْ معه غادروها بلا قتال[2]، فسار العادل إلى يافا، وَهَدَمَهَا، وردَّ الفرنج على خسارة يافا بأنْ توجَّهت جُيُوشهم مع قُوَّات الحملة الألمانية إلى حصن تبنين في عام **594** هـ **1198**م، وأحاطوا به، وشدَّدوا الحصار عليه[3]، وكان حصن تبنين في ولاية حُسام الدِّين بشارة الصلاحي[4].

كان الملك العادل يُدرك ـ تماماً ـ أن المعارك في بدايتها، وقدَّر أن الفرنج لن يقنعوا ببيروت التي احتلُّوها بدل يافا، وتوقَّع أن تكون هجمتهم التَّالية صوب إحدى الحُصُون الدّاخليَّة، فيافا قد أصبحت خراباً يباباً، لذلك توجَّه نحو حصن هونين مُحاولاً استباق الأحداث، لكنَّ الفرنج كانوا قد توجَّهوا إلى حصن تبنين، وحاصروه، ولمَّا كان العادل يُدرك أن الهُجُوم على قُوَّات الفرنج في معركة مكشوفة قد يكون خطراً على جيشه، أرسل إلى الملك العزيز ابن صلاح الدِّين صاحب مصر يطلب منه الخُرُوج بنفسه مع قُوَّاته لنجدته، فقد كان تقدير العادل للخطر الفرنجي بأنَّه قد يكون حرب استرداد شاملة إنْ نجحوا بأخْذ تبنين، ولم يتأخَّر العزيز بتلبية نداء عمِّه، ورُبَّما كان ذلك بما أرسله إليه من تحذير، فالأخطار داهمة في حال توانيه، والعادل يُدرك تماماً تقاعس أبناء أخيه، وعدم تحمُّسهم للقتال. وكذلك طلب العادل النجدات من مُلُوك الشَّام والجزيرة، فجاء إليه الملك الأفضل صاحب دمشق، والملك المُجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك، والأمير عزّ الدِّين بن المُقدَّم والأمير بدر الدِّين دلدرم[5]، وكما يبدو؛ فقد استنفر العادل كُلَّ قُوَّات المُسلمين، ولم يقبل إرسال النجدات إليه إلاَّ وملك أو أمير كُلّ مقاطعة على رأس قُوَّاته، إن كُلَّ ذلك يُؤكِّد الشُّعُور المُتزايد بالخطر، الذي شعر به العادل، وهُو مُحقٌّ، فلو نجح الفرنج أمام تبنين لما توقَّفوا إلاَّ في القُدْس.

شدَّد الفرنجُ الحصارَ على تبنين، وكانت حماسة الألمان شديدة وهُم عماد القُوَّات المُحاصرة بقيادة أميرهم كونراد رئيس أساقفة ماينز. وممَّا أحنق الألمان وقائدهم مُستشار القصر الإمبراطُوري،

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 93.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 75.
5 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكّار، 19/ 966.

أنَّهم أرسلوا بخبر حصارهم لقلعة تبنين إلى إمبراطُورهم هنـري، فغـضب الإمبراطُـور، "لأن حملتـه العظيمة تُحاصر قلعة فقط"[1]، ممَّا دفع الألمان للضغط على القلعة بكُلِّ حماسة وقُوَّة، فتمكَّنوا من نقب الأسوار[2]، بعد أن حفروا لُغمَيْن تحت أسوار القلعة[3]، وأُسقط بيد حامية الحصن، فَضَغطُ الفرنجـة كبيرٌ، وأسوار القلعة شبه مُدمَّرة، والملك العادل بقُوَّاته ينتظر وُصُول إمدادات العزيز مـن مـصر، ولا يتدخَّل في المعركة، ولمَّا لاح لحامية تبنـين أن العـادل ومـن خلفـه مـن مُلُـوك المُـسلمين قـد تركـوهم لمصيرهم، خرجوا من الحصن، وطلبوا التفـاوض لتـسليمه، بعـد أن انقطـع أملهـم مـن النجـدات، واشترطوا على الفرنج الخُرُوج من القلعة بأنفسهم، وأموالهم، فلم يُوافق الألمان[4]، ورُبَّما كان الألمـان مُتسرِّعين جدًّا بهذا القرار، لكنَّ الظُّرُوف المُحيطة كُلَّها كانت تُؤكِّد أن القلعة بحُكْم المُستولى عليهـا، والقضية هي قضيَّة ساعات قليلة من القتال، ورُبَّما لأجل هذا التعنُّت، والثقة الزائدة بالنَّفْس من قبَـل الألمان، اتَّصل الفرنجة المحلِّيون المُرافقون للحملة بحامية القلعة، ونصحوهم بعدم التـسليم، وقـالوا لهم: "إذا سلَّمتُم الحـصنَ اسـتأسركم هـذا، وقـتلكم، يقـصدون كـونراد أسـقف مـاينز، فـاحفظوا نُفُوسكم، فعادوا، وامتنعوا، وقاتلوا قتال مَنْ يحمـي نفـسه"[5]. "وعـاود الألمـانُ الهُجُـومَ بالرجـال والمجانيق، ودافع المُسلمون بكُلِّ قُوَّة وعزيمة، وانهارت الأسوار الملغومة، ولمَّـا أراد الألمـان الاقتحـام رُدُّوا، ومُنعوا من الدُّخُول، فوافقوا على استسلام القلعة، وتأمين النـاس فقـط"، فرفـضت الحاميـة؛ لأنَّهم كانوا لا يثقون بالألمان، ولأنَّهم سمعوا باقتراب العزيز وقُوَّات مصر.

وفي هذه اللحظات الحاسمة، وصل إلى الألمان خبرُ وفاة الإمبراطُور هنري، وشاهدوا بأعينهم النجدات تتوالى على مُعسكر المُسلمين، "فاضطربوا، واستولى عليهم الرُّعـب، وفقـدوا شـجاعتهم،

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، مـن الموسـوعة الـشاملة، سُهيل زَكَّار، 8/ 511..
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
3 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، مـن الموسـوعة الـشاملة، سُهيل زَكَّار، 8/ 511.
4 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، مـن الموسـوعة الـشاملة، سُهيل زَكَّار، 8/ 511.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.

وإرادتهم، وحزنوا، وما عادوا يدرون ما يفعلون"[1]. وممَّا زاد على الفرنج الطين بلَّة هُبُوب زوبعة من المطر العاصف[2]، فلمَّا جنَّ الليل، سارعوا بالرحيل عن تبنين، وزحفت خلفهم قُوَّات العزيز والعادل يلتقطون مَنْ ظفروا به منهم[3]، واستولت حامية الحصن على كُلِّ أثقال الفرنج، التي خلَّفوها من أسلحة ومُؤن[4].

وما كاد الفرنج يتوارون خلف حُصُونهم على الساحل، حتَّى عاد العزيز مُسرعاً إلى مصر، تاركاً مُعظم عساكر مصر مع عمِّه العادل، "وجعل إليه أمر الحَرْب والصُّلح"[5]، وكأن العزيز يُريد أن يخلص من هُمُوم الحَرْب، وكُلّ ما يتعلَّق بها، والتي يبدو أنَّها كانت غير مُحبَّبة إلى نفسه، التي تطلب السلامة والدَّعَة، وكُلُّ ذلك كان يُصيب هوى في نفس العادل، ويُوافق مُخطَّطاته.

وقد لَمَّح بعض المُؤرِّخين المُسلمين إلى أن ملك قبرص هُو سبب إفشال الهُجُوم النهائي للفرنجة على حصن تبنين، ورُبَّما كان ذلك نكاية، أو خوفاً من الألمان، الذين كانوا غير محبوبين من فرنجة الشَّرْق، وذلك لصلفهم، وتعاليهم، وقسوة طباعهم، "وكان ملك قبرص قد أصبح ملكاً على مملكة بيت المَقْدس بعد وفاة الكندهري واتِّفاق البارونات على تنصيبه، وتزويجه بالملكة إيزابيل زوجة الكندهري"، الكُونت هنري، ويقول ابن الأثير عن ملك قبرص هذا الذي أصبح ملك القُدْس: "كان عاقلاً يُحبُّ السلامة، فلم يعد إلى الزحف على الحصن"[6].

ولَمَّا تقدَّم السُّلطان العادل بقُوَّاته نحو عكَّا، قال هيو صاحب طبرية للألمان: هذه البلاد أمامكم، "فليُبرهن مَنْ أراد على فُرُوسيَّته"، ونشبت معركة قاسية بين عسكر العادل وقُوَّات الحملة الألمانية، "وفي النِّهاية؛ تخاذل الألمان، وانسحبوا إلى داخل عكَّا، وتركوا باقي الناس تحت رحمة الرَّبِّ"[7]. ولم ينسحب العادل من أرض المعركة، ولا سرَّح قُوَّاته كالعادة، بل ظلَّ "يشنُّ الغارات

---

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8/ 511.

2 - من عقد الجُمان، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 59 / 12.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 75.

4 - من عقد الجُمان، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 59 / 12.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 93.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126 .

7 - ذيل وليم الصُّوري ـ ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 501، ـ راجع حول حملة الألمان هذه: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 76، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 19.

على مواقع الفرنج، ويقصدهم بنفسه، وبجُموعه، إلى أن أَضْجَرَهُم، فراسلوه بطلب الصُّلح، فأجاب إليه"[1]، على قاعدة صُلح صلاح الدِّين[2]، واستقرَّت الهُدنة ثلاث سنين[3]، ورجع العادل إلى دمشق، وذلك عام **594 هـ 1198م**.

إن هذه الانتكاسات الألمانية في الشَّرْق لن تُنسَى حتَّى يتولَّى الإمبراطُور الأُعجُوبة فريدريك الثَّاني عرش الإمبراطُوريَّة المُقدَّسة، ولن يتبدَّل حظُّ الألمان العاثر في الشَّرْق فقط، بل سيُبدِّل فريدريك كثيراً من المفاهيم، ومن العلاقات بين الشَّرْق والغَرْب. فعندما تُوفِّي الإمبراطُور هنري السَّادس عام **593 هـ 1197م**، وجد بابا رُوما أنَّه من الأجدى الاعتناء بابنه ووريثه الشرعي فريدريك، الذي كان صبياً صغيراً، يُمكن التحكُّم بمُقدَّراته مُستقبلاً، إذا تمَّت السيطرة عليه بوقت مُبكِّر، فدعم البابا فريدريك الثَّاني، وتوَّجَهُ على ألمانيا، التي ورثها مع المُمتلكات الإيطالية من أبيه، وعلى صقلية، التي ورثها من أُمِّه، وأعلنه البابا إمبراطُوراً عام **609 هـ 1212م**.

إن نشأة فريدريك في صقلية التي كانت مُلتقى حضارات المُتوسِّط، ومكان امتزاجها، أَكْسَبَتْهُ مهارات وملكات جعلته فريد عصره، فقد تعلَّم فريدريك الكلام والكتابة وقرض الشعر بستٍّ لُغات حية، وبقدر ما كان جُندياً بارعاً جسوراً، كان سياسياً لبقاً، مع نزعة علمية وحُبٍّ شديد للفلسفة والفَلَك والهندسة والطِّبّ والتاريخ، حتَّى إنَّه صنَّف كتاباً بالبيزرة. ولكن شخصيَّته لم تخلُ من امتلاك المُتناقضات، فقد سلك مسلك الرُّهبان الدُّومينيكان بصرامتهم الدِّينيَّة، وبالوقت نفسه؛ كان بعيداً عن التعصُّب يُحيط به المُسلمون، وجعل من صقلية ملجأ للشُّعراء الجوَّالين المُغنِّين ـ التروبادور، وامتلك الجواري، وعاش في قُصُوره على عادة مُلُوك المُسلمين ورفاهيَّتهم، مع أنَّه تشدَّد مع بقايا السُّكَّان المُسلمين في صقلية، وطردهم منها، كُلُّ ذلك جعله يُدعى بحقٍّ: أُعجُوبة الدُّنيا ـ **Stupor Mundi**[4].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71.

2 - من عقد الجُمان، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 59 / 12.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 94، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 78.

4 - تاريخ أُورُبا، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 252.

فريدريك والحملة إلى الشَّرْق:

كان البابا يهدف من دعم فريدريك وتتويجه إمبراطُوراً أن يجعله أداة طيِّعة في يده ليحكم من خلاله، ولطبيعة اهتمام البابويَّة بالحملات إلى الشَّرق، أقنع البابا الإمبراطُورَ فريدريكَ بضرورة قيادة حملة لاسترداد مملكة القُدْس من المُسلمين، وأجبره أنْ يُقسم على ذلك عام **612 هـ ـ 1215م**، ولكن فريدريك - الذي ـ على ما يبدو ـ لم يكن قانعاً بجدوى الحملات - ظلَّ يُماطل، ويُسوِّف، ويعتذر للبابا، ولم يفِ بقَسَمه إلاَّ بعد اثنَتَيْ عشرة سنة[1].

وعندما أبحرت الحملة الخامسة نحو دمياط، وهُزمت هُناك بعد إصابتها بخسائر فادحة، اعتبر البابا أن تخلُّف فريدريك عن الحملة هُو سبب فشلها، ويقول البابا غريغوري التَّاسع في رسالة له: "الكَنيسَة تبكي دمار الأرض المُقدَّسة، التي كُنَّا آملين أنْ تكون ـ الآن ـ قد أُنقذت من أيدي الكُفَّار، وأنْ يكون الجيش الصليبي قد استردَّها مُبادلة لدمياط، لولا أنَّه مُنع مراراً أن يفعل ذلك بوساطة رسائل الإمبراطُور"[2]، علماً بأنَّ بيلاجيوس نائب البابا هُو الذي رفض عرض السُّلطان الكامل بمُبادلة دمياط بالقُدْس[3].

ويعود البابا غريغوري ليتَّهم فريدريك بأنَّه سبب نكبة الحملة، وأَسْر جُندها؛ فيقول: "وما كان هذا الجيش وقع أسيراً بأيدي الكُفَّار لو تمَّت أعمال تجهيز السُّفُن كما كان قد وعد الإمبراطُور"، ثُمَّ يُتابع البابا في رسالته توجيه التُّهم لفريدريك، فيُضيف: "جرى تسليم دمياط إلى رُسُله، ووُضعَتْ تحت عُهدتهم، وتزيَّنت بالنُّسُور الإمبراطُوريَّة، ثُمَّ جرى نَهْبها بشكل وحشي، ثُمَّ بعد ما جرى تدميرها بشكل مُهين، تمَّت إعادتها من قبَلهم إلى الكُفَّار"[4]، ولكن البابا يتناسى أن تسليم دمياط تمَّ بالاتِّفاق مع مندوبه بيلاجيوس أوَّلاً[5].

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 112.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 867.
3 - راجعْ مبحث العلاقات مع البابويَّة في هذا الكتاب.
4 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 868.
5 - راجعْ مبحث العلاقات مع البابويَّة في هذا الكتاب.

وفي مُقابل ما نقوله عن تحامل البابا عليه، وتحميله المسؤولية كاملة عن نكبة دمياط، نجد أن هُناك شيئاً من الحقيقة، فالفرنجة ـ بعد أَخْذ دمياط ـ كانوا يتوقَّعون قُدُوم الإمبراطُور لإتمام مشروع احتلال مصر، يقول مُقدَّم الدَّاويَة في إحدى رسائله من دمياط: "إنَّنا مُتوقِّعون ـ مُنْذُ وقت طويل ـ وُصُول الإمبراطُور؛ لتصل هذه المسألة إلى نهاية سعيدة، وإذا خابت الآمال، فسوف يكون وضع البلدَيْن مصر وسُورية في موضع شكٍّ"[1]، إن مُقدَّم الدَّاويَة مُحقٌّ جدّاً، فوُصُول الإمبراطُور بقُوَّات جديدة كان من المُمكن أن يُبدِّل كثيراً في وضع المعركة، على الأقلِّ؛ كان فريدريك قد نحَّى بيلاجيوس الكاردينال المُتعجرف الجاهل بأُمُور الحَرْب عن قيادة الحملة، ولكن فريدريك لم يتجاهل الحملة تماماً، فقد أرسل دُوق بافاريا مُمثِّلاً له، ومعه عدد لا بأس به من الجُنُود[2]، ولا ندري أَيدلُّ ذلك على توفُّر نوايا صليبية لدى الإمبراطُور فريدريك؟! أم أن ذلك لذَرِّ الرماد في العُيُون؟!

بعد تراجع الحملة الخامسة مهزومة عن مصر، كان جُون دي برين ملك القُدْس أكثر الناس حُزناً، فقد خسر جُهُوداً وأموالاً، ولم يستعد شيئاً من مملكته، فتوجَّه إلى رُوما يستجدي عون البابا غريغوري التَّاسع، فوجده في أشدِّ حالات الغضب من الإمبراطُور فريدريك، فسعى جُون بالصُّلح بينهما، وتكلَّلت مساعيه بالنجاح، على أن يتزوَّج الإمبراطُور فريدريك من إيزابيلا ابنة جُون الوحيدة، وباعتبارها وارثة مملكة القُدْس، فتنتقل المملكة ـ بهذا الزواج ـ من جُون إلى فريدريك، وجدَّد الإمبراطُور وعده بأنَّه سيُبحر لاسترداد مملكة أصبحت ـ الآن ـ من حقِّه[3].

وتمَّ ترتيب الزواج الإمبراطُوري عام 622 هـ ـ 1225م، وأُضيفت على الألقاب الإمبراطُوريَّة لفريدريك لقب ملك القُدْس[4]، ورُبَّما كان هذا سبب تحمُّس البابا لزواجه، فقد أَدْخَلَهُ ـ بذلك ـ شريكاً أساسياً في طلب استرداد مملكة القُدْس، التي أصبحت من حقِّه.

ولوَضْع فريدريك أمام الأمر الواقع، قام البابا بجَمْع أُسطُول، وشحنه بالرجال، ودعا الإمبراطُور للوفاء بوعده، فأُسقط بيد فريدريك، واضطرَّ للالتحاق بالحملة، وأبحر ـ فعلاً ـ من

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 786.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 789.
3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1166.
4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 112.

ميناء برنديزي نحو الشَّرق، ولكنْ؛ بعد ثلاثة أيّام من الإبحار، أمر فريدريكُ السُّفُنَ بالعودة، وأعلن أنَّه أُصيب بمرض مُفاجئ، وعادت الحملة، وتشتَّت أربعون ألف رجل مُسلَّح، كانوا ذاهبين لتحرير القُدْس[1]، فقامت قيامة البابا على فريدريك، وَحَرَمَهُ كَنَسياً للمرَّة الثَّانية، وعدَّه خائناً حانثاً باليمين.

وانتشرت شائعات كثيرة حول عودة الإمبراطُور غير المُتوقَّعة، فقد قيل إنَّه سمع أن البابا سيُعطي في غيابه صقلية وأبوليا إلى جُون ملك القُدْس السَّابق، وقيل أيضاً: إن سُلطان مصر قدَّم له رشوات كبيرة، ووعده بتسليم مملكة القُدْس، دُون حرب، شرط إعاقة هذه الرحلة[2].

ورُبَّما كان أقوى الاحتمالات لعودة فريدريك السريعة هُو خوفه من البابا ونواياه السَّيِّئة ضدَّه، أمَّا رشوة سُلطان مصر، وطلبه إعاقة الحملة، فلا نعتقد بصحَّتها؛ لأن السُّلطان الكامل راسل فريدريك فعلاً، لكنَّه طلب قُدُومه ليُساعده في مشاريعه ضدَّ أخيه المُعظَّم.

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 854.
2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1167.

المبحث الرَّابع:

العلاقات الخاصَّة بين السُّلطان الكامل والإمبراطُور فريدريك

قَدِم الملك الأشرف إلى مصر على رأس عساكره نجدة لأخيه السُّلطان الكامل عند سُقُوط دمياط بيد الحملة الفرنجيَّة الخامسة، وبعد أن تحقَّق النصر، أطال الأشرفُ مُكُوثَهُ بمصر لدى أخيه الكامل، واتَّفقا ـ أثناء ذلك ـ ليكونا حلفاً واحداً ضدَّ أخيهما المُعظَّم صاحب دمشق[1]، وقد لا يستغرب المرء هذا الحلف بينهما، ولكن المُستغرب جدَّاً أن يقوم الحلف ضدَّ أخيهما المُعظَّم، فلا تُوجد أسباب ظاهرة لذلك، إلاَّ إذا فكَّرنا بوراثة الأبناء لطَمَع أبيهما العادل بمُلك أولاد أخيه السُّلطان صلاح الدِّين. وما كان ظاهراً من العلاقة بين الأخوة كان يدعو لاستبعاد أيِّ اتِّفاق بين الأشرف والكامل، فالمُعظَّم بإلحاحه ورجائه أجبر الأشرف على ترك الشَّام، ونجدة الكامل[2]، كما أن المُعظَّم هُو صاحب الفضل على الكامل بتخليصه من ابن المشطوب، الذي أراد خلعه عن العرش[3]. وحتَّى لا يقع الملك المُعظَّم بين فكَّيْ كمَّاشة أخوَيْه: الكامل في مصر، والأشرف في الجزيرة، فكَّر بالتحالف مع قُوَّة خارجية كبيرة هي دولة الخَوَارزميَّة، خاصَّة أن ملكها جلال الدِّين خوارزمشاه قد وصلت سُمعة قُوَّته ومُقارعته للتَّتار إلى بلاد الشَّام، وقدَّر المُعظَّم أن الخوارزمي يستطيع إشغال الأشرف بهُجُومه على الجزيرة؛ ليُتيح له التَّصدِّي للكامل إذا فكَّر أخواه بالهُجُوم عليه، فأرسل المُعظَّم مُحتسب دمشق صدر الدِّين البكري إلى جلال الدِّين، واتَّفق معه على أخوَيْه[4]، وكان ذلك عام **624 هـ - 1227**م. ولمَّا علم الكامل باتِّفاق أخيه المُعظَّم مع الخوارزمي فكَّر بالتحالف مع قُوَّة خارجية توازن قُوَّة الخوارزمي، "فأرسل فخر الدِّين يُوسُف بن شيخ الشُّيُوخ إلى الإمبراطُور فريدريك. . . يطلب منه القُدُوم إلى عكَّا، ووعده أن يُعطيه البيت المُقدَّس، وبعض الفُتُوح النَّاصري، وقصد بذلك إشغال سرّ أخيه المُعظَّم"[5].

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 310.

2 - راجعْ مبحث الحملة الخامسة في هذا الكتاب.

3 - راجعْ مبحث : أُمراء العَسْكَر فصل ابن المشطوب في هذا الكتاب.

4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 310، وأخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 14.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 206.

ولأوّل مرّة تتدخّل قوى خارجية كُبْرَى بالصراع بين المُلُوك الأيُّوبيَّة، فالمُعظَّم رأى أنّه أضعف من أن يُجابه حلف أخوَيْه، ولا يملك القُوَّة الهُجُومية للتَّحرُّك ضدَّ أحدهما، فتحالف مع الخوارزمي، ولا ندري بماذا وعده، ولا ماذا كان ثمن هذا الحلف[1]، أمّا الكامل؛ فكان يملك القُوَّة العسكريَّة، لكنَّه كان يخشى من عسكره[2] أكثر من خشيته من أعدائه، فطلب فريدريك ليُقاتل عنه، وكان الثمن باهظاً، إنَّه القُدْس، وبعض الفُتُوح الصَّلاحيَّة[3].

نتيجة لظُرُوف فريدريك الصعبة التي وضعه فيها صراعه مع البابويَّة وحرمانه كَنَسياً، وجد في دعوة السُّلطان الكامل له فرجاً عظيماً، وأن عرض الكامل بتسليمه القُدْس وما حولها سيقلب موازين القوى في أُورُبا لصالحه، واعتقد أن الأمر سيكون نُزهة جميلة، يعود بعدها سريعاً إلى دياره وقد تزوَّد بقوى معنوية هائلة، فبدأ فريدريك يدرس توزُّع القوى في الشَّرْق الإسلامي، وسعى للاتِّصال بها. ورُبَّما كان يأمل أنّه سيحصل على القُدْس والساحل من خلال مُراسلات يُجريها مع المُلُوك الأيُّوبيَّة، وعلى الأقلِّ؛ ستكون تمهيداً لقُدُومه، واحتكاكه المُباشر معهم. وقام فريدريك عام 624 هـ 1227م، بتوجيه الكُونت تُوماس[4] نائبه في عكَّا رسولاً إلى الملك الكامل، يطلب منه تسليم ما وعد به قبل وُصُول الإمبراطُور، ومن ثَمَّ؛ توجَّه الرسول إلى دمشق، فقابل الملك المُعظَّم، وقدَّم له هدايا حسنة، وطلب منه القُدْس وبلاد الساحل[5].

استقبل الكاملُ رسولَ الإمبراطُور، واستلم منه الهدايا، "وعمل له هدية لم يُسمَع بمثلها، وَسَيَّرَ بها جمال الدِّين إسماعيل بن مُنقذ في الجواب"[6]، ورُبَّما اعتذر إليه بأنَّ البلاد التي طلبها هي ضمن مملكة دمشق، وقد يكون لهذا السبب سار الرسول للتوجُّه نحو دمشق، ولكن الرسول الإمبراطُوري الذي استُقبل بحفاوة في مصر، قد تلقَّى ردّاً قاسياً في دمشق، فقد ردَّه الملك المُعظَّم

1 - رُبَّما كان الثمن - كما قال ابن نظيف - هُو بلاد خِلاط (المنصُوري، 153).
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 30.
3 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 14.
4 - تُوماس: هُو كُونت أتري، وهُو وزير فريدريك، ونائبه في عكَّا.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 149.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 148.

بغلظة[1]، وأجابه على طلب فريدريك للقُدْس قائلاً: "ماله عندي إلاَّ السيف"[2]. وهُنا يُقرِّر فريدريك الحُضُور بنفسه إلى الشَّرْق. وفي صيف عام 625 هـ 1228م، غادر الإمبراطُورُ فريدريكُ ميناءَ برنديزي، مُتوجِّهاً نحو سُورية، فقامت قيامة البابا، وأعلن: "أن فريدريك ليس صليبياً، بل قُرصاناً، خادماً مُحمَّد، وأن حملته ليست ضدَّ الإسلام، بل لسرقة مملكة القُدْس"[3]، ولكن ذلك لم يُؤثِّر على فريدريك، فاستمرَّ في إبحاره حتَّى وصل جزيرة قبرص؛ حيثُ نزل فيها، وضمَّها إلى مملكته، ثُمَّ تابع سيره، ووصل ميناء عكَّا في العام نفسه، "فارتاع المُسلمون لذلك"[4]، ويبدو أن أخبار حملة الإمبراطُور فريدريك قد وصلت مُضخَّمة إلى أسماع المُسلمين، أو أنَّهم بالغوا في تقدير قُوَّة الحملة، نظراً لمكانة الإمبراطُور، فقيل: "إنَّه وصل إلى عكَّا في جُمُوع عظيمة"، وجعل بعضهم مرض الملك المُعظَّم وموته من نتائج وُصُول فريدريك[5]، مع أنَّه كان يُرافق الإمبراطُور أصغر جيش صليبي وصل إلى الديار المُقدَّسة[6].

وكان أصعب ما واجهه فريدريك في الشَّرْق هُو أن الظُّرُوف التي بسببها استدعاه الملك الكامل كانت قد تغيَّرت، فقد تُوفِّي الملك المُعظَّم صاحب دمشق، وتولَّى ابنه الشابّ داود، الذي التجأ لعمِّه الكامل، وهكذا زالت مخاوف الكامل تماماً، ولم يعد لحُضُور الإمبراطُور من فائدة تُرجَى، بل على العكس، هُو ـ الآن ـ مصدر قلق لمُطالبته بتنفيذ الوعد، وشعر فريدريك بموقفه الصعب، فلو علم بالتبدُّلات قبل حُضُوره، لهان الأمر عليه، ولما حضر، لكنَّه ـ الآن ـ في فلسطين، وعودته خائباً ستكون القاضية عليه أمام البابا ومُلُوك أُورُبا، فراسل السُّلطانَ الكاملَ، وأرسل نائبه تُوماس، ومعه صاحب صيدا[7] يحملان رسالة شفهية إلى السُّلطان، جاء فيها: إن المُسلمين قد بذلوا لنائبي في حصار دمياط تسليم الساحل جميعه، " فلا أقلّ من إعطائي ما كُنتُم بذلتُمُوه له"، فاستشار الكاملُ أخاه الأشرفَ، فترك تقرير الأمر له، ونصحه بجَمْع الجُيُوش، واتِّفاق كلمة المُسلمين ريثما يُقرِّر السُّلطان

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 292.

2 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 284.

3 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 302.

4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 144.

5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 662.

6 - The Crusades, Cambell, P. 404

7 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 330.

ما فيه الصلاح[1]. ويبدو ـ بشكل واضح ـ من مجرى المُراسلات أن الكامل كان يُماطل، ويُسوِّف، أملاً بحَلٍّ غير مُتوقَّع لمُشكلته، أو حُدُوث ما يحلُّه من وعده للإمبراطُور، دُون تسليم قُدْس المُسلمين، فأطال المُراسلات مع فريدريك، وكان المُتردِّد في الرسائل بينهما من جهة السُّلطان هُو الأمير فخر الدِّين بن يُوسُف بن شيخ الشُّيُوخ لسابق رسالته إلى الإمبراطُور يوم دعاه للخُرُوج إلى الشَّرْق[2].

كان السُّلطان الكامل ـ أثناء ذلك ـ مُقيماً في تلِّ العُجُول من أرض فلسطين، فقد كان في طريقه إلى دمشق لأَخْذها من ابن أخيه النَّاصر داود، الذي خلف والده الملك المُعظَّم، عندما فاجأه حُضُور الإمبراطُور فريدريك إلى عكَّا، ومن تلِّ العُجُول؛ تردَّدت الرُّسُلُ بينه وبين الإمبراطُور دفعات كثيرة[3]، وخرجت المُراسلات عن شكلها السِّياسي، فتناولت مسائل في الفلسفة والهندسة والرياضيات[4]، رُبَّما أراد فريدريك منها أن يُثبت للكامل علْمه وفضله، وأنَّه مُختلف عن قادة الفرنج ومُلُوكهم الجهلة، ولمَّا سأل فريدريك عن علْم الفَلَك أراد السُّلطان الكامل أن يُثبت له تفوُّق الحضارة الإسلاميَّة، فأرسل له العلم قيصر[5] وهُو أفضل أهل زمانه في هذا العلم[6].

وتأكَّد للإمبراطُور في هذه المُدَّة أنَّه غير قادر على أَخذ القُدْس إلاَّ بمُوافقة الكامل، وأصلاً؛ لم يكن فريدريك يرغب بأَخْذها حرباً، فلا استعداده، ولا قُوَّاته، كانا يُوحيان بذلك، ولكُلِّ هذا أرسل إلى السُّلطان الكامل عام 626 هـ 1229م، يقول: "إنِّي عتيقكَ، وتعلم أنِّي أكبر مُلُوك الفرنج، وأنتَ كاتبتَني بالمجيء، وقد علم البابا والمُلُوك باهتمامي، فإنْ رجعتُ خائباً، انكسرتْ حُرمتي، وهذه القُدْس، فهي أصل دين النصرانية، وأنتم قد خرَّبتُمُوها، وليس لها طائل، فإنْ رأيتَ أن تُنعم عليَّ بقصبة البلد، ليرتفع رأسي بين المُلُوك، وأنا ألتزم بحَمْل دَخْلها إليكَ"[7]. وفي الحقيقة؛ فإن كُلَّ ما ورد في الرسالة هُو حقائق واقعة، وكان فريدريك يُدركها تماماً، كما كان الكامل يُدركها أصلاً،

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 163 ـ 164.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 242.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 483.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 242.

5 - العلم قيصر: علم الدِّين قيصر الحنفي، المُشتهر بتعاسيف، تُوفِّي عام 649 هـ1251م، كان أبرع المُتأخِّرين بعلم الهيئة ـ الفَلَك، (المُختصر، أبو الفداء، 3 / 195).

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 176.

7 - العبر، الذهبي، 5/ 102.

ولكنْ؛ يبدو أنَّه من المشكوك فيه أن تصدر هذه الرسالة عن الإمبراطُور، رغـم كُـلِّ وضـعه الأُورُوبي الصعب، وعدم حيلته في الشَّرْق، فحتَّى لو كان يرغب في توصيل هذه المعـاني إلى الـسُّلطان الكامـل، فلكان صاغها بما يُخفِّف صيغة الذُّلِّ والخُضُوع المُذِلّ، ولذلك يُحتمَل أن تكون هذه الرسالة من وَضْع، أو إعادة صياغة المُؤرِّخين الذين تطوَّعوا لتبرير قيام الكامل بتسليم القُدْس.

إن ما واجهه الإمبراطُور فريدريك في مملكة القُدْس قد يكون أقسى ممَّا واجهه وسيُواجهه مـع المُسلمين، فقد عارض قُدُومَهُ فُرسانُ الرُّهبانيات؛ لتبعيَّتها الدِّينيَّة للبابا، وبطريـرك القُـدْس، ومُعظـم أُمراء الفرنجة في الساحل الشَّامي، وبلغ بهم الأمر أنْ تآمروا عليه، فقد كتبـوا إلى الـسُّلطان الكامـل: "إذا حصل المصافّ مسكوا الإمبراطُور"، لكنَّ الكامل كـان لـه رأي آخـر، فقـد أرسـل كُتُبَهُم إلى فريـدريك؛ ليَحْـذَرهُم، لأن الـسُّلطان الكامـل ـ عـلى مـا يبـدو ـ كـان يميـل لتـسليم القُـدْس إلى فريدريك[1]. ومُباشرة ؛حاول فريدريك أن ينتقم، فدبَّر لإلقاء القبض على صـاحب بـيرُوت يُوهـان فُون إبلين، لكنَّه نجا من المكيدة، بينما وقع في قبضته قائـد جـيش بـيرُوت فيليـب فُـون إبلـين[2]، ثُـمَّ التفت فريدريك لتعزيز مواقعه على الأرض، فاستولى عـلى صـيدا، وكانـت مُناصـفة مـع لمُـسلمين، فأخرجهم منها، وعمَّر سُورها[3]، مع أن ذلك قد تمَّ بغير رضا فرنج الساحل[4]، فما قام به فريدريك هُو مُخالفة للمُعاهدات السابقة مع المُسلمين. كذلك انتقل فريدريك إلى قيسارية، فدعم تحصيناتها[5].

ومع عدم المُبالاة الكاملة من السُّلطان الكامل بما يفعله فريدريك، فإن بعض الأُمراء المحلِّـيين المُسلمين قاموا بإغارة ناجحة على قُوَّات الفرنج؛ حيـثُ كمنـوا لهـم قُـرب صُـور، فقتلـوا، وأسروا،

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 144.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 160، وراجع : الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، تعريب: أحمد الشَّيخ، 641.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 361، ومُفرِّج الكُرُوب، ابـن واصـل، 4/ 234، والكامـل في التـاريخ، ابـن الأثـير، 12/ 477.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 156، ـ ولا ندري هل عدم الرضا هذا بسبب كونه محروماً كَنَسياً؟ أم حفاظاً على المُعاهدات مع المُسلمين؟ أم خوفاً منه على نُفُوذهم ؟

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.

وغنموا[1]. ويُعلِّل ابن الأثير سُهُولة احتلال صيدا وطرد المُسلمين منها، وإعادة تحصينها بدُون اعتراض مُعترض، بقوله: "وإنما تمَّ لهم ذلك بسبب تخريب الحُصُون القريبة منها، تبنين وهونين وغيرهما"[2]. ويبدو أن تفاهماً قد تمَّ بعد ذلك بين فريدريك وأُمراء الساحل من الفرنج وطوائف الدَّاويّة والاسبتار[3]، ممَّا مكَّن فريدريك للتفرُّغ لما جاء من أجله، وركَّز على مُفاوضاته مع السُّلطان الكامل ليُسلِّمه القُدْس.

وفي الحقيقة؛ كان من السهل على السُّلطان الكامل التّصدِّي عسكريّاً لفريدريك، أو على الأقلِّ؛ تركه محصوراً بينه وبين فرنج الساحل المشكوك بولائهم له. فلا قُوَّات فريدريك، ولا شخصيَّته وأفكاره يُؤيِّدون قيامه بحرب ضدَّ السُّلطان الكامل، وبالأساس؛ فلم تكن لدى فريدريك رغبة في خوض حرب ضدَّ المُسلمين، وهُناك عدَّة أسباب لذلك، منها تأثُّر فريدريك بالثقافة الإسلاميَّة، التي كانت تنتشر في صقلية؛ حيثُ تربَّى[4]، يقول ابن واصل: كان الإمبراطُور "مائلاً إلى المُسلمين لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية، وأهل تلك الجزيرة غالبهم مُسلمون"[5]، ومنها صداقته مع السُّلطان الكامل، وتشابهه معه في كثير من الصفات[6]، حتَّى قيل إنَّهما ـ معاً ـ كانا سابقَيْن لعصرهما في كثير من أخلاقهما[7]، ولكن الكامل فضَّل أن يمضي اتِّفاقه السَّابق مع فريدريك، لأنَّه ـ على ما يبدو، بعد طُول التفكير ـ وجد أن التّصدِّي لفريدريك "يُؤدِّي إلى فوات أغراضه، التي كان في ذلك الوقت بصددها"[8]، وأغراض السُّلطان الكامل كانت في تحقيق مشروعه الذي بدأ فيه، وهُو ضمّ الشَّام إلى مصر، وإعادة بناء الدولة الأيُوبيَّة الكُبْرَى وجعلها بحُكْم سلطنته المُباشرة، ومنها رغبته بالمُحافظة على كلمة أعطاها للإمبراطُور ليُحافظ على صداقته، والتحالف معه، فقد "تأكَّدت بينهم

---

1 - قام بالإغارة العزيز عُثمان صاحب بانياس، ومعه صارم الدِّين التبنيني. (المنصُوري، ابن نظيف، 156 وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 152).

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 478.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 150.

4 - Crusades commerce and culture, Atia, p 88

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 233.

6 - الإمبراطُور فريدريك وعلاقته بالشرق العَرَبي، د. حسن مبيّض، مُحاضرة في الجمعية التاريخية السُّوريَّة، 1998.

7 - The Crusades, Campel, p. 407 & The Latin Kingdom of Jerusalem, Conder, p 313

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 234.

صداقة"[1]. ومهما كانت مُبرِّرات السُّلطان الكامل، فقد أثبت فريدريك أنّه سياسي مُحنّك، ومُحاور جيِّد، ومُفاوض مُتفوِّق، وحصل على كُلِّ ما يُريد.

فبعد مُفاوضات مُطوَّلة "استقرَّت القاعدة على أن يُسلِّموا إليه البيت المُقدَّس، ومعه مواضع يُسيِّره من بلاده"[2]، وقد تولَّى مُفاوضات الصُّلح فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ، وقاضي العَسْكَر المصري شمس الدِّين الحُسَيْني[3]، والصلاح الإربلي[4]. ويبدو أن السُّلطان الكامل أراد أن يُشرك في المُفاوضات مندوبَيْن للمُلُوك الأيُّوبيَّة المُؤيِّدين له، ليُقحمهم في قضيَّة القُدْس، وليُخفِّف عن نفسه المسؤولية بتوزيعها على جماعة معه، فشارك مع رُسُل السُّلطان الكامل رسول الملك المُجاهد صاحب حمص، الأمير صفي الدِّين سودان بن إبراهيم بن سودان.

وفي عام 626 هـ 1229م، انتظم الصُّلح، وعُقِدت مُعاهدة، كان من شُرُوطها:

1 ـ يتسلَّم الإمبراطُورُ فريدريكُ مدينةَ القُدْس، وتبقى أسوارها مُهدَّمة، ولا يحقُّ له ترميمها.

2 ـ سائر قُرى القُدْس للمُسلمين، ولا حُكْم فيها للفرنج.

3 ـ يبقى الحرم القدسي ـ الجامع الأقصى ـ قبَّة الصخرة ـ بأيدي المُسلمين، ويدخله الفرنج للزيارة فقط، ويتولاه المُسلمون، ويُقيمُون فيه شعائر الإسلام من أذان وصلاة.

4 ـ تُسلَّم القُرى الواقعة على الطريق بين يافا والقُدْس للفرنج، دُون ما عداها[5].

5 ـ مُدَّة المُعاهدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً.

6 ـ بند مُلحق: طلب الإمبراطُور فريدريك من السُّلطان الكامل "تبنين وأعمالها، لأن صاحبتها بنت الهمفري دخلت عليه، وسألته فيها، فأنعم عليه بها، ودخلت في نُسخة المُهادنة"[6].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 176.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 483.
3 - شمس الدِّين الحُسَيْني الأرموي، تُوفِّي عام 650 هـ1253م.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 176، ـ الصلاح الإربلي، تُوفِّي عام 631 هـ1233م.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 353.
6 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 16.

7 ـ كما ضمن الإمبراطُورُ للسُّلطان بأنَّ القلاع الباقية بيد الفرنج مثل: قلعة الحصن، وصافيتا، وطرطوس، لن تلقى أيَّ مُساعدة من أيِّ مكان[1].

ويُقال إن المُعاهدة كانت تنصُّ على إقامة تحالف كامل بين الدولتَيْن، وأن فريدريك قد تعهَّد بعدم المُساهمة بأيِّ حملة صليبية على مصر[2].

وفي رسالة لاحقة للإمبراطُور فريدريك أرسلها إلى ملك إنكلترا يقول فيها: إن المُدُن التي استردَّها هي: "بيت لحم وما بينها وبين القُدْس، والنَّاصرة وما بينها وبين عكَّا، وصيدا وما حولها"، ولكنَّه يذكر شُرُوطاً مُعاكسة للشُّرُوط التي ذكرها المُؤرِّخون المُسلمون منها مثلاً: السماح بإعادة بناء القُدْس، وقلاع يافا وقيسارية وصيدا وقلعة مريم في جبال عكَّا، التي كانت تتبع لطائفة الفُرسان "التِّيُوتُون"، ويُضيف ما هُو مُستغرب أكثر، فيقول: لا يُسمح للسُّلطان بترميم أيِّ حصن من حُصُونه، كما أنَّه تعهَّد بإعادة جميع الأسرى، وإنَّهم ـ بالفعل ـ أطلقوا ودخلوا القُدْس، وبعد الفراغ من عباداتهم، عادوا إلى بُلدانهم[3].

فأيُّ الشُّرُوط هي الأصحُّ؟ ما ذكره المُؤرِّخون المُسلمون؟ أم ما ذكره فريدريك بنفسه؟ في الحقيقة؛ إن كُلَّ ما ذُكر عن المُعاهدة فيه مُغالطات كبيرة، ولا نستطيع أن نثقَ إلاَّ بالنتائج التي أعقبت المُعاهدة، فالمُؤرِّخون المُسلمون وهُم شبه ناطقون رسميون باسم السُّلطان، لأنَّهم كُتَّاب رسميون في دواوينه، أو دواوين خُلفائه من المُلُوك الأيُّوبيَّة، قد جمَّلوا الاتِّفاقية بما أمكن لهم من تبريرات، وقاموا بالتركيز على الشُّرُوط الإيجابية للمُسلمين، كذلك كان من المُتوقَّع لفريدريك أن يظهر الأمر لصالحه، وصالح قضيَّة الفرنجة بشكل عامٍّ، ليُبرِّر موقفه المُتدهور في أُورُبة، ولكن المُهمَّ في الأمر أن الاتِّفاق نصَّ ـ بما لا يقبل الشكَّ ـ على تسليم القُدْس، وعدد من القُرى حولها، وطريق يصلها بالبحر إلى الإمبراطُور فريدريك، فقد أخلى السُّلطان الكامل "البيت المُقدَّس من المُسلمين، وسلَّمه

---

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 303.
2 - The Crusades, Campell, p. 406 راجعْ نصّ مُعاهدة يافا بين السُّلطان الكامل والإمبراطُور فريدريك في: تاريخ الحَرْب، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 91 + 45.
3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 893.

للفرنج"[1]، ودخل الإمبراطُورُ القُدْسَ، وأقام فيها يُرافقه قاضي نابلس شمس الدِّين[2]، "فاستعظم المُسلمون ذلك، وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألُّم ما لا يُمكن وصفه"[3].

نتائج تسليم القُدْس في العالم الإسلامي:

اختلفت آراء المُسلمين، وتباينت حول ما قام به الكامل من تسليم القُدْس، وهُو غير مُضطرٍّ لذلك، فكان القسم الأكبر من العالم الإسلامي غير مُهتمٍّ بما حدث أصلاً، هذا إذا سمع بما حدث، فقد يكتفي بالاستنكار، مثلما فعل اليافعي، المُؤرِّخ اليمني، الذي قال: "أخذ الكامل بيت المَقْدس، وسلَّمه إلى ملك الفرنج، أعوذ بالله من سُخط الله، ومن انتهاك شعائر الله، ومُوالاة أعداء الله"[4].

وظهرت المواقف السِّياسيَّة واضحة في عبارات مُؤرِّخي الشَّام، الذين بمُعظمهم كتبوا بعد سُقُوط دمشق بيد السُّلطان الكامل يُدافعون عنه، ويُبرِّرون تسليمه للقُدْس، فالكامل وأخوه الملك الأشرف ومعهما الملك المُجاهد صاحب حمص وحليفهم صاحب حماة، كانوا يداً واحدة، وهُم أصحاب الشَّام، بعد طَرْد النَّاصر داود من دمشق. فالمُؤرِّخ ابن نظيف لم يُضمِّن عباراته التي دوَّن فيها خبر تسليم القُدْس أيَّ نقد للسُّلطان الكامل، فقد كان مُقيماً في بلاط الملك المُجاهد صاحب حمص حليف السُّلطان الكامل، ولكنَّه ـ للحقِّ ـ لم يُبرِّر، ولم يُدافع. أمَّا مُؤرِّخو دمشق وحماة؛ فقد أجهدوا فكرهم، وأعملوا أقلامهم للدفاع عن الكامل، واختلقوا له الأعذار والمُبرِّرات، وابتكروا تحليلات لتسويغ تسليمه القُدْس للفرنج[5]، وكان شيخهم قاضي حماة المُؤرِّخ ابن أبي الدّم، الذي نصَّب نفسه مُحامي دفاع عن ما فعله الكامل[6].

ولكن ردَّ فعل دمشق قبل أن يستولي عليها السُّلطان الكامل كان هُو الأعنف، رُبَّما لقُربها من مسرح الحدث، فالقُدْس جُزء من الشَّام، وهي أقدس مُقدَّساته، لذلك قامت دمشق تحمل لواء

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 299.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 244.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 483.
4 - مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 47.
5 - راجعْ ما كتبه ابن واصل: "بأنَّ الناس تستشنع ما فعل، مع أنَّه سلَّم الفرنج بلداً خرباً لا يُمكنهم الدفاع عنه، ومتى أراد الكامل يُخرجهم منه (مُفرِّج الكُرُوب، 4/ 443)، ويقول أيضاً: "إن الكامل بتسليمه القُدْس للفرنج لم يفتح باب مُحاربتهم" (مفرج 4/ 241)، ويُردِّد أحمد الحنبلي (شفاء القُلُوب، 311) ما قاله ابن واصل، وهذا عُذر أقبح من ذنب للكامل.
6 - راجعْ نصَّ ما أورده ابن أبي الدّم في تبرير فعلة الكامل في ملاحق هذا الكتاب.

المُعارضة ضدَّ الكامل، وباشر العُلماء فيها والفُقهاء بالتشنيع عليه، وبالتَّأكيد؛ كان ذلك بتشجيع صاحب دمشق الملك النَّاصر داود بن الملك المُعظَّم، الذي أدرك أن الاتِّفاق بكامله مُوجَّه ضدَّه، مثلما كان قد بدأ ضدَّ أبيه المُعظَّم، وخاصَّة أن طلائع جيش السُّلطان الكامل وحُلفاءه قد وصلت لحصار دمشق، ونزعها منه. عقد سبط ابن الجوزي في جامع دمشق مجلساً، فلم يتخلَّف عنه أحد من أهل دمشق[1]، وألقى فيه خطبة "ولم يُرَ في ذلك اليوم إلاَّ باك، أو باكية"[2]، وممَّا قاله ابن الجوزي: "يا خجلة مُلُوك المُسلمين لمثل هذه الحادثة"[3]. أمَّا في القُدْس، فقد آلم المُسلمين إخراجُهُم من ديارهم، "فاشتدَّ البُكاء، وعظم الصُّراخ"[4]، "وحضر المُؤذِّنون والأئمَّة الذين كانوا في الصخراء والمسجد الأقصى إلى باب دهليز الملك الكامل، فأذَّنوا على باب الدهليز في غير وقت الأذان، فعسر ذلك على الكامل"، وأمر أتباعه بأخذ ما معهم من أثاث المسجد، وطردهم[5]، وربَّما كان هذا الاعتراض المُباشر الوحيد الذي جُوبه به الكامل من قبَل مُؤذِّنين، لا حول لهم، ولا قُوَّة. وإذا كان الاستنكار الرَّسمي معدوماً، أو خجلاً، فقد كان الاستنكار الشَّعْبي قوياً جدَّاً، إلى درجة اضطرَّت الملك الكامل لتسيير رُسُله إلى البُلدان لتسكين الناس، وكذلك أرسل إلى الخليفة يُبرِّر له ما فعل[6].

وَقْعُ الاتِّفاقية في أُورُبا:

غادر فريدريكُ أرضَ فلسطين بسُرعة، بعد إبرامه الاتِّفاقية مع السُّلطان الكامل، فقد وصلته الأخبار أن جُنُود البابا قد هاجموا مُمتلكاته في جنوب إيطالية، وتمكَّن فريدريك بعد وُصُوله إيطالية من التَّصدِّي لقُوَّات البابا، وهزيمتها عام 627 هـ 1230م، وأجبر البابا على عقد مُعاهدة سان جرمانو؛ حيثُ ألغى حرمانه، وصادق البابا ـ في السنة التَّالية ـ على مُعاهدته مع السُّلطان الكامل، وأرسل البابا أوامره إلى طوائف الرُّهبان الفُرسان الدَّاويَة والاسبتاريَّة لمُراعاة نُصُوص اتِّفاقية فريدريك مع المُسلمين[7].

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 432.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.
3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 432.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 354.
5 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 16.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 179، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 232.
7 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابَاروف، ترجمة: إلياس شاهين، 303، والحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 113.

ولكن الهُدنة لم تمنع البابا من توجيه نقد كبير لاتّفاقية فريدريك مع المُسلمين، فاتَّهمه البابا غريغوري بأنَّه وحده يعرف شُرُوط المُعاهدة، "لأنَّها تتوافق مع شريعة المُسلمين أكثر من توافقها مع شريعة إيماننا، واتَّبع عاداتهم في عدَّة نقاط، منها: مُساعدة السُّلطان ضدَّ جميع الناس مُسلمين ومسيحيين"[1]، وتابع البابا قوله في رسالة إلى مندوبه بفرنسا: أن فريدريك ويُسمِّيه البابا: نائب مُحمَّد، أخذ بوسائل المُسلمين، وهاجم ميراث الكرسي الرسولي، وأبرم مُعاهدة مع السُّلطان، وأظهر اللُّطف نحو المُسلمين، وأبدى كراهية مكشوفة تجاه المسيحيين، "إلى حَدِّ العمل على محق طائفتيْ الاسبتاريَّة والدَّاويَة"[2]، وإن نائب الإمبراطُور ووزيره في فلسطين توماس كُونت أتري ينتزع الغنائم من الدَّاويَة والاسبتاريَّة، ويردّها للمُسلمين، "كما أنَّه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتاريَّة والدَّاويَة. وأعطاهم للمُسلمين"[3]. إن البابا لا يُريد القول بأنَّ فريدريك ونائبه يُطبّقان بُنُود الاتّفاقية، والتي يتَّضح أنَّه كان من بُنُودها ردّ كُلّ ما يسلبه الفرنجة من المُسلمين، وإطلاق أسرى المُسلمين في البلاد الواقعة تحت سيطرة الإمبراطُور، الذين يُسمّيهم البابا عبيد. ثُمَّ يُحدِّد البابا موقفَ الكَنيسَة ورجالها من حملة فريدريك بقوله: "بأنَّ فريدريك لم يقم بالحملة غَيْرَة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المَسيحيَّة، بل ليُتَوِّج نفسه، فقد سمح للمُسلمين بالبقاء في القُدْس"[4]، وهُنا؛ تظهر الجوانب الإيجابية في شخصية فريدريك مُقارنة مع رجل المَسيحيَّة الأوَّل في أُورُبا، الذي لا يُوافق على بقاء المُسلمين في القُدْس، حتَّى تحت السيطرة المَسيحيَّة. ويقول البابا إن كُلَّ القوى المَسيحيَّة في الأراضي المُقدَّسة لم تُوافق على مُعاهدة السلام مع المُسلمين التي عقدها فريدريك: الكاردينال نائب البابا، وبطريرك القُدْس، والدَّاويَة، والاسبتاريَّة، والبارونات، باستثناء الألمان، والصقليين[5].

وعندما عجز البابا عسكريّاً عن قَهْر فريدريك، لجأ إلى التآمر عليه، فاتَّفق مع ثلاثة من خواصّ الإمبراطُور عام **644** هـ **1247**م، على اغتياله، على أن يُوزِّع بلاده بينهم، لكنَّ الإمبراطُور

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 899.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 871.
3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 872.
4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1167.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1168.

كشف المُؤامرة، وذبحهم بيده، واشتعل القتال بين البابا والإمبراطُور مرَّة أُخرى[1]. وجاء الدليل على تعصُّب وتزمُّت البابا غريغوري التَّاسع وتجبُّره وظُلمه، الذي نال منه فريدريك قدراً كبيراً، فقد قام سُكَّان رُوما بثورة ضدَّ هذا البابا، وطردوه من بلدهم[2].

فلسطين بعد المُعاهدة:

لم يتعرَّض أحد من مُؤرِّخي الإسلام، المُعاصرين للمُعاهدة، لتطبيق الفرنج لبُنُودها التزاماً، أو مُخالفة، ورُبَّما كان ذلك تجنباً كُلِّيَّاً لذكْر المُعاهدة، لعدم إزعاج الكامل، أو أبنائه من بعده.

أمَّا مُؤرِّخو الفرنجة؛ فقد تضاربت أقوالهم، فقد روى بعضهم أن الفرنجة أعادوا بناء المدينة، وأحاطوا الأسوار بالخنادق، ورمَّموا شرافات الأبراج، وكذلك عمَّروا جميع المُدُن والقلاع[3]. وجاء في رواية أُخرى ما يُناقض ذلك تماماً، يقول متَّى باريس: "إن سُكَّان عكَّا خائفون تماماً، ومحصورون ضمن مدينتهم مع نقص المُؤن، لأن فريدريك أصبح مطرقة رُعب الكَنيسَة، ولم يعد يسمح بأيِّ مُؤن أو قُوَّات عسكريَّة أن تُنقل إلى عكَّا. . . عسقلان مُحاصرة، وبالكاد تُدافع عن نفسها، وأصبحت الحُصُون الصَّليبيَّة سُجُوناً لأهلها، وليست أماكن للحماية"[4].

وبغَضِّ النظر عن ما يكتبه مُؤيِّدو فريدريك، أو ما يكتبه مُعارضوه، فإنَّنا نستنتج أن وضع الفرنج في فلسطين أصبح أكثر سُوءاً بعد المُعاهدة، فانقسام الولاء بين البابا والإمبراطُور صاحب المملكة، ومنع الطوائف الدِّينيَّة من فرض هيمنتها، وتوقُّف الدعم البابوي، كُلُّ ذلك أدَّى ـ بلا شكٍّ ـ إلى زعزعة الوُجُود الفرنجي في فلسطين، الذي هُو ضعيف أصلاً مُنذُ معركة حطِّين. والذي منع اجتثاث هذا الوُجُود هُو ضعف السَّلطنة الأيُّوبيَّة، والتفات مُلُوك الأيُّوبيِّين إلى خلافاتهم، ويبدو أن السياسة الأيُّوبيَّة كانت ترى ترك الفرنج بحالهم ما أمكن، رُبَّما لاعتبارهم أصبحوا لا يُشكِّلون أيَّ خطر حقيقي على الأيُّوبيِّين.

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، 204، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 641 ـ 650، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 171، وتاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 257.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 872.

3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 898.

4 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 892.

نتائج الحملة:

تُعدُّ حملة فريدريك الحملة السادسة في الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق الإسلامي، من أغرب الحملات، وأكثرها إثارة للجدل في مجراها وفي نتائجها، فمن حيثُ الواقع كان قائد الحملة فريدريك في أسوأ وضع عرفه قائد يُقدم على معركة، فقد أبحر نحو الشَّرْق محروماً من الكَنيسَة، وما كاد يبتعد حتَّى هاجم جُنُود البابا مُمتلكاته الإيطالية، ولمَّا وصل فلسطين "وجد قدراً ضئيلاً من الطاعة، وقدراً كبير من الإهانة"[1]، وتعرَّض لتآمر فرنج سُورية عليه، فقد عرضوا على السُّلطان الكامل تسليمه إليه في المعركة. أمَّا لدى المُسلمين؛ فقد وجد أن السُّلطان الكامل الذي استدعاه، ووعده بالقُدْس، قد استغنى عنه، فالخطر قد زال عن مملكته بوفاة أخيه المُعظَّم، لذلك أصبح قُدُوم فريدريك عبئاً عليه، فحاول التملُّص من وعده.

لكنَّ فريدريك أثبت أنَّه سياسي مُحنَّك، ومُفاوض جيِّد، فقد حصل من الملك الكامل، مهما كانت الظُّرُوف أو الأسباب، على القُدْس، ووقَّع معه اتِّفاقية عام 626 هـ 1229م، وكان فيها ما هُو أهمّ للطرفَيْن من القُدْس، إنَّه سلام عشر سنين قادمة، يتفرَّغ فيها كُلٌّ منهما لمشاكله الخاصَّة. ونعود للقول إن أهمَّ أسباب نجاح فريدريك كانت تكمن في شخصيَّته الفريدة التي قرَّبته كثيراً إلى المُسلمين، الذين كانوا يُكنُّون له كُلَّ احترام، حتَّى إنَّهم اعتقدوا أنَّه أميل للإسلام[2]. لقد بهرت شخصية فريدريك المُسلمين وسُلطانهم الكامل، لأنَّهم وجدوا فيه العلم وسعة الأفق والتحرُّر من سيطرة الكَنيسَة[3]، كما اعتقدوا أنَّه تغلب عليه رُوح التسامح والاحترام تجاه كُلِّ الأديان، هذه الصفات التي تُعدُّ ـ الآن ـ جميلة، وتُميِّز أيَّ شخص مُعاصر، كانت فريدة في عصر يسوده التعصُّب الأعمى[4].

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 163.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 148.

3 - حول حياة فريدريك راجعْ كتاب:

Frederick the Second (1194 – 1250), Kantorowicz

4 - حول الاعتقاد الذي ساد بعدم تعصُّب فريدريك وتسامحه الدِّيني، راجعْ زيارة فريدريك للقُدْس، رواية ابن واصل عن شمس الدِّين قاضي نابلس، وكيف تصرَّف فريدريك مع قسِّيس مسيحي شاهده عند الصخرة، وطلبه سماع أذان المُؤذِّنين (مفرج 4/ 244 ـ 245)، علماً أن مُحاولة المُؤرِّخ ابن واصل المُبالغ فيها لتبرير تسليم الكامل للقُدْس، تجعلنا

العلاقات بين الإمبراطُوريَّة والسَّلطنة بعد المُعاهدة:

بعد رحيل فريدريك إلى بلاده، استمرَّت العلاقات بينه وبين السُّلطان الكامل، ويبدو أن الرسائل بينهما كانت لا تتوقَّف، فقد استمرَّ فريدريك "مصافياً للملك الكامل، مُوادَّاً له، والمُراسلة بينهما مُتَّصلة"[1]، بل حتَّى إن رسائل الإمبراطُور كانت مُستمرَّة إلى فخر الدِّين يُوسُف بن الشَّيخ وزير السُّلطان الكامل، الذي تحمل وزر المُفاوضات مع فريدريك[2]، وكُلُّها تدلُّ على حفظ فريدريك للجميل، ومُثابرته على علاقة الوُدِّ مع السُّلطان الكامل.

فريدريك الثَّاني وعلاقاته بالسَّلْطَنَة الأيُّوبيَّة بعد الكامل:

تُوفِّي السُّلطان الكامل عام 635 هـ 1238م، وخلفه في سلطنة مصر ابنه الملك العادل الثَّاني، واستمرَّ الإمبراطُور على وداده، "فصافى الملك العادل، ووادَّه، وراسله"[3]. وبعد الانقلاب على السُّلطان العادل الثَّاني، وتولِّي أخيه الصَّالح أيُّوب سلطنة مصر والشَّام، استمرَّت المُحالفة والتفاهم والاتِّفاق بين المملكتَيْن، فقد حافظ فريدريك على علاقاته نفسها بالسُّلطان الصَّالح أيُّوب، وكذلك استمرَّ أيُّوب بتقدير فريدريك، والحرص على أحسن العلاقات معه، حتَّى إن فريدريك كان يطلب العُلماء المُسلمين من مصر، فقد أرسل إليه السُّلطان أيُّوب في عام 626 هـ 1229م "الشَّيخ العلامة سراج الدِّين الأرموي، قاضي قونيه، فأقام عنده مُدَّة مُكرَّماً، وألَّف له كتاباً في المنطق، ثُمَّ عاد إلى الملك الصَّالح أيُّوب"[4]، ممَّا يدلُّ على أن العلاقات بين البلدَيْن قد تعدَّت حُدُود التحالف السِّياسي إلى حَدِّ التبادل الفكري والثقافي، والتمازج الحضاري، الذي كان أباطرة الدولة المُقدَّسة مُهيَّئين له بسبب تواجدهم في صقلية، التي كانت مرجل تفاعل بين حضارات المُتوسِّط.

نشكُّ بهاتَيْن القضيتَيْن، أو على الأقل، رُبَّما كان هُناك مُبالغة في نقلهما، مع أنهما لا تُستبعدان عن تفكير ولا سُلُوك الإمبراطُور فريدريك.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.

2 - راجعْ نُصُوص رسائل الإمبراطُور فريدريك إلى فخر الدِّين في : المنصُوري، ابن نظيف، 189 ـ 193؛ حيثُ يقول ابن نظيف إن سبب إثبات هذه الكُتُب في تاريخه هُو تحقيق ممالك الإمبراطُور وقُدرته.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.

وعندما أرسل فُرسان الدَّاويَة والاسبتاريَّة يسألون السُّلطان أيُّوب إطلاق أسراهم في معركة غزَّة مُقابل فدية، أرسل يقول لهم: "كَمْ هُم تُعساء هؤلاء الدَّاويَة والاسبتاريَّة الخارقين لنظامهم، قبل سنوات قاموا بخيانة إمبراطُورهم فريدريك عندما كان في حجِّه، فقُمنا بحمايته"، ورفض أيُّوب فداءَ الأسرى. ولمَّا سأل رُسُلُهُم الحاشيةَ ماذا نفعل؟ نصحوهم قائلين: "أقنعوا الإمبراطُور فريدريك، الذي يُحبُّه مولانا، ويحترمه فوق جميع الناس، فرفضوا"[1]، إنَّه دليل على صداقة وتحالف ومحبَّة حقيقيَّة يُكنُّها الصَّالح أيُّوب للإمبراطُور. وتتأكَّد هذه العلاقة الخاصَّة من رسالة أرسلها السُّلطان أيُّوب إلى البابا ردَّاً على رسالته، التي يطلب فيها هُدنة مع المُسلمين، يقول السُّلطان أيُّوب في ردِّهِ: "بعد التوقير والاحترام . . من الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب . . سمعنا ما قاله رسولكَ، وإنكَ تُريد السلام، ونحنُ كذلك نرغب به، وليعلم البابا أن صداقة وتقديراً مُتبادلاً فيما بيننا وبين الإمبراطُور مُنْذُ أيَّام أبينا السُّلطان، وبينكَ وبين الإمبراطُور أنت تعلم كيف هي الأحوال، ولذلك ليس لنا حُرِّيَّة عمل اتِّفاق مع الصليبيين دُون معرفة رأيه، وقد كتبنا إلى مبعوثنا الموجُود الآن في بلاد الإمبراطُور من أجل ما ذكرتَ، ومبعوثنا سوف يأتي إليكم"[2]، تُوضح لنا هذه الرسالةُ عُمقَ الصلة بين المملكتَين، وتُبيِّن أن هُناك تحالفاً يقضي بعدم عقد اتِّفاقات خارجية إلاَّ بعد التشاور، كما تُبيِّن وُجُود سفير دائم لمصر في بلاط الإمبراطُور، ورُبَّما كان هُناك مثله في بلاط السُّلطان.

فريدريك وحملة لويس على مصر:

تتحدَّث عدَّة مصادر عن خبر مُسبق أرسله الإمبراطُور فريدريك إلى السُّلطان الصَّالح أيُّوب، يُحذِّره فيه من قيام الملك لويس التَّاسع ملك فرنسا بحملته المُتوجِّهة إلى مصر عام **647** هـ **1249**م. وقد وصل الخبر إلى السُّلطان عندما كان لويس يُمضي أوقاتاً عصيبة في قبرص، والسُّلطان أيُّوب يُحاصر حمص لاستردادها من الحلبيين. إن مُعظم المصادر التي تحدَّثت عن إنذار فريدريك للسُّلطان أيُّوب هي مصادر إسلامية، وقد يكون هذا طبيعيَّاً، فالمُسلمون هُم مَنْ عرف الخبر، وإليهم وصل التحذير، فقد ذكر الروايةَ ابنُ واصل على لسان رسول فريدريك، قال: "حكى لي

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 858.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 899.

سرندر[1]،وهُو مهمندار[2] مُنفرد ابن الإمبراطُور: أرسلني الإمبراطُور في السِّرِّ إلى الملك الصَّالح نجم الدِّين، عزم قصد ريد فرانس على مصر، وأُحذِّره منه، وأُشير عليه بالاستعداد له، فاستعدَّ له الملك الصَّالح، ورجعتُ إلى الإمبراطُور، وكان ذهابي إلى مصر ورُجُوعي في زيٍّ تاجر[3]، ولم يشعر أحد باجتماعي بالملك الصَّالح، خوفاً من الفرنج أن يعلموا مُمالأة الإمبراطُور للمُسلمين عليهم"[4].

وقد أُعطي هذا الإنذار المُبكِّر الذي قام به عاهل مسيحي ضدَّ عاهل مسيحي آخر أهمِّيَّة كُبْرَى، علماً أنَّه في حال كونه حقيقة، فهُو لا قيمة عسكريَّة له البتَّة، فمن المُستبعد أن لا تكون أنباء حملة لويس قد وصلت إلى الصَّالح أيُّوب مع التُّجَّار، إنْ لم نقلْ من عُيُونه في قبرص، فقد أمضى لويس ثمانية أشهر كاملة هُناك، تعرّض خلالها لمجاعة كادت تقضي على حملته برُمَّتها[5]. وإذا كان خبر وُجُود الملك لويس في قبرص قد وصل إلى التَّتار في أقاصي آسيا، وقام الخاقان جغطاي بإرسال سفارة وصلت إلى لويس في قبرص[6]، فمن الأَولى أن يكون خبر الحملة قد وصل ـ بشكل أبكر ـ إلى الصَّالح أيُّوب. ولكنَّنا لا نستطيع نَفْيَ أن يكون فريدريك قد نبَّه ـ فعلاً ـ الصَّالح أيُّوب، لكنْ؛ لابُدَّ أنَّه ـ في قرارة نفسه ـ كان يعرف أن تنبيهه لا يعني الشيء الكثير، إلاَّ إذا كان يقصد تبرير موقفه أمام سُلطان مصر، عندها؛ يكون الشّقُّ الثَّاني من رسالة فريدريك هُو المقصود، وهُو المُهمُّ؛ حيثُ أراد فريدريك أنْ يُعلم أيُّوب أنَّه بذل جهداً كبيراً لإقناع لويس بالعُدُول عن الحملة، لكنَّه أصرَّ على القيام بها.

يقول فريدريك في رسالته إلى أيُّوب: "وقد اجتهدتُ غاية الاجتهاد على ردِّه عن مقصده، وخوَّفتُهُ، فلم يرجع لقولي"[7]، وممَّا يجعلنا نشكُّ أكثر بتحذير فريدريك علاقته الجيِّدة جدَّاً بالملك لويس التَّاسع، والدليل عليها إمداد فريدريك لحملة لويس في قبرص بالمُؤن اللازمة، التي أنقذته، وأنقذت الحملة من خطر الموت بالمجاعة[8]. وقد انقسم مُؤرِّخو الفرنجة حول عملية الإمداد هذه،

---

1 - سرندر: رُبَّما كان اسمه: سير برنار.

2 - راجعْ مبحث العلاقات مع القبائل البدويَّة في هذا الكتاب.

3 - إن تزيِّي السفير بزي التُّجَّار يُذكِّرنا بسفير جنوة التاجر كليام، راجعْ: مبحث المُدُن الإيطالية ـ جنوة، في هذا الكتاب.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 247، وراجعْ: الخُطط والآثار، المقريزي، 1/ 409.

5 - راجعْ مبحث: حملة لويس التَّاسع في هذا الكتاب.

6 - راجعْ: مبحث: العلاقات بين التّتار والفرنج في هذا الكتاب.

7 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7 / 366.

8 - راجعْ مبحث: حملة لويس في هذا الكتاب.

فمنهم مَن اتَّبع جوانفيل مُؤرِّخ حملة لويس ومُرافقه الذي شكَّك بنوايا فريدريك على مُساعدة الملك لويس[1]، ومنهم مَن انساق مع المُؤرِّخ الإنكليزي متَّى باريس، الذي أكَّد أهمِّيَّة مُساعدات فريدريك لحملة لويس في قبرص[2].

ولتفسير هذه المواقف المُتناقضة لفريدريك فيُمكن أن يُقال إنَّه اتبع سياسة مُزدوجة حيال لويس، فكون فريدريك إمبراطُوراً للدولة الرُّومانيَّة المُقدَّسة، وملكاً لمملكة بيت المَقْدس فقد ساعد لويس، فهُو معه كملك لفرنسا، كما أنَّه يُريد المُحافظة على علاقته المُتميِّزة به ضمن مُجمل علاقات سيِّئة له في أُورُبا. وبالمُقابل؛ فكون فريدريك صديقاً لسلاطين مصر، ومصالحه مُؤمَّنة في بلادهم بشكل جيِّد، فقد أراد أن يكسب ثقة السُّلطان، ويُبرهن له على مودَّته بما لا يضرُّ القضية الصَّليبيَّة مُطلقاً، ففريدريك أكثر الناس معرفة بأنَّ خبر الحملة بعد إقامتها في قبرص لابُدَّ وأن يتسرَّب إلى مصر.

ويبدو أن تحقيق المصالح المُشتركة للإمبراطُورية وللسلطنة في اتِّفاقهما وتحالفهما دفع الحُكَّام المتعاقبين على حُكْم مصر للالتزام بحُسن العلاقة، وتعدَّى الأُسرة الأيُّوبيَّة ليُتابع سلاطين المماليك نهج مَنْ سبقهم من سلاطين الأيُّوبيَّة في التحالف مع الإمبراطُوريَّة، ولكنْ؛ بالنِّسبَة للإمبراطُورية فقد استمرَّ ذلك التحالف ما استمرَّت أُسرة فريدريك في الحُكْم، ففي عام **659 هـ 1261**م، وجَّه السُّلطان الظَّاهر بيبرس سفارة إلى الإمبراطُور مانفريد بن فريدريك الثَّاني تحمل هدايا ومعها "جماعة من التَّتار الأسرى في نوبة عَيْن جالُوت بخُيُولهم التَّترية، وعدَّتهم"[3].

سياسة فريدريك تجاه مُسلمي صقلية:

رُبَّما كان التناقض هُو السمة الأوضح في شخصية هذا الإمبراطُور الأُعجُوبة، فالإمبراطُور الذي أقام أوثق العلاقات مع المُسلمين في الشَّرق، وحالفهم، وحالفوه، كان له تصرف آخر مع مُسلمي صقلية، أيضاً؛ فيه من التناقض الشيء الكثير، فهُو الذي وُصف بالتسامح الدِّيني في الشَّرق[4]، وعُدَّ أميل للإسلام، ويُؤثر القُرآن على الإنجيل[1]، ويستقدم عُلماء المُسلمين، ويستفيد من

---

1 - Latin kingdom, Conder, 358

2 - راجعْ: Bray, p. 263

3 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 290.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 118.

علمهم[2]، ولكنْ؛ ما وجه الحقيقة في كُلِّ ذلك؟ غالباً كانت هذه النظرة إلى فريدريك من قبَل مُؤرِّخي المُسلمين لخلافه مع البابا[3]، دُون أن يعرفوا حقيقة مُعتقده. ومع أن فريدريك كان يعتمد في قصره على حاشية من المُسلمين، لكنَّهم كانوا للخدمات فقط، وهي عادة جرى عليها مُلُوك صقلية مُنْذُ عهد مُلُوك النورمان، وفريدريك مُتَّبِع لهم في صقلية لم يأت بجديد، يقول ابن جُبَيْر في وصفه لملك صقلية النورماندي كليام ـ أو وليم، وهُو وصف شاهد عيان، يقول: "وشأن ملكهم عجيب في حُسن السيرة، واستعمال المُسلمين . . كثير الثقة بالمُسلمين، وساكن إليهم في أحواله، والمُهمّ من أشغاله؛ ناظر مطبخه مُسلم، وجُملة من العبيد السُّود مُسلمون، ووُزراؤه وحُجَّابه الفتيان هُم أهل دولته، والمُرتسمون بخاصَّته، يتشبَّه بالنعيم والتفخيم بمُلُوك المُسلمين . . يقرأ ويكتب بالعَرَبيَّة، وجواريه وحظاياه كُلُّهنَّ مُسلمات، أمّا فتيانه وهُم يُجيون دولته وأهل عمالته؛ فهم مُسلمون"[4].

وملك صقلية وليم النورماندي هُو الذي قام بحملة بَحْرِيَّة كُبْرَى على مصر، زمن السُّلطان صلاح الدِّين، ومع أنَّه هُزم أمام الإسكندرية، وعاد إلى بلاده، فلم يُغيِّر من مُعاملته لمُسلمي صقلية، فعندما ارتطم المركب الذي يستقلُّه الرَّحَّالة ابن جُبَيْر في برِّ صقلية، خرج وليم "بنفسه في جُملة من رجاله، وأبصر فُقراء من المُسلمين، فأنزلهم عنده . . وخلَّص جميع المُسلمين"[5]. وعندما يصف ابن جُبَيْر حال مُسلمي صقلية يتعجَّب من حُسن مُعاملتهم، ومن تسامح النصارى معهم[6]. فماذا فعل الإمبراطُور الألماني فريدريك عندما تولَّى عرش صقلية بالمُسلمين فيها؟ لقد فعل ما لا يفعله إلاَّ كُلُّ مُتعصِّب أعمى، بعيد عن أيِّ نوع من التسامح، ففي عام 627 هـ 1230م، كانت قد اشتُهرت علاقة الملك الكامل بفريدريك بعد تسليم القُدْس، وكان الملك الكامل في حَرَّان، فوصل إليه فيها "شخص يُقال له أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرّمان من جزيرة صقلية، من أهل مشائخ غلو من

1 - المُختصر، أبو الفداء، 2/ 148، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 290.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 194.
4 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 295 ـ 299.
5 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 295.
6 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 305 ـ 310.

جبال صقلية، والجزيرة كُلُّها بيد الإمبراطُور إلاَّ هذه الجبال[1]، . . . وسبب وُصُوله أن الإمبراطُور غدر بأهل الجبال هُناك، . . وذكر الحاجُّ أنَّه أخذ إلى البرِّ الكبير؛ أيْ بلاد إيطالية، مائة ألف، وسبعون ألفاً أخرجهم من أوطانهم، وأخذ أموالهم، وقتل من الشُّطَّار مثلهم، وخلت هذه الجبال" ،وطلب المُسلم الصقلي من الكامل التوسُّط لدى الإمبراطُور ليردَّهم إلى أوطانهم، أو يُمكنهم من الخُرُوج إلى مصر، فكتب له الكامل كتاباً إلى الإمبراطُور[2]، ولا ندري هل تمكَّن هذا الرجل من الوُصُول إلى الإمبراطُور؟ وتسليمه الرسالة؟ وغالباً قد فعل، فرسالة من السُّلطان الكامل تجد طريقها بسُهُولة إلى بلاط الإمبراطُور، لكنَّ المُهمَّ ماذا كانت نتيجتها على مُسلمي صقلية ؟ لا شيء أبداً.

فقد أنهى فريدريكُ قضيَّة المُسلمين في صقلية إلى الأبد؛ إذْ نفاهم "إلى منطقة لُوسيرا في ايطالية الجنوبية، حيثُ حوصروا من قبل المسيحيين من كل الجهات وكان مصيرهم الهلاك"[3]، لكنْ؛ بعد طرد المُسلمين من صقلية أصبحت الجزيرة لُقمة سائغة أمام البابا أُورُبان الرَّابع، الذي تمكَّن من احتلالها عام 1268م، وذبح ملكها مانفريد ابن فريدريك، وأنهى حُكْم أُسرة الهوهنشتاوفن إلى الأبد في صقلية، ورُبَّما لو اعتمد فريدريك أكثر على مُسلمي صقلية، ولم يطردهم، لاختلف مصير أُسرته هُناك، وقام البابا أُورُبان الرَّابع، وهُو أوَّل بابا فرنسي، بتسليم عرش صقلية إلى شارل أنجو أخي ملك فرنسا لويس التَّاسع[4].

وفي النِّهاية؛ نجد أن علاقات ألمانيا بالدولة الأيُّوبيَّة كانت مُهمَّة ومُبكِّرة، وقد ابتدأت عدائية من خلال مُشاركة الأباطرة الألمان في الحملات الفرنجيَّة المُتكرِّرة، مع أنَّها جميعاً كانت غير مُجدية. لكنَّ العلاقات بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والإمبراطُورية الجرمانية قد تسارعت، وتوطَّدت، بشكل غير مألوف، وغير مُتوقَّع؛ بحيثُ وصلت إلى ما يُشبه تحالف استراتيجي، وذلك عندما عقد الإمبراطُور فريدريك اتِّفاقيَّته المشهورة مع الملك الكامل، وتسلَّم القُدْس، لكنَّ هذا المكسب الكبير الذي حقَّقه

1 - عندما احتلَّ النورمان صقلية اعتصم أهلها المُسلمون بالجبال، وفي أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين كانت تصل أخبار صراعهم مع الفرنج إلى مصر والشَّام. (الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 307.)
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 194 ـ 195.
3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 236.
4 - تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 260.

فريدريك للقضية المَسيحيَّة، والذي عجزت أُورُوبا بعد زجّ كُلّ قواها العسكريَّة عن تحقيقه، لم يُجنِّب فريدريك عداءَ البابا، الذي حرمه كَنَسياً، ولعنه، وأسماه خادم مُحمَّد، وعدوَّ الكَنيسَة.

وقد أعقب هذا الاتِّفاق علاقاتٌ سياسيَّة وُدِّيَّةٌ مُتميِّزة بين الإمبراطُوريَّة والسَّلطنة، استمرَّت طيلة عهد الكامل وابنه أيُّوب. لكنَّ تحالف فريدريك مع الأيُّوبيَّة وكُلّ ما أُذيع عن تسامحه لم يمنعاه عن القيام بأبشع أعمال التصفية العُنصُرية ضدَّ العَرَب والمُسلمين المُقيمين في صقلية.

وباختصار؛ فالعسكريَّة الألمانية لم تكن مُوفَّقة أبداً في الشَّرق؛ إذْ إن حملاتها كانت على الدوام تنتهي بانتكاسات كبيرة، بالرّغم من الحماسة الألمانية المشهورة، والمُشاركات المُتكرِّرة في الحملات الفرنجيَّة. كذلك لم يكن لطائفة الفُرسان الرُّهبان "التيُّوتُون" الشُّهرة نفسها التي تمتَّعت بها طوائف الدَّاويَة والاسبتاريَّة، لأنَّه لم يكن لها فعَّالية مُهمَّة في الحملات والحُرُوب التي خاضها الفرنجة ضدَّ المُسلمين. وربَّما كان الإمبراطُور فريدريك الثَّاني أوَّل مَنْ أدرك ذلك الواقع، وتصرَّف على أساسه، عندما حضر بحملته الشهيرة إلى الأراضي المُقدَّسة بعدد رمزي من الفُرسان، وتمكَّن ـ بالديبلوماسية والمُفاوضات ـ من تحقيق ما عجزت أكبر الحملات العسكريَّة عن تحقيقه، وحصل على مدينة القُدْس، وانتهج ـ لأول مرَّة في تاريخ العلاقات بين الشَّرق والغَرْب في العُصُور الوُسْطَى ـ سياسة استراتيجية أساسها العلاقات الوُدِّيَّة مع المُسلمين، وارتبط مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة بما يُمكن أن نُسمِّيه اليوم: مُعاهدة سياسيَّة.

أُسرة هوهنشتاوفن، Hohenstaufen

كُونراد الثَّالث

ت: 547 هـ 1152م

فريدريك الأوَّل بربروسا

516 ـ 586 هـ 1122 ـ 1190م

هنري السَّادس (تزوَّج كُونستانس ملكة صقلية)

586 ـ 593 هـ 1190 ـ 1197م

فريدريك الثَّاني

960 ـ 648 هـ 1212 ـ 1250م

كُونراد الرَّابع

648 ـ 652 هـ 1250 ـ 1254م

مانفريد كُونرادين

ت: 667 هـ 1268م

المبحث الخامس:

علاقات مملكة فرنسا بالشرق الإسلامي

الفرنسيون في الشَّرْق:

عندما وصلت جحافل الحملة الفرنجيَّة الأُولى إلى سُورية اعتقد النـاس أنَّهـم الـرُّوم، ومـضى وقت ليس بالقصير قبل أن يُدرك المُسلمون أن المُهاجين ليـسوا مـن الـرُّوم، بـل مـن سُكَّان أُورُوبـا الغَرْبيَّة، فصحَّحوا تسميتهم إلى الفرنجة. كانت تسمية الفرنجة معروفة لدى مُسلمي المغرب العَرَبي، وخُصُوصاً مُسلمي الأندلس، فهي تُطلَق على شعب الفرانك، أو سُكَّان فرنسا، وهـذا الـشعب كـان قليل الاحتكاك مع العَرَب المُسلمين في الشَّرْق، لكنْ؛ بعد الـصدام المُبـاشر بالحملـة الفرنجيَّـة الأُولى تعرَّف المُسلمون إليهم، وبما أن الفرنـسيين، أو الفرنـك، كـانوا يُـشكِّلون الـسواد الأعظـم للحملـة، فأعطوهم الاسم الصحيح، وهُو الفرنج، وقد عُمِّمَتْ هذه التسمية على كُلِّ الأُورُبيين.

وحافظ الفرنسيون على التفوُّق العددي؛ إنْ كان في الحملات التَّالية، أو في عداد المُستوطنين في المُدُن المُستولى عليها، وذلك لأن جنوب فرنسا كـان أرض التبـشير وأرض الـدعوة للحمـلات عـلى الشَّرْق، ففيها كان مقرُّ البابا بعد طَرْده من الفاتيكان؛ إذْ إنَّه في عام **468** هـ **1076**م، قام الإمبراطُـور الجرماني هنري الرَّابع بطَرْد البابا غريغوري من رُوما، وعَزَلَهُ من منصبه بالقُوَّة، وعيَّن بديلاً له. ولكن عدداً كبيراً من الكرادلة اجتمعوا في جنـوب شرق فرنـسا، وانتخبـوا بابـا جديـداً، وغـدت البابويَّـة الشرعية ـ حسب اعتقادهم ـ للبابا المُنتخَب في مدينة ليون الفرنسيَّة، ولذلك أصبحت مناطق جنـوب وجنوب شرق فرنسا هي مهد الحملات الفرنجيَّة نحو الشَّرْق، ووقودهـا الـدائم بتـأثير وُجُـود مقـرِّ البابا فيها، والذي كان هُو رأس الدعوة الصَّليبيَّة، وبالتَّالي؛ كان مُعظم النُّبلاء والأُمـراء الفرنجـة في الشَّرْق، وحتَّى مُلُوك القُدْس، من الفرنسيين. كذلك كـان مُعظـم فُرسـان الاسـبتاريَّة والدَّاويَـة مـن الفرنسيين، يدلُّ على ذلك أسماء مُقـدَّميهم، ورُؤسـاء طـوائفهم. وقـد تـصدَّر مُلُـوك فرنـسا قائمـة المُشاركة في الحملات الفرنجيَّة إلى الشَّرْق، فلا تكاد تخلو حملة من واحد منهم، وكأنَّ قَدَرَ فرنسا كـان يرتبط بهذه الحملات مُنذُ بدء الدعوة إليها، وحتَّى نهايتها المُفجعة.

لويس السَّابع في الحملة الثَّانية، وحصار دمشق:

بعد سُقُوط إمارة الرُّهَا الفرنجيَّة عام 538 هـ 1144م، بيد عماد الدِّين زنكي، أصابت أُورُوبا صدمة كبيرة غير مُتوقَّعة، نتج عنها موجة عاتية من الحماس الدِّيني، أدَّت إلى تجمُّع حملة صليبية جديدة عُرِفَتْ بالحملة الثَّانية، كان من أهمِّ قادتها لويس السَّابع ملك فرنسا، وكان من أكبر مُلُوك أُورُبا في ذلك الوقت. اتَّبعت الحملة الطريق البرِّيَّ المُحاذي للبحر، ومع أن لويس تعرَّض لهزيمة مُرَّة أمام عساكر السلاجقة، لكنْ؛ في النِّهاية، تمكَّن من الوُصُول مع حملته إلى فلسطين؛ حيثُ التقى بالحملة الألمانية، وانضمَّ إليهم بلدوين الثَّاني ملك القُدْس، وقادهم إلى حصار دمشق، ثُمَّ رفع بلدوين الحصارَ لاتِّفاقه مع أمير دمشق[1]، ممَّا أحنق كونراد ولويس، فاتَّهماه بالخيانة، وعادا أدراجهما بدُون تحقيق أدنى فائدة[2].

فيليب الثَّاني في الحملة الثَّالثة:

كان فيليب الثَّاني ملك فرنسا يمرُّ بمرحلة من مراحل الخلاف المُستحكم مع الملك الإنكليزي هنري الثَّاني عندما وصل رئيس أساقفة صُور ينقل إلى أُورُوبا أخبار فاجعة حطِّين، ويُحرِّض الناس لاسترداد مملكة القُدْس، فجعل همَّه الإصلاحَ بين الملكَيْن، فقد خشي كُلٌّ منهما المُشاركة في الحملة حتَّى لا يُهاجمه الآخر، لذلك اتَّفقا على الخُرُوج في يوم واحد، فأبحر الملك الفرنسي فيليب نحو الشَّرْق عام 586 هـ 1190م، مُتزامناً مع إبحار ريتشارد الملك الإنكليزي الجديد، الذي تُوِّج بعد موت والده، وقرَّرا قضاء فصل الشتاء في صقلية[3].

بدأ الخلاف بين الملكَيْن مُبكِّراً، فعندما هاجم ريتشاردُ مدينةَ مسينا الصقلية، ونهبها، وسبى نساءها، طالب فيليبُ بحصَّته من الغنائم، كما طالب بإنزال الأعلام الإنكليزية عن أبراج المدينة، ورفع الأعلام الفرنسيَّة، لأنَّه يعدُّ ريتشارد واحداً من أتباعه؛ بسبب أملاكه التابعة للتاج الفرنسي،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 130 ـ 132.

2 - تاريخ أُورُبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 184 ـ 186.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 289، والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 23، حملة الملك ريتشارد، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31/ 32.

فرفض الملك ريتشارد كُلَّ تلك المطالب، فما كان من فيليب إلاَّ أن تحالف مع تنكريد ملك صقلية ضدَّ ريتشارد[1].

وبعد تأخير عام كامل في صقلية بسبب الخلافات وصلت الحملة إلى فلسطين، وكان الملك الفرنسي فيليب الثَّاني يُحاول العمل مُنفرداً ما أمكنه لتحقيق انتصار على أسوار عكَّا؛ ليُزعزع شُهرة ريتشارد العسكريَّة، فجهد في اختراع وصُنع آلات قتال كالمنجنيقات والأبراج، وقام مع جُنده الفرنسيين بعدَّة هجمات، لكنَّها كُلّها كانت جُهُوداً ضائعة. وبعد استسلام عكَّا؛ استشرى الخلاف بين فيليب وريتشارد، فقد كان لكُلٍّ منهما مُرشَّحه لتولِّي مملكة القُدْس؛ إذْ دعم فيليبُ ترشيحَ المركيز مُونت فرات، بينما أيَّد ريتشارد إعادةَ المملكة إلى صاحبها السَّابق الملك غي. ولمَّا بدأت المُفاوضات بين ريتشارد والمُسلمين شكَّ فيليب أن يكون الاتِّفاق على حسابه، أو على الأقلِّ، أن يكون خارجه، فادَّعى المرض، وغادر فلسطين إلى فرنسا[2].

حملة لويس التَّاسع في دمياط وفلسطين:

وبعد أن هدأت المعارك بين الفرنج والمُسلمين، والتفت الطرفان لمصالحهما السِّياسيَّة والاقتصاديَّة، وبدا للجميع أن صفحة جديدة من تاريخ العلاقات بينهما قد فتحتها مُعاهدة الإمبراطُور فريدريك مع السُّلطان الكامل، جاءت معركة غزَّة التي دمَّرت الجيش الفرنجي، وأتاحت فُرصة نادرة للمُسلمين للقضاء على البقية الباقية من قُوَّات الفرنج، وفتح حُصُونهم، واسترداد المُدُن التي احتلُّوها، ضمن ظُرُوف دولية مُناسبة تماماً للمُسلمين، وبالغة القسوة على الفرنج؛ حيثُ انشغلت عنهم ممالك أُورُوبا بمُشكلاتها الدّاخليَّة، وتركهم البابا، الأب الرُّوحي للأراضي المُقدَّسة، ليُوجِّه حملاته الصَّليبيَّة ضدَّ خُصُومه في الإمبراطُوريَّة الجرمانية، فلم يلتفت أحد لصُراخ واستغاثات فرنجة الشَّرق. لكنَّ أحداً من المُسلمين لم يستغلَّ هذه الظُّرُوف، فالسُّلطان أيُّوب كان مُنشغلاً عن الفرنج بصراعاته الدّاخليَّة، ويهمُّه احتلال دمشق أكثر من عكَّا، وحمص أكثر من

1 - حملة الملك ريتشارد، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 31/ 40 ـ 42.
2 - حملة الملك ريتشارد، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 31 / 75 ـ 91.

طرابلس، ثُمَّ انشغل السُّلطان أيُّوب كُلِّيَّة بانقلاب حُلفائه الخَوَارزميَّة عليه، ممَّا أبعد الخطر عن الفرنجة، وأطال أمد وُجُودهم في الشَّرق.

وللتأكيد بأنَّ فرنسا قد ارتبطت بالمشروع الفرنجي في الشَّرق، وتورَّطت فيه أكثر من كُلِّ الدُّول الأُورُوبيَّة، نجد أنَّه في هذه الظُّرُوف الحرجة بالنِّسبَة للمُسلمين وفرنج الشَّام على السواء، جاءت حملة الملك الفرنسي لويس التَّاسع، التي كانت آخر سهم فعَّال ترميه أُورُوبا من جُعبتها تجاه الشَّرق الإسلامي في ذلك العصر، لكنَّ هذه الحملة بدت وكأنَّها مُغالطة تاريخية، فهي في غير مكانها، وفي غير زمانها، فالملك لويس يعيش حالة خاصَّة لم تعد مقبولة عند مُعظم الأُورُبيين، فدوافعه نحو الشَّرق نبعت من تعصُّب ديني وورع صُوفي تُسيطر عليه رُوح تبشيرية لا تنتمي إلى زمانها[1]، ولا تُشبه إلاَّ رُوح الفرنجة الأوائل، الذين اندفعوا في الحملات الأُولى[2]. "كان لويس ـ دائماً ـ يقول: إنَّه عمل شرِّيرٌ أنْ تأخذ أملاك الغير"[3]، وبالتَّأكيد؛ كان يعتبر أنَّه فوق هذه القاعدة الأخلاقية، وإلاَّ كيف فكَّر بالقيام بحملة لأَخْذ مصر، وغيرها، وهي أملاك للغير، لكنَّ التعصُّب الذي سيطر على الملك لويس هُو الذي أشعل فيه رُوح العُدوانية، وقاده نحو الشَّرق[4]، وما كان لقب القدِّيس الذي أُطلق على الملك لويس إلاَّ صدى لتعصُّبه الدِّيني، وقد سيطر هذا التعصُّب عليه إلى درجة جعلته يعتقد بأنَّه يُنفِّذ مشيئة الرَّبِّ، الذي شفاه من مرض فتَّاك كاد أن يُودي به، ولذلك قام بحملته لاسترداد الأراضي المُقدَّسة، واصطحب معه أُخوته الثلاثة: رُوبيرت كُونت دي أرتُو، وألفُونسُو كُونت بواتييه، وشارل كُونت أنجُو[5]. وقد عرف المُؤرِّخون المُسلمون الملك لويس بأسماء عدَّة منها الفرنسيس[6]، ورُبَّما كانت هذه التسمية نسبة إلى كونه من فرنسا، وعُرف ـ أيضاً ـ باسم آخر هُو

---

1 - تتَّضح هذه الرُّوح لدى الملك لويس من خلال ما ذكره مُرافقه ومُستشاره في الحملة جين جوانفيل؛ حيثُ يقول: عندما جنحت سفينة الملك على سواحل قبرص، تفقَّده الراهب ريموند، "فوجده مُتمدِّداً فوق السطح، وقد مدَّ ذراعيْه على شكل صليب، وكان عاري القدمَيْن، وشعره مشعث". (حياة القدِّيس لويس، جان جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 223 ـ 224).

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 238.

3 - حياة القدِّيس لويس، جان جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 21.

4 - The good Saint Louis, Bray , P. 82

5 - حياة القدِّيس لويس، جان جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 21.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 184، وفوات الوفيات، الكُتُبي، 1/ 83، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 562.

الأكثر انتشاراً، والأقرب إلى حقيقة اسمه، فكان يُطلَق عليه اسم ريد فرانس[1]، وهي من الفرنسيَّة: Roi de France ـ ملك فرنسا.

أعلن لويس عن نيَّته بالتوجُّه إلى الشَّرْق في حملة صليبية لإنقاذ مملكة القُدْس، وبدأ حملته بمُحاولة إصلاح ما بين البابا والإمبراطُور فريدريك، فقد كان يُدرك ـ تماماً ـ أن وحدة المَسيحيَّة في أورُبا ستكون سنده الأكبر في مهمَّته، لكنَّه صُدم بتعنُّت البابا. ومع ذلك تحرَّك لويس من ليون نحو مرسيليا، والغريب في الأمر أن الهُجُوم عليه بدأ في الأراضي الفرنسيَّة، فقد انقضَّ سُكَّان مدينة أفنيون على جيشه في الممرَّات الجبلية، ونهبوا ما تمكَّنوا من نهبه، وقتلوا كُلَّ مَنْ تصدَّى لهم، واقترح قادةُ الجيش عقابَ المدينة، لكنَّ لويس رفض، وتابع سيره نحو مرفأ مرسيليا، لكنَّ أهلها لم يكونوا أكثر وُدِّيَّة من أهل أفنيون، فقد كبَّدوا جيشَ الملك خسائر أكبر، وتجنَّب لويس الاصطدام معهم ما أمكنه، حتَّى دخل الميناء[2]. ولمَّا كان الملك لويس لا يملك أُسطُولاً خاصّاً به، اتَّصل بالبنادقة، الذين رفضوا تزويده بالسُّفُن، نظراً لعلاقاتهم التِّجاريَّة الطيِّبة مع مصر، فالحرب ليست من مصلحتهم، وستُغلق بوجههم أبواب التجارة مع مصر، وعبرها، وستُوقف الأرباحُ المُتدفِّقةُ عليهم، لكنَّ الجنويين أعداء البنادقة كانوا جاهزين لنقله، فاعتمد على أُسطُولهم، بالإضافة إلى بعض السُّفُن التي استأجرها من مرسيليا[3]. ونظراً لصُعُوبات النقل البَحْري، ولعدم توفُّر سُفُن بالشكل المطلوب، اصطحب الملك لويس معه عساكر النُّخبة، وترك وراءه عدداً كبيراً من الرُّماة والفُرسان[4].

لويس في قبرص:

يبدو أن الملك لويس أراد أن يجعل من قبرص قاعدة لهُجُومه على مصر، فقواعده في بلده فرنسا شديدة البُعْد، بالإضافة إلى تمضية فصل الشتاء فيها بالاستعداد والتنظيم، فهُو لا يُريد أن ينزل

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل 5/ 36، وابن العبري، تاريخ الزَّمان، ترجمة: إسحق أرملة، 452، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 329، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 187.

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 27/ 1010، ـ لم يذكر جوانفيل كاتب سيرة الملك لويس أيَّ شي عن هذه الاعتداءات على جيش الملك، راجعْ وصفه لطريق الحملة من باريس حتَّى مرسيليا. (حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 56).

3 - History of Egypt, - Lane poole , P. 218

4 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 27/ 1010.

في مصر، وقد انقطع عن أُورُبة بسبب توقُّف مُعظم السُّفُن عن الإبحار في الشتاء. ولكن الذي لم يـدر بخلد لويس هُو أن تمضية الشتاء في قـبرص سيـستهلك المُؤن التـي أحـضرها معـه، أو التـي يُمكـن إعدادها في قبرص، فموارد الجزيرة الصغيرة لن تكفي لحملة تُعَدُّ بالآلاف من الرجال، فأرسل لويس رُسُلَهُ إلى المُدُن الإيطالية، وإلى الإمبراطُور فريدريك، فَأَمَدَّهُ البنادقةُ بالمُؤن، أمّا فريدريك؛ فقد أغـدق عليه كُلَّ أنواع المُساعدات، ولم يكتف بما أرسله هُو، بل قام بإقناع كثير من الحُكّام الأُورُبيـين لإمـداد لويس. فكتب إليه لويس يشكره، وأعاد الكتابة إلى البابا يرجوه الكَفَّ عـن فريـدريك، وقـال لـه إن فريدريك: "صديق مُفيد للكَنيسَة، ساعد على تحرُّر الجـيش الـصليبي مـن مجاعـة"، كـذلك كتبـت بلانشي أُمّ الملك لويس إلى فريدريك تشكره، وإلى البابا تلتمس العفو عنه، ورفـض البابـا كُـلَّ تلـك الدعوات[1]؛ إذْ لم يكن وارداً في اهتمامات البابا لا الملك لويس، ولا حملته في سبيل الكَنيسَة، وكُـلّ مـا كان يسعى إليه هُو قَهْر فريدريك، وإذلاله.

ونتيجة للأشهر الطويلة التي أمضاها الملك لويس في قبرص، وهي محطَّـة التُّجّـار وموئلهم، علم السُّلطان الصَّالح أيُّوب بحملة لويس، ومقاصده، ففي عام **646** هـ **1248**م "تواترت الأخبار بأنَّ ريد فرانس مُقدَّم الفرنسيَّة قد خرج من بلاده في جُمُوع عظيمة وشتَّى بجزيرة قـبرص"[2]. وكـان هذا شيئاً طبيعيّاً، فإقامة لويس الطويلة مع جيش ضخم شيء لا يُمكن إخفاؤه في جزيرة صغيرة، هي في عدوة الساحل الشَّامي، وتكاد جبالها تُرى منه، إضافة لكـون قـبرص أهـمّ المحطّـات التِّجاريَّـة في شرقي المُتوسِّـط، ويقـصدها التُّجّـار مـن كُـلِّ الأجنـاس والأديـان، وبالتَّأكيـد؛ مـن بيـنهم العَـرَب المُسلمون، فقد وصلت أخبار لويس وإقامته في قبرص إلى أقصى الشَّرْق في فارس، فأرسل له إيلخـان التَّتار جغطاي سفيرَيْن؛ هُما مرقص وداود، وكانا من المسيحيين النساطرة[3]، ممَّا يـدلُّ عـلى اشـتهار وُجُود الملك لويس في قبرص، وعلى نواياه للقيام بحرب ضدَّ المُسلمين في مصر، أو سُورية، ويبدو أن فريدريك ـ كما كان قد قام بحقِّ الانتماء الدِّيني، وساعد لويس بإمداده بالمُؤن، وإنقاذه مـن المجاعـة ـ قام بحقِّ الصداقة نحو السُّلطان أيُّوب بن الكامل، فأخبره أن وُجهة لويس هي مصر؛ ليأخـذ حـذره،

---

1 - التاريخ الكبير، متّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 27 / 105.

2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 329.

3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة ، د. سُهيل زَكّار، 35/ 58، وكذلك راجعْ مبحث: التَّتار والفرنج في هذا الكتاب.

يقول جوانفيل مُرافق الملك لويس في حملته: "كان سُلطان مصر يتوقَّع وُصُول ملكنا إلى مصر في الربيع"[1]. ولم يكن أيُّوب يعرف بتوجُّههم إلى مصر فقط، بل يتوقَّع موعد وُصُولهم في الربيع، وهُو وقت انفتاح البحر للملاحة، وكذلك الفرنسيون يعرفون أنَّه يعرف بقُدُومهم، ويتوقَّع موعده.

خُطَّة السُّلطان الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب للدفاع عن دمياط:

لم يُفاجأ السُّلطان أيُّوب ـ أبداً بتوجُّه ـ لويس نحو دمياط، فقد كان يعرف وُجهته مُسبقاً، لذلك قام السُّلطان بعدَّة إجراءات عسكريَّة، منها:

1 ـ شحن دمياط بالميرة والذخيرة.

2 ـ عهد لأُمراء بني كنانة، وهُم قوم مشهورون بالشجاعة والإقدام، لحماية المدينة من الداخل[2].

3 ـ أمر نائبه في القاهرة الأمير حُسام الدِّين بن أبي علي بتجهيز أُسطُول النيل، وتسييره نحو دمياط[3].

4 ـ وجَّه وزيره ومُستشاره فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ مع فرقة كبيرة من الجيش، وأمره أن يُرابط على العدوة الغَرْبيَّة لدمياط، لمنع الحملة من الإنزال هُناك[4].

أمَّا عن سبب استعداد السُّلطان في دمياط؛ فهُناك عدَّة احتمالات، منها: كان السُّلطان ـ ورُبَّما جميع المُسلمين ـ على يقين بأنَّ الحملات الفرنجيَّة قد قطعت أملها من النجاح في الساحل الشَّامي، وأنَّها باتت أسيرة هاجس السيطرة على مصر، ولتكرُّر هجمات الفرنجة على دمياط ونجاح الحملة الخامسة باحتلالها بات من المُرجَّح ـ إنْ لم نقل من المُؤكَّد ـ أن حملة لويس ستتوجَّه إليها، فقد كانت الفكرة الشائعة لدى الفرنجة والمُسلمين أن مَنْ يُسيطر على مصر يُنهي أمر الصراع في الشَّام، يقول ابن واصل: "إن ملك فرنسا ري دا فرانس حدَّثته نفسه بأنْ يستعيد البيت المُقدَّس إلى الفرنج . .

---

1 ـ حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 62.
2 ـ البيان والإعراب، المقريزي، 21، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 178.
3 ـ النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 121، والبَحْريَّة الإسلاميَّة، أحمد مُختار العبادي وسيِّد عبد العزيز سالم، 236.
4 ـ شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 178.

وعلم أن ذلك لا يتمُّ إلاَّ بمُلك الديار المصريَّة"[1]. ويُقال إن السُّلطان الصَّالح أيُّوب قد وصلت إليه خُطَّة لويس مع رسول خاصٍّ من الإمبراطُور فريدريك[2]، كما أنَّه من المُمكن أن تكون عُيُون وجواسيس السُّلطان في قبرص قد نقلت إليه ما سمعوه عن توجُّه الحملة إلى دمياط، فخبر كهذا لا يخفى بين البحَّارة وعُمَّال الموانئ.

الملك لويس في دمياط:

في عام 647 هـ 1249م، أنهى لويس إقامته في قبرص، وتوجَّه مُبحراً نحو مصر، يقول جوانفيل: "وصلنا إلى أمام دمياط؛ حيثُ وجدنا صفَّاً كاملاً من قُوَّات السُّلطان مُتمركزاً على الساحل"[3]، فقد كانت قُوَّات فخر الدِّين بن الشَّيخ قد احتلَّت جيزة دمياط، وتمركزت فيها لمنع نُزُول الحملة، وكان فرع نهر النيل يفصل بين هذه القُوَّات وبين مدينة دمياط المُحصَّنة بشكل جيِّد، وفي النهر؛ كان الأُسطُول قد وصل، واحتلَّ مواقعه ليُساند القُوَّات البرِّيَّة، ويُقاتل سُفُن الفرنجة، ولكن المُفاجأة الأُولى كانت بإتمام نُزُول الحملة بدُون هُجُوم جدِّي من قبَل قُوَّات ابن الشَّيخ البرِّيَّة أو البَحْريَّة للقضاء على الإنزال في أحرج أوقاته.

ويصف لنا جوانفيل سُهُولة عملية الإنزال بقوله: "رسوتُ مع رجالي أمام كوكبة كبيرة من المُسلمين، كان تعدادهم في ذلك المكان ستَّة آلاف رجل على ظُهُور خُيُولهم، وما إنْ رأونا ننزل حتَّى حملوا علينا حملة شديدة، وبالنسبة لنا؛ غرسنا ترستنا في الرمال، وثبَّتنا رماحنا في الأرض بكُلِّ شدَّة، وجعلنا أسنَّتها مُشرعة نحو العدوِّ، لكنْ؛ في اللحظة التي رأوا فيها أن رماحنا سوف تخترق بُطُونهم، نكصوا على أعقابهم، وولُّوا هاربين"[4]. وتابع جيش الفرنجة النُّزُول إلى اليابسة بكُلِّ أمان، ثُمَّ "أمر كُونت يافا بنصب خيمه، وما إنْ رآهم المُسلمون حتَّى اجتمعوا معاً في كتلة واحدة، ثُمَّ قدموا ثانية، وقد همزوا خُيُولهم وكأنَّهم عزموا على سحقنا، لكنْ؛ عندما رأوا أنَّنا لا نريد الانهزام، نكصوا ثانية على أعقابهم، وانسحبوا"[5]. فهل هذه معركة لمنع العدوِّ من إنزال قُوَّاته على الشاطئ؟ أم هي خُطَّة

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 351.
2 - راجعْ مبحث العلاقات مع فريدريك في هذا الكتاب
3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 65.
4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 67.
5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 68.

استعراضية نفَّذتها قُوَّات فخر الدِّين؟ فلم يتمّ أيُّ احتكاك عسكري بين الطرفَيْن، ولم يقتل أحد منهما سوى شيخ من المُتطوِّعة في جيش المُسلمين هُو الشَّيخ نجم الدِّين بن شيخ الإسلام، وكان قد جاء مُتطوِّعاً من الكَرَك، واستُشهد في هذه المُناوشات[1]، ويصف جوانفيل حادثة استشهاد الشَّيخ، فيقول: "وحمل واحد من المُسلمين، إمَّا لأنَّه لم يستطع ضبط حصانه، أو لأنَّه ظنَّ بأنَّ بقيَّة المُسلمين سوف يحملون خلفه، وصار هذا المُسلم في وسط الرجال الذين نزلوا إلى اليابسة لتوهم، غير أنَّه مزق إلى أشلاء"[2]، وبالتَّأكيد؛ كان الشَّيخ غير مُطَّلع على أوامر فخر الدِّين، التي تُحدِّد حجم القتال، وشكله، أو أنَّه لاحظ التقاعس، فحاول أن يُشجِّع العَسْكَر بالتضحية بنفسه، ولكنْ؛ على ما يبدو، كان الأمير فخر الدِّين يضبط عسكره، ويُسيطر عليهم بشكل جيِّد. ولا يستطيع أحد أن يُفسِّر ـ الآن ـ لماذا لم يُقاتل فخر الدِّين ابن الشَّيخ؟ إلاَّ إذا افترضنا أنَّه كان يرغب بنُزُول الحملة، ووُصُولها إلى دمياط، وكُلُّ تصرفاته تُضيف مزيداً من التأكيدات حول هذا الشكّ.

وكانت المُفاجأة الثَّانية ليلاً، فبعد أن ثبَّت الفرنجة مواقعهم في النهار على البرِّ المصري، وبدلاً من أن يقوم ابن الشَّيخ بهُجُوم ليلي يُدمِّر فيه مُعسكر الفرنج غير المُحصَّن، والذي أُقيم على عجل، أمر قُوَّاته بترك البرِّ الغربي كاملاً لهم، وانسحب عبر جسر خشبي كان قد أُقيم على القوارب نحو دمياط، وممَّا يزيد العجب من تصرُّفات ابن الشَّيخ أنَّه لم يقمْ بأبسط ما يُمليه العُرْف العسكري، فلم يأمر بتدمير الجسر، وتركه سالماً خلفه، وكأنَّه يُريد أن يُسهِّل عملية عُبُور الفرنج، ووُصُولهم إلى دمياط؛ لأنَّه لو قطع الجسر، لأعاق الفرنج إعاقة كُبْرَى[3]. والأعجب والأغرب أن ابن الشَّيخ لم يُعسكر على أبواب دمياط، ولم يدخلها ليُدافع عنها، بل تركها، وتوجَّه جنوباً نحو اشموم طناح؛ حيثُ يُعسكر السُّلطان.

نتائج تحرُّك ابن الشَّيخ:

1 ـ بعد انسحاب الجيش المُدافع عن دمياط كان أوَّل النتائج وأخطرها نُزُوح أهل دمياط، فعندما "رأى أهل دمياط رحيل العَسْكَر، خرجوا، ولم يبقَ في المدينة أحد، وفرُّوا حُفاة عُراة"[4].

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 219 والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.
2 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 68.
3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 69.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 438.

2 ـ انسحب فُرسان بني كنانة، وأخلوا دمياط، وتركوا أبوابها مفتوحة[1].

3 ـ واجه أهل دمياط الفارُّون بذُهُول من مدينتهم من إخوانهم المُسلمين أشدّ ممَّا كانوا سيُواجهونه مع الفرنج، "فقد خرج أهل البلد على وُجُوههم حيارى بنسائهم وأطفالهم، فنهبهم المُسلمون في طريق القاهرة، وسلبوهم"[2].

4 ـ أمَّا الكارثة التي نتجت عن تراجع ابن الشَّيخ؛ فهي استيلاء الفرنج بيُسر وسُهُولة على أمنع المُدُن المصريَّة بكُلِّ ما فيها من ذخائر وأسلحة ومُؤون ومعدَّات، فبعد عُبُور الفرنج نحو دمياط شاهدوا الأبواب مفتوحة، والمدينة خالية، "فظنَّ الفرنج أنَّها مكيدة، فتوقَّفوا ساعة"[3]، "وبعث الملك لويس بواحد من الفُرسان ليتحقَّق فيها إذ كانوا ـ بالفعل ـ قد تركوا المدينة"[4]، ولمَّا تبيَّن الأمر، دخلها الفرنج[5]، واستولوا على ما في المدينة "من آلات حربية وأسلحة عظيمة العدد والأقوات والأموال والأمتعة صفواً عفواً"[6].

5 ـ تراجع السُّلطان أيُّوب بعساكره إلى الخلف، وأقام في المنصُورة، ممَّا يعني تراجع القُوَّات الرئيسية للدفاع عند الخطِّ الثَّاني بدُون قتال.

ردّ أيُّوب على تحرُّك ابن الشَّيخ:

عندما وصل المُنهزمون: قُوَّات ابن الشَّيخ، والكنانية، وأهل دمياط إلى أشموم اطناح؛ حيثُ كان يُعسكر السُّلطان، وجدوه في ذروة غضبه، لكنَّه اكتفى بتوجيه لوم بسيط[7] لمُسبِّب الكارثة الأمير فخر الدِّين ابن الشَّيخ، فهل كان السُّلطان من الضعف أمام ابن الشَّيخ؛ بحيثُ لم يتمكَّن من اتِّخاذ أيِّ تدبير ضدَّه؟ أو حتَّى توجيه اتِّهام مُباشر إليه؟ إنْ لم نقل بالخيانة، فبالجُبن والخور، ولا ندري إن كان ابن الشَّيخ قد قدَّم عُذراً مُقنعاً للسُّلطان؟ مع أن ذلك أمر مُستبعد لأن مُعظم مَنْ كتب عن الحادثة من

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 179.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 220 والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 438.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 220.
4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 69.
5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 438.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 219.

المُؤرِّخين المُعاصرين لها، أو التابعين لهم، يُحمِّلون المسؤوليةَ كاملةً عن سُقُوط دمياط لابـن الـشَّيخ[1]. وما كان من السُّلطان أيُّوب إلاَّ أن صبَّ جام غضبه على أُمراء بني كنانـة، فـأمر بـشَنْقهم؛ لمُخـالفتهم الأوامر، ومُغادرة دمياط، فشُنقوا، وكانوا أكثر من خمسين أميراً[2]. وقـد يكـون إعـدام المُتهـاونين في حالة الحَرْب بأمر القائد العامّ شيئاً مطلوباً حتَّى يمنع التراخي، ويردع الناس، ولكنْ؛ ما يُلفت النظـر هُنا هُو التغاضي الكامل عن انسحاب الجيش النظامي، والعُقُوبة القُصْوَى لـبعض أُمـراء الأعـراب، وهُم ـ غالباً ـ مُتطوِّعة، وليسوا في تعداد ديوان العَسْكَر، وهـذا مـا حـاول الكنـانيون الـدفاع بـه عـن أنفسهم، فقـالوا: "ومـا ذنبنـا إذا كانـت عـساكره جميعهم، وأُمـراؤه، هربـوا . . فـأيّ شيء نعمـل نحنُ؟"[3]، وفي الحقيقة؛ وبغَضِّ النظر عن مُحاسبة ابن الشَّيخ، وعـساكره، فـالأُمراء الكنانيـة كـانوا يستحقُّون العُقُوبة، فلو أغلقوا أبواب المدينة، ودافعوا عنها بما فيهـا مـن أسـلحة وأقـوات، لقاومـت المدينة سنوات طويلة[4]. وبعد سُقُوط المدينة؛ انسحب أيُّوب بعساكره إلى مدينة المنصُورة[5]، وأعلن النفير العامّ بأرض مصر، "فاجتمع بالمنصُورة أُمم لا يُحصون"[6]، ولكن السُّلطان كـان قـد بلـغ بـه المرض حدَّاً خطيراً، أشفى به على الموت[7].

الحَرْب بعد احتلال دمياط:

كانت طلائع قُوَّات المُسلمين ـ الذين اتَّخذوا من المنصُورة قاعدة لقُوَّاتهم ومقرَّاً حربياً لقيادتهم ـ قد وصلت أسـوار دميـاط، وحاولـت مُحـاصرة مُعـسكر الفـرنج، الـذي أقـاموه خارجهـا، يقـول جوانفيل: "قام فُرسان السُّلطان ـ بعد مُضي وقت قصير على استيلائنا على دميـاط ـ بالاحتـشاد أمـام المُعسكر، وهاجموه من ناحيـة الـبرِّ"[8]. ويُتـابع جوانفيـل واصـفاً حـال الفرنجـة، فيقـول: "وقـدم

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بـردي، 6/ 330، والخُطـط والآثـار، المقريـزي، 1/ 219، والـسُّلُوك، المقريـزي، 1/ 438، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 369.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 36، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
4 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 369.
5 - المُختصر، أبو الفداء 3/ 179.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 216.
8 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 73.

المُسلمون كُلَّ ليلة إلى مُعسكرنا على الأقدام، وقتلوا رجالنا حيثُ وجدوهم نائمين، . . وتوجَّب علينا تحمُّل هذا العذاب"[1]، ممَّا أزعج الفرنج بشدَّة، فقاموا بهُجُوم ساحق، انطلاقاً من دمياط، فقتلوا عدداً كبيراً من المُسلمين، وكان قائد هذه الإغارة وعدَّة غارات أُخرى ناجحة هُو القائد الإنكليزي وليم نغوسبي، الذي حسده الفرنسيون، وضايقوه، حتَّى رحل إلى عكَّا[2]. "وفي اليوم التالي؛ أملوا بالنجاح، ولكنَّهم خسروا عشرة أضعاف ما كسبوه في اليوم الأوَّل، فأحكم المُسلمون إغلاقَ الطُّرُقات حولهم، وجمع السُّلطان الغلايين، وراقب البحار والسواحلَ لمَنْع المُساعدات"[3].

وفي هذا الأثناء؛ تُوفِّي السُّلطان الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب، ويبدو أن مجلساً للحُكْم قد تشكَّل فوراً، وكان على رأسه شَجَر الدُّرِّ، أُمّ خليل، جارية وأرملة الصَّالح أيُّوب، وفخر الدِّين بن الشَّيخ قائد الجيش، فقامت شَجَر الدُّرِّ بتدبير الأُمُور الإدارية السُّلطانية، وتابع فخر الدِّين الإشراف على شُؤُون الجيش، وأخفوا خبر موت السُّلطان، وأرسلوا مَنْ يُحضر ولده المُعظَّم تُورانشاه من حصن كيفا ليتسلَّم السَّلطنة[4]. وفي فترة الشَّكِّ بموت السُّلطان، أو عدمه، تراخت العساكر، ولم تقم بأعمال قتالية ضدَّ الفرنج، ورُبَّما تهاونوا في الحراسة. وصادف أن اتَّصل بدوي بجُند الحملة، وأخبرهم أنَّه بإمكانه أن يدلَّهم على مخاضة يعبرون منها إلى مُعسكر المُسلمين، مُقابل خمسمائة دينار، فوافق الملك لويس، وعبرت الحملة من المخاضة[5]، "وركب الفرنج، وحملوا على المُسلمين سحراً على غرَّة، فدهموهم في بُيُوتهم، وخيامهم"[6]، وكانت غايات هذا الهُجُوم قتل القادة المُسلمين، وتشتيت الجيش، وإنهاء المعركة تمهيداً لاحتلال البلاد، ولم تكن هذه الغايات بعيدة لو نجح الفرنج في إكمال هُجُومهم كما بدؤوه، فبعد أن انقضَّ رُوبيرت كُونت أرتو قائد فرقة المُقدِّمة على مُعسكر المُسلمين، وباغتهم، "تفرَّقوا في أزقَّة المنصُورة، وبين بُيُوتها"[7]، فتعقَّبهم الكُونت، ودخل بقُوَّاته أزقَّة المنصُورة

---

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 73.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 11116.
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1091.
4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 216، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361.
5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 88.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361.
7 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361.

الضَّيِّقة[1]، "وكادت تكون كسرة، ووصل الفرنسيس[2] إلى باب قصر السُّلطان الصَّالح"3، وظنَّ الفرنج أن نصرهم أوشكَ، خاصَّة أن قائد جيش المُسلمين الأمير فخر الدِّين بن الشَّيخ قد خرج على عجل شبه عارٍ، بعد دهم الفرنج بابه، فقتلوه، ولكنْ؛ حدث ما لا يتوقَّعه أحد في مثل هذه الظُّرُوف، فقد "أغاث الله المُسلمين بطائفة المماليك الصالحية، المعروفين بالبَحْريَّة، فركب فارس الدِّين أبو الهيجاء وبيبرس البندقداري في عدَّة من التُّرك، وحملوا على الفرنج حملة مُنكَرَة، فبدَّدوا شملهم، وولُّوا مُنهزمين، وقُتل ألفان وخمسمائة فارس من شُجعانهم، أمَّا الرَّجَّالة؛ فلا تُحصى"[4]، وكان من القتلى الكُونت رُوبيرت دي أرتو شقيق الملك لويس[5].

وفي شوَّال من عام 647 هـ 1249م، وصل تُورانشاه إلى المنصُورة "وبها عسكر المُسلمين قبالة الفرنج، الذين استولوا على دمياط"[6]، وقاد السُّلطان الجديد بنفسه العمليات القتالية ضدَّ الفرنج، ويبدو أن الفرنج لم يعلموا بموت السُّلطان الصَّالح أيُّوب حتَّى تولَّى ابنه تُورانشاه، يقول متَّى باريس: "مات السُّلطان، وابتهج الصَّليبيُّون، مع أنَّه كان يتوجَّب عليهم الخوف، وجرى تعيين سُلطان جديد، وتابع نشاطه ضدَّ الصليبين بشدَّة أعظم"[7]. وكانت القُوَّات الفرنجيَّة بقيادة الملك لويس بعد الهزيمة لا تزال بالقُرب من المنصُورة، وبعيدة عن دمياط، وقد حاصرهم المُسلمون، ولم يُمكِّنوهم من الحَرَكَة، مع استمرار المُناوشات والهجمات شبه اليومية على أطرافهم. أمَّا في البحر؛ فلم يكن حال الفرنج أفضل، فقد نتج عن العمليات الحَرْبيَّة البَحْريَّة استيلاء المُسلمين على اثنَيْن وثلاثين مركباً فرنجياً[8]، وأصبح وضع الفرنج ميؤوساً منه، مع أن قُوَّاتهم الرئيسية لا زالت شبه كاملة،

---

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 88.
2 - في الحقيقة لم يكن الفرنسيس؛ أيْ الملك لويس، بل كان أخاه الكُونت رُوبيرت دي أرتو.
3 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 376.
4 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 736، ـ يقول أبو شامة: إن قتلى الفرنج من الفُرسان كانوا ألفاً وخمسمائة، وإنَّه لم يُفقَد من المُسلمين إلاَّ ثلاثين نفساً.(ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361)، ويقول جوانفيل : "قُتل كُونت دي أرتو ومعه حوالي ثلاثمائة فارس، وفقد الدَّاويَة حوالي مائتَيْن وثمانين فارساً".
(حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 89).
5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 89.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361.
7 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1093.
8 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180.

ومُعظمهم لم يُقاتل بعد، فهُم مُحاصرون، لا يستطيعون الحَرَكَة للهُجُوم على القُوَّات الإسلاميَّة، وكذلك لا يستطيعون العودة إلى دمياط، وبدأت معنوياتهم تنهار، ومُؤنهم تنفد، "فأرسلوا يطلبون القُدْس، وبعض الساحل، وأن يُسلِّموا دمياط، فلم تقع الإجابة على ذلك"[1]. فهل كان وضع المُسلمين في المنصُورة الثَّانية أفضل منه في المنصُورة الأُولى؟ حتَّى اختلف جوابهم عند طلب الفرنج للصُّلح مُقابل تسليم دمياط؟ أم هل كان وضع الفرنج أسوأ ممَّا سلف؟ في الحقيقة؛ لا يبدو أن لوضع قُوَّة المُسلمين، أو ضعف الفرنج، أيّ علاقة باختلاف الجواب، فمُوافقة السُّلطان الكامل في المنصُورة الأُولى كان ناتجاً ـ بمُجمله ـ عن تحسُّبه وخوفه من قُوَّات إخوته، التي كانت مُتواجدة بكاملها على أرض مصر، فرُبَّما تخيَّل من ذلك، فسارع لقبول الصُّلح، أمَّا في المنصُورة الثَّانية؛ فتُورانشاه هُو سُلطان مصر ودمشق، ولا يُوجد مَنْ يُنافسه في الشَّام، أو يُمكن أن يحلَّ محلَّه، حتَّى إنْ وُجد في شخص الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، فهُو بعيد في حلب، ولا يُعقَل ـ وقتها ـ أن يُفكِّر بالسَّلْطَنَة، كما أنَّه لا تُوجد أيُّ قُوَّات له في مصر، فهُو لم يُرسل أيَّ نجدة عسكريَّة، علماً أن وضع الفرنج في المنصُورة الثَّانية كان أفضل منه في الأُولى، فقُوَّات الفرنج كاملة وجاهزة، ويُمكن أن تقوم بهُجُوم يائس، وهُم يُسيطرون على الأرض التي حولهم، بينما كانوا في نكبة حقيقيَّة بعد إغراق مُعسكرهم في المنصُورة الأُولى.

في كُلِّ يوم كان يمرُّ على الفرنج كانت حالهم فيه تتردَّى من سيِّئ إلى أسوأ، وكان الحصار يفتك بهم، ومُناوشات المُسلمين تُنهكهم، فأكلوا خُيُولهم من الجُوع[2]، "وبدأ كثيرون ممَّنْ لم يكونوا أقوياء في إيمانهم بالتجديف، وأخذ إيمانهم يتلاشى"[3]. وقد سجل متَّى باريس شهادة نادرة على حُسن تعامل المُسلمين مع الفرنجة المُلتجئين إليهم، وعدم استغلال حاجتهم، وضعفهم، يقول: "قام عدد كبير من الصليبيين بسبب المصاعب، وتركوا المدينة سرَّاً، والتحقوا بالمُسلمين وُفق شُرُوط مُعتدلة، ووقفوا بشكل مُؤثِّر وفعَّال ضدَّ بني قومنا، استقبلهم المُسلمون بالأطعمة المُناسبة، وقسم من الفارِّين حافظوا على دينهم بسبب اعتدال المُسلمين، وتسامحهم، غير أن بعضهم ارتدُّوا، والتحقوا

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180، ـ يقول جوانفيل: وكان رسول الملك لويس إلى المُسلمين هُو الفارس جو فروا دي سارجين ـ Geoffroy de Sargines . (حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 35/ 89).

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 48/ 1091.

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 48/ 1094.

بدنسهم، فتمَّ تزويدهم بثروات واسعة مع زوجات وقلاع، وجرت ترقيتهم إلى كثير من مراتب الشرف"[1]. وإزاء هذه الانتكاسة الكبيرة للحملة؛ عمد بعض أفرادها إلى إرسال رسائل إلى أُورُبا، تقلب واقع الحال، وتُصوِّر انتصارات وهمية للفرنجة، وتقول بأنَّهم استولوا على القاهرة، وأن الإسكندرية تكاد تسقط، وكان القصد منها مُواساة المسيحيين، وتشجيعهم على الالتحاق بالحملة، وظهر أن عناصر الدَّاوِيَة هُم أكثر مَنْ نشر هذه الرسائل الكاذبة في أُورُبة، إضافة إلى أسقف مرسيليا[2]. ويبدو أن القصَّة التي نشرها متَّى باريس عن مُطالبة حاكم القاهرة الأمير حُسام الدِّين بن أبي علي بالتعميد، وإطلاق أسرى الفرنج، كانت من ضمن إشاعات الأمل التي أطلقها الفرنجة في ضائقتهم تلك[3].

شعر المُسلمون بضعف الفرنج تحت وطأة الحصار، وكانت كتائب جيش مصر في البرِّ الشرقي، أمَّا البرُّ الغربي؛ فكانت تشغله المُتطوِّعة من العُربان والعوامّ[4]، وهُم يضغطون ـ بشكل مُتزايد ـ على الفرنج، ويصف جوانفيل الوضع العسكري قائلاً: "شاهدنا بأنَّ الملك بات قريباً من النهر، وكان المُسلمون يسوقون كتائبه إلى الوراء، وهُم يضربون، ويطعنون، فيها بالرماح، وبالسُّيُوف، ويُجبرونها ـ بالتدريج ـ مع كتيبة الملك الخاصَّة على التراجع على طُول النهر، وكانت الهزيمة هُناك كاملة"[5]، حتَّى عزم الملك لويس على أن يشقَّ طريقه إلى دمياط بالقُوَّة، "فعلم المُسلمون بذلك، وكان الفرنج قد عملوا جسراً عظيماً من الصنوبر على النيل، فسهوا عن قطعه، فعبر المُسلمون منه في الليل إلى برِّهم، وأحدقوا بهم قتلاً وأسراً طوال الليل، فالتجؤوا إلى قرية منية أبي عبد الله، وتحصَّنوا بها، وظفر أُسطُول المُسلمين بأُسطُولهم، فغنموا جميع المراكب بكُلِّ ما فيها"[6]، وتحصَّن الملك لويس في حوش من أحواش البلدة، ومعه خمس مائة من أبطال جيشه، وطلب

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 11092 ـ 11093.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، ، 48/ 1104.
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1094.
4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 221.
5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 94.
6 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 364.

المُفاوضات على التسليم، فجاء إليه مندوباً عن المُسلمين الأمير سيف الدِّين القيمري[1]، ومعه الطواشي رشيد، واتَّفقوا مع لويس على قاعدة استسلامه[2]، وقدَّر المُسلمون شجاعة لويس، وعدم تخلِّيه عن جيشه في محنته، فقال ابن تغري بردي: "ولو أراد الفرنسيس أن ينجو بنفسه لخلص على خيل سبق، أو في حرَّاقة، لكنَّه أقام في الساحة يحمي أصحابه"[3]. وانتشرت أخبار هزيمة الفرنج، وانتصار المُسلمين، يقول أبو شامة في أحداث عام **648** هـ: في **2** مُحرَّم الأربعاء كَسَر السُّلطان المُعظَّم تُورانشاه الفرنج كسرة عظيمة"[4]، ويفصل ذلك الملك المُعظَّم تُورانشاه في رسالة له أرسلها إلى نائبه في دمشق جمال الدِّين بن يغمور، يقول: "ولمَّا كانت ليلة الأربعاء، تركوا خيامهم، وأموالهم، وقصدوا دمياط هاربين، فسرنا في آثارهم طالبين، ومازال السيف يعمل في أدبارهم عامَّة الليل، فحلَّ بهم الخزي والويل. فلمّا أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفاً، غير مَنْ ألقى بنفسه في اللّجج، وأمَّا الأسرى؛ فَحَدِّثْ عن البحر، ولا حرج"[5].

شُرُوط لويس للاستسلام:

طلب لويس من سيف الدِّين القيمري ليستسلم عدَّةَ شُرُوط، منها:

1 ـ الأمان لنفسه، ولِمَنْ معه.

2 ـ أنْ لا يحتجزوه بين السّوقة والرُّعاع.

فأجابه الأمير سيف الدِّين إلى ذلك[6]، وتدلُّنا طلبات لويس المُتواضعة على حرج موقفه، وعلى انهيار معنوياته، فلم يعد يهمُّه إلاَّ سلامة رُوحه ومَنْ معه من الحاشية، وأن تُصان جلالته الملَكية،

---

1 - سيف الدِّين القيمري: أبو الحَسَن علي بن يُوسُف بن أبي الفوارس القيمري، كان من كبار الأُمراء، بطلاً شُجاعاً جواداً كثير المعروف، يُقال إنَّه ابن صاحب قيمر. راجعْ ترجمته في: البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 195، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 7/ 39.

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 221.

3 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 365.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 364.

5 - وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد ماهر حمادة، 251، ـ كذلك راجعْ خُطط المقريزي، 1/ 391، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 9/ 367.

6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 221.

ولا يُهان بين العامَّة والغوغاء. واستسلم الملك لويس إلى جيش مصر، فاقتيد، وسُجن، وأطال المُؤرِّخون المُسلمون في وصف سجنه، ومكانه، وما قيل فيه من الأشعار، وإذا تجاوزنا ذلك كُلَّه نجد أن المُفاوضات بين المُسلمين والملك لويس قد بدأت ـ فوراً ـ على أُسُس جديدة، وأهمّ ما دارت حوله المُفاوضات هُو أكبر غنائم المُسلمين الملك لويس، وأكبر غنائم الفرنج مدينة دمياط، ويبدو أن نفس الملك لويس كانت عنده أغلى بكثير من مدينة دمياط، وما حوت، كما أن مقتل السُّلطان المُعظَّم تُورانشاه كان أداة ضغط أُخرى على الملك لويس، فقد بلغ به الخوف مُنتهاه بعد مقتله، ورُبَّما فكَّر أنَّه إذا قتل المُسلمون سُلطانهم، فكيف سيُبقون على ملك الأعداء؟!

كلَّف المماليكُ ـ بعد تولِّيهم السُّلطة ـ الأميرَ حُسام الدِّين بن أبي علي الهذباني، "لما يعلمونه من عقله ومشورته"[1]، بالمُفاوضات مع الملك لويس لإبرام المُعاهدة بينهم وبين الملك لويس، وتمَّ الاتِّفاق بينهما، وكانت أهمّ البُنُود هي:

1 ـ إطلاق سراح الملك لويس وأخوَيْه ألفونسو وشارل.

2 ـ إطلاق سراح حاشية الملك وفُرسانه الذين أُسروا معه في منية أبي عبد الله.

3 ـ تسليم مدينة دمياط للمُسلمين مع كُلّ ما كان فيها.

4 ـ دفع مبلغ خمسمائة ألف دينار[2]، رفض لويس تسميته فدية لنفسه، واتَّفق على أن يكون فدية لجُنُوده، وتعويض لخسائر دمياط مُقابل ما لحقها من خراب، على أن يدفع نصف المبلغ مُقدَّماً، ونصفه الآخر فيما بعد.

واقتاد المُسلمون لويسَ إلى دمياط لتسليمها، "فما وصلوا إلاَّ والمُسلمون على أعلاها بالتكبير، والفرنج قد أخلوها، وهربوا في المراكب، فخاف الفرنسيس، واصفرَّ لونه، فقال حُسام الدِّين للمُعزّ أيبك: هذه دمياط قد حُصِّلَتْ لنا، وهذا الرجل في أَسْرنا، وهُو عظيم النصرانية، وقد اطَّلع على

1 ـ عقد الجُمان، العيني، 1/ 29.

2 ـ حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 89، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 368، وعقد الجُمان، العيني، 1 / 222، ـ اختلف الرُّواة بتحديد قيمة الفدية، فمنهم مَنْ قال إنَّها ثمانمائة ألف دينار. (تاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 455، ودُول الإسلام، الذهبي، 2/ 117)، وجعلها فيلكس فابري ثمانية آلاف قطعة نقد ذهب إسلامية. (جولات ورحلات، فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1172)، ويُلاحظ الباحث أن كثيراً من الغُمُوض والإيجاز يسودان في كتابات المُؤرِّخين المُسلمين حول شُرُوط هذه الاتِّفاقية مع الملك لويس.

عوراتنا، والمصلحة أنْ لا نُطلقه، فقال أيبك: ما نرى الغـدر"[1]. ويُعلِّـل ابـن تغـري بـردي موقـف أيبك: بأنَّ المماليك قد أطلقوا لويس طمعاً ببقية مال الفدية، ويُضيف أن لويس قد أرسل يقـول لهـم: "ما رأيتُ أقلّ عقلاً ولا ديناً منكم"[2]، ولكنْ؛ يبدو أن المماليك لم يكن هدفهم مال الفديـة، فـأموال مصر والسَّلطنة كُلُّها أصبحت في أيديهم، فالأرجح أنَّهم مالوا لإطلاق لويس، للتفـرُّغ لحُكْـم مـصر، بعد أن أمنوا شرَّه، واستلموا دمياط. ورُبَّما تكون دوافع السُّلطان الكامل نفسها في المنصُورة الأُولى قد راودت المماليك في المنصُورة الثَّانية، فأُمراء الـشَّام قـد أعلنـوا العـصيان، ولم يقبلـوا بحُكْـم المماليـك، وأرسلوا يطلبون الملك النَّاصر يُوسُف صـاحب حلـب وحمـص لتـسليمه دمـشق، وممَّـا يُؤكِّـد هـذا الاحتمال أن المماليك ـ بعد إطلاق الملك لويس ـ أرسلوا يُفاوضون لإعفائه من بقيَّة الفديـة، وتـسليمه القُدْس[3]، مُقابل مُساعدتهم عسكريّاً ضدَّ النَّاصر يُوسُف في الشَّام.

الملك لويس في ساحل الشَّام:

غادر الملك لويس دمياط مُبحراً إلى عكَّا، وبدلاً من أن يستريح فيها لُمدَّة بسيطة ويُغادر بعدها نحو فرنسا خالف آمال جميع أفراد حملته، وقرَّر البقاء في الساحل الـشَّامي، مـع أن أُمَّـه أرسـلت إليـه تطلب منه العودة؛ لأن مملكته في خطر، لكنَّ الفرنج البلـديين تمـسَّكوا بـه، وقـالوا لـه: "إن غـادرتَ سوف تضيع هذه البلاد"[4]. واستمرَّت إقامة الملك لويس في فلسطين أربع سنوات، لم يُصبره عليهـا إلاَّ تعصُّبه الأعمى، وحقده على المُسلمين، وأمله أن يثأر لهزيمته، ويُحوِّلها إلى نصر، أو عـلى الأقـلِّ؛ أن يُعوِّض نفسه بشيء. وبالتَّأكيد؛ لم يكن من السهل على شخصية مثل لويس المُلقَّب بالقدِّيس أن يعـود إلى أُورُبا، وسُمعته قد بلغت الحضيض، بعد هزيمتـه، وأَسْره، وخاصَّـة أن هُنـاك أعـداداً كبـيرة مـن جُنُوده كانت لا تزال في أَسْر المصريين، فكان على لويس أن ينتظر الإفراج عن بقيَّة الأسرى، وكان من المعروف عن لويس التزامه وحرصه بسلامة جُنُوده، لذلك؛ ما إن بدأ المصريُّون بالتفاوض معه حتَّـى كان أوَّل شُرُوطه التعجيل بإطلاق الأسرى الفرنسيين في مصر. وخلال هذا الوقت كان لـويس يأمـل أن يُعيد ترتيب قُوَّاته، وأن يتمكَّن من إصلاح الحال بين قـوى الفرنجـة في الـشَّرق والتوفيـق بيـنهم؛

---

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 368، ـ يُؤكِّد جوانفيل هذه الرواية، ويقول: إن عدداً من أُمـراء مـصر كـان يرى قَتْلَ الملك لويس وكُلِّ الأسرى.(حياة القدِّيس لـويس، جـين جوانفيـل، الموسـوعة الـشاملة، د. سُـهيل زَكَّـار، 35/ 140 ـ 141).

2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 369.

3 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 184.

4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 156.

ليدعموه في حملة جديدة، لذلك بدأ بمساعي الصُّلح بين مملكة أرمينية وإنطاكية، وأحرز فيها بعض التقدُّم، لكنَّه لم يستطع أن يُحقِّق أيَّ تقدُّم في التوفيق بين الجنوية والبنادقة[1]. وممَّا يُؤكِّد ـ أيضاً ـ عزمه على الثأر إرساله طلب النجدات من فرنسا وإرساله سفارة مع أخوَيْه كُونت بواتيه وكُونت أنجو إلى البابا يطلب مُساعدته[2]، لكنَّ البابا كان مشغولاً عنه بحربه ضدَّ الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، فمع التهديد والوعيد الذي أبلغه أخوا الملك إلى البابا، لكنَّه لم يلتفت إلى ما قالاه، ولم يُفكِّر بنجدة لويس 3. كذلك لم تلقَ دعوة لويس لإمداده بالنجدات أيَّ استجابة في طُول أُورُبا، وعرضها، حتَّى في فرنسا، فرغم الدعوات الكثيرة التي أرسلها لويس، لكنَّ النُّبلاء والفُرسان الفرنسيين تجاهلوها تماماً، فقد كفاهم درس مصر[4]، وفي بريطانيا؛ كان الملك هنري الثَّالث يفرض حراسة مُشدَّدة على موانئ بلاده لَمْنع سفر الفُرسان نحو فلسطين[5]. كما كان قسم كبير من أُورُبا مشغولاً بقيام عدد من الهرطقات الدِّينيَّة، التي أخذت تدعو لإصلاح الكَنيسَة[6].

ولابُدَّ أن الوضع المُتردِّي لإمارات الفرنجيَّة في الشَّرْق كان يُؤلم الملك لويس أشدَّ الألم، وربَّما كان الجُزء الأهمَّ من دوافع بقاءه في الشَّرْق لإصلاح واقع حال الفرنجة، خاصَّة بعد أن ألقت معركة المنصُورة الثَّانية بظلال رهيبة على هذا الواقع. ومع أن أخوي الملك قد تركاه، وعادا إلى فرنسا، وعاد معهما عدد كبير من كبار البارونات[7]، فإن آمالاً مُشرعة كانت تعصف بالملك لويس، وتشدُّه إلى البقاء، فقد شاهد مقتل سُلطان مصر، ولابُدَّ أنَّه كان يتوقَّع حرباً أهلية فيها للصراع على السُّلطة، كما كان على علم باستيلاء النَّاصر يُوسُف على دمشق، وبأنَّه يُحاول أن يستعيد مصر من مماليك البيت الأيُّوبي، لذلك كان يأمل أن تصبَّ هذه الصراعات في مصلحته، وربَّما ـ أيضاً ـ أن يستعيد مملكة القُدْس، كما استعادها فريدريك بالمُفاوضات مع الأطراف المُتنازعة[8].

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 238.

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1164.

و The Good St, Louis, Bray, p. 263

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1164.

و A History of France, Kitchen, Vol. :1, P. 436

4 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 316.

5 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1120.

و A Gronicale of the Pops, Mc Killiam, P. 432

6 - A History of the Christian Church, Hardwick, P 307

7 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 163.

8 - راجعْ مُناقشة ذلك في : العُدوان الصليبي، جوزيف نسيم يُوسُف، 139.

مُفاوضات لويس في فلسطين:

في رجب عام 648 هـ 1250م، وصلت إلى عكّا سفارة مصرية، وقابلت لويس التَّاسع فيها ليعرضوا عليه رغبة القيادة الجديدة في مصر بالتحالف معه ضدَّ النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام، وحملت إليه عرضاً بإلغاء باقي الفدية، وإطلاق جميع أسرى الفرنج في مصر، وتسليمه القُدْس، كُلُّ ذلك مُقابل القيام بحملة مُشتركة ضدَّ النَّاصر يُوسُف[1]. لم يكن الملك لويس مُتحمِّساً لقبول عرض المصريين لعدَّة أسباب، منها: لابُدَّ أنَّه كان يذكر عاقبة مُشاركة الفرنج في الصراعات المحلِّيَّة، وخسارتهم الفادحة في معركة غزَّة. وأنَّ المماليك في مصر لا يملكون بيت المَقْدس؛ ليُسلِّموه إيَّاه، بل هُو - عملياً - في ملكية النَّاصر يُوسُف.

لكنَّ الملك لويس لم يُقفل الباب في وجه المصريين، فآلاف من جُنُوده لا زالوا بأيديهم[2]، وإنما اشتطَّ بطلباته عليهم، فقد "طلب من المصريين رُؤُوس جميع المسيحيين القتلى، والأطفال الذين أخذوهم صغاراً، وإعفاءه من باقي الفدية، وهي مائتا ألف ليرة ذهبية"[3]، وأخذ ينتظر رَدَّ المصريين. في هذه الأثناء؛ وردت عليه في عكّا رُسُلُ النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام، فلم يقبل لويس بعرض النَّاصر يُوسُف بالانضمام إليه ضدَّ المصريين، مُقابل تسليمه مملكة القُدْس التي هي بحوزته[4]، وردَّ لويس على الملك النَّاصر بأنَّه "لا يرغب بالتحالف معه حتَّى يعرف موقف أُمراء مصر من طلبه لتغيير شُرُوط الهُدنة، فإذا رفضوا، عندها؛ يُقدِّم له العون"[5]. ولشدَّة حرج موقف الأُمراء المصريين، وخوفهم من الملك النَّاصر الذي يُطالب بعرش مصر باسم الشرعية الأيُّوبيَّة، فقد وافقوا على تسليم الملك لويس مملكة القُدْس وكُلّ طلباته الأُخرى، ويقول جوانفيل إن الملك لويس قبل المُعاهدة مع الأُمراء المصريين، وأقسم عليها[6]. وكَرَدٍّ على مُعاهدة الملك لويس مع المصريين قام النَّاصر يُوسُف بإرسال فرقة من جيشه، تُقدَّر بحوالي أربعة آلاف فارس، إلى غزَّة ليقطع الاتِّصال بينهما[7]. ومع قبول الملك لويس للمُعاهدة مع المصريين، وإقسامه عليها، فقد بقي يُناور بين الطرفَيْنِ المُتصارعَيْن،

---

1 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 184 وعقد الجُمان، العيني، 1/ 80.

2 - قيل إنَّهم كانوا اثنَيْ عشر ألف أسير. (تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 473).

3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 173.

4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 164.

5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 172.

6 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 190.

7 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8 / 522، وحياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 190.

آملاً أن يُحقِّق بالديبلوماسية ما عجز عن تحقيقه بالحَرْب. وعملياً؛ تمكَّن الملك لويس من إعادة تحصين قيسارية، بعد أن كان المُسلمون قد هدموها[1].

ثُمَّ ذهب إلى يافا، وحصَّن قلعتها[2]. وانتقل ـ أخيراً ـ إلى صيدا، فحصَّنها بأسوار عالية، وأبراج[3]. واستمرَّ على هذه الحال، إلى أن يأس تماماً بعد أربع سنوات طوال، فعاد أدراجه إلى فرنسا، بعد أن عقد مُعاهدة مع الملك النَّاصر يُوسُف عام 652 هـ 1254م، مُدَّتها عشر سنوات[4]، يقول ابن شدَّاد: إنَّها نصَّت على المُناصفة لبعض المُدُن مثل صيدا وطبرية[5]. وكمُحصلَّة أخيرة؛ نُلاحظ أن كُلَّ ما بذله الملك لويس من جُهُود وأموال ذهبت بدُون أيِّ مُقابل، إضافة إلى ما تعرَّض له من هزيمة، وذُلِّ الأسر، فلا بالحَرْب نجح، ولا بالمُفاوضات السِّياسيَّة أفلح، وحتَّى المواقع التي حصَّنها اضطُرَّ للتخلِّي عن بعضها، وبعضها الآخر اتَّفق مع النَّاصر يُوسُف سُلطان الشَّام على اقتسامها مُناصفة. ورُبَّما كان الشُّعُور بالفشل لدى الملك لويس في هذه الحملة هُو دافعه الأكبر للقيام بحملة ثانية ضدَّ تُونُس، لاقى فيها منيَّته.

وقد أعقب أَسْر لويس في المنصُورة وإطلاق سراحه علاقات سياسيَّة وعسكريَّة مُعقَّدة جدَّاً، بينه وبين الأيُّوبيَّة في الشَّام من جهة، وبينه وبين المماليك في مصر من جهة أُخرى، من خلال مُفاوضات ثُنائية استغرقت جولات عديدة، كان لويس ـ خلالها ـ يتلاعب بالطرفَيْن اللَّذَيْن رغبا بالتحالف معه، كُلّ منهم ضدَّ الآخر، لكنَّه لم يجرؤ على اتِّخاذ جانب أيٍّ منهما، ولم يحدِّد موقفه، وكما كان الفشل العسكري نصيبه في دمياط كان الفشل السِّياسي نصيبه في عكَّا.

وهكذا نُلاحظ بأنَّ الدور الفرنسي كان دائماً مُتميِّزاً في الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق، وكانت تسمية العَرَب للأُورُبيين الغُزاة بالفرنجة من كون غالبيَّتهم من الفرنك، أو الفرنسيين، فالفرنسيون كانوا يُشكِّلون الغالبية العددية على الدوام، إنْ كان في الحملات العسكريَّة، أو في المُستوطنات، أو في الطوائف الرُّهبانية المُقاتلة، وكانت هذه الغالبية الفرنسيَّة بسبب كون جنوب فرنسا مهد الدعوة الصَّليبيَّة. كذلك كان مُعظم المُلُوك والأُمراء الفرنجة في الشَّرْق من الفرنسيين، ومُعظم طائفتَيْ الدَّاوية والاسبتاريَّة من الفرنسيين، كما لم يتخلَّف الفرنسيون عن أيِّ حملة، كما شارك مُلُوكهم بشكل شخصي في الحملتَيْن الثَّانية والثَّالثة، بالإضافة إلى ذلك؛ فقد كان للفرنسيين حملتهم الخاصَّة مع الملك لويس التَّاسع.

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 174.
2 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 190.
3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 221.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 393، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 43.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 134.

المبحث السَّادس:

علاقات دُول أُورُوبية مُختلفة بالشرق الإسلامي

1- إنكلترا:

كان هنري الثَّاني ملك إنكلترا من المُلُوك الأُورُبيين الذين هزَّتهم هزيمة حطِّين وسُقُوط القُدْس، واستجابوا لرئيس أساقفة صُور، الذي نقل أخبار الكارثة إلى أُورُوبا، وحرَّض مُلُوكها لاسترداد القُدْس، فتعهَّد هنري بحَمْل الصليب، ولكن الموت عاجله، فتوَّج ابنه ريتشارد، الذي أوفى بنذر والده، وقام بحملته الشهيرة لإنقاذ الأراضي المُقدَّسة، وكما يقول مُدوِّن رحلته: "لتدمير المُسلمين، وإزالة الشريعة الإسلاميَّة، ونَشْر المَسيحيَّة"[1]، فانطلق ريتشارد مُبحراً من إنكلترا عام **566** هـ **1190**م، ثُمَّ توقَّف ليُمضي فصل الشتاء في جزيرة صقلية، ونتيجة لخلاف وقع بين بعض جُنُوده وسُكَّان مدينة مسينا الصقلية، قام ريتشارد بقيادة جيشه، والهُجُوم على المدينة المَسيحيَّة، التي كانت تُؤويه بجوارها. ويصف مُدوِّن أخبار الحملة، وهُو شاهد عيان كان يُرافق الملك ريتشارد ما فعله الإنكليز في مسينا، فيقول: "وقاموا بذَبْح وأَسْر كُلِّ مَنْ قابلوه من سُكَّان المدينة"، ويُتابع: "سار رجالنا يتقدَّمهم الملك ريتشارد خلال المدينة المقهورة كمُنتصرين، وقاموا بنَهْب المدينة كُلّها. . . وهكذا استولى ريتشارد على مسينا، وبات الذهب والفضَّة وكُلّ شيء وجدوه ملكاً للمُنتصرين، الذين قاموا بإحراق سُفُن الأعداء، وأخذ أعلى نسائهم مكانة، وحملوهنَّ معهم"[2]. وبعد تدمير ريتشارد لمدينة مسيحيَّة، ونهبها، وسبي نساءها، تابع مهمَّته لنَشْر المَسيحيَّة، والتصدِّي للمُسلمين.

ولكن حملة مُلُوك أُورُوبا ـ التي تزعَّمها ريتشارد لاسترداد مملكة القُدْس، والقضاء على المُسلمين بمُشاركة إمبراطُور ألمانيا وملك فرنسا ـ وصلت إلى طريق مسدود، ولم تُحقِّق هذه الحملة أيَّ نتيجة مُهمَّة، ماعدا استيلائهم على عكَّا، الذي يُعدُّ نتيجة تافهة للحشد العسكري الهائل الذي تجمَّع عليها. فبعد موت فريدريك الأوَّل إمبراطُور ألمانيا؛ وتشتُّت حملته، وانسحاب فيليب الثَّاني ملك فرنسا، ومُغادرته لفلسطين، لم يبقَ إلاَّ ريتشارد، الذي ظهرت بُطُولاته وشجاعته، في إعدامه للآلاف

---

1 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31 / 96.

2 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31 / 41.

من سُكَّان وحامية عكَّا، الذين استسلموا على شرط الأمان، فقتلهم صبراً[1]، إنَّها ليست وحشية ريتشارد فقط، بل كانت وحشية قيَم وأخلاقيات إنكلترا التي كان يُمثِّلها، والتي نصَّبَتْهُ بطلاً لها، وأطلقت عليه اسم قلب الأسد.

وبعد أن يأس ريتشارد من تحقيق أيِّ مكسب على أرض فلسطين، وبلغتْهُ من بلاده أخبار مُقلقة على عرشه، حاول أن يجد لنفسه انسحاباً مُشرِّفاً من الشَّرق، فأرسل صاحب صيدا بالين دي أبلين، "وطلب منه بذل قُصارى جهده لعَقْد هُدنة" مع المُسلمين[2].

وفي الحقيقة؛ كان ملك إنكلترا ريتشارد مُستعجلاً لإجراء الصُّلح، لأنَّه الحلُّ الوحيد أمامه للانسحاب بشرف من مأزق لم يعد له حلٌّ، فلا هُو قادر على هزيمة السُّلطان والوُصُول إلى القُدْس، ولا كبرياؤه المَلَكية، وسُمعته البُطُولية تسمحان له بالتسلُّل مُغادراً بنتائج هزيلة، خاصَّة بعد أن تأكَّد أن جُيُوش السُّلطان قد اكتملت، وأن البحر ـ خلال وقت وجيز ـ سوف لا يُمكن رُكُوبه، وهُو مُتحرِّق للعودة، فالأخبار المُتواترة من بلاده تُنذر بأسوأ الأُمُور، له، ولعرشه.

فأرسل ريتشارد إلى السُّلطان يقول: "فإنْ هادنتُم، تبعتُ هوايَ ـ بالسفر إلى بلاده ـ وإنْ حاربتُم، أقمتُ ها هُنا، وقد كَلَّ الفريقان، ولا تغترُّوا بالعساكر، فإن جَمْعَهَا في الشتاء إلى شتات"[3].

ولم يُقدِّم السُّلطان صلاح الدِّين على إجابة ريتشارد، إلاَّ بعد أن جمع الأُمراء، وعرض عليهم الأمر، وطلب مشورتهم، فأقنعوه بقبول الصُّلح، ولكن السُّلطان أبى أن يدخل شخصياً فيه، وفوَّض ذلك إلى أخيه الملك العادل، وزوَّده بتعليماته، التي تقضي بأنْ يقطع المُفاوضات إذا لمس من الفرنج المُماطلة، فطلب العادل مُذكِّرة خطِّية بما يُسمَح له بالمُفاوضة عليه، "فكتبت له تذكرة" بخطِّ الأمير بدر الدِّين دلدرم، تتضمَّن البلاد التي تقع ضمن مناطق المُناصفة مع الفرنج، وأن المُسلمين يسمحون بإعطائهم صليب الصلبوت، ويكون لهم في كَنيسَة القيامة مَنْ يُؤمِّن لهم زيارتها، بشرط عدم حَمْل

1 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 37 / 96.
2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8 / 443.
3 - الفَتح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 412.

السلاح، وأن الصُّلح ثلاث سنين من تاريخه، وطلب السُّلطان من أخيه العادل أن لا يكون هُناك حديث في الجبليات[1]؛ أيْ أنَّه غير مُفوَّض بالتنازل عن أيِّ موقع جبلي.

وبعد إعلام ريتشارد بالمُوافقة على طلبه بإجراء مُفاوضات الصُّلح، وصلت رُسُلُهُ تطلب الاجتماع بالملك العادل؛ لتنسيق وُصُول الملك ريتشارد[2]، فأمر الملك العادل بنصب ثلاث خيام قُرب مُقدِّمة الجيش، وتجهيزها بما يلزم من طعام وفاكهة لاجتماعه بريتشارد، الذي حضر إلى خيام العادل، وطالت المُحادثات بينهما[3]. ثُمَّ استقرَّ الرأي أن يتزوَّج الملك العادل أُخت ريتشارد، "على أن يحكم العادل في البلاد، وتكون المرأة في القُدْس مع زوجها، ويُرضي العادل مُقدَّمي الفرنج والدَّاويَة ببعض القُرى، ولا يُقيم معها في القُدْس إلاَّ قسِّيسون ورُهبان"[4]. ولكنْ؛ تَعَنَّتَ رجال الدِّين الفرنج، وبعض الأُمراء، واشترطوا تنصُّر العادل، فرفض، وانسحب من المُفاوضات، واعتذر الملك ريتشارد بامتناع أُخته[5].

ولكنْ؛ حتَّى بدُون زواج سياسي، فقد ترتَّب الصُّلح، وعُقدت الهُدنة بين الفرنج؛ يُمثِّلهم الملك الإنكليزي ريتشارد، والمُسلمين يُمثِّلهم الملك العادل بتكليف من السُّلطان صلاح الدِّين، وتمَّ توقيع الصُّلح في 23 شعبان عام 558 هـ المُوافق 3 أيلول 1192م. وقد نصَّت مُعاهدة الصُّلح "على أن يستقرَّ بيد الفرنج يافا وعملها، وقيسارية وعملها، وحيفا وعملها، وأن تكون عسقلان خراباً، وتكون اللدّ والرملة مُناصفة بين الفرنج والمُسلمين"[6]. ثُمَّ أمر السُّلطان بالنداء في المُعسكرات والأسواق: "ألا أن الصُّلح قد انتظم، فَمَنْ شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا، فليفعل، ومَنْ شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم، فليفعل"[7].

---

1 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 258 .

2 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 223.

3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 380.

4 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 377.

5 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 377.

6 - مُنتخبات التواريخ، ابن شاهنشاه صاحب حماه، 304.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 405

وقد رُويت كثير من الأخبار عن علاقة الملك العادل سيف الدِّين بالملك ريتشارد قلب الأسد، حتَّى إن منها ما أخذ يرقى إلى مرتبة الحكايات والأساطير، ولكن الثابت أن علاقات حميمة قد ربطت الرجلَيْن، وأنهما قد تباسطا في أُمُور حياتية كثيرة، بعيداً عن شُؤُون السياسة والحَرْب، ويروي مُدوِّن أخبار الحملة الإنكليزي: "أنَّه في يوم أحد السعف قلَّد ريتشاردُ ـ وسط مظاهر أُبَّهة عظيمة ـ حزام الفُرُوسية إلى ابن سيف الدِّين، الذي وصل إليه لهذا الغرض"[1].

لقد كانت حملة الملك ريتشارد ـ ضمن ما يُسمَّى بالحملة الثَّالثة ـ حالة وحيدة ومُتميِّزة لوُجُود ملك إنكليزي في الشَّرْق، ولن تتكرَّر ـ بعدها ـ أبداً، فعندما قام بابوات رُوما بالتحريض لتجنيد المسيحيين للقتال في الشَّرْق، بعد أن خذلهم الإمبراطُور الألماني فريديك، قرَّر الملك الإنكليزي هنري الثَّالث[2]عدم المُشاركة في أيِّ حملة على الشَّرْق، ودفع المالَ للبابا أنوسنت الرَّابع، ليس لإعفائه من السفر بنفسه فقط، بل لمنع الإنكليز كافَّة من الإبحار نحو الشَّرْق، وقام بفرض حراسة مُشدَّدة على شواطئ إنكلترا لمَنْع أيِّ صليبي من المُغادرة[3]. ولكن هذا التشدُّد لم يمنع الأمير ريتشارد إيرل أُوف كُورنوول، شقيق الملك هنري الثَّالث، من السفر إلى فلسطين على رأس مجموعة بسيطة من أعوانه عام 638 هـ 1240م[4]، لكنَّ هذا الدعم الإنكليزي لم يُقدِّم الكثير لواقع الفرنجة المُتردِّي في الشَّرْق، فقد كانت الخلافات والانقسامات قد استشرت بين الفرنج، وكانت جماعتا الاسبتاريَّة والدَّاويَّة تتزعَّمان هذه الخلافات، وهُما من أشدِّ المُحرِّضين عليها؛ حيثُ اعتضدت كُلُّ جهة منهم بواحد من مُلُوك المُسلمين، وسعت لكسب الأنصار من الفرنج، وخاصَّة من الأُمراء القادمين الجُدُد من وراء البحار[5]، وشقُّوا ـ بذلك ـ صفَّ الفرنجة.

فقد تحالف الدَّاويَّة ومعهم مجموعة من أُمراء الفرنج مع سُلطان دمشق الصَّالح إسماعيل، ولكن الاسبتاريَّة كان لهم مُخطَّطات أُخرى؛ حيثُ رتَّبوا مع جُزء آخر من الفرنج لعقد مُعاهدة مع الصَّالح أيُّوب سُلطان مصر، وأقنعوا اللورد ريتشارد أُوف كورنوول ليقسم على مُعاهدتهم مع

1 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31 / 146.

2 - الملك هنري الثَّالث: عاش في الفترة ما بين أعوام 1216 ـ 1272م.

3 - Acronikle of The Pops from St Peter to Pius X, Mc Killiam, p 432

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 118.

5 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35 / 206 ـ 208.

سُلطان مصر[1]، وشارك في القَسَم عدد من الذين أقسموا مع الصَّالح إسماعيل، "وحلف معهم ملك نافار وكُونت بريتاني، وعدد كبير آخر من الحُجَّاج، دُون إقامة أيِّ تقدير لليمين الذي حلفوه مع سُلطان دمشق"[2]. ورُبَّما كان هذا الانقسام من مُسبِّبات نكبة غزَّة.

ويبدو أن ريتشارد أمير كُورنوول لم يُشارك في معركة غزَّة، بل ـ قد يكون ـ أبحر عائداً قُبيل المعركة؛ إذْ إنَّه لم يردْ له ذكْر أثناء تعداد القُوَّات الفرنجيَّة المُشاركة في المعركة، ولم يُذكَر في الأسرى، ولا في القتلى[3].

وفي النتيجة؛ يتَّضح أن الدور الإنكليزي الأبرز في مُجمل الحُرُوب الفرنجيَّة في الشَّرْق كان دور الملك ريتشارد، الذي يأس من تحقيق أيِّ انتصار، بعد قيادته الاحتلال المأسوي لعكَّا، فألحَّ على الصُّلح، خاصَّة بعد تردِّي أوضاع مُلْكه في بلاده، فحصل على صُلح الرملة، الذي هُو ـ في الحقيقة ـ تقرير واقع، فسماح صلاح الدِّين بالحجِّ السِّلْمي كان مُوافَقَاً عليه، ويُطبَّقه مُسبقاً، ولم يمنعه أبداً. وبعد رحيل ريتشارد؛ أدارت إنكلترا ظهرها للقضية برُمَّتها.

2. المجر أو هنغاريا:

في عام 614 هـ 1217م، وصل إلى عكَّا ملك المجر أندراش، أو أندريه، مع قُوَّة كبيرة من جيشه[4]، وكان المُسلمون يُسمُّونه الهنكر، رُبَّما نسبة إلى هنغاريا. وشارك ملك المجر وقُوَّاته بفعَّالية مع القُوَّات الألمانية وقُوَّات فرنج الساحل في حملة الطور، ويبدو أنَّهم قد سبَّبوا إرباكاً حقيقيَّاً للملك العادل، الذي فُوجئ بضخامة جيش الفرنج[5]، فانسحب بقُوَّاته ليحمي الطريق إلى دمشق، وأمر ابنه المُعظَّم أن يتحرَّك صوب القُدْس لحمايتها[6]. لكنَّ الحملة عادت لسبب غير معروف إلى عكَّا، وعسكرت في مرجها، ومن هُناك؛ شنَّ المجريون ـ مُنفردين ـ غارات مُحدَّدة بقيادة ابن أُخت ملك

---

1 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 207.
2 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 35/ 207ـ208.
3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 746، والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3 / 394، و The Crusaders in the East, Stevenson, p 239
4 - وقيل إنَّ جيش الهنغار كان ـ وحده ـ يضمُّ خمسة عشر ألف مُقاتل.(شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 224).
5 - لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 223.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197.

المجر نحو صيدا، والشقيف، وذلك بالرّغم من نصائح صاحب صيدا السّابق والفرنج المحلّيِّين، وتحذيرهم لهم، فقد اندفع المجريون بغاراتهم في المناطق الجبلية، فهلكت أعداد كبيرة منهم لوُعُورة الطُّرُق، أو بالكمائن التي نُصبت لهم قُرب مشغرا، وتخطَّف المُسلمون مَنْ بقي منهم قَتلاً، وأَسْراً[1]، وكانوا حوالي خمسمائة فارس، لم ينجَ منهم سوى ثلاثة أشخاص، وسيقت أسراهم إلى دمشق[2].

هذه الفاجعة والنكسة العسكريَّة لملك المجر لم تمنعه من الانضمام إلى باقي الفرنجة في قرارهم الإبحار إلى مصر لُمهاجمة دمياط، وبالفعل؛ شارك أندريه ملك المجر بما تبقَّى معه من قُوَّات في حملة دمياط، وشهد احتلالها، لكنَّه مالبث أن عاد مُبحراً إلى بلاده عندما اختلف ملك القُدْس مع الكاردينال بيلاجيوس نائب البابا وقائد حملة دمياط عام 615 هـ 1218م[3].

3. النمسا:

لم تخرج النمسا عن القاعدة التي سار عليها كُلُّ مُلُوك وممالك أُورُوبة، فقد شارك دُوقها ليوبولد مع قُوَّاته في الحملة الخامسة التي انطلقت عام 614 هـ 1217م، من أُورُوبا نحو الشَّرْق، وبعد أن تنقَّل دُوق النمسا مع جيشه على غير هُدى في بلاد ساحل الشَّام اتَّفق مع بقيَّة قُوَّاد الحملة على مُهاجمة ثغر دمياط؛ لأُخْذه، واحتلال مصر بعد ذلك[4]. ويبدو أن القُوَّات المُرافقة لدُوق النمسا لم تكن كبيرة العدد، ولا تتمتَّع بميِّزات قتالية عالية، فعندما حاصرت الحملة دمياط، حُدِّد موقع واحد للقُوَّات النمساوية؛ لتتولَّى التمركز فيه مُقابل سُور دمياط، كما كانوا تحت جناح قُوَّات الدَّاوية مدعومين بفُرسانها، ومع ذلك؛ فعندما شنَّ المصريُّون هُجُومهم على القُوَّات المُحاصِرة لدمياط سحقوا قُوَّات النمسا، وأزاحوها من موقعها[5].

ويبدو أن علاقات أقدم من توقيت الحملة الخامسة كانت تربط دُوقات النمسا بالأراضي المُقدَّسة، وبالقوى السِّياسيَّة في الشَّام، فقد نسب عميد مقرِّ الكَهَنَة في لندن رالف أف دي سيتو نصَّ

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.
3 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296.
4 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296.
5 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 765.

رسالة إلى زعيم الإسماعيليّة في سوريا، الذي يدعوه باسم: شيخ الجبل، مُوجَّهة إلى ليُوبُولد دُوق النمسا؛ يُبرِّئ فيها شيخ الجبل الملك الإنكليزي ريتشارد الأوّل من تُهمة تحريض الإسماعيليّة على قَتْل الماركيز كونراد دي مُونتفرات صاحب صُور المُرشَّح لتولّي مملكة القُدْس[1]، فلو صحَّت نسبة الرسالة، فإن ذلك يعني وُجُود اهتمام كبير لحُكَّام النمسا بمُشكلات الأراضي المُقدَّسة، وعلاقات واسعة لهم مع القوى الموجُودة فيها.

4. الفلمنك:

يبدو من مُجريات الأحداث أن شُعُوب أُورُوبا أيضاً، وليس مُلُوكها فقط، قد أدلوا بدلوهم في الحَرْب ضدَّ المُسلمين لطَرْدهم من الأراضي المُقدَّسة، وكان منهم شعب الفلمنك[2]. يُحدِّثنا فلهاردين عن الحملة الفلمنكية إلى الأراضي المُقدَّسة، فيروي أنّه عام **601** هـ **1204**م، شتَّى أُسطُول فلمنكي كبير في مرسيليا، ورافقوا أُسطُول البنادقة، الذي حمل الفرنسيين إلى القسطنطينيّة لاحتلالها، لكنَّهم لم يقفوا أمامها، بل تابعوا إلى الساحل الشَّامي، مع أن عددهم يفوق رجال حملة الفرنج ضدَّ بيزنطة، ومع ذلك؛ فقد انتهت حملتهم في الساحل؛ حيثُ "أهلك مناخ سُورية بعضهم، ولم يفعل أيٌّ منهم شيئاً مُفيداً" ومنهم مَنْ ذهب إلى أنطاكية ليعمل في خدمة بُوهمند كجُنُود مُرتزقة في حربه ضدَّ ليون ملك أرمينيا، فَنَصَبَ لهم الأتراك كميناً، فلم ينجُ منهم أحد[3].

---

1 - تواريخ أُسرة بلانتغنيت، رسالة رالف دي سيتو، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 30 / 266.

2 - الفلمنك: هُم شعب الفلمند، وكانوا في العُصُور الوُسْطَى يُسيطرون على مناطق شمال غاليا، وهُم - الآن - يتوزَّعون فيما بين شمال غرب ألمانيا وبلجيكا وهُولندا.

3 - الاستيلاء على القسطنطينيّة، فلهاردين، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 10/ 107.

المبحث السّابع:

العلاقات الأيُّوبيَّة الأُورُوبيَّة خلال الحملات الكُبْرَى

(الحملة الفرنجيَّة الخامسة نموذجاً)

تُعدُّ الحملات الأُورُوبيَّة على الشَّرْق وجهاً مُهمّاً للعلاقات بين أُورُوبا من جهة والمُسلمين عُمُوماً والأيُّوبيين خُصُوصاً من جهة أُخرى، كما تُعطينا هذه الحملات فكرة عن نظرة أُورُوبا إلى الشَّرْق الإسلامي في ذلك العصر، وطريقتها في حلِّ مُشكلاتها على حسابه، أو حلِّ خلافاتها معه بالقُوَّة المُسلَّحة، و تكرار فشلها في كُلِّ مرَّة.

وتُعدُّ الحملة الخامسة نموذجية في كُلِّ نواحيها، فهي لم تكن بقيادة ملك أُورُوبي واحد كما في حملة الملك لويس، ولا مُجزَّأة بقيادات مُلُوك كما في الحملة الثَّالثة، بل ساهمت فيها مُعظم دُول أُورُوبا، وشُعُوبها، وكانت قيادتها مثالية، فهي دينيَّة من قِبَل نائب البابا مُباشرة.

في إطار السعي البابوي المحموم لتجنيد الحملات ضدَّ المُسلمين من أجل القضاء عليهم، وإحياء مملكة القُدْس، أصدر البابا إينوشنتيوس الثَّالث مرسوماً خاصَّاً، ذكر فيه ما يُعانيه آلاف المسيحيين في سُجُون المُسلمين، وأن المُسلمين قد بنوا ـ قَصْدَاً وعَمْدَاً ـ قلعة رهيبة على جبل الطور، لتُهيمن على عكَّا، وستُتيح لهم اقتحام الأرض المُتبقِّية من مملكة القُدْس بلا عائق، وقال البابا: إنَّه إضافة إلى مخاطر هذه القلعة، فإن المُسلمين قد بنوها في المكان المُقدَّس، الذي حدثت فيه قيامة يسوع المسيح، كما جاء في الإنجيل[1]. وفي عام **614** هـ**1217**م، انطلقت الحملة من أُورُوبا نحو الشَّرْق، وفيها الملك المجري أندراش، أو أندريه، ودُوق النمسا ليُوبُولد، وبعض الأُمراء الألمان، وتجمَّع معهم حوالي عشرة آلاف فارس، وعدد كبير من المُقاتلين المُشاة، فأبحروا إلى عكَّا؛ حيثُ وصلوها، وأخذوا في التجمُّع بها، ويبدو أن فرنجة الشَّرْق استقبلوا صليبيِّيْ الغَرْب ببُرُودة، إنْ لم نقل بجفاء، فنتائج الحملة بالنِّسبة للفرنج للبلدَيْن غير مضمونة عسكريَّاً، بينما من المُؤكَّد أنَّها ستضرُّ بمصالحهم التِّجاريَّة مع المُسلمين، التي مضى عليهم حوالي عشرين عاماً في مُحاولة ترسيخها، والإفادة منها بالشكل

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 294.

الأفضل[1]. وعندما علم السُّلطان العادل بتحشُّد الفرنج في عكَّا، خرج من مصر إلى الشَّام في العام نفسه 614 هـ 1217م، ليكون في مُواجهتهم، ونزل قُرب بلدة اللّدّ في فلسطين، فتحرَّكت جُيُوش الفرنج من عكَّا لقَصْده، "وسار نحوهم؛ ليسبقهم، ويحمي أطراف البلاد، فسبقوه، ونزل على بيسان"[2]، وتقدَّمت قُوَّات الفرنج نحوه وهُم مُدركون لتفوُّقهم العسكري على العادل، الذي كان معه قُوَّة عسكريَّة صغيرة، فتحرَّك أمامهم نحو دمشق، ونزل في مرج الصفر، فاحتلُّوا بيسان، وحاصروا بانياس، وانتشروا في حوران، يُغيرون على مُدُنها، حتَّى وصلت غاراتهم إلى نوى، ثُمَّ تحرَّكوا صوب صُور، وحاصروا قلعة الشقيف، ونهبوا ما حولها[3]. ويبدو أن هذه الحَرَكَة الواسعة للجيش الفرنجي كانت غايتها إبعاد العادل عن الهدف الحقيقي لهم، وتنظيف المنطقة المُجاورة للهدف، وإخراج المراكز العسكريَّة الإسلاميَّة المُجاورة من المعركة، ليُواجهوا هدفهم الرئيس مُنفرداً، وبالفعل؛ بعد هذه الجولات الناجحة للحملة تفرَّغوا لهدفهم؛ "حيثُ تجهَّز الفرنج، وأخذوا معهم آلة الحصار، وقصدوا قلعة الطور، وحصروها"[4].

وكان من المُتوقَّع أن يهبَّ سُلطان البلاد الملك العادل لنجدة قلعة الطور ذات الموقع الإستراتيجي المُهمّ، ولكنَّه لم يتحرَّك من مرج الصفر؛ حيثُ كان مُعسكراً، ويُدافع ابن الأثير من موقف السُّلطان العادل قائلاً: "وبالجُملة؛ فالذي فعله العادل هُو الحزم والمصلحة، لئلا يُخاطر باللقاء على حالة تطرُّق العَسْكَر"[5]، وربَّما كان هذا الدفاع في محلِّه قبل حصار الفرنج لقلعة الطور؛ حيثُ كان هدفهم ضرب قُوَّات العادل لإخراجه من المعركة، ولكنْ؛ ما هُو المُبرِّر الحقيقي لعدم نجدة قلعة الطور، وخاصَّة أنَّها قاومت مُقاومة بُطُولية شرسة، فكان من المُمكن للعادل أن يهجم على مُؤخِّرة الفرنج المُشتغلين بالحصار، والنيل منهم، أو مُشاغلتهم ـ على الأقلّ ـ لتخفيف وطأة هُجُومهم على القلعة. لقد تحمَّلت حامية قلعة الطور المُؤلَّفة من ألفَيْ مُقاتل[6] عبء الدفاع عن مواقعهم طيلة سبعة

---

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 295 ـ 296.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 321.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 321، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 643، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 117.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 322.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 322.
6 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296.

عشر يوماً[1]، تصدُّوا خلالها لثلاث مُحاولات اقتحام، وأفشلوها، وقد لعبت خلافات الفرنج دوراً مُهمّاً في تخلِّيهم عن حصار القلعة، والعودة عنها، فقد كان بُوهمند الرَّابع أمير أنطاكية، يُعارض الهُجُوم على القلعة، ويعدُّه جهداً ضائعاً، بينما كان يُوحنَّا دي بريين ملك مملكة القُدْس يُصرُّ على اقتحامها[2]، وبالتَّأكيد؛ كان سبب إصرار ملك القُدْس على فتح القلعة لأنَّها تُشكِّل أكبر خطر على مملكته[3]، بينما هي بعيدة عن أنطاكية، ولا تُسبِّب أيَّ تهديد مُباشر لها. وبعد فشل الهُجُوم على قلعة الطور واختلاف الآراء عاد الجيش الفرنجي إلى عكَّا، ليُعيد تنظيم قُوَّاته، ويبحث عن هدف جديد.

وعندما وصلت إلى عكَّا قُوَّات الفرنجة المُرتدَّة عن قلعة الطور، فما كان يبدو أنَّه نهاية لحملة فاشلة، أخذ يتحوَّل إلى بداية تجمُّع لحملة عسكريَّة فرنجية لم تشهد لها البلاد مثيلاً من سنوات طويلة، تألَّفت من: قُوَّات يُوحنَّا دي بريين ملك القُدْس، وقُوَّات بُوهمند الرَّابع أمير أنطاكية، وفُرسان الاسبتاريَّة بقيادة الأُستاذ الأكبر غارن دي مُونتيغيو، وفُرسان الدَّاويَة بقيادة الأُستاذ الأكبر غيوم دي شارتر، وفُرسان التيُوتُون الألمان بقيادة غرمن فُون زالست، وقُوَّات مملكة قبرص بقيادة الملك غي دي لُوزينيان، وليُوبُولد دُوق النمسا وأندريه ملك المجر مع قُوَّاتها، فتكوَّن جيش قوامه بحُدُود عشرين ألف فارس، ومئتَيْ ألف من المُشاة[4]. رُبَّما تكون هُناك بعض المُبالغة في تعداد هذا الجيش، لكنَّه - بلا شكٍّ - كان جيشاً كبيراً قادراً على القيام بحملة تُحقِّق أهدافاً كبيرة.

وفي هذه الأثناء؛ توصَّل المجمع الكَنَسي المُنعقد في قصر اللاتيران إلى ضرورة توجُّه الحملة إلى مصر، فقد برهن الخُبراء في المجمع أنَّه لا يُمكن للصليبيين العيش بسلام في سُورية والأرض المُقدَّسة ما لم تلحق مصر بمملكتهم، فقد عرض الخُبراء أمام المجمع حقيقة ما تمَّ سابقاً، فما إن اتَّحدت سُورية مع مصر أيَّام الملك عموري حتَّى أصبحت مملكة القُدْس في خطر عظيم، بينما ما كان بإمكان أحد التعرُّض للمملكة المُقدَّسة قبل تلك الوحدة[5]، وقد أصبح من الراسخ لديهم أن عليهم العمل

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 322.

2 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296.

3 - حول مملكة القُدْس في هذه المرحلة، راجع:

The Latin Kingdom of Jerusalem, Conder, p.p 415-432.

4 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 295.

5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 43/ 1159.

للاستيلاء على مصر من أجل الحُصُول على القُدْس[1]. وبالمُقابل؛ كان المُسلمون يُدركُون هدف الفرنج بدقَّة، فقد قال ابن واصل على لسان الفرنجة: "فالمصلحة أوَّلاً أن نقصد مصر، ونملكها،وحينئذ؛ فلا يبقى لنا مانع من أَخذ القُدْس وغيره من البلاد"[2]، إذنْ؛ فقد تحدَّد الهدف الجديد للحملة؛ وهُو قَصْد مصر، وفعلاً؛ في سنة **615** هـ **1218**م، أبحرت قُوَّات الفرنج من ميناء عكَّا نحو مصر، وألقوا مراسيهم أمام مدينة دمياط[3].

رَدُّ العادل في الشَّام على حملة الفرنج إلى دمياط:

كان السُّلطان العادل مايزال مُقيماً في مرج الصفر ينتظر حَرَكَة الفرنج، فلمَّا علم أنَّهم قصدوا دمياط، أرسل العساكر التي معه إلى ابنه الكامل[4]، الذي كان قد سار من القاهرة، ونزل قبالة الفرنج لدعم دمياط، والتصدِّي للحملة[5]. واستدعى السُّلطانُ العادلُ ولدَهُ الملكَ الأشرفَ في عسكره من الجزيرة، وأمره بدُخُول بلاد الفرنج، "ليشغلهم عن مُحاصرة دمياط، فدخل صافيتا، فخرَّبوا ربضها، ونهبوا رستاقها، وهدموا ما حولها من حُصُون، ودخلوا ربض حصن الأكراد، فنهبوه، وحاصروا القلعة حتَّى أشرفت على الأَخذ"[6]. وكلَّف السُّلطانُ العادلُ ابنَهُ الآخرَ الملكَ المُعظَّمَ أن يدخل إلى بلاد الساحل بعسكر دمشق ليُرابط أمام الفرنج[7]، وطلب من المُعظَّم ـ كذلك ـ أن يُشرف بنفسه على هدم قلعة الطور، التي كان المُعظَّم قد بناها، فقد أدرك السُّلطان العادل أنَّها كانت سبباً لتلك الحملة، ورغم المُعارضة الشديدة التي أبداها المُعظَّم، فقد هدم قلعة الطور في النِّهاية[8]. و الغريب أنَّه لم يكتف بذلك، بل تابع خُطَّة الهَدْم، فبعد قلعة الطور وجد الملك المُعظَّم أن القُدْس هي الهدف الكبير الذي يسعى إليه الفرنج من الحملة، فأمر بخراب أسوار القُدْس، وأبراجها[9].

---

1 - The Crusades, Campell, p. 382

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 258.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 118 و زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 643.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 209.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 118

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 643، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة 20/ 210.

7 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 209.

8 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 643، والكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 323.

9 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 305.

وقد استعظم المُسلمون هذا الحَدَثَ، وتأسفوا على خراب القُدْس بأيدي المُسلمين[1]. بينما عَدَّ الفرنج تدمير المُعظَّم للقُدْس رَدّاً منه على حصارهم لدمياط، يقول رُوجر ويندوفر بأنَّ الملك المُعظَّم: "كان رجلاً قاسياً وشرِّيراً، قد قام انتقاماً منه لحصار دمياط بتدمير مدينة القُدْس الشهيرة تدميراً كُلِّيّاً"[2]، فلم يفهم رُوجر تصرُّف المُعظَّم على أنَّه دفاع وقائي. ويُبرِّر ابن واصل تدمير المُعظَّم أسوار القُدْس بقوله: "خاف المُعظَّم أن تصل من البحر أُمم عظيمة، إذا سمعوا بتمكُّن أصحابهم من مصر، فيقصدون البيت المُقدَّس وهُو عامر، فيملكونه، ولا يُمكن ـ بعد ذلك ـ استنقاذه منهم"، ولكن ابن واصل يعود ليُناقض تبريره، فيذكر أن تخريب أسوار القُدْس أدَّى إلى هجرة السُّكَّان، وأنَّه حَدَثٌ استعظمه المُسلمون، وتأسَّفوا على خرابه[3].

بينما عَدَّ الفرنج تدمير المُعظَّم للقُدْس رَدّاً منه على حصارهم لدمياط، يقول رُوجر ويندوفر بأنَّ الملك المُعظَّم: "كان رجلاً قاسياً وشرِّيراً، قد قام انتقاماً منه لحصار دمياط بتدمير مدينة القُدْس الشهيرة تدميراً كُلِّيّاً"[4]، فلم يفهم رُوجر تصرُّف المُعظَّم على أنَّه دفاع وقائي. ويقول فيليكس فابري: "قام المُعظَّم، فحشد، وزحف على القُدْس، فدمَّرها تدميراً كُلِّيّاً، باستثناء هيكل الرَّبِّ، وبُرج داود، ثُمَّ حاصر، واستولى على بعض القلاع الصَّليبيَّة"[5]. إنه تحديد أكثر دقَّة من فيليكس فابري، يدلُّ على اطِّلاع أكبر على واقع الحال في فلسطين أثناء الحملة الخامسة. كما تحدَّث عن هُجُوم المُعظَّم في فلسطين مُقدَّم الدَّاويَة، الذي كان يُقيم مُعسكره في عتليت، فيقول في إحدى رسائله: "إن المُعظَّم حشد جيشاً كبيراً، ولمعرفته بأنَّ عكَّا وصُور لم تكونا مُزوَّدتَيْن بما يكفي من الفُرسان والجُنُود للتصدِّي له، قام ـ بشكل مُستمرٍّ ـ بإلحاق الأذى الشديد بهذَيْن المكانَيْن . . وغالباً ما جاء، ونصب مُعسكره أمام مُعسكرنا، مُلحقاً بنا كُلَّ أنواع الأذى، كما حاصر قيسارية، واستولى عليها"[6]، ويُضيف مُقدَّم الدَّاويَة في رسالته إلى أُورُوبا شارحاً ما يفعله الملك الأشرف، وما يتوقَّع منه من خطر مُستقبلي إذا

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 32.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 758.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 32.
4 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 758.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1160.
6 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 786.

تفرَّغ من قتال أعدائه في المناطق الشَّرْقيَّة، عندها "يُمكن أن يلتفت نحو أنطاكية، أو طرابلس، أو عكَّا، أو مصر، وسوف تكون في الخطر الأعظم إذا كان سيتولَّى حصار أيٍّ واحدة من قلاعنا؛ لأنّنا لن نستطيع ـ بأيِّ حال من الأحوال ـ دَفْعَهُ، أو إبعاده"، ويُتابع مُقدِّم الدَّاويّة قائلاً: "هذا؛ والحديث عن خلافات بين المُسلمين يمنحنا السُّرُور والراحة"[1]، إنَّه يشعر بخطر انضمام الأشرف للحرب ضدَّهم، ويتمنَّى أن تتحقَّق الشائعات التي تتردَّد عن وُقُوع خلافات بين المُسلمين، فلا شيء يُسعده أكثر من ذلك، كُلُّ هذا والسُّلطان العادل يُدير الهجمات المُعاكسة ضدَّ الفرنج في الشَّام، ويُوالي إرسال الإمدادات إلى ابنه الملك الكامل في مُواجهة الفرنج على دمياط.

الفرنج أمام دمياط:

في عام **615** هـ **1218**م، أرست الحملة الفرنجيَّة أمام دمياط، ونزلوا على برِّ الجيزة المُقابل للمدينة التي يحجزها نهر النيل عنهم، "فبنوا سُوراً، وجعلوا خندقاً، وجعلوا آلات ومرمات وأبراج"[2]. وكان الكامل قد خرج بقُوَّاته من القاهرة، وعسكر مُقابل الفرنج على برِّ دمياط في العادلية[3]، ولم يحصل أيُّ احتكاك بين العسكرَيْن، فالفرنج محجوزون على العدوة الأُخرى من دمياط بواسطة بُرج السلسلة، وهذا البُرج كان قد بناه العزيز بن السُّلطان صلاح الدِّين عام **592** هـ **1196**م، فقد نقض حجارة من الأهرام، ونقلها عبر النيل إلى دمياط[4]، وبنى البُرج وسط النيل؛ لتمتدَّ منه سلسلتان فوق مياه النيل لمَنْع عُبُور المراكب نحو دمياط، وتُغلق السلسلتان فرعَ دمياط بأكمله، ولذلك سُمِّي هذا البُرج: قُفْل البلاد[5].

ولكن الفرنج لم يتوقَّفوا أمام هذا الحاجز، فقد جهَّزوا السُّفُن بشكل أبراج مُدرَّعة، وقاموا بالهُجُوم على البُرج بشكل مُكثَّف، وحامية البُرج تُقاوم هجمة إثر أُخرى. في هذه الأثناء؛ لم يقف الكامل موقف المُتفرِّج، فقد نظَّم حملتَيْن، قام بهما الجيش المصري في البرِّ والبحر ضدَّ مُعسكر الفرنج،

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 786 .
2 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 323.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 260.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 5.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 210.

لكنَّهما رُدَّتا[1]، ويبدو أنهما قوَّتا استطلاعاً للاحتكاك بالعدوِّ، وتقدير قواه، وفاعليَّته. وفي الوقت نفسه؛ فقد وجد الفرنج أن الخندق الذي أقاموه حول مُعسكرهم قد أنقذهم من حيثُ لا يدرون عندما فاض نهر النيل، وإلاَّ لجرف النهرُ المُعسكرَ بكامله[2].

وبعد أربعة أشهر كاملة من الهجمات الفرنجيَّة المُركَّزة على بُرج السلسلة تمكَّن الفرنج من احتلال البُرج، وقطعوا السلاسل[3]، وانفتح طريق دمياط أمامهم، فأسرع الكاملُ، ونصب عوضاً عن السلاسل جسراً عظيماً من السُّفُن، فقاتل الفرنج عليه، حتَّى قطعوه، فأغرق الكاملُ عدَّة مراكب في النيل قبالة دمياط، وزرَّع عدَّة أوتاد فيه، فأعاقت الملاحة، وحصَّن ضفَّة النهر التي يُعسكر عليها بخنادق وسواتر تُرابية وخشبية، تحميها المنجنيقات[4]، فقام الفرنج بفتح مجرى قديم للنيل، فحفروه، وعمَّقوه، وأجروا الماء فيه، فوصلت مراكبهم عبره إلى مُقابلة مُعسكر الكامل عند موضع يُسمَّى بورة، فهاجموه غير مرَّة، ولكنْ؛ بلا طائل[5]، وكان عدد كبير من الحُجَّاج قد وصل مَدَداً للحملة الفرنجيَّة من مُختلف أنحاء أُورُوبا[6].

وصل الخبر إلى السُّلطان العادل بسُقُوط بُرج السلسلة، فثقل الأمر عليه، واشتدَّ كَرْبُهُ، ولم يحتمل قلبه انتكاسة تُطيح بدولة أمضى عُمره، وبَذَلَ فوق ما يستطيع إنسان لبنائها، فمات بنوبة قلبية عام **615** هـ **1218**م[7]. وبموته؛ ساد الهُدُوء على جبهة الشَّام[8]، فقد تراجعت الجُيُوش الأيُّوبيَّة التي كانت تُهاجم في عُمق أراضي الفرنجة، وانسحبت نحو قواعدها، فكُلُّ أمير، أو ملك، يُريد أن يكون ترتيب مرحلة ما بعد السُّلطان العادل تُناسبه أكثر، وتحميه أكثر. إن الضعف الذي اعترى الهجمات الأيُّوبيَّة في الشَّام يُعَدُّ جانباً قليل الأهمِّيَّة تجاه ما أصاب صُمُود الجيش الأيُّوبي في مصر. يقول ابن كثير حول أثر موت السُّلطان العادل: "فضعفت نُفُوس الناس؛ لأنَّه السُّلطان حقيقة، وأولاده،

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 759.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 759.
3 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 324.
4 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 763.
5 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 324، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 15.
6 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 759.
7 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 324.
8 - لُبنان من السُّقُوط بيد الصليبين حتَّى التحرير، د. عُمر تدمُري، 225.

وإنْ كانوا مُلُوكاً، إلاَّ أنَّهم بحُكْمه، والأمر إليه، وهُو ملَّكهم البلاد"[1]. ويبـدو أن أكـبر المُتـضرِّرين من موت السُّلطان هُو ابنه الكامل، يقول ابن واصل: "عظم على الملك الكامل موت والده جـدَّاً، في هذا الوقت الصعب، وخاف أن يتخلَّى عنه إخوته، ولا يطيق دفع الفرنج عن مصر"[2]. ولكن الـذي حدث كان أسوأ ممَّا توقَّع الكامل، فقد وصـله أن أحمـد بـن عـلي المشطوب، وهُـو مـن أكـبر أُمـراء العَسْكَر، يُدبِّر للقبض عليه، وتنصيب أخيه الفائز مكانـه[3]، فأُسـقط بيـد الكامـل، ونـسي الفـرنجَ، ونسي دمياطَ، ولم يتذكَّر سوى نفسه، ففرَّ برُوحه من "المُعسكر لـيلاً جريـدة، ونـزل اشـموم طنـاح، فأصبح العَسْكَر، وقد فقدوا سُلطانهم، فركب كُلاً مـنهم هـواه، ولم يقـف الأخ عـلى أخيـه، وتركـوا أثقالهم وأموالهم وأسلحتهم إلاَّ ما خفَّ حمله، ولحقوا بالكامل، فعبر الفرنج إلى برِّ دميـاط، وملكـوه، وغنموا كُلَّ ما كان في مُعسكر المُسلمين، وأحاطوا بدمياط برَّاً وبحراً، وضيَّقوا عليها"[4].

لقد كانت ردَّة فعل الكامل حَرَكَة عفوية، رُبَّما لم يُسعفه خـاطره بغيرهـا، فهـي إنْ دلَّـت عـلى شيء، فإنَّها تدلُّ على قُوَّة ابن المشطوب في الجيش، ومدى نُفُوذه فيه، حتَّى إن ملك البلاد لم يتمكَّن مـن اتِّخاذ أيِّ تدبير ضدَّه، وما ملك من أمر نفسه إلاَّ الهرب من المُعسكر؛ حيثُ مركز قُوَّة خصمه. ولكنَّها تدلُّ ـ بشكل أكبر ـ على أن مصلحة البلاد هي آخر ما كان يُفكِّـر فيـه القـادة، فـابن المـشطوب رتَّـب مُؤامرته مُتغاضياً عن الخطر المُحدق بالبلاد، ورُبَّما كان مُستعدَّاً ليُخلي بين دميـاط والفـرنج إذا نجـح، وكذلك الملك الكامل، فقد ترك الجيش، الذي هُو أمل البلاد الوحيد، بلا قائد، ونجا برُوحه مرعوبـاً إلى درجة أنَّه فكَّر بمُغادرة أرض مصر[5]، وكاد أن يُفارقها فعلاً خوفاً مـن عـسكره، وعنـدها "كـان الفرنج ملكوا الجميع بلا تعب، ولا مشقَّة"[6]، لولا أن وصل المُعظَّم عيسى من الشَّام، فثبَّـت الملـك الكامل، وأجبر ابن المشطوب على مُغادرة مصر.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 324.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 15.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 17.
4 - مُفـرِّج الكُـرُوب، ابـن واصـل، 4/ 17 ـ 18، راجـعْ وصـف طبيعـة دميـاط، ومواقـع تمركـز الفرنجـة في: المواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 403.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
6 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 325.

ولكنْ؛ كيف تصوَّر الفرنج عملية إخلاء المُسلمين لمُعسكرهم بشكل مُفاجئ؟ لم يكن الفرنج يعرفون أيَّ شيء ممَّا يجري داخل مُعسكر المُسلمين، لذلك فسَّروا الأمر على أنَّه هُرُوب للمُسلمين نتيجة لخوفهم من الفرنجة. فقد كان المُسلمون يُشكِّلون دفاعات قويَّة أمام عُبُور الفرنج نحو عدوة دمياط، وقد حاولوا اختراق هذه الدفاعات عدَّة مرَّات، لكنَّهم فشلوا، ويُعبِّر عن رأي الفرنجة الراهب رُوجر أُوف ويندوفر قائلاً: اصطفَّ جيش الفرنجة مُحاولاً العُبُور دُون فائدة، "لكنْ؛ في الليلة نفسها، سُلطان مصر وجيشه أصابهم الرُّعب، حتَّى إنَّهم تركوا خيامهم دُون علم المُسلمين المُواجهين للفرنج، ورأوا أن نجاتهم وسلامتهم هي بفرارهم"[1]، ويُتابع: بعد أن حاصر الفرنجة مدينة دمياط "من الجانب المُواجه للبحر، ولذا؛ فإن السُّلطان الذي كان مُعسكراً في الجانب الآخر من المدينة هرب مُبتعداً مع جيشه، وعبر جيشُنَا النهرَ، وحاصر المدينة"[2]. وفي الحقيقة؛ ليس الفرنج فقط، بل - رُبَّما - عدد كبير من المُسلمين في مُعسكر الكامل لم يعرفوا ما حصل، لذلك سيُفسِّر كُلٌّ منهم الحادثة على هواه.

لقد أَنْهَتْ مُؤامرةُ ابن المشطوب أمرَ دمياط، وجعلت مسألة استيلاء الفرنج عليها مسألة وقت، فلم يكن الفرنج ليحلموا بما حصل، وحتَّى إنَّهم لم يُصدِّقوا أوَّل الأمر أن يترك المُسلمون مُعسكرهم بما فيه غنيمة باردة، ويتخلَّوا عن مواقعهم ومعدَّاتهم ومُؤنهم وأسلحتهم ليتزوَّد بها الفرنج. وممَّا زاد الأمر سُوءاً ما قام به البدو بعد رحيل العَسْكَر عن العادلية، فقد نهبوا ما حول دمياط، "وكانوا أشدَّ من الفرنج"[3]. ولكن الطامة الكُبْرَى كمنت في أن الجيش الأيُّوبي كان يُقاتل عن دمياط وهُو مُعسكر خارجها، فلمَّا هربت العَسْكَر، ولحقوا بالملك الكامل إلى اشموم طناح، لم يدخل منهم أحد إلى دمياط، وتُركَت المدينة لتتولَّى الدفاع عن نفسها بإمكاناتها الذاتية[4] بعد أن حاصرها الفرنج من البرِّ والبحر، فقد عسكروا على أسوارها بقواهم البرِّيَّة، "وحفر الفرنج على مُعسكرهم المُحيط بدمياط خندقاً، وبنوا عليه سُوراً كعادتهم"[5].

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 763.
2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1160.
3 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 326.
4 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 326.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 18.

بعد أن استقرَّ أمر الكامل في مُعسكره الجديد جاءته النجدات، وتخلَّص من ابن المشطوب، فالتفت إلى دمياط، وقام بهجمة مُعاكسة كبيرة، فاستولى على مكان عُبُور الفرنج إلى عدوة دمياط، وحاصرت عساكرُهُ الفرنجَ المُحاصرين لدمياط[1]، يقول ابن واصل "وأصبحت حال دمياط كما كانت حال عكَّا أيَّام صلاح الدِّين"[2]. ويبدو أن الكامل لم يقتنع بمُجرَّد حصار المُحاصِرين، بل قام جيشه بهجمات شرسة على الفرنج، يقول الراهب رُوجر أُوف ويندوفر: "ألقى المُسلمون أنفسهم كُتلة هائلة على الخندق من جميع الجهات، واحتلُّوا جسر الدَّاويَة ومواقع دُوق النمسا، وقاتلوا الفرنج بشجاعة نادرة، وأحرقوا الجسر"[3]، ثُمَّ قام جُند الشَّام القادمون في نجدة مع الملك المُعظَّم بهُجُوم مُباغت في خمسمائة راجل، يقودهم مُقدَّم اسمه الناهض بن الجرخي[4]، فهاجموا الخنادق التي حفرها الفرنج حولهم أثناء حصارهم لدمياط، وخاضوا معركة دامية، قُتلوا فيها جميعاً[5]، وقام الفرنج بصَفِّ رُؤُوسهم على الخنادق[6]، إنَّها هجمة يائسة، ولابُدَّ أن المُهاجين قد وطَّنوا أنفسهم على الشهادة؛ إذ إنَّه من المعروف سلفاً أن هكذا هُجُوم على مُعسكر الفرنج الشديد التحصين لا يُمكن أن ينجو منه أحد. ولم تتوقَّف هجمات القُوَّات الإسلاميَّة على مُعسكر الفرنج حول دمياط، يقول الراهب رُوجر أُوف ويندوفر: "وفي إحدى الهجمات عبروا الخندق، وسحقوا الدَّاويَة، وشقُّوا ـ بالقُوَّة ـ صُفُوفهم، وأرغموا الرَّجَّالة الفرنج على الهرب، وبات الجيش كُلُّه في خطر، وتضاعف رُعب الفرنج، لكنَّ هُجُوماً مُضاداً قام به الدَّاويَة وبقيَّة الفُرسان الرُّهبان، فتراجع المُسلمون لمسافة قصيرة، ووقف الفرنج تحت السلاح. وفي هذا الوقت؛ جرى إحراق جميع مجانيق الفرنج وسلالمهم التي أقاموها في مُواجهة المدينة"[7]، إنَّه هُجُوم واسع سَحَقَ مُقاومة الفرنج، وكان له هدف مُحدَّد، نُجح فيه، وهُو تدمير معدَّات الحصار.

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 765.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 19
3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 765.
4 - كما يبدو ومن اسمه، فهُو من أُسرة تمتهن الجُندية.
5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 304.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 224.
7 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 766.

وكما هُو مفروض، لم تقتصر الهجمات على جانب واحد، فقد قام الفرنجة ـ أيضاً ـ بهُجُوم كبير على مُعسكر المُسلمين، لكنَّه كاد أن يُودي بهم إلى كارثة حقيقيَّة، ويتحدَّث أبو شامة عن هذا الهُجُوم باختصار شديد على عادة مُؤرِّخي الإسلام، فيقول: "نزل الفرنج على شارمساح، فأخلى لهم المُسلمون الخيامَ، فطمعوا، ثُمَّ رجع عليهم الكامل، فكسرهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فعادوا إلى دمياط"[1]، بينما نجد تفاصيل مُهمَّة عن هذه المعركة لدى الراهب رُوجر أُوف ويندوفر؛ حيثُ يقول: "هاجم الفرنج كُتلة واحدة مُعسكر المصريين، فتظاهروا بالفرار، ثُمَّ ارتدُّوا بعد توقُّف الجيش، وهاجموا الجناح الأيمن، فأظهر فُرسان قبرص الخوفَ، وهرب الرّجَّالة الرُّومان، وبعدهم الفُرسان من مُختلف البُلدان وفُرسان الاسبتاريَّة"، ثُمَّ يتحدَّث عن مُطاردة رهيبة لفُرسان الفرنجة، أثقلتهم فيها دُرُوعهم، التي كوتهم تحت أشعَّة شمس مصر، فَمَنْ لم تَطَلْهُ السُّيُوفُ قَتَلَهُ العطشُ، ومنهم مَنْ ركض حتَّى انقطعت أنفاسه، ويقول إنَّه لولا صُمُود بعض القوى التي شكَّلت سُوراً للفارِّين لدُمِّرَت الحملة[2]، والغريب هُنا أن جيش المُسلمين لم يستثمر هذا الانتصار بهجمة مُعاكسة على مُعسكر الفرنج، ويُطوِّر المطاردة إلى معركة نهائية، رُبَّما كان أحد الأسباب هُو عدم وُجُود خُطَّة مُسبقة بذلك، أو عدم امتلاك المُبادرة لخُطوة كبيرة بهذا الشكل.

مع هذه الانتكاسة الكبيرة، فقد تابع الفرنجُ الحصارَ، ومُضايقة دمياط بشكل فعَّال، وانقضُّوا عليها من البرِّ والبحر، يقول ابن الأثير: "واشتدَّ الأمر على أهل دمياط، وصبروا صبراً لم يُسمَع بمثله"[3]. ويبدو أنَّه بعد تبادل الهجمات بين الفرنج المُحاصِرين لدمياط، والمُسلمين المُحاصِرين لهم حول دمياط، قد انعقدت هُدنة مُؤقَّتة، لم يجدها المُسلمون من صالحهم، فالوقت يمرُّ على دمياط، والمجاعة تفتك بها، لذلك قامت الجُيُوش الإسلاميَّة بهُجُوم كبير على الفرنج من البرِّ والبحر، تدعمهم المجانيق، وللتغلُّب على خندق الفرنج من أجل العُبُور إليهم، اتَّبعوا أُسلُوب طَمِّ الخندق بواسطة حزم كبيرة من الأخشاب حملوها معهم، ولكن وُصُول غلايين فرنجية في الوقت الحاسم أنقذ الفرنجة، وأفشل الهُجُوم[4]. واستمرَّ حصار الفرنج لدمياط، دُون أن يتمكَّن الكامل وعساكره

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 217.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 768 ـ 769.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326.
4 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 770.

وعساكر النجدات التي قدمت إليه من تقديم العون اللازم إليها، "فنفدت الأقوات منها، واشتدَّ بأهلها الجُوعُ، حتَّى مات أكثرهم، وعجزوا عن المُدافعة"[1]، وأصبح سُقُوط المدينة أمراً مفروغاً منه، واختلفت الروايات بكيفية سُقُوطها، فقد قيل إنَّها سُلِّمَتْ بالأمان، بعد أن عجز أهلها عن حفْظها[2]، لكنْ؛ بعد الدفاع البُطُولي لأهل دمياط، نجد أن الأقرب لمنطق الأحداث رواية أُخرى تقول: إنَّه بعد أن ضعف أهل دمياط، وصلت نجدات كبيرة من البحر للفرنج، فهجموا على دمياط بغتة، واستولوا عليها[3]، في عام **616** هـ **1219**م، بعد حصار استمرَّ **16** شهراً، و**22** يوماً[4]، يقول الراهب فيليكس فابري: "عندما دخل الصَّليبيُّون دمياط، واجهوا رائحة نتن لا تُحتمَل، صدرت عن جُثث الأموات، فهُناك رجال ونساء وأطفال قد جاعوا حتَّى الموت"[5].

لَمَّا شاهد الكامل من مُعسكره أعلامَ الفرنجَ ترتفع على أسوار دمياط بكى، وكان إلى جانبه أخوه المُعظَّم يبكي هُو الآخر، فالتفت إليه الكامل، وقال: "لقد فات ما ذبح، وما في مقامكَ هُنا فائدة، والمصلحة أن تنزل إلى الشَّام، تشغل خواطر الإفرنج، وتستجلب العَسْكَر"[6].

وتحرَّكَ الكامل بقُوَّاته مُبتعداً عن دمياط، فنزل على رأس بحر أشموم[7] اطناح، عندما يتشعَّب عن فرع دمياط[8]، وضرب مُعسكره في بُقعة، ستقوم عليها مدينة مكان المُعسكر وستُعرَف بالمنصُورة، نتيجة لنصر كبير قادم[9].

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 32.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 224.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 33.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 319.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1163.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 229، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 304.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 319.
8 - ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، 5/ 71.
9 - يقول أحمد الحنبلي: إن الكامل عندما بنى المدينة أسماها المنصُورة. (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 305).

الفرنج في دمياط:

"أقام الفرنج في دمياط، وشرعوا في عمارتها، وتحصينها، حتَّى إنَّها بقيت لا تُرام"[1]. وأمضوا عام 618 هـ 1221م، بكامله يُحصِّنون دمياط، ويزيدون في مَنَعَتها[2]، ويبثُّون السرايا حولها، ينهبون، ويقتلون[3]. ولمَّا بلغ الفرنج في أُورُبة أن إخوانهم ملكوا دمياط، "ساروا إلى مصر مُجدِّين، واتَّخذوها دار هجرتهم، وقدم منهم إلى دمياط أُمم لا تُحصَى"[4]، ولمَّا تكاملت جُمُوع الفرنج في دمياط، خرجوا منها في حَدِّهم وحديدهم، "ونزلوا قبالة المُسلمين في طرف جزيرة دمياط، التي يُحيط بها فرعا النيل، فرع دمياط، وفرع اشمون، الذي يفصل بينهم وبين المُسلمين[5]. وكان توقُّف الفرنج أمام مُعسكر المُسلمين فيه شيء كثير من التحدِّي والتصميم على الاقتحام، نظراً للحصانة الهائلة التي وجدوا عليها المُعسكر، فقد أقام المُسلمون سُوراً حول مُعسكرهم، وعليه الستائر، وآلات الحَرْب، وغربي السُّور البحر، وللمُسلمين عسكر نازلين في غربيه أمام الفرنج"[6]. إنَّه دفاع مثالي، مُعسكر مُحصَّن أمامه ساتر، وعائق مائي، تُدافع عنه قُوَّات مُتحرِّكة، إنَّها شجاعة كبيرة من الفرنج بتحدِّي هذا الموقع، لكنَّها ـ بالوقت نفسه ـ غفلة شديدة أن يضعوا أنفسهم بأسوأ المواضع، فهُم على شبه جزيرة، ليس لها إلاَّ منفذ واحد يربطها بالبرِّ نحو قاعدتهم الأساسية في دمياط، والسبب ـ على ما يبدو ـ أنَّهم كانوا مُفعمين بالاندفاع والتوثُّب، مع قدر كبير من عدم المهارة الحَرْبيَّة، وجهل شبه تامّ بطبيعة أرض مصر، ونيلها.

مصر في مُواجهة الهُجُوم الفرنجي:

إن هذا الاندفاع العسكري للفرنج صوب قلب مصر كان له نتائج نفسية كادت أن تكون مُدمِّرة على أهل مصر، فقد بلغ بهم الخوف أنَّهم همُّوا بالجلاء عن بلادهم، "ولو مكَّنهم الكامل من

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326.
2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 108.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 93، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 327، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 321.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 94.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 94.

ذلك لتركوا البلاد خاوية على عُرُوشها، وإنما مُنعوا منه، فثبتوا"[1]. ومِمَّا تجدر الإشارة إليه أنَّه في الوقت الذي كان فيه الفرنج يقتحمون بلاد مصر كان التَّتَار يدقُّون أبواب العراق، وقلَّما اجتمع على أُمَّة من الأُمم خطرَيْن عظيمَيْن بآن معاً.

وكان بمُواجهة الفرنج في مصر الملك الكامل صاحب البلاد، يدعمه أخوه الملك المُعظَّم صاحب دمشق، الذي اعتبر هُجُوم الفرنج على مصر هُو همَّه الأوَّل، وعمل ـ فعلاً ـ كُلَّ ما بطاقته، دُون هوادة، حتَّى أمكن النصر. وإذا كان الكامل يُدافع عن مُلكه، فإنَّنا لا نستطيع إلاَّ أن نُقدِّر للمُعظَّم استماتته في الدفاع عن مصر، ورُبَّما نكون عاجزين عن تفسير موقفه بدوافع وطنية واضحة مُباشرة، لكنَّنا نجد لها تفسيراً وطنياً دينياً، فهُو يُدافع عن أرض الإسلام، فقد كان المُعظَّم يقول في مرضه الذي تُوفِّي فيه: "لي عند الله في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به"[2]. كذلك كان الأشرف، في نجدته لمصر، يعتقد أنَّه يُؤدِّي فريضة الجهاد، فعندما نصحه بعض خواصِّه بالعودة إلى بلاده خوفاً من فتنة تحدث فيها، قال: "قد خرجتُ بنيَّة الجهاد، ولابُدَّ من إتمام هذا العزم"[3].

كانت الحملة الفرنجيَّة التي خرجت من دمياط برّاً وبحراً من القُوَّة؛ بحيثُ "تيقَّنوا هُم وكُلُّ الناس أنَّهم يملكون مصر"[4]، ويبدو أن الملك المُعظَّم وأخوه الكامل قد أدركا حجم الخطر، فأرادا توسيع مسؤولية المُشاركة في دفعه، فلجأا إلى عامَّة الرعية؛ حيثُ أرسل الملك المُعظَّم إلى نائبه في دمشق سبط ابن الجوزي لاستنفار الناس في الشَّام، يقول الملك المُعظَّم في رسالته: "قد علم الأخ العزيز بأنَّه جرى على دمياط ما جرى، وأُريد أن تُحرِّض الناسَ على الجهاد، وتُعرِّفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط من الكَفَرَة أهل العناد . . وأُريد أن تُخرج الدماشقة ليَذبُّوا عن أملاكهم، الأصاغر منهم، والأكابر، ويكون لقاؤنا وهُم صُحبتكَ نابلس"[5]. إنَّه النفير العامُّ بلا شكٍّ، ولكنْ؛

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 327.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 472.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 93.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 328.

5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 239 ووثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، حمادة، 249 ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 6/ 239.

يبدو أنَّه كان للدماشقة رأي آخر، فقد "تقاعد الناس عن المسير"[1]، فهل كان هذا التقاعد لعدم إحساسهم بالخطر المُباشر؟ أم هُو عدم انسجام بين الشعب وحُكَّامه، فوجدوها فُرصة ـ وإنْ كانت غير مُناسبة أبداً ـ للخُرُوج على السُّلطة؟ رُبَّما كان الأصحُّ أن الاستعانة بجماهير الشعب تحتاج إلى علاقة مُتميِّزة بين الحُكَّام والناس، ليتمكَّنوا من جَرِّهم للدفاع عن بلد بعيد، حتَّى وإنْ كان فيه أُخوة لهم، بينما يختلف الأمر في حال الخطر المُباشر، فكُلُّ مرَّة كانت تُحاصَر فيها دمشق من قبَل ملك أيُّوبي يُريد ضمَّها إليه، وبغَضِّ النظر عن المواقف السِّياسيَّة الأيُّوبيَّة، كان العامَّة في دمشق يُدافعون عن مدينتهم، ويُشاركون في التَّصدِّي للحصار، ويتحمَّلون الأذى الأكبر من الحصار بالجُوع ونقص الموادّ وهدم البُيُوت. ولذلك كان الأمر في مصر مُختلفاً، فقد أرسل الملك الكامل لاستنفار جميع الناس، وحشدهم كرديف لجُنده في المنصُورة، فجمع الأُمراءُ كُلَّ قادر على القتال، "ما بين القاهرة إلى آخر الحوف الشرقي، فاجتمع من المُسلمين عالم لا يقع عليه حصر"[2]، "وأمر الكاملُ أهلَ مصر والقاهرة بالخُرُوج إلى المنصُورة"[3]، ممَّا يُؤكِّد أنَّه قام بتعبئة شاملة لقوى مصر بكاملها، ولكن الكامل كان يأمل بدعم أقوى، فالحُشُود الشَّعْبيَّة سلاحٌ ذُو حَدَّيْن؛ لعدم تسليحها، ولسُوء تنظيمها، لذلك فكَّر بتعبئة الجُيُوش الأيُّوبيَّة الشاملة.

التعبئة الأيُّوبيَّة في دمياط:

"بعث الكامل إلى الآفاق سبعين رسولاً، يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج، ويُخوِّفهم من تغلُّب الفرنج على مصر، فإنَّهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها"[4]، إن عدد الرُّسُل المُتوجِّه لطلب النجدة يُوضِّح لنا الموقف الحرج، الذي شعر الكامل أنَّه يقفه في مُواجهة الحملة الفرنجيَّة، ولكنَّه ـ مع ذلك ـ لم يفقد الأمل، وأصرَّ على طلب النجدات لخوض المعركة الفاصلة.

وكان أهمُّ رُسُل الكامل وأكثرهم انعقاداً للآمال عليه هُو رسوله إلى الخليفة العبَّاسي في بغداد، ولمَّا وصلت نجدة الخليفة، مع أنَّها لا تُناسب آمال الملك الكامل، كانت مُناسبة لعزيمة خليفة

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 305.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 321.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 303.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.

العصر، فكُلُّ ما وصل منه هُو كُتُبٌ إلى المُلُوك تطلب النجدات للكامل، وكأن هؤلاء المُلُوك ينتظرون إشارة الخليفة، أو أن الكامل لا يستطيع أن يُخاطبهم مُباشرة، ولكنْ؛ هل كان بيد الخليفة أن يفعل غير ذلك؟ نعتقد أنَّه كان قادراً على المُساعدة بشكل أفضل، ففي ظُرُوف الخطر المُباشر التي تعرَّض لها الخليفة كان يُخرج الأموال المكنوزة، ويُجنِّد الجُيُوش.

أمَّا مُلُوك بني أيُّوب؛ فكان أقواهم الملك الأشرف صاحب الجزيرة، وكانت استغاثات الكامل تصله مُباشرة، وأحياناً؛ عبر أخيه الملك المُعظَّم، مُنْذُ بدايات الحملة على دمياط عام **616** هـ **1219**م، لكنَّه كان في شُغل شاغل لتوطيد مُلكه في شمال الشَّام، خاصَّة بعد موت الملك العزيز صاحب حلب[1]. ولمَّا استقامت الأُمُور للملك الأشرف عام **618** هـ **1221**م، سار بعسكره إلى مصر لنجدة الملك الكامل، فوصل والفرنج قد خرجوا من دمياط نحو داخل مصر[2]. كان الأشرف أوَّل القادمين، وقد اصطحب معه الملك النَّاصر قليج أرسلان صاحب حماة، يقود نجدة حماة[3]، وكان أخوه الملك المُظفَّر تقي الدِّين مُحمَّد قد سبقه عام **616** هـ **1219**م، يقود نجدة من حماة في عهد والدهما الملك المنصُور[4]، كذلك وصل الملك المُجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك مع قُوَّاتها، ونجدة من عسكر حلب، وكان آخرهم وُصُولاً الملك المُعظَّم صاحب دمشق، الذي رغب أن يتحرَّك الجميع أمامه نحو دمياط، بعد أن جهد باستنفارهم[5].

الملك الكامل يطلب الصُّلح:

يعد خُرُوج الجيش الفرنجي من دمياط، تقدَّم جنوباً برَّاً وبحراً، حتَّى "اكتشفوا وُجُود السُّلطان وجيشه، فعسكروا مُقابله، وأقاموا الجُسُور للعُبُور"[6]، في هذه الأثناء؛ كانت النجدات قد تكاملت في مُعسكر السُّلطان الكامل، فتقدَّمت عساكره "إلى بحر المحلَّة، وازدادوا قُرباً من الفرنج،

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 121، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 327.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 328، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 321.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 129.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 319.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 129، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 321، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 92-93.
6 - رسالة مُقدَّم الدَّاويّة في: وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 789.

وقاتلوهم، وتقدَّمت شواني المُسلمين، وقاتلت شواني الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع بمَنْ فيها، ففرح المُسلمون، وتفاءلوا، وقويت نُفُوسُهُم، واستطالوا على عدوِّهم"[1]. ومن غرائب الأُمُور أن السُّلطان الكامل عندما تكاملت لديه النجدات، وقويت نفسه بأُخوته وآل بيته واجتماع الحُشُود حواليه، يُرسل إلى الفرنج طالباً الصُّلح[2]، على شُرُوط مُجحفة بحقِّ المُسلمين، ولا يستحقُّها الفرنجة مع أَخْذهم لدمياط، فقد لاحت بوادر التمكُّن من التّصدِّي لتقدُّم الفرنج، إنْ لم نقلْ بوادر النصر، التي يُعبِّر عنها ابن آيبك بقوله: "واشتمُّوا روائحَ النصر"[3]، فالصدامات العسكريَّة ـ بمُعظمها ـ كانت لمصلحة المُسلمين، ومع ذلك؛ عرض الكامل أن يُسلِّم الفرنجُ القُدْسَ وعسقلانَ وطبريةَ وصيدا وجبلةَ واللاذقيةَ؛ أيْ جميع الفُتُوح الصَّلاحيَّة، ما عدا الكَرَك والشوبك، مُقابل التَّخلِّي عن دمياط، ورحيلهم عن مصر[4].

ويُضيف رُوجر ويندوفر إلى عرض الكامل: تسليم الصليب المُقدَّس، وإطلاق جميع الأسرى الفرنج في مصر والشَّام[5]، علماً أن أيّاً من المُؤرِّخين المُسلمين لم يذكر شيئاً عن هذَيْن الشرطَيْن.

وكان الأغرب من عرض الكامل هُو رفض الفرنج للعرض، ويبدو أنَّهم كانوا يرفضون فكرة الصُّلح أصلاً، فقد كانت قُوَّتهم في أوجها، وأصداء احتلال دمياط وانسحاب المُسلمين أمامهم كلها عوامل تدفعهم للتعنت أملاً بنصر كبير يُمكنهم من مصر كلها. فطلبوا استعادة الكَرَك والشوبك، وهي في عُمق الشَّام، وتقطع الطريق ما بين مصر والشَّام، وتقترب بالفرنج من الحجاز؛ حيثُ مُقدَّسات المُسلمين، ورَدَّ الفرنج على رُسُل الكامل: "لا نُسلِّم دمياط حتَّى تُسلِّموا ذلك كُلَّه، فرضي الكامل"[6]، فامتنع الفرنج، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار لعمارة القُدْس[7]. ويحار الباحث في أمر الكامل، سُلطان المُسلمين، والحاكم على أكبر قُوَّة لهم تجتمع عنده مُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين، لماذا كان

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 328.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 129.
3 - كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 209.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 94، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 129.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 43/ 1162.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 321.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 329، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 94، ـ ويقول المقريزي إنَّها خمسمائة ألف (السُّلُوك، المقريزي 1/ 321).

لديه هذا الاندفاع إلى صُلح غير مُشرِّف؟ هل هُو خوف مُتأصِّل في نفسه؟ أم أنَّه كـان يلمـس خطـراً حقيقيّاً من أخْذ الفرنج لمصر؟ رُبَّما كان خوفه في الحقيقة من عساكر ومُلُوك المُسلمين المُجتمعين عنده أكبر من خوفه من الفرنج، ويُؤكِّد ذلك ابن أيبك بقوله: "كان الكامل مُجتهداً على الصُّلح خوفاً مـن أُخوته المُلُوك"[1]، وهذا هُو المُبرِّر الوحيد الذي نستطيع أن نستنتجه من تهالكـه عـلى الـصُّلح. لكـنَّ الفرنج فوَّتوا عليه الفُرصة بتعنُّتهم، ورفضهم لعرضه، فكانوا كُلَّما وافق لهم على طلب طلبـوا غـيره، وفي الحقيقة؛ جاء رفض الفرنج لعرض الكامل من القائد الأعلى للحملة بيلاجيوس النائب البابوي، وقـد أيَّـده في هـذا الـرفض بطريـرك القُـدْس والأسـاقفة، وطوائـف الرُّهبـان العـسكريَّة الدَّاويَّـة والاسبتاريَّة، إضافة إلى البنادقة والجنوية وجميع الإيطاليين. مُقابل هؤلاء كان يُوحنَّـا دي بـرين ملـك القُدْس وجميع نُبلاء المملكة، مع دُوق النمسا والقادة الألمان، قد وافقوا على عرض الكامل، وقبلوا به، ولكنْ؛ لم يتمكَّنوا من فرض رأيهـم[2]. وفي الحقيقـة؛ كـان أتبـاع كُـلِّ رأي ينطلقـون مـن مـصالحهم الخاصَّة، فبلاجيوس يُريد أن يضمَّ مصر بعد دمياط إلى أملاك البابا، ومـن الطبيعـي أن يُؤيِّـده رجـال الكَهَنُوت وطوائف الرُّهبـان، أمَّـا الإيطـاليون؛ فكـانوا يُريـدون مـصر لإقامـة مراكـز تجاريـة فيهـا، وبالمُقابل؛ فيُوحنَّا دي برين يُريد استرجاع مملكته المفقودة، ودميـاط لا تعنـي لـه شيء، لـذلك يقـول فيلكس فابري: "فما كان بإمكان شَرَه رجال الكَنِيسَة، والنَّهم الذي لا حُدُود له للتُّجَّار الـذين تولَّـوا تدبير الحملة، جلب الأُمُور إلى نهاية سعيدة"[3].

معركة المنصُورة الأُولى[4]:

لكُلِّ ذلك؛ فشلت مُحاولات الكامل بالصُّلح، واستمرَّ القتال بوتيرة مُتصاعدة، ويبـدو أن نيَّـة القتال كانت مُتوفِّرة لدى كافَّة أُمراء وجُند المُسلمين خلافاً لرغبة الكامل، فعندما أبلغ الفـرنجُ رُسُـلَ المُسلمين رَفْضَهُم لشُرُوط الصُّلح، غادروا "وهُم مسرورون جدّاً"[5]، وسيطرت عـلى الجميـع إرادة

---

1 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 209.

2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162.

3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162 ـ 1163.

4 - تعارف المُسلمون على تسمية هذه المعركة بالمنصُورة الأُولى (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 226)، تمييزاً لها عن معركة المنصُورة الثَّانية، التي وقعت ـ بعدها ـ بين الفرنج بقيادة لويس التَّاسع والملك الصَّالح أيُّوب وابنه المُعظَّم تُورانشاه.

5 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 773.

القتال، وحَسْم الأمر عسكريًّا، "واشتدَّ القتال برّاً وبحراً، واجتمع من رجالة المُسلمين في المنصُورة ما لا يقع عليه الإحصاء، فكانوا يُنكون في العدوِّ أكثر من نكاية الجُند"[1]، وانقطع طريق الإمداد عن الحملة، فقد "أنزل السُّلطانُ الكاملُ على ناحية شار مساح ألفَيْ فارس، في آلاف من العُربان، ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط. وسارت الشواني ومعها حرَّاقة كبيرة إلى رأس بحر المحلَّة، وعليها الأمير بدر الدِّين بن حسُّون، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البرِّ والبحر"[2]. ويصف مُقدِّم الدَّاويَّة في الحملة هذه الحال في رسالته إلى أُورُوبا، فيقول: "قطع المُسلمون النهرَ بالغلايين، والبراكيس التي احتلّته، ومُنع التموين من البحر، وكذلك من البرّ"[3]، إنَّه ـ في الواقع ـ حصارٌ كاملٌ للحملة، وليس ـ فقط ـ قطع إمداداتها بالتموين، فقد عُزلت عن دمياط، وعن البحر، وأُورُوبا، فلا نجدات، ولا أخبار، وأيُّ حَرَكَة الآن للحملة يجب أن تتمَّ بالقتال.

إضافة إلى أن المُسلمين قد تزوَّدوا بإمدادات الفرنج عندما استولوا على سُفُن الدعم القادمة من دمياط إلى الحملة[4]، فقد استولى المُسلمون على ثلاث قطع بَحْريَّة فرنجية، بما فيها[5]، ومن ثَمَّ؛ حضر مركب عظيم يُسمَّى مرمة، تحرسه عدَّة حراقات مملوءة بالميرة والسلاح، فظفر المُسلمون بهم[6]، وتمَّت الخُطوة الأخيرة للإجهاز على الفرنج، عندما عبر جماعة من المُسلمين بحرَ المحلَّة إلى الأرض التي عليها الفرنج، " ففجَّروا فجرة عظيمة في النيل، وهُو في قُوَّة زيادته، والفرنج لا خبرة لهم بأمر النيل، فركب الماءُ أكثرَ تلك الأرض"[7]، "ودار بهم الماء من كُلِّ جانب، ولا مراكب تطيق العُبُور إليهم لعظمها"[8]، "وفُقدت حيوانات الحمولة والحاجيات، واعتُقل الجيش وسط المياه مثل سمكة"[9]. عندها؛ اشتدَّت الهجمات عليهم، "وعظمت نكاية المُسلمين بهم برميهم بالسهام،

---

1 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 4/ 95.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 320.
3 - رسالة مُقدِّم الدَّاويّة في: وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 790.
4 - السُّلُوك ، المقريزي، 1/ 321.
5 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 4/ 95.
6 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 4/ 96.
7 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 4/ 96.
8 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 210.
9 - رسالة مُقدِّم الدَّاويّة في: وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 790.

وحملهم على أطرافهم"[1]، ولم يجد الفرنج مخرجاً من هذا الوضع إلاَّ "بطلب الأمان فقط، مُقابل دمياط"[2]، "وأُلقي في قُلُوبهم الرُّعب والذِّلَّة، بعد ما كانوا في غاية الاستظهار والعَنَت على المُسلمين"[3].

عرض الملكُ الكاملُ طلبَ الفرنج على أُخوته، فقال الملك الأشرف: "لا نقبل منهم، ونقتل هؤلاء الملاعين أجمعهم، فإن هؤلاء هُم دين النصرانية كُلّه"، وأيَّده في ذلك الملكُ المُعظَّمُ[4]، وكان هذا رأي مُعظم المُلُوك[5]، لكنَّ الكامل كان له رأي آخر، فقال: "ليس هذا برأي، ولا مصلحة، هؤلاء كبار دين الصليب ومُلُوك الأرض، والفرنج كثير، وإلى الآن؛ دمياط بأيديهم، ومتى قتلناهم، لابُدَّ أن يأتوا برَّاً وبحراً"[6]. فأيُّ الآراء كان فيه المصلحة الحقيقيَّة؟ لقد رأى مُعظم المُلُوك أن الفرنج بجَمْعهم قد فَتَكَ بهم المرضُ والمجاعةُ، ولذلك كان يكفي حصارهم ومُناوشتهم، فَمَنْ لا يُقتَل منهم سوف يموت وحده. ولكنْ؛ هل كانوا ـ فعلاً ـ هُم كُلَّ الفرنجة، كما قال الأشرف. في الحقيقة؛ لم يكونوا كذلك، وما هي إلاَّ حملة يُمكن لفرنج أُورُوبا أن يُجهِّزوا عدَّة حملات مثلها، وهُنا نرى الكامل على حقّ. إضافة إلى أن دمياط فعلاً كانت قد أصبحت قلعة لا تُرام[7]، كذلك كان من حُجج الكامل لقبول الصُّلح تململ العَسْكَر لطُول مُدَّة الحَرْب، التي تجاوزت ثلاث سنين، فقد قال: "وأصحابنا في هذا الوقت قد سئمت نُفُوسهم من القتال، وكَلُّوا، وإنَّهم ـ والله ـ لمعاذير في ذلك"[8]. ومع كُلّ ذلك فلو تمتَّع الكامل برُوح الصبر والمُثابرة، وتجاوز خوفه وشُكُوكه، لرُبَّما تضاعفت خسائر الفرنج البشرية، وحصل منهم على تنازلات أكثر من دمياط، التي كانت كُلَّ همِّه، يقول أبو شامة مُعترضاً على قرار الكامل بالصُّلح: "ولو أقاموا يومَيْن أخذهم برقابهم"[9]، ويقول أحمد الحنبلي:

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 327.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 327.
4 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 211.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 130.
6 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 211.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 330، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 99.
8 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 211.
9 -ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار،20/ 248.

"لو أمهلهُم يومَيْن، لأخذهم قسراً"[1]، ولكنْ: "مازال الكامل قائماً في تأمين الفرنج، إلى أن وافقتْهُ بقيّة المُلُوك"[2].

عُقِدَت جلسة الصُّلح بحُضُور المُلُوك من آل أيُّوب، الملك الكامل، وإخوته الملك الأشرف والملك المُعظَّم، والملك المُجاهد صاحب حمص، وصاحب حماة، وغيرهم، ومن الفرنج حضر الجلسة كرهائن لتسليم دمياط: ملك القُدْس حنَّا دي برين[3]، ونائب البابا الكاردينال بيلاجيوس[4]، والكُونت لويس [5] دُوق بافاريا[6]، ثُمَّ أرسل الكامل نُوَّابه لاستلام دمياط ومعهم مندوبون عن الحملة والرهائن، "فحاول أسقف عكَّا والمُستشار وهنري كُونت مالطا القادم حديثاً الدفاع عن المدينة، وبحثوا عن وسائل وجُنُود للدفاع، فلم يجدوا، فخضعوا للاتِّفاقية"[7]، وتمَّ تسليم المدينة للمُسلمين، "فأطلق الملكُ الكاملُ المُلُوكَ الفرنجيَّة"[8]، وكان يوم تسليمها يوماً مشهوداً[9]، غادرت -بعده- بقايا الحملة أرضَ مصر، بعضهم في البرِّ، وبعضهم في البحر، إلى عكَّا[10].

إن ما نستنتجه من مُجريات هذه الحملة، التي هي نموذج مثالي للحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق، هُو عُقم المشروع الفرنجي لاحتلال الشَّرْق الإسلامي، واستحالة تطبيقه، رغم توظيف أُورُوبة لكُلِّ طاقاتها لتحقيقه. كما نُلاحظ أنَّه متى توفَّرت النيَّة الصادقة في الدفاع عن الأرض، مع القُدرة على توحيد الإمكانات المُتاحة، فإن المُدافع عن أرضه وحقِّه في الوُجُود لابُدَّ وأن يكون هُو المُنتصر في النِّهاية.

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 328.
3 - كان المُسلمون يُطلقون عليه اسم: الملك النَّوَّام.
4 - كان المُسلمون يُطلقون عليه اسم: اللَّكَّاف.
5 - كان المُسلمون يُطلقون عليه اسم: كندريس، أو: كندريش، أو: كند البرنش.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 330، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 97، والمنصُوري، ابن نظيف، 93.
7 - رسالة مُقدِّم الدَّاويّة في: وُرُود التَّاريخ، رُوجر أُوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 791.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 93.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 98.
10 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 248.

الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق

الحملة الشَّعْبيَّة: قامت عام: **488 هـ ـ 1095م**، قادها بُطرُس الناسك، وقضى عليها الأتراك في الأناضول.

الحملة الأُولى: جرت خلال أعوام: **489 ـ 501 هـ 1096 ـ 1099 م**، وقد دعا إليها البابا أُورُوبان الثَّاني، احتلَّت الرُّهَا والقُدْس وجُزءاً من الساحل السوري.

الحملة الثَّانية: قامت إثر سُقُوط الرُّهَا، وشارك فيها كُونراد الرَّابع الألماني ولويس السَّابع الفرنسي، وانتهت بحصار فاشل لدمشق.

الحملة الثَّالثة: جرت خلال أعوام: **558 ـ 588 هـ ـ 1189 ـ 1192 م**، على إثر سُقُوط القُدْس، شارك فيها فريدريك باربروسا، وفيليب الثَّاني، والملك ريتشارد، وانتهت بمُعاهدة صُلح بعد احتلال عكَّا.

الحملة الرابعة: قامت عام: **600 هـ 1204م**، احتلَّت القسطنطينيَّة.

الحملة الخامسة: جرت خلال أعوام: **461 ـ 618 هـ 1217 ـ 1221م**، قادها الكاردينال بيلاجيوس نائب البابا، احتلَّت دمياط، ثُمَّ تخلَّت عنها، بعد هزيمة قاسية.

الحملة السادسة: جرت خلال أعوام: **562 ـ 626 هـ ـ 1228 ـ 1229م**، وهي حملة استعراضية قام بها فريدريك الثَّاني، وقد حصل على القُدْس باتِّفاقه مع السُّلطان الكامل.

الحملة السابعة: جرت خلال أعوام: **646 ـ 652 هـ ـ 1248 ـ 1254م**، قادها الملك الفرنسي لويس التَّاسع، احتلَّ دمياط، ثُمَّ هُزِم، وأُسر.

خاتمة

بعد هذه الجولة ضمن عالم العلاقات الدّوليّة في عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة تبرز أمامنا ـ الآن ـ تساؤلات عدَّة، قد تُوصِلنا إلى استنتاجات هامَّة، ولكنَّها ـ في الوقت نفسه ـ تطرح إشكاليات أهمّ، فبالإضافة إلى حساسية هذه الإشكاليات وخُصُوصيَّتها، فقد تُشكِّل نقاط خلاف كُبْرَى في الرأي، إذا لم تُعالَج بمنهج علمي، وبفكْر مُتحرِّر يقبل النتائج الموضوعية. وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ من خلال هذا البحث في الإجابة عن بعض هذه التساؤلات، كما أرجو أن أكون قد التزمتُ بمنهج البحث العلمي، للوُصُول إلى صُورة مُعبِّرة عن واقع العلاقات في ذلك العصر.

تُبيِّن مُجمل أحداث العصر الأيُّوبي أن عماد الدِّين زنكي قد حقَّق إنجازاً عظيماً بوَضْعه لمشروع رائد، رُبَّما رأى الكثيرون ـ في ذلك الوقت ـ استحالة تحقيقه على بساطته، وهُو مشروعه الوحدوي التحرُّري، والذي حقَّق ابنه نُور الدِّين جُزْأه الأوَّل، وحقَّق صلاح الدِّين قسماً مُهمّاً من جُزْئه الثَّاني.

ولذلك؛ نعدُّ انتصار صلاح الدِّين في حطِّين تتويجاً لمشروع عماد الدِّين الوحدوي التحرُّري، فلولا مُتابعة نُور الدِّين لخُطى والده في توحيد الشَّام؛ ثُمَّ توحيد مصر مع الشَّام، لما تحقَّق هذا النصر. وفي الوقت نفسه؛ يبدو جلياً انقسام العصر الأيُّوبي إلى مرحلتَيْن:

آ ـ مرحلة الدولة المركزية الواحدة، وتشمل عصر صلاح الدِّين، وتُعدُّ استمراراً لدولة عماد الدِّين زنكي، وابنه نُور الدِّين محمود.

ب ـ مرحلة الانقسام والتجزئة؛ حيثُ قامت الدُّويلات الأيُّوبيَّة في الجزيرة ومصر والشَّام، والأَسَديَّة في حمص.

وبمُتابعة تفاصيل العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة لعصر الحُرُوب الصَّليبيَّة أرى أن أهمَّ ما يُلاحَظ عليها:

1ـ لم تتمكَّن الممالك الأيُّوبيَّة من تحقيق أيِّ إنجاز هامٍّ في مرحلة التجزئة السِّياسيَّة، التي تلت عهد صلاح الدِّين، لا على الصعيد الداخلي، ولا على صعيد الصراع ضدَّ الفرنجة، فسنوات التجزئة هذه ـ على طُولها ـ كانت عقيمة، وبالتَّالي؛ نستنتج أن نصر عَيْن جالُوت، الذي تلا تلك السنوات،

لم يكن ليتحقّق لولا انضمام قُوّات الشّام، التي انسحبت مع المنصُور مُحمَّد صاحب حماة، إلى قُوّات مصر، وتعاون الأشرف مُوسى صاحب حمص معهم من خلف خُطُوط العدوّ.

2 ـ في عهد التجزئة الأيُّوبيَّة كانت المصلحة الخاصَّة تُسيطر على دبلوماسية المُلُوك والزُّعماء، فتوسيع رُقعة المملكة، أو زيادة الثروة الشخصية، كانت هي الأهداف البعيدة لكُلّ تحرُّكاتهم السِّياسيَّة والعسكريَّة، وقد تساوى ـ بذلك ـ مُلُوك البيت الأيُّوبي والمُلُوك الآخرون.

3 ـ لم تكن للممالك الأيُّوبيَّة ـ بعد صلاح الدِّين ـ سياسيَّة خارجية مُوحَّدة، بل كان لكُلّ مملكة أيُّوبية نشاطات عسكريَّة وعلاقات سياسيَّة مُختلفة ومُتناقضة في كثير من الأحيان عن الممالك الأُخرى. ونجد أن بعض المُلُوك الأيُّوبيَّة قد تحالفوا مع أعداء خارجيين ضدَّ إخوتهم، وأصبح التحالف بين مُلُوك المُسلمين عامَّة وممالك وإمارات الفرنج أمراً عادياً، حتَّى ليخال المرء أن العالم لم يعد يقسمه الدِّين، أو القومية، بل المصالح وحدها، فالاتِّفاقيات، والمُعاهدات، وحتَّى الحُرُوب المُشتركة بين مَنْ يُفترَض أنَّهم أعداء، تدلُّ على ذلك.

لما تقدَّم؛ نجد أن التحالفات السِّياسيَّة بين جميع الأطراف كانت كُلّها تحالفات هشَّة، فسُرعان ما تنقضُّ ـ لأتفه الأسباب ـ عند تبدُّل المصالح.

4 ـ مع كُلّ هذه التجزئة الدّاخليَّة والضغط الخارجي، استمرَّت أقاليم الشَّام ومصر والجزيرة الشَّاميَّة تعيش حياة الدولة الواحدة في كُلّ أوجه نشاطاتها الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة، أمَّا الانقسام السِّياسي والعسكري؛ فيُمكن أن نصفه بأنَّه انقسام للحُكَّام، وليس للشعب، أو للأرض، فحتَّى في أيَّام الحُرُوب والحملات كان الشعب يُمارس أعماله واتِّصالاته وتجارته وتنقُّلاته، فلم يعرف تقسيمَ الأرض، ولم تكن هُناك حُدُود ثابتة لمناطق السيطرة والممالك، وليس ـ هُنا فقط ـ فالحياة الواحدة كانت تنسحب على كُلّ أجزاء الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة الواسعة.

لكنَّ هذا لا ينفي أن هُناك دُولاً قامت في هذه المنطقة، ونشأت بينها علاقات سياسيَّة وعسكريَّة جديدة لم تكن وُدِّيَّة على الأغلب، فالتنافس، بل والقتال، كان أمراً عادياً بينها. ولكنَّنا نستطيع القول بأنَّ الوحدة السِّياسيَّة والعسكريَّة قد تمثَّلت بأوهى أشكالها، وكان ذلك باتِّفاق غير

مُعلَن بين مُلُوك الدُّول الأيُّوبيّة، على أن يكون أحدهم السُّلطان الأعظم، ويتمتَّع بنُفُوذ، وإنْ كـان ـ في كثير من الأحيان ـ اسمياً، على المُلُوك الآخرين، وممالكهم.

5 ـ كانت السياسة الأيُّوبيَّة الخارجيَّة تختلف إلى حَدٍّ كبير في عهد كُـلِّ سُـلطان يتـولَّى البيـت، وكان يُوجِّهها ويُحدِّدها المشروع الخاصُّ بكُلِّ سُلطان.

آ ـ تمحورت السياسة الخارجيَّـة لعهـد السُّـلطان صـلاح الـدِّين حـول مـشروعه الـسِّياسي ـ العسكري، والذي كانت أهدافه المُعلنة، في المُحافظة عـلى الدولـة الواحـدة وجهـاد الفـرنج وتحريـر الأرض، قد استحوذت عـلى مُجمـل العلاقـات الـسِّياسيَّة لعهـد صـلاح الـدِّين، فهـي سياسـة قائـد عسكري، تبدو وكأنَّها مُتابعة لمشروع وسياسة الأتابكة.

ب ـ في عهد السُّلطان العادل اختلفت السياسة الأيُّوبيَّة الخارجيَّة عمَّا كانت عليه في عهد أخيه صلاح الدِّين، فالعادل لم يكن قائداً عسكريَّاً فقط، بل كان سياسياً مُحنَكاً أيـضاً، لا يُحـارب في موقعـه يُمكن أن يتجنَّبها باتِّفاق، أو مُعاهدة، فغلبت على عصره المُعاهداتُ. ويتلخَّص مشروعه في الاستيلاء على مملكة أخيه، والوُصُول إلى السَّلطنة، وقد حقَّق ذلك.

ج ـ أمَّا في عهد السُّلطان الكامل بن العادل؛ فقد تعاظم العمل السِّياسي، واتَّخذ مناحي مُختلفة، فقد شمل التحالف مع قوى أُورُوبية، ودفع ثمنها تـسليم مدينـة القُـدْس، وأقـام تحالفـات داخليـة، عزَّزها بالمُصاهرة، فقد زوَّج بناته إلى مُلُوك حلب وحماه والكرك.

كُلُّ ذلك في سبيل تحقيق مشروعه للانفراد بالسُّلطة المُطلقة في الشَّام ومصر، ثُمَّ وظف العمـل العسكري لاحتلال مملكة سلاجقة الرُّوم، حتَّى ينقل المُلُوك الأيُّوبيَّـة إليهـا، ويُحقِّـق مـشروعه الـذي أفشله تنبُّه المُلُوك الأيُّوبيَّة له، وتحالفهم ضدَّ الكامل.

د ـ لَمَّا تولَّى أيُّوبُ بن الكامل السَّلطنة، وكان شخصية تمتاز بالعُنف، تمكَّـن مـن تحقيـق مُعظـم مشاريعه السِّياسيَّة بالقُوَّة، فقد تخلَّص من أعدائه داخل البيت الأيُّوبي، وألحق بـالفرنج هزيمـة عكَّـا، التي كانت أقسى عليهم من هزيمة حطِّين.

هـ ـ عندما استولى النَّاصر الثَّاني على الشَّام، وأنهى المماليك السَّلطنة الأيُّوبيَّة في مصر، أُتيحـت الفُرصة للفرع الصلاحي باستلام السَّلطنة، ولكن مشاريع النَّاصر السِّياسيَّة والعسكريَّة لإعادة أمجـاد

جَدِّه وسَمِّيه السُّلطان صلاح الدِّين ظلَّت مُجرَّد أحـلام، لعـدم تمتُّعه بمُـؤهِّلات تُمكِّنـه مـن تحقيقهـا، فغلبت عليه سياسة التردُّد والتخاذل، ويكفي أنَّه ترك حلب تُواجه مصيرها أمام التَّتار، وهـرب نحـو مصر، ولم يجرؤ على دُخُولها، حتَّى قبض عليه التَّتار، وقتلوه.

6 ـ طغت على عصر التجزئة الأيُّوبيَّة ظاهرة الأحلاف السِّياسيَّة والأحـلاف المُـضادَّة، والتـي كانت ـ دائماً ـ تتَّصف بالهشاشة، لذلك لم ينتجْ عنها معـارك عـسكريَّة كُبْرَى، ولا تبـدُّلات سياسيَّة هامَّة. كذلك؛ فإن وُجُود جيش قوي، مُدرَّب، عالي الجاهزة، جيِّد التـسلُّح، كـان يُعطـي لأيِّ مملكـة إضافة للقُوَّة العسكريَّة، نُفُوذ سياسي قائم عـلى التهديـد بـالقُوَّة، التـي ـ غالبـاً ـ لم تكـن تـستخدم في العلاقات الأيُّوبيَّة ـ الأيُّوبيَّة.

7 ـ يبدو واضحاً ـ في العصر الأيُّوبي ـ انعدام دور عامَّة الشعب في الحياة السِّياسيَّة، وضعفه في النشاطات العسكريَّة، ورُبَّما كان سبب ذلك غياب التنظيمات الشَّعْبيَّة كالأحداث، وغيرهـا، أو لقُـوَّة الجيش الأيُّوبي، وتنظيمه، ممَّا أدَّى إلى فرض سيطرة كاملة للدولة على كُلِّ قطاعات المُجتمـع، أو رُبَّـما تعلَّق الأمر بحالة الجهاد ضدَّ الفرنجة، ومن ثَمَّ؛ ضدَّ التَّتار التي كانت تعيشها الدولة والمُجتمع.

آ ـ في حين كنا نُلاحظ دوراً واضحاً لنساء الفـرنج في التركيبـة الـسِّياسيَّة، ونـشاطاً لهـنَّ في الجيش، وإنْ بدا محدوداً، لكنَّه ملمـوس، كـان الأمـر عـلى العكـس في الجانـب الإسـلامي، فالنـساء الأيُّوبيات كُنَّ بعيدات، إلاَّ ما نَدَرَ، عن السياسة، وعن الحياة العامَّـة، مـع وُجُـود اسـتثناءات، مثـل: ستّ الشَّام أُخت صلاح الدِّين، ودورها في الحياة العامَّة، وضَـيْفَة خَـاتُون بنـت العـادل، ودورهـا في السياسة.

ب ـ كان المسيحيُّون المحلِّيُّون، مُشتَّتين بالولاء، فعندما لم يُفلح الفرنج في استمالتهم، أو دمجهم في تجمُّعاتهم، عَدُّوهم هراطقة، وفي الحقيقة؛ كانوا أقرب إلى المُسلمين؛ حيثُ يجمعهم تـاريخ مُـشترك طويل، ماعدا الموارنة الذين قرَّروا الالتحاق بالكَنيسَة الكاثوليكية، وتعاونوا مع الفرنجة. أمَّا اليهُود؛ فقد كانوا أعداداً بسيطة لا يُؤبَهُ لها في العصر الأيُّـوبي، ورُبَّـما كـان تأييـدهم للدولـة، أو عـلى الأقـلِّ؛ استكانتهم أمامها، على خلفية اضطهادهم في أُورُوبا والذي كان يسبق كُـلَّ حملـة فرنجيـة تنطلـق إلى الشَّرْق.

نتائج العلاقات مع القوى الدّاخليَّة:

مع أن العلاقات السِّياسيَّة الدّاخليَّة بين المالك الأيُّوبيَّة ليست الغرض الأساسي لهذا البحث، ولكنَّه ما كان ليكتمل بدُون التعرُّف على علاقات سياسيَّة وعسكريَّة، كانت تتمُّ بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة وممالكها من جهة، وقوى إسلامية، لا يُمكن إلاَّ أن نعدَّها داخلية من جهة أُخرى، فمنها ما كان مُستقلاً تماماً عن السُّلطة الأيُّوبيَّة، وبعضها كان له شبه استقلال؛ ومن هذه القوى:

كان هُناك بعض القادة العسكريين والأُمراء الإقطاعية الذين لعبوا أدواراً مُهمَّة انعكست سلباً، أو إيجاباً في العلاقات الأيُّوبيَّة السِّياسيَّة والعسكريَّة، فمنهم مَنْ تولَّى قيادة الجُيُوش، ومنهم مَنْ تولَّى الوزارة، ومنهم مَنْ حَكَمَ إمارة، أو سيطر على مناطق واسعة، فقامت لهم علاقات سياسيَّة وعسكريَّة، تشعَّبت بين عدَّة دُول في المنطقة، وكان منهم أبو الهيجاء السمين، والحاجب علي، وابن المشطوب، وأولاد الشَّيخ، إضافة إلى طوائف عسكريَّة، مثل: فرَق المماليك الصَّلاحيَّة، والأَسَديَّة، أو طوائف عِرْقية، مثل: التُّركمان، والأكراد.

وعلى العُمُوم؛ كان يبدأ أمر هؤلاء في ظلِّ الدولة الأيُّوبيَّة، ولخدمتها، ثُمَّ غالباً ما تنقلب الأُمُور، فيعملون لمصالحهم الخاصَّة ضدَّ الدولة، فتبطش بهم، وكثيراً ما كانت أعمال هؤلاء الرجال، أو التصدِّي لهم، يُوقع الدولة في مواقف حرجة في علاقاتها العسكريَّة والسِّياسيَّة الدّوليَّة.

كذلك كانت القبائل البدويَّة تنتشر على حوافِّ المناطق الزراعية في مصر والشَّام، ورُبَّما كان بنو ربيعة من أشهر قبائل الشَّام، وأكثرها تأثيراً في السياسة الأيُّوبيَّة والعسكريَّة. ولطبيعة حياة هذه القبائل، فقد كانت تُشكِّل قوى عسكريَّة لا يُستهان بها لطريقتها الخاصَّة في القتال. ومع أنَّها كانت تابعة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة بشكل عامٍّ، لكنَّها تمتلك قَدْرَاً كبيراً من حُرِّيَّة التصرُّف، وتتعاظم هذه الحُرِّيَّة في عُهُود الضعف، وخلال الأزمات، فيحرص الأيُّوبيُّون على استمالتهم، وغالباً عن طريق المال. وكما كان للبدو مواقف جهادية ضدَّ الفرنج لا تُنكَر، كان لهم زلات شنيعة، فقد عمل بعضهم أدلاء للفرنج ضدَّ مواقع المُسلمين، وكانوا ـ في كثير من الأحيان ـ سلاحاً ذا حَدَّيْن؛ إذْ سُرعان ما ينقلبون على حُلفائهم في حال الهزيمة.

وأُضيف إلى القوى الدّاخليَّة فرقة الخَوَارزميَّة التي ظهرت إثر هزيمة وتبعثر الجيش الخوارزمي أمام التَّتار، وأخذت تتنقل في الجزيرة السُّوريَّة وبلاد الشَّام. كان أفرادها يُشكِّلون فرقة

مُرتزقة حقيقيَّة، يُقاتلون للمكاسب، ويعيشون بسُيُوفهم، لكنَّهم قرَّروا العمل لحسابهم فيما بعد، فعاثوا فساداً في البلاد، وأضافوا طرفاً جديداً على أطراف النزاع، وأدخلوا المنطقةَ في دوَّامة من الأحلاف السِّياسيَّة والمعارك العسكريَّة، فقد حالفوا الجميع، وحاربوا الجميع، واستطاعوا التأثير في موازين القوى والتحالفات القديمة للممالك الأيُّوبيَّة وبعض الممالك القريبة منها. ولكنْ؛ للحقيقة وللتاريخ، لا يُمكن لنا إلاَّ أن نُسجِّل لهم عملاً إيجابياً قاموا به، فقد سجَّل الخَوَارزميَّةُ مأثرةً كبيرة، رغم كُلِّ مخازيهم، عندما طردوا الفرنج من القُدْس، التي كان قد سلَّمها لهم الكامل، ثُمَّ أبادوا أكبر تجمُّع لجُيُوش الفرنج بعد حطِّين في معركة غزَّة، ممَّا جعل الوُجُودَ الفرنجي في فلسطين بكامله يترنَّح تحت ثقل هذه الضربة، وكانت إحدى دواعي حملة لويس التَّاسع على مصر.

نتائج العلاقات الدّوليَّة الخارجيَّة:

يبدو أن العلاقات الدّوليَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة كانت هي الأهمّ في عصرها، فكثيراً ما قرَّرت هذه العلاقاتُ مسيرةَ الدّبلُوماسيَّة العالمية، أو مُجريات الصراعات العسكريَّة العالمية، لأنَّها كانت تستقطب قوى عالمية كُبْرَى في ذلك العصر. وقد انقسمت العلاقات الدّوليَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة إلى علاقات مع دُول إسلامية، وعلاقات مع دُول غير إسلامية، وكان لكُلٍّ منها طبيعة خاصَّة في التعامل الدبلوماسي، أو العسكري معها، ومع هذا؛ ففي بعض الأحيان، كانت تختلط الأوراق، وتتداخل العلاقات عبر تكتُّلات وأحلاف قد تتعدَّى الحُدُود والأديان والمُعتقدات.

وقد كانت نقاط الاحتكاك الساخنة في المرحلة الأُولى من العصر الأيُّوبي هي سواحل الشَّام ومصر، فعليها وقُربها جرت أهمُّ المعارك العسكريَّة والسِّياسيَّة بين المُسلمين وقوى فرنج أُورُوبا. بينما تحوَّلت أرض الجزيرة الشَّاميَّة، في المرحلة الثَّانية من العصر الأيُّوبي، إلى بُؤرة الصراع الأُولى بين كُلِّ مَنْ يجد بنفسه قُوَّةً، وتتوفَّر لديه أطماع وطُمُوح. وكان الصراع على مُدُن ومناطق الجزيرة على أشدِّه بين الممالك الأيُّوبيَّة وبين عدَّة دُول، وقوى إسلامية، وغير إسلامية، منها: سلطنة السلاجقة، ومملكة الأتابكة، وممالك الأرمن والكرج والخَوَارزميَّة، وأخيراً؛ التَّتار.

1. نتائج العلاقات الدّوليّة الإسلاميّة:

بما أن بُلدان السّلطنة الأيُّوبيَّة كانت تتبع للخليفة العبَّاسي تبعية اسمية، فقد فرض ذلك تعامل دبلوماسي كامل بين الطرفَيْن، ولم تكن لتنقطع الوُفُود والمُراسلات بينهما، ممَّا يدلُّ على علاقة سياسيَّة نشطة، لكنَّها لم تتعدَّ طور الرسميات؛ حيثُ لم يكن هُناك أيُّ نُفُوذ حقيقي للخليفة على الحُكَّام الأيُّوبيِّين، وبالمُقابل؛ لم يتلقَّ الأيُّوبيُّون في أحلك ظُرُوفهم العسكريَّة سوى التأييد المعنوي والدعوات الصالحة من الخليفة.

أمَّا الممالك الإسلاميَّة المُجاورة؛ فقد كان يجمعها في علاقاتها مع الأيُّوبيِّين خوف مُشترك من القُوَّة الأيُّوبيَّة، لكنَّها ـ غالباً ـ لم تتمكَّن من الاتِّحاد ضدَّها، ممَّا يدلُّ على سياسة أيُّوبية ناجحة مع الممالك الإسلاميَّة المُجاورة، بل إنَّنا نستطيع القول إنَّه كان هُناك نوع من الهيمنة الأيُّوبيَّة على عدد من ممالك وإمارات الجوار الإسلاميَّة؛ مثل إمارات الأتابكة والأراتقة، كما كان هُناك دعم وتبادل مصالح بين الأيُّوبيَّة وبعض الإمارات الإسلاميَّة، مثل إسماعيلية الشَّام، الذين يُعتقَد بأنَّهم ارتبطوا بمُعاهدة دفاع مُشترك مع السَّلطنة.

أمَّا الدُّول الكُبْرَى والقوى الإسلاميَّة العُظْمَى التي كانت تُجاور السَّلطنة الأيُّوبيَّة مثل: دولة سلاجقة الرُّوم، والدولة الخَوَارزميَّة؛ فقد كانت العلاقات بينهم وبين الأيُّوبيَّة تتأرجح بين الحَرْب الشاملة وحالة السِّلْم، التي يترقَّب فيها كُلُّ طرف سانحة ضعف لدى الطرف الآخر، ولكن كُلَّ هذا لم يمنع من قيام تحالفات استراتيجية بينهما في بعض الأحيان، وهذا ما يُؤكِّد قيام تحرُّكات دبلوماسية على كُلِّ المُستويات، لابُدَّ أنَّها كانت تُرافق الصدامات والتَّحرُّكات العسكريَّة، وتُنسِّق كُلَّ تلك التحوُّلات والتبدُّلات في المواقف السِّياسيَّة لمُختلف الأطراف.

وآخر المطاف في العلاقات الأيُّوبيَّة مع القوى الإسلاميَّة المُجاورة كان مع صنائعهم ومماليكهم السابقين، الذين استولوا على حُكْم مصر إثر تنامي قُوَّتهم العسكريَّة، وقد أثبتت الأحداث عدم كفاءة السُّلطان الأيُّوبي النَّاصر الثَّاني في تصدِّيه السِّياسي والعسكري للمماليك؛ حيثُ عجز عن استرجاع مصر، ولم يلبث أن فَقَدَ الشَّام أمام زحف التَّتار، وبانتصار المماليك على التَّتار مدُّوا سيطرتهم على كامل أراضي السَّلطنة الأيُّوبيَّة المُنهارة.

2. نتائج العلاقات الدّوليَّة مع قوى خارجية غير إسلامية:

كانت العلاقات مع فرنج الساحل الشَّامي تحتلُّ الصدارة في المرحلة الأُولى من الحُكْم الأيُّوبي؛ حيثُ كانت عدائية بشكل عامٍّ، ويغلب عليها طابع الصراع العسكري. أمَّا في المرحلة الثَّانية؛ فقد نشطت العلاقات السِّياسيَّة بين الطرفَيْن، حتَّى إنَّها غدت ـ في بعض الأحيان ـ علاقات سلْمية، بل، وفي بعضها الآخر وُدِّيَّة تصل إلى درجة التحالف والقتال المُشترك.

أمَّا بقيَّة القوى المَسيحيَّة الشَّرْقيَّة؛ فكان لكُلٍّ منها طابعها الخاصّ، الناتج عن اهتماماتها الخاصَّة ومُشكلاتها الخاصَّة مع الدولة الأيُّوبيَّة. فالإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة كانت في وضع سياسي وعسكري مُحرج ومُتردِّد بين الفرنج والأيُّوبيين، لذلك كانت العلاقات معها محدودة في كُلِّ أشكالها.

بينما نجد أن مملكة الكرج ـ بعد ضغطها العسكري المُتنامي للسيطرة على الجزيرة الشَّاميَّة ـ فقد وقَّعت مُعاهدةَ صُلح مع الأيُّوبيِّين، والتزمت ببُنُودها. لكنَّ مملكة أرمينيا استمرَّت تسعى نحو أسوأ العلاقات مع الأيُّوبيَّة، يدفعها حقد أعمى للتعاون مع كُلِّ الأعداء ضدَّ الأيُّوبيَّة، فقد تعاونت مع الفرنج، ثُمَّ مع التَّتار، وقدَّمت لهم الدعم العسكري اللازم. ومع ذلك؛ فقد قام نوع من العلاقات السِّياسيَّة بين الأرمن ومملكة حلب الأيُّوبيَّة بحُكْم الجوار.

وفي أواخر المرحلة الثَّانية من العصر الأيُّوبي؛ قفزت العلاقات مع التَّتار لتحتلَّ موقع الصدارة في علاقات السَّلطنة الأيُّوبيَّة في الشَّام، في البداية؛ اتَّبع الأيُّوبيُّون سياسةَ الابتعاد عن الصدام بطلائع التَّتار، رُبَّما لاعتقادهم أنَّهم غُزاة عابرون، أو أنَّ تجنُّب الصدام مع التَّتار قد يُبعدهم نحو أهداف أُخرى، لكنْ؛ مهما كانت الأسباب، فقد أثبتت السياسةُ الأيُّوبيَّةُ قصرَ نظر هائل؛ بحيثُ لم تُقدِّر خطر التَّتار حقَّ قَدْره، وكان فشل السياسة الأيُّوبيَّة تجاه التَّتار كبيراً، لكنَّ فشلهم العسكري كان أكبر، فقد ترك السُّلطانُ الأيُّوبيُّ عاصمةَ مُلكه حلب تسقط، وفيها أهله، وآل بيته، بينما كان يُراسل هُولاكُو، ويستعطفه من دمشق، ثُمَّ انسحب بجيش الشَّام كاملاً، دُون أن يُجرِّب التَّصدِّي حتَّى لطلائع التَّتار، ورُبَّما كان ضعف شخصية السُّلطان النَّاصر الثَّاني ورُعبه من التَّتار وراء هذَيْن الفشلَيْن ـ السِّياسي والعسكري ـ المُروِّعَيْن.

نتائج العلاقات مع دُول أُورُوبا:

كان الدور السِّياسي والعسكري للدُّول الأُورُبيَّة قـد بـدأ في مـصر والـشَّام قبـل قيـام الدولـة الأيُّوبيَّة، لكنْ؛ تضاعف هذا الدور في المنطقـة، وازدادت اهتماماتهـا بهـا بعـد قيـام الدولـة الأيُّوبيَّـة. وصحيح أن علاقات أُورُوبا بدأت دينيَّة من خلال الحجِّ واستكشاف الأراضي المُقدَّسة، لكنَّها انتهت استعمارية بالاحتلال والسيطرة واستغلال الثروات، وشاركت في هذا مُعظم دُول أُورُوبـا وشُـعُوبها، فكُلٌّ منها أدلى بدلوه وُفقاً لمنظوره واهتماماته، لكنَّ بعـضها كـان لـه أدوار مُتميِّـزة لعبهـا مـن خـلال علاقاته العسكريَّة أو السِّياسيَّة مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة، ومن أهمّها:

رُبَّما كانت العلاقات الفرنسيَّة العسكريَّة هي الأكثر تميُّزاً لأنَّها الأطـول والأغنـى بمُـشاركاتها الحَرْبيَّة، وكُلُّها كانت بدُون تحقيق أيِّ فائدة تُذكَر. وقد سنحت الفُرصة للملك الفرنسي لـويس كـي يلعب دوراً سياسياً بارزاً في المنطقة عندما كان في عكَّا؛ حيثُ طلب التحـالف معـه كُـلٌّ مـن سُـلطان الشَّام الأيُّوبي وزُعماء المماليك بعد استيلائهم على حُكْم مصر، لكنَّ لويس فوَّت الفُرصة بتردُّده.

وإذا كانت الصفة العدائية هي الغالبة على العلاقات الفرنسيَّة بالسَّلْطَنَة الأيُّوبيَّة، فإنَّهـا كانـت عدائية أشدّ بالنِّسبَة لعلاقات ألمانيا بها، وقد تبدَّت شدَّة العدائيـة مـن خـلال مُشاركات أباطرتهـا في الحملات على الشَّرْق، وشدَّة الحماس الدِّيني الذي رافقهم، لكـنَّ كُـلَّ ذلـك انقلـب مـع الإمبراطُـور فريدريك الثَّاني، الذي عقد تحالفاً استراتيجياً مع الـسَّلطنة الأيُّوبيَّـة، والتـزم بـه خلفـاؤه حتَّـى نهايـة دولتهم. ورُبَّما كانت هذه العلاقة الوُدِّيَّة هي العلاقة الوحيدة التي ربطت بين طرف أُورُوبي والسَّلطنة الأيُّوبيَّة.

وبالنتيجة؛ نجـد أن مُعظـم العلاقـات الـسِّياسيَّة بـين المُـسلمين وأُورُوبـا في العـصر الأيُّـوبي تمحورت حول قضيَّة الصراع على مدينة القُدْس، وتجلَّى تفاعـل هـذه العلاقـات بـين طـرفَيْن، الأوَّل: الحملات الفرنجيَّة العسكريَّة، التي وجَّهتها أُورُوبا إلى بلاد الشَّام ومصر، والثـاني: الأيُّوبيُّـون الـذين حملوا راية التّصدِّي للفرنج نيابة عن كُلّ المُسلمين.

وكان من المُفترض أن يكون خلف المُتصارعَيْن كلَيْهما عُمق استراتيجي يدعم مجهوده الحربي، لكنْ؛ وللحقيقة، كان دعم أُورُوبا للفرنج بالمال والرجال والمعـدَّات غـير محـدود، بينـما كـان مُعظـم الدعم الإسلامي للأيُّوبيين يقتصر على شكل معنوي، فأدعية خُطباء المساجد وتمنِّيات الخليفـة الطيِّبـة

لم تكن ذات فعَّالية تُذكَر في القتال، ماعدا الدعم البسيط غير الدائم من بعض أُمراء المَوصل والجزيرة الشَّاميَّة.

لقد كان الصراع على أرض الشَّرْق يدور بين مدرستَيْن، إحداها إسلامية، والأُخرى أُورُوبية، تُمثِّلان حضارتَيْن فكريَّتَيْن ودينيَّتَيْن مُختلفتَيْن كُلَّ الاختلاف، لكنَّ هذا الصراع لم ينتج عنه تمازج فكري، أو تأثير ديني، أو حضارة وسيطة؛ كالهلنستية.

فبعد إقامة الفرنج حوالي مائتَيْ عام في أرض الشَّرْق، واحتكاكهم المُستمرّ بشعبه وحضارته، كانت نتائج هذا الاحتكاك ضئيلة جدًّاً في أرض الصراع مصر والشَّام. وكان حيِّز كبير من هذا الصدام يدور بين المدرسة العسكريَّة الأُورُوبيَّة والمدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة، وصحيح أن المدرسة الإسلاميَّة هي التي انتصرت، بدليل الطرد النهائي للفرنجة من الشَّرْق، لكنَّ هذا الانتصار لم يُثمر عسكريّاً، فلم تتطوَّر أسلحة جديدة، ولم يبتكر المُسلمون أساليبَ قتال مُتقدِّمة، كما أنَّه لم يُثمر حضارياً لاستمرار الجُمُود الفكري عند المُسلمين. ومن خلال هذا الصدام تبدَّت بعض النتائج الأساسية:

1 ـ عسكريّاً: ظهر واضحاً التفوُّق العسكري الأيُّوبي في مُعظم المُواجهات، وذلك وُفقاً لحساب النتائج النهائية للمعارك. لكنَّ التفوُّق الأُورُبي كان ملموساً في البحر، وفي صناعة السُّفُن، وقتال الأساطيل، خاصَّة أساطيل المُدُن الإيطالية، التي كان لها دور كبير في تفوُّق الفرنجة البحري، وبالمُقابل؛ كان هُناك شَلَلٌ كامل للأساطيل الإسلاميَّة، وكان هذا ـ غالباً ـ بسبب تدمير قواعد الأساطيل في ساحل الشَّام، واستيلاء الفرنج على مُعظمها.

2 ـ سياسياً: كانت التَّحرُّكات السِّياسيَّة بين الأيُّوبيِّيْن وأُورُوبا نشطة جدًّاً، ورُبَّما كانت أنشط من التَّحرُّكات العسكريَّة، فالاتِّصالات السِّياسيَّة لم تنقطع، والسِّفارات من الجانبَيْن لم تتوقَّف، والمُعاهدات كانت كثيرة، وقيام الحَرْب بينهما لم يمنع من مُراسلات المُجاملة، والتعزية، أو التهنئة، كما لم يمنع تبادلاً تجاريّاً واسعاً بينهما.

تقويمٌ عامٌّ للعلاقات الدّوليَّة في عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة:

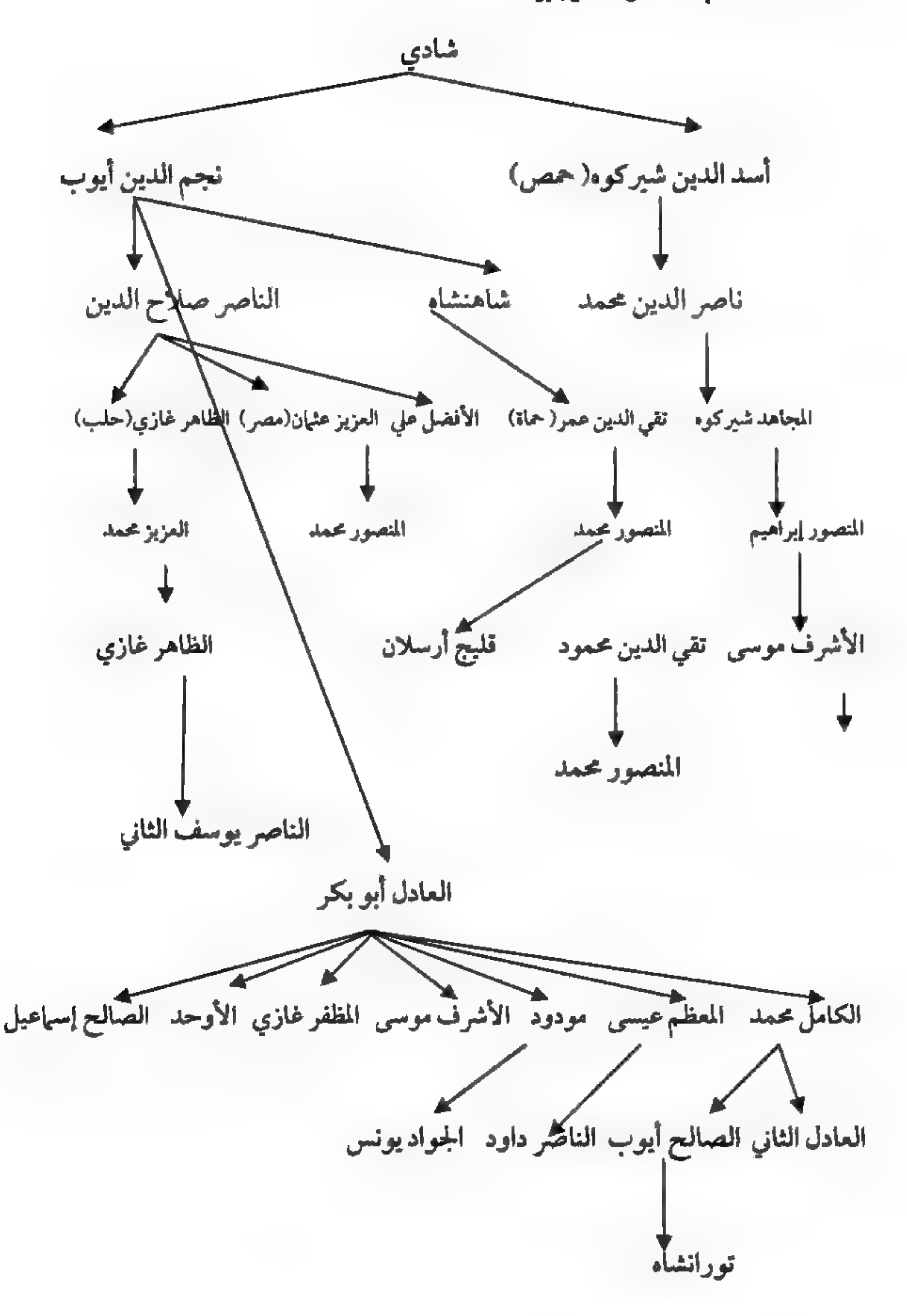
بعد كُلِّ ذلك نستطيع القول بأنَّ السياسة الأيُّوبيَّة كانت ناجحة ـ على العُمُوم ـ مع القوى الدّاخليَّة، فكُلُّها كانت تدور في فَلَك السياسة الأيُّوبيَّة، وكذلك كانت علاقات الأيُّوبيِّين السِّياسيَّة مُوفَّقة ـ بشكل عامٍّ ـ مع الدُّول الإسلاميَّة المُجاورة، التي كانت ـ غالباً ـ مُتحالفة معها بشُرُوط جيِّدة، أمَّا العلاقات مع المالك المَسيحيَّة الشَّرقيَّة؛ فكانت ـ أيضاً ـ تحت السيطرة، ووُفقاً للمصالح الأيُّوبيَّة مُعظم الأحيان، أمَّا مع فرنج المشرق؛ فكانت علاقات الأيُّوبيِّين مُتأرجحة ما بين الحَرْب والسِّلْم، والعداء السافر، أو التعاون، والتحالف، لكنَّ الشيء الثابت في هذه العلاقة هُو سعي كُلِّ طرف لتأمين مصالحه بأيِّ طريق كانت. أمَّا الصفة الرئيسية للعلاقات مع دُول وأُورُوبا، فقد كانت علاقات مُتوتِّرة غالباً، إذا استثنينا العلاقات مع الإمبراطُوريَّة الجرمانية، وخاصَّة في عهد فريدريك، وأولاده، ونستطيع أن نصفها بأنَّها علاقات في ظلِّ الحَرْب، وأنَّها كانت قائمة على سُوء فَهْم مُتبادل بين عقليَّتَيْن وثقافتَيْن ودينَيْن بينهما كُلّ الاختلاف، لذلك كانت تبدو أنَّها علاقات ليس لها أُسُس ثابتة.

وأخيراً؛ فإنَّنا نُلاحظ بأنَّ العصر الأيُّوبي بمُجمله كان عصر صراع وتنافس بين الدُّول والقوى على البلاد والموارد، لذلك سيطرت العلاقات العسكريَّة والسِّياسيَّة على كُلِّ ما عداها من علاقات طبيعية أُخرى، حتَّى كادت أن تطمسها، وأصبحت العلاقات السِّياسيَّة التي تُوظِّف العلاقات العسكريَّة سمة للعلاقات الدّوليَّة في ذلك العصر.

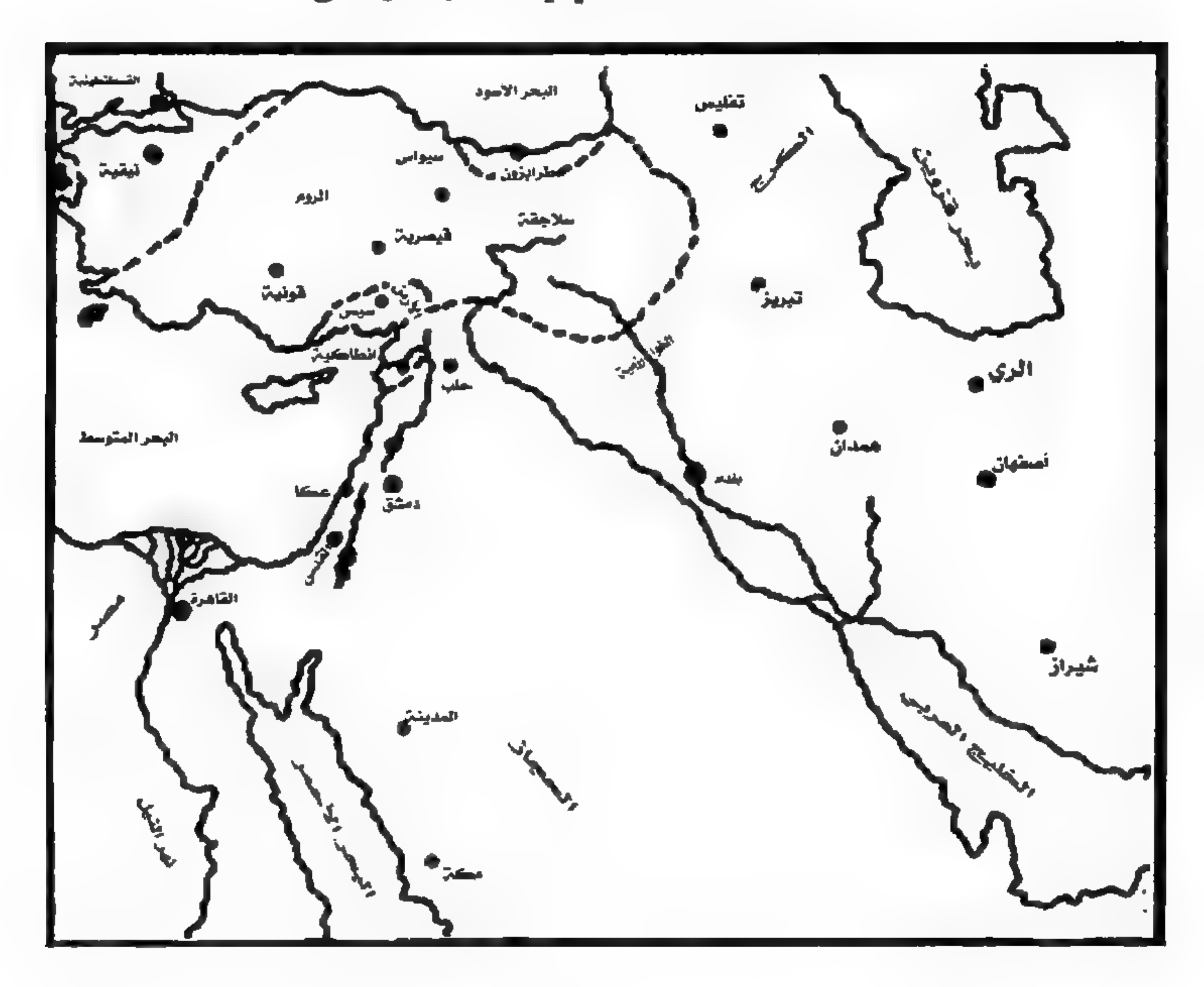
وفي النِّهاية؛ فهذا مبلغ علْمي، وفوق كُلِّ ذي علم عليم، والله من وراء القَصْد.

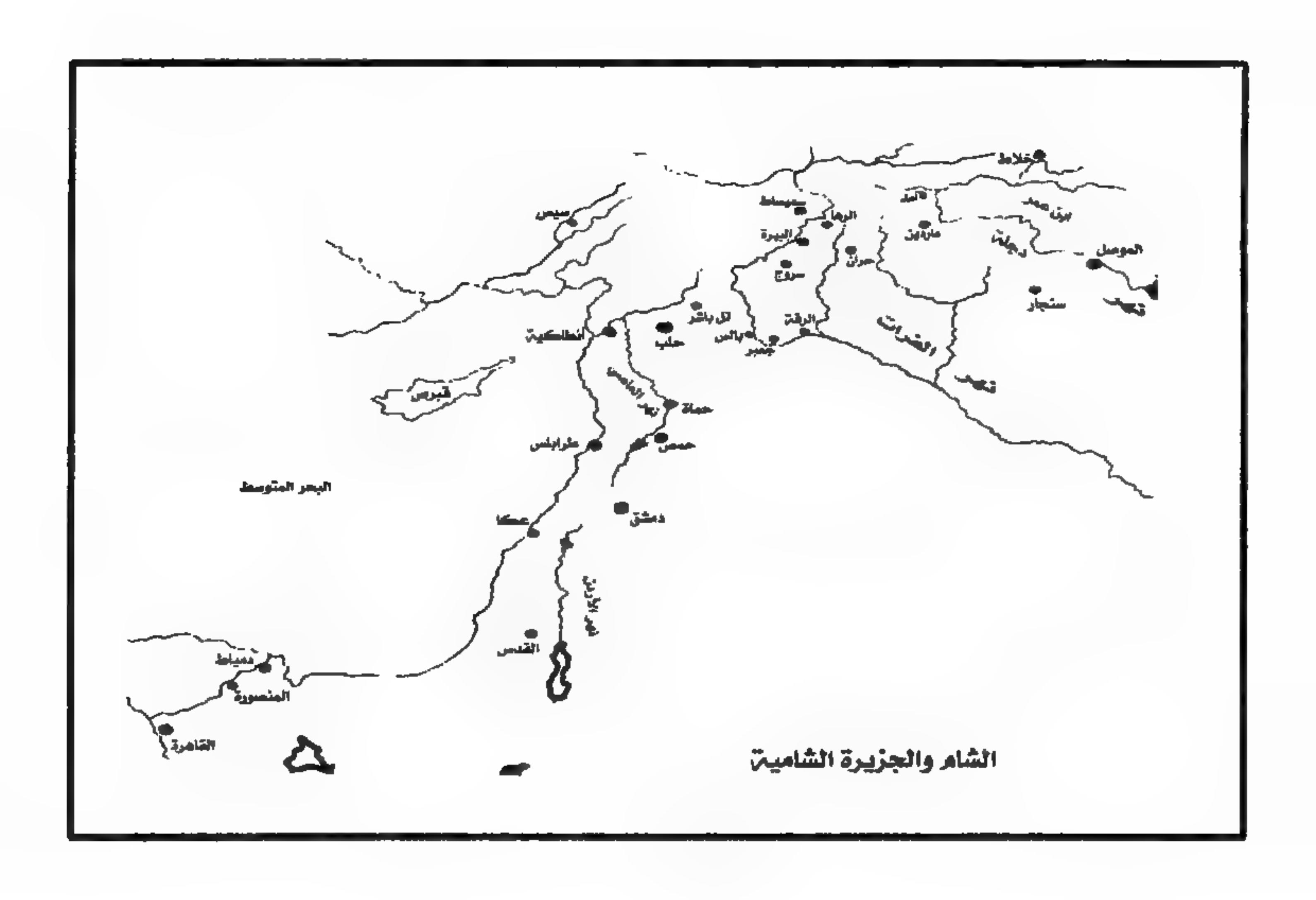
الملاحق

مُخطَّط نسب الأُسرة الأيُّوبيَّة



الشرق العربي في العصور الوسطى





الشام والجزيرة الشامية

نصٌّ قلعة دمشق:

1 ـ بسم الله الرحمن الرحيم، وصلَّ الله على مُحمَّد وآله، أمر بعمارة هـذا الـبُرج المُبـارك مولانـا الـسُّلطان الملـك العـادل المُجاهـد المُـرابط المُظفَّـر المُؤيَّـد المنـصُور سـيف الـدُّنيا والـدِّين، سُلطان الإسلام والمُسلمين، قاتل الكَفَرَة والمُشركين، قاهر الخوارج والمُتمرِّدين، ملك الـديار المـصريَّة والشامية والأخلاطية، أبو بكر بن أيُّوب بن شادي خليل أمير المُؤمنين، أدام الله سُلطانه.

3ـ وبنى هذا البُرج العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى الملك المنصُور مُحمَّد بن عُمر بـن شـاه نـشاه بن أيُّوب، أعزَّ الله نصرَه بتولِّي نايبه أبي الغنايم بن عبد الرحمن بن سـيف القرشـي الملكـي المنـصُوري سنة ستٍّ وستُّماية.

The citadel of Damascus, Vol.2

A dissertation submitted in partial satisfaction of the requirement for the degree of Doctor of Philosophy in history

By: Paul Edward Chevedden_ 1986.

وثائق تتعلَّق بغزو التَّتَار للشام

سفارة ابن شدَّاد من قِبَل النَّاصر الثَّاني إلى هُولاكُو:

قال ابن شدَّاد: خرجتُ من دمشق رسولاً إلى التَّتَر النازلين على مَيَّافارقين، في مُستهلِّ المُحرَّم، صُحبة الملك المُفضَّل صلاح الدِّين يُوسُف ابن الملك المُفضَّل مُوسى بن صلاح الدِّين، وأخرج معنا الملكُ النَّاصر أولادَهُ الثلاثة وحريمه ليكونوا بحلب، وهُم: الملك العادل، والملك الأشرف، وولد آخر صغير. وأمر أن نأخذ معنا من حلب هدية إلى يشموط، وهي ألف وخمس مئة دينار عيناً، وحياصة مُجوهرة، وسيف مُجوهر.

ثُمَّ وصلنا إلى حلب في الخامس عشر من المُحرَّم، وخرجنا منها في الثَّالث والعشرين منه، فوصلنا إلى حَرَّان في الثَّامن والعشرين. ورحلنا منها مُستهلّ صَفَر، فوصلنا إلى ماردين في الرَّابع منه، فأقمنا بها ليلتَيْن، واجتمعنا بالملك السَّعيد ـ صاحبها ـ وأنهينا إليه رسالة من الملك النَّاصر مُشافهة، تتضمَّن استشارته في أمر التَّتَر، فلم يُجبنا بكلمة، وقال: قد ضجرتُ من نُصحي إيَّاه.

ثُمَّ توجَّهنا إلى مَيَّافارقين، فوافينا في طريقنا على مدينة صُور طائفة من التَّتَر قاصدين الإغارة على الجزيرة، ومُقدّمها هندو خان، فقدَّمنا له تقدمة، وانفصلنا عنه، بعد أن بطقنا إلى مادرين، وحَرَّان، وحلب، بتجفيل من بها. ثُمَّ رحلنا من صُور، وعبرنا الشطَّ، فنزلنا منزلة وصل إلينا فيها من المغل جماعة كبيرة، ومعهم أمير يُقال له: صقلبو، فنزل عندنا، وطلب منَّا طعاماً، فأطعمناه. ثُمَّ رحلنا، ونزلنا منزلة أُخرى، فوصل إلينا من التَّتَر جماعة، ومعهم قامات، فعرضوا جميع أصحابنا، وما معنا من الدوابِّ، ثُمَّ أوقدوا ناراً في ناحيتَيْن، ومرُّوا بنا بينهما، وهُم يضربونا بالعصي، وأخذوا من عرض الثياب ثوباً خطائياً مُذهَّباً، فقطعوا منه قَدْرَ ذراع، ثُمَّ قطعوا الذراع قطَعَاً صغاراً، ولفُّوها، وأحرقوها بالنار، ثُمَّ قالوا: إيل خان يأمركم أن تستريحوا الليلة، وتحضروا عنده غداً.

فلمَّا أصبحنا، حضر إلينا جماعة، وأخذوا ما كان معنا من الهدية، وحملوها بين أيدينا، وأمرونا بالمسير معهم، فلمَّا حضرنا عنده، أَدَّيْنَا الرسالة، وكان مضمونها التهنئة بالقُدُوم، والشكوى من تعرُّضهم لبلاد الجزيرة، وقتل مَنْ بها من الرعية. ونمنُّ عليهم بانقياده إليهم مُنْذُ عشرين سنة، طوعاً،

واختياراً، وبما يبعثه من الهدايا والأموال التي لم تجد عليه شيئاً. فلـمّا سـمعوا الرسـالة، أذنـوا لنـا في الانصراف إلى المكان الذي أنزلنا فيه.

فلمّا كان من الغد، أحضرونا، وأسمعونا كلاماً غليظاً، وقالوا: إن رعاياكم قاتلونـا، وبـدؤونا بالحَرْب، وإنّا لم ندخل الجزيرة إلاّ في طلب أعدائنا التُّركمان والعَرَب. وطلبتُ منهم ما كـانوا أخـذوه من بلد حَرّان، أو العوض عنه، وقُلتُ: متى لم تُنصفونا، خرجنا عن الطاعة، فأغاظهم ذلـك، وقـالوا لي: كم لكَ رأس؟! مَنْ ذا الذي يُقابل إيل خان بهذا الكلام؟ ثُمَّ أقامونا مُزعجين، ومرُّوا بنا على قَتْلَى، وقالوا لنا: إنْ لم تكونوا عُقلاء، وإلاّ كُنتُم مثل هؤلاء.

ذِكْرُ ما جرى لي مع نُوَّاب صاحب مَيَّافارقين:

كُنّا قدَّمنا القول بأنّ التَتَر طلبوه لَمّا نزلـوا عـلى مَيَّافـارقين، فـأنكروه، فلـمّا تحقَّقـوا أنَّـه فيهـا، أُحضرتُ بعد يومَيْن من هذه المُحاورة، وقيـل لي: صـاحب مَيَّافـارقين يطلبـكَ، فقُلـتُ: مـا لي عنـده حاجة، فقالوا: تتوجَّه إليه بأمرنا، فقُلتُ: ما أمرني صاحبي بـذلك، فقـالوا: لابُـدَّ مـن مـضيّكَ إليـه، فقُلتُ: ما الذي أقول له إذا اجتمعتُ به؟ قالوا: تقول له: قد جئنا من عند الملك النَّاصر لنشفع فيـكَ، على أن تخرج إلى إيل خان، وتكون في طاعته. فأبيتُ تحمُّل هذه الرسالة، فأمروا بـإخراجي، ومـرُّوا بي على واد مملوء قَتْلَى، وقالوا: أنتَ إلى ساعة أُخرى من هؤلاء، فقُلتُ: لا يدفع قضاءَ الله بحيلة.

فسألني بعض كُبرائهم عن المانع من الدُّخُول إليه، والاجتماع بـه، قُلـتُ: هـؤلاء يُريـدون أن يعملوا بي حيلة، حتَّى أُخرجَ صاحبها، فيقتلوه، ويملكوا البلد، فيقتلوا مَـنْ فيـه، وأكـون الـسبب في ذلك، فاستعظم ما قُلتُه! وقال لي: لا تتكلَّم بهذا، تُقتَل. ثُمَّ إنَّهم أمروني بالاجتماع به، وألحُّوا في ذلـك، فشرطتُ عليهم أنْ لا يخرج إليهم، ولا يخرج من البلد، وأنَّهم يرحلون متى تمَّ الصُّلح بينه وبينهم.

ثُمَّ تقدَّمتُ إلى باب المدينة ومعي أزدمر بن بايجو، فلمّا وصلنا إلى بابها، خرج إلينا علـم الـدِّين الأعسر - واليهلـ فقُلتُ له: قد أخذَت المسألة منكم ومنهم حقَّها، وأنتم أخبر بمـصلحتكم. وتردَّدنـا بينهما ثلاثة أيّام، وهُم - مع ذلك - يبعثون إلينا الشواء، والحلـوى، والـدجاج، ليظهـروا بـذلك قُـوَّة، وكانوا في ضيق من الحال شديد. وقرَّرنا الصُّلح على مئة ألف درهم سُلطانية، وستَّة آلاف نصفية مـن

عمل البلد، وثلاثين جملاً، وثلاثين بغلاً، وسبعين فَرَساً. فأخرجوا لنا بعضها، وقالوا: متى رحلوا سَيَّرْنَا الباقي إليهم، فرحلوا من غربي البلد إلى شرقيه،عازمين على الرحيل.

فوردتْ عليهم كُتُبٌ من بدر الدِّين ـ صاحب المَوصل ـ يُخبرهم فيها: أن الشهرزورية والأُمراء الصالحية وصاحب الكَرَك قد اتَّفقوا على الملك النَّاصر، وأخرجوا عساكره من البلاد، وألجؤوهم إلى دمشق، وقد عزم على الهرب منها. هذا وكُتُبُهُ تصل إليَّ، يُحرضني على ترحيل التَّتَر عن مَيَّافارقين، والإصلاح بين الملك الكامل وبينهم، فلمَّا وقفوا على مُكاتبته، عدلوا عن الصُّلح، ومالوا إلى الغدر. وكان القتال قد بطل أيَّاماً، فاغتنم الملكُ الكاملُ الفُرصةَ في عمارة ما هدمته المجانيق من السُّور. فأُحضرنا عند يشموط، وسألنا عن الأُمراء الصالحية، وعدَّتهم، فأخبرتُهُ أنَّهم شُجعاء الإسلام، وهُم الذين كسروا عسكر اريد افرانس على دمياط. وأنَّهم يكونون ألف فارس، فأنكروا ذلك، وقالوا: إن عدَّتهم أقلُّ من هذا، فقُلْتُ لهم: أنا أعرف الذي نقل إليكم. ثُمَّ جدُّوا في القتال، وأمروني بالعود.

النَّصُّ كما ورد في: (الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد،3 / 2 / 491 ـ 497).

رسالة هُولاكُو إلى النَّاصر الثَّاني بعد سُقُوط بغداد، وقد كتبها له بالعَرَبيَّة نصير الدِّين الطوسي:

أمَّا بعد: فقد نزلنا بغداد سنة ستّ وخمسين وستّمائة، فساء صباح المُنذرين، فدعونا ملكها، فأبى، فحقَّ عليه القول، فأخذناه أَخْذَاً وبيلاً. وقد دعوناكَ إلى طاعتنا، فإنْ أتيتَ، فَرَوْحٌ ورَيحان، وإنْ أبيتَ، فخزْيٌ وخُسران، فلا تكنْ كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفِّه، فتكون من الأخسرين أعمالاً، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا، وهُم يحسبون أنَّهم يُحسنون صُنعاً، فما ذلك على الله بعزيز، والسلام على مَن اتَّبع الهُدى.

النَّصُّ كما ورد في:

1 ـ (جامع التواريخ للهمذاني، ج2، ق1 ـ 296).

2 ـ (وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مُحمَّد ماهر حمادة، 351).

رسالة أُخرى من هُولاكُو إلى الملك النَّاصر:

يعلم سُلطان مصر ناصر، طال بقاؤه، إنَّا لمَّا توجَّهنا إلى العراق، وخرج إلينا جُنُودهم، فقتلناهم بسيف الله. ثُمَّ خرج إلينا رُؤساء البلد، ومُقدَّموها، فكان قُصارى كلامهم سبباً لهلاك نُفُوس تستحقُّ الإهلاك. وأمَّا ما كان من صاحب البلد؛ فإنَّه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عُبُوديَّتنا، فسألناه عن أشياء كذَّبَنَا بها، فاستحقَّ الإعدام، وكان كذبه ظاهراً، ووجدوا ما عملوا حاضراً.

أجبْ ملك البسيطة، ولا تقولنَّ: قلاعي المانعات، ورجالي المُقاتلات. ولقد بلغنا أن شرذمة من العَسْكَر التجأت إليك هاربة وإلى جنابكَ لائذة:

أيـن المفـرُّ ولا مفـرَّ لهـارب ولنـا البـسيطان الثـرى والمـاء

فساعة وُقُوفكَ على كتابنا تجعل قلاع الشَّام سماءها أرضها، وطُولها عرضها، والسلام.

النَّصُّ كما ورد في:

(وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مُحمَّد ماهر حمادة، 352)

رسالة أُخرى من هُولاكُو إلى الملك النَّاصر:

أمَّا بعد: فنحنُ جُنُود الله، بنا ينتقم ممَّنْ عتا، وتجبَّر، وطغى، وتكبَّر، وبأمر الله ما ائتمر، إنْ عُوتب، تنمَّر، وإنْ رُوجع، استمرَّ، وتجبَّر. ونحنُ قد أهلكنا البلادَ، وأبَدْنَا العبادَ، وقتلنا النسوانَ، والأولادَ، فأيُّها الباقون؛ أنتم بمَنْ مضى لاحقون، ويا أيُّها الغافلون؛ أنتم إليه تُساقون. ونحنُ جُيُوش الهَلَكَة، لا جُيُوش المملكة، مقصودنا الانتقام، وملكنا لا يُرام، ونزيلنا لا يُضام، وعدلنا في مُلكنا قد اشتهر، ومن سُيُوفنا أين المفرّ:

أين المفرُّ ولا مفرَّ لهارب ... ولنا البسيطان الثرى والماء

ذلَّت لهيبتنا الأُسُود فأصبحت ... في قبضتي الأُمراء والخُلفاء

ونحنُ إليكم صائرون، ولكم طالبون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب:

ستعلم ليلى أيَّ دين تداينت ... وأيَّ غريم بالتقاضي غريمها

دَمَّرْنَا البلادَ، وأيْتَمْنَا الأولادَ، وأهْلَكْنَا العبادَ، وأذَقْنَاهُم العذابَ، وُجَعَلْنَا عظيمَهُم صغيراً، وأميرهم أسيراً. أَتحسبون أنكم منَّا ناجون، أو مُتخلِّصون؟ وعن قليل سوف تعلمون على ما تُقدمون، وقد أُعذرَ من أنْذَرَ، والسلام.

النَّصُّ كما ورد في: (شذرات الذهب، الحنبلي،2/ 272ـ273).

كتاب هُولاكُو إلى أهل دمشق بعد هُرُوب الملك النَّاصر، وقد قُرِىء الكتاب في الجامع الأُموي، وكان منه:

أمَّا بعد: فنحنُ جُنُود الله، بنا ينتقم ممَّنْ عتا، وتجبَّر، وطغى، وتكبَّر، وبأمر الله ما ائتمر، إنْ عُويف تنمَّر، وإنْ رُوجع، استمرَّ، ونحنُ قد أَهْلَكْنَا البلادَ، وَأَبَدْنَا العبادَ، وَقَتَلْنَا النسوانَ، والأولادَ، ولا نُبقي على وجه الأرض منكم أحداً، فيا أيُّها الباقون؛ أنتم بمَنْ مضى لاحقون، ويا أيُّها الغافلون؛ أنتم إليها تُساقون، ونحنُ جُيُوش الهَلَكَة، لا جُيُوش الملكة، مقصودنا الانتقام، ومُلكنا لا يُرام، ونزيلنا لا يُضام، وعدلنا في مُلكنا قد اشتهر، ومن سُيُوفنا أين المفرّ.

أيـــن المفـــرُّ ولا مفـــرَّ لهـــارب   ولنـــا البـــسيطان الثـــرى والمـــاء

ذلَّـــت لهيبتنـــا الأُسُـــود فأصـــبحت   في قبـــضتي الأُمـــراء والخُلفـــاء

ونحنُ إليكم صائرون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب:

ســـتعلم لـــيلى أيَّ ديـــن تـــداينت   وأيَّ غـــريم بالتقـــاضي غريمهـــا

دَمَّرْنَا البلادَ، وأَيْتَمْنَا الأولادَ، وأَهْلَكْنَا العبادَ، وأَذَقْنَاهُم الألـيمَ، وَجَعَلْنَا عظيمهم صغيراً، وأميرهم أسيراً، تحسبون أنكم منَّا ناجون؟! أو مُتخلِّصون! وعن قليل سوف تعلمون على ما تُقدمون، وقد أُعْذرَ مَنْ أَنْذَرَ.

النّصُّ كما ورد في:

المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 255 .

تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 224 – 225 .

السُّلُوك، المقريزي، 1 / 514.

ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني،1/ 357.

وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مُحمَّد ماهر حمادة، 353.

رسالة نصير الدِّين الطوسي من قبَل هُولاكُو إلى أهل الشَّام:

قُل اللّهُمَّ فاطر السموات والأرض. الذي يُعْلِم به جمال الدِّين بكتمر، وعلاء الدِّين القيمري، وسائر أُمراء الشَّام والأجناد.

اعلموا إنَّا جُند الله، خَلقَنَا من سخطه، وسَلَّطنا على مَنْ حَلَّ عليه غضبه، لا نرقُّ لشاك، ولا نرحم عبرة باك. قد نزع الله الرحمةَ من قُلُوبنا، فالويل، كُلُّ الويل، لمَنْ لم يكن من حزبنا. قد خَرَّبْنَا البلادَ، وأَيْتَمْنَا الأولادَ، وأَظْهَرْنَا في الأرض الفسادَ. خُيُولنا سوابق، ورماحنا خوارق، ولُبُوثنا سواحق، وقُلُوبنا كالجبال، وعَدَدُنا كالرمال. مَنْ رام سلْمَنَا سَلمَ، ومن رام حَرْبَنَا ندمَ، فمُلكنا لا يُرام، وجارنا لا يُضام. فإنْ قبلتُم شرطنا، وأطعتُم أمرنا، كان لكم ما لنا، وعليكم ما علينا. وإن أنتُم خالفتُم، وأبيتُم، وعلى غيِّكم تماديتُم، فلا تلوموا إلاَّ أنفسكم.

الحُصُون بين أيدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تردُّ، ولا تدفع، ودُعاؤكم علينـا لا يُـستجاب، ولا يُسمَع، لأنكم أكلتُم الحـرامَ، وأظهـرتُم البـدعَ، وحنثـتُم بـالأيمان، وضـيَّعتُم الجُمَـعَ، وتفاشـيتُم الحسدَ، والطُّغيانَ، فاستبشروا بالمذلَّة، والهوان. فاليوم تُجـزون عـذاب الهـون بـما كُنـتُم تـستكبرون في الأرض بغير الحقِّ، وبما كُنتُم تفسقون، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلب ينقلبون.

وقد ثبت عندكم أنَّنا كَفَرَة، وحقَّ عندنا أنكم فَجَرَة، وقد سلَّطنا عليكم مَنْ بيده أُمُور مُقدَّرة، وأحكام مُدبَّرة. فعزيزكم لدينا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، والأمن والخوف لِمَنْ هُو بين أيدينا طويـل، فإنَّا مُلُوك الأرض، شرقاً وغرباً، وأصحاب الأموال سلباً ونهباً، وآخذون كُلَّ سفينة غـصباً. فمَيِّـزوا بعُقُولكم طُرُق الصواب، وأسرعوا إلينا برَدِّ الجواب، من قبل أن تستعر الحَرْب نارها، وترمي إلـيكم شرارها، فلم يَبقَ لكم باقية، وتضحى الأرض منكم خالية، ويُنادي عليكم مُنادي الفناء: فهل تحسبنَّ منهم مَنْ أجاب؟ أو تسمع لهم ركزاً؟ وقد أنصفناكم إذْ سألناكم، ونثرنا جواهر الكلام، والسلام.

جواب أهل الشَّام على رسالة هُولاكُو:

قُل اللّهمَّ على كُلِّ شيء قدير. والحمد لله، والصلاة على سيِّدنا مُحمَّد النبي الأُمِّي.

جواب على كتاب وَرَدَ فجراً مـن الحـضرة الخاقانيـة، والـسدة الـسُّلطانية، نـصرَ الله أشـدها، وجعل الصحيح مقبولاً عندها، وبان أنكم مخلوقون من سُخطه، مُسلَّطون على مَنْ حلَّ عليه غـضبه، ولا ترقُّون لشاك، ولا ترحمون عبرة باك، قد نزع الله الرحمة من قُلُـوبكم، وذلـك مـن أكثر عُيُـوبكم، فهذه صفات الشياطين، لا صفات السلاطين، كفى بهذه الشهادة لكم واعظاً، وبما وصفتُم به أنفسكم ناهياً، وآمراً. قُلْ يا أيُّها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون. ففي كُلِّ كتاب لُعنـتُم، وبكُـلِّ قبـيح وُصـفتُم، وعلى لسان كُلِّ رسول ذُكرتُم، وعندنا خبركم من حيثُ خُلقتُم، وأنتم الكَفَرَةُ كـما زعمـتُم، ألا لعنـة الله على الكافرين.

وقُلتُم: إنَّنا أظهرنا الفساد، ولا عُدَّ من أنصار فرعون مَنْ تمسَّك بالأُصُول، ولا يُبالي بالفُرُوع. ونحنُ المُؤمنون حقَّاً، لا يُداخلنا عيب، ولا يصدُّنا غيب، القُرآن علينا نزل، وهُـو رحـيم بنـا لم يـزل، تحقَّقنا تنزيله، وعرفنا تأويله. إنَّما النار لكم خُلقَتْ، ولجُلُودكم أُضرمَـتْ؛ إذ الـسماء انفطـرت. ومـن أعجب العجب تهديد اللُّيُوث بالرتوت، والسِّباع بالضِّباع، والكُماة بالكراع. خُيُولنا برقية، وسـهامنا يمانية، وسُيُوفنا مضرية، وأكتافها شديدة المضارب، ووصفها في المشارق والمغارب، فُرساننا لُيُوث إذا

ركبت، وأفراسنا لواحق إذا طلبت، سُيُوفنا قواطع إذا ضربت، ولُيُوثنا سواحق إذا نزلت، جُلُودنا دُرُوعنا، وجواشننا صُدُورنا، لا يصدع قُلُوبنا شديد، وجمعنا لا يُراع بتهديد، بقُوَّة العزيز الحميد، لا يهولنا تخويف، ولا يُزعجنا ترجيف. إنْ عصيناكم، فتلك طاعة، وإنْ قتلناكم، فنعم البضاعة، وإنْ قُتلنا، فبيننا وبين الجنَّة ساعة.

قُلتُم: قُلُوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يهوله كثرة الغنم، وكثرة الحطب يكفيه قليل الضرم. أَفيكون من الموت فرارنا؟ وعلى الذُّلّ قرارنا؟ ألا ساء ما يحكمون! الفرار من الدنايا، لا من المنايا، فهُجُوم المنيَّة، عندنا، غاية الأُمنيَّة. إنْ عشنا، فسعيداً، وإنْ متنا، فشهيداً، ألا إن حزب الله هُم الغالبون. أَبَعْدَ أمير المُؤمنين، وخليفة رسول ربِّ العالمين، تطلبون منَّا الطاعة؟! لا سمعاً لكم، ولا طاعة. تطلبون أن نُسلِّم إليكم أمرنا قبل أن يتكشف الغطاء، ويدخل علينا منكم الخطا. هذا كلام في نظمه تركيك، وفي سلكه تسليك، ولو كُشف الغطاء، ونزل القضاء، لبان مَنْ أخطأ، أَكُفْرٌ بعد الإيمان، ونقضٌ بعد التبيان.

قُولُوا لكاتبكم الذي رصف مقالته، وفخَّم رسالته، ما قصَّرتَ بها قصدتَ، وأوجزتَ وبالغتَ: والله؛ ما كان عندنا كتابكَ إلاَّ كصرير باب، أو طنين ذُباب، قد عرفنا إظهار بلاغتك، وإعلانَ فصاحتكَ. وما أنتَ إلاَّ كما قال القائل: حفظتَ شيئاً، وغابتْ عنكَ أشياء. كتبتَ: سيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلب ينقلبون. لكَ هذا الخطاب، وسيأتيكَ الملك النَّاصر، وبكتمر، وعلاء الدِّين القيمري، وسائر أُمراء الشَّام ينفرون الإيصال إلى جهنَّم، وبئس المهاد، وضرب اللَّمم بالصماصم الحداد. وقُلْ لهم: إذا كان لكم سماحة، ولديكم هذه الفصاحة، فما الحاجة إلى قراءة آيات، وتلفيق حكايات، وتصنيف مُكاتبات؟ وها نحنُ مُؤخَّر الصَّفر موعدنا الرّستن، وألا تعدنا بإمكان السِّلْم، بل قُلنا ما حضر، والسلام.

وَرَدَ نصُّ الرسالتَيْن في:

مخطوطة مكتبة الدِّراسات العُليا، جامعة بغداد، رَقم: 975، (نشر صُورتها د. عبد الأمير الأعسم، في كتاب: الفيلسوف نصير الدِّين الطوسي، 163ـ169، دار الأندلس، بيروت / 1975).

رسائل فرنجة الأرض المحتلّة إلى أوروبا

رسالة مُقدَّم الدَّاوية في عكّا بيتر دي مُونت آليوت إلى أسقف إلمنيوم، يشرح فيها أوضاع المملكة بعد الاستيلاء على دمياط:

إلى أخينا المُحترم في المسيح، يُرسل إليكم تحياته ن.n ، بنعمة الرّبّ أسقف إليمنيوم Elimenum، وبطرس دي مُونت أليوت مُقدَّم فُرسان الدَّاويَة.

نُعلم قداستكم بالرسائل المعروضة أمامكم عن سَيْر أُمُور مولانا يسوع المسيح مُنْذُ الاستيلاء على دمياط وعلى قلعة تنيس، وليكن معلوم لديكم بالمقام الأوَّل أنّه بعد الاستيلاء المذكور، وصل إلى دمياط عدد من الحُجّاج، شكَّلوا مع بقيَّة الجيش الذي بقي، ما فيه كفاية لشحن دمياط، وللدفاع عن المُعسكر، ومولانا النائب البابوي ورجال الدِّين، يرغبون في تقدُّم قضيَّة جيش المسيح، ولذلك غالباً ما يقومون بحَثِّ الناس، وتحريضهم للهُجُوم على المُسلمين، لكنَّ نُبلاء الجيش، وكذلك الذين في مناطق ما وراء البحر ومعهم الذين هُم من جانبنا من المياه، يرون أن الجيش ليس كافياً للدفاع عن المدينتَيْن المُتقدِّمَتَيْ الذِّكر والقلعتَيْن، وفي الوقت نفسه؛ لا يُمكن المضي أبعد في سبيل منفعة المَسيحيَّة، ولذلك هُم لم يُوافقوا على هذه الخُطَّة، لأن سُلطان مصر مع حشد لا يُحصى عدده من المُسلمين، قد نصب مُعسكره قُرب دمياط، وبنى على كُلِّ فرع من فُرُوع النهر جُسُوراً ليُعيق تقدُّم الصليبيين، وهُو هُناك مع جيش عملاق، وأن يقوم الصَّليبيُّون بالتقدُّم أكثر، فإنَّهم ـ وقتها ـ سوف يكونون في خطر هُو الأعظم، ومع ذلك؛ لقد قُمنا بتحصين المدينة المذكورة، والمُعسكر، والساحل القريب منّا، بخنادق من جميع الجهات، مُتوقِّعين أن تتمَّ مُواساتنا من قبل الرّبِّ بوساطة مُساعدة الذين هُم قادمين لمُساعدتنا.

ورأى المُسلمون ـ على كُلِّ حال ـ عدم كفايتنا، فسلَّحوا جميع غلايينهم، وبعثوا بهم إلى البحر في شهر أيلول، وسبب هؤلاء خسارة كبيرة ألمَّتْ بالصليبيين الذين كانوا قادمين لتقديم العون إلى الأرض المُقدَّسة، وكان هُناك في جيشنا عجز كبير بالمال، إلى حَدٍّ أنّه لم يعد بإمكاننا الحفاظ على سُفُننا لأيّة مُدَّة أطول. ولدى معرفتنا بأنَّ خسائر كبيرة تنزل بالجيش الصليبي، بوساطة غلايين المُسلمين تلك، قُمنا على الفور بتسليح غلايينا، وسُفُننا، ومراكبنا الأُخرى للتصدِّي لهم. وليكن ـ أيضاً ـ

معروفاً لديكم بأنَّ المُعظَّم سُلطان دمشق، قد حشد جيشاً كبيراً من المُسلمين، ولدى معرفته بأنَّ مدينتَيْ عكَّا، وصُور، لم تكونا مُزوَّدَتَيْن بما يكفي من الفُرسان والجُنُود للتصدِّي له، قام ـ بشكل مُستمرٍّ ـ بإلحاق الأذى الشديد بهذَيْن المكانَيْن، بشكل سرِّيٍّ، وبشكل علني.

وبالإضافة إلى هذا، غالباً ما جاء، ونصب مُعسكره أمام مُعسكرنا، الذي اسمه: المحجّ ـ عثليت، مُلحقاً بنا كُلَّ أنواع الأذى، كما أنَّه حاصر قيسارية في فلسطين، واستولى عليها، مع أنَّه كان هُناك عدد من الحُجَّاج مُقيمين في عكَّا.

وعليَّ ـ أيضاً ـ أن أُخبركم بأنَّ الأشرف ابن سيف الدِّين، وأخا سُلطانَيْ مصر ودمشق، يُقاتل مع جيش قوي ضدَّ المُسلمين في المناطق الشَّرْقيَّة، وقد انتصر على أعظم أعدائه قُوَّة، لكنْ؛ ليس ضدَّ الجميع، لأنَّه بفضل الرّبِّ سوف لن يكون بإمكانه ـ بسُهُولة ـ قَهْرهم جميعاً، لأنَّه إذا ما استطاع إنهاء تلك الحَرْب، سوف يكون من المُمكن أن يلتفت باهتمامه نحو كُونتية أنطاكية، أو نحو طرابلس، أو عكَّا، أو مصر، ولسوف نكون في الخطر الأعظم، إذا كان سيتولَّى حصار أيَّة واحدة من قلاعنا، لأنَّنا لن نستطيع ـ بأيِّ حال من الأحوال ـ دفعه، وإبعاده.

هذا؛ والحديث عن وُجُود خلافات بين المُسلمين يمنحنا السُّرُور والراحة، علاوة على ذلك؛ إنَّنا مُتوقِّعون ـ مُنْذُ وقت طويل ـ وُصُول الإمبراطُور، ونُبلاء آخرين بهم نأمل أن نتحرَّر، ونأمل بوُصُولهم بإنهاء هذه المسألة، التي بدأت بأيدي كثيرة، إلى نهاية سعيدة، ولكنْ؛ إذا خابت آمالنا بشأن هذه المُساعدة، ولم تصل في الصيف المُقبل، الأمر الذي آمل أنْ لا يحدث، سوف يكون وضع البلدَيْن اللذَيْن هُما مصر وسُورية، وما تملَّكناه مُؤخَّراً، والذي نمتلكه مُنْذُ زمن طويل، في موضع شكٍّ.

وبالإضافة إلى ما تقدَّم؛ لقد ظُلمنا نحنُ والناس الآخرين من جانبنا من الغَرْب بالنفقات العالية جدّاً في الاستمرار بهذه الصَّليبيَّة، ووصل الحال والضيق بنا إلى درجة أنَّنا سوف نكون غير قادرين على الإنفاق على حاجتنا الضرورية، ما لم نتسلَّم ـ بفضل الرحمة اللاهوتية ـ بأسرع وقت مُمكن المُساعدة من أبناء ديننا المسيحيين.

صَدَرَ في عكَّا في العشرين من أيلول.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زكَّار، 45/ 785.

رسالة من فيليب دي آلبيني (619 هـ 1222م) الفارس الإنكليزي في القُدْس إلى رالف إيرل شيستر حول فقدان دمياط:

إلى صاحب القداسة والمولى والصديق رالف ايرل شيستر ولنكولن، يتمنَّى له صديقه المُخلص فيليب دي ألبيني الصحَّة وخالص العواطف. عليَّ أن أُخبر معاليكم أنَّه في يوم صُعُود العذراء مريم أبحرنا من ميناء مرسيليا، وفي يوم الاثنَيْن قبل ميلاد العذراء نفسها، وصلنا إلى أمام دمياط، وهُناك رأينا عدداً كبيراً من السُّفُن تُغادر البلدة، ولقد تحدَّثتُ مع واحد من المراكب، وقدَّمتُ هدايا إلى الملاحين، وبناءً عليه؛ قدموا، وتحدَّثوا إلينا، وجلبوا إلينا تقارير حزينة جدَّاً، أفادت بأنَّ شعبنا في دمياط، والنُّبلاء في تلك المدينة، وملك القُدْس، والنائب البابوي، ودُوق بافاريا، والدَّاوية والاسبتاريَّة، مع آخرين كُثُر، بلغ عددهم إلى ألف صليبي، وخمسة آلاف من الفُرسان الآخرين، مع أربعين ألفاً من الجُنُود الرجَّالة، قد مضوا في حملة نحو القاهرة، وذلك على الرّغم من مُعارضة الملك؛ حيثُ ـ كما قيل ـ قد غادروا في يوم عيد القدِّيس بُطرُس في الأغلال، وهذا معناه أنّه مضى على غيابهم في تلك الحملة ثلاثة أسابيع، أو أكثر، وهُم ـ الآن ـ في حوالي مُنتصف الطريق بين دمياط والقاهرة.

وقدم ـ وقتها ـ سُلطان القاهرة مع أخيه المُعظَّم، ومعهما جميع القُوَّات التي تمكَّنا من حشدها، وغالباً ما هاجما قومنا، وكثيراً ما فقدا بعضاً من رجالهما، وعندما رغب شعبنا بالعودة إلى دمياط، أصبح النهر فائضاً، وطاف لعدَّة أيَّام على طرفَيْه، وانحصر شعبنا بين فُرُوع النهر، ثُمَّ عمل المُسلمون قناة من فرع إلى آخر على مقربة من جيشنا، وفي الوقت نفسه؛ ازداد ارتفاع النهر بشكل كبير جدَّاً، حتَّى إن شعبنا صار رجاله يخوضون في الماء حتَّى رُكبهم، وأوساطهم، ممَّا سبَّب لهم شقاءً عظيماً، وآلاماً، وبذلك صاروا عُرضة إمَّا للقتل، أو الوُقُوع أسرى بيد سُلطان القاهرة، وذلك حسبما يرغب.

وفي ظلِّ هذه الأوضاع وافق شعبنا على هُدنة لمُدَّة ثمانية أعوام، وأبرموها مع السُّلطان، على شرط تخلِّيهم عن دمياط، وتسليمهم لها مع جميع الأسرى الذين لديهم بالأسر. وفي سبيل مُراعاة هذه الهُدنة، وتنفيذها، بقي ملك القُدْس، والنائب البابوي، ودُوق بافاريا والشخصيات الهامَّة الأُخرى بمثابة رهائن، وقدم السُّلطان، وأعطى عشرين رهينة من أجل مُراعاة الهُدنة من جانبه.

وعندما سمعنا بهذه التقارير شعرنا بحُزن عظيم، كما يتوجَّب على كُلِّ مسيحي أن يشعر، وبناءً عليه رأينا أن من الأفضل أن نأخذ طريقنا إلى عكَّا، لأنَّنا لم نرغب أن نكون حُضُوراً لدى تسليم دمياط، وقد وصلنا إلى عكَّا في اليوم التالي لميلاد العذراء مريم، وهُو اليوم الذي أعقب يوم تسليم دمياط إلى السُّلطان، وقد قام السُّلطان نفسه بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا لديه.

وعليَّ ـ أيضاً ـ أن أُخبركم أن صاحب الجلالة ملك القُدْس، على نيَّة الذهاب إلى بلادكم، ولذلك أرجوكم أن تُقدِّموا له العونَ، وُفقاً للوُعُود التي عُملت نحو الملك والنُّبلاء الآخرين، لأنَّه من الصعب وصف فضائله الكُبْرَى، التي هي موضع إعجاب.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 45/ 787.

رسالة الراهب بيتر دي مُونت أليوت مُقدَّم الدَّاويَة إلى آ. مارتل في إنكلترا:

من الراهب ب. P دي مُونت أليوت، المُقدَّم المُتواضع لفُرسان الدَّاويَة، إلى أخيه المحبوب في المسيح آ. مارتل ـ A. Martel، الشاغل لمنصب مُدرِّس في إنكلترا، تحيَّات: لقد كُنَّا ـ من حين إلى آخر ـ قد أخبرناكم عن تطوُّر أحوال القضية التي نحنُ بشأنها، والمُتعلِّقة بشُؤُون يسوع المسيح، ونُخبركم ـ الآن ـ بانتظام عن الانتكاسات التي واجهناها في أرض مصر، بسبب ذُنُوبنا، فلقد مكث الجيش الصليبي بعد الاستيلاء على دمياط وقتاً طويلاً، دُونما حراك، في ذلك المكان، ولقد ألقى الناس الذين قدموا من مناطقنا في الغَرْب، والذين جاءوا من مناطق ما وراء البحر، الملامة والنقد علينا بسبب هذا السُّلُوك، وقد وصل دُوق بافاريا بمثابة قائد مُمثِّل للإمبراطُور، وقد أوضح للناس بأنَّه قد جاء بغرض الحَرْب ضدَّ أعداء الإيمان المسيحي، وبناءً عليه؛ جرى عقد اجتماع ضمَّ مولانا النائب البابوي، ودُوق بافاريا، ومُقدَّمو الدَّاويَة والاسبتاريَّة وطائفة التيُوتُون، والإيرلات والبارونات، فيه تقرَّر ـ بالإجماع ـ القيام بالتقدُّم. وبعدما جرى الإرسال خلف ملك القُدْس المشهور، جاء مع باروناته ومعه أُسطُول من الغلايين والسُّفُن المُسلَّحة، ووصل إلى دمياط، ووجد جيش الصليبيين مُقيماً في مُعسكره خارج الخُطُوط. وبعد عيد القدِّيسين بُطرُس، وبُولُص، استأنف ـ وقتها ـ صاحب الجلالة الملك والنائب البابوي ومعهما الجيش الصليبي كُلّه، الزحف ـ بشكل نظامي ـ في كُلِّ من البرِّ والماء، وقد اكتشفوا وُجُود السُّلطان مع حشد لا يُحصَى من أعداء الصليب، وقد هرب هؤلاء من

أمامهم، وبناءً عليه؛ تابعوا زحفهم من دُون خسائر، حتَّى وصلوا إلى مُعسكر السُّلطان، وكان هذا المُعسكر مُحاطاً بنهر، كانوا غير قادرين على عُبُوره، ولذلك أقام الجيش الصليبي مُعسكره على ضفَّة النهر، وشيَّد جُسُوراً للعُبُور إلى أمام مُعسكر السُّلطان، الذي كُنَّا مفصولين عنه بوساطة نهر تنيس، الذي هُو فرع لنهر النيل العظيم. وبعدما أقمنا بعض الوقت هُناك، غادر عدد كبير جيشنا، من دُون الحُصُول على إذن، ولذلك نقص عدد الجيش بعشرة آلاف، أو أكثر. وفي الوقت نفسه، عندما فاض النيل، أرسل السُّلطان غلايين وبراكيس إلى داخل النهر لإعاقة سُفُننا، وفعل ذلك من خلال أقنية، كان فَتَحَهَا، وأَعَدَّها من قبلُ، وبهذه الطريقة؛ لم يكن من المُمكن وُصُول مُؤن إلينا من دمياط، وبذلك حُرمنا من المُؤن، لأن المُؤن تعذَّر وُصُولها إلينا عبر البرِّ، بسبب أن المُسلمين منعوها من الوُصُول، وهكذا؛ فإن الطريق بالبحر والبرِّ الذي كان من المُمكن عبره أن تصل المُؤن الضرورية إلينا بات مُغلقاً. وعقد الجيش اجتماعاً للتباحث من أجل العودة، لكنَّ أخوا السُّلطان: الأشرف والمُعظَّم، سُلطانا: حلب ودمشق والسلاطين الآخرون، خاصَّة سلاطنة: حمص، وحماة، وقلعة جعبر، مع مُلُوك مُسلمين كثير آخرين، وجيش لا يُحصى عدده من المُسلمين، كانوا قد جاءوا لمُساعدتهم، تولّوا قطع طريق تراجعنا، وغادر ـ على كُلِّ حال ـ جيشنا أثناء الليل، وسار عبر البرِّ والماء، لكنَّه فقد كُلّ المُؤن في النهر، وذلك إلى جانب عدد كبير من الرجال، لأنَّه عندما فاض النهر، وجَّه السُّلطانُ الماءَ في اتِّجاهات مُختلفة من خلال مجاري خفيَّة وأقنية وترع، كانت كُلُّها قد أُعدَّت قبل وقت مضى لإعاقة تراجع الصليبيين، وبناءً عليه؛ تفرَّق جيش المسيح بين الأغواط، ولذلك فقد جميع حيوانات الحُمُولة لديه، ومخزوناته، وجميع حاجياته الضرورية تقريباً، وصار بذلك محروماً من المُؤن، وبذلك لم يعدْ بإمكانه الاشتباك بالقتال مع السُّلطان، بسبب أنَّه كان مُحاطاً بالنهر، وهكذا بات مُعتقلاً في وسط المياه مثل سمكة. وعندما وجد قادة الجيش أنفسهم في هذا المأزق، وافقوا مُكرهين على تسليم مدينة دمياط إلى السُّلطان، مع جميع الأسرى الذين يُمكنهم العُثُور عليهم في صُور وعكَّا، مُقابل الصليب الحقيقي، والأسرى الصليبيين الموجُودين في مصر ودمشق.

وبناءً عليه؛ نبنا مع عدد آخر من الرُّسُل عن الجيش بشكل عامٍّ، وذهبنا إلى دمياط لإخبار الناس في المدينة عن الشُّرُوط التي فُرضت علينا، ممَّا أزعج كثيراً أسقف عكَّا، والمُستشار، وهنري كُونت مالطا، الذي وجدناه هُناك، ذلك أنَّهم رغبوا بالدفاع عن المدينة، وهُو ما توجَّب علينا المُوافقة

عليه، لو أمكن فعله، والقيام به مع أيّة منافع، لأنّنا كُنّا بالحري نُؤثر أن نُوضَع في أَسْر دائم على تسليم المدينة للمُسلمين، الذي هُو عار للصليبية. وبناءً عليه؛ قُمنا بعملية بحث دقيقة خلال المدينة، ومع الأفراد والأوضاع المُؤثِّرة، فلم نجد مالاً، ولا أُناساً، يُمكن بوساطتهم الدفاع عن المدينة، ولذلك رضخنا لهذه الاتِّفاقية، وربطنا أنفسنا بالإيمان، وبإعطاء رهائن، ووافقنا على هُدنة ثابتة لمُدَّة ثمانية أعوام، والتزم السُّلطان، حتّى الانتهاء من الترتيبات، بدقَّة بما كان قد وعد به، وزوَّد جيشنا الجائع بالخُبز والدقيق لقرابة خمسة عشر يوماً، ولذلك تعاطف برحمة مع آلامنا، وساعدنا بقدر ما أنت تستطيع ووداعاً.

النّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، 45/ 789.

وثائق تتعلّق بحملة فريدريك الثّاني

رسالة البابا غريغوري إلى المسيحيين حول اتّفاق الإمبراطور فريدريك مع الملك الكامل:

من غريغوري الأسقف، عبد عبيد الرّبّ، إلى جميع المؤمنين المسيحيين.

التحيّات، . . . إلخ.

ليكن معلوماً لدى جماعتكم كُلّها بأننا قد تسلّمنا رسائل من بلاد ما وراء البحر، مُحتواها هُو كما يلي: من جيرالد، الذي هُو برحمة الرّبّ بطريرك القُدْس، ومن ب.p رئيس أساقفة قيسارية، الذي هُو النائب الحقير والمُتواضع للكُرسي الرسولي، ومن ن. N رئيس أساقفة نربونة، ومن ب. P أسقف أُوف وينكستر، ومن و.w أسقف أوف ايكستر، ومن مُقدّمي الاسبتاريّة، ومُقدّمي فُرسان الدّاويّة، ومن طائفة اسبتارية التّيُوتُون، إلى جميع مَنْ سوف تصلهم هذه الرسائل، تمنّيات الصحّة في مولانا يسوع المسيح.

نحنُ مُرغمون على إخبار جماعتكم كُلّها عن حاجاتنا الأكثر إلحاحاً وعجلة، وعن تقدُّمنا في العمل في سبيل قضيّة مولانا يسوع المسيح، الذي سفك دمه من أجل جميع المُؤمنين الصادقين، وإنّه ـ مع كثير من القلق والانزعاج في العقل، ومع سفح للكثير من الدُّمُوع ـ تعلمون أن صاحب المقام السامي، الإمبراطُور لم يقدم إلى سُورية، كما كُنّا جميعاً نأمل بوُصُوله في شهر آب المُنصرم، كما كان قد وعد، ونتيجة لهذا؛ فإن الحُجّاج من تلك المناطق، عندما سمعوا بأنّ الإمبراطُور لم يصل في العُبُور المُتقدّم، وكان تعدادهم أكثر من أربعين ألفاً من الرجال الأشدّاء، عادوا في السُّفُن نفسها، كما جاءوا، واضعين ثقتهم في إنسان، بدلاً من وضعها في الرّبّ. وبعد مُغادرتهم، قد بقي هُنا قرابة الثمانمائة فارس، هُم الذين ما برحوا يصرخون بصوت واحد: دعونا إمّا أن نخرق الهُدنة، أو اتركونا نُغادر مع بعضنا، وهُم قد أبقوا هُنا ليس من دُون صُعُوبات كبيرة، لأن دُوق أُوف ليمبورغLimburg ، وهُو رجل من أصل نبيل، قد جرى تعيينه قائداً للجيش، في مكان الإمبراطُور، وجرى لهذا عقد مُؤتمر ضمّ بشكل خاصّ: الاسبتاريّة، والدّاويّة، والاسبتاريّة الألمان، وفيه تمّ الاتّفاق على أن يقوم الدُّوق المُتقدّم الذّكر بالعمل حسبما يكون الأفضل لصالح المسألة الصّليبيّة والأرض المُقدّسة. ثُمّ إن الدُّوق سأل،

وتلقَّى النصيحة حول النقاط التَّالية، وظهر في اليوم المُحدَّد بشكل خاصٍّ من أجل القضية المعروضة، أمامنا، وأمام نُبلاء تلك البلاد، وهُناك؛ أعلن ـ بشكل واضح ـ بأنَّه يرغب في خرق الهُدنة، وسأل المُساعدة والنصيحة من الحُضُور حول كيف يُمكنه السير بشكل هُو الأكثر منفعة في سبيل تنفيذ تلك النيَّة، وعندما جرى إخبار الدُّوق ومُستشاريه أنَّه سوف يكون من الخُطُورة بمكان خَرْق الهُدنة، ولأنَّها مُؤكَّدة بالأيمان، سوف يكون ذلك غير مُشرِّف أيضاً، أجابوا بأنَّ صاحب القداسة البابا قد حرم كَنَسياً جميع الصليبيين الذين لن يلتحقوا بهذه الحملة الصَّليبيَّة، مع أنَّه يعلم بأنَّ الهُدنة ينبغي أن تستمرَّ لمُدَّة عامَيْن، وأكثر، وبهذا؛ فهموا بأنَّه يرغب بالحفاظ على هذه الهُدنة، وبالإضافة إلى هذا لن يُبقي الحُجَّاج هُنا من دُون عمل، وكان هُناك ـ أيضاً ـ كثير من الناس قد قالوا بأنَّه ما إنْ يُغادر الحُجَّاج، حتَّى سيقوم المُسلمون بعد مُغادرتهم بمُهاجمتهم، دُون إقامة تقدير للهُدنة، وقال بعضهم بأنَّ الملك الأشرف مشغول بحرب شديدة مع حُكَّام حماة، وحمص، وحلب، ولهذا السبب كان خائفاً ـ أكثر ممَّا هُو مُعتاد ـ من قيام الصليبيين بخَرْق الهُدنة، وإذا ما جرى خَرْق الهُدنة، اعتقدوا بأنَّ الملك الأشرف ـ عندما سيجد نفسه مُعرَّضاً للضغط عليه بالحَرْب من جميع الجهات ـ رُبَّما سيُقدِّم شُرُوطاً للسلام.

وأخيراً؛ وبعد مُناقشات طويلة حول هذه القضايا، وافقوا كُلّهم بالإجماع على الزحف إلى المدينة المُقدَّسة، التي كرَّسها يسوع المسيح بدمه شخصياً، ولكي يكون الوُصُول إليها سهلاً، تقرَّر بالإجماع القيام بالمقام الأوَّل بتحصين قيسارية أوَّلاً، ثُمَّ يافا، الأمر الذي أملوا أن يكونوا قادرين على إنجازه قبل العُبُور الذي سيكون في آب المُقبل، وعندها؛ سوف يكونون في الشتاء المُقبل قادرين بسُرُور على الانطلاق نحو بيت الرَّبِّ، تحت حمايته. وجرى الإعلان عن هذا القرار خارج مدينة عكَّا، في يوم عيد الرسولَيْن سمعان وجُود، وجاء ذلك بحُضُور جميع الحُجَّاج، وهُناك أُمروا ـ بشكل صارم ووقور ـ أن يكونوا جاهزين في اليوم التالي ليوم عيد جميع القدِّيسين، للانطلاق نحو قيسارية.

وبالنسبة للحُجَّاج الذين لم يعرفوا الخُطَّة التي قرَّرها الجيش، لدى سماعهم بهذا، بعد تحصين القلعتَيْن المُتقدِّم ذكْرهما، تملَّكَتْهُم ـ فجأة ـ رغبة عظيمة بالزحف نحو القُدْس، حتَّى إنَّهم بكوا بُكاء كثيراً، وشعروا بأنَّهم تمنَّوا كثيراً بفضل نعمة الرُّوح القُدُس، حتَّى إن كُلَّ واحد منهم شعر بأنَّه قادر على غلبة ألف من الأعداء، وأن اثنَيْن يُمكنهما قهر عشرة آلاف، ولذلك نحنُ لسنا بحاجة إلى

استخدام كثير من المُثيرات لحثّكم وتحريضكم، لأن هـذه الـضرورات المُلحّـة تتحـدَّث عـن نفـسها، وتُطالب بمُساعدة فورية، لأن التأخير يجلب الخطر، والسُّرعة سـوف تكـون مُنتجـة لأعظـم المنـافع، ويدعو دم المسيح من هذه البلاد كُلّ واحد منكم، وهذا الجيش الصغير المُتواضع، لكنَّ التقي، يلتمس منكم مُساعدة سريعة، وهُو يضع أمله وثقته بالرَّبِّ، بأنَّ هذا العمل الذي بدأ بكُلِّ تواضع، يُمكـن أن ينتهي بفضله نهاية سعيدة.

وبناءً عليه؛ حثُّوا أنفسكم جميعاً، وليُقم كُلُ واحد منكم ببـذل غايـة جهـده لمُـساعدة الأرض المُقدَّسة، لأن هذا يُمكن عدّه القضية العامّة لكم كمُؤمنين، ولجميع الشعب المـسيحي، ونحـنُ تحـت عناية الرَّبِّ وتوجيهه لن نتوقَّف عن رفع شأن هذه القضية، آملـين ـ بثقـة ـ بأنّهـا سـوف تتقـدَّم عـلى أيدي المُؤمنين المحفوظين بثقة.

صدر في اللاتيران في الثّالث والعشرين من كانون الأوّل من السنة الأُولى لبابويَّتنا.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، 45/ 851.

رسالة رسولية تحمل قرار حرمان فريدريك:

من غريغوري، أسقف، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، تحيات، إلخ. .

غالباً ما حدث أن كَنيسَة المسيح قد تغلَّبت عليها الاضطرابات، ففي الوقت الذي يُخيَّل إليهـا أنّها تُربِّي الأولاد، وتُغذّيهم، هي ـ بالفعل ـ تُغذّي في صدرها ناراً، وأفاعي، وثعابين، تسعى بأنفاسـها إلى تدمير كُلِّ شيء، وكذلك بنهشاتها، ولهيبها، ولكي يتولّى تدمير التِّنِّينـات مـن هـذا النـوع، ويهـزم العصابات المُعادية، ولكي يُلطِّف الطباع الصعبة، قام الكُرسي الرسولي في هذه الآونـة ـ وسـط عنايـة كبيرة ـ بتربية واحد من التلاميذ، اسمه الإمبراطُور فريدريك، الذي تسلَّم المسؤولية كما كانـت مـن رحم أُمّه، ورضع من صدرها، وحملته على كتفَيْهَـا، وهـي التـي غالبـاً مـا أنقذتـه مـن أيـدي الـذين استهدفوا حياته، وهي التي رَبّتْهُ، وَرَعَتْهُ، حتّى وصل إلى كـمال الـشباب، مُقابـل كثـير مـن المتاعـب والنفقات، وارتقت به إلى مقام الملكيـة، ودفعتـهُ ـ أخيراً ـ حتّـى أوصـلته إلى القمّـة؛ أيْ إلى المحطّـة الإمبراطُوريّة، وكانت واثقة أنّه سوف يكون صولجان الدفاع، وعصا الأيّام الخوالي.

وعندما ذهب إلى ألمانيا، ليتولَّى مقاليد الحُكُومة، وضع أمام عينَـيْ أُمِّـه، مـا اعتقـد أنَّـه بـشارة سعيدة، لكنْ؛ حتَّى نكون صادقين أكثر، ما يُمكن عدُّه بشارة خطيرة، لأنَّه قـام بمُبـادرة منـه، ولـيس بناء على نصيحتنا، ومن دُون معرفة الكُرسي الرسولي، بتثبيـت الـصليب عـلى كتفَيْـه، وعمـل تعهُّـداً ونذراً ثابتاً بأنَّه سوف يذهب لمُساعدة الأرض المُقدَّسة، وحصل بعد هذا على قرار بالحرمـان الكَنَـسي ضدَّه شخصياً، وضدَّ الآخرين، الذين حملوا شارة الصليب، إذا لم ينطلقوا في وقت مُحدَّد، وطلب بعـد هذا، وتلقَّى التحليل، لأنَّه أعطى ـ أوَّلاً ـ يميناً بأنْ يلتزم بقرار الكَنيسَة حـول هـذه المـسألة، وأضـفى الكُرسي الرسولي عليه كثيراً من النِّعَم، ودعاه إلى التتويج، صُدُوراً عن هدف صحيح، حتَّـى يـتمكَّن بسُرعة، وبضمان، من الذهاب إلى الأرض المُقدَّسة، وقام هُو ـ ليس من دُون رغبة ـ بناءً على كثير مـن الوساطات، والرسائل الفخمة، باستخدام راية الصليب حتَّى هذه الآونة.

وعندما تسلَّم التاج من يدَيْ هُونُوريُوس، سلفنا صاحب الذكرى الطيِّبة، في كَنيسَة القـدِّيس بُطـرُس، جـدَّد حمـل الـصليب مـن يـدينا؛ حيـثُ كُنَّـا ـ آنـذاك ـ نـشغل منـصباً أدنـى، وجـدَّد ـ بشكل مُعلن ـ تعهُّده، ونذره، وأقنع كثيرين بحمل الصليب، لأملهـم بتأييـده، وثبَّـت موعـداً مـن أجل عُبُور البحر. ثُمَّ إنَّه عقد ـ بعد ذلك ـ مُؤتمراً مع الكَنيسَة الرُّومانيَّة في فيرولي ـ Veroli ، ووقتها؛ أقسم ـ بشكل علني ـ أنَّه سوف ينطلق مع كُلِّ الأُبَّهة، وبما يليق به كإمبراطُور، وذلك في وقت مُحـدَّد، تتولَّى كَنيسَة رُوما تثبيته، ثُمَّ إنَّه قام ـ بعد هذا ـ في مُؤتمر مُماثل جرى عقده في فيرينتينوـ Ferentino، فثبَّـت تاريخـاً لإقلاعـه يكـون بعـد عـامَيْن مـن ذلـك التـاريخ، كـما أنَّـه وعـد ـ أيضاً ـ بقسم مهيب بأنَّه سوف يعبر البحر، وسيتزوَّج الابنة النبيلة لولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، جُون ملك القُدْس، وهي التي كانت ـ أيضاً ـ وريثـة ذلـك الملـك المـشهور، وقـد أضـاف أنَّـه بهـذه الوسائل سوف يربط نفسه بخدمة الأرض المُقدَّسة، ليس مثل الحُجَّـاج الآخـرين، بـل مثـل الدَّاويَّـة والاسبتاريَّة، إلى الأبد.

وعندما اقترب حُلُول الموعد المُحدَّد، بـدأ يعمـل تعلـيلات كثـيرة، وأعلـن أنَّـه غـير مُـستعدٍّ للذهاب، وقدَّم أُعطيَّات كثيرة، ومنافع، وهدايا، حتَّى يحصل على تأخير لمُدَّة ثلاث سنوات، وبـسبب أن الأُمُور كُلَّها باتت مُتعلِّقة بهذا الأمير، بعد الكَنيـسَة الرُّومانيَّـة، ولكـي لا يجـري إلغـاء المـشروع، وتذهب الجُهُود التي بُذلَتْ من دُون فائدة، عقد الكُرسي الرسولي مُؤتمراً مع عدد من الأساقفة ورجال

آخرين، وناقش القضية، دُون أن يُسقط أيّاً من إشكاليّاتها وظُرُوفها، ثُمَّ بعثنا بأخينا المُبجّل ب. P أسقف ألبانو، وغ. G الكاردينال الحامل للقب كاهن القدّيس مارتن، حتّى يتولّيا تأكيد الوُعُود التي عملها الإمبراطُور عن طواعية، بتقديم المُساعدة إلى الصليب. ثُمَّ إنهما ـ بناءً عليه ـ عقدا مُؤتمراً مع عدد من مُقدَّمي وزُعماء ألمانيا في كَنِيسَة القدّيس جيرمين **Germain**، وهُناك قام الإمبراطُور بمُبادرة منه، فأقسم أنّه خلال عامَيْن من ذلك التاريخ؛ أيْ في عُبُور آب الأخير، سوف يُزيل جميع الأعذار بالتأخير، وسوف يُقلع، وسوف يُبقي هُناك لمُدّة عامَيْن، على حسابه الخاصّ، ألف فارس، لتقديم العون للأرض المُقدَّسة، وأنّه سوف يُرسل في العُبُورات الخمسة المُقبلة مائة ألف أونصة **Ounces** ـ من الذهب لتُدفَع لأشخاص مُحدَّدين هُناك. ثُمَّ قام الكاردينال الكاهن، فأعلن ـ بناءً على مُوافقة الإمبراطُور، وبوساطة سُلطات الكُرسي الرسولي، وأمام المُقدَّمين الموجُودين، وعلى مرأى من الناس المُحيطين ـ قرار الحرمان الكَنَسي، الذي سوف ينزل بالإمبراطُور، إذا لم يُنفّذ واحداً من الوُعُود المذكورة أعلاه.

وعلاوةً على ذلك؛ تعهَّد الإمبراطُور بجَلْب مائة سفينة وخمسين غليون، والاحتفاظ بهم فيما وراء البحر، وأنّه ـ إلى جانب هذا ـ سوف يُعطي في أوقات مُحدَّدة عُبُوراً لألفَيْ فارس، وأقسم برُوحه أنّه سوف يفي بهذه الوُعُود التي ذكرناها. وأبدى رضاه ومُوافقته على تنفيذ الحُكْم الصادر ضدّه وضدَّ مملكته، إذا لم يقم بالوفاء بما وعد به. وأنت تعلم ـ الآن ـ كيف وفى بهذه الوُعُود، لأنّه تحت ضُغُوطه، وبسبب التماساته، توجَّه عدَّة آلاف من الصليبيين، تحت عُقُوبة الحرمان الكَنَسي، قبل الموعد المُحدَّد، إلى ميناء برنديزي، وسحب الإمبراطُور عطفه من جميع مُدُن الساحل تقريباً. ومع أنّه غالباً ما أنذر من قبل سلفنا ومن قبلنا نحنُ حتّى يقوم بجميع الاستعدادات اللازمة، وأن يقوم بإخلاص بالوفاء بكُلِّ ما وعده به، قام بعدم الاهتمام بهذه الوُعُود التي عملها بوساطة رُسُله ورسائله الشخصية، إلى الكُرسي الرسولي، وإلى الصليبيين، وذلك بإرسال الإمدادات وبقيّة الأشياء المُحتاجة، ولم يُولِ أدنى اهتمام لخلاصه الشخصي، واحتفظ بالجيش الصليبي، وأعاقه في أعلى حرارة الصيف، لمُدَّة طويلة، في مناخ قذر ومُميت، ولذلك هلك عدد كبير من عامّة الجُند، وليس منهم فقط، بل هلك عدد لا بأس به من النُّبلاء، وذوي المراتب، بسبب الأمراض، والعطش، والحرارة، ولأسباب أُخرى كثيرة، ومات بينهم أسقفا: أنجو، وأوغسبورغ ـ **Augsburgh** صاحبا الذكرى الطيّبة، وحوّل الذين بقوا من الجيش اتّجاهاتهم للعودة، ومات عدد كبير منهم في الغابات، وفي السُّهُول، والجبال،

والكُهُوف، والذين بقوا مع الصُّعُوبات، حصلوا على الإذن بالمُغادرة، ومع أنّه لم يكن هُناك ما يكفي من سُفُن لحَمْل إمدادات الناس وخُيُولهم كما كان قد وَعَدَ، قاموا في يوم عيد العذراء المُباركة، عندما حان موسم العودة، وأقلعوا مُبحرين، مُعرِّضين أنفسهم للمخاطر، من أجل اسم المسيح، وكانوا يعتقدون بأنَّ الإمبراطُور سوف يتبع خُطواتهم، لكنَّه خرق وُعُوده، وقطع الروابط التي ربط نفسه بها، وألقى جانباً كُلَّ الخوف من الرَّبِّ، ولم يُقدِّم الاحترام إلى يسوع المسيح، ولم يهتمّ بلَوْم الكَنيسَة، وتخلَّى عن الجيش الصليبي، وترك الأرض المُقدَّسة، عُرضة أمام الكُفَّار، واستخفَّ بتقوى شعب المسيح، ولكي يُسبِّب العار لنفسه وللمسيحية انصرف نحو مباهج مملكته، وغادر بعدما تعلَّل بأوهى الأسباب، مُدَّعياً الضعف الجسدي، كما قال.

وتمعَّن الآن، وانظرْ هل هُناك من حُزن مثل حُزن الكُرسي الرسولي، وأُمّك التي غالباً ما جرى خداعها بوحشية وغشّها بابنها الذي أرضعتْهُ، والذي فيه وضعت الثقة بأنّه سوف يتولَّى تنفيذ هذه المسألة، والذي عليه حشدت كثيراً من الآمال والمنافع. وأخفى ـ في الوقت نفسه ـ نيَّته بالتخلِّي عن قضيَّة الأرض المُقدَّسة عندما تتوفَّر الفُرصة، مُركِّزاً انتباهه على نَفْي الكَهَنَة، والسلب، والأَسْر، وأعمال إيذاء مُضاعفة، أنزَلَها بالكنائس، وبالمُمتلكات الدِّينيَّة، وبرجال الدِّين، ولم يستمع إلى كثير من شكاوى الفُقراء، مع كُلٍّ من سواد الناس والنُّبلاء، الذين صرخوا ضدَّه، والذين ـ كما نعتقد ـ دخلت أدعيتهم إلى أُذنيّ المولى ربِّ السماء.

ومع أن كَنيسَة رُوما قد توجَّب عليها حماية ابن لها، نشأ وسط مثل هذه العناية، وجرى الاهتمام به إلى مثل هذا الحَدِّ، إنَّها ـ الآن ـ تبكي من أجله، وقد قُهِرَتْ من دُون قتال، وتداعت من دُون وُجُود عدوٍّ، ولعاره الكُلِّيِّ، انحطَّتْ بشكل مُشين، وليس أقلّ من هذا كُلّه أسى، هلاك الجيش الصليبي، الذي أخفق، ليس بسبب سُيُوف الأعداء، أو لفُقدانه للشجاعة، لكنّه تبدَّد بسبب هذه المُصيبة المُرعبة، وهي ـ أيضاً ـ تبكي؛ لأن الجُزء المُتبقِّي من العساكر، هُم عُرضة لمخاطر البحر، وللأمواج الهائجة، من دُون دليل، أو قائد، أو مُقدَّم، مُساقين إلى حيثُ لا يدرون، يُقدِّمون القليل من الفائدة إلى قضيَّة الأرض المُقدَّسة، ونحنُ غير قادرين ـ تبعاً لتعهُّدنا ـ أن نُقدِّم لهم مُواساة، أو مُساعدة، بسبب الوضع العاصف للبحر، وشدَّة وسُوء أوضاع الموسم، والكَنيسَة أكثر من هذا، إنَّها تبكي دمار الأرض المُقدَّسة، التي كُنَّا آملين أن تكون ـ الآن ـ قد أُنقذت من أيدي الكُفَّار، وأن يكون الجيش الصليبي ـ كما قيل ـ قد استردَّها، مُبادلة دمياط، لولا أنّه مُنع مراراً أن يفعل ذلك بوساطة

رسائل الإمبراطُور. وما كان هذا الجيش نفسه أسيراً في أيدي الكُفَّار، لو تمَّت أعمال تجهيز السُّفُن، وتزويده بها، كما كان قد وعد من قبله، وكان ذلك من المُمكن صنيعه، لأن دمياط قد جرى تسليمها، كما قيل، إلى رُسُله، ووُضعت تحت عُهدتهم، وتزينت بالنسور الإمبراطُوريَّة، وقد جرى نهبها في اليوم نفسه بشكل وحشي، ثُمَّ بعدما جرى تدميرها بشكل مُهين، تمَّت إعادتها من قبَلهم إلى الكُفَّار، وقد أُضيف ـ أيضاً ـ إلى أسانا وخسائرنا المُتقدِّم ذكْرها الجُهُود والنفقات التي تكبَّدناها في دمياط، وذلك بالإضافة إلى المعنويات بين المسيحيين، وكذلك الوقت الذي بُدِّد، وقد جرى إنفاق هذا كُلِّه من دُون مُحصِّلة. . . .

وعلى كُلِّ حال، لكي لا نبدو مثل كلب أخرس، غير قادر على النباح، وأن لا نُظهر أنَّنا غَضَضْنَا النظرَ عن هذا الرجل في عدم تقديره للرَّبِّ، من دُون مُعاقبته، وهُو الذي ألحق أذىً عظيماً بشعب الرَّبِّ، إنَّنا نُعلن ـ مع أنَّنا مُكرهون ـ أمام الناس أن الإمبراطُور المذكور فردريك هُو محروم كَنَسياً، طالما أنَّه لم يعبر البحر في الوقت المُحدَّد، ولم يُرسل إلى هُناك مبلغ المال الذي جرى الاتِّفاق عليه من قبلُ، كما لم يُحضر إلى هُناك الألف جُندي، للبقاء لمُدَّة عامَيْن على حسابه، من أجل مُساعدة الأرض المُقدَّسة، لكنَّه تقاعس عن تنفيذ هذه الشُّرُوط الثلاثة الواردة في اتِّفاقيَّته، حسبما كان قد ورَّط نفسه عن طوعية، ووضع نفسه في شبكة الحرمان الكَنَسي المُتقدِّم ذكْره، ونحنُ نأمره أن يتجنَّب بدقَّة جميع الناس، ونأمركم أن تُعلنوا شخصياً هذا القرار على الملأ، وأن تتدبَّروا نشره من قبَل أساقفة الكنائس الآخرين، ولسوف نُتابع السيرَ ضدَّه بحدَّة أعظم، إذا ما استدعى تمرُّده ذلك.

ونحنُ علاوةً على هذا، نثق برحمة أبينا المُقدَّس، الذي لا يرغب بهلاك أيِّ إنسان، حتَّى يُمكن لعينَيْ عقله المُظلم، عندما يُدهَن بمرهم الكَنيسَة، إذا لم يكن مُتمرِّداً في قلبه، فسوف يستنير، حتَّى يُمكنه أن يرى عُريه، ويُمكنه أن يتجنَّب العارَ، الذي سقط فيه، وبذلك يُمكنه العودة إلى الطبيب الصحيح، ويُمكنه الرجعة إلى أُمِّه الكَنيسَة، وبتواضع مُوائم صحيح، وبتفكير نقي، يُمكنه ـ وقتها ـ تلقِّي الخلاص، لأنَّنا لا نرغب أن يكون خلاصه الأبدي في الرَّبِّ مُعلَّقاً، لأنَّنا أحببناه ـ من قبلُ ـ بإخلاص، عندما كُنَّا في منصب أدنى.

صَدَرَ في اللاتيران، في السنة الثَّانية من حبريَّتنا.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 45/ 862.

رسالة البابا غريغوري إلى مندوبه بفرنسا حول فريدريك، وأَخْذه القُدْس:

من غريغوري الأسقف، إلى المندوب الرُّوماني بين الفرنسيين:

تحيَّات، . . . إلخ..

نرجوكَ الانتباه لتعرف هل هُناك أسى مثل أسانا، لأنَّنا وجدنا في الابن الذي ربَّته الكَنيسَة الرُّومانيَّة، ورفعتْهُ إلى أعلى المراتب، على أمل أن نجد فيه بطلاً ضدَّ الكُفَّار، مُضطهداً قاسياً، وعدواً فعَّالاً، وعلينا أن لا نمرَّ بصمت بالأذى الأثيم، والدمار المُريع، الذي أنزله فردريك الإمبراطُور المذكور بشكل مُستمرٍّ بالكَنيسَة، وباللاهوتيين، فهُو ـ الآن ـ يقوم بوسائل المُسلمين، وآخرين، بمُهاجمة ميراث الكُرسي الرسولي، والذي هُو أكثر مَقْتَاً، أنَّه يُبرم ـ الآن ـ مُعاهدات مع السُّلطان ومع مُسلمين آخرين، ويُظهر اللُّطف نحوهم، ويُبدي الكراهية المكشوفة نحو المسيحيين، إلى حَدِّ العمل على محْق طائفتَيْ الاسبتاريَّة والدَّاويَة، مع أن الآثار المُقدَّسة للأرض المُقدَّسة، قد حُميَتْ من قبَلها حتَّى الآن، لأنَّه بعدما خُرقَت المُعاهدة بين المُسلمين والصليبيين قد خُرقَت بناءً على أوامره، قام المُسلمون بغارة داخل أراضي الطائفتَيْن المُتقدِّمتي الذِّكْر، وبعدما قتلوا عدداً كبيراً من أتباعهم، أو أخذوهم أسرى، حملوا معهم كمِّيَّات كبيرة من الغنائم، وبعد ذلك؛ هاجمهم الدَّاويَة، وانتزعوا منهم بعضاً يصل ثمنها إلى ستة آلاف مارك، إنَّما الذي حدث هُو أن تُوماس كُونت أتيري ـ Atterae وزير الإمبراطُور، هاجمهم بحدَّة عندما كانوا عائدين، وانتزع منهم ـ بالقُوَّة ـ هذه الغنائم، وفي طاعة من الدَّاويَة لأحكام طائفتهم، لم يتجرَّؤوا على رفع يد مُسلَّحة ضدَّ المسيحيين، وأعاد تُوماس المذكور هذه الغنائم إلى المُسلمين، باستثناء بعض منهم، قد قيل بأنَّه احتفظ بها من أجل استخداماته الشخصية.

وإذا ما أخذ المُسلمون أسلاباً من الصليبيين ليس ـ فقط ـ هُو لا يسعى لاستردادها، بل إنَّه لا يسمح للصليبيين أن يأخذوا أسلاباً من المُسلمين، وبهذه الوسائل؛ صار المُسلمون أكثر وقاحة، وهاجموا بجُرأة شعبنا، وخوفاً من شعبنا من الخيانة، كانوا أقلّ جُرأة في مُقاومتهم، وهكذا؛ فإن إراقة الدّم الصليبي تحوَّلت ـ في بعض الأحيان، لسُوء الحظِّ ـ لصالح كَسْب الإمبراطُور، ويقوم تُوماس المذكور، أو بالحَريّ الإمبراطُور بحُكْم النيابة، الآن باضطهاد الطائفتَيْن المذكورتَيْن أعلاه، وسلب منها ـ بالقُوَّة ـ بُيُوتها، ومُمتلكاتها، التي بين أيديها. وإظهاراً منه لإخضاعه لامتيازات الكَنيسَة، إنَّه

يسعى ـ الآن ـ إلى حرمانها من الامتيازات، التي منحها إيَّاها الكُرسي الرسولي، ومن ثَمَّ؛ وضعها تحت حُكْم الإدارة الإمبراطُوريَّة. كما أنَّه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتاريَّة والدَّاويَة في صقلية وأبوليا، وأعطاهم إلى المُسلمين، دُون أن يُقدِّم أدنى تعويض عنهم إلى الطائفتَيْن المذكورتَيْن، وهكذا فإنَّه ـ كما ظهر بشكل واضح من الظُّرُوف المُتقدِّمة ـ هُو يهتمُّ أكثر، ويُقدِّر عبيد مُحمَّد، أكثر من تقديره لعبيد المسيح.

وعليكَ أن تُصدِّق حقيقة أن الإمبراطُور المذكور ـ كما قيل ـ قد أنزل إلى البحر مع قلَّة من الفُرسان، لقد أرسل جيشاً كبيراً من المسيحيين مع حشد من المُسلمين، لمُهاجمة ميراث الكَنيسَة، وبذلك قدَّم بُرهاناً واضحاً عن جميع آثامه، لكنْ؛ كما قُلت، لدينا الثقة به، هُو الذي أسَّس كَنيسَته على صخرة الإيمان، بأنَّه لن يسمح بالإطاحة بها، مهما كانت قُوَّة الرياح وعُنفها المُرسَلَة ضدَّها، أو المياه التي تسعى لغلبتها، وبما أنَّه يتآمر ـ بشكل شرِّير ـ من أجل القضاء على الإيمان المسيحي، وعليه يصبُّ جام غضبه، نحنُ مُحقُّون في أن نكون في أقصى حالات الرُّعب، ولكنْ؛ مهما استمرَّ ظُلم هذا الرجل غير التقي، وطال، لا يُمكنه السيطرة بذنبه، بل بالحريّ سوف يضيع فيه، وبناءً عليه، إنَّه ـ بمُوجب الواجب المفروض علينا، مع أنَّنا غير جديرين بذلك ـ نحنُ مُرغمون على منع نائب مُحمَّد هذا، من الاستمرار بصبِّ جام غضبه على عبيد المسيح، لا، بل بالحريّ سينال الخزي في عُدوانه، وسوف يرتفع شأن مجد الاسم المسيحي، ونحنُ نأمركم بهذه الرسائل الرسولية أن تُذيعوا هذه القضايا في جميع أرجاء بلاد نيابتكم، وذلك من أجل أن يقف الشعب المُؤمن بالمسيح بشجاعة في سبيل العقيدة، وتمسُّكاً بالدِّين الصحيح، ومُراعاة له، وكأن كُلَّ واحد يعمل في سبيل الحفاظ على مصالحه، تماشياً مع التشجيع الذي سوف يستخدمه.

صَدَرَ في اللاتيران، في الخامس من آب، في السنة الثَّانية من حبريَّتنا.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 45/ 871.

رسالة الكُونت تُوماس، أحد نُوَّاب الإمبراطُور إلى سيِّده في فلسطين حول إعطاء البابا الإمبراطُوريَّة للملك جُون:

إلى فردريك السامي والقدير، الذي هُو بنعمة الرَّبِّ أغسطس وإمبراطُور الرُّومان، والملك الأعظم قُوَّة لصقلية، من تُوماس كُونت أُوف أتيري ـ Atterae تابعه المُخلص والمُطيع في جميع المجالات، تمنِّيات الصحَّة والنصر على أعدائه، بعد مُغادرة جلالتكم، حشد غريغوري، الحبر الرُّوماني، والعدوّ المكشوف لمعاليكم، جيشاً كبيراً، بوساطة جُون دي بريين، الملك الماضي للقُدْس، وبعض الرجال الجريئين الآخرين، الذين عيَّنهم مُقدَّمين على حملته، وغزا أراضيكم، وأراضي رعاياكم، دُونما تقدير للشريعة المَسيحيَّة، وقد قرَّر إخضاعكم بسيف الفُولاذ، ذلك أن جُون المذكور قد جمع جيشاً كبيراً من مملكة فرنسا، ومن البُلدان الأُخرى المُجاورة، على أمل الحُصُول على الإمبراطُوريَّة، إذا ما تمكَّن من التغلُّب عليكم. وقد زوَّد عساكره بعطاء من خزانة الكُرسي الرسولي.

ثُمَّ قام جُون المذكور مع المُقدَّمين الآخرين، بغزو أراضيكم، وأراضي رعاياكم، وقد ألقى النيران في الأبنية والبلدات، واستولى على المواشي، وعلى غنائم أُخرى، وجعل السُّكَّان أسرى لديه، بعدما عذَّبهم بمُختلف الطُّرُق، وقد أرغمهم على دفع غرامات ثقيلة، وهُم لم يُوفِّروا، لا عُمراً، ولا جنساً، ولم يُظهروا رحمة إلى أيِّ إنسان خارج الكنائس، أو المقابر، وهُم يستولون ـ الآن ـ على البلدات، وعلى القلاع، دُون المُبالاة بحقيقة أنكَ ـ الآن ـ في خدمة يسوع المسيح، وإذا ما أشار أيُّ إنسان إلى الإمبراطُور، فإن جُون بريين هذا يُعلن أنَّه لا يُوجد إمبراطُور آخر إلى جانبه نفسه.

وأصدقاؤكَ ـ أيُّها الإمبراطُور ـ الأكثر قُدرة قد اعترتْهُم الدهشة تجاه هذه الأشياء، ولاسيما رجال الدِّين، وهُم يتساءلون، بأيِّ نصيحة وبأيِّ شُعُور يُمكن للحبر الرُّوماني أن يفعل مثل هذه الأشياء، ويشنُّ حرباً ضدَّ المسيحيين، وخاصَّة أن الرَّبَّ قد قال لبُطرُس، عندما كان على وشك أن يضرب رجلاً بسيفه الفُولاذي: "ضعْ سيفكَ في غمده، لأن كُلَّ واحد يضرب بالسيف، سوف يُهلك بالسيف".

ومثل هذا هُم ـ أيضاً ـ يتساءلون بأيِّ حقٍّ يُمكن للذي يقوم كُلّ يوم بحرمان اللُّصُوص كَنَسياً، والمُحرِّقين للمسيحيين، والمُعذِّبين لهم، والذي يطردهم من حظيرة الكَنيسَة يُمكنه أن يُفوِّض

ويُعطي مُوافقته على مثل هذه الإجراءات. وبناءً عليه، ألتمس منكَ ـ أيُّها الإمبراطُور الأعظم قُـدرة ـ أن تتَّخذ ما يلزم من إجراءات من أجـل سـلامتكَ، وأن تحفـظ كرامتـكَ، حتَّـى لا تتـدنَّس بالمسائل المُتقدِّم ذكْرها، لأن عدوَّك جُون دي بريين المُتقدِّم ذكْره، قد شحن جميع الموانىء الموجُـودة عـلى هـذا الجانب من الماء، بعدد كبير من الجواسيس المُسلَّحين، من أجل أنَّه إذا ما حدث وعُـدتَ مـن حجِّـكَ يقوموا باعتقالكَ، لا سمح الرَّبُّ بذلك.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 45/ 885.

رسالة فريدريك إلى ملك إنكلترا يُدافع عن نفسه ضدَّ الحرمان:

من فريدريك، الذي هُو بنعمة الرَّبِّ، أغسطس إمبراطُور الرُّومان، وملك القُدْس، وصـقلية، إلى صديقه المحبوب كثيراً، الملك هنري، ملك الإنكليز.

تمنِّيات الصحَّة، والعواطف المُخلصة، ليفرح الجميع، ويبتهجـوا بـالرَّبِّ، ولـيَقُم الـذين هُـم مُستقيمون في القلب بتمجيده.

نحنُ نرغب في إعلام قداستكم، بأننا نضع ثقتنا بأنَّ يسوع المـسيح، هُـو ابنـه، الـذي بخدمتـه نحنُ مُعرَّضون أجسادنا بتقوى عظيمة جدَّاً، وكذلك حياتنا، وهُـو لـن يـتخلَّى عنَّـا في هـذه البُلـدان النائية، وغير المعروفة، وهُو سيُقدِّم إلينا ـ على الأقلِّ ـ نصيحة صحيحة، ومُساعدة من أجل تـشريفه، وحمده، ومجِّده، فبجُرأة انطلقنا باسمه من عكَّا في اليوم الخامس عشر من شهر تـشرين الثَّـاني، وَعَبَرْنَـا أخيراً، ووصلنا سالمين إلى يافا، عازمين على إعادة بناء القلعة في ذلك المكـان بحـصانة مُناسـبة، حتَّـى يكون ـ فيما بعد ـ الوُصُول إلى مدينة القُدْس المُقدَّسة ليس فقط أسهل، بل ـ أيضاً ـ أسلم، وأكثر أماناً بالنِّسبَة لنا، ولجميع الصليبيين، وبعدما صرنا هُناك واثقين تماماً باعتمادنا على الرَّبِّ، انـشغلنا في يافـا، وانصرفنا نحو الإشراف نحو بناء القلعة، والاهتمام بقضية المسيح، حسبما تتطلَّب الضرورات، ووُفقاً لما تقتضيه واجباتنا، وفي أثناء انشغال حُجَّاجنا بهذه المسائل، تكرَّر تبادل الرُّسُـل بيننـا وبـين سُـلطان مصر، لأنَّه كان مع السُّلطان سُلطان آخر اسمه الأشرف ـ Xaphat وهُو أخوه، وكانا معاً مع جـيش كبير عند غزَّة، على مسافة سفر يوم واحد عنَّا، في اتِّجاه آخر لمدينة شكيم، التي تُعـرَف ـ بـشكل عـامٍّ ـ

باسم نابلس، وهي قائمة في سهل، وكان ابن أخوه، سُلطان دمشق، مُقيماً مع عدد كبير من الفُرسان، والجُنُود على مسافة سفر يوم واحد، عنَّا، وعن الصليبيين.

وأثناء سَيْر المُفاوضات من أجل عقد مُعاهدة بين الطرفَيْن على كلا الجانبَيْن، من أجل استرداد الأرض المُقدَّسة، تجلَّى ـ أخيراً ـ يسوع المسيح ابن الرَّبِّ من الأعلى على صبرنا التقوي، ومُثابرتنا الخاشعة في سبيل قضيَّته، وفي عطفه الرحيم علينا، جعل سُلطان مصر يُعيد إلينا المدينة المُقدَّسة، وهي المكان الذي سار فيه المسيح بقدمَيْه؛ وحيثُ عبد المُؤمنون الصادقون الأب بالرُّوح، وبالحقيقة، وفي سبيل إخباركم عن كُلِّ واقعة من وقائع هذا التسليم كما حدثت، ليكن معلوماً من قبَلكم أنَّه ليست المدينة المُتقدِّم ذكْرها ـ وحدها ـ هي التي سُلِّمت إلينا، بل المنطقة كُلّها المُمتدَّة من هُناك إلى ساحل البحر، قُرب قلعة يافا، وذلك في سبيل أن يمتلك حُجَّاج المُستقبل ممرّاً حُرَّاً وآمناً للذهاب إلى الضريح المُقدَّس، والعودة منه، على شرط أن مُسلمي ذلك الجُزء من البلاد، بما أنَّهم يُقدِّرون الأقصى تقديراً عظيماً، يُمكنهم أن يأتوا إلى هُناك، ويتردَّدوا عليه بقدر ما يختارون، على شكل زُوَّار للتعبُّد هُناك، وُفقاً لعاداتهم.

هذا؛ ولسوف نسمح إليهم بالقُدُوم من الآن فصاعداً بالعدد الذي نأذن به، من دُون سلاح، كما أنَّهم لا يُمكنهم الإقامة بالمدينة، بل خارجها، وأن يُغادروا فور تأديتهم لعباداتهم. وعلاوةً على هذا؛ أُعيدت مدينة بيت لحم إلينا، مع جميع المنطقة القائمة بين القُدْس وبين تلك المدينة، وكذلك مدينة النَّاصرة، والمنطقة كُلّها القائمة بين عكَّا وتلك المدينة، وجميع منطقة تورون، التي هي واسعة جدَّاً، ومُفيدة جدَّاً للصليبيين. وأُعطيت مدينة صيدا إلينا ـ أيضاً ـ مع جميع السهل، وأحوازها، وسوف تكون أكثر قبولاً للصليبيين، وأكثر منفعة، مثلما كانت حتَّى الآن بالنِّسبَة للمُسلمين، وخاصَّة أنَّه يُوجد ميناء جيِّد هُناك، ومن هُناك من المُمكن نقل كمِّيَّات كبيرة من الأسلحة والحاجيات إلى مدينة دمشق، وفي الغالب؛ من دمشق إلى القاهرة.

ومع أنَّه مسموح لنا ـ بمُوجب المُعاهدة ـ بإعادة بناء مدينة القُدْس، وأن نجعلها في أحسن حالة كانت عليها قطّ، وكذلك قلاع: يافا، وقيسارية، وصيدا، وقلعة القدِّيسة مريم التابعة لطائفة التيُوتُون، والتي بدأ رُهبان هذه الطائفة بعمارتها في المنطقة الجبلية لعكَّا، والتي لم يسمح للصليبيين

ـ قطُّ ـ بفعله أثناء أية هُدنة سالفة، إنَّه مع ذلك، غير مسموح للسُّلطان، حتَّى نهاية الهُدنة بينه وبيننا، والتي مُدَّتها المُتَّفق عليها عشر سنوات، بترميم، أو إعادة بناء أيٍّ من حُصُونه، أو قلاعه. وهذا كان في يوم الأحد الثَّامن عشر من شُباط الذي مضى مُؤخَّراً، الذي هُو اليوم الذي قام فيه المسيح ابن الرَّبِّ من الموت، والذي هُو ـ بناء على قيامته ـ يرعاه المسيحيُّون بوقار، ويحتفلون به ويعدُّونه مُقدَّساً بشكل عامٍّ في جميع أرجاء العالم، وتأكَّدت هذه المُعاهدة بتبادل الأيمان بيننا. وحقَّاً؛ أشعَّ هذا اليوم على الجميع بشكل مُفيد، وهُو اليوم الذي فيه تُغنِّي الملائكةُ بحمد الرَّبِّ:

المجد للرَّبِّ في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وحُسن الإرادة نحو الناس.

وفي اعترافنا بمثل هذا اللُّطف العظيم، وهذا التشريف الجليل، الذي جاء فوق رغباتنا، وعلى عكس آراء كثيرين، والذي أضفاه الرَّبُّ برحمته علينا، من أجل رحمته الدائمة المشهورة، ومن أجل أن نتمكَّن شخصياً أن نُقدِّم إليه قرابين شفاهنا المُلتهبة. ليكن معلوماً أنَّنا في اليوم السَّابع عشر من شهر آذار من هذه الخمس عشرية الثَّانية، قُمنا نحنُ برفقة جميع الحُجَّاج الذين تبعوا معنا بإخلاص المسيح ابن الرَّبِّ، بالدُّخول إلى مدينة القُدْس المُقدَّسة، وبعدما تعبَّدنا الضريح المُقدَّس، جرى في اليوم التالي تتويجنا بحُكْم كوننا الإمبراطُور الكاثوليكي، وهُو أمرٌ منحنا إيَّاه الرَّبُّ القدير من عرش جلالته، عندما رقانا بنعمته الخاصَّة، وجعلنا الأعلى بين أُمراء العالم، وهكذا إنَّه أثناء دعمنا لشرف هذا المقام العالي، الذي عائد إلينا بمُوجب حقِّ السيادة، بات واضحاً أكثر، فأكثر، إلى الجميع بأنَّ يد الرَّبِّ قد صنعت هذا كُلَّه، وبما أن رحمته فوق جميع أعماله، يتوجَّب على المُؤمنين بالعقيدة السليمة، أن يعرفوا ـ مُنذُ الآن، وأن ينشروا في الطُّول والعرض في جميع أرجاء الدُّنيا ـ بأنَّه الذي هُو المُبارك دوماً قد زار شعبه، وخلَّصه، وأنَّه رفع عالياً صوت الخلاص في بيت عبده داوود. وقبل أن نُغادر مدينة القُدْس، قرَّرنا بفخامة أن نُعيد بناء أبراجها، وأسوارها، ونوينا ـ أيضاً ـ أن نُرتِّب الأُمُور؛ بحيثُ تسير خلال غيابنا، ليس بعناية أو رعاية أقلّ، أثناء سير الأُمُور كما لو كُنَّا حاضرين شخصياً.

ومن أجل أن تكون رسالتنا الحالية مبعث سُرُور كامل في جميع الأنحاء، وأن تكون نهايتها سعيدة مثل بدايتها، ولكي تبتهجوا بعقلكم الملكي، نرغب بأنْ يكون معلوماً لديكم، وأنتم حُلفاء لنا، أن السُّلطان قد تعهَّد أن يُعيد إلينا جميع الأسرى، الذين ـ بمُوجب المُعاهدة المُبرمة بينه وبين

الصليبيين ـ لم يُطلق سراحهم عند فُقدان دمياط مُنْذُ بعض الوقت، وأيضاً؛ الأسرى الآخرين الذين وقعوا بالأَسْر بعد ذلك.

صَدَرَ في مدينة القُدْس المُقدَّسة، في اليوم السَّابع عشر من شهر آذار، من عام تجسيد ربِّنا، ألف ومائتَيْن وتسعة وعشرين.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، **45/ 891.**

دفاع قاضي حماة المُؤرِّخ ابن أبي الدّم عن قيام الملك الكامل بتسليم القُدْس للإمبراطُور فريدريك الثَّاني، قال:

دخلت سنة خمس وعشرين وستِّمِائة، فيها في شعبان، تجهَّز السُّلطان الملك الكامل إلى الشَّام والسواحل للقاء الإفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ حين علم بحشدهم، وتجمُّعهم، ولترتيب أُمُور المُسلمين، وبلادهم. فوافا تلّ العُجُول، وأناخ به، وتوجَّه الملك الأشرف إلى خدمته، ومضى صاحب دمشق الملك النَّاصر صلاح الدِّين داود معه لنجدته، واجتمعت عساكر المُسلمين هُناك.

وكان الانبرور طاغية الفرنجيَّة وعظيمهم خرج بجَمْع كثير إلى الجزاير والسواحل، وخيف على بلاد الإسلام منهم، فاجتهد السُّلطان الملك الكامل رأيه، وصالحهم صُلحاً تامَّاً رآه مصلحة للمُسلمين، وغبطة لهم، فكان راعي هذه الأُمَّة المُحمَّدية وسُلطان الملَّة الإسلاميَّة، ومَنْ أعزَّ الله تعالى به الدِّين وأهله، والمأمون عليهم، والناصح المُشفق عليهم، ففعل مارآه مصلحة وغبطة ترجَّحت في نظره، راعاها، وصالح الفرنج على أن يُسلِّم إليهم البيت المُقدَّس، حرسه الله تعالى وحده من غير تسليم شي من أعماله، ولا بلاده قليلاً، ولا كثيراً، وشرط عليهم أن لا يُحدثوا فيه شيَّاً، ولا سُوراً، ولا دُوراً، ولا يتجاوز خندقه. وأن تُقام فيه الجُمعة للمُسلمين المُقيمين به، ولا يُمنَع مُسلم من زيارته، فكيف أراد، ولا يُؤخذ من زاير مال أصلاً.

وكان ذلك ـ إنْ شاء الله ـ من أكبر مصالح المُسلمين، وأعظمها، ممَّا لا يخفى عن ذي البصاير، فإن البيت المُقدَّس موضع عبادة، (للمُسلمين وللكُفَّار فيه اعتقاد عظيم، يحملهم على قصد المُسلمين، وبلادهم لأجله، فالمقصود منه التردُّد إلى زيارته[1]) لإقامة العبادة على حسب اعتقاد الملَّتَيْن. فسلَّم

1 - هذه الفقرة ساقطة من النُّسخة التي اعتمدها د. سُهيل زَكَّار في الموسوعة الشاملة، راجعْ: التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، 21 / 290.

السُّلطانُ الملكُ الكاملُ ذلك إليهم، مع تهديمه، وعدم حصانته، حفظاً لبقية الثُّغُور، والبلاد، ونزله منزلة مسجد يتردَّد إليه المُصلُّون.

وعقد معهم عقد الهُدنة الشرعية المُدَّة المرعية في نظر سُلطان المُسلمين وملكهم ومُتولِّي أُمُورهم، واندفع عن المُسلمين ـ بذلك ـ شرٌّ عظيم، وخوف، وحصل الأمن مُدَّة الهُدنة، فلا مصلحة للمُسلمين أيْمَنَ من هذه المصلحة، ولا غبطة لهم أعظم من هذه الغبطة. ودخل البيت المُقدَّس أناس قليلون من الفرنج، لا شوكة لهم، ولا عدد، ولا عدَّة. وكان ذلك في سنة ستّ وعشرين وستّمئة، ومتى مهَّد السُّلطان الملك الكامل بلاد المشرق، واتَّفقت كلمة المُلُوك استعاد البيت المُقدَّس من يد مَنْ هُو فيه من الفرنج في يوم واحد، بل في ساعة واحدة، حتَّى رُوي: إنه وجد من المُسلمين جماعة قُتلوا ورُموا في بير هُناك، فنسب المُسلمون المُقيمون بجبال القُدْس قَتْلَهُم إلى الفرنج، وهجموا عليهم البلد، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تُقارب خمس مايةِ نفس. كما رُوي: وحجزوهم، وأرهبوهم، واختلفوا فيهم، وصاروا في غاية ما يكون من الذُّلِّ. وعاد الانبرور بعد الصُّلح التّامّ إلى بلاده، ومازال السُّلطان الملك الكامل مُقيماً بتلِّ العُجُول، يُمهِّد الأرض، ويملاها عدلاً.

النَّصُّ كما وَرَدَ في:

1 ـ التاريخ الإسلامي المُختصر، ابن أبي الدّم، **543 ـ 547**.

2 ـ التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشّاميَّة، د.سُهيل زَكّار، **21/ 290**.

الحوار بين الإمبراطُور فريدريك والملك لويس حول الحملة على مصر:

عندما ترك الإمبراطُورُ أميرُ الفرنجة الأرضَ المُقدَّسة، واستأذنَ الملكَ الكاملَ بالانصراف، تعانق القائدان في عسقلان، وتواعدا ـ بصُورة مُتبادلة ـ على الصداقة والمُساعدة والأُخُوَّة.

والحال أن الطريق الوحيد الذي يُمكن للفرنجي[1] أن يسير منه إلى مصر كان يمرُّ عبر أراضي الإمبراطُور. وقد قام هذا الأخير أوَّلاً باستقباله، واللقاء معه، وقدَّم له مُساعداته من الخيَّالة والفضَّة

1 - الفرنجي: المقصود به ملك الفرنجة لويس.

والمواشي. غير أن القائدَيْن قابلا بعضهما بعضاً، بعد ذلك؛ قال الإمبراطُور للفرنجي: إلى أين تنوى الذهاب؟

ـ والله؛ سأذهب ـ قطعاً ـ إلى مصر والقُدْس.

ومن ضمن ما ردَّ عليه الإمبراطُور قوله:

ـ هذا الأمر لا يُلائمكَ، لا تذهبْ إلى مصر، وراجعْ هذا الأمر في نفسكَ، ومع أُمرائكَ، أُولئك الذين يُؤيِّدونكَ، وأُولئك الذين لهم رأي آخر. ولقد كُنتُ قبلكَ بها في سنة كذا وكذا تحت حُكْم الملك الكامل. وقد انتزعتُ من المُسلمين القُدْسَ وكُلَّ القُرى الواقعة بين هذه المدينة وعكَّا، واشترطتُ مع الملك الكامل أن تكون هذه المناطق مُلكاً للفرنجة، وأن لا تظلَّ أيُّ قُوَّة إسلامية بالقُدْس. وإذا كُنتُ قد اقتصرتُ على ذلك فإنني أدركتُ أنَّه من المُستحيل مُحاربة المُلُوك والأُمراء وكُلّ العساكر الموجُودين بالبلد، كما تأكَّدتُ من عجزي على مُواجهتهم، فكيف لكَ تُريد الاستيلاء على دمياط والقُدْس ومصر؟!.

وعندما سمع الفرنجي هذه الكلمات استشاط غضباً، فقال للإمبراطُور:

ـ لا تستمرّ، والله؛ ثُمَّ والله؛ وحتَّى الإيمان لن يمنعني شيء عن مُهاجمة دمياط والقُدْس ومصر، ولن يحول بيني وبين ذلك سوى موتي أنا ورجالي.

وأمام استياء الإمبراطُور من هذا العناد؛ كتب إلى الملك الصَّالح رسالة من ضمن ما قاله فيها:

ـ في هذا السنة جاء إلى بلدي ملك الفرنجة، مصحوباً بجُمهُور غفير، وذكر بعد ذلك:

ـ احترسْ يا مولاي نجم الدِّين جيِّداً، واعلم أن قصد مُهاجميكَ هُو الاستيلاء على القُدْس، وقبل ذلك إخضاع مصر لأجل هذا الهدف.

ـ وقال أيضاً: إن ملك الفرنجة على اقتناع بأنَّه سيستولي على مصر في بضع ساعات. وهذا الفرنجي هُو الأكثر قُوَّة من بين أُمراء الغَرْب، وتقوده الغَيْرَة على الدِّين، ويختلف عن أيِّ أمير آخر من جهة أفعاله كمسيحي وتعلُّقه بدينه. ويختتم خطابه بالكلمات التَّالية:

ـ يا ابن أخي، (واصفاً الملك الصَّالح نجم الدِّين أيّوب) لقد حاولتُ عبثاً مُواجهة مشروعاته، وأردتُ تحذيره من الخطر الذي سيحيق به لو هاجمكَ. ولكي أُوثِّر فيه ألححتُ على عدد وقُوَّة المُسلمين، وعلى استحالة الاستيلاء على القُدْس إنْ لم يتمّ قبل ذلك إخضاع مصر، وهُو أمر غير قابل للتحقُّق. لكنَّ الفرنجي لم يعمل برأيي، وتزايد باستمرار عدد مَنْ يتبعونه، الذي يزيد على ستِّين ألفاً، وسينزلون خلال السنة إلى جزيرة قبرص.

النَّصُّ كما وَرَدَ في كتاب: (الشَّرْق والغَرْب زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، نقلاً عن: قرطاي العزى، مخطوط عربي، ترجمة كلود كاهن، المجلَّة الآسيوية، جُوتا، عام 1970، الصفحات: 9 ـ 10).

المصادر والمراجع

- القُرآن الكريم.

المصادر العَرَبِيّة والمُعرّبة:

- الأبشيهي (مُحمَّد بن أحمد بن منصُور): المُستطرف في كُلِّ فنٍّ مُستظرف، تحقيق: عبد اللطيف بيتية، دار إحياء التُّراث العَرَبي، بيروت ـ 1994.

- ابن أبي أُصيبعة (أحمد بن القاسم بن خليفة): عُيُون الأنباء في طبقات الأطبَّاء، تحقيق: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت ـ 1965 .

- ابن الأثير (علي بن مُحمَّد بن مُحمَّد):

1 ـ الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ـ بلا.

2 ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق :عبد القادر طُليمات، وزارة الثقافة، القاهرة ـ 1963.

- الأرمني (سنباط): التاريخ المعزو إلى القائد سنباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ36، دار الفكر، دمشق ـ 1999.

- ابن الأزرق الفارقي (مُحمَّد بن يُوسُف بن علي): تاريخ آمد ومَيَّافارقين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 11، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

- الإدريسي (الشريف مُحمَّد بن مُحمَّد بن عبد الله):

1 ـ نُزهة المُشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكُتُب، بيروت ـ 1989.

2 ـ وصف أفريقية الشمالية والصحراوية ـ فصل من نُزهة المُشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: هـ. بريس، الجزائر ـ 1957.

- الإسحاقي: (مُحمَّد بن عبد المُعطي بن أبي الفتح بن أحمد): لطائف أخبار الأُوَل في مَنْ تصرَّف في مصر من أرباب الدُّول، القاهرة ـ 1300 هـ.

- أسقف فريزنغ (أوتو): مُذكَّرات عن الحُرُوب الصَّليبيَّة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 29، دار الفكر، دمشق ـ 1997.

- الإصطخري (إبراهيم بن مُحمَّد الكرخي): مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن ـ 1937.

- الأصفهاني (العماد مُحمَّد بن مُحمَّد بن حامد الكاتب):

1 ـ الفَتْح القِسِّي في الفتح القُدسي، آ ـ الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 13، دار الفكر، دمشق ـ 1995 . ب ـ تحقيق: مُحمَّد محمود صُبح، الدار القومية، القاهرة ـ 1962.

2 ـ رسلالة العُتْبَى والعُقْبَى ـ فيما جرى بعد وفاة السُّلطان حتَّى سنة 592 هـ ـ ضمَّنها أبو شامة في كتابه: الرَّوضَتَيْن في أخبار الدولتَيْن.

3 ـ خُطفَة البارق وعَطفَة الشَّارق، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 19، دار الفكر، دمشق ـ 1997.

ـ الأصفهاني (العماد مُحمَّد بن مُحمَّد ـ وهُو غير العماد الأصفهاني الكاتب): البُستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزَّمان، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 11، دار الفكر، دمشق ـ 1995.
ـ الأنطاكي (يحيى بن أوتيخا المُسمَّى سعيد بن البطريق): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أُوتيخا، تحقيق: د.عُمر عبد السلام تدمري، جرُّوس برس، طرابلس ـ 1990.
ـ ابن إياس (مُحمَّد بن أحمد بن إياس الحنفي): بدائع الزُّهُور في غرائب الدُّهُور، تحقيق: مُحمَّد مُصطفى، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1983.
ـ ابن آيبك (أبو بكر عبد الله): كَنز الدُّرر وجامع الغُرر، تحقيق: د. سعيد عاشور، المعهد الألماني للآثار، القاهرة ـ 1982.
ـ ابن أيُّوب (تاج الدِّين شاهنشاه): مُنتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة، مُلحقة بكتاب النَّوادر السُّلطانيَّة لابن شدَّاد، ـ بلا.
ـ بادربورن (أُوليفر): الاستيلاء على دمياط، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 34، دار الفكر، دمشق ـ 1998.
ـ باريس (متَّى): التاريخ الكبير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ46 ـ 50، دار الفكر، دمشق ـ 2001.
ـ البَسَوي (يعقوب بن سُفيان): المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العُمري، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1981.
ـ البغدادي (مُوفَّق الدِّين عبد اللطيف بن يُوسُف بن مُحمَّد المعروف بابن اللَّبَّاد):
1 ـ الإفادة والاعتبار في الأُمُور المُشاهدة والحوادث المُعاينة بأرض مصر، تحقيق: غسَّان سبانو، دار دمشق، دمشق ـ 1983.
2 ـ من تاريخ البغدادي ورحلته، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 14، دار الفكر، دمشق ـ 1995.
ـ البَلاذُرِي (أحمد بن يحيى بن جابر): فُتُوح البُلدان، مُراجعة: رضوان مُحمَّد رضوان، مطبعة السعادة القاهرة ـ 1959.
ـ بلانتغنيت: تواريخ أُسرة بلانتغنيت، رسائل رالف دي سيتو، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 30، دار الفكر، دمشق ـ 1998.
ـ البِنْدَاري (الفتح بن علي بن مُحمَّد): سنا البرق الشَّامي، مُختصر البرق الشَّامي للعماد الأصفهاني. 1 ـ تحقيق: د.رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت ـ 1971.
ـ تحقيق: د.فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة ـ 1979 .
ـ بوا (بيير دو): استرداد الأرض المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 37، دار الفكر، دمشق ـ 1999.
ـ بُولُونير (جُون): وصف الأرض المُقدَّسة ـ 1421م، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 40، دار الفكر، دمشق ـ 2000.

ـ ابن البيبي (ناصر الدِّين يحيى بن مُحمَّد بن علي): تاريخ سلاجقة الرُّوم ـ مُختصر سلجوق نامة، تعريب: مُحمَّد السَّعيد جمال الدِّين، جامعة قطر، الدوحة ـ 1994.

ـ تشارنز (فُولتشر أُوف): تاريخ الحملة إلى القُدْس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 6، دار الفكر، دمشق ـ 1993.

ـ ابن تغري بردي (يُوسُف بن تغري بردي الأتابكي):

1 ـ النُّجُوم الزَّاهِرَة في مُلُوك مصر والقاهرة، [طبعة مُصوَّرة عن طبعة دار الكُتُب] وزارة الثقافة، القاهرة ـ 1963.

2 ـ المنهل الصافي والمُستوفي بعد الوافي، تحقيق: د. نبيل مُحمَّد عبد العزيز، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1986.

ـ التنوخي (المُحسن بن علي بن مُحمَّد):

1 ـ نِشْوَار المُحاضرة وأخبار المُذاكرة، تحقيق: عبُّود الشالجي، بلا، بيروت ـ 1971.

2 ـ الفرج بعد الشدَّة، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1995.

ـ ابن الجزري (مُحمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر): المُختار من حوادث الزَّمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، اختيار: مُحمَّد بن عُثمان الذهبي، تحقيق: خُضير المنشداوي، دار الكتاب العَرَبي، بيروت ـ 1988.

ـ ابن جعفر (أبو الفرج قُدامة الكاتب البغدادي): كتاب الخراج وصنعة الكتابة، نبذة منه مُلحقة بكتاب المسالك والممالك لابن خُرْدَاذْبَه، مطبعة بريل، ليدن ـ 1889.

ـ جوانفيل (جين):

1 ـ حياة القدِّيس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 35، دار الفكر، دمشق ـ 1999.

2 ـ القدِّيس لويس ـ حياته وحملاته على مصر والشَّام، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة ـ 1986.

3 ـ ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن مُحمَّد): المُنتظم في تاريخ المُلُوك والأُمم، تحقيق: مُحمَّد عطا ومُصطفى عطا، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1992.

ـ ابن الجوزي (السبط أبو المُظفَّر يُوسُف بن قزاوغلي): مرآة الزَّمان في تاريخ الأعيان:

1 ـ الجُزء الأوَّل، تحقيق: د. إحسان عبَّاس، دار الشُّرُوق، بيروت ـ 1985.

2 ـ الجُزء الثَّامن، دائرة المعارف الإسلاميَّة، حيدر أباد ـ الدكن ـ 1951.

3 ـ مُقتطفات، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 15، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ الجُويني، إمام الحرمَيْن (عبد الملك بن عبد الله بن يُوسُف): غياث الأُمم في التياث الظُّلَم، تحقيق: فُؤاد عبد المُنعم ومُصطفى حلمي، دار الدعوة، الإسكندرية ـ 1979.

ـ الجُويني (علاء الدِّين عطا ملك بن بهاء الدِّين مُحمَّد): تاريخ فاتح العالم ـ جهانكشاي، تعريب: د. مُحمَّد ألتونجي، دار الملاح، دمشق ـ حلب ـ 1985.

ـ حاجي خليفة (مُصطفى بن عبد الله كاتب جلبي): كشف الظُّنُون عن أسامي الكُتُب والفنُون، استنبول ـ 1945.

ـ ابن حَجَر (أحمد بن علي بن مُحمَّد العسقلاني):
الدُّرر الكَامنة في أعيان المئة الثامنة، آـ دار الجيل، بيروت ـ 1981 . ب ـ تحقيق: مُحمَّد سيِّد جاد الحقّ، مطبعة المدني، القاهرة ـ 1966.
إنباء الغُمْر بأبناء العُمُر، تحقيق: مُحمَّد أحمد دهمان، مكتبة الدِّراسات الإسلاميَّة، دمشق ـ 1399 هـ.
ـ الحريري (أحمد بن علي) : الإعلام و التبيين في خُرُوج الفرنج الملاعين، تحقيق: د.سُهيل زَكّار، دار الملاح، دمشق ـ 1981.
ـ الحنبلي (أحمد بن إبراهيم بن نصر الله): شفاء القُلُوب في مناقب بني أيُّوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة، بغداد ـ 1978.
ـ ابن الحنبلي (مُحمَّد بن إبراهيم بن يُوسُف التَّادفي الرَّبعي): الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة، تحقيق: د. عبد العزيز الهلابي، معهد المخطوطات العَرَبيَّة، الكُويت ـ 1985.
ـ ابن حوقل (مُحمَّد بن حوقل): صُورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت ـ 1979.
ـ ابن خُرْدَاذْبَه (عُبيد الله بن عبد الله): المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن ـ 1889.
ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن مُحمَّد بن مُحمَّد): كتاب العبر وديوان المُبتدأ والخبر في أيَّام العَرَب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر. آ ـ [طبعة مُصوَّرة] دار إحياء التُّراث العَرَبي، بيروت ـ بلا. ب ـ دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1992.
ـ ابن خلكان (أحمد بن مُحمَّد بن إبراهيم): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان، دار صادر، بيروت ـ 1978.
ـ خواندمير (غياث الدِّين مُحمَّد بن همام الدِّين الحُسَيْني):
1 ـ دُستُور الوُزراء، تعريب: حربي أمين سُليمان، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1985.
2 ـ حبيب السير في أخبار أفراد البشر، ترجمة: حربي أمين سُليمان، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1983.
ـ ابن دقماق (إبراهيم بن مُحمَّد بن أيدمر العلائي): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبعة الكُبْرَى الأميرية، بُولاق ـ 1893.
ـ ابن أبي الدّم (إبراهيم بن عبد الله بن عبد النافع الهمداني):
1 ـ التاريخ المُظفَّري، من الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد ـ 21، دار الفكر، دمشق ـ 1995.
2 ـ التاريخ الإسلامي المُختصر، تحقيق: جزيل عبد الجبَّار الجومرد، رسالة دُكتُوراه، قسم الدِّراسات العَرَبيَّة ـ جامعة سانت أندراوس، المملكة المُتَّحدة ـ اسكتلندا ـ 1984.
ـ الدَّوادَار (رُكن الدِّين بيبرس المنصُوري): زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دُونالد. س. ريتشاردز، دار الكتاب العَرَبي، برلين ـ 1998.
ـ ديريك (ثيو): وصف الأماكن المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد ـ 35، دار الفكر، دمشق ـ 1998.
ـ الذهبي (مُحمَّد بن أحمد بن عُثمان):

1 ـ سِيَر أعلام النُّبلاء، مُؤسَّسة الرسالة، تحقيق: شُعيب الأرنؤط، بيروت ـ 1985.

2 ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. بشّار معروف وآخرون، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1988.

3 ـ العبر في خبر مَنْ غبر، تحقيق: د. صلاح الدِّين المُنجِّد، مطبعة حُكُومة الكُويت ـ 1984.

ـ الراوندي (مُحمَّد بن علي بن سُليمان): راحة الصُّدُور وآية السُّرُور في تاريخ الدولة السلجوقية، تعريب: د. إبراهيم الشواربي وآخرون، نشر وتصحيح: مُحمَّد إقبال، دار القلم، القاهرة ـ 1960.

ـ رشيد الدِّين (فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير بن مُوفَّق الدولة علي الهمذاني): جامع التواريخ ـ تاريخ المغول الإيلخانيون:

1 ـ تاريخ هُولاكُو، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت وآخرون، وزارة الثقافة، القاهرة ـ بلا.

2 ـ تاريخ خُلفاء جنكيز خان، تعريب: فُؤاد عبد المُعطي الصيَّاد، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1983.

ـ الزَّبيدي (المُرتضى مُحمَّد بن مُحمَّد بن مُحمَّد): ترويح القُلُوب بذكر المُلُوك بني أيُّوب، تحقيق: د. صلاح الدِّين المُنجِّد، دار الكتاب الجديد، بيروت ـ 1983.

ـ ابن الساعي (علي بن أنجب): الجامع المُختصر في عُنوان التواريخ وعُيُون السِّيَر، تحقيق: د. مُصطفى جواد، دار المُثنَّى، بغداد ـ 1954.

ـ سانُوتُو، تُورسيلُو (مارينُو): من كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 38، دار الفكر، دمشق ـ 1999.

ـ السبكي (عبد الوهاب بن علي بن تمَّام):

1 ـ طبقات الشافعية الكُبْرَى، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، الجُزء الثَّالث والعشرون، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

2 ـ مُعيد النِّعَم ومُبيد النِّقَم، تحقيق: مُحمَّد علي النجَّار وآخرون، دار الكتاب العَرَبي، القاهرة ـ 1948.

ـ السخاوي (مُحمَّد بن عبد الرحمن بن مُحمَّد): الضوء اللامع في أعيان القرن التَّاسع، دار الجيل، بيروت ـ 1994.

ـ ابن سعد (مُحمَّد بن سعد بن منيع الزهري): الطبقات الكُبْرَى، دار صادر ـ بلا.

ـ ابن سعيد (علي بن مُوسى بن مُحمَّد بن عبد الملك): المغرب في حلى المغرب ـ النُّجُوم الزَّاهرَة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق: حسين رضا، مطبعة دار الكُتُب، القاهرة ـ 1970.

ـ ابن سلام (أبو عُبيد القاسم بن سلام): كتاب السلاح، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1988.

ـ ابن سبط (حمزة بن أحمد بن عُمر): صدق الأخبار ـ تاريخ ابن سبط، تحقيق: د. عُمر تدمُري، جرُّوس برس، طرابلس ـ 1993.

ـ السُّيُوطي (عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر بن مُحمَّد):

1 ـ تاريخ الخُلفاء، تقديم: عبد الله مسعود، دار القلم العَرَبي، حلب ـ 1990.

2 ـ لُبّ اللُّباب في تحرير الأنساب، (صُورة عن طبعة لايبزغ ـ ألمانيا ـ 1842) مكتبة المُثنَّى، بغداد ـ 1959.

3 ـ كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق: مُحمَّد كمال الدِّين عزّ الدِّين، بيروت ـ 1987.

ـ أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم):

1 ـ الرَّوضَتَيْن في أخبار الدولتَيْن النُّورية والصلاحية، آ ـ المُؤسَّسة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1962 . ب ـ الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 19، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

2 ـ تراجم رجال القرنَيْن السَّادس والسَّابع ـ المعروف بالذيل على الرَّوضَتَيْن، آ ـ دار الجيل، [طبعة مُصوَّرة] بيروت ـ بلا . ب ـ الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 20، دار الفكر، دمشق ـ 1995 .

3 ـ عُيُون الرَّوضَتَيْن في أخبار الدولتَيْن، تحقيق: أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1991.

ـ شانكاره (مُحمَّد بن علي): مجمع الأنساب، طبعة مُصوَّرة، بيروت ـ بلا.

ـ شاهد عيان: حملة الملك ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 31، دار الفكر، دمشق ـ 1998.

ـ ابن شدَّاد (مُحمَّد بن علي بن إبراهيم): الأعلاق الخطيرة في ذكْر أُمراء الشَّام والجزيرة:

1 ـ الجُزء الأوَّل، تحقيق : يحيى عبَّارة، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1991.

2 ـ الجُزء الثَّاني، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: د. سامي الدهَّان، المعهد الفرنسي للدراسات العَرَبيَّة، دمشق ـ 1956.

3 ـ الجُزء الثَّالث، تحقيق : يحيى عبَّارة، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1978.

ـ ابن شدَّاد (يُوسُف بن رافع بن تميم): النَّوادر السُّلطانيَّة و المحاسن اليُوسُفية، آ ـ تحقيق: د. جمال الدِّين الشَّيَّال، الدار المصريَّة للتأليف والترجمة، القاهرة ـ 1964 . ب ـ الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 15.

ـ ابن الشُّحنَة (مُحمَّد بن مُحمَّد بن مُحمَّد): الدُّرُّ المُنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العَرَبي، دمشق ـ 1984.

ـ الشهرستاني (مُحمَّد بن عبد الكريم بن أحمد): المِلَل والنِّحَل، تحقيق: أبو عبد الله السَّعيد المندوه، مُؤسَّسة الكُتُب الثقافية، بيروت ـ 1998.

ـ شيخ الربوة (مُحمَّد بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البرِّ والبحر، اختيارات: عبد الرزَّاق الأصفر، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1983.

ـ الشيرازي (سعدي): روضة الورد ـ كلستان، ترجمة: مُحمَّد الفُراتي، دار طلاس، دمشق ـ بلا.

ـ الصابئ (هلال بن المُحسن بن إبراهيم):

1 ـ رُسُوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عوَّاد، دار الرائد العَرَبي، بيروت ـ 1986.

2 ـ تُحفة الأُمراء في تاريخ الوُزراء، تحقيق: عبد السَّتَّار فرَّاج، دار إحياء الكُتُب العَرَبيَّة، القاهرة ـ 1985.

ـ ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن مُحمَّد بن أحمد الباجي): المنُّ بالإمامة على المُستضعفين بأنْ جعلهم الله أئمَّة وجعلهم الوارثين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الحُرِّيَّة للطباعة، بغداد ـ 1979.

ـ الصدر الكبير (علي بن أبي الفوارس ناصر الدِّين بن الحُسَيْن): زُبدة التواريخ ـ أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: مُحمَّد إقبال، لاهور ـ 1933.

ـ ابن صصرى (مُحمَّد بن مُحمَّد): الدُّرَّة المضيَّة في الدولة الظاهرية، تحقيق وترجمة: د. وليم. م. بريـز، جامعة كاليفورنيا ـ بركلي ـ بلا.

الصفدي (صلاح الدِّين خليل بن آيبك بن عبد الله):

1 ـ تُحفة ذوي الألباب فيمَنْ حَكَمَ بدمشق من الخُلفاء والمُلُوك والنُّوَّاب، تحقيق: إحسان خلوصي وزهير صمصام، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1991.

2 ـ نَكْت الهَمْيَان في نُكَت العِميان، [مُصوَّرة عن طبعة أحمد زكي بك، المطبعة الجماهيرية بمصر ـ 1911] دار المدينة ـ بلا.

3 ـ الوافي بالوفيات، تحقيق: جـ 1 هلموت ريتر، جـ 2 ـ 3 ـ 4 ـ 6 ـ س. ريدرينج، جـ 7 إحسان عبَّاس، النشرات الإسلاميَّة، دار فرانز شتاينر، فسبادن ـ 1982.

ـ الصُّوري (وليم، رئيس أساقفة صُور):

1 ـ تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 7، دار الفكر، دمشق ـ 1994.

2 ـ الذيل ـ ليدن ـ 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 8، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ ابن الصيرفي (علي بن منجب بن سُليمان الكاتب):

1 ـ الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة، تحقيق: أيمن فُؤاد سيِّد، الدار المصريَّة اللُّبنانيَّة، القاهرة ـ 1990.

2 ـ القانون في ديوان الرسائل، تحقيق: أيمن فُؤاد سيِّد، الدار المصريَّة اللُّبنانيَّة، القاهرة ـ 1990.

ـ الطبري (مُحمَّد بن جرير بن يزيد): تاريخ الرُّسُل والمُلُوك، تحقيق: مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ـ 1967.

ـ الطرسوسي (مرضي بن علي): ذكر فضيلة الرمي وأوصافه، تحقيق: أنطوان بودولاموت، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق ـ 1968.

ـ ابن طُولُون (مُحمَّد بن علي بن أحمد): القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق: مُحمَّد أحمد دهمان، مجمع اللُّغة العَربيَّة، دمشق ـ 1980.

ـ ابن الطُّوَيْر (المُرتضى عبد السلام بن الحَسَن القيسراني): نُزهة المُقلتَيْن في أخبار الدولتَيْن، تحقيق: أيمن فُؤاد سيِّد، النشرات الإسلاميَّة ـ 39، بيروت ـ 1992.

ـ ابن عبد الظَّاهر (عبد الله بن رشيد بن عبد الظَّاهر): الروض الزاهر في سيرة الملك الظَّاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض ـ 1976.

ـ ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون الملطي):

1 ـ تاريخ مُختصر الدُّول، صَحَّحَهُ وفَهْرَسَهُ: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللُّبناني، بيروت ـ 1988.

2 ـ تاريخ الزَّمان، ترجمة: الأب إسحق أرملة، دار المشرق، بيروت ـ 1986.
3 ـ روايات ابن العبري، ترجمة وتحقيق: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، المُجلَّد ـ 5، دار الفكـر، دمشق ـ 1995.
ـ ابن العديم (عُمر بن أحمد بن هبة الله):
1 ـ بُغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: د. سُهيل زَكّار، مطابع دار البعث، دمشق ـ 1988.
2 ـ زُبْدَة الحَلَب من تاريخ حلب، آ ـ تحقيق: خليل المنصُور، مُجلَّد واحد، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1996 .
ب ـ تحقيق: د. سُهيل زَكّار، مُجلَّدان، دار الكتاب العرَبي، دمشق ـ 1997.
ـ ابن عربشاه (أحمد بن مُحمَّد الحنفي): فاكهة الخُلفاء ومُفاكهة الظُّرفاء، (طبعة مُصوَّرة: دار صادر، بيروت ـ بلا) دير الآباء الدُّومنيكين، المَوصل ـ 1869.
ـ ابن عساكر (علي بن الحَسَن بن هبة الله): تاريخ دمشق، تحقيق: عَمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت ـ 1995.
ـ العظيمي (مُحمَّد بن علي بن مُحمَّد التنوخي): تاريخ حلب، تحقيق: د. إبراهيم زعرور، بلا، دمشق ـ 1984ز
ـ العلمي (مُحمَّد بن منكلي): الحيل في الحُرُوب وفتح المدائن وحفْظ الدُّرُوب، تحقيق: أ.د. مُحمَّد عبد العزيز أحمد، دار الكُتُب المصريَّة، القاهرة ـ بلا.
ـ العليمي (عبد الرحمن بن مُحمَّد بن عبد الرحمن الحنبلي): الأُنس الجليل بتاريخ القُدْس والخليل، مكتبة المُحتسب، عمّان ـ 1973.
ـ ابن العماد (عبد الحي بن أحمد بن مُحمَّد الحنبلي): شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، دار الفكر، بيروت ـ 1988.
ـ العُمري (ابن فضل الله شهاب الدِّين أحمد بن يحيى):
1 ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أصدره: فُؤاد سزكين، [مُصوَّرة عن مخطوطة أدد ـ 9589، المكتبة البريطانية، لندن] معهد تاريخ العُلُوم العَرَبيَّة والإسلامية، جامعة فرانكفورت ـ 1988.
2 ـ التعريف بالمُصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، مصر ـ 1312 هـ.
3 ـ قبائل العَرَب في القرنَيْن السَّابع والثَّامن الهجريَّيْن (من: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، تحقيق: دُورُوتيا كرافُولسكي، المركز الإسلامي للبُحُوث، بيروت ـ 1985.
ـ ابن العميد (المكين جرجس بن العميد أبي الياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيِّب): أخبار الأيُّوبيِّين، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، بُور سعيد ـ بلا.
ـ العيني (البدر محمود بن أحمد بن مُوسى): عقد الجُمان في تاريخ أهل الزَّمان، آ ـ تحقيق : د. مُحمَّد أمين، وزارة الثقافة، القاهرة ـ 1992 . ب ـ الموسوعة الشاملة، المُجلَّد 59، تأليف وتحقيق وترجمة: د. سُهيل زَكّار، دار الفكر، دمشق ـ 2004.
ـ فابري (الراهب فيلكس): جولات ورحلات في فلسطين ـ 1480م، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، المُجلَّد ـ 40 ـ 43، دار الفكر، دمشق ـ 2000.

ـ أبو الفداء (إسماعيل بن علي بن محمود الأيُّوبي):

المُختصر في أخبار البشر، [طبعة مُصوَّرة] دار المعرفة، بيروت ـ بلا.

تقويم البُلدان، صحَّحه: رينو مُدرِّس العَرَبيَّة و ماك كولين ديسلان، دار الطباعة السُّلطانية، باريس ـ 1940.

ـ ابن الفُرات (ناصر الدِّين مُحمَّد بن عبد الرحيم): تاريخ ابن الفُرات ـ تاريخ الدُّول والمُلُوك، تحقيق: د. قسطنطين زريق ود. نجلاء عزّ الدِّين، المطبعة الأمريكانية، بيروت ـ 1939.

ـ ابن الفُوطي (عبد الرزاق بن أحمد بن مُحمَّد الصابوني الشيباني):

1 ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة: منسوب إليه، آ ـ دار الفكر الحديث، بيروت ـ 1987 . ب ـ تحقيق: مُصطفى جواد، مطبعة الفُرات، بغداد ـ 1969.

2 ـ مجمع الآداب في مُعجم الأسماء والألقاب، تحقيق: مُصطفى جواد، دمشق، 1963.

ـ فُوقاس (يوانس): رحلة في الأرض المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 35، دار الفكر، دمشق ـ 1998.

ـ فيتري (جاك دي): تاريخ القُدْس، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 34، دار الفكر، دمشق ـ 1998.

ـ فيلهاردن (جيُوفري بن فيلان دي): الاستيلاء على القسطنطينيَّة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 10، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ ابن قاضي شهبة (مُحمَّد بن أحمد بن مُحمَّد الأسدي) الكواكب الدُّرِّيَّة في السيرة النورية، تحقيق: د.محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت ـ 1970.

ـ القاضي الفاضل (عبد الرحيم بن علي بن الحَسَن العسقلاني): الرسائل، تحقيق: د. علي نجم عيسى، مكتبة الجيل، المَوصل ـ 2002.

ـ القُدسي (مُحمَّد بن خليل الشافعي): دُول الإسلام الشريفة البهية، تحقيق: صُبحي لبيب و أولريش هارمان، النشرات الإسلاميَّة ـ 37، الشركة المُتَّحدة، بيروت ـ 1997.

ـ القرماني (أحمد بن يُوسُف بن أحمد الدمشقي): أخبار الدُّول وآثار الأُوَل في التاريخ، [طبعة مُصوَّرة عن طبعة مطبعة عباس التبريزي، بغداد، المُصوَّرة عن مخطوطة] عالم الكُتُب، بيروت ـ بلا.

ـ القزويني (زكريا بن مُحمَّد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ـ بلا.

ـ ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي): ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: د. سُهيل زَكَّار، دار حسَّان، دمشق ـ 1983 .

ـ القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد):

1 ـ صُبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1985.

2 ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزَّمان، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكُتُب الحديثة، القاهرة ـ 1963.

ـ الكُتُبي (مُحمَّد بن شاكر بن أحمد): فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د.إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت ـ 1973.

ـ ابن كثير (إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي): البداية والنِّهاية، تحقيق: د.أحمد أبو مُلحم وآخرون، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ بلا.

ـ كلاري (رُوبرت دي): سُقُوط القسطنطينيَّة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 10، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ ابن كنان (ابن زين التقاة مُحمَّد بن عيسى بن مُحمَّد): المُرُوج السُّندسية في تاريخ الصالحية، تحقيق: مُحمَّد أحمد دهمان، المُديرية العامَّة للآثار والمتاحف، دمشق ـ 1947.

ـ كُوهين (فُورمان): السعي وراء الفترة الألفية السَّعيدة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 4، دار الفكر، دمشق ـ 1993.

ـ كُومينا (آنا): الألكسياد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 6، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ كيناموس (يُوحنَّا): أعمال يُوحنَّا ومانويل كُومينُوس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 29، دار الفكر، دمشق ـ 1997.

ـ ماب (وولتر): ما جاء عند وولتر ماب عن الحُرُوب الصَّليبيَّة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 36، دار الفكر، دمشق ـ 1999.

ـ الماوردي (علي بن مُحمَّد بن حبيب):

1 ـ التُّحفة المُلُوكية في الآداب الساسانية (منسوب إليه)، تحقيق: د. فُؤاد عبد المُنعم، مُؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندرية ـ 1993.

2 ـ الأحكام السُّلطانية والولايات الدِّينيَّة، تحقيق: خالد عبد اللطيف، دار الكتاب العَرَبي، بيروت ـ 1990.

3 ـ نصيحة المُلُوك، إعداد: د. فُؤاد عبد المُنعم أحمد، مُؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندرية ـ بلا.

ـ مجهول: سيرة الملك الظَّاهر بيبرس، سيرة شعبية منسوبة إلى الدِّيناري والدويداري، المكتبة الثقافية، بيروت ـ بلا.

ـ مجهول: رواية عن الأرض المُقدَّسة ـ 1350م، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 40، دار الفكر، دمشق ـ 2000.

ـ مجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، أو تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القُدْس، تدوين: ريمون دي جيل راهب نُوتردام دي بوي، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 6، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ المسعودي (علي بن الحُسَيْن بن علي):

1 ـ التنبيه والإشراف، دار التُّراث، بيروت ـ 1968.

2 ـ مُرُوج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: شارل بلا، الجامعة اللُّبنانيَّة، بيروت ـ 1966.

ـ مِسْكَويه (أحمد بن مُحمَّد بن يعقوب): تجارب الأُمم وتعاقب الهِمَم، تحقيق: هـ. ف أمدروز، مطبعة شركة التمدُّن الصناعية، القاهرة ـ 1914.

ـ ابن المعمار (مُحمَّد بن أبي مكرم): الفُتُوَّة، تحقيق: مُصطفى جواد وآخرون، بغداد، 1958.

ـ المغربي (علي بن مُوسى): كتاب الجغرافية، تحقيق: إسماعيل العَرَبي، دار الفكر، بيروت ـ 1979 .

ـ المَقدسي (مُحمَّد بن أحمد بن أبي بكر البشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن ـ 1909.

ـ المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر):

1 ـ المواعظ و الاعتبار بذكْر الخُطط و الآثار، [مُصوَّرة عن طبعة بُولاق] دار التحرير، القاهرة ـ 1943.

2 ـ السُّلُوك لمعرفة دُول المُلُوك، نشره: د. مُحمَّد مُصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ـ 1957.

3 ـ المُقفَّا الكبير، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، الجُزء الخامس والعشرون، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

4 ـ اتِّعاظ الحُنفا بأخبار الأئمَّة الفاطميين الخُلفا.

آ ـ تحقيق: د. مُحمَّد حلمي أحمد، لجنة إحياء التُّراث الإسلامي، القاهرة ـ 1996.

ب ـ الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 25، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

5 ـ البيان والإعراب عمَّا بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ 1989.

6 ـ دُرر العُقُود الفريدة في تراجم الأعيان المُفيدة ـ قطعة منه، تحقيق: عدنان درويش ومُحمَّد المصري، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1995.

ـ المقرِّي (أحمد بن مُحمَّد بن أحمد التلمساني): نفح الطيب من غُصن الأندلس الرطيب وذكْر وزيرها لسان الدِّين بن الخطيب، تحقيق: يُوسُف الشَّيخ مُحمَّد البُقاعي، دار الفكر، بيروت ـ 1986.

ـ الملك الأمجد (حسن بن الملك النَّاصر داود بن الملك المُعظَّم عيسى الأيُّوبي): الفوائد الجلية في الفرائد النَّاصريَّة ـ سيرة الملك النَّاصر داود الأيُّوبي، تحقيق: عبد الحَسَيْن خضر، مطبعة عكرمة، دمشق ـ 1996.

ـ ابن مماتي (أسعد بن المُهذَّب بن مينا): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة ـ 1991.

ـ المُنذري (عبد العظيم بن عبد القوي): التَّكملة لوفيات النَّقَلَة، تحقيق: بشَّار عوَّاد معروف، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1981.

ـ ابن مُنقذ (أُسامة بن مُرشد بن علي بن مُقلَّد الكناني):

الاعتبار، آ ـ تدقيق: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت ـ 1988. ب ـ الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 12، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ المنازل والديار، تحقيق: مُصطفى حجازي، لجنة إحياء التُّراث الإسلامي، القاهرة ـ 1968.

ـ ابن مُيسَّر (مُحمَّد بن علي بن يُوسُف): ذيل تاريخ مصر للمسبحي المطبوع باسم: أخبار مصر، تحقيق: هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ـ 1981.

ـ الميداني (أحمد بن مُحمَّد النيسابوري): مجمع الأمثال، تحقيق: مُحمَّد مُحيي الدِّين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت ـ 1972.

ـ النسوي (مُحمَّد بن أحمد بن علي المنشئ): سيرة السُّلطان جلال الدِّين منكبرتي، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العَرَبي، القاهرة ـ 1953.

ـ ابن نظيف (مُحمَّد بن علي بن عبد العزيز الحموي): التاريخ المنصُوري ـ تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزَّمان، تحقيق: د.أبو العيد دُودُو، مجمع اللُّغة العَرَبيَّة، دمشق ـ 1981.

ـ النعيمي (عبد القادر بن مُحمَّد الدمشقي): الدارس في تاريخ المدارس، آ ـ فهرسه: إبراهيم شمس الدِّين، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1990 . ب ـ تحقيق: جعفر الحَسَني، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، القاهرة ـ 1988.

ـ نُوفار (فيليب دي): حُرُوب فريدريك الثَّاني ضدَّ الإبلينيين في سُورية وقبرص، الموسوعة الشاملة، المُجلَّد ـ 35، د. سُهيل زَكَّار، دار الفكر، دمشق ـ 1999.

ـ النُّويري (شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهاب بن مُحمَّد): نهاية الأرَب في فُنُون الأدب، تحقيق: د.أحمد كمال زكي، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1980.

ـ هافنسيس: مجموع هافنسيس ـ 57 ـ تاريخ المورة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، المُجلَّد ـ 10، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ ابن الهبارية (الشريف أبو يعلى مُحمَّد بن مُحمَّد): ديوان الصادح والباغم، القاهرة ـ 1292 هـ.

ـ ابن هُذَيْل (علي بن عبد الرحمن بن هُذَيْل الأندلسي): حلية الفُرسان وشعار الشُّجعان، تحقيق: مُحمَّد عبد الغني حسن، دار المعارف، القاهرة ـ 1949.

ـ الهمذاني (ابن الفقيه أحمد بن مُحمَّد): كتاب البُلدان، مطبعة بريل، ليدن ـ 1885.

ـ ابن واصل (مُحمَّد بن سالم بن نصر الله):

1 ـ مُفرِّج الكُرُوب في أخبار بني أيُّوب: آ ـ الجُزء الأوَّل: تحقيق: د. جمال الدِّين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة ـ 1957 ب ـ الأجزاء: 2 ـ 3 ـ 4، تحقيق: د. حسنَيْن ربيع، مطبعة دار الكُتُب، القاهرة ـ 1972 ـ 1977.

2 ـ التاريخ الصالحي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 21، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ ابن الوردي (زين الدِّين عُمر بن المُظفَّر بن الوردي المعرِّي الحلبي، ت 749 هـ): تاريخ ابن الوردي ـ ذيل المُختصر، إشراف: أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت ـ 1970.

ابن الوردي (سراج الدِّين عُمر بن الوردي المصري، ت 861 هـ): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تصحيح وإعداد: محمود فاخوري، دار الشُّرُوق العَرَبي، بيروت ـ 1991.

ـ الوهراني (مُحمَّد بن مُحمَّد بن محرز): منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومُحمَّد نغش، دار الكاتب العَرَبي، القاهرة ـ 1968.

ـ وورزنبيرغ (جُون أُوف): وصف الأرض المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 34، دار الفكر، دمشق ـ 1998.

ـ ويندوفر (رُوجر أُوف): وُرُود التَّاريخ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 44 ـ 45، دار الفكر، دمشق ـ 2000.

ـ اليافعي (عبد الله بن أسعد بن علي): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبَر من حوادث الزَّمان، تحقيق: خليل المنصُور، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1997.

ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحق بن جعفر):

1 – كتاب البُلدان، مطبعة بريل، ليدن ـ 1860.

2 ـ تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت ـ 1995.

ـ اليُونيني (مُوسى بن مُحمَّد بن أحمد): ذيل مرآة الزَّمان، [طبعة مُصوَّرة عن طبعة حيدر أباد، الهند ـ 1960] دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ـ 1992.

المراجع العَرَبيّة والمُعرّبة:

ـ إبراهيم (د. محمود): حطّين بين أخبار مُؤرّخيها وشعر مُعاصريها، دار البشير، عمّان ـ 1987.

ـ أبو خليل (شوقي): أطلس التاريخ العَرَبي الإسلامي، دار الفكر، دمشق ـ 2001.

ـ أحمد (د. علي): الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشّام، دار طلاس، دمشق ـ 1989.

ـ أحمد (مُحمَّد مُؤنس): فُصُول بيبلُوغرافية في تاريخ الحُرُوب الصَّليبيّة، عين للدراسات، القاهرة ـ 1996.

ـ الأسدي (خير الدِّين): أحياء حلب وأسواقها، تحقيق: عبد الفتّاح روّاس قلعجي، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1984.

ـ إسماعيل (أحمد علي): تاريخ السلاجقة في بلاد الشّام، الشركة المُتّحدة للطباعة والنشر، دمشق ـ 1983.

ـ الأعسم (د. عبد الأمير): الفيلسوف نصير الدِّين الطوسي، دار الأندلس، بيروت ـ 1975.

ـ ألتونجي (د. مُحمَّد): التّيّارات الأدبية إبّان الغزو المغولي، دار طلاس، دمشق ـ 1987.

ـ أليسيف (نيكيتا): السُّلطان نُور الدِّين بن زنكي، ترجمة: سليم قندلفت، ألفباء الأديب، دمشق ـ 1998.

ـ إقبال (عبّاس):

1 ـ تاريخ المغول، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي ـ 2000.

2 ـ تاريخ إيران بعد الإسلام، تعريب: مُحمَّد علاء منصُور، دار الثقافة العَرَبيّة، القاهرة ـ 1994.

ـ أمين (أحمد): ظُهر الإسلام، دار الكتاب العَرَبي، بيروت ـ بلا.

ـ الأمين (حسن):

1 ـ صلاح الدِّين بين العبّاسيين والفاطميين والصليبيين، دار الجديد، بيروت ـ 1995.

2 ـ الغزو المغولي للبلاد الإسلاميّة، دار النهار للنشر، بيروت ـ 1993.

ـ الإيبش (أحمد و د. قُتيبة الشهابي):

1 ـ دمشق الشّام في نُصُوص الرَّحّالين والجغرافيين والبُلدانيين العَرَب والمُسلمين، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1998.

2 ـ معالم دمشق التاريخية، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1996.

ـ الباشا (حسن): الألقاب الإسلاميّة في التاريخ والوثائق، دار النهضة العَرَبيّة، القاهرة ـ 1978.

ـ باركر (أرنست): الحُرُوب الصَّليبيّة، تعريب: د. السّيّد الباز العريني، دار النهضة العَرَبيّة، بيروت ـ 1967.

ـ بُدُور (كمال): مملكة حلب الأيُّوبيّة، رسالة ماجستير، بإشراف الدُّكتُور سُهيل زكّار، جامعة دمشق، 1998.

ـ بريدج (أنتوني): تاريخ الحُرُوب الصَّليبيّة، تعريب: أحمد غسّان سبانو ونبيل الجيزاوي، دار قُتيبة، دمشق ـ 1985.

ـ تدمري (د. عُمر عبد السلام): دراسات في تاريخ الساحل الشّامي:

1 ـ لُبنان من السُّقُوط بيد الصليبيين حتّى التحرير، دار الإيمان، طرابلس ـ 1994.

2 ـ تاريخ طرابلس السِّياسي والحضاري عبر العُصُور، مطابع دار البلاد، طرابلس ـ 1978.

ـ ترمانيني (د.عبد السلام): أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، دار طلاس، دمشق ـ 1995.
ـ التكريتي (محمود ياسين أحمد): الأيُّوبيُّون في شمال الشَّام والجزيرة، رسالة دُكتُوراه، بإشراف الدُّكتُور إبراهيم أحمد العدوي، جامعة بغداد ـ 1979.
ـ توينبي (أرنولد): الحضارة في الميزان، ترجمة: محمود أمين الشريف، دار الكتاب العَرَبي، القاهرة ـ بلا.
ـ جروسيه (رينيه): جنكيز خان قاهر العالم، تعريب: خالد أسعد عيسى، دار حسَّان، دمشق ـ 1982.
ـ جُودة (د. صادق): القُضاة الشهرزوريون، دار البشير ودار عمَّار، عمَّان ـ 1986.
ـ جُوزي (بندلي): من تاريخ الحَرَكَات الفكرية في الإسلام، دار الجليل، دمشق ـ 1982.
ـ جُولد تسيهر (أغناس): العقيدة و الشريعة في الإسلام، ترجمة: مُحمَّد مُوسى وآخرون، [طبعة مُصوَّرة عن طبعة دار الكتاب المصري ـ 1946] دار الرائد العَرَبي، بيروت ـ بلا.
ـ الحايك (مُنذر):
1 ـ مملكة حمص في العصر الأيُّوبي، دار طلاس، دمشق ـ 2000 .
2 ـ دراسات في تاريخ الرستن، بإشراف: العماد أوَّل مُصطفى طلاس، دار طلاس، دمشق ـ 2002.
ـ حتِّي (د. فيليب): تاريخ سُورية و لُبنان و فلسطين، ترجمة: جُورج حدَّاد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت ـ بلا.
ـ حسن (علي إبراهيم): دراسات في تاريخ المماليك، مكتبة النهضة، القاهرة ـ 1944.
ـ حسن (مُصطفى مُحمَّد): الإسلام والنوبة في العُصُور الوُسْطَى، دار النهضة العَرَبيَّة، القاهرة ـ 1960.
ـ حُسَيْن (د. مُحسن مُحمَّد): الجيش الأيُّوبي في عهد صلاح الدِّين، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 19986.
ـ حمادة (مُحمَّد ماهر):
1 ـ وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ1986.
2 ـ الوثائق السِّياسيَّة والإدارية العائدة للعُصُور العبَّاسيَّة المُتابعة، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1985.
3 ـ دراسة وثـقية للتاريخ الإسلامي ومصادره، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1988.
ـ حمدي (حافظ أحمد): الشَّرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، القاهرة ـ 1950.
ـ حُوراني (ألبرت): تاريخ الشُّعُوب العَرَبيَّة، تعريب: أسعد صقر، دار طلاس، دمشق ـ 1997.
ـ الحياري (مُصطفى): الإمارة الطائية في بلاد الشَّام، دار الفكر، عمَّان ـ 1977.
ـ خفاجي (مُحمَّد عبد المُنعم): بنو خفاجة، دار الكتاب العَرَبي،القاهرة ـ1950.
ـ خليل (د. عماد الدِّين):
1 ـ نُور الدِّين محمود، دار القلم، دمشق ـ1980.
2 ـ الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشَّام، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1998.
ـ داهموس (جُوزيف): سبع معارك في العُصُور الوُسْطَى، ترجمة: فتحي الشاعر، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1987.
ـ الدبس (المطران يُوسُف): من تاريخ سُورية الدّنيوي والدِّيني، المطبعة العُمُومية، بيروت ـ 1902.

ـ ديسو (رينيه): العَرَب في سُورية، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومُحَمَّد مُصطفى زيادة، دار الحداثة، بيروت ـ 1985.

ـ أبو رميلة (هشام): علاقات المُوحِّدين بالدُّول النصرانية والدُّول الإسلاميَّة في الأندلس، دار الفُرقان، عمّان ـ 1984.

ـ رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت ـ 1968.

ـ زابُورُوف (ميخائيل): الصَّليبيُّون في الشَّرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدُّم، موسكو ـ 1986.

ـ الزُّحيلي (د. وهبة): العلاقات الدّوليَّة في الإسلام مُقارنة بالقانون الدولي الحديث، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1989.

ـ زَكَّار (د. سُهيل):

1 ـ الحُرُوب الصَّليبيَّة روايات شُهُود عيان، دار حسَّان، دمشق ـ 1984.

2 ـ مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، الموسوعة الشاملة في الحُرُوب الصَّليبيَّة، المُجلَّدات 1 ـ 3، دار الفكر، بيروت ـ 1994.

2 ـ الموسوعة الشاملة في الحُرُوب الصَّليبيَّة 1 ـ 50، تأليف وتحقيق وترجمة، دار الفكر، بيروت ـ 1994 ـ 2002.

ـ زكريَّا (أحمد وصفي): عشائر الشَّام، دار الفكر، دمشق ـ 1997.

ـ زكي (عبد الرحمن): السيف في العالم الإسلامي، دار الكتاب العَرَبي، القاهرة ـ 1957.

ـ زيادة (د. مُحَمَّد مُصطفى): حملة لويس التَّاسع على مصر وهزيمته في المنصُورة، وزارة الثقافة، القاهرة ـ 1961.

ـ زيدان (جُورجي): تاريخ التمدُّن الإسلامي، نشر: حُسَيْن مُؤنس، القاهرة ـ 1968.

ـ زيُّود (مُحَمَّد أحمد): العلاقات بين الشَّام ومصر في العهدَيْن الطُّولُوني والإخشيدي، دار حسَّان، دمشق ـ 1989.

ـ سبانو (أحمد غسَّان): مملكة حماة الأيُّوبيَّة، دار قُتيبة، دمشق ـ 1984.

ـ سليم (د. صبري): الأتراك الخوارزميُّون في الشَّرق الأدنى الإسلامي 628 ـ 644، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، القاهرة ـ 2000.

ـ سميث (جُوناثان رايلي):

1 ـ الاسبتاريَّة، تعريب: صُبحي الجابي، دار طلاس، دمشق ـ 1989.

2 ـ فُرسان القدِّيس يُوحنَّا، تعريب: صُبحي الجابي، دار حسَّان، دمشق ـ 1981.

ـ سميل (ر. سي): فنُّ الحَرْب عند الصليبيين في القرن الثَّاني عشر (1097 – 1193)، ترجمة: مُحَمَّد وليد الجلاد، دار طلاس، دمشق ـ 1985.

ـ سُوفاجيه (جان): دمشق الشَّام، ترجمة: فُؤاد افرام البستاني، تحقيق: أكرم العلبي، دار الوارف، بيروت ـ 1989.

ـ سيغال (ج . ب): الرُّهَا المدينة الفاضلة، ترجمة: يُوسُف إبراهيم جبرا، دار الرُّهَا للنشر، حلب ـ 1988.

ـ شاندور (ألبير): صلاح الدِّين الأيُّوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة: سعيد أبو الحَسَن، دار طلاس، دمشق ـ 1993.

ـ شبارو (د.عصام مُحَمَّد): السلاطين في المشرق العَرَبي،

1 ـ السلاجقة ـ الأيُّوبيُّون، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1994.

2 ـ المماليك ، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1994.

ـ شبولر (برتولد):

1 ـ العالم الإسلامي في العصر المغولي، تعريب: خالد عيسى، دار حسَّان، دمشق ـ 1982.

2 ـ المغول في التاريخ، ترجمة : يُوسُف شلب الشَّام، دار طلاس، دمشق ـ 1989.

ـ شرف (طه أحمد): دولة النزارية أجداد آغا خان، دار الكتاب، بيروت ـ 1994.

ـ الشهابي (د. قُتيبة):

1 ـ مُعجم دمشق التاريخي، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1999.

2 ـ أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1996.

ـ الشَّيَّال (د. جمال الدِّين): تاريخ مصر الإسلاميَّة، مطبعة رويال، الإسكندرية ـ 1967.

ـ الشَّيخ (مُحَمَّد مرسي): الإمارات العَرَبيَّة في بلاد الشَّام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ 1980.

ـ الصغير (أجفان): القلاع في فترة الحُرُوب الصَّليبيَّة ودورها الاقتصادي والاجتماعي والإداري عند المُسلمين في بلاد الشَّام، رسالة ماجستير، بإشراف الدُّكتُور سُهيل زَكَّار، جامعة دمشق ـ 1995.

ـ الصَّيَّاد (فُؤاد عبد المُعطي): المغول في التاريخ، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1980.

ـ الطَّبَّاخ (مُحَمَّد راغب بن محمود): إعلام النُّبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، حلب ـ 1925.

ـ طقوش (د. مُحَمَّد سهيل): تاريخ الفاطميين، دار النفائس، بيروت ـ 2001.

ـ طلاس والجلاد (العماد أوَّل مُصطفى طلاس والعميد مُحَمَّد وليد الجلاد): قلعة الحصن، دار طلاس، دمشق ـ 1990.

ـ عابدين (د. عبد المجيد): دراسات في تاريخ العُرُوبة في وادي النيل (مُلحق بكتاب البيان والإعراب)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ 1989.

ـ عاشور (د. سعيد عبد الفتاح):

1 ـ مصر والشَّام في عصر الأيُّوبيِّين والمماليك، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ بلا.

2 ـ أُورُبا العُصُور الوُسْطَى، دار النهضة العَرَبيَّة، القاهرة ـ 1972.

3 ـ سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصُّغرَى ـ بُحُوث ودراسات في تاريخ العُصُور الوُسْطَى، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1977.

4 ـ حضارة ونُظُم أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، دار النهضة العَرَبيَّة، القاهرة ـ 1976.

5 ـ العصر المماليكي في مصر والشَّام، القاهرة ـ 1965.

ـ عاشور (فايد):

1 ـ العلاقات السِّياسيَّة بين المماليك والمغول، دار المعارف، القاهرة ـ 1976.

2 ـ الحَرَكَة الصَّليبيَّة، مطبعة لجنة البيان العَرَبي، القاهرة ـ 1963.

ـ العبَّادي (د.أحمد مُختار):

1 ـ في تاريخ الأيُّوبيِّين و المماليك، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ1995.

2 ـ تاريخ البَحْريَّة الإسلاميَّة، شارك في التأليف: سيِّد عبد العزيز سالم، دار النهضة العَرَبيَّة، القاهرة ـ 1981.

3 ـ قيام دولة المماليك الأُولى في مصر والشَّام، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ1986.

ـ عبد المولى (مُحمَّد أحمد): بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشَّام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ1985.

ـ العريني (السَّيِّد الباز):

1 ـ الشَّرق الأدنى في العُصُور الوُسْطَى ـ الأيُّوبيُّون، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1967.

2 ـ مصر في عصر الأيُّوبيِّين، وزارة الثقافة ـ الألف كتاب، القاهرة ـ 1960.

ـ عزَّاوي (عبَّاس): التعريف بالمُؤرِّخين، شركة الطباعة والتجارة المحدودة، بغداد ـ 1957.

ـ عطا (زبيدة): بلاد التُّرك في العُصُور الوُسْطَى، دار الفكر العَرَبي، القاهرة ـ 1998.

ـ عطوان (حَسَيْن): الجغرافية التاريخية لبلاد الشَّام، دار الجيل، بيروت ـ1987.

ـ عطية (عزيز سوريال): الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، لندن ـ 1962.

ـ عطية (حسين محمود): إمارة أنطاكية الصَّليبيَّة والمُسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ 1989.

ـ عُمران (د. محمود سعيد): القادة الصَّليبيُّون الأسرى في أيدي الحُكَّام المُسلمين، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1986.

ـ عودات (د. أحمد وآخرون) : تاريخ المغول والمماليك، دار الكندي، إربد ـ 1990.

ـ عوض (د. مُحمَّد مُؤنس أحمد):

1 ـ الزلازل في بلاد الشَّام عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة، عين للدراسات والبُحُوث الإنسانيَّة، القاهرة ـ 1996.

2 ـ الجغرافيون والرَّحَّالة المُسلمون في بلاد الشَّام زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة، عين للدراسات والبُحُوث الإنسانيَّة، القاهرة ـ 1995.

ـ غوانمة (د. يُوسُف): إمارة الكَرَك الأيُّوبيَّة، دار الفكر، عمَّان ـ 1982.

ـ فريد (مُحمَّد بك المُحامي): تاريخ الدولة العليَّة العُثمانية، تحقيق: د. إحسان حقِّي، دار النفائس، بيروت ـ 1998.

ـ فيشر (هـ .أ . ل): تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة والسَّيِّد الباز العريني، دار المعارف، القاهرة ـ القسم الأوَّل: 1957 ـ القسم الثَّاني: 1969.

ـ القاسمي (مُحمَّد سعيد): قاموس الصناعات الشَّاميَّة، تحقيق: ظافر القاسمي، دار طلاس، دمشق ـ 1988.

ـ كاهن (كلود):

1 ـ الشَّرق والغَرْب زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة، تعريب: أحمد الشَّيخ، سينا للنشر، القاهرة ـ 1995.

2 ـ تاريخ العَرَب والشُّعُوب الإسلاميَّة مُنْذُ ظُهُور الإسلام حتَّى بداية الإمبراطُوريَّة العُثْمانية، تعريب: د. بدر الدِّين القاسم، دار الحقيقة، بيروت ـ 1977.

ـ كُرد علي (مُحمَّد): خُطط الشَّام، مكتبة النُّوري، دمشق ـ 1983.

ـ الكرملي (الأب أنستاس ماري): النُّقُود العَرَبيَّة وعلم النميات، المطبعة العصرية، القاهرة ـ 1939.

ـ الكيلاني (أحمد قدري): الملك العالم أبو الفداء والمُلُوك الأيُّوبيُّون في مملكة حماة، المكتبة العَرَبيَّة، حماة ـ 2000.

ـ لابيدوس (إيرا مارفين): مُدُن الشَّام في العصر المملوكي، ترجمة: د.سُهيل زَكَّار، دار حسَّان ـ 1965.

ـ لسترانج (كي): بُلدان الخلافة الإسلاميَّة، ترجمة: بشير فرنسيس وكُوركيس عوَّاد، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1985.

ـ لويس (برنارد):

1 ـ الحشَّاشون ـ فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، تعريب: مُحمَّد العزب مُوسى، دار المشرق العَرَبي الكبير، بيروت ـ 1980.

2 ـ الحشيشية ـ الاغتيال الطُّقُوسي عند الإسماعيليَّة النزارية، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، دار قُتيبة، دمشق ـ 2004.

ـ ماجد (عبد المُنعم): العلاقات بين الشَّرق والغَرْب في العُصُور الوُسْطَى، مطابع بيبلوس، بيروت ـ 1966.

ـ متز (آدم): الحضارة الإسلاميَّة، تعريب: مُحمَّد أبو ريدة، دار الكتاب العَرَبي، بيروت ـ بلا.

ـ مُصطفى (د. شاكر):

1 ـ من ذكريات الغزو الفرنجي، دار طلاس، دمشق ـ 1996.

2 ـ في التاريخ الشَّامي، دار طلاس، دمشق ـ 1998.

ـ معلوف (أمين): الحُرُوب الصَّليبيَّة كما رآها العَرَب، ترجمة: د.عفيف دمشقية، دار الفارابي، بيروت ـ 1998.

ـ المناوي (د. مُحمَّد حمدي): الوزارة والوُزراء في العهد الفاطمي، دار المعارف بمصر، القاهرة ـ 1990.

ـ مُورغان (مرغريت): دراسة لذُيُول وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 8، دار الفكر، دمشق ـ 1994.

ـ المُنجِّد (د. صلاح الدِّين): النُّظُم الدِّبلُوماسيَّة في الإسلام، دار الكتاب الجديد، بيروت ـ 1983.

ـ ناجي (عبد الجبَّار): الإمارة المزيدية، دار المُثنَّى، بغداد ـ 1970.

ـ النَّقَّاش (د. زكي): العلاقات الاجتماعيَّة والثقافية والاقتصاديَّة بين العَرَب والفرنج خلال الحُرُوب الصَّليبيَّة، دار الكتاب اللُّبناني، بيروت ـ 1946.

نيوباي (ب .هـ): صلاح الدِّين وعصره، تعريب: ممدوح عُدوان، دار الجُندي، دمشق ـ 1993.

ـ هندي (د. إحسان): الأسلحة وآلات القتال عند العَرَب والمُسلمين في القُرُون الوُسْطَى، مركز الدِّراسات العسكريَّة، دمشق ـ 2004.

ـ يُوسُف (د. جُوزيف نسيم):

1 ـ العَرَب و الرُّوم واللاتين في الحَرْب الصَّليبيَّة الأُولى، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1981.

2 ـ العُدوان الصليبي على الشَّام،دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1981.

3 ـ العُدوان الصليبي على مصر، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1981.

4 ـ الوحدة و حَرَكَات اليقظة إبَّان الغزو الصليبي ، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1981.

المعاجم والموسوعات:

ـ ألتونجي (د. مُحمَّد): المُعجم الذهبي فارسي ـ عربي ، دار العلم للملايين، بيروت ـ 1969.

ـ البُستاني (بُطرُس): دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت ـ 1976.

ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله): مُعجم البُلدان، دار صادر، بيروت ـ1995.

ـ الخطيب (مُصطفى عبد الكريم): مُعجم المُصطلحات والألقاب التاريخية، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1966.

ـ دُوزي (رينهات):

1 ـ تكملة المعاجم العَرَبيَّة، ترجمة وتعليق: د. مُحمَّد سليم النعيمي، دار الرشيد، بغداد ـ1982.

2 ـ المُعجم المُفصَّل بأسماء الملابس عند العَرَب، ترجمة: د. أكرم فاضل، مطبعة الحُكُومة، بغداد ـ 1971.

ـ الزركلي (خير الدِّين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ـ 1990.

ـ زامباور (إدوارد فُون): مُعجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه: د.زكي مُحمَّد حسن و حسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فُؤاد الأوَّل، القاهرة ـ 1951.

ـ شير (السَّيِّد أدي): الألفاظ الفارسية المُعرَّبة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ـ 1908.

ـ الكاشغري (محمود بن الحُسَيْن بن مُحمَّد): ديوان لُغات التُّرك، مطبعة عامرة، دار الخلافة العلية ـ 1333 هـ.

ـ كُوراني (علي سيِّد): القاموس الكُردي الحديث كُردي ـ عربي، شركة الشَّرق الأوسط للطباعة، عمَّان ـ1985.

ـ مجموعة من المُؤلِّفين: المُعجم الجَغرافي للقُطر العَرَبي السوري، إشراف: العماد أوَّل مُصطفى طلاس، مركز الدِّراسات العسكريَّة، دمشق ـ1995.

ـ ابن منظور (مُحمَّد بن مكرم بن علي): لسان العَرَب، دار إحياء التُّراث العَرَبي، بيروت ـ 1988

ـ The Encyclopedia of Islam, vol: IV. London 1960

كُتُب الرحلات:

ـ التطيلي (الربي بنيامين بن يونة): رحلة بنيامين، ترجمة: عزرا حدَّاد، المطبعة الشَّرقيَّة، بغداد ـ 1945.

ـ ابن بطُّوطة (مُحمَّد بن عبد الله بن مُحمَّد): تُحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ بلا.

ـ ابن جُبَيْر (مُحمَّد بن أحمد بن جبير): تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، آ ـ دار صادر، بيروت ـ بلا . ب ـ الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 14، دار الفكر، بيروت ـ 1998.

ـ زكريَّا (أحمد وصفي): جولة أثرية، دار الفكر، دمشق ـ 1984.

دواوين الشعر:

ـ العرقلة (حسَّان بن نمير الكلبي): الديوان، تحقيق: أحمد الجُندي، دار صادر، بيروت ـ1992.

ـ الملك النَّاصر (داود بن الملك المُعظَّم عيسى): الديوان، تحقيق: عبد الحَسَيْن الخُضر، مطبعة عكرمة، دمشق ـ 1996.

المصادر والمراجع الأجنبية:

_ Ambroise: The Crusade of Richard Lion_Heart. Translation from the Old French by: M.J. Hubert, New York, 1941.

_ Anna, Comnena: The Alxiad. An English Translation By: Dawes, Elizabeth A.S, London, 1928

_ Armstrong, Karen: Holy War, Macmillan, London, 1988

_ Ateya, Aziz: Crusade, Commerce and Culture, New York 1962

_ Baldwin, M.W: Raymond III of Tripoli's and the fall of Jerusalem (1140_1187), Princeton, 1936

_ Barker, E: Social and Political thought in Byzantium from Justinian I to the late Palaeologus. Oxford, 1957

_ Bell, M.I: A Short History of the Papacy. London, 1921

_ Boyl, John Andrew: The Mongol Word Empire, London, 1977

_ Burchard, Of Mount Zion: A Description of the Holy Land (A. D.1280), Translation from the original Latin by A, Stewart, London, 1896

_ Cahen, Claude: Pre – Ottoman Turkey, Translation: D, Jones__Williams, Sidgwick and Jackson, London, 1968

_ Campell,G.A: The Crusades, London, 1935

_ Chew, Helen .M: The English Ecclesiastical Tenants in Chief and Knight service, Oxford, 1932

_ Codfrey, J: The Unholy Crusade, London, 1980

_ Conder, Cloud Reignier: The Latin Kingdom of Jerusalem
1099 –1291 A .D, London, 1997

_Couiton,G.G: Medieval panorama, New York, 1955

_ Davis, E.J: The Invasion of Egypt in A.D 1249 by Louis IX of France, London, 1897

_ Davis, R.H.C: The History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis, London, 1957

_ De Diogil, Odo: La Croisades de Louis VII Roi de France, Translation: Berry,V.G, New York, 1984

_ Dussaud, R: Topographie historique de la Syrie antique et Médiévale, Paris, 1927

_ Hill, C. A: History of Cyprus, 2 Vols. Cambridge, 1940

_ Hillenbrand, Carole: The Crusades Islamic Perspectives,
Edinburgh University Press, 1999

_ Hardwick: A History of the Christian Church,

_ Hussey, A.J.M: The Byzantine World, London, 1957

_ Joinville, Jean Sire de: Saint Louis King of France, Translation: James Hotton, London, 1868

_ Jones, A.M: Constantine and The Conversion of Europe, London, 1961

_ Lane – Poole, Stanley:

1_ Saladin and the Fall of The Kingdom of Jerusalem, Cheats, Beirut , 1964

2_ A History of Egypt in the middle ages, London, 1936

3_ The Mohammedan dynasties, London, 1958

_Lang, David: Armenia Cradle of Civilization, London 1978

_ Lewis, Bernard:

1_ Saladin and Assassins, Bulletin of the School of Oriental and African studies, University of London, Vol. XV, part: 2, London 1959

2_ The Assassins, London, 1967

_ Nersessian, S: The Kingdom of Cicilian Armenia, Philadelphia, 1962

_ Legman, G: The Guilt of The Templers, New York, 1966

_ Kantorowicz, E: Frederick The Second (1194_1250), London, 1957

_ King, E.J: The Knights Hospitallers in The Holy Land, London, 1931

_ Mayer, H: Bibliographie Zurggeschte der Kreuzzuge, Hanover 1956{ Two unpolished letters on the Syrian earthquake of 1202 } in Medieval and Middle Eastern studies, the Honor of Aziz Surial Atiya, ed Sami Hanna, 1972

_ Mc Killiam: A Chronicle of The Popes from St Peter to Pius x, London, 1972

_ Nersessian, S: The Kingdom of Cicilian Armenia in Setton, Wolf and Hazard, A History of Crusades, Vol. II, Philadelphia, 1962

_ Prawer, J:

1_ Colonization Activities in The Latin Kingdom of Jerusalem (Revue Belgique philologie et d, Histoire XXIX) 1951 P.P.:1063_118

2_ The Settlement of the Latens in Jerusalem, Speculum, Vol. xxv II, 1952

_ Rice, Tamara Talbot: The Seljuks in Asia Minor, Thames and Hudson, London, 1966

_ Runciman, Steven: A History of Crusades, Copy right, Cambridge University Press, 1954, Penguin Books, 1981

_ Pirenne, H: Economic and Social History of Medieval Europe, Translation from the French by: Halsey, F.D: London, 1961

_ Oman, Sir Charles: A History of The Art of War in The Middle Ages

(A.D. 378_1515), London, 1960

- Omran, Hazar & Dabbouram George: The Citadel of Damascus, Damascus, Unpublished, 2001

- Of Charter's, Falcher: A History of the expedition to Jerusalem,

_ Of Tyr, William: A History of Deed's done Beyond the Sea, 2 voles, Translation by: Babcock, E.A and Krey, A.C, New York, 1976

- Setton, K.M: A History of The Crusades, 2 Vols. Pennsylvania, 1958

_Smith, G.A: The Historical Geography of The Holy Land, London, 1935

_ Stevenson, W.B:

1_ The Crusaders in The East, Cambridge,1907. Copy right, Beirut 1968

2 _Meddle History, London, 1953

Nicola: Urban Life in Syria, Beirut, 1969 Ziadeh, -

المجلات والنشرات العَرَبِيّة:

- أعمال الأُسبُوع التاريخي الأوّل، الجمعية التاريخية السُّوريّة، حمص - تشرين ثاني **1991**.

1 - الحيارنة (د. صالح): الحملات الصَّليبيّة - التسمية والدوافع.

2 - مُصطفى (د. شاكر): حكاية الصليبيّات.

- أعمال ندوة خالد بن الوليد الدّوليّة، جامعة البعث، حمص - نيسان **1999**.

الحايك (مُنذر): آخر أيّام خالد بن الوليد.

- مجلّة المُؤرّخ العَرَبي، اتّحاد المُؤرّخين العَرَب بالقاهرة، العدد الثّاني - المُجلّد الأوّل - **2000**.

باذياب (د. نُورة عبد الله): السياسة الأمنية للسُّلطان السلجوقي كيقباد الأوّل وأثرها على التقدُّم الاقتصادي لبلاده.

المُحاضرات:

- مُبيّض (د. حسن): الإمبراطُور فريدريك وعلاقته بالشرق العَرَبي، مُحاضرة في الجمعية التاريخية السُّوريّة، حمص، **15 - 3 - 1998**.

لمحة إلى المؤلف

د .مُنذر مُحَمَّد الحايك:

- دُكتُوراه في تاريخ العرب والإسلام.
- عُضو دائم في اللِّجان العلميَّة، ومُنسِّق لأعمال المُؤتمرات التَّاريخيَّة والأثريَّة في جامعة البعث .
- رئيس سابق للجمعيَّة التَّاريخيَّة السُّوريَّة .
- أُستاذ مادَّة التَّاريخ في كُلِّيَّة الآداب، جامعة البعث (1992-2002) .
- باحث مُشارك في العديد من المُؤتمرات الدّوليَّة في الجامعات السُّورية والعَرَبيَّة.
- له أكثر من عشر مُؤلَّفات في التَّاريخ، والآثار، والتُّراث الشَّعبي.
- نَشَرَ عشرات البُحُوث التَّاريخيَّة، والأثريَّة، والاجتماعيَّة في المجلَّات العَرَبيَّة المُتخصِّصة.
- حَصَلَ على كثير من شهادات التَّقدير من عدَّة جامعات، ومراكز دراسات، وهيئات ثقافيَّة سُوريَّة، وعَرَبيَّة، وأجنبيَّة؛ تقديراً لنشاطاته الثَّقافيَّة، ومُشاركاته العلميَّة.